



مختصر تفسير الطبري
النجدي الصريح للأقوال والآثار
على جامع البيان عن تأويل آي القرآن



مختصر تفسير الطبري

لابن أبي كرات

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

رقم الإيداع: ٢٦٩٦٤

الترقيم الدولي: ٩-١٦-٦٧٢٠-٩٧٧-٩٧٨

الناشر

مكتبة العلوم والحكم

٠١٠٠١٦٢٢٦٦١

مختصر تفسير الطبري

النجديّة الصريح

للأقوال والآسانيد

عليّ جامع البيان عن تأويل آي القرآن

للعامة محمد بن جرير الطبري

المجلد الثاني

اختصاره

فضيلة الشيخ / محمد بن إبراهيم أبو كرات

مكتبة العلوم والحكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة سعادة الشيخ المفتي الفقيه العالم المؤدب أبي بكر بن محمد بن الحنبلي حفظه الله على طاعته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَا كَثُرَتْ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ﴾ [الكهف].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل في كتابه الكريم ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۚ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۚ﴾ وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﷺ القائل فيما رواه الحاكم بإسناد صحيح «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبدا كتاب الله وسنتي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض» وقال أيضا ﷺ فيما رواه أبو داود بإسناد صحيح «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم أما بعد: اعلم رحمنا الله تعالى وإياك أن معتقد أهل السنة والجماعة الذي كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هو ما ذكره الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في عقيدته [ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين، وأعتقد أن آيات القرآن في معنى الكلام كلها مستوية في الفضيلة، إلا أن لبعضها فضيلة الذكر وفضيلة الأجر كأم القرآن وقل هو الله أحد وآية الكرسي. هذا هو كلام المأربي رَحِمَهُ اللَّهُ.

هذا الكتاب فصل الله فيه أحكام كل شيء مما يصلح أمر العباد في دنياهم وأخراهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [النحل]

- ولا خلاف بين جزئياته بأي وجه من الوجوه، وآياته في المعنى الواحد لا يؤخذ الحكم في شيء منها منفردا بل يضم بعضها إلى بعض.

- ولأنه لا يفهم القرآن إلا وفق معناه وبيان الرسول ﷺ وعمل سلف الأمة.

- والقرآن لا يخالف ظاهرة باطنه ولا باطنه ظاهرة، ومن آتاه الله فهما في القرآن وعلمه التأويل يأتي بما يوافق القرآن لا بما يناقضه.

- وقد حفظ الله كتابه من التغيير والتبديل والزيادة أو النقصان إلى آخر الدنيا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

- والنسخ واقع في القرآن للحكم دون التلاوة والتلاوة دون الحكم، وللحكم والتلاوة معا.

- والقرآن ينسخ السنة متواترة وآحاد، والسنة كذلك تنسخ القرآن متواترة وآحادا. وكل واقع وكل من عند الله. [الكتاب: القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة المؤلف: عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف]

❖ حكم الإيمان والعمل بالقرآن الكريم:

القرآن الكريم الذي أنزله الله عز وجل على خاتم الأنبياء وأفضلهم محمد ﷺ هو آخر الكتب السماوية، وأعظمها، وأكملها، وأحكمها، أنزله الله تبارك وتعالى لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين.

فهو أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة وهو جبريل، على أفضل الخلق وهو محمد ﷺ، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وهو اللسان العربي المبين، فيجب على كل أحد الإيمان به، والعمل بأحكامه، والتأدب بآدابه، ولا يقبل الله العمل بغيره بعد نزوله، تكفل الله بحفظه، فسلم من التحريف والتبديل، ومن الزيادة والنقصان.

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

- وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٥] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

❖ دلالة آيات القرآن:

آيات القرآن فيها تبيان كل شيء، وهي إما خبر أو طلب:

❖ والخبر قسمان:

١ - إما خبر عن الخالق وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

٢ - وإما خبر عن المخلوق كالسما والارض، والعرش والكرسي، والإنسان والحيوان، والجماد والنبات، والجنة والنار، وأخبار الأنبياء والرسل وأتباعهم وأعدائهم، وجزاء كل فريق ونحو ذلك.

❖ والطلب قسمان:

١ - إما أمر بعبادة الله وحده، وطاعة الله ورسوله، وفعل ما أمر الله به كالصلاة والصيام وغير ذلك من أوامر الله.

٢ - وإما نهي عن الشرك بالله، وتحذير مما حرم الله كالربا والفواحش وغير ذلك مما نهى الله عنه.

- فله الحمد والشكر، وله المنة والفضل، حيث أرسل إلينا أفضل رسله، وأنزل علينا أفضل كتبه، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

- وقال الله تعالى: ﴿شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ رَيْثُهَا يُضَيُّءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

❖ حكم من استهان بالقرآن أو سبه:

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما أو جحدهما أو حرفاً منه أو آية أو كذب به أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه فهو كافر عند أهل العلم بإجماع، قال تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت]

فاحذر: من إلقاء المصحف أو بعضه ولو كلمة وكذا حرقة استخفافاً لا صوتاً ومثل إلقائه أو تركه بمكان قدر ولو كان طاهراً كبصاق أو تلطيخه به ومثل المصحف (الحديث - وأسماء الله تعالى - وكتب الحديث وكذا كتب الفقه) إن كان ذلك على وجه الاستخفاف بالشرعية [الشرح الصغير وحاشية الكبير]

إن تفسير ابن جرير الطبري هو عمدة التفسير، وإن أعظم ما تنفق فيه الأعمار هو تدبر القرآن الكريم وإتباع نوره وهداه وهو من أعظم أسباب إلانة القلب واستدرار الدمع وإحضار الخشية وأبعث على التوبة ومعلوم أن تدبره مفتاح للعلوم والمعارف وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم وبه يزداد الإيمان بالقلب وترسخ شجرته من و خلال تدبره يتعرف على صفات الرابحين فيجتهد على تحصيلها ويجاهد في الدعوة إليها فضلاً عن تعرفه على صفات الخاسرين عبودية لله تعالى ويحذر الآخرين منها على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة ثم إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تعالى قال (ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ بعقله وتدبره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة وشفاء القلب والبركة والمنفعة ما لم يجده في شيء من الكلام لا نظاماً ولا نثراً وقد قال الإمام مقاتل بن سليمان في مقدمة تفسيره من قرأ القرآن فلم يعلم تأويله فهو أمة وقال العلامة محمد رشيد رضا في تفسيره المنار لو أن المسلمين استقاموا على تدبر القرآن والاهتداء به في كل زمان لما فسدت أخلاقهم وآدابهم ولما زال ملكهم وسلطانهم ولما صاروا عالة في معاشهم وأسبابها على سواهم.

وأحكام الإسلام موجودة في القرآن ولكن منها ما يظهر بأدنى نظر لجلاء النص فيه، ومنها ما يحتاج لجلاء نظر لخفاء النص فيه.

وتلك موازنة عكسية إذا برز الحكم قلت الحاجة للبصيرة، وإذا خفي الحكم زادت الحاجة إليها، وإلا فالحكم موجود بالنص أو بالاستنباط، وهذا من المراد بقوله جل ثناؤه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل]

وإذا عميت البصائر عن الحجج كان حالها كحال البصر الأعمى عن الطريق، وإذا أخذ الإنسان العاقل العارف بلغة القرآن بأمرين فهم منه ما لا يفهمه غيره وفتح الله عليه ما لم يفتحه على غيره.

الأمر الأول: حسن القصد في طلب الحق. الأمر الثاني: إدامة البصر وإطالة التأمل في القرآن.

❁ وختاماً..

قلت: ولما وقف أخي الحبيب في الله فضيلة الداعية المبارك الشيخ: محمد بن إبراهيم أبو كرات على حقيقة ما سلفت الإشارة إليه.

شمر عن ساعد الجد والاجتهاد ليأخذ بيد نفسه والمسلمين عامة وطلبة العلم خاصة إلى العودة إلى الوحيين بفهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فاستعان بالله عَزَّوَجَلَّ منطلقاً من قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وعكف على تفسير الإمام بن جرير الطبري ليقربه لعموم الأمة وذلك بتجريده للأقوال والأسانيد ولم يزد فيه حرفاً على ما خط وربما أورد بعض الرواية لما فيها من الدراية بمراد المفسرين من تأويل الآية معلقة دون إيراد الأسانيد كما نزع ما ورد من الأسرار اللغوية لتحقيق المراد من الاختصار ولم يتعرض للحكم على الأحاديث.

فجزى الله الشيخ خيراً فإني أحسبه والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً أنه من المخلصين الذين تحروا الصدق وتحلوا بالعمل وحين الخلق وقد من المنان عليه بصحة الاعتقاد والبعد عن التحريف والتجرد عن الهوى

وآمل في الطبعة الجديدة تزداد الهمة فينبه على القراءة الشاذة حيثما وجدت، والحكم على الأحاديث مرفوعة كانت أو موقوفة على حسب قواعد أهل الصنعة في الحديث مع الإنباه لتفادي التصحيفات الموجودة

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلی أن يثقل ميزان حسنات الإمام بن جرير الطبري والشيخ محمد بن إبراهيم أبو كرات على ما بذل من جهد مشكور وصلّ اللهم وسلم وبارك على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه الراجي عفو مولاه

أبي بكر بن محمد بن الحنبلي

في غرة رجب الحرام للعام الحادي والأربعين بعد المائة الرابعة والألف

من هجرة الرسول ﷺ

مقدمة المصنف

الحمد لله منزل الكتاب الذي أجرى بقدرته السحاب و أخضع لعظمته الرقاب وزلل بلطفه الشدائد الصعاب وأنعم بعلمه وتفضل على أولي الألباب، والصلاة والسلام على خير الأحاب نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الحساب

وبعد: فقد من العلي القدير على عبده الفقير بخدمة كتابه الجليل بتجريد (سيد التفاسير) من الأقوال والأسانيد والحشو المزيد على ما يبغيه طالب العلم والمريد لزبدة تفسير الكتاب المجيد، والوقوف على ما رамه مصنف التأويل أبي جعفر الطبري بعد بحث وعناء شديد فجزاه الله عنا وعن الإسلام خير ما يجازي العبيد.

فلم أزد فيه حرفاً على ما خط ولا خالفت فيه الخط، وربما أوردت بعض الرواية لما فيها من الدراية بمراد المفسرين من تأويل الآية معلقة دون ذكر الأسانيد، ونزعت ما ورد من الأسرار اللغوية، لتحقيق المراد من الاختصار والله هو العزيز الغفار، راجياً بذلك، حفظ المراد من التأويل بدون إفراط أو تقصير، سائلاً العلي القدير القبول واليسير وأن ينفع بهذا الجهد اليسير كل من رام علوم التفسير، إنه بالإجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل

كتبه الفقير لعفوري

محمد بن إبراهيم أبوكرات

القاهرة ١٧: ٢٠: ١٢: ٢٠

ترجمة ابن جرير الطبري

✽ اسمه ونسبه وكنيته:

هو العالم المجتهد المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ علامة وقته محمد جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر ثم الأُملي، وقيل يزيد بن خالد الطبري من أهل آمل طبرستان، وإليها نسبته، ولد رَحْمَةُ اللَّهِ فِي آخِرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ.

✽ ثناء العلماء عليه:

قال عنه الحافظ أبو بكر البغدادي رَحْمَةُ اللَّهِ (كان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفة فضله وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره وكان حافظاً للكتاب عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام عارفاً بأيام الناس وأخبارهم وله كتاب (المشهور في تاريخ الأمم والملوك) وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله وكتاب سماه (تهذيب الآثار) لم أر سواه في معناه إلا أنه لم يتمه وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه.

وقال ابن خزيمة بعد استعارته كتاب (جامع البيان) من أبي بكر بن بالويه ورده بعد سنين: قد نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير.

وقال الحسين بن علي التميمي لما رجعت من بغداد إلى نيسبور سألني ابن خزيمة فقال لي: ممن سمعت ببغداد؟ فذكرت له جماعة ممن سمعت منهم فقال: هل سمعت من بن جرير شيئاً؟ فقلت له لا فقال: لو سمعت منه لكان خيراً لك من جميع من سمعت منه

وقال أبو حامد الإسفراييني: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير بن جرير لم يكن ذلك كثير

وقال شيخ الإسلام بن تيمية: وأما التفاسير التي في أيدي الناس فاصحها (تفسير محمد ابن جرير الطبري) فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة ولا ينقل عن

المتهمين كمقاتل بن بكير والكلبي.

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي عن تفسير الطبري: وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط فهو يفوقها بذلك

وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في (طبقات الفقهاء) في جملة المجتهدين وقال عنه الذهبي: كان من أفراد الدهر علما وذكاء وكثرة تصانيف قل أن ترى العيون مثله كان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف علامة في التاريخ وأيام الناس عارفاً بالقراءات باللغة وغير ذلك

❖ أما شيوخه:

فأكثر من ستين شيخاً من كبار العلماء في الفقه والتفسير والسير وغير ذلك وله تلامذة أصبحوا من كبار أهل العلم

❖ أما مصنفاته:

فقد جاوزت الأربعين مصنف في شتى العلوم الشرعية

❖ وفاته:

توفي رَحِمَهُ اللهُ عَشِيَّةَ يَوْمِ الْأَحَدِ لِيَوْمَيْنِ بَقِيََا مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ عَشْرِ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَقَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ سَنَةً بِخَمْسٍ أَوْ سِتِّ سِنِينَ، وَدُفِنَ فِي رَحْبَةِ يَعْقُوبَ بِبَغْدَادَ وَقَدْ رَثَاهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالْأَدَبِ

رحم الله شيخنا ورضي عنه وارضاه وقدس روحه وطيب ثراه وجمعنا في الجنة وأياه

اخْصُصَ التَّرْجِمَةَ
مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَبُو كَرَاتٍ
مَجْنَصُ تَفْسِيرِ الطَّبْرِي

تفسير سورة النساء

القول في تفسير السورة التي يذكر فيها النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسِّرْ

القول في تأويل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: احذروا، أيها الناس، ربكم في أن تخالفوه فيما أمركم وفيما نهاكم، فيحل بكم من عقوبته ما لا قبّل لكم به. ثم وصف تعالى ذكره نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، مُعَرِّفًا عباده كيف كان مُبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة، ومنبِّههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإن بُعد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له، فقال: "الذي خلقكم من نفس واحدة"، يعني: من آدم.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "وخلق منها زوجها"، وخلق من النفس الواحدة زوجها يعني بـ"الزوج"، الثاني لها. وهو فيما قال أهل التأويل، امرأتها حواء.

وأما قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، فإنه يعني: ونشر منهما، يعني من آدم وحواء "رجالًا كثيرًا ونساء"، قد رآهم، كما قال جل ثناؤه: ﴿كَأَلْفَرَّاشٍ الْمُبْتُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ وأما تأويله: واتقوا الله، أيها الناس، الذي إذا سأل بعضكم بعضًا سأل به، فقال السائل للمُسئول: "أسألك بالله، وأنشدك بالله، وأعزم عليك بالله"، وما أشبه ذلك. يقول تعالى ذكره: فكما تعظمون، أيها

الناس، رَبِّكُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ حَتَّى تَرَوْا أَنَّ مِنْ أَعْطَاكُمْ عَهْدَهُ فَأَخْفَرَكُمْوهُ، فَقَدْ أَتَى عَظِيمًا. فَكَذَلِكَ فَعَظَّمُوهُ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ، وَاجْتِنَابَكُمْ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ مِنْ مَخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ أَوْ نَهَاكُمْ عَنْهُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: "وَالْأَرْحَامُ"، فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ. وَالصَّوَابُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، بِمَعْنَى: وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوَهَا.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا. ويعني بقوله: "عليكم"، على الناس الذين قال لهم جل ثناؤه: "يا أيها الناس اتقوا ربكم"، والمخاطب والغائب إذا اجتمعوا في الخبر، فإن العرب تخرج الكلام على الخطاب، فتقول: إذا خاطبت رجلاً واحداً أو جماعة فعلت هي وآخرون غُيِبَ معهم فعلاً "فعلتم كذا، وصنعتم كذا". ويعني بقوله: "رقيباً"، حفيظاً، مُحْصِيّاً عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ، مُتَفَقِّداً رِعَايَتَكُمْ حَرَمَةَ أَرْحَامِكُمْ وَصِلَتَكُمْ إِيَّاهَا، وَقَطْعَكُمْوَهَا وَتَضْيِيعَكُمْ حَرَمَتَهَا

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره أوصياء اليتامى. يقول لهم: وأعطوا يا معشر أوصياء اليتامى: اليتامى أموالهم إذا هم بلغوا الحلم، وأونس منهم الرشد قال أبو جعفر: ثم اختلف أهل التأويل في صفة تبديلهم الخبيث كان بالطيب، الذي نهوا عنه، ومعناه. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، قول من قال: تأويل ذلك: ولا تبدلوا أموال أيتامكم -أيها الأوصياء- الحرام عليكم الخبيث لكم، فتأخذوا رفاعها وخيارها وجيادها. بالطيب الحلال لكم من أموالكم أي لا تأخذوا الرديء الخسيس بدلاً منه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: ولا تخلطوا أموالهم -يعني: أموال اليتامى بأموالكم- فتأكلوها مع أموالكم فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] قال: فخالطوهم واتقوا.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "إنه" كان حوباً كبيراً، إن أكلكم أموال أيتامكم، حوبٌ كبير. و"الهاء" في قوله: "إنه" دالة على اسم الفعل، أعني "الأكل". وأما "الحوب" ، فإنه الإثم. و"الكبير" العظيم. فمعنى ذلك: إن أكلكم أموال اليتامى مع أموالكم، إثم عند الله عظيم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ أَلا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف

أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بتأويل الآية، قول من قال: تأويلها: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذاكم فخافوا في النساء، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن، من واحدة إلى الأربع، فإن خفتم الجورَ في الواحدة أيضًا، فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيما نكحكم، فإنه أحرى أن لا تجوروا عليهن". وقد بينا فيما مضى قبل أن معنى "الإقسط" في كلام العرب: العدل والإنصاف.

وأما "اليتامى"، فإنها جمع لذكران الأيتام وإناتهم في هذا الموضع. وأما قوله: "فانكحوا ما طاب لكم من النساء"، فإنه يعني: فانكحوا ما حلَّ لكم منهن، دون ما حُرِّم عليكم منهن.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره وإن خفتم أن لا تعدلوا في مثني أو ثلاث أو رباعٍ فنكحتم واحدة، أو خفتم أن لا تعدلوا في الواحدة فتسررتم ملك أيما نكحكم، فهو "أذى" يعني: أقرب، "ألا تعولوا"، يقول: أن لا تجوروا ولا تميلوا. يقال منه: "عال الرجل فهو يعول عولًا وعيالة"، إذا مال وجار.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: وأعطوا النساء مهرهن عطيةً واجبة، وفريضة لازمة. وهذا أمرٌ من الله أزواج النساء المدخول بهن والمسمى لهن الصداق، أن يؤتوهن صدقاتهن، دون المطلقات قبل الدخول ممن لم يسم لها في عقد النكاح صداق.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن وهب لكم، أيها الرجال، نساؤكم شيئًا من صدقاتهن، طيبة بذلك أنفسهن، فكلوه هنيئًا مريئًا وأما قوله: "هنيئًا"، فإنه مأخوذ من: "هنأت البعير بالقطران"، إذا جرب فعولج به فكأن معنى قوله: "فكلوه هنيئًا مريئًا"، فكلوه دواء شافيًا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "السفهاء" الذين نهى الله جل ثناؤه عباده أن يؤتوهم أموالهم. وقال أبو جعفر: والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا، أن الله جل ثناؤه عم بقوله: "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم"، فلم يخص سفهاءً دون سفيه. فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيهًا ماله، صبيًا صغيرًا كان أو رجلًا كبيرًا، ذكرًا كان أو أنثى. و"السفيه" الذي لا يجوز لوليّه أن يؤتيه ماله، هو المستحقُّ الحجر بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ذلك.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذكره قد عم بالنهي عن إيتاء السفهاء الأموال كلها، ولم يخص منها شيئًا دون شيء، كان بيننا بذلك أن معنى قوله: "التي جعل الله لكم قيامًا"، إنما هو التي جعل الله لكم ولهم قيامًا، ولكن السفهاء دخل ذكرهم في ذكر المخاطبين

بقوله: "لكم". كالذي جاء عن ابن عباس قوله: "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا" يقول الله سبحانه: لا تعتمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم. ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم ورزقهم ومؤونتهم. قال: وقوله: "قيامًا"، بمعنى: قوامكم في معاشكم.

وتأويل قوله: "وارزقوهم فيها واكسوهم"، على التأويل الذي قلنا في قوله: "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم" وأنفقوا على سفهائكم من أولادكم ونسائكم الذين تجب عليكم نفقتهم من طعامهم وكسوتهم في أموالكم، ولا تسلطوهم على أموالكم فيهلكوها وعلى سفهائكم منهم، ممن لا تجب عليكم نفقته، ومن غيرهم الذين تلون أنتم أمورهم، من أموالهم فيما لا بد لهم من مؤنهم في طعامهم وشرابهم وكسوتهم. لأن ذلك هو الواجب من الحكم في قول جميع الحجة، لا خلاف بينهم في ذلك، مع دلالة ظاهر التنزيل على ما قلنا في ذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصحة، ما قاله ابن جريج. وهو أن معنى قوله: "وقولوا لهم قولًا معروفًا"، أي: قولوا، يا معشر ولاية السفهاء، قولًا معروفًا للسفهاء: "إن صلحتهم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم، وخلقنا بينكم وبينها، فاتقوا الله في أنفسكم وأموالكم"، وما أشبه ذلك من القول الذي فيه حث على طاعة الله، ونهي عن معصيته.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ابتلوا اليتامى"، واختبروا عقول يتاماكم في أفهامهم، وصلاحهم في أديانهم، وإصلاحهم أموالهم

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني قوله: "فإن آتستم منهم رشداً"، فإن وجدتم منهم وعرفتم واختلف أهل التأويل في معنى: "الرشد" الذي ذكره الله في هذه الآية. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بمعنى "الرشد" في هذا الموضع، العقل وإصلاح المال لإجماع الجميع على أنه إذا كان كذلك، لم يكن ممن يستحق الحجر عليه في ماله، وخوَر ما في يده عنه، وإن كان فاجرًا في دينه. وإذا كان ذلك إجماعاً من الجميع، فكذلك حكمه إذا بلغ وله مال في يدي وصي أبيه، أو في يد حاكم قد ولي ماله لطفولته واجب عليه تسليم ماله إليه، إذا كان عاقلاً بالغاً، مصلحاً لماله غير مفسد، لأن المعنى الذي به يستحق أن يوَلَّى على ماله الذي هو في يده، هو المعنى الذي به يستحق أن يمنع يده من ماله الذي هو في يد ولي، فإنه لا فرق بين ذلك. وفي إجماعهم على أنه غير جائز حيازة ما في يده في حال صحة عقله وإصلاح ما في يده، الدليل الواضح على أنه غير جائز منع يده مما هو له في مثل ذلك الحال،

وإن كان قبل ذلك في يد غيره، لا فرق بينهما. ومن فرق بين ذلك، عكس عليه القول في ذلك، وسئل الفرق بينهما من أصل أو نظير، فلن يقول في أحدهما قولاً إلا ألزم في الآخر مثله.

فإذ كان ما وصفنا من الجميع إجماعاً، فبيّن أن "الرشد" الذي به يستحق اليتيم، إذا بلغ فأونس منه، دفع ماله إليه، ما قلنا من صحة عقله وإصلاح ماله.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ قال أبو جعفر:

يعني بذلك تعالى ذكره ولاية أموال اليتامى. يقول الله لهم: فإذا بلغ أيتامكم الحلم، فأنستم منهم عقلاً وإصلاحاً لأموالهم، فادفعوا إليهم أموالهم، ولا تحبسوها عنهم. وأما قوله: "فلا تأكلوها إسرافاً"، يعني: بغير ما أباحه الله لك، وأصل "الإسراف": تجاوز الحد المباح إلى ما لم يُبح. وربما كان ذلك في الإفراط، وربما كان في التقصير. غير أنه إذا كان في الإفراط، فاللغة المستعملة فيه أن يقال: "أسرف يُسرف إسرافاً" وإذا كان كذلك في التقصير، فالكلام منه: "سرف يسرف سرفاً"، يقال: "مررت بكم فسرفتكم"، يراد منه: فسهوت عنكم وأخطأتكم،

القول في تأويل قوله: ﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وبداراً"،

ومبادرة. وهو مصدر من قول القائل: "بادرت هذا الأمر بمبادرة وبداراً". وإنما يعني بذلك جل ثناؤه ولاية أموال اليتامى. يقول لهم: لا تأكلوا أموالهم إسرافاً - يعني ما أباح الله لكم أكله - ولا مبادرة منكم بلوغهم وإيناس الرشد منهم، حذراً أن يبلغوا فيلزمكم تسليمه إليهم

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال أبو

جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "ومن كان غنياً"، من ولاية أموال اليتامى على أموالهم، فليستعفف بماله عن أكلها - بغير الإسراف والبدار أن يكبروا - بما أباح الله له أكلها به

قال أبو جعفر: ثم اختلف أهل التأويل في "المعروف" الذي أذن الله جل ثناؤه لولاية أموالهم أكلها به، إذا كانوا أهل فقر وحاجة إليها. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: "المعروف" الذي عناه الله تبارك وتعالى في قوله: "ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف"، أكل مال اليتيم عند الضرورة والحاجة إليه، على وجه الاستقراض منه فأما على غير ذلك الوجه، فغير جائز له أكله.

القول في تأويل قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني

بذلك جل ثناؤه: وإذا دفعتم، يا معشر ولاية أموال اليتامى، إلى اليتامى أموالهم "فأشهدوا عليهم"، يقول: فأشهدوا على الأيتام باستيفائهم ذلك منكم، ودفعكموه إليهم

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكفى بالله

كافيًا من الشهود الذين يشهدهم والي اليتيم على دفعه مال يتيمة إليه

القول في تأويل قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: للذكور من أولاد الرجل الميت حصة من ميراثه، وللإناث منهم حصة منه، من قليل ما خلف بعده وكثيره، حصة مفروضة، واجبة معلومة مؤقتة.

وذكر أن هذه الآية نزلت من أجل أن أهل الجاهلية كانوا يُورثون الذكور دون الإناث

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية، هل هو محكم أو منسوخ؟ قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال، "هذه الآية محكمة غير منسوخة، وإنما عنى بها الوصية لأولي قربي الموصي وعنى باليتامى والمساكين: أن يقال لهم قول معروف". واختلفوا في تأويل قوله: "وقولوا لهم قولًا معروفًا". فقال بعضهم: هو أمر من الله تعالى ذكره ولأهالي اليتامى أن يقولوا لأولي قرابتهم ولليتامى والمساكين إذا حضروا قسمتهم مال من ولوا عليه ماله من الأموال بينهم وبين شركائهم من الورثة فيها، أن يعتذروا إليهم، على نحو ما قد ذكرناه فيما مضى من الاعتذار وقال آخرون: بل المأمور بالقول المعروف الذي أمر جل ثناؤه أن يقال له، هو الرجل الذي يوصي في ماله و"القول المعروف"، هو الدعاء لهم بالرزق والغنى وما أشبه ذلك من قول الخير، وقد ذكرنا قائلًا ذلك أيضًا فيما مضى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك

قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بالآية، قول من قال، تأويل ذلك: وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم العيلة لو كانوا فرقوا أموالهم في حياتهم، أو قسموها وصية منهم بها لأولي قرابتهم وأهل اليتيم والمسكنة، فأبقوا أموالهم لولدهم خشية العيلة عليهم بعدهم، مع ضعفهم وعجزهم عن المطالب، فليأملوا من حضروه وهو يوصي لذوي قراسته - وفي اليتامى والمساكين وفي غير ذلك - بماله بالعدل وليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا، وهو أن يعترفوا ما أباح الله له من الوصية، وما اختاره للموصين من أهل الإيمان بالله وبكتابه وسنته. و"السديد" من الكلام، هو العدل والصواب.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى

ظلمًا"، يقول: بغير حق، "إنما يأكلون في بطونهم نارًا" يوم القيامة، بأكلهم أموال اليتامى ظلماً في الدنيا، نار جهنم "وسيصلون" بأكلهم "سعيًا"

وأما قوله: "وسيصلون سعيًا"، فإنه مأخوذ من "الصَّلا" و"الصَّلا" الاصطلاء بالنار، وذلك التسخن بها فتأويل الكلام إذا: وسيصلون نارًا مسعرة، أي: موقودة مشعلة شديداً حرّها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يوصيكم الله"، يعهد الله إليكم، "في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين"، يقول: يعهد إليكم ربكم إذا مات الميت منكم وخلف أولاداً ذكوراً وإناثاً، فولده الذكور والإناث ميراثه أجمع بينهم، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين، إذا لم يكن له وارث غيرهم، سواء فيه صغار ولده وكبارهم وإناثهم، في أن جميع ذلك بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "إن كن"، فإن كان المتروكات "نساء فوق اثنتين"، ويعني بقوله: "نساء"، بنات الميت، "فوق اثنتين"، يقول: أكثر في العدد من اثنتين "فلهن ثلثا ما ترك"، يقول: فلبناته الثلثان مما ترك بعده من ميراثه، دون سائر ورثته، إذا لم يكن الميت خلف ولداً ذكرًا معهن.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "وإن كانت"، [وإن كانت] المتروكة ابنة واحدة "فلها النصف"، يقول: فلتلك الواحدة نصف ما ترك الميت من ميراثه، إذا لم يكن معها غيرها من ولد الميت ذكرٌ ولا أنثى. وأما قوله: "ولأبويه"، فإنه يعني: ولأبوي الميت "لكل واحد منهما السدس"، من تركته وما خلف من ماله، سواءً فيه الوالدة والوالد، لا يزداد واحد منهما على السدس "إن كان له ولد"، ذكرًا كان الولد أو أنثى، واحدًا كان أو جماعة.

فإن قال قائل: فإن كان كذلك التأويل، فقد يجب أن لا يزداد الوالد مع الابنة الواحدة على السدس من ميراثه عن ولده الميت. وذلك إن قلته، قولٌ خلاف لما عليه الأمة مجمعة، من تصييرهم باقي تركه الميت مع الابنة الواحدة بعد أخذها نصيبها منها لوالده أجمع!

قيل: ليس الأمر في ذلك كالذي ظننت، وإنما لكل واحد من أبوي الميت السدس من تركته مع ولده، ذكرًا كان الولد أو أنثى، واحدًا كان أو جماعة، فريضة من الله له مسمأة. فإمّا زيد على ذلك من بقية النصف مع الابنة الواحدة إذا لم يكن غيره وغير ابنة للميت واحدة، فإنما زيدها ثانيًا بقرب عصبه الميت إليه، إذ كان حكم كل ما أبقته سهام الفرائض، فلاولي عصبه الميت وأقربهم إليه، بحكم ذلك لها على لسان رسول الله ﷺ، وكان الأب أقرب عصبه ابنه وأولاهها

به، إذا لم يكن لابنه الميت ابن.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلَا مِيرَاثَ لَهُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فإن لم يكن له"، فإن لم يكن للميت "ولد" ذكر ولا أنثى "وورثه أبواه"، دون غيرهما من ولد وارث "فلا ميره الثلث"، يقول: فلا ميره من تركته وما خلف بعده، ثلث جميع ذلك. فإن قال قائل: فمن الذي له الثلثان الآخران. قيل له الأب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَا مِيرَاثَ لَهُ﴾ قال أبو جعفر: إن قال قائل: وما المعنى الذي من أجله ذكر حكم الأبوين مع الإخوة، وترك ذكر حكمهما مع الأخ الواحد؟ قلت اختلاف حكمهما مع الإخوة الجماعة والأخ الواحد، فكان في إبانة الله جل ثناؤه لعباده حكمهما فيما يرثان من ولدهما الميت مع إخوته، غنى وكفاية عن أن حكمهما فيما ورثا منه غير متغير عما كان لهما، ولا أخ للميت ولا وارث غيرهما. إذ كان معلوماً عندهم أن كل مستحق حقاً بقضاء الله ذلك له، لا ينتقل حقه الذي قضى به له ربه جل ثناؤه عما قضى به له إلى غيره، إلا بنقل الله ذلك عنه إلى من نقله إليه من خلقه. فكان في فرضه تعالى ذكره للأمم ما فرض، إذا لم يكن لولدها الميت وارث غيرها وغير والده، ولا أخ الدلالة الواضحة للخلق أن ذلك المفروض - وهو ثلث مال ولدها الميت حق لها واجب، حتى يغير ذلك الفرض من فرض لها. فلما غير تعالى ذكره ما فرض لها من ذلك مع الإخوة الجماعة، وترك تغييره مع الأخ الواحد، علم بذلك أن فرضها غير متغير عما فرض لها إلا في الحال التي غير فيها من لزوم العباد طاعته، دون غيرها من الأحوال. ثم اختلف أهل التأويل في عدد الإخوة الذين عناهم الله تعالى ذكره بقوله: "فإن كان له إخوة". قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، أن المعني بقوله: "فإن كان له إخوة"، اثنان من إخوة الميت فصاعداً

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "من بعد وصية يوصي بها أو دين"، أن الذي قسم الله تبارك وتعالى لولد الميت الذكور منهم والإناث ولأبويه من تركته من بعد وفاته، إنما يقسمه لهم على ما قسمه لهم في هذه الآية من بعد قضاء دين الميت الذي مات وهو عليه من تركته، ومن بعد تنفيذ وصيته في بابها بعد قضاء دينه كله. فلم يجعل تعالى ذكره لأحد من ورثة الميت، ولا لأحد ممن أوصى له بشيء، إلا من بعد قضاء دينه من جميع تركته، وإن أحاط بجميع ذلك. ثم جعل أهل الوصايا بعد قضاء دينه شركاء ورثته فيما بقي لما أوصى لهم به، ما لم يجاوز ذلك ثلثه. فإن جاوز ذلك ثلثه، جعل الخيار في إجازة ما زاد على الثلث من ذلك أو رده إلى ورثته: إن أحبوا أجازوا الزيادة على ثلث ذلك، وإن شاءوا ردوه. فأما ما كان من ذلك إلى الثلث، فهو ماضٍ عليهم.

وعلى كل ما قلنا من ذلك، الأمة مجمعة. وقد روي عن رسول الله ﷺ بذلك خبر، وهو ما جاء عن عليّ رضي الله عنه قال، إنكم تقرأون هذه الآية: "من بعد وصية يوصي بها أو دين"، وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "أبائكم وأبنائكم"، هؤلاء الذين أوصاكم الله به فيهم - من قسمة ميراث ميتكم فيهم على ما سمي لكم وبينه في هذه الآية - آبائكم وأبنائكم "لا تدرُونَ أيهم أقرب لكم نفعًا"، يقول: أعطوهم حقوقهم من ميراث ميتهم الذي أوصيتكم أن تعطوهموها، فإنكم لا تعلمون أيهم أدنى وأشد نفعًا لكم في عاجل دنياكم وآجل أخراكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "فريضة من الله"، "وإن كان له إخوة فلأهمه السدس"، فريضة، يقول: سهامًا معلومة موقته بينها الله لهم. وأما قوله: "إن الله كان عليمًا حكيماً"، فإنه يعني جل ثناؤه: إن الله لم يزل ذا علم بما يصلح خلقه، أيها الناس، فانتهاوا إلى ما يأمركم، يصلح لكم أموركم. "حكيماً"، يقول: لم يزل ذا حكمة في تدبيره، وهو كذلك فيما يقسم لبعضكم من ميراث بعض، وفيما يقضي بينكم من الأحكام، لا يدخل حكمه خلل ولا زلل، لأنه قضاء من لا تخفى عليه مواضع المصلحة في البدء والعاقبة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوصِينَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه، "ولكم" أيها الناس "نصف ما ترك أزواجكم"، بعد وفاتهن من مال وميراث "إن لم يكن لهن ولد"، يوم يحدث بهن الموت، لا ذكر ولا أنثى "فإن كان لهن ولد"، أي: فإن كان لأزواجكم يوم يحدث لهن الموت، ولد ذكر أو أنثى "فلكم الربع مما تركن"، من مال وميراث، ميراثاً لكم عنهن "من بعد وصية يوصين بها أو دين"، يقول: ذلكم لكم ميراثاً عنهن، مما يبقى من تركتهن وأموالهن، من بعد قضاء ديونهن التي يمتن وهي عليهن، ومن بعد إنفاذ وصاياهن الجائزة إن كن أوصين بها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد" ولأزواجكم، أيها الناس، ربع ما تركتم بعد وفاتكم من مال وميراث، إن حدث بأحدكم حدث الوفاة ولا ولد له ذكر ولا أنثى "فإن كان لكم ولد"، يقول: فإن حدث بأحدكم حدث الموت وله ولد ذكر أو أنثى، واحداً كان الولد أو جماعة

"فلهن الثمن مما تركتم"، يقول: فلأزواجهن حينئذ من أموالكم وتركتمكم التي تخلفونها بعد وفاتكم، الثمن من بعد قضاء ديونكم التي حدث بكم حدث الوفاة وهي عليكم، ومن بعد إنفاذ وصاياكم الجائزة التي توصون بها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وإن كان رجلٌ أو امرأة يورث كلالَةً. واختلف أهل التأويل في "الكلالة".

والصواب في ذلك أن الكلالة: ورثة الميت دون الميت، ممن عدا والده وولده.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "وله أخ أو أخت"، وللرجل الذي يورث كلاله أخ أو أخت، يعني: أخاً أو أختاً من أمه قال أبو جعفر: وقوله: "لكل واحد منهما السدس"، إذا انفرد الأخ وحده أو الأخت وحدها، ولم يكن أخ غيره أو غيرها من أمه، فله السدس من ميراث أخيه لأمه. فإن اجتمع أخ وأخت، أو أخوان لا ثالث معهما لأمه، أو أختان كذلك، أو أخ وأخت ليس معهما غيرهما من أمهما فلكل واحد منهما من ميراث أخيهما لأمه السدس "فإن كانوا أكثر من ذلك"، يعني: فإن كان الإخوة والأخوات لأم الميت الموروث كلاله أكثر من اثنين "فهم شركاء في الثلث"، يقول: فالثلث الذي فرضت لاثنيهما إذا لم يكن غيرهما من أمهما ميراثاً لهما من أخيهما الميت الموروث كلاله، شركة بينهم، إذا كانوا أكثر من اثنين إلى ما بلغ عددهم على عدد رؤوسهم، لا يفضل ذكر منهم على أنثى في ذلك، ولكنه بينهم بالسوية.

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "من بعد وصية يوصي بها"، أي: هذا الذي فرضت لأخي الميت الموروث كلاله وأخته أو إخوته وأخواته من ميراثه وتركته، إنما هو لهم من بعد قضاء دين الميت الذي كان عليه يوم حدث به حدث الموت من تركته، وبعد إنفاذ وصاياهم الجائزة التي يوصي بها في حياته لمن أوصى له بها بعد وفاته

وأما قوله: "غير مضار"، فإنه يعني تعالى ذكره: من بعد وصية يوصي بها، غير مضار ورثته في ميراثهم عنه ويعني بقوله تعالى ذكره: "وصية من الله"، عهداً من الله إليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم "والله عليم"، يقول: والله ذو علم بمصالح خلقه ومضارهم، ومن يستحق أن يعطى من أقرباء من مات منكم وأنسابه من ميراثه، ومن يحرم ذلك منهم، ومبلغ ما يستحق به كل من استحق منهم قسماً، وغير ذلك من أمور عبادهم ومصالحهم "خليم"، يقول: ذو حلم على خلقه، وذو أناة في تركه معاجلتهم بالعقوبة على ظلم بعضهم بعضاً، في إعطائهم

الميراث لأهل الجلد والقوة من ولد الميت، وأهل الغناء والبأس منهم، دون أهل الضعف والعجز من صغار ولده وإنائهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "تلك حدود الله". فقال بعضهم: يعني به: تلك شروط الله.

وقال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما نحن مبينوه، وهو أن "حد" كل شيء: ما فصل بينه وبين غيره، ولذلك قيل لحدود الدار وحدود الأرضين: "حدود"، لفصلها بين ما حُدَّ بها وبين غيره. فكذلك قوله: "تلك حدود الله"، معناه: هذه القسمة التي قسمها لكم ربكم، والفرائض التي فرضها لأحيائكم من موتاكم في هذه الآية على ما فرض وبين في هاتين الآيتين، "حدود الله"، يعني: فصول ما بين طاعة الله ومعصيته في قسمكم موارث موتاكم، كما قال ابن عباس. وإنما ترك "طاعة الله"، والمعنى بذلك: حدود طاعة الله، اكتفاء بمعرفة المخاطبين بذلك بمعنى الكلام من ذكرها. والدليل على صحة ما قلنا في ذلك قوله: "ومن يطع الله ورسوله"، والآية التي بعدها: "ومن يعص الله ورسوله".

فتأويل الآية إذاً: هذه القسمة التي قسم بينكم، أيها الناس، عليها ربكم موارث موتاكم، فصول فصل بها لكم بين طاعته ومعصيته، وحدود لكم تنتهون إليها فلا تتعدوها، ليعلم منكم أهل طاعته من أهل معصيته، فيما أمركم به من قسمة موارث موتاكم بينكم، وفيما نهاكم عنه منها. ثم أخبر جل ثناؤه عما أعد لكل فريق منهم فقال لفريق أهل طاعته في ذلك: "ومن يطع الله ورسوله" في العمل بما أمره به، والانتهاه إلى ما حُدَّ له في قسمة الموارث وغيرها، ويجتنب ما نهاه عنه في ذلك وغيره "يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار".

فقوله: "يدخله جنات"، يعني: بساتين تجري من تحت غروبها وأشجارها الأنهار "خالدين فيها"، يقول: باقين فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يفنون، ولا يُخرجون منها "وذلك الفوز العظيم". يقول: وإدخال الله إياهم الجنان التي وصفها على ما وصف من ذلك "الفوز العظيم"، يعني: الفلاح العظيم وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يُعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "ومن يعص الله ورسوله" في العمل بما أمره به من قسمة الموارث على ما أمره بقسمة ذلك بينهم وغير ذلك من فرائض الله، مخالفاً أمرهما إلى ما نهاه عنه "ويتعدَّ حدوده"، يقول: ويتجاوز فصول طاعته التي جعلها تعالى فاصلة بينها وبين معصيته، إلى ما نهاه عنه من قسمة تركات موتاهم بين ورثتهم وغير ذلك من حدوده

"يدخله نارًا خالدًا فيها"، يقول: باقيًا فيها أبدًا لا يموت ولا يخرج منها أبدًا "وله عذاب مهين"، يعني: وله عذاب مذل من عذب به مُخْزٍ له. وبنحو ما قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل.

فإن قال قائل: أو مُخَلَّدٌ في النار من عصى الله ورسوله في قسمة المواريث؟ قيل: نعم، إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكًا في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحادًا الله ورسوله في أمرهما على ما ذكر ابن عباس من قول من قال حين نزل على رسول الله ﷺ قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إلى تمام الآيتين: أَيُورَثُ من لا يركب الفرس ولا يقاتل العدو ولا يحوز الغنيمة، نصف المال أو جميع المال؟ استنكارًا منهم قسمة الله ما قسم لصغار ولد الميت ونسائه وإنث ولده ممن خالف قسمة الله ما قسم من ميراث أهل الميراث بينهم على ما قسمه في كتابه، وخالف حكمه في ذلك وحكم رسوله، استنكارًا منه حكمهما، كما استنكره الذين ذكر أمرهم ابن عباس ممن كان بين أظهر أصحاب رسول الله ﷺ من المنافقين الذين فيههم نزلت وفي أشكالهم هذه الآية فهو من أهل الخلود في النار، لأنه باستنكاره حكم الله في تلك، يصير بالله كافرًا، ومن ملة الإسلام خارجًا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ دَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "واللاتي يأتين الفاحشة" والنساء اللاتي يأتين بالزنا، أي يزنين "من نسائك"، وهن محصنات ذوات أزواج أو غير ذوات أزواج "فاستشهدوا عليهن أربعة منكم"، يقول: فاستشهدوا عليهن بما أتين به من الفاحشة أربعة رجال من رجالكم، يعني: من المسلمين "فإن شهدوا" عليهن "فامسكوهن في البيوت"، يقول: فاحبسوهن في البيوت "حتى يتوفاهن الموت"، يقول: حتى يمتن "أو يجعل الله لهن سبيلًا"، يعني: أو يجعل الله لهن مخرجًا وطريقًا إلى النجاة مما أتين به من الفاحشة. كالذي جاء عن عبادة بن الصامت قال: قال نبي الله ﷺ: "خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا بالثيب بالثيب تجلد مئة وترجم بالحجارة، وال بكر جلد مئة ونفي سنة".

وقوله: "أو يجعل الله لهن سبيلًا"، كما جاء في الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ: أن السبيل التي جعلها الله جل ثناؤه للثيبين المحصنين، الرجم بالحجارة، وللبكرين جلد مئة ونفي سنة

القول في تأويل قوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمُ﴾، والرجل والمرأة اللذان يأتياها، يقول: يأتيان الفاحشة. و"الهاء" و"الألف" في قوله: "يأتياها" عائدة على "الفاحشة" التي في قوله: "واللاتي يأتين الفاحشة من

نسائكم". والمعنى: واللذان يأتیان منكم الفاحشة فأذوهما.

ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: "واللذان يأتیانها منكم"، قول من قال: "عني به البكران غير المحصنين إذا زنيا، وكان أحدهما رجلا والآخر امرأة"، لأنه لو كان مقصودًا بذلك قصد البيان عن حكم الزناة من الرجال، كما كان مقصودًا بقوله: "واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم" قصد البيان عن حكم الزواني، لقليل: "والذين يأتونها منكم فأذوهم"، أو قيل: "والذي يأتيتها منكم"، كما قيل في التي قبلها: "واللاتي يأتين الفاحشة"، فأخرج ذكرهن على الجميع، ولم يقل: "واللتان يأتیان الفاحشة".

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "الأذى" الذي كان الله تعالى ذكره جعله عقوبة للذين يأتیان الفاحشة، من قبل أن يجعل لهما سبيلا منه.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره كان أمر المؤمنين بأذى الزانين المذكورين، إذا أتيا ذلك وهما من أهل الإسلام. و"الأذى" قد يقع لكل مكروه نال الإنسان، من قول سيئ باللسان أو فعل. وليس في الآية بيان أي ذلك كان أمر به المؤمنون يومئذ، ولا خبر به عن رسول الله ﷺ من نقل الواحد ولا نقل الجماعة الموجب مجيئهما قطع العذر. وقال جماعة من أهل التأويل: إن الله سبحانه نسخ بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، قوله: "واللذان يأتیانها منكم فأذوهما".

وأما قوله: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾، فإنه يعني به جل ثناؤه: فإن تابا من الفاحشة التي أتيا فراجعا طاعة الله بينهما "وأصلحا"، يقول: وأصلحا دينهما بمراجعة التوبة من فاحشتهم، والعمل بما يرضي الله "فأعرضوا عنهما"، يقول: فاصفحوا عنهما، وكفوا عنهما الأذى الذي كنت أمرتكم أن تؤذوهما به عقوبة لهما على ما أتيا من الفاحشة، ولا تؤذوهما بعد توبتهما. وأما قوله: "إن الله كان توابًا رحيمًا"، فإنه يعني: إن الله لم يزل راجعًا لعبيده إلى ما يحبون إذا هم راجعوا ما يحب منهم من طاعته "رحيمًا" بهم، يعني: ذا رحمة ورأفة.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني

بقوله جل ثناؤه: "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة"، ما التوبة على الله لأحد من خلقه، إلا للذين يعملون السوء من المؤمنين بجهالة "ثم يتوبون من قريب"، يقول: ما الله برافع لأحد من خلقه إلى ما يحبه من العفو عنه والصفح عن ذنوبه التي سلفت منه، إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالة منهم وهم برهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعة الله ويتوبون منه

إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار وترك العود إلى مثله من قبل نزول الموت بهم. وذلك هو "القريب" الذي ذكره الله تعالى ذكره فقال: "ثم يتوبون من قريب". والمعنى: إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء، وعملهم السوء هو الجهالة التي جهلوا بها، عامدين كانوا للإثم، أو جاهلين بما أعد الله لأهلها.

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى: "القريب" في هذا الموضع. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: تأويله: ثم يتوبون قبل مماتهم، في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى ونهيه، وقبل أن يغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرة وغم الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة، لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم منه على ترك المعادة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعادة: فأما إذا كان بكرب الموت مشغولاً وبغم الحشرة مغموراً، فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوباً. ولذلك قال من قال: "إن التوبة مقبولة، ما لم يغرغر العبد بنفسه"، فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقل الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأريب، فأحدث إنابة من ذنوبه، ورجعة من شروده عن ربه إلى طاعته، كان إن شاء الله ممن دخل في وعد الله الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم من قريب بقوله: "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب".

القول في تأويل قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "فأولئك"، فهؤلاء الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب "يتوب الله عليهم"، دون من لم يتب حتى غلب على عقله، وغمرته حشرة ميتته، فقال وهو لا يفقه ما يقول: "إني تبت الآن"، خداعاً لربه، ونفاقاً في دينه. ومعنى قوله: "يتوب الله عليهم"، يرزقهم إنابة إلى طاعته، ويتقبل منهم أوبتهم إليه وتوبتهم التي أحدثوها من ذنوبهم.

وأما قوله: "وكان الله عليماً حكيماً"، فإنه يعني: ولم يزل الله جل ثناؤه "عليماً" بالناس من عباده المنيبين إليه بالطاعة، بعد إدبارهم عنه، المقبلين إليه بعد التولية، وبغير ذلك من أمور خلقه "حكيماً"، في توبته على من تاب منهم من معصيته، وفي غير ذلك من تدبيره وتقديره، ولا يدخل أفعاله خلل، ولا يُخالطه خطأ ولا زلل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وليس التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله "حتى إذا حضر أحدهم الموت"، يقول: إذا حشر أحدهم بنفسه، وعاین ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه، قال وقد غلب على نفسه، وحيل بينه

وبين فهمه، بشغله بكرب حشرته وعرعرته "إني تبت الآن"، يقول: فليس لهذا عند الله تبارك وتعالى توبة، لأنه قال ما قال في غير حال توبة

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولا التوبة للذين يموتون وهم كفار فموضع "الذين" خفض، لأنه معطوف على قوله: "للذين يعملون السيئات".

وقوله: "أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً"، يقول: هؤلاء الذين يموتون وهم كفار "أعتدنا لهم عذاباً أليماً"، لأنهم من التوبة أبعد، لموتهم على الكفر. فمعنى قوله: "أعتدنا لهم"، أعددنا لهم "عذاباً أليماً"، يقول: مؤلماً موجعاً.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني تبارك وتعالى بقوله: "يا أيها الذين آمنوا"، يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله "لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا"، يقول: لا يحل لكم أن ترثوا نكاح نساء أقاربكم وآبائكم كرهًا.

فإن قال قائل: كيف كانوا يرثونهن؟ وما وجه تحريم وراثتهن؟ فقد علمت أن النساء مورثات كما الرجال مورثون!

قيل: إن ذلك ليس من معنى وراثتهن إذا هن متن فتركن مالا وإنما ذلك أنهن في الجاهلية كانت إحداهن إذا مات زوجها، كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره، ومنها نفسها، إن شاء نكحها، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يزوجه حتى تموت. فحرم الله تعالى ذلك على عباده، وحظر عليهم نكاح حلائل آبائهم، ونهاهم عن عضلهن عن النكاح. وبنحو القول الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله تعالى: "ولا تعضلوهن لتذهبن بعض ما آتيتهن" ، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله. قال أبو جعفر: قد بينا فيما مضى معنى "العضل" وما أصله، بشواهد ذلك من الأدلة.

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: "ولا تعضلوهن لتذهبن بعض ما آتيتهن" ، قول من قال: نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها والإضرار بها، وهو لصحبته كاره ولفراقها محبب، لتفدي منه ببعض ما آتاها من الصداق.

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: لا يحل لكم، أيها المؤمنون، أن تعضلوا نساءكم ضراراً منكم لهن، وأنتم لصحبتهن كارهون، وهن لكم طائعات، لتذهبن بعض ما آتيتهن من صدقاتهن "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"،

فيحل لكم حينئذ الضررُ بهن ليفتدين منكم.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى "الفاحشة" التي ذكرها الله جل ثناؤه في هذا الموضع. قال أبو جعفر: وأولى ما قيل في تأويل قوله: "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، أنه معنى به كل "فاحشة": من بداء باللسان على زوجها، وأذى له، وزناً بفرجها. وذلك أن الله جل ثناؤه عم بقوله: "إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، كل فاحشة متبينة ظاهرة. فكل زوج امرأة أتت بفاحشة من الفواحش التي هي زناً أو نشوز، فله عضلها على ما بين الله في كتابه، والتضييق عليها حتى تفتدي منه، بأي معاني الفواحش أتت، بعد أن تكون ظاهرة مبيّنة بظاهر كتاب الله تبارك وتعالى، وصحة الخبر عن رسول الله ﷺ، كالذي: عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. فأخبر ﷺ أن من حق الزوج على المرأة أن لا توطئ فراشه أحداً، وأن لا تعصيه في معروف، وأن الذي يجب لها من الرزق والكسوة عليه، وإنما هو واجب عليه إذا أدت هي إليه ما يجب عليها من الحق، بتركها إبطاء فراشه غيره، وتركها معصيته في معروف. ومعلوم أن معنى قول النبي ﷺ: "من حاكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً" إنما هو أن لا يمكن من أنفسهن أحداً سواكم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وعاشروهن بالمعروف"، وخالقوا، أيها الرجال، نساءكم وصاحبوهن "بالمعروف"، يعني بما أمرتكم به من المصاحبة، وذلك: إمساكنهن بأداء حقوقهن التي فرض الله جل ثناؤه لهن عليكم إياهن، أو تسريح منكم لهن بإحسان

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: لا تعضلوا نساءكم لتذهبوا ببعض ما آتيتوهن من غير ريبة ولا نشوز كان منهن، ولكن عاشروهن بالمعروف وإن كرهتموهن، فلعلكم أن تكرهوهن فتمسكوهن، فيجعل الله لكم في إمساكنكم إياهن على كره منكم لهن خيراً كثيراً، من ولد يرزقكم منهن، أو عطفكم عليهن بعد كراهتكم إياهن

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج"، وإن أردتم، أيها المؤمنون، نكاح امرأة مكان امرأة لكم تطلقونها "وآتيتم إحداهن"، يقول: وقد أعطيتم التي تريدون طلاقها من المهر "قنطاراً". و"القنطار" المال الكثير. وقد ذكرنا فيما

مضى اختلاف أهل التأويل في مبلغه، والصواب من القول في ذلك عندنا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: "تأخذونه"، تأخذون ما آتيتموهن من مهورهن "بهتاناً"، يقول: ظلماً بغير حق "وإثماً مبيناً"، يعني: وإثماً قد أبان أمر أخذه أنه بأخذه إياه لمن أخذه منه ظالم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وكيف تأخذونه"، وعلى أي وجه تأخذون من نسائكم ما آتيتموهن من صدقاتهن، إذا أردتم طلاقهن واستبدال غيرهن بهن أزواجاً "وقد أفضى بعضكم إلى بعض"، فتباشرتن وتلامستم. وهذا كلام وإن كان مخرجه مخرج الاستفهام، فإنه في معنى النكير والتغليظ، كما يقول الرجل لآخر: "كيف تفعل كذا وكذا، وأنا غير راضٍ به؟"، على معنى التهديد والوعيد. وأما "الإفضاء" إلى الشيء، فإنه الوصول إليه بالمباشرة له.

فتأويل الكلام إذ كان ذلك معناه: وكيف تأخذون ما آتيتموهن، وقد أفضى بعضكم إلى بعض بالجماع. وبنحو ما قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَخْذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ قال أبو جعفر: أي: ما وثقتن به لهن على أنفسكم، من عهد وإقرار منكم بما أقررتن به على أنفسكم، من إمساكن بمعروف، أو تسريحن بإحسان. وكان في عقد المسلمين النكاح قديماً فيما بلغنا - أن يقال لناكح: "الله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان!"

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ قال أبو جعفر: قد ذكر أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يخلفون على حلائل آبائهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فحرم الله تبارك وتعالى عليهم المَقَامَ عليهم، وعفا لهم عما كان سلف منهم في جاهليتهم وشركهم من فعل ذلك، لم يؤاخذهم به، إن هم اتقوا الله في إسلامهم وأطاعوه فيه. واختلف في معنى قوله: "إلا ما قد سلف".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، على ما قاله أهل التأويل في تأويله، أن يكون معناه: ولا تنكحوا من النساء نكاح آبائكم، إلا ما قد سلف منكم فَمَضَى في الجاهلية، فإنه كان فاحشة ومقْتاً وساء سبيلاً فيكون قوله: "من النساء" من صلة قوله: "ولا تنكحوا"، ويكون قوله: "ما نكح آبائكم" بمعنى المصدر، ويكون قوله: "إلا ما قد سلف" بمعنى الاستثناء المنقطع، لأنه يحسن في موضعه: "لكن ما قد سلف فمضى" "إنه كان فاحشة ومقْتاً وساء سبيلاً".

القول في تأويل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ٣٠﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: حُرِّمَ عليكم نكاح أمهاتكم فترك ذكر "النكاح"، اكتفاءً بدلالة الكلام عليه.

قال أبو جعفر: فكل هؤلاء اللواتي سَمَّاهن الله تعالى وَبَيَّنَّ تحريمهن في هذه الآية، مُحَرَّمَات، غيرُ جائز نكاحهن لمن حَرَّمَ الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمة، لا اختلاف بينهم في ذلك: إلا في أمهات نسائنا اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن، فإن في نكاحهن اختلافًا بين بعض المتقدمين من الصحابة: إذا بانَت الابنة قبل الدخول بها من زوجها، هل هُنَّ من المُبْهَمَات، أم هُنَّ مِنَ المشروط فيهن الدخول ببناتهن؟

فقال جميع أهل العلم متقدمهم ومتأخرهم: من المُبْهَمَات، وحرام على من تزوج امرأةً أُمُّها، دخل بامرأته التي نكحها أو لم يدخل بها. وقالوا: شرطُ الدخول في الرِّبِّيَّة دون الأم، فأما أُمُّ المرأة فمُطْلَقَةٌ بالتحريم. قالوا: ولو جاز أن يكون شرطُ الدخول في قوله: "وربائبكم اللاتي في حُجُوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن"، يرجع موصولاً به قوله: "وأمهات نسائكم"، جاز أن يكون الاستثناء في قوله: "والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم" من جميع المحرَّمات بقوله: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ"، الآية. قالوا: وفي إجماع الجميع على أن الاستثناء في ذلك إنما هو مما وَلِيَهُ من قوله: "والمحصنات"، أَيْبُنُ الدَّلَالَةِ على أن الشرط في قوله: "من نسائكم اللاتي دخلتم بهن"، مما وَلِيَهُ من قوله: "وربائبكم اللاتي في حُجُوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن"، دون أُمَّهَات نسائنا. وأما "الربائب" فإنه جمع "ربيبة"، وهي ابنة امرأة الرجل. قيل لها "ربيبة" لتربيته إياها واختلف أهل التأويل في معنى قوله: "من نسائكم اللاتي دخلتم بهن".

قال أبو جعفر: وأولى القولين عندي بالصواب في تأويل ذلك، ما قاله ابن عباس، من أن معنى: "الدخول" الجماع والنكاح.

وأما قوله: "فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم"، فإنه يقول: فإن لم تكونوا، أيها الناس، دخلتم بأمهات ربائبكم اللاتي في حُجُوركم فجامعتموهن حتى طلقتموهن "فلا جناح عليكم"، يقول: فلا حرج عليكم في نكاح من كان من ربائبكم كذلك.

وأما قوله: "وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم"، فإنه يعني: وأزواج أبنائكم الذين من أصلابكم. وهي جمع "حليلة" وهي امرأته. وقيل: سميت امرأة الرجل "حليلته"، لأنها تحل معه في فراش واحد. ولا خلاف بين جميع أهل العلم أن حليلة ابن الرجل، حرامٌ عليه نكاحها

بعقد ابنه عليها النكاح، دخل بها أو لم يدخل بها. فإن قال قائل: فما أنت قائل في حلال الأبناء من الرضاع، فإن الله تعالى إنما حرم حلال أبنائنا من أصلابنا؟ قيل: إن حلال الأبناء من الرضاع، وحلال الأبناء من الأصلاب، سواء في التحريم. وإنما قال: "وحلال أبنائكم الذين من أصلابكم"، لأن معناه: وحلال أبنائكم الذين ولدتموهم، دون حلال أبنائكم الذين تبنيتموهم وأما قوله: "وأن تجمعوا بين الأختين" فإن معناه: وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين عندكم بنكاح ف"أن" في موضع رفع، كأنه قيل: والجمع بين الأختين. "إلا ما قد سلف" لكن ما قد مضى منكم "إن الله كان غفوراً" لذنوب عباده إذا تابوا إليه منها "رحيماً" بهم فيما كلفهم من الفرائض، وخفف عنهم فلم يحملهم فوق طاقتهم. يخبر بذلك جل ثناؤه: أنه غفور لمن كان جمع بين الأختين بنكاح في جاهليته، وقبل تحريمه ذلك، إذا اتقى الله تبارك وتعالى بعد تحريمه ذلك عليه، فأطاعه باجتنابه رحيماً به وبغيره من أهل طاعته من خلقه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: حرمت عليكم المحصنات من النساء، إلا ما ملكت أيمانكم. واختلف أهل التأويل في "المحصنات" التي عناهن الله في هذه الآية.

قال أبو جعفر: فأما "المحصنات"، فإنهن جمع "مُحْصَنَة"، وهي التي قد مُنِعَ فرجها بزواج. يقال منه: "أُحْصِنَ الرجلُ امرأته فهو يُحْصِنُها إحصاناً"، و"حَصْنَتُ هي فهي تَحْصُنُ حَصَانَةً"، إذا عَفَّتْ "وهي حاصِنٌ من النساء"، عفيفة

ويقال أيضاً، إذا هي عَفَّتْ وحَفِظَتْ فرجها من الفجور: "قد أَحْصَنَتْ فرجها فهي مُحْصِنَة"، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢]، بمعنى: حفظته من الريبة، ومنعته من الفجور. وإنما قيل لحصون المدائن والقرى: "حُصُون"، لمنعها من أرادها وأهلها، وحفظها ما وراءها ممن بغاها من أعدائها. ولذلك قيل للدرع: "درع حَصِينَة".

فإذا كان أصل "الإحصان" ما ذكرنا من المنع والحفظ، فيبين أن معنى قوله: "والمحصنات من النساء"، والممنوعات من النساء حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم.

وإذا كان ذلك معناه، وكان الإحصان قد يكون بالحرية، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ويكون بالإسلام، كما قال تعالى ذكره: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ويكون بالعفة، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ٤] ويكون بالزوج ولم يكن تبارك وتعالى خصَّ محصنة دون محصنة في قوله: "والمحصنات من النساء" فواجب أن تكون كلُّ مُحْصَنَة بأيِّ معاني الإحصان كان إحصانها، حرماً علينا سفاحاً أو

نكاحًا إلا ما ملكته أيماننا منهم بشراء، كما أباحه لنا كتابُ الله جل ثناؤه، أو نكاح على ما أطلقه لنا تنزيل الله. فالذي أباحه الله تبارك وتعالى لنا نكاحًا من الحرائر: الأربع، سوى اللواتي حُرِّمَ علينا بالنسب والصهر ومن الإماء: ما سبينا من العدو، سوى اللواتي وافق معانهم معنى ما حُرِّمَ علينا من الحرائر بالنسب والصهر، فإنهن والحرائر فيما يحل ويحرم بذلك المعنى، متفقات المعاني وسوى اللواتي سبيناهن من أهل الكتابين ولهن أزواج، فإن السبأ يحلُّهن لمن سبأهن بعد الاستبراء، وبعد إخراج حق الله تبارك وتعالى الذي جعله لأهل الخمس منهن. فأما السفاح، فإن الله تبارك وتعالى حرَّمه من جميعهن، فلم يحلَّه من حُرَّة ولا أمة، ولا مسلمة، ولا كافرة مشركة.

القول في تأويل قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: كتابًا من الله عليكم، فأخرج "الكتاب" مُصَدَّرًا من غير لفظه. وإنما جاز ذلك لأن قوله تعالى: "حرِّمَ عليكم أمهاتكم"، إلى قوله: "كتاب الله عليكم"، بمعنى: كتب الله تحريم ما حرَّم من ذلك وتحليل ما حلل من ذلك عليكم، كتابًا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، ما نحن مبينوه. وهو أن الله جل ثناؤه بيَّن لعباده المحرَّمات بالنسب والصهر، ثم المحرمات من المحصنات من النساء، ثم أخبرهم جل ثناؤه أنه قد أحل لهم ما عدا هؤلاء المحرَّمات المبيِّنات في هاتين الآيتين، أن يبتغيه بأموالنا نكاحًا وملك يمين، لا سفاحًا.

القول في تأويل قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "محصنين"، أَعْفَاءً بابتغائكم ما وراء ما حرَّم عليكم من النساء بأموالكم "غير مسافحين"، يقول: غير مُزَانين

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "فما استمتعتم به منهن".

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من تأوَّله: فما نكحتموه منهن فجامعتموه، فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله متعة النساء على غير وجه النكاح الصحيح أو الملك الصحيح على لسان رسوله ﷺ. كما جاء عن الربيع بن سبرة الجُهَنِّي، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَضَيْنَا عُمَرَتَنَا، قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اسْتَمْتِعُوا مِنْ هَذِهِ النِّسَاءِ" قَالَ: وَالْإِسْتِمْتَاعُ عِنْدَنَا يَوْمَ التَّزْوِيجِ، قَالَ: فَعَرَضْنَا ذَلِكَ عَلَى النِّسَاءِ فَأَبَيْنَ إِلَّا أَنْ نَضْرِبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُنَّ أَجَلًا، قَالَ: فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "افْعَلُوا قَالَ: "فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنُ

عَمَّ لِي، وَمَعَهُ بُرْدَةٌ، وَمَعِيَ بُرْدَةٌ، وَبُرْدَتُهُ أَجُودُ مِنْ بُرْدَتِي، وَأَنَا أَشَبُّ مِنْهُ فَاتَيْنَا امْرَأَةً، فَعَرَضْنَا ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَأَعْجَبَهَا شَبَابِي، وَأَعْجَبَهَا بُرْدُ ابْنِ عَمِّي، فَقَالَتْ: بُرْدُ كَبُرْدٍ، قَالَ: فَتَزَوَّجْتَهَا، فَكَانَ الْأَجَلُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا عَشْرًا، قَالَ: فَبِتُّ عِنْدَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ غَادِيًّا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْبَابِ، وَالْحَجَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ يَقُولُ: "أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ كُنْتُ أَذْنْتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ مِنْ هَذِهِ النِّسَاءِ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ، فَلْيُخْلِ سَبِيلَهَا، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا"

وقد دللنا على أن المتعة على غير النكاح الصحيح حرام، في غير هذا الموضع من كتبنا، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ولا حرج عليكم، أيها الناس، فيما تراضيتُم به أنتم ونساؤكم من بعد إعطائهم أجورهم على النكاح الذي جرى بينكم وبينهن، من حطَّ ما وجب لهنَّ عليكم، أو إبراء، أو تأخير ووضع. وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

وأما قوله: "إن الله كان عليماً حكيماً"، فإنه يعني: إن الله كان ذا علم بما يُصلحكم، أيها الناس، في مناحكهم وغيرها من أموركم وأمور سائر خلقه، "حكيماً" فيما يدبر لكم ولهم من التدبير، وفيما يأمركم وينهاكم، لا يدخل حكمته خلل ولا زلل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى: "الطول" الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب، قول من قال: ومن لم يجد منكم سعة من مالٍ لنكاح الحرائر، فلينكح مما ملكت أيما نكح.

القول في تأويل قوله: ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك: ومن لم يستطع منكم، أيها الناس، طولا يعني من الأحرار "أن ينكح المحصنات"، وهن الحرائر "المؤمنات" اللواتي قد صدقن بتوحيد الله وبما جاء به رسول الله ﷺ من الحق.

وأما "الفتيات"، فإنهن جمع "فتاة"، وهن الشواب من النساء. ثم يقال لكل مملوكة ذات سنٍّ أو شابة: "فتاة"، والعبد: "فتى".

ثم اختلف أهل العلم في نكاح الفتيات غير المؤمنات، وهل عنى الله بقوله: "من فتياتكم المؤمنات"، تحريم ما عدا المؤمنات منهن، أم ذلك من الله تأديب للمؤمنين؟

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: هو دلالة على تحريم نكاح إماء أهل الكتاب، فإنهن لا يحللن إلا بملك اليمين. وذلك أن الله جل ثناؤه أحل نكاح الإماء بشروط، فما لم تجتمع الشروط التي سماهن فيهن، فغير جائز لمسلم نكاحهن.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم.

وتأويل ذلك: "ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات"، فلينكح بعضكم من بعض بمعنى: فلينكح هذا فتاة هذا.

ثم قال جل ثناؤه: "والله أعلم بإيمانكم"، أي: والله أعلم بإيمان من آمن منكم بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، فصدق بذلك كله منكم.

يقول: فلينكح من لم يستطع منكم طولاً لحرمة من فتياتكم المؤمنات. لينكح هذا المقتر الذي لا يجد طولاً لحرمة، من هذا الموسر، فتاته المؤمنة التي قد أبدت الإيمان فأظهرته، وكلوا سرائرهن إلى الله، فإن علم ذلك إلى الله دونكم، والله أعلم بسرائرهم وسرائرهن.

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "فانكحوهن"، فتزوجوهن وبقوله: "بإذن أهلهن"، بإذن أربابهن وأمرهم إياكم بنكاحهن ورضاهم ويعني بقوله: "وآتوهن أجورهن"، وأعطوهن مهورهن ويعني بقوله: "بالمعروف" على ما تراضيتن به، مما أحل الله لكم، وأباحه لكم أن تجعلوه مهوراً لهن.

القول في تأويل قوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "محصنات"، عفيفات "غير مسافحات"، غير مزاينات "ولا متخذات أخدان"، يقول: ولا متخذات أصدقاء على السفاح. وذكر أن ذلك قيل كذلك، لأن "الزواني" كن في الجاهلية، في العرب: المعلنات بالزنا، و"المتخذات الأخدان": اللواتي قد حبسن أنفسهن على الخليل والصديق، للفجور بها سراً دون الإعلان بذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلفت القراءة في قراءة ذلك.

فقرأ بعضهم: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ بفتح "الألف"، بمعنى: إذا أسلمن، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالإسلام. وقرأه آخرون: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ بمعنى: فإذا تزوجن، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالأزواج.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان في أمصار الإسلام، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ في قراءته الصواب. وقال ﷺ: "أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم". فلم يخصص بذلك ذات زوج منهن ولا غير ذات زوج. فالحدود واجبة على موالي الإمام إقامتها عليهن، إذا فجرن، بكتاب الله وأمر رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فإن أتين بفاحشة"، فإن أتت فتياتكم - وهن إماءكم - بعد ما أحصنن بإسلام، أو أحصنن بنكاح "بفاحشة"، وهي الزنا "فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب"، يقول: فعليهن نصف ما على الحرائر من الحد، إذا هن زنين قبل الإحصان بالأزواج. و"العذاب" الذي ذكره الله تبارك وتعالى في هذا الموضع، هو الحد، وذلك النصف الذي جعله الله عذاباً لمن أتى بالفاحشة من الإماء إذا هن أحصن: خمسون جلدة، ونفي ستة أشهر، وذلك نصف عام. لأن الواجب على الحرة إذا هي أتت بفاحشة قبل الإحصان بالزوج، جلد مئة ونفي حَوْلٍ. فالنصف من ذلك خمسون جلدة، ونفي نصف سنة. وذلك الذي جعله الله عذاباً للإماء المحصنات إذا هن أتين بفاحشة

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ذلك"، هذا الذي أبحت أيها الناس، من نكاح فتياتكم المؤمنات لمن لا يستطيع منكم طَوْلاً لنكاح المحصنات المؤمنات أبحته لمن خشي العنت منكم، دون غيره ممن لا يخشى العنت. واختلف أهل التأويل في هذا الموضع. قال أبو جعفر: والصواب من القول في قوله: "ذلك لمن خشي العنت منكم"، ذلك لمن خاف منكم ضرراً في دينه وبَدَنِهِ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: "وأن تصبروا"، أيها الناس، عن نكاح الإماء "خير لكم" "والله غفور" لكم نكاح الإماء أن تنكحوهن على ما أحل لكم وأذن لكم به، وما سلف منكم في ذلك، إن أصلحتم أمور أنفسكم فيما بينكم وبين الله "رحيم" بكم، إذ أذن لكم في نكاحهن عند الافتقار وعدم الطول للحرّة. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. و"أن" في قوله: "وأن تصبروا" في موضع رفع ب"خير"، بمعنى: والصبر عن نكاح الإماء خير لكم.

القول في تأويل قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يريد الله ليبين لكم"، حلاله وحرامه "ويهديكم سنن الذين من قبلكم"، يقول: وليسددكم "سنن الذين من قبلكم"، يعني: سُبُل من قبلكم من أهل الإيمان بالله وأنبيائه، ومناهجهم فيما حرم عليكم من نكاح الأمهات

والبنات والأخوات وسائر ما حرم عليكم في الآيتين اللتين بيّن فيهما ما حرم من النساء "ويتوب عليكم"، يقول: يريد الله أن يرجع بكم إلى طاعته في ذلك، مما كنتم عليه من معصيته في فعلكم ذلك قبل الإسلام، وقبل أن يوحى ما أوحى إلى نبيه من ذلك "عليكم"، ليتجاوز لكم بتوبتكم عما سلف منكم من قبيح ذلك قبل إنباتكم وتوبتكم "والله عليم"، يقول: والله ذو علم بما يصلح عباده في أديانهم ودنياهم وغير ذلك من أمورهم، وبما يأتون ويدرون مما أحل أو حرم عليهم، حافظ ذلك كله عليهم "حكيم" بتدبيره فيهم، في تصريفهم فيما صرّفهم فيه. واختلف أهل العربية في معنى قوله: "يريد الله ليعين لكم".

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: إن "اللام" في قوله: "يريد الله ليعين لكم"، بمعنى: يريد الله أن يبين لكم

القول في تأويل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: والله يريد أن يراجع بكم طاعته والإجابة إليه، ليعفو لكم عما سلف من آثامكم، ويتجاوز لكم عما كان منكم في جاهليتكم، من استحلالكم ما هو حرام عليكم من نكاح حلائل آبائكم وأبنائكم وغير ذلك مما كنتم تستحلونه وتأتونه، مما كان غير جائز لكم إتيانه من معاصي الله "ويريد الذين يتبعون الشهوات"، يقول: ويريد الذين يطلبون لذات الدنيا وشهوات أنفسهم فيها "أن تميلوا" عن أمر الله تبارك وتعالى، فتجوروا عنه بإتيانكم ما حرم عليكم وركوبكم معاصيه "ميلاً عظيماً"، جوراً وعدولاً عنه شديداً. وداخلاً في "الذين يتبعون الشهوات" اليهود، والنصارى، والزناة، وكل متبع باطلاً. لأن كل متبع ما نهاه الله عنه، فمتبع شهوة نفسه.

القول في تأويل قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يريد الله أن يخفف عنكم"، يريد الله أن يُيسر عليكم، بإذنه لكم في نكاح الفتيات المؤمنات إذا لم تستطيعوا طولا لحره "وخلق الإنسان ضعيفاً"، يقول: يسر ذلك عليكم إذا كنتم غير مستطيعي الطول للحرائر، لأنكم خلقتُم ضعفاءً عاجزةً عن ترك جماع النساء، قليلي الصبر عنه، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العنت على أنفسكم، ولم تجدوا طولا لحره، لئلا تزنوا، لقلّة صبركم على ترك جماع النساء. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا"، صدّقوا الله ورسوله "لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل"، يقول: لا يأكل بعضكم أموال بعض بما حرم

عليه، من الربا والقمار وغير ذلك من الأمور التي نهاكم الله عنها "إلا أن تكون تجارة".

قال أبو جعفر: ففي هذه الآية إبانة من الله تعالى ذكره عن تكذيب قول الجهلة من المتصوفة المنكرين طلب الأقوات بالتجارات والصناعات، والله تعالى يقول: "يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم"، اكتساباً منا ذلك بها وقول الله تبارك وتعالى: "عن تراض منكم"، في تجارة أو بيع، أو عطاءٍ يعطيه أحدٌ أحداً. واختلف أهل العلم في معنى "التراضي" في التجارة.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب في ذلك عندنا، قول من قال: إن التجارة التي هي عن تراض بين المتبايعين، ما تفرق المتبايعان عن المجلس الذي تواجبا فيه بينهما عقدة البيع بأبدانها، عن تراض منهما بالعقد الذي جرى بينهما، وعن تخيير كل واحد منهما صاحبه لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ كالذي جاء عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو يكون بيع خيار" وربما قال: "أو يقول أحدهما للآخر اختر".

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "ولا تقتلوا أنفسكم"، ولا يقتل بعضكم بعضاً، وأنتم أهل ملة واحدة، ودعوة واحدة، ودين واحد. فجعل جل ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعض. وجعل القاتل منهم قتيلاً في قتله إياه منهم بمنزلة قتله نفسه، إذ كان القاتل والمقتول أهل يد واحدة على من خالف ملتئماً. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله جل ثناؤه: "إن الله كان بكم رحيمًا"، فإنه يعني: إن الله تبارك وتعالى لم يزل "رحيمًا" بخلقه، ومن رحمته بكم كف بعضكم عن قتل بعض، أيها المؤمنون، بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظر أكل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتم وأهلك بعضكم بعضاً قتلاً وسلباً وغصباً.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "ومن يفعل ذلك عدوانًا".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معناه: ومن يفعل ما حرم الله عليه، من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾ إلى قوله: "ومن يفعل ذلك"، من نكاح المحرمات، وعضل المحرم عضلها من النساء، وأكل المال بالباطل، وقتل المحرم قتله من المؤمنين لأن كل ذلك مما وعد الله عليه أهله العقوبة.

وأما قوله: "عدوانًا"، فإنه يعني به تجاوزاً لما أباح الله له، إلى ما حرمه عليه "وُظْلَمًا"،

يعني: فعلا منه ذلك بغير ما أذن الله به، وركوبًا منه ما قد نهاه الله عنه. وقوله: "فسوف نُصليهِ نارًا"، يقول: فسوف نُورده نارًا يصلّي بها فيحترق فيها "وكان ذلك على الله يسيرًا"، يعني: وكان إصلاً فاعل ذلك النار وإحراقه بها، على الله سهلاً يسيرًا، لأنه لا يقدر على الامتناع على ربه مما أراد به من سوء. وإنما يصعب الوفاء بالوعد لمن توعد، على من كان إذا حاول الوفاء به قَدَر المتوعد من الامتناع منه. فأما من كان في قبضة موعده، فيسير عليه إمضاء حكمه فيه، والوفاء له بوعيده، غير عسير عليه أمرٌ أراد به.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى "الكبائر" التي وعد الله جل ثناؤه عباده باجتنابها تكفير سائر سيئاتهم عنهم.

قال أبو جعفر: وأولى ما قيل في تأويل "الكبائر" بالصحة، ما صحَّ به الخبر، عن رسول الله ﷺ، دون ما قاله غيره، وإن كان كل قائل فيها قولاً من الذين ذكرنا أقوالهم، قد اجتهد وبالغ في نفسه، ولقوله في الصحة مذهبٌ. فالكبائر إذن: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس المحرّم قتلها، وقول الزور وقد يدخل في "قول الزور"، شهادة الزور وقذف المحصنة، واليمين الغموس، والسحر ويدخل في قتل النفس المحرّم قتلها، قتل الرجل ولده من أجل أن يطعم معه والفرار من الزحف، والزنا بحليلة الجار. وإذ كان ذلك كذلك، صحَّ كل خبر روي عن رسول الله ﷺ في معنى الكبائر، وكان بعضه مصدّقاً بعضاً. وذلك أن الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "هي سبع" يكون معنى قوله حيثئذ: "هي سبع" على التفصيل ويكون معنى قوله في الخبر الذي روي عنه أنه قال: "هي الإشرار بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور" على الإجمال، إذ كان قوله: "وقول الزور" يحتمل معاني شتى، وأن يجمع جميع ذلك "قول الزور".

قال أبو جعفر: فمن اجتنب الكبائر التي وعد الله مجتبئها تكفير ما عداها من سيئاته، وإدخاله مُدْخَلَ كَرِيمًا، وأدّى فرائضه التي فرضها الله عليه، وجد الله لما وعده من وعدٍ منجزاً، وعلى الوفاء له ثابتاً. وأما قوله: "نكفر عنكم سيئاتكم"، فإنه يعني به: نكفر عنكم، أيها المؤمنون، باجتنابكم كبائر ما ينهاكم عنه ربكم، صغائر سيئاتكم يعني: صغائر ذنوبكم

وأما "المدخل الكريم"، فهو: الطيب الحسن، المكرّم بنفي الآفات والعاهات عنه، وبارتفاع الهموم والأحزان ودخول الكدر في عيش من دخله، فلذلك سماه الله كريماً

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تشتهوا ما فضل الله به بعضكم على بعض.

وذكر أن ذلك نزل في نساءٍ تمنين منازل الرجال، وأن يكون لهم ما لهم، فنهى الله عباده عن

الأماني الباطلة، وأمرهم أن يسألوه من فضله، إذ كانت الأماني تورث أهلها الحسد والبغي غير الحق. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام على هذا التأويل: ولا تتمنوا، أيها الرجال والنساء، الذي فضل الله به بعضكم على بعض من منازل الفضل ودرجات الخير، وليرض أحدكم بما قسم الله له من نصيب، ولكن سلوا الله من فضله.

القول في تأويل قوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بتأويل الآية، قول من قال: معناه: للرجال نصيب من ثواب الله وعقابه مما اكتسبوا فعملوه من خير أو شر، وللنساء نصيب مما اكتسبن من ذلك كما للرجال.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: واسألوا الله من عونه وتوفيقه للعمل بما يرضيه عنكم من طاعته. فضله في هذا الموضع: توفيقه ومعوته

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله كان بما يصلح عباده - فيما قسم لهم من خير، ورفع بعضهم فوق بعض في الدين والدنيا، وبغير ذلك من قضائه وأحكامه فيهم "عليما"، يقول: ذا علم. فلا تتمنوا غير الذي قضى لكم، ولكن عليكم بطاعته، والتسليم لأمره، والرضى بقضائه، ومسألته من فضله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: "ولكل جعلنا موالى"، ولكلكم، أيها الناس "جعلنا موالى"، يقول: ورثة من بني عمه وإخوته وسائر عصبته غيرهم. والعرب تسمى ابن العم "المولى" قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: ولكلكم، أيها الناس، جعلنا عصبته يرثون به مما ترك والده وأقرباؤه من ميراثهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ وأما معنى قوله: "عقدت أيمانكم"، فإنه: وصلت وشدّت ووكدت "أيمانكم"، يعني: موثقتكم التي واثق بعضهم بعضاً "فاتوهم نصيبهم". ثم اختلف أهل التأويل في معنى "النصيب" الذي أمر الله أهل الحلف أن يؤتي بعضهم بعضاً في الإسلام. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل قوله: "والذين عقدت أيمانكم"، قول من قال: "والذين عقدت أيمانكم على المحالفة، وهم الحلفاء". وذلك أنه معلوم عند جميع أهل العلم بأيام العرب وأخبارها، أنّ عقد الحلف بينها كان يكون بالأيمان والعهود والمواثيق فإذا كان الله جل ثناؤه إنما وصف الذين عقدت أيمانهم ما عقده به بينهم، دون من لم تعقد عقداً بينهم أيمانهم وكانت مؤاخاة النبي ﷺ بين من آخى بينه وبينه من المهاجرين والأنصار، لم تكن بينهم بأيمانهم، وكذلك التبني كان معلوماً أن الصواب من

القول في ذلك قول من قال: "هو الحلف"، دون غيره، لما وصفناه من العلة.

وأما قوله: "فآتوهم نصيبهم"، فإن أولى التأويلين به، ما عليه الجميع مجمعون من حكمه الثابت، وذلك إيتاء أهل الحلف الذي كان في الجاهلية دون الإسلام، بعضهم بعضاً أنصاءهم من النصرة والنصيحة والرأي، دون الميراث. وذلك لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية، فلم يزد الإسلام إلا شدة".

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فآتوا الذين عقدت أيمانكم نصيبهم من النصرة والنصيحة والرأي، فإن الله شاهد على ما تفعلون من ذلك، وعلى غيره من أفعالكم، مُرَاعٍ لكل ذلك، حافظٌ، حتى يجازي جميعكم على جميع ذلك جزاءه، أما المحسن منكم المتبع أمري وطاعتي فبالحسن، وأما المسيء منكم المخالف أمري ونهبي فبالسوء. ومعنى قوله: "شَهِيداً"، ذو شهادة على ذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "الرجال قوامون على النساء"، الرجال أهل قيام على نسائهم، في تأديبهن والأخذ على أيديهن فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم "بما فضل الله بعضهم على بعض"، يعني: بما فضل الله به الرجال على أزواجهم: من سَوَّقَهُمْ إِيَّاهُنَّ مهورهن، وإنفاقهم عليهن أموالهم، وكفائتهم إياهن مؤنهن. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قواماً عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعل الله إليهم من أمورهن. وبما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وذكر أن هذه الآية نزلت في رجل لطم امرأته، فخصم إلى النبي ﷺ في ذلك، فقصى لها بالقصاص. كما جاء عن الحسن: أن رجلاً لطم امرأته، فأنت النبي ﷺ، فأراد أن يُقَصَّصَها منه، فأُنزل الله: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"، فدعاه النبي ﷺ فتلاها عليه، وقال: أردتُ أمراً وأراد الله غيره. وكان الزهري يقول: لو أن رجلاً شجَّ امرأته أو جرحها، لم يكن عليه في ذلك قودٌ، وكان عليه العقل، إلا أن يعدَّو عليها فيقتلها، فيقتل بها.

وأما قوله: "وبما أنفقوا من أموالهم"، فإنه يعني: وبما ساقوا إليهن من صداق، وأنفقوا عليهن من نفقة قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذاً: الرجال قوامون على نسائهم، بتفضيل الله إياهم عليهن، وبإنفاقهم عليهن من أموالهم.

القول في تأويل قوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "الصالحات"، المستقيمات الدين، العاملات بالخير

وقوله: "قانتات"، يعني: مطيعات لله ولأزواجهن كما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول

الله ﷻ: خيرُ النساءِ امرأةٌ إذا نظرتَ إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: "الرجال قوامون على النساء" الآية.

وأما قوله: "بما حفظ الله" بمعنى: بحفظ الله إياهن إذ صيرهن كذلك

وفي الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من الكلام عليه من ذكره، ومعناه: فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، فاحسبنوا إليهن وأصلحو.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قوله: "واللاتي تخافون نشوزهن". فقال بعضهم: معناه: واللاتي تعلمون نشوزهن.

وقال جماعة من أهل التأويل: معنى "الخوف" في هذا الموضع: الخوف الذي هو خلاف "الرجاء". قالوا: معنى ذلك: إذا رأيتم منهن ما تخافون أن ينشزن عليكم، من نظر إلى ما لا ينبغي لهن أن ينظرن إليه، ويدخلن ويخرجن، واستربتن بأمرهن، فعظوهن واهجروهن.

وأما قوله: "نشوزهن"، فإنه يعني: استعلاءهن على أزواجهن، وارتفاعهن عن فُرُشهن بالمعصية منهن، والخلاف عليهن فيما لزمهن طاعتهم فيه، بغضا منهن وإعراضا عنهم. وأصل "النشوز" الارتفاع. ومنه قيل للمكان المرتفع من الأرض: "نَشْرٌ" و"نَشَارٌ".

"فعظوهن"، يقول: ذكروهن الله، وخوفوهن وعيذه، في ركوها ما حرم الله عليها من معصية زوجها فيما أوجب عليها طاعته فيه. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: ولا معنى لـ "الهجر" في كلام العرب إلا على أحد ثلاثة أوجه.

أحدها: "هجر الرجل كلام الرجل وحديثه"، وذلك رفضه وتركه، يقال منه: "هجر فلان أهله يهجرها هجراً وهجراناً". والآخر: الإكثار من الكلام بترديد كهيئة كلام الهازئ، يقال منه: "هجر فلان في كلامه يهجر هجراً"، إذا هذى ومدد الكلمة "وما زالت تلك هجيرة، وإهجيراه" والثالث: "هجر البعير"، إذا ربطه صاحبه بـ "الهجار"، وهو حبل يُربط في حقوبها ورُسغها فإذا كان لا وجه لـ "الهجر" في الكلام إلا أحد المعاني الثلاثة وكانت المرأة المخوف نشوزها، إنما أمر زوجها بوعظها لتنيب إلى طاعته فيما يجب عليها له من موافاته عند دعائه إياها إلى فراشه فغير جائز أن تكون عظته لذلك حتى تفيء المرأة إلى أمر الله وطاعة زوجها في ذلك، ثم يكون الزوج مأموراً بهجرها في الأمر الذي كانت عظته إياها عليه. وإذا كان ذلك كذلك، بطل قول من قال: "معنى قوله: واهجروهن في المضاجع، واهجروا جماعهن". أو

يكون - إذ بطل هذا المعنى، بمعنى واهجروا كلامهن بسبب هجرهن مضاجعكم. وذلك أيضاً

لا وجه له مفهومٌ. لأن الله تعالى ذكره قد أخبر على لسان نبيه ﷺ: أنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث. على أن ذلك لو كان حلالاً لم يكن لهجرها في الكلام معنى مفهوم. لأنها إذا كانت عنه منصرفاً وعليه ناشراً، فمن سرورها أن لا يكلمها ولا يراها ولا تراه، فكيف يؤمر الرجل في حال بعض امرأته إياه، وانصرافها عنه بترك ما في تركه سرورها، من ترك جماعها ومحدثتها وتكليمها؟ وهو يؤمر بضربها لترتدع عما هي عليه من ترك طاعته، إذا دعاها إلى فراشه، وغير ذلك مما يلزمها طاعته فيه. أو يكون - إذ فسد هذان الوجهان - يكون معناه واهجروا في قولكم لهنّ، بمعنى: ردّوا عليهن كلامكم إذا كلمتموهن، بالتغليظ لهنّ. فإن كان ذلك معناه، فلا وجه لإعمال "الهجر" في كناية أسماء النساء الناشزات أعني في "الهاء والنون" من قوله: "واهجروهن". لأنه إذا أريد به ذلك المعنى، كان الفعل غير واقع، إنما يقال: "هَجَرَ فلان في كلامه" ولا يقال: "هَجَرَ فلان فلائاً". فإذا كان في كل هذه المعاني ما ذكرنا من الخلل اللاحق، فأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يكون قوله: "واهجروهن"، موجّهاً معناه إلى معنى الرّبط بالهجر، على ما ذكرنا من قيل العرب للبعير إذا ربطه صاحبه بحبل على ما وصفنا: "هَجَرَهُ فهو يهجره هَجْراً".

وإذا كان ذلك معناه كان تأويل الكلام: واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن في نشوزهن عليكم. فإن اتعظن فلا سبيل لكم عليهنّ، وإن أبين الأوبة من نشوزهن فاستوثقوا منهنّ رباطاً في مضاجعهن يعني: في منازلهن وبُيوتهن التي يضطجعن فيها ويضاجعن فيها أزواجهنّ كالذي جاء عن ابن عباس في قوله: "واهجروهن في المضاجع واضربوهن"، قال: يفعل بها ذاك، ويضربها حتى تطيعه في المضاجع، فإذا أطاعته في المضجع، فليس له عليها سبيل إذا ضاجعته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فعظوهن، أيها الرجال، في نشوزهن، فإن أبين الإياب إلى ما يلزمهن لكم، فشدّوهن وثاقاً في منازلهن، واضربوهن ليؤبّن إلى الواجب عليهن من طاعته الله في اللازم لهنّ من حقوقكم. وقال أهل التأويل: صفة الضرب التي أباح الله لزوج الناشز أن يضربها: الضرب غير المبرح. غير مؤثر.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أطعنكم، أيها الناس، نساؤكم اللاتي تخافون نشوزهن عند وعظكم إياهن، فلا تهجروهن في المضاجع. فإن لم يطعنكم، فاهجروهن في المضاجع واضربوهن. فإن راجعن طاعتكم عند ذلك وفئن إلى الواجب عليهن، فلا تطلبوا طريقاً إلى أذهن ومكروههن، ولا تلتمسوا سبيلاً إلى ما لا يحل لكم من أبدانهن وأموالهن بالعلل. وذلك أن يقول أحدهم

لإحداهن وهي له مطيعة: "إنك لست تحبيني، وأنت لي مبغضة"، فيضربها على ذلك أو يؤذيها. فقال الله تعالى للرجال: "فإن أطعنكم" أي: على بغضهن لكم فلا تجنوا عليهن، ولا تكلفوهن محبتكم، فإن ذلك ليس بأيديهن، فتضربوهن أو تؤذوهن عليه. ومعنى قوله: "فلا تبغوا"، لا تلتمسوا ولا تطلبوا، من قول القائل: "بغيت الضالة"، إذا التمسها

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ قال أبو جعفر يقول: إن الله ذو علو على كل شيء، فلا تبغوا، أيها الناس، على أزواجكم إذا أطعنكم فيما ألزمهن الله لكم من حق سيلا لعلو أيديكم على أيديهن، فإن الله أعلى منكم ومن كل شيء عليكم، منكم عليهن وأكبر منكم ومن كل شيء، وأنتم في يده وقبضته، فاتقوا الله أن تظلموهن وتبغوا عليهن سيلا. وهن لكم مطيعات، فيتنصر لهن منكم ربكم الذي هو أعلى منكم ومن كل شيء، وأكبر منكم ومن كل شيء

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه "وإن خفتم شقاق بينهما"، وإن علمتم أيها الناس "شقاق بينهما"، وذلك مشاقة كل واحد منهما صاحبه، وهو إتيانه ما يشق عليه من الأمور. فأما من المرأة، فالنشوز وتركها أداء حق الله عليها الذي ألزمها الله لزوجها. وأما من الزوج، فتركه إمساكها بالمعروف أو تسريحها بإحسان. و"الشقاق" مصدر من قول القائل: "شاق فلان فلاناً" إذا أتى كل واحد منهما إلى صاحبه ما يشق عليه من الأمور "فهو يُشاقُّه مشاقَّةً وشقاقاً"، وذلك قد يكون عداوة، وأما قوله: "فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها"، فإن أهل التأويل اختلفوا في المخاطبين بهذه الآية: من الأمور ببعثة الحكمين؟

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في قوله: "فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها"، أن الله خاطب المسلمين بذلك، وأمرهم ببعثة الحكمين عند خوف الشقاق بين الزوجين للنظر في أمرهما، ولم يخصص بالأمر بذلك بعضهم دون بعض.

وقد أجمع الجميع على أن بعثة الحكمين في ذلك ليست لغير الزوجين، وغير السلطان الذي هو سائس أمر المسلمين، أو من أقامه في ذلك مقام نفسه.

واختلفوا في الزوجين والسلطان، ومن الأمور بالبعثة في ذلك: الزوجان، أو السلطان؟ ولا دلالة في الآية تدل على أن الأمر بذلك مخصوص به أحد الزوجين، ولا أثر به عن رسول الله ﷺ، والأمة فيه مختلفة. وإذا كان الأمر كذلك، لم يكن لأحد الفرق بين رجل وامرأة بغير رضى الزوج، ولا أخذ مال من المرأة بغير رضاها بإعطائه، إلا بحجة يجب التسليم لها من أصل أو قياس.

وإن بعث الحكمين السلطان، فلا يجوز لهما أن يحكما بين الزوجين بفرقة إلا بتوكيل الزوج إياهما بذلك، ولا لهما أن يحكما بأخذ مال من المرأة إلا برضى المرأة.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "إن يريدَا إصلاحًا"، إن يرد الحكمان إصلاحًا بين الرجل والمرأة أعني: بين الزوجين المخوف شقاق بينهما يقول: "يوفق الله" بين الحكمين فيتفقا على الإصلاح بينهما. وذلك إذا صدق كل واحد منهما فيما أفضى إليه: مَنْ بَعَثَ للنظر في أمر الزوجين. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه: "إن الله كان عليمًا"، بما أراد الحكمان من إصلاح بين الزوجين وغيره "خيرًا"، بذلك وبغيره من أمورهما وأمور غيرهما، لا يخفى عليه شيء منه، حافظ عليهم، حتى يجازي كلا منهم جزاءه، بالإحسان إحسانًا، وبالإساءة غفرانًا أو عقابًا.

القول في تأويل قوله جل ذكره: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وذلّوا الله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له الخضوع والذلة، بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكًا تعظمونه تعظيمكم إياه.

"وبالوالدين إحسانًا"، يقول: وأمركم بالوالدين إحسانًا يعني برًّا بهما ولذلك نصب "الإحسان"، لأنه أمر منه جل ثناؤه بلزوم الإحسان إلى الوالدين، على وجه الإغراء.

وأما قوله: "وبذي القربى"، فإنه يعني: وأمر أيضًا بذِي القربى وهم ذوو قرابة أحدنا من قبل أبيه أو أمه، ممن قربت منه قرابته برحمته من أحد الطرفين إحسانًا بصلة رحمه.

وأما قوله: "واليتامى"، فإنهم جمع "يتيم"، وهو الطفل الذي قد مات والده وهلك.

"والمساكين" وهو جمع "مسكين"، وهو الذي قد ركه ذل الفاقة والحاجة، فتمسكن لذلك. يقول تعالى ذكره: استوصوا بهؤلاء إحسانًا إليهم، وتعطفوا عليهم، والزموا وصيتي في الإحسان إليهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم: معنى ذلك: والجار ذِي القرابة والرحم منك.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: "معنى، الجنب، في هذا الموضع: الغريب البعيد، مسلمًا كان أو مشرکًا، يهوديًا كان أو نصرانيًا"، لما بينا قبل من

أن "الجار ذي القربى"، هو الجار ذو القرابة والرحم. والواجب أن يكون "الجار ذو الجنابة"، الجار البعيد، ليكون ذلك وصية بجميع أصناف الجيران قريبهم وبعيدهم.

وبعد، فإن "الجَنب"، في كلام العرب: البعيد

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المعنى بذلك. قال أبو جعفر: والصواب من القول في تأويل ذلك عندي: أن معنى: "الصاحب بالجَنب"، الصاحب إلى الجنب، وقد يدخل في هذا: الرفيق في السفر، والمرأة، والمنقطع إلى الرجل الذي يلزمه رجاء نفعه، لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريب منه. وقد أوصى الله تعالى بجميعهم، لوجوب حق الصاحب على المصحوب،

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنَّ السَّبِيلَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك: أن "ابن السبيل"، هو صاحب الطريق و"السبيل": هو الطريق، وابنه: صاحبه الضارب فيه فله الحق على من مر به محتاجاً منقطعاً به، إذا كان سفره في غير معصية الله، أن يعينه إن احتاج إلى معونة، ويضيفه إن احتاج إلى ضيافة، وأن يحمله إن احتاج إلى حُمْلَان.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: والذين ملكتموهم من أرقائكم فأضاف "الملك" إلى "اليمين"، كما يقال: "تكلم فوك"، و"مشت رجلك"، و"بطشت يدك"، بمعنى: تكلمت، ومشيت، وبطشت. غير أن ما وصف به كل عضو من ذلك، فإنما أضيف إليه ما وُصف به لأنه بذلك يكون، في المتعارف في الناس، دون سائر جوارح الجسد. فكان معلوماً بوصف ذلك العضو بما وصف به من ذلك المعنى المراد من الكلام. فكَذلك قوله: "وما ملكت أيمانكم"، لأن ممالك أحدنا تحت يديه، إنما يطعم ما تُناوله أيماننا، ويكتسي ما تكسوه، وتصرفه فيما أحب صرفه فيه بها. فأضيف ملكهم إلى "الأيمان" لذلك. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "إن الله لا يحب من كان مختالاً"، إن الله لا يحب من كان ذا خيلاء.

وأما "الفخور"، فهو المفتخر على عباد الله بما أنعم الله عليه من آلائه، وبسط له من فضله، ولا يحمد على ما آتاه من طوِّله، ولكنه به مختال مستكبر، وعلى غيره به مُستطيل مفتخر.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله لا يحب المختال الفخور، الذي يبخل

ويأمر الناس بالبخل.

واختلف أهل التأويل في هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبخل

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك، ما قاله الذين قالوا: إن الله وصف هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه الآية، بالبخل بتعريف من جهل أمر محمد ﷺ أنه حق، وأن محمدًا لله نبي مبعوث، وغير ذلك من الحق الذي كان الله تعالى ذكره قد بينه فيما أوحى إلى أنبيائه من كتبه. فبخل بتبيينه للناس هؤلاء، وأمروا من كانت حاله حالهم في معرفتهم به: أن يكتموا من جهل ذلك، ولا يبينوه للناس. وهم أخبار اليهود ومن على شاكلتهم

وبخلهم الذي وصفهم الله به، إنما كان بخلا بالعلم الذي كان الله آتاهم فبخلوا بتبيينه للناس وكتموا، دون البخل بالأموال إلا أن يكون معنى ذلك: الذين يبخلون بأموالهم التي ينفقونها في حقوق الله وُسُبله، ويأمرهم الناس من أهل الإسلام بترك النفقة في ذلك. فيكون بخلهم بأموالهم، وأمرهم الناس بالبخل، بهذا المعنى

كالذي جاء عن ابن عباس قال: كان كَرْدَم بن زيد، حليفُ كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبخري بن عمرو، وحَيَّ بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالا من الأنصار، وكانوا يخالطونهم، يتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون! فأنزل الله فيهم: "الذين يبخلون ويأمرهم الناس بالبخل ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله"، أي: من النبوة، التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ "وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا"، إلى قوله: "وكان الله بهم عليماً".

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني: بذلك جل ثناؤه: "وأعتدنا"، وجعلنا للجاحدين نعمة الله التي أنعم بها عليهم، من المعرفة بنبوة محمد ﷺ، المكذبين به بعد علمهم به، الكاتمين نعمة وصفته من أمرهم الله ببيان له من الناس "عذابًا مهينًا"، يعني: العقاب المذل من عذاب بخلوده فيه، عتادًا له في آخرته، إذا قدم على ربه وجده، بما سلف منه من جحوده فرض الله الذي فرضه عليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وأعتدنا للكافرين بالله من اليهود الذين وصف الله صفتهم، عذابًا مهينًا "والذين ينفقون أموالهم رياء الناس".

و"الذين" في موضع خفضٍ، عطفًا على "الكافرين".

وقوله: "رياء الناس"، يعني: ينفقه مراءاة الناس، في غير طاعة الله أو غير سبيله، ولكن في

سبيل الشيطان "ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر"، يقول: ولا يصدقون بوحدانية الله، ولا بالمعاد إليه يوم القيامة الذي فيه جزاء الأعمال - أنه كائن. وقد قال مجاهد إن هذا من صفة اليهود! وهو بصفة أهل النفاق الذين كانوا أهل شرك، فأظهروا الإسلام تقيّةً من رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به، وهم على كفرهم مقيمون أشبه منه بصفة اليهود. لأن اليهود كانت توحّد الله وتصدّق بالبعث والمعاد. وإنما كان كفرها، تكذيبها بنبوّة محمد ﷺ.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يكن الشيطان له خليلاً وصاحباً، يعمل بطاعته، ويتبع أمره، ويترك أمر الله في إنفاقه ماله رياء الناس في غير طاعته، وجحوده وحدانية الله والبعث بعد الممات "فساء قريناً"، يقول: فساء الشيطان قريناً.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وأي شيء على هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر "لو آمنوا بالله واليوم الآخر"، لو صدّقوا بأن الله واحد لا شريك له، وأخلصوا له التوحيد، وأيقنوا بالبعث بعد الممات، وصدّقوا بأن الله مُجازيهم بأعمالهم يوم القيامة "وأنفقوا مما رزقهم الله"، يقول: وأدّوا زكاة أموالهم التي رزقهم الله وأعطاهموها، طيبةً بها أنفسهم، ولم ينفقوها رياء الناس، التماس الذكر والفخر عند أهل الكفر بالله، والمحمدة بالباطل عند الناس "وكان الله"، هؤلاء الذين وصف صفتهم أنهم ينفقون أموالهم رياء الناس نفاقاً، وهم بالله واليوم الآخر مكذبون "عليماً"، يقول: ذا علم بهم وبأعمالهم، وما يقصدون ويريدون بإنفاقهم ما ينفقون من أموالهم، وأنهم يريدون بذلك الرياء والسُّمعة والمحمدة في الناس، وهو حافظ عليهم أعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، حتى يجازيهم بها جزاءهم عند معادهم إليه.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله"، فإن الله لا يبخس أحداً من خلقه أنفق في سبيله مما رزقه، من ثواب نفقته في الدنيا، ولا من أجرها يوم القيامة "مِثْقَالَ ذَرَّةٍ"، أي: ما يزنها ويكون على قدر ثقلها في الوزن، ولكنه يجازيه به ويثيبه عليه

وأما "الذرة" فإنه ذكر عن ابن عباس أنه قال: رأس نَمْلَةٍ حَمراء. كما جاء عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله لا يظلم المؤمن حسنةً، يُثابُّ عليها الرزق في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة. وأما الكافر فيُطعم بها في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة لم تكن له حسنةً.

قال أبو جعفر: فتأويل الآية على تأويل عبد الله هذا: إن الله لا يظلم عبداً وجب له مثقال ذرة قبل عبد له آخر في معاده ويوم لقائه فما فوقه، فيتركه عليه فلا يأخذه للمظلوم من ظالمه، ولكنه يأخذه منه له، ويأخذ من كل ظالم لكل مظلوم تبعته قبله "وإن تك حسنة يضاعفها"، يقول: وإن تُوجد له حسنة يضاعفها، بمعنى: يضاعف له ثوابها وأجرها "ويؤت من لدنه أجراً عظيماً"، يقول: ويعطه من عنده أجراً عظيماً، "والأجر العظيم" الجنة، على ما قاله عبد الله.

ثم اختلف أهل التأويل في الذين وعدهم الله بهذه الآية ما وعدهم فيها.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: "عنى بهذه الآية المهاجرون دون الأعراب". وذلك أنه غير جائز أن يكون في أخبار الله أو أخبار رسوله ﷺ شيء يدفع بعضه بعضاً. فإذا كان صحيحاً وعد الله من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة من الجزاء عشر أمثالها، ومن جاء بالحسنة منهم أن يضاعفها له وكان الخبر أن اللذان ذكرناهما عنه ﷺ صحيحين كان غير جائز إلا أن يكون أحدهما مجملاً والآخر مفسراً، إذ كانت أخباره ﷺ يصدق بعضها بعضاً. وإذا كان ذلك كذلك، صح أن خبر أبي هريرة معناه أن الحسنة لتضاعف للمهاجرين من أهل الإيمان ألفي ألف حسنة، وللأعراب منهم عشر أمثالها، على ما روى ابن عمر عن النبي ﷺ وأن قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، يعني: من جاء بالحسنة من أعراب المؤمنين فله عشر أمثالها، ومن جاء بالحسنة من مهاجريهم يُضاعف له ويؤته الله من لدنه أجراً يعني يعطه من عنده "أجراً عظيماً". يعني: عوضاً من حسنته عظيماً، وذلك "العوض العظيم"، الجنة

القول في تأويل قوله: ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله لا يظلم عباده مثقال ذرة، فكيف بهم "إذا جئنا من كل أمة بشهيد"، يعني: بمن يشهد عليها بأعمالها، وتصديقها رسلها أو تكذيبها "وجئنا بك على هؤلاء شهيداً"، يقول: وجئنا بك، يا محمد، "على هؤلاء"، أي: على أمتك "شهيراً". يقول شاهداً وجاء عن القاسم: أن النبي ﷺ قال لابن مسعود: اقرأ علي. قال، اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمع من غيري. قال: فقرأ ابن مسعود "النساء" حتى بلغ: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً"، قال: استعبر النبي ﷺ، وكف ابن مسعود قال المسعودي، فحدثني جعفر بن عمرو بن حريث، عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: "شهيراً عليهم ما دمت فيهم، فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد".

القول في تأويل قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الدِّينِ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يوم نجيء من كل أمة بشهيد، ونجيء بك على أمتك يا محمد شهيداً "يود الذين كفروا"، يقول: يتمنى الذين جحدوا

وحدانية الله وعصوا رسوله، "لو تُسَوَّى بهم الأرض" والمعنى: لو سَوَّاهم الله والأرض، فصاروا ترابًا مثلها بتصويره إياهم، كما يفعل ذلك بمن ذكر أنه يفعل به من البهائم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا"، صدّقوا الله ورسوله "لا تقربوا الصلاة"، لا تصلوا "وأنتم سكارى"، وهو جمع "سكران" "حتى تعلموا ما تقولون"، في صلاتكم فتميّزون فيها ما أمركم الله به أو ندبكم إلى قيله فيها، مما نهاكم عنه وزجركم.

ثم اختلف أهل التأويل في "السكر" الذي عناه الله بقوله: "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بتأويل الآية، تأويل من قال: ذلك نهى من الله المؤمنين عن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى من الشراب قبل تحريم الخمر، للأخبار المتظاهرة عن أصحاب رسول الله ﷺ بأن ذلك كذلك، نهى من الله وأن هذه الآية نزلت فيمن ذكرت أنها نزلت فيه. عن ابن عباس: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى"، قبل أن تحرم الخمر، فقال الله: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى"، الآية.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى القولين بالتأويل لذلك، تأويل من تأوله: "ولا جنبًا إلا عابري سبيل، إلا مجتازي طريق فيه. وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عديم الماء وهو جنب في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، فكان معلومًا بذلك أن قوله "ولا جنبًا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا"، لو كان معنيًا به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: "وإن كنتم مرضىٰ أو على سفر" معنى مفهوم، وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك.

وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا، لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل. و"العابر السبيل": المجتاز مرًا وقطعًا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "وإن كنتم مرضىٰ"، من جرح أو جُدِرِي وأنتم جنب قال أبو جعفر: فتأويل الآية إذا: وإن كنتم جرحىٰ أو بكم قروح، أو كسر، أو علة لا تقدرين معها على الاغتسال من الجنابة، وأنتم مقيمون غير مسافرين، فتيمموا صعيدًا طيبًا.

وأما قوله: "أو على سفر"، فإنه يعني: أو إن كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنب، فتيمموا

صعيداً. وكذلك تأويل قوله: "أو جاء أحد منكم من الغائط"، يقول: أو جاء أحد منكم من الغائط، قد قضى حاجته وهو مسافر صحيح، فليتم صعيداً أيضاً. و"الغائط": ما اتسع من الأودية وتصوّب. وجعل كناية عن قضاء حاجة الإنسان، لأن العرب كانت تختار قضاء حاجتها في الغيطان، فكثر ذلك منها حتى غلب عليهم ذلك، فقليل لكل من قضى حاجته التي كانت تقضي في الغيطان، حيث قضاها من الأرض: "مُتَعَوِّطٌ" و"جاء فلان من الغائط"، يعني به: قضى حاجته التي كانت تقضي في الغائط من الأرض. وذكر عن مجاهد أنه قال في "الغائط": الوادي.

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: أو باشرتم النساء بأيديكم. ثم اختلف أهل التأويل في "اللمس" الذي عناه الله بقوله: "أو لامستم النساء".

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: "عنى الله بقوله: "أو لامستم النساء"، الجماع دون غيره من معاني اللمس"، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ. كالذي جاء عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلي ولا يتوضأ. وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم جنابة، وفيهم جراح. كما جاء عن حماد، عن إبراهيم، في المريض لا يستطيع الغسل من الجنابة، أو الحائض، قال: يجزيهم التيمم. وقال: أصاب أصحاب رسول الله ﷺ جراحة ففشت فيهم، ثم ابتلوا بالجنابة، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت: "وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط"، الآية كلها. وقال آخرون: نزلت في قوم من أصحاب النبي ﷺ أعوزهم الماء فلم يجدوه في سفر لهم. كما جاء عن عائشة أنها قالت: كنت في مسير مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بذات الجيش ضلّ عقدي، فأخبرت بذلك النبي ﷺ فأمر بالتماسه، فالتمس فلم يوجد، فأنأخ النبي ﷺ وأناخ الناس، فباتوا ليلتهم تلك، فقال الناس: حبست عائشة النبي ﷺ! قالت: فجاء إليّ أبو بكر ورأس النبي ﷺ في حجري وهو نائم، فجعل يهمني ويقرصني ويقول من أجل عقدك حبست النبي ﷺ! قالت: فلا أتحرك مخافة أن يستيقظ النبي ﷺ، وقد أوجعني، فلا أدري كيف أصنع! فلما رأي لا أحيّر إليه، انطلق. فلما استيقظ النبي ﷺ وأراد الصلاة فلم يجد ماء، قالت: فأنزل الله تعالى آية التيمم. قالت: فقال ابن حضير: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر!

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "فلم تجدوا ماء"، "أو لمستم النساء، فطلبتن الماء لتطهرن به فلم تجدوه بثن ولا غير ثمن" فتيمنوا" يقول: فتعمدوا. وهو: "تفعلوا" من قول القائل: "تيممت كذا" إذا قصدته

وتعمدته "فأنا أتيّمه" وأما "الصعيد"، فإن أهل التأويل اختلفوا فيه.

قال أبو جعفر: وأولى ذلك بالصواب قول من قال: "هو وجه الأرض الخالية من النبات والغُروس والبناء، المستوية" وأما قوله: "طيباً"، فإنه يعني به: طاهراً من الأقدار والنجاسات.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: "طيباً". ومعنى الكلام: فإن لم تجدوا ماء، أيها الناس، وكنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لمستم النساء، فأردتم أن تصلّوا "فتيمموا"، يقول: فتعمدوا وجه الأرض الطاهرة "فامسحوا بوجوهكم وأيديكم".

القول في تأويل قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم، ولكنه ترك ذكر "منه"، اكتفاء بدلالة الكلام عليه

و"المسح منه بالوجه"، أن يضرب المتيّم بيديه على وجه الأرض الطاهر، أو ما قام مقامه، فيمسح بما علق من الغبار وجهه. فإن كان الذي علق به من الغبار كثيراً فنفض عن يديه أو نفذه، فهو جائز. وإن لم يعلق بيديه من الغبار شيء وقد ضرب بيديه أو إحداهما الصعيد، ثم مسح بهما أو بها وجهه، أجزأه ذلك، لإجماع جميع الحجة على أن المتيّم لو ضرب بيديه الصعيد وهو أرض رمل فلم يعلق بيديه منها شيء فتيمم به، أن ذلك مجزئه، لم يخالف ذلك من يجوز أن يُعتدّ خلافاً. فلما كان ذلك إجماعاً منهم، كان معلوماً أن الذي يراد به من ضَرْب الصعيد باليدين، مباشرة الصعيد بهما، بالمعنى الذي أمر الله بمباشرته بهما، لا لأخذ ترابٍ منه. وأما "المسح باليدين"، فإن أهل التأويل اختلفوا في الحدّ الذي أمر الله بمسحه من اليدين.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك: أن الحدّ الذي لا يجزئ المتيّم أن يقصّر عنه في مسحه بالتراب من يديه: الكفان إلى الزندين، لإجماع الجميع على أن التقصير عن ذلك غير جائز. ثم هو فيما جاوز ذلك مخير، إن شاء بلغ بمسحه المرفقين، وإن شاء الآباط. والعلة التي من أجلها جعلناه مخيراً فيما جاوز الكفين: أن الله لم يحدّ في مسح ذلك بالتراب في التيمم حداً لا يجوز التقصير عنه. فما مسح المتيّم من يديه أجزأه، إلا ما أجمع عليه، أو قامت الحجة بأنه لا يجزئه التقصير عنه. وقد أجمع الجميع على أن التقصير عن الكفين غير

مجزئ، فخرج ذلك بالسنة، وما عدا ذلك فمختلف فيه. وإذا كان مختلفاً فيه، وكان الماسح بكفيه داخلاً في عموم الآية كان خارجاً مما لزمه من فرض ذلك.

واختلف أهل التأويل في الجنب، هل هو ممن دخل في رخصة التيمم إذا لم يجد الماء أم لا؟ قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك: أن الجنب ممن أمره الله بالتيمم إذا لم يجد الماء، والصلاة بقوله: "أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً". وقد بينا ثم أن

معنى "الملازمة"، في هذا الموضع: الجماع، بنقل الحجة التي لا يجوز الخطأ فيما نقلته مجمعة عليه، ولا السهو ولا التواطؤ والتشاعر، بأن حكم الجنب في ذلك حكم سائر من أحدث فلزمه التطهر لصلاته مع ما قد روي في ذلك عن رسول الله ﷺ من الأخبار التي قد ذكرنا بعضها، وتركنا ذكر كثير منها، استغناء بما ذكرنا منها عما لم نذكر، وكراهة منا إطالة الكتاب باستقصاء جميعه. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "فلم تجدوا ماء فتيمموا"، وهل ذلك أمر من الله بالتيمم كلما لزمه طلب الماء، أم ذلك أمر منه بالتيمم كلما لزمه الطلب وهو محدث حدثاً يجب عليه منه الوضوء بالماء، لو كان للماء واجداً؟

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب، قول من قال: "تيمم المصلي لكل صلاة لزمه طلب الماء للتطهر لها فرضاً"، لأن الله جل ثناؤه أمر كل قائم إلى الصلاة بالتطهر بالماء، فإن لم يجد الماء فالتيمم. ثم أخرج القائم إلى الصلاة من كان قد تقدم من قيامه إليها الوضوء بالماء سنة رسول الله ﷺ، إلا أن يكون قد أحدث حدثاً ينقض طهارته، فيسقط فرض الوضوء عنه بالسنة. وأما القائم إليها وقد تقدم قيامه إليها بالتيمم لصلاة قبلها، ففرض التيمم له لازم بظاهر التنزيل، بعد طلبه الماء إذا أعوزه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا غَفُورًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله لم يزل "غفوا"، عن ذنوب عباده، وتركه العقوبة على كثير منها ما لم يشركوا به، كما عفا لكم، أيها المؤمنون، عن قيامكم إلى الصلاة التي فرضها عليكم في مساجدكم وأنتم سكارى "غفوراً"، فلم يزل يستر عليهم ذنوبهم بتركه معاجلتهم العذاب على خطاياهم، كما ستر عليكم، أيها المؤمنون، بتركه معاجلتكم على صلاتكم في مساجدكم سكارى. يقول: فلا تعودوا لمثلها، فينالكم بعدوكم لما قد نهيتكم عنه من ذلك، مُنْكَلَةً.

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى قوله جل ثناؤه: "ألم تر إلى الذين". قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك: ألم تر بقلبك، يا محمد، علماً "إلى الذين أوتوا نصيباً". وذلك أن "الخبر" و"العلم" لا يجليان رؤية، ولكنه رؤية القلب بالعلم. فذلك كما قلنا فيه. وأما تأويل قوله: "إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب"، فإنه يعني: إلى الذين أعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه وذكر أن الله عني بذلك طائفة من اليهود الذين كانوا حوآلي مهاجر رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يشترون الضلالة"، اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يختارون الضلالة وذلك: الأخذ على غير طريق الحق،

وركوبٌ غير سبيل الرشد والصواب، مع العلم منهم بقصد السبيل ومنهج الحق. وإنما عنى الله بوصفهم باشرائهم الضلالة: مقامهم على التكذيب بمحمد ﷺ، وتركهم الإيمان به، وهم عالمون أن السبيل الحق الإيمان به، وتصديقه بما قد وجدوا من صفته في كتبهم التي عندهم.

وأما قوله: "ويريدون أن تضلوا السبيل"، يعني بذلك تعالى ذكره: ويريد هؤلاء اليهود الذين وصفهم جل ثناؤه بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب "أن تضلوا" أنتم، يا معشر أصحاب محمد ﷺ، المصدقين به "أن تضلوا السبيل"، يقول: أن تزولوا عن قصد الطريق ومَحَجَّة الحق، فتكذبوا بمحمد، وتكونوا ضلالاً مثلهم. وهذا من الله تعالى ذكره تحذيرٌ منه عباده المؤمنين، أن يستنصحو أحداً من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق. ثم أخبر الله جل ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى المؤمنين أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جل ثناؤه: "والله أعلم بأعدائكم"، يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم، أيها المؤمنون. يقول: فانتهاوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما يغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا. وأما قوله: "وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً"، فإنه يقول: فبالله، أيها المؤمنون، فثقوا، وعليه فتوكلوا، وإليه فارغبوا، دون غيره، يكفكم مهمكم، وينصركم على أعدائكم "وكفى بالله ولياً"، يقول: وكفاكم وحسبكم بالله ربكم ولياً يليكم ويلي أموركم بالحيطة لكم، والحراسة من أن يستفركم أعداؤكم عن دينكم، أو يصدّوكم عن اتباع نبيكم "وكفى بالله نصيراً"، يقول: وحسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى من بغاكم الغوائل، وبغى دينكم العوج.

القول في تأويل قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ قال أبو جعفر: ولقوله جل ثناؤه: "من الذين هادوا يحرفون الكلم"، وجهان من التأويل. قال أبو جعفر: والقول الذي هو أولى بالصواب عندي في ذلك: قول من قال: قوله: "من الذين هادوا"، من صلة "الذين أوتوا نصيباً من الكتاب"، لأن الخبرين جميعاً والصفتين، من صفة نوع واحد من الناس، وهم اليهود الذين وصف الله صفتهم في قوله: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب".

وأما تأويل قوله: "يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ"، فإنه يقول: يبدّلون معناها ويغيرونها عن تأويله. و"الكلم" جماع "كلمة". وكان مجاهد يقول: عنى بـ"الكلم"، التوراة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: من الذين هادوا يقولون: سمعنا، يا محمد، قولك، وعصينا أمرك

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود الذين كانوا حواري مهاجر رسول الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسبون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقول القاتل للرجل يَسْبُهُ: "اسمع، لا أسمعك الله"

القول في تأويل قوله: ﴿وَرَاعِنَا لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "وراعنا"، أي: راعنا سمعك، افهم عنا وأفهمنا. وقد بينا تأويل ذلك في "سورة البقرة" بأدلتها، بما فيه الكفاية عن إعادته. ثم أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم يقولون ذلك لرسول الله ﷺ: "لياً بألسنتهم"، يعني تحريكاً منهم بألسنتهم بتحريف منهم لمعناه إلى المكروه من معنييه، واستخفافاً منهم بحق النبي ﷺ، وطعنًا في الدين

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم، قالوا لنبي الله: "سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا ما نقول، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا" "لكان خيراً لهم وأقوم"، يقول: لكان ذلك خيراً لهم عند الله "وأقوم"، يقول: وأعدل وأصوب في القول. وهو من "الاستقامة" من قول الله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، بمعنى: وأصوب قيلاً وأما "انظرنا"، بمعنى: انظر إلينا

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك: ولكن الله تبارك وتعالى أخرى هؤلاء اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآية، فأقصاهم وأبعدهم من الرشد واتباع الحق "بكفرهم"، يعني: بجحودهم نبوة نبيه محمد ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم من الهدى والبيّنات "فلا يؤمنون إلا قليلاً"، يقول: فلا يصدقون بمحمد ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم، ولا يقرّون بنبوته "إلا قليلاً"، يقول: لا يصدقون بالحق الذي جئتهم به، يا محمد، إلا إيماناً قليلاً

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يا أيها الذين أوتوا الكتاب"، اليهود من بني إسرائيل، الذين كانوا حواري مهاجر رسول الله ﷺ، قال الله لهم: يا أيها الذين أنزل إليهم الكتاب فأعطوا العلم به "آمنوا" يقول: صدّقوا بما نزلنا إلى محمد من الفرقان "مصدقاً لما معكم"، يعني: محققاً للذي معكم من التوراة التي أنزلتها إلى موسى بن عمران "من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها". واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معنى قوله: "من قبل أن

نطمس وجوها"، من قبل أن نطمس أبصارها ونمحو آثارها فنسويها كالأقفاء "فتردها على أدبارها"، فنجعل أبصارها في أدبارها، يعني بذلك: فنجعل الوجوه في أدبار الوجوه، فيكون معناه: فنحوّل الوجوه أقفاءً والأقفاء وجوهاً، فيمشون القهقري، كما قال ابن عباس وعطية ومن قال ذلك. وأما "الطمس"، فهو العُقُور والدثور في استواء. كما جاء عن ابن عباس قال: كلّم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود: منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد فقال لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا! فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحقّ! فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد! وجحدوا ما عرفوا، وأصروا على الكفر، فأنزل الله فيهم: "يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها"، الآية

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ نُلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ قال أبو

جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "أو نلعنهم"، أو نلعنكم فنخزيكم ونجعلكم قردة "كما لعنا أصحاب السبت"، يقول: كما أخزينا الذين اعتدوا في السبت من أسلافكم. قيل ذلك على وجه الخطاب في قوله: "آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم"، كما قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]. وقد يحتمل أن يكون معناه: "من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها"، أو نلعن أصحاب الوجوه فجعل "الهاء والميم" في قوله: "أو نلعنهم"، من ذكر أصحاب الوجوه، إذ كان في الكلام دلالة على ذلك: وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وأما قوله: "وكان أمر الله مفعولاً"، فإنه يعني: وكان جميع ما أمر الله أن يكون، كائناً مخلوقاً موجوداً، لا يمتنع عليه خلق شيء شاء خلقه. و"الأمر" في هذا الموضع: المأمور سمي "أمر الله"، لأنه عن أمره كان وبأمره. والمعنى: وكان ما أمر الله مفعولاً.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قال أبو

جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم" وإن الله لا يغفر أن يشرك به، فإن الله لا يغفر الشرك به والكفر، ويغفر ما دون ذلك الشرك لمن يشاء من أهل الذنوب والآثام. وذكر أن هذه الآية نزلت في أقوام ارتابوا في أمر المشركين حين نزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. كما جاء عن عبد الله بن عمر: أنه قال: لما نزلت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، قام رجل فقال: والشرك، يا نبي الله. فكره ذلك النبي ﷺ فقال: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا".

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني

بذلك جل ثناؤه: "ومن يشرك بالله" في عبادته غيره من خلقه "فقد افترى إثماً عظيماً"، يقول:

فقد اختلق إثماً عظيماً. وإنما جعله الله تعالى ذكره "مفترياً"، لأنه قال زوراً وإفكاً بجحوده وحادانية الله، وإقراره بأن الله شريكاً من خلقه وصاحبة أو ولداً. فقائل ذلك مُفْتَرٍ. وكذلك كل كاذب، فهو مُفْتَرٍ في كذبه مختلقٌ له.

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ألم تر، يا محمد بقلبك، الذين يزكون أنفسهم من اليهود فيبرئونها من الذنوب ويطهرونها. واختلف أهل التأويل، في المعنى الذي كانت اليهود تزكي به أنفسها.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: معنى "تزكية القوم"، الذين وصفهم الله بأنهم يزكون أنفسهم، وصفهم إياها بأنها لا ذنوب لها ولا خطايا، وأنهم لله أبناء وأحباء، كما أخبر الله عنهم أنهم كانوا يقولونه. لأن ذلك هو أظهر معانيه، لإخبار الله عنهم أنهم إنما كانوا يزكون أنفسهم دون غيرها. وأما قوله جل ثناؤه: "بل الله يزكي من يشاء"، فإنه تكذيب من الله المزكّين أنفسهم من اليهود والنصارى، المبرئتها من الذنوب. يقول الله لهم: ما الأمر كما زعمتم أنه لا ذنوب لكم ولا خطايا، وأنكم برآء مما يكرهه الله، ولكنكم أهل فِرْيَةٍ وكذب على الله، وليس المزكّي من زكى نفسه، ولكنه الذي يزكيه الله، والله يزكي من يشاء من خلقه فيطهره ويبرئه من الذنوب، بتوفيقه لاجتناب ما يكرهه من معاصيه، إلى ما يرضاه من طاعته. وإنما قلنا إنّ ذلك كذلك، لقوله جل ثناؤه: "انظر كيف يفترون على الله الكذب"، وأخبر أنهم يفترون على الله الكذب بدعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله قد طهرهم من الذنوب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولا يظلم الله هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يزكون أنفسهم ولا غيرهم من خلقه، فيبخسهم في تركه تزكيتهم، وتزكية من ترك تزكيتهم، وفي تزكية من زكى من خلقه شيئاً من حقوقهم، ولا يضع شيئاً في غير موضعه، ولكنه يزكي من يشاء من خلقه، فيوفقه، ويخذل من يشاء من أهل معاصيه. كل ذلك إليه وييده، وهو في كل ذلك غير ظالم أحدًا ممن زكاه أو لم يزكه فتيلًا. واختلف أهل التأويل في معنى "الفتيل". قال أبو جعفر: وأصل "الفتيل"، المفتول، صرف من "مفعول" إلى "فعيل" كما قيل: "صريع" و"دهين" من "مصروع" و"مدهون". وإذ كان ذلك كذلك وكان الله جل ثناؤه إنما قصد بقوله: "ولا يظلمون فتيلًا"، الخبرَ عن أنه لا يظلم عباده أقلّ الأشياء التي لا خطر لها، فكيف بما له خطر؟ وكان الوسخ الذي يخرج من بين إصبعي الرجل أو من بين كفيه إذا قتل إحداهما على الأخرى، كالذي هو في شق النواة وبطنها، وما أشبه ذلك من الأشياء التي هي مفتولة، مما لا خطر له، ولا قيمة فواجب أن يكون كل ذلك داخلا في

معنى "الفتيل"، إلا أن يخرج شيئاً من ذلك ما يجب التسليم له، مما دل عليه ظاهر التنزيل.

القول في تأويل قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ قال أبو

جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: انظر، يا محمد، كيف يفترى هؤلاء الذين يزكون أنفسهم من أهل الكتاب القائلون: "نحن أبناء الله وأحباؤه"، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري، الزاعمون أنه لا ذنوب لهم الكذب والزور من القول، فيختلقونه على الله "وكفى به"، يقول: وحسبهم بقليلهم ذلك الكذب والزور على الله "إثمًا مبينًا"، يعني أنه يبين كذبهم لسامعيه، ويوضح لهم أنهم أفكّة فجرة

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ قال

أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ألم تر بقلبك، يا محمد، إلى الذين أعطوا حظًا من كتاب الله فعلموه "يؤمنون بالجبت والطاغوت"، يعني: يصدّقون بالجبت والطاغوت، ويكفرون بالله، وهم يعلمون أن الإيمان بهما كفر، والتصديق بهما شرك. ثم اختلف أهل التأويل في معنى "الجبت" و"الطاغوت". قال أبو جعفر: والصواب من القول في تأويل: "يؤمنون بالجبت والطاغوت"، أن يقال: يصدّقون بمعبودين من دون الله، يعبدونهما من دون الله، ويتخذونهما إلهين. وذلك أن "الجبت" و"الطاغوت": اسمان لكل معظّم عبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له، كائنًا ما كان ذلك المعظّم، من حجر أو إنسان أو شيطان. وإذا كان ذلك كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها، كانت معظمة بالعبادة من دون الله فقد كانت جُبوتًا وطواغيت. وكذلك الشياطين التي كانت الكفار طيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولا منهما ما قالوا في أهل الشرك بالله. وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملّتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله، فكانا جبتين وطاغوتين. وقد بينت الأصل الذي منه قيل للطاغوت: "طاغوت"، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ قال أبو

جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ويقولون للذين جحدوا وحدانية الله ورسالة رسوله محمد ﷺ: "هؤلاء"، يعني بذلك: هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر "أهدى"، يعني: أقوم وأعدل "من الذين آمنوا"، يعني: من الذين صدّقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ "سبيلًا"، يعني: طريقًا. قال أبو جعفر: وإنما ذلك مثّل. ومعنى الكلام: أن الله وصف الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة والإدعان له بالطاعة في الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما، بأنهم قالوا: إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به، وأن دين

أهل التكذيب لله ولرسوله، أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله. وذكر أن ذلك من صفة كعب بن الأشرف، وأنه قائل ذلك. كالذي جاء عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصُّنْبُور المنبر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيح وأهل السَّدانة وأهل السَّقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وأنزلت: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت" إلى قوله: "فلن تجد له نصيرًا".

القول في تاويل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "أولئك"، هؤلاء الذين وصف صفتهم أنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، هم "الذين لعنهم الله"، يقول: أخزاهم الله فأبعدهم من رحمته، بإيمانهم بالجبت والطاغوت، وكفرهم بالله ورسوله عنادًا منهم لله ولرسوله، وبقولهم للذين كفروا: "هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا" "ومن يلعن الله"، يقول: ومن يخزه الله فيبعده من رحمته "فلن تجد له نصيرًا"، يقول: فلن تجد له، يا محمد، ناصرًا ينصره من عقوبة الله ولعنته التي تحل به، فيدفع ذلك عنه

القول في تاويل قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "أم لهم نصيب من الملك"، أم لهم حظ من الملك، يقول: ليس لهم حظ من الملك واختلف أهل التأويل في معنى: "النقير". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال، إن الله وصف هؤلاء الفرقة من أهل الكتاب بالخل باليسير من الشيء الذي لا خطر له، ولو كانوا ملوكًا وأهل قدرة على الأشياء الجليلة الأقدار. فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بمعنى "النقير"، أن يكون أصغر ما يكون من النقر. وإذا كان ذلك أولى به، فالنقرة التي في ظهر النواة من صغار النقر، وقد يدخل في ذلك كل ما شاكلها من النقر. ورفع قوله: "لا يؤتون الناس"، ولم ينصب بـ "إذن"، ومن حكمها أن تنصب الأفعال المستقبلية إذا ابتدئ الكلام بها، لأن معها "فاء". ومن حكمها إذا دخل فيها بعض حروف العطف، أن توجه إلى الابتداء بها مرة، وإلى النقل عنها إلى غيرها أخرى. وهذا الموضع مما أريد بـ "الفاء" فيه، النقل عن "إذن" إلى ما بعدها، وأن يكون معنى الكلام: أم لهم نصيب، فلا يؤتون الناس نقيرًا إذن.

القول في تاويل قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "أم يحسدون الناس"، أم يحسد هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من

اليهود وأما قوله: "الناس"، فإن أهل التأويل اختلفوا فيمن عني الله به.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عاتب اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، فقال لهم في قيلهم للمشركين من عبدة الأوثان إنهم أهدى من محمد وأصحابه سبيلا على علم منهم بأنهم في قيلهم ما قالوا من ذلك كذبة: أتחסدون محمداً وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله. واختلف أهل التأويل في تأويل "الفضل" الذي أخبر الله أنه أتى الذين ذكرهم في قوله: "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله". قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بالصواب، قول قتادة وابن جريج الذي ذكرناه قبل: أن معنى "الفضل" في هذا الموضع: النبوة التي فضل الله بها محمداً، وشرف بها العرب، إذ آتاها رجالاً منهم دون غيرهم لما ذكرنا من أن دلالة ظاهر هذه الآية، تدل على أنها تقريباً للنبي ﷺ وأصحابه رحمة الله عليهم، على ما قد بينا قبل. وليس النكاح وتزويج النساء وإن كان من فضل الله جل ثناؤه الذي آتاه عباده بتقريب لهم ومدح.

القول في تأويل قوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: أم يحسد هؤلاء اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآيات الناس على ما آتاهم الله من فضله، من أجل أنهم ليسوا منهم؟ فكيف لا يحسدون آل إبراهيم، فقد آتيناهم الكتاب ويعني بقوله: "فقد آتيناهم الكتاب" إبراهيم، يعني: أهله وأتباعه على دينه "الكتاب"، يعني كتاب الله الذي أوحاه إليهم، وذلك كصحف إبراهيم وموسى والزبور، وسائر ما آتاهم من الكتب.

وأما "الحكمة"، فما أوحى إليهم مما لم يكن كتاباً مقروءاً "وآتيناهم ملكاً عظيماً".

واختلف أهل التأويل في معنى "الملك العظيم" الذي عناه الله في هذه الآية.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بتأويل الآية وهي قوله: "وآتيناهم ملكاً عظيماً" القول الذي روي عن ابن عباس أنه قال: "يعني ملك سليمان". لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، دون الذي قال إنه ملك النبوة، ودون قول من قال: إنه تحليل النساء والملك عليهن. لأن كلام الله الذي خوطب به العرب، غير جائز توجيهه إلا إلى المعروف المستعمل فيهم من معانيه، إلا أن تأتي دلالة أو تقوم حجة على أن ذلك بخلاف ذلك، يجب التسليم لها.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فمن الذين أوتوا الكتاب من يهود بني إسرائيل، الذين قال لهم جل ثناؤه: "آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها" "من آمن به"، يقول: من صدق بما أنزلنا على محمد ﷺ مصداقاً لما معهم "ومنهم من

صدّ عنه"، ومنهم من أعرَضَ عن التصديق به

قال أبو جعفر: وفي هذه الآية دلالة على أن الذين صدّوا عما أنزل الله على محمد ﷺ، من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوَالِي مُهاجِرِ رسول الله ﷺ، إنما رَفَعَ عنهم وعيدَ الله الذي توعدّهم به في قوله: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ في الدنيا، وأخرت عقوبتهم إلى يوم القيامة، لإيمان من آمن منهم، وأن الوعيدَ لهم من الله بتعجيل العقوبة في الدنيا، إنما كان على مقام جميعهم على الكفر بما أنزل على نبيه محمد ﷺ. فلما آمن بعضهم، خرجوا من الوعيد الذي توعدّه في عاجل الدنيا، وأخرت عقوبة المقيمين على التكذيب إلى الآخرة، فقال لهم: كفّاكم بجهنم سعيًّا. ويعني بقوله: "وكفى بجهنم سعيًّا"، وحسبكم، أيها المكذبون بما أنزلت على محمد نبي ورسولي "بجهنم سعيًّا"، يعني: بنار جهنم، تُسَعَّرُ عليكم أي: تُوقَدُ عليكم. و"السعي" ، الوقود.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قال أبو جعفر: هذا وعيد من الله جل ثناؤه للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على محمد من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر الكفار، وبرسوله. يقول الله لهم: إن الذين جحدوا ما أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ، من آياتي يعني: من آيات تنزيله، ووحي كتابه، وهي دلالاته وحججه على صدق محمد ﷺ فلم يصدقوا به من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر أهل الكفر به "سوف نصليهم نارًا"، يقول: سوف ننضجهم في نارٍ يُصلون فيها أي يشوون فيها "كلما نضجت جلودهم"، يقول: كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت "بدلناهم جلودًا غيرها"، يعني: غير الجلود التي قد نضجت فانشوت

وقال الحسن قوله: "كلما نضجت جلودهم بدلناهم غيرها"، قال: تنضج النار كل يوم سبعين ألف جلد. قال: وغلظ جلد الكافر أربعون ذراعًا، والله أعلم بأيّ ذراع!

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يقول: إن الله لم يزل "عزيرًا" في انتقامه ممن انتقم منه من خلقه، لا يقدر على الامتناع منه أحد أرادَه بضرٍّ، ولا الانتصار منه أحدٌ أحلَّ به عقوبة "حكيماً" في تدبيره وقضائه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات"، والذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وصدّقوا بما أنزل الله على محمد مصدّقًا لما معهم من يهود بني إسرائيل وسائر الأمم غيرهم "وعملوا

الصالحات"، يقول: وأدّوا ما أمرهم الله به من فرائضه، واجتنبوا ما حرم الله عليهم من معاصيه، وذلك هو "الصالح" من أعمالهم "سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار"، يقول: سوف يدخلهم الله يوم القيامة "جنات"، يعني: بساتين "تجري من تحتها الأنهار"، يقول: تجري من تحت تلك الجنات الأنهار "خالدين فيها أبداً"، يقول: باقين فيها أبداً بغير نهاية ولا انقطاع، دائماً ذلك لهم فيها أبداً "لهم فيها أزواج"، يقول: لهم في تلك الجنات التي وصف صفتها "أزواج مطهرة"، يعني: بريئات من الأدناس والرّيب والحیض والغائط والبول والحبل والبصاق، وسائر ما يكون في نساء أهل الدنيا. وقد ذكرنا ما في ذلك من الآثار فيما مضى قبل، وأغنى ذلك عن إعادتها. وأما قوله: "وندخلهم ظلاً ظليلاً"، فإنه يقول: وندخلهم ظلاً كنيئاً، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التاويل فيمن عني بهذه الآية.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: هو خطاب من الله ولادة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من وكلوا أمره في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وعظ به الرعية في: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة

قال أبو جعفر: فتاويل الآية إذاً إذ كان الأمر على ما وصفنا: إن الله يأمركم، يا معشر ولادة أمور المسلمين، أن تؤدوا ما ائتمتكم عليه رعيّكم من فيئهم وحقوقهم وأموالهم وصدقاتهم إليهم، على ما أمركم الله بأداء كل شيء من ذلك إلى من هو له، بعد أن تصير في أيديكم، لا تظلموها أهلها، ولا تستأثروا بشيء منها، ولا تضعوا شيئاً منها في غير موضعه، ولا تأخذوها إلا ممن أذن الله لكم بأخذها منه قبل أن تصير في أيديكم ويأمركم إذا حكمتكم بين رعيّكم أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، وذلك حكم الله الذي أنزله في كتابه، وبينه على لسان رسوله، لا تعدّوا ذلك فتجوروا عليهم.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يا معشر ولادة أمور المسلمين، إن الله نعم الشيء يعظكم به، ونعمت العظة يعظكم بها في أمره إياكم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن تحكموا بين الناس بالعدل إن الله كان سميعاً، يقول: إن الله لم يزل سميعاً بما تقولون وتنطقون، وهو سميع لذلك منكم إذا حكمتكم بين الناس ولما تحاورونهم به "بصيراً" بما تفعلون فيما ائتمتكم عليه من

حقوق رعيّتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم: بعدل تحكمون أو جور، لا يخفى عليه شيء من ذلك، حافظ ذلك كلّ، حتى يجازي محسنكم بإحسانه، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ربكم فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله محمداً ﷺ، فإن في طاعتكم إياه لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه لأمر الله إياكم بطاعته واختلف أهل التأويل في معنى قوله: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: هو أمر من الله بطاعة رسوله في حياته فيما أمر ونهى، وبعد وفاته باتباع سنته. وذلك أن الله عمّ بالأمر بطاعته، ولم يخص بذلك في حال دون حال، فهو على العموم حتى يخص ذلك ما يجب التسليم له.

كالذي جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني. واختلف أهل التأويل في "أولي الأمر" الذين أمر الله عباده بطاعتهم في هذه الآية.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله طاعة، وللمسلمين مصلحة، قال أبو جعفر: فإذا كان معلوماً أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله أو رسوله أو إمام عادل، وكان الله قد أمر بقوله: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" بطاعة ذوي أمرنا كان معلوماً أن الذين أمر بطاعتهم تعالى ذكره من ذوي أمرنا، هم الأئمة ومن ولّوه المسلمين، دون غيرهم من الناس، وإن كان فرضاً القبول من كل من أمر بترك معصية الله ودعا إلى طاعة الله، وأنه لا طاعة تجب لأحد فيما أمر ونهى فيما لم تقم حجة وجوبه، إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده طاعتهم فيما أمروا به رعيّتهم مما هو مصلحة لعامة الرعيّة، فإن على من أمروه بذلك طاعتهم، وكذلك في كل ما لم يكن لله معصية.

وإذا كان ذلك كذلك، كان معلوماً بذلك صحة ما اخترنا من التأويل دون غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن اختلفتم، أيها المؤمنون، في شيء من أمر دينكم: أنتم فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمركم، فاشتجرتهم فيه "فردوه إلى الله"، يعني بذلك: فارتادوا معرفة حكم ذلك الذي اشتجرتهم أنتم بينكم، أو أنتم وأولو أمركم فيه من عند الله، يعني بذلك: من كتاب الله، فاتبعوا ما وجدتم وأما قوله: "والرسول"، فإنه يقول: فإن لم تجدوا

إلى علم ذلك في كتاب الله سبيلا فارتادوا معرفة ذلك أيضًا من عند الرسول إن كان حيًا، وإن كان ميتًا فمن سنته "إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر"، يقول: افعلوا ذلك إن كنتم تصدقون بالله "واليوم الآخر"، يعني: بالمعاد الذي فيه الثواب والعقاب، فإنكم إن فعلتم ما أمرتم به من ذلك. فلکم من الله الجزيل من الثواب، وإن لم تفعلوا ذلك فلکم الأليم من العقاب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "ذلك"، فردُّ ما تنازعتم فيه من شيء إلى الله والرسول، "خير" لكم عند الله في معادكم، وأصلح لكم في دنياكم، لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة، وترك التنازع والفرقة "وأحسن تأويلاً"، يعني: وأحمد مؤثلاً ومغبّة، وأجمل عاقبة.

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "ألم تر"، يا محمد، بقلبك، فتعلم إلى الذين يزعمون أنهم صدقوا بما أنزل إليك من الكتاب، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قلبك من الكتب، يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت يعني إلى: من يعظمونه، ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله، "وقد أمروا أن يكفروا به"، يقول: وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم به الطاغوت الذي يتحاكون إليه، فتركوا أمر الله واتبعوا أمر الشيطان "ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً"، يعني: أن الشيطان يريد أن يصدّ هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق والهدى، فيضلهم عنها ضلالاً بعيداً يعني: فيجور بهم عنها جوراً شديداً وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في رجل من المنافقين دعا رجلاً من اليهود في خصومة كانت بينهما إلى بعض الكهّان، ليحكم بينهم، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم. كما جاء عن عامر في هذه الآية: "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت"، قال: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود، لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين، لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة. فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جُهينة، فأنزل الله فيه هذه الآية: "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك" حتى بلغ "ويسلموا تسليماً".

وقد بينا معنى: "الطاغوت" في غير هذا الموضع، فكرهنا إعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ألم تر، يا محمد، إلى الذين يزعمون

أنهم آمنوا بما أنزل إليك من المنافقين، وإلى الذي يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قبلك من أهل الكتاب، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت "وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله"، يعني بذلك: "وإذا قيل لهم تعالوا"، هلمُّوا إلى حكم الله الذي أنزله في كتابه، وإلى الرسول ليحكم بيننا "رأيت المنافقين يصدون عنك"، يعني بذلك: يمتنعون من المصير إليك لتحكم بينهم، ويمنعون من المصير إليك كذلك غيرهم "صدودًا".

القول في تأويل قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۖ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فكيف هؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك "إذا أصابتهم مصيبة"، يعني: إذا نزلت بهم نقمة من الله "بما قدمت أيديهم"، يعني: بذنوبهم التي سلفت منهم، "ثم جاءوك يحلفون بالله"، يقول: ثم جاءوك يحلفون بالله كذبًا وزورًا "إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا". وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاق العبر والنقم، وأنهم إن تأتهم عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم ينيبوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذبًا وجرأة على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض، والصواب فيما احتكمنا فيه إليه.

القول في تأويل قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۖ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "أولئك"، هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم "يعلم الله ما في قلوبهم" في احتكامهم إلى الطاغوت، وتركهم الاحتكام إليك، وصدودهم عنك من النفاق والزيغ، وإن حلفوا بالله: ما أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا "فأعرض عنهم وعظهم"، يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظمهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله، "وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغًا"، يقول: مرهم باتقاء الله والتصديق به وبرسوله ووعدته ووعيده.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولم نرسل، يا محمد، رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه. يقول تعالى ذكره: فأنت، يا محمد، من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلته إليه.

وإنما هذا من الله توبيخ للمحتكمين من المنافقين الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ فيما اختصموا فيه إلى الطاغوت، صدودًا عن رسول الله ﷺ. يقول لهم تعالى ذكره: ما أرسلتُ رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه، فمحمّد ﷺ من أولئك الرسل،

فمن ترك طاعته والرّضى بحكمه واحتكم إلى الطاغوت، فقد خالف أمرى، وضيع فرضى.
ثم أخبر جل ثناؤه: أن من أطاع رسله، فإنما يطيعهم بإذنه يعني: بتقديره ذلك وقضائه السابق في علمه ومشيئته قال أبو جعفر: إنما هذا تعريض من الله تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين، بأن تركهم طاعة الله وطاعة رسوله والرضى بحكمه، إنما هو للسابق لهم من خذلانه وغلبة الشقاء عليهم، ولولا ذلك لكانوا ممن أذن له في الرضى بحكمه، والمسارة إلى طاعته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولو أن هؤلاء المنافقين الذين وصف صفتهم في هاتين الآيتين، الذين إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله صدّوا صدودًا، "إذ ظلموا أنفسهم"، باكتسابهم إياها العظيم من الإثم في احتكامهم إلى الطاغوت، وصدودهم عن كتاب الله وسنة رسوله إذا دعوا إليها "جاؤوك"، يا محمد، حين فعلوا ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوت راضين بحكمه دون حكمك، جاؤوك تائبين منيبين، فسألوا الله أن يصفح لهم عن عقوبة ذنبهم بتغطيته عليهم، وسأل لهم الله رسوله ﷺ مثل ذلك. وذلك هو معنى قوله: "فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول".

وأما قوله: "لوجدوا الله توابًا رحيماً"، فإنه يقول: لو كانوا فعلوا ذلك فتابوا من ذنبهم "لوجدوا الله توابًا"، يقول: راجعًا لهم مما يكرهون إلى ما يحبون "رحيمًا" بهم، في تركه عقوبتهم على ذنبهم الذي تابوا منه.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فلا" فليس الأمر كما يزعمون: أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدّون عنك إذا دعوا إليك يا محمد واستأنف القسم جل ذكره فقال: "وربك"، يا محمد "لا يؤمنون"، أي: لا يصدقون بي وبك وبما أنزل إليك "حتى يحكموك فيما شجر بينهم"، يقول: حتى يجعلوك حكمًا بينهم فيما اختلط بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه. يقال: "شجر يشجر شجورًا وشجرًا"، و"تشاجر القوم"، إذا اختلفوا في الكلام والأمر، "مشاجرة وشجارًا".

ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت، يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما قضيت. وإنما معناه: ثم لا تخرج أنفسهم مما قضيت أي: لا تأثم بإنكارها ما قضيت، وشكها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حق لا يجوز لهم خلافه واختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية، وفيمن نزلت؟ فقال بعضهم: نزلت في الزبير بن العوام وخصم له من الأنصار، اختصما إلى النبي ﷺ في بعض الأمور. فعن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلا من الأنصار قد

شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ في شِراج من الحرّة كانا يسقيان به كلاًهما النخل، فقال الأنصاري: سَرَّح الماء يَمْرًا فأبى عليه، فقال يا رسول الله ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمّك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك. واستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه قال أبو جعفر: والصواب: "استوعب" وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه الشفقة له وللأنصاري. فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصاري، استوعب للزبير حقه في صريح الحكم قال فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم"، الآية. وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في المنافق واليهودي اللذين وصف الله صفتهم في قوله: "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت". قال أبو جعفر: وهذا القول أعني قول من قال: عني به المحتكمان إلى الطاغوت اللذان وصف الله شأنهما في قوله: "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك" أولى بالصواب، لأن قوله: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم" في سياق قصة الذين ابتدأ الله الخبر عنهم بقوله: "ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك"، ولا دلالة تدل على انقطاع قصتهم، فإلحاق بعض ذلك ببعض ما لم تأت دلالة على انقطاعه أولى. فإن ظن ظان أن في الذي روي عن الزبير وابن الزبير من قصته وقصة الأنصاري في شِراج الحرّة، وقول من قال في خبرهما: "فنزلت فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم" ما ينبئ عن انقطاع حكم هذه الآية وقصتها من قصة الآيات قبلها، فإنه غير مستحيل أن تكون الآية نزلت في قصة المحتكمين إلى الطاغوت، ويكون فيها بيان ما احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصاري، إذ كانت الآية دلالة دالة وإذ كان ذلك غير مستحيل، كان إلحاق معنى بعض ذلك ببعض، أولى، ما دام الكلام متسقة معانيه على سياق واحد، إلا أن تأتي دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض، فيُعَدّل به عن معنى ما قبله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم"، ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، المحتكمين إلى الطاغوت، أن يقتلوا أنفسهم وأمرناهم بذلك أو أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين منها إلى دار أخرى سواها "ما فعلوه"، يقول: ما قتلوا أنفسهم بأيديهم، ولا هاجروا من ديارهم فيخرجوا عنها إلى الله ورسوله، طاعة لله ولرسوله "إلا قليل منهم". وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك صدودًا "فعلوا ما يوعظون به"، يعني: ما يذكرون به من طاعة الله والانتهاه إلى أمره "لكان خيرًا لهم"، في عاجل دنياهم، وآجل معادهم "وأشد تثبيتًا"، وأثبت لهم في أمورهم، وأقوم لهم عليها. وذلك أن المنافق يعمل على شك، فعمله يذهب باطلا وعناؤه يضمحل فيصير هباء، وهو بشكه يعمل على وناء وضعف.

ولو عمل على بصيرة، لاكتسب بعمله أجرًا، ولكان له عند الله ذخراً، وكان على عمله الذي يعمل أقوى، ولنفسه أشد تثبيثًا، لإيمانه بوعد الله على طاعته، وعمله الذي يعمل. ولذلك قال من قال: معنى قوله: "وأشد تثبيثًا"، تصديقًا لأنه إذا كان مصدقًا، كان لنفسه أشد تثبيثًا، ولعزمه فيه أشد تصحيحًا. وهو نظير قوله جل ثناؤه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وقد أتينا على بيان ذلك في موضعه، بما فيه كفاية من إعادته،

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٧﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم، لإيتائنا إياهم على فعلهم ما وعظوا به من طاعتنا والانتهاه إلى أمرنا "أجرًا" يعني: جزاء وثوابًا عظيمًا وأشد تثبيثًا لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم، لهدايتنا إياهم صراطًا مستقيمًا يعني: طريقًا لا اعوجاج فيه، وهو دين الله القويم الذي اختاره لعباده وشرعه لهم، وذلك الإسلام.

ومعنى قوله: "ولهديناهم"، ولو فققناهم للصراط المستقيم. ثم ذكر جل ثناؤه ما وعد أهل طاعته وطاعة رسوله ﷺ، من الكرامة الدائمة لديه، والمنازل الرفيعة عنده. فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ الآية.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا ﴿٢٨﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "ومن يطع الله والرسول" بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضى بحكمهما، والانتهاه إلى أمرهما، والانزجار عما نهى عنه من معصية الله، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل الجنة "والصديقين" وهم جمع "صديق". واختلف في معنى: "الصديقين".

والذي هو أولى بـ "الصديق"، أن يكون معناه: المصدق قوله بفعله. إذ كان "الفعل" في كلام العرب، إنما يأتي، إذا كان مأخوذًا من الفعل، بمعنى المبالغة، إما في المدح، وإما في الذم، ومنه قوله جل ثناؤه في صفة مريم: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

وإذا كان معنى ذلك ما وصفنا، كان داخلا من كان موصوفاً بما قلنا في صفة المتصدقين والمصدقين. "والشهداء"، وهم جمع "شهيد"، وهو المقتول في سبيل الله، سمي بذلك لقيامه بشهادة الحق في جنب الله حتى قتل. والصالحين"، وهم جمع "صالح"، وهو كل من صلحت سريرته وعلايته. وأما قوله جل ثناؤه: "وحسن أولئك رفيقا"، فإنه يعني: وحسن هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة. و"الرفيق" في لفظ واحد بمعنى الجميع.

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت، لأن قوماً حزنوا على فقد رسول الله ﷺ حذراً أن لا يروه في الآخرة. كما جاء عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: يا فلان، مالي أراك محزوناً؟ قال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه! فقال: ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، غداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك! فلم يرد النبي ﷺ شيئاً. فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية: "ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا". قال: فبعث إليه النبي ﷺ فبشره.

وأما قوله: "ذلك الفضل من الله"، فإنه يقول: كون من أطاع الله والرسول مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين "الفضل من الله"، يقول: ذلك عطاء الله إياهم وفضله عليهم، لا باستيجابهم ذلك لسابقة سبقت لهم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا"، صدقوا الله ورسوله "خذوا حذركم"، خذوا جُتَّتكم وأسلحتكم التي تتقون بها من عدوكم لغزوهم وحرهم "فانفروا إليهم ثبات". وهي جمع "ثبة"، و"الثبة"، العصبية. ومعنى الكلام: فانفروا إلى عدوكم جماعة بعد جماعة متسلحين. "أو انفروا جميعاً"، يقول: أو انفروا جميعاً مع نبيكم ﷺ لقتالهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِظَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا نعت من الله تعالى ذكره للمنافقين، نعتهم لنبيه ﷺ وأصحابه ووصفهم بصفته فقال: "وإن منكم"، أيها المؤمنون، يعني: من عداكم وقومكم، ومن يتشبه بكم، ويظهر أنه من أهل دعوتكم ومِلَّتكم، وهو منافق يبطئ من أطاعه منكم عن جهاد عدوكم وقتالهم إذا أنتم نفرتم إليهم "فإن أصابتكم مصيبة"، يقول: فإن أصابتكم هزيمة، أو نالكم قتل أو جراح أو عدوكم "قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً"، فيصيني جراح أو ألم أو قتل، وسرّه تخلفه عنكم، شماتة بكم، لأنه من أهل الشك في وعد الله الذي

وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيله من الأجر والثواب، وفي وعيده. فهو غير راج ثوابًا، ولا خائف عقابًا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: "ولئن أصابكم فضل من الله"، ولئن أظفركم الله بعدوكم فأصبتهم منهم غنيمة، ليقولن هذا المبطلُ المسلمين عن الجهاد معكم في سبيل الله، المنافقُ "كأن لم يكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز"، بما أصيب معهم من الغنيمة "فوزًا عظيمًا". وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين: أن شهدوهم الحرب مع المسلمين إن شهدوها، لطلب الغنيمة وإن تخلفوا عنها، فللسك الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثوابًا، ولا يخافون بالتخلف عنها من الله عقابًا. وكان قتادة وابن جريج يقولان: إنما قال من قال من المنافقين إذا كان الظفر للمسلمين: "يا ليتني كنت معهم"، حسدًا منهم لهم.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا حض من الله المؤمنين على جهاد عدوه من أهل الكفر به على أحيائهم غاليين كانوا أو مغلوبين، والتهاون بأقوال المنافقين في جهاد من جاهدوا من المشركين، وأن لهم في جهادهم إياهم - مغلوبين كانوا أو غاليين - منزلة من الله رفيعة. يقول الله لهم جل ثناؤه: "فليقاتل في سبيل الله"، يعني: في دين الله والدعاء إليه، والدخول فيما أمر به أهل الكفر به "الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة"، يعني: الذين يبيعون حياتهم الدنيا بثواب الآخرة وما وعد الله أهل طاعته فيها. وبيعهم إياها بها: إنفاقهم أموالهم في طلب رضى الله، لجهاد من أمر بجهاده من أعدائه وأعداء دينه، وبذلهم مهجهم له في ذلك. أخبر جل ثناؤه بما لهم في ذلك إذا فعلوه فقال: "ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا"، يقول: ومن يقاتل - في طلب إقامة دين الله وإعلاء كلمة الله - أعداء الله "فيقتل"، يقول: فيقتله أعداء الله، أو يغلبهم فيظفر بهم "فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا"، يقول: فسوف نعطيه في الآخرة ثوابًا وأجرًا عظيمًا. وليس لما سمي جل ثناؤه "عظيمًا"، مقدار يعرف مبلغه عبادُ الله. وقد دللنا على أن الأغلب على معنى: "شريت"، في كلام العرب: "بعت"، بما أغنى عن إعادته

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "وما لكم" أيها المؤمنون "لا تقاتلون في سبيل الله"، وفي "المستضعفين"، يقول: عن المستضعفين منكم "من الرجال والنساء

والولدان"، فأما من "الرجال"، فإنهم كانوا قد أسلموا بمكة، فغلبتهم عشائريهم على أنفسهم بالقهر لهم، وأذوهم، ونالوهم بالعذاب والمكاره في أبدانهم ليفتنوهم عن دينهم، فحَضَّ الله المؤمنين على استنقاذهم من أيدي من قد غلبهم على أنفسهم من الكفار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفهم الكفار فاستذلوهم ابتغاء فتنتهم وصدّهم عن دينهم؟ "من الرجال والنساء والولدان" جمع "ولد": وهم الصبيان "الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها"، يعني بذلك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يقولون في دعائهم ربّهم بأن ينجيهم من فتنة من قد استضعفهم من المشركين: "يا ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها". والعرب تسمي كل مدينة "قرية" يعني: التي قد ظلمتنا وأنفسها أهلها وهي في هذا الموضع، فيما فسر أهل التأويل، "مكة". "واجعل لنا من لدنك ولياً"، يعني: أنهم يقولون أيضاً في دعائهم: يا ربنا، واجعل لنا من عندك ولياً، يلي أمرنا بالكفاية مما نحن فيه من فتنة أهل الكفر بك "واجعل لنا من لدنك نصيراً"، يقولون: واجعل لنا من عندك من ينصرنا على من ظلمنا من أهل هذه القرية الظالم أهلها، بصدّهم إيانا عن سبيلك، حتى تظفرنا بهم، وتعلي دينك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: الذين صدقوا الله ورسوله، وأيقنوا بموعود الله لأهل الإيمان به "يقاتلون في سبيل الله"، يقول: في طاعة الله ومنهاج دينه وشريعته التي شرعها لعباده "والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت"، يقول: والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم "يقاتلون في سبيل الطاغوت"، يعني: في طاعة الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله. يقول الله، مقوياً عزم المؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ، ومحرضهم على أعدائه وأعداء دينه من أهل الشرك به: "فقاتلوا" أيها المؤمنون، "أولياء الشيطان"، يعني بذلك: الذين يتولّونه ويطيعون أمره، في خلاف طاعة الله، والتكذيب به، وينصرونه "إن كيد الشيطان كان ضعيفاً"، يعني بكيدة: ما كاد به المؤمنين، من تحزيبه أوليائه من الكفار بالله على رسوله وأوليائه أهل الإيمان به. يقول: فلا تهابوا أولياء الشيطان، فإنما هم حزبه وأنصاره، وحزب الشيطان أهل وهن وضعف وإنما وصفهم جل ثناؤه بالضعف، لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية أو حسداً للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتل من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله، ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيد الله في تركه، فهو يقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل، وبما له من

الغنيمة والظفر إن سلم. والكافر يقاتل على حذر من القتل، وإياس من معاد، فهو ذو ضعف وخوف.

القول في تاويل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ قال أبو جعفر: ذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا قد آمنوا به وصدقوه قبل أن يفرض عليهم الجهاد، وقد فرض عليهم الصلاة والزكاة، وكانوا يسألون الله أن يُفرض عليهم القتال، فلما فرض عليهم القتال شقَّ عليهم ذلك، وقالوا ما أخبر الله عنهم في كتابه. فتأويل قوله: "ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم"، ألم تر بقلبك، يا محمد، فتعلم "إلى الذين قيل لهم"، من أصحابك حين سألوك أن تسأل ربك أن يفرض عليهم القتال "كفوا أيديكم"، فأمسكوها عن قتال المشركين وحرهم "وأقيموا الصلاة"، يقول: وأدوا الصلاة التي فرضها الله عليكم بحدودها "وآتوا الزكاة"، يقول: وأعطوا الزكاة أهلها الذين جعلها الله لهم من أموالكم، تطهيراً لأبدانكم وأموالكم كرهوا ما أمروا به من كف الأيدي عن قتال المشركين وشق ذلك عليهم "فلما كتب عليهم القتال"، يقول: فلما فرض عليهم القتال الذي كانوا سألوا أن يفرض عليهم "إذا فريق منهم"، يعني: جماعة منهم "يخشون الناس"، يقول: يخافون الناس أن يقاتلوهم "كخشية الله أو أشد خشية"، أو أشد خوفاً وقالوا جزعاً من القتال الذي فرض الله عليهم: "لم كتبت علينا القتال"، لم فرضت علينا القتال؟ ركوناً منهم إلى الدنيا، وإيثاراً للدعة فيها والخفض، على مكروه لقاء العدو ومشقة حربهم وقتالهم "لولا أخرتنا"، يخبر عنهم، قالوا: هلا أخرتنا "إلى أجل قريب"، يعني: إلى أن يموتوا على فُرْشهم وفي منازلهم.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "قل متاع الدنيا قليل"، قل، يا محمد، لهؤلاء القوم الذين قالوا: "ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب": عيشكم في الدنيا وتمتعكم بها قليل، لأنها فانية وما فيها فاني والآخرة خير، يعني: ونعيم الآخرة خير، لأنها باقية ونعيمها باق دائم. وإنما قيل: "والآخرة خير"، ومعنى الكلام ما وصفت، من أنه معنيٌّ به نعيمها - لدلالة ذكر "الآخرة" بالذي ذكرت به، على المعنى المراد منه "لمن اتقى"، يعني: لمن اتقى الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، فأطاعه في كل ذلك "ولا تظلمون فتيلًا"، يعني: ولا ينقصكم الله من أجور أعمالكم فتيلًا. وقد بينا معنى: "الفتيل"، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته ههنا.

القول في تأويل قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: حيثما تكونوا يَنَلِكُمُ الموت فتموتوا "ولو كنتم في بروج مشيدة"، يقول: لا تجزعوا من الموت، ولا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حذرًا على أنفسكم من القتل والموت، فإن الموت بإزائكم أين كنتم، وواصلًا إلى أنفسكم حيث كنتم، ولو تحصّنتم منه بالحصون المنيعة. واختلف أهل التأويل في معنى قوله: "ولو كنتم في بروج مشيدة". فقال بعضهم: يعني به: قصور مُحَصَّنَة. وجاء عن الربيع في قوله: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة"، يقول: ولو كنتم في قصور في السماء.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله"، وإن ينلهم رخاء وظفر وفتح ويصيبوا غنيمة "يقولوا هذه من عند الله"، يعني: من قبل الله ومن تقديره "وإن تصبهم سيئة"، يقول: وإن تنلهم شدة من عيش وهزيمة من عدو وجراح وألم، يقولوا لك يا محمد: "هذه من عندك"، بخطئك التدبير. وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره عن الذين قال فيهم لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾. ونحن ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "قل كل من عند الله"، قل، يا محمد، لهؤلاء القائلين إذا أصابتهم حسنة: "هذه من عند الله"، وإذا أصابتهم سيئة: "هذه من عندك": كل ذلك من عند الله، دوني ودون غيري، من عنده الرخاء والشدة، ومنه النصر والظفر، ومن عنده الفلُّ والهزيمة كما جاء عن ابن عباس قوله: "قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا"، يقول: الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فمال هؤلاء القوم"، فما شأن هؤلاء القوم الذين إن تصبهم حسنة يقولوا: "هذه من عند الله"، وإن تصبهم سيئة يقولوا: "هذه من عندك" "لا يكادون يفقهون حديثًا"، يقول: لا يكادون يعلمون حقيقة ما تخبرهم به، من أن كل ما أصابهم من خير أو شر، أو ضرر وشدة ورخاء، فمن عند الله، لا يقدر على ذلك غيره، ولا يصيب أحدًا سيئة إلا بتقديره، ولا ينال رخاءً ونعمة إلا بمشيئته. وهذا إعلام من الله عباده أن مفاتيح الأشياء كلها بيده، لا يملك شيئًا منها أحد غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك"، ما يصيبك، يا محمد، من رخاء ونعمة وعافية وسلامة، فمن فضل الله عليك، يتفضل به عليك إحساناً منه إليك وأما قوله: "وما أصابك من سيئة فمن نفسك"، يعني: وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه "فمن نفسك"، يعني: بذنب استوجبتها به، اكتسبته نفسك

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "وأرسلناك للناس رسولاً"، إنما جعلناك، يا محمد، رسولاً بيننا وبين الخلق، تبليغهم ما أرسلناك به من رسالة، وليس عليك غير البلاغ وأداء الرسالة إلى من أرسلت، فإن قبلوا ما أرسلت به فلا أنفسهم، وإن ردُّوا فعليها "وكفى بالله" عليك وعليهم "شهِيداً"، يقول: حسبك الله تعالى ذكره، شاهداً عليك في بلاغك ما أمرتك ببلاغه من رسالته ووحيه، وعلى من أرسلت إليه في قبولهم منك ما أرسلت به إليهم، فإنه لا يخفى عليه أمرك وأمرهم، وهو مجازيك ببلاغك ما وعدك، ومجازيهم ما عملوا من خير وشر، جزاء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعداؤ من الله إلى خلقه في نبيه محمد ﷺ، يقول الله تعالى ذكره لهم: من يطع منكم، أيها الناس، محمداً فقد أطاعني بطاعته إياه، فاسمعوا قوله وأطيعوا أمره، فإنه مهما يأمركم به من شيء فمن أمري يأمركم، وما نهاكم عنه من شيء فمن نهيي، فلا يقولن أحدكم: "إنما محمد بشر مثلنا يريد أن يتفضل علينا"! ثم قال جل ثناؤه لنبيه: ومن تولى عن طاعتك، يا محمد، فأعرض عنك، فإننا لم نرسلك عليهم "حفيظاً"، يعني: حافظاً لما يعملون محاسباً، بل إنما أرسلناك لتبين لهم ما نزل إليهم، وكفى بنا حافظين لأعمالهم ولهم عليها محاسبين.

ونزلت هذه الآية، فيما ذكر، قبل أن يؤمر بالجهاد، كما جاء عن ابن وهب قال، سألت ابن زيد عن قول الله: "فما أرسلناك عليهم حفيظاً" قال: هذا أول ما بعثه، قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. قال: ثم جاء بعد هذا بأمره بجهادهم والغلبة عليهم حتى يسلموا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه بقوله: "ويقولون طاعة"، يعني: الفريق الذي أخبر الله عنهم أنهم لما كتب عليهم القتال خَشُوا الناس كخشية الله أو أشد خشية، يقولون لنبي الله ﷺ إذا أمرهم بأمر: أمرك طاعة، ولك منا طاعة فيما تأمرنا به وتنهانا عنه "وإذا

برزوا من عندك"، يقول: فإذا خرجوا من عندك، يا محمد "بيت طائفة منهم غير الذي تقول"، يعني بذلك جل ثناؤه: غير جماعة منهم ليلا الذي تقول لهم.

وكل عمل عمل ليلا فقد "بيت"، ومن ذلك "بيت العدو، وهو الوقوع

يقول الله جل ثناؤه: "والله يكتب ما يبيتون"، يعني بذلك جل ثناؤه: والله يكتب ما يغيرون من قولك ليلا في كتب أعمالهم التي تكتبها حفظته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ قال أبو جعفر:

يقول جل ثناؤه لمحمد ﷺ: "فأعرض"، يا محمد، عن هؤلاء المنافقين الذين يقولون لك فيما تأمرهم: "أمرك طاعة"، فإذا برزوا من عندك خالفوا ما أمرتهم به، وغيروه إلى ما نهيتهم عنه، وخلهم وما هم عليه من الضلالة، وارض لهم بي منتقما منهم "وتوكل" أنت يا محمد "على الله"، يقول: وفوض أنت أمرك إلى الله، وثق به في أمورك، وولها إياه "وكفى بالله وكيلا"، يقول: وكفك بالله أي: وحسبك بالله "وكيلا"، أي: فيما يأمرك، ووليا لها، ودافعا عنك وناصرا.

القول في تأويل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "أفلا يتدبرون القرآن"، أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم، يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لا تساق معانيه، واتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني

جل ثناؤه بقوله: "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به"، وإذا جاء هذه الطائفة المبيتة غير الذي يقول رسول الله ﷺ "أمر من الأمن"، فالهاء والميم في قوله: "وإذا جاءهم"، من ذكر الطائفة المبيتة يقول جل ثناؤه: وإذا جاءهم خبر عن سرية للمسلمين غازية بأنهم قد آمنوا من عدوهم بغلبتهم إياهم "أو الخوف"، يقول: أو تخوفهم من عدوهم بإصابة عدوهم منهم "أذاعوا به"، يقول: أفشوه وبثوه في الناس قبل رسول الله ﷺ، وقبل ما أتى سرايا رسول الله ﷺ و"الهاء" في قوله: "أذاعوا به"، من ذكر "الأمر". وتأويله أذاعوا بالأمر من الأمن أو الخوف الذي جاءهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولو ردوه"، الأمر الذي نالهم من عدوهم والمسلمين،

إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي أمرهم يعني: وإلى أمرائهم وسكتوا فلم يذيعوا ما جاءهم من الخبر، حتى يكون رسول الله ﷺ، أو ذو وأمرهم، هم الذين يتولون الخبر عن ذلك، بعد أن ثبتت عندهم صحته أو بطوله، فيصححوه إن كان صحيحاً، أو يبطلوه إن كان باطلاً "لعلمه الذين يستنبطونه منهم"، يقول: لعلم حقيقة ذلك الخبر الذي جاءهم به، الذين يبحثون عنه ويستخرجونه "منهم"، يعني: أولي الأمر "والهاء" "والميم" في قوله: "منهم"، من ذكر أولي الأمر يقول: لعلم ذلك من أولي الأمر من يستنبطه. وكل مستخرج شيئاً كان مستتراً عن أبصار العيون أو عن معارف القلوب، فهو له: "مستنبط"، يقال: "استنبطت الركية"، إذا استخرجت ماءها، "ونَبَطْتُها أَنْبَطُها"، و"النَبَطُ"، الماء المستنبط من الأرض

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال أبو

جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولولا إنعام الله عليكم، أيها المؤمنون، بفضلِهِ وتوفيقِهِ ورحمته، فأنقذكم مما ابتلى به هؤلاء المنافقين الذين يقولون لرسول الله ﷺ إذا أمرهم بأمر: "طاعة"، فإذا برزوا من عنده بيت طائفة منهم غير الذي يقول لكتنم مثلهم، فاتبعتم الشيطان إلا قليلاً كما اتبعه هؤلاء الذين وصف صفتهم. وخاطب بقوله تعالى ذكره: "ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان"، الذين خاطبهم بقوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]. ثم اختلف أهل التأويل في "القليل"، الذين استثناهم في هذه الآية: من هم؟ ومن أي شيء من الصفات استثناهم؟ قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: عني باستثناء "القليل" من "الإذاعة"، وقال: معنى الكلام: وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلاً ولو ردوه إلى الرسول.

القول في تاويل قوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك"، فجاهد، يا محمد، أعداء الله من أهل الشرك به "في سبيل الله"، يعني: في دينه الذي شرعه لك، وهو الإسلام، وقاتلهم فيه بنفسك. فأما قوله: "لا تكلف إلا نفسك" فإنه يعني: لا يكلفك الله فيما فرض عليك من جهاد عدوه وعدوك، إلا ما حمَّلك من ذلك دون ما حمَّل غيرك منه، أي: أنك إنما تتعب بما اكتسبته دون ما اكتسبه غيرك، وإنما عليك ما كُلفته دون ما كُلفه غيرك. ثم قال له: "وحرض المؤمنين"، يعني: وحضهم على قتال من أمرتك بقتالهم معك "عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا"، يقول: لعل الله أن يكف قتال من كفر بالله ووجد وحدانيته وأنكر رسالتك، عنك وعنهم، ونكايتهم.

وقد بينا فيما مضى أن "عسى" من الله واجبة، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

"والله أشد بأسًا وأشد تنكيلًا"، يقول: والله أشد نكاية في عدوه، من أهل الكفر به منهم فيك يا محمد وفي أصحابك، فلا تنكّل عن قتالهم، فإني راصدُهم بالأس والنكاية والتنكيل والعقوبة، لأوهن كيدهم، وأضعف بأسهم، وأعلي الحق عليهم. و"التنكيل" مصدر من قول القائل: "نكلت بفلان"، فأنا أنكّل به تنكيلًا، إذا أوجعته عقوبة

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "من يشفع شفاعاة حسنة يكن له نصيب منها"، من يصِر، يا محمد، شفعا لوتر أصحابك، فيشفعهم في جهاد عدوهم وقتالهم في سبيل الله، وهو "الشفاعة الحسنة" "يكن له نصيب منها"، يقول: يكن له من شفاعته تلك نصيب - وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته "ومن يشفع شفاعاة سيئة، يقول: ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين به، فيقاتلهم معهم، وذلك هو "الشفاعة السيئة" "يكن له كفل منها". يعني: بـ "الكفل"، النصيب والحظ من الوزر والإثم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "وكان الله على كل شيء مقيتًا".

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وإذا حييتم بتحية"، إذا دعي لكم بطول الحياة والبقاء والسلامة. "فحيوا بأحسن منها أو ردوها"، يقول: فادعوا لمن دعا لكم بذلك بأحسن مما دعا لكم "أو ردوها" يقول: أو ردوا التحية. ثم اختلف أهل التأويل في صفة "التحية" التي هي أحسن مما حُيِّيَ به المُحَيِّي، والتي هي مثلها. قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بتأويل الآية، قول من قال: ذلك في أهل الإسلام، ووجه معناه إلى أنه يرد السلام على المسلم إذا حياه تحية أحسن من تحيته أو مثلها. وذلك أن الصحاح من الآثار عن رسول الله ﷺ أنه واجب على كل مسلم ردُّ تحية كل كافر بأحسن من تحيته. وقد أمر الله بردُّ الأحسن والمثل في هذه الآية، من غير تمييز منه بين المستوجب ردُّ الأحسن من تحيته عليه، والمردود عليه مثلها، بدلالة يعلم بها صحة قول من قال: "عنى برد الأحسن: المسلم، وبرد المثل: أهل الكفر". والصواب إذ لم يكن في الآية دلالة على صحة ذلك، ولا صحة أثر لازم عن الرسول ﷺ أن يكون الخيار في ذلك إلى المسلم عليه: بين رد الأحسن، أو المثل، إلا في الموضع الذي خصَّ شيئًا من ذلك سنة من رسول الله ﷺ، فيكون مسلمًا لها. وقد خصَّت السنة أهل الكفر بالنهي عن رد الأحسن من تحيتهم عليهم أو مثلها، إلا بأن يقال: "وعليكم"، فلا ينبغي لأحد أن يتعدى ما حدَّ في ذلك رسول الله ﷺ. فأما أهل الإسلام، فإن لمن سلّم عليه منهم في الرد من الخيار، ما جعل الله له من ذلك. كالذي جاء

عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: وعليك ورحمة الله. ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. فقال له رسول الله: وعليك ورحمة الله وبركاته. ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال له: وعليك. فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، أتاك فلان وفلان فسلمّا عليك، فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ! فقال: إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله: "وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها"، فرددناها عليك.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله كان على كل شيء مما تعملون، أيها الناس، من الأعمال، من طاعة ومعصية، حفيظاً عليكم، حتى يجازيكم بها جزاء وأصل "الحسيب" في هذا الموضع عندي، "فعيل" من "الحساب" الذي هو في معنى الإحصاء، يقال منه: "حاسبت فلاناً على كذا وكذا"، و"فلان حاسبه على كذا"، و"هو حسيبه"، وذلك إذا كان صاحب حسابه.

القول في تاويل قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "الله لا إله إلا هو ليجمعنكم"، المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي له عبادة كل شيء وطاعة كل طائع.

وقوله: "ليجمعنكم إلى يوم القيامة"، يقول: ليعثنكم من بعد مماتكم، وليحشرنكم جميعاً إلى موقف الحساب الذي يجازي الناس فيه بأعمالهم، ويقضي فيه بين أهل طاعته ومعصيته، وأهل الإيمان به والكفر "لا ريب فيه"، يقول: لا شك في حقيقة ما أقول لكم من ذلك وأخبركم من خبري: أتني جامعكم إلى يوم القيامة بعد مماتكم "ومن أصدق من الله حديثاً"، يعني بذلك: فاعلموا حقيقة ما أخبركم من الخبر، فإني جامعكم إلى يوم القيامة للجزاء والعرض والحساب والثواب والعقاب يقيناً، فلا تشكوا في صحته ولا تمتروا في حقيقته، فإن قولِي الصدق الذي لا كذب فيه، ووعدِي الصدق الذي لا خُلف له - "ومن أصدق من الله حديثاً"، يقول: وأي ناطق أصدق من الله حديثاً؟ وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعاً، أو يدفع به عنها ضرراً. والله تعالى ذكره خالق الضر والنفع، فغير جائز أن يكون منه كذب، لأنه لا يدعوه إلى اجتلاب نفع إلى نفسه أو دفع ضرر عنها داع. وما من أحدٍ لا يدعوه داع إلى اجتلاب نفع إلى نفسه، أو دفع ضرر عنها، سواء تعالى ذكره، فيجوز أن يكون له في استحالة الكذب منه نظيراً، فقال: "ومن أصدق من الله حديثاً"، وخبراً.

القول في تاويل قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فما لكم في المنافقين فتنين"، فما شأنكم، أيها المؤمنون، في أهل النفاق

فثنتين مختلفتين "والله أركسهم بما كسبوا"، يعني بذلك: والله رَدَّهم إلى أحكام أهل الشرك، في إباحة دمائهم وسبِّي ذراريتهم. و"الإركاس"، الردُّ واختلف أهل التأويل في الذين نزلت فيهم هذه الآية. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدُّوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة.

القول في تأويل قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "والله أركسهم". والذي هو أولى بالصواب كما قلنا من قبل أن معناه: رَدَّهم

القول في تأويل قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله "أتريدون أن تهّدوا من أضل الله"، أتريدون، أيها المؤمنون، أن تهّدوا إلى الإسلام فتوفّقوا للإقرار به والدخول فيه، من أضله الله عنه يعني بذلك: من خذله الله عنه، فلم يوفقه للإقرار به؟ وإنما هذا خطاب من الله تعالى ذكره للفتة التي دافعت عن هؤلاء المنافقين الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية. يقول لهم جل ثناؤه: أتبتغون هداية هؤلاء الذين أضلّهم الله فخذلهم عن الحق واتباع الإسلام، بمدافعتكم عن قتالهم من أراد قتالهم من المؤمنين؟ "ومن يُضلل الله فلن تجد له سبيلاً"، يقول: ومن خذله عن دينه واتباع ما أمره به، من الإقرار به وبنبيه محمد ﷺ وما جاء به من عنده، فأضله عنه "فلن تجد له"، يا محمد، "سبيلاً"، يقول: فلن تجد له طريقاً تهديه فيها إلى إدراك ما خذله الله عنه ولا منهجاً يصل منه إلى الأمر الذي قد حرمه الوصول إليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ودوا لو تكفرون كما كفروا"، تمنى هؤلاء المنافقون الذين أنتم، أيها المؤمنون، فيهم فتن أن تكفروا فتجحدوا وحدانية ربكم، وتصديق نبيكم محمد ﷺ "كما كفروا"، يقول: كما جحدوا هم ذلك "فتكونون سواء"، يقول: فتكونون كفاراً مثلهم، وتستون أنتم وهم في الشرك بالله "فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله"، يقول حتى يخرجوا من دار الشرك ويفارقوا أهلها الذين هم بالله مشركون، إلى دار الإسلام وأهلها "في سبيل الله"، يعني: في ابتغاء دين الله، وهو سبيله، فيصيروا عند ذلك مثلكم، ويكون لهم حينئذ حكمكم

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أدبر هؤلاء المنافقون عن الإقرار بالله ورسوله، وتولوا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام ومن الكفر إلى الإسلام "فخذوهم" أيها المؤمنون "واقتلوهم حيث وجدتموهم"، من بلادهم وغير بلادهم، أين

أصبتموهم من أرض الله "ولا تتخذوا منهم ولياً"، يقول: ولا تتخذوا منهم خليلاً يواليكم على أموركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم، فإنهم كفار لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنتم. وهذا الخبر من الله جل ثناؤه، إبانة عن صحة نفاق الذين اختلف المؤمنون في أمرهم، وتحذير لمن دفع عنهم عن المدافعة عنهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق"، فإن تولّى هؤلاء المنافقون الذين اختلفتم فيهم عن الإيمان بالله ورسوله، وأبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، سوى من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم مودة وعهد وميثاق، فدخلوا فيهم، وصاروا منهم، ورضوا بحكمهم، فإن لمن وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضياً بحكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم: أن لا تسبى نساؤهم وذرايعهم، ولا تغنم أموالهم

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "أو جاءوكم حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ"، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم "إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق" أو: إلا الذين جاءوكم منهم قد حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ عَنْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ فدخلوا فيكم. ويعني بقوله: "حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ"، ضاقت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو أن يقاتلوا قومهم. والعرب تقول لكل من ضاقت نفسه عن شيء من فعل أو كلام: "قد حَصِرَ"، ومنه "الحَصْرُ" في القراءة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه: "ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم"، ولو شاء الله لسلط هؤلاء الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق فيدخلون في جوارهم وذمتهم، والذين يجيئونكم قد حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ وَقِتَالِ قَوْمِهِمْ عَلَيْكُمْ، أيها المؤمنون، فقاتلوكم مع أعدائكم من المشركين، ولكن الله تعالى ذكره كفَّهم عنكم. يقول جل ثناؤه: فأطيعوا الذي أنعم عليكم بكفَّهم عنكم مع سائر ما أنعم به عليكم، فيما أمركم به من الكف عنهم إذا وصلوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو جاؤوكم حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ وَقِتَالِ قَوْمِهِمْ. ثم قال جل ثناؤه: "فإن اعتزلوكم"، يقول: فإن اعتزلكم هؤلاء الذين أمرتكم بالكف عن قتالهم من المنافقين، بدخولهم في أهل عهدكم، أو مصيرهم إليكم حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ وَقِتَالِ قَوْمِهِمْ "فلم يقاتلوكم وألقوا

إِلَيْكُمُ السَّلَامُ"، يقول: وصالحوكم. و"السَّلَامُ"، هو الاستسلام. وإنما هذا مثلٌ، كما يقول الرجل للرجل: "أعطيتك قيادي"، و"أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ خِطَامِي"، إذا استسلم له وانقاد لأمره. فكَذَلِكَ قَوْلُهُ: "وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ"، إنما هو: أَلْقُوا إِلَيْكُمُ قِيَادَهُمْ وَاسْتَسْلَمُوا لَكُمْ، صَلَاحًا مِنْهُمْ لَكُمْ وَسَلَامًا. وَأَمَّا قَوْلُهُ: "فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا"، فإنه يقول: إذا استسلم لكم هؤلاء المنافقون الذين وصف صفتهم، صَلَاحًا مِنْهُمْ لَكُمْ "فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا"، أي: فلم يجعل الله لكم على أنفسهم وأموالهم وذرائعهم ونسائهم طريقًا إلى قتل أو سب أو غنيمه، بإباحةٍ منه ذلك لكم ولا إِذْنٍ، فلا تَعَرَّضُوا لَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا سَبِيلَ خَيْرٍ ثُمَّ نَسَخَ اللَّهُ جَمِيعَ حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ وَالتِّي بَعْدَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. كما جاء عن عكرمة والحسن قَالَا قَالَ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاخْذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وَقَالَ فِي "الْمَمْتَحَنَةِ": ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، وَقَالَ فِيهَا: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ إِلَى ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الْمَمْتَحَنَةِ: ٨، ٩]. فَنَسَخَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعَةَ فِي شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ١، ٢]. فَجَعَلَ لَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ، وَأَبْطَلَ مَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَالَ فِي التِّي تَلِيهَا: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخْذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾، ثُمَّ نَسَخَ وَاسْتَنْى فَقَالَ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَبْلَغُهُمْ مَأْمَنَةً﴾ [التوبة: ٥، ٦].

القول في تاويل قوله: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَهَؤُلَاءِ فَرِيقٌ آخَرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، كَانُوا يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ لِیَأْمَنُوا بِهِ عَنْهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبَاءِ وَأَخَذِ الْأَمْوَالِ وَهُمْ كُفَّارٌ، يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ قَوْمُهُمْ، إِذَا لَقَوْهُمْ كَانُوا مَعَهُمْ وَعَبَدُوا مَا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لِیَأْمَنُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنَسَائِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ. يَقُولُ اللَّهُ: "كَلِمًا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا"، يَعْنِي: كَلِمًا دَعَاهُمْ قَوْمُهُمْ إِلَى الشَّرْكِ بِاللَّهِ، ارْتَدُّوْا فَصَارُوا مُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ. وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الَّذِينَ عَنَّا بِهِ هَذِهِ الْآيَةِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ نَاسٌ كَانُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا - عَلَى مَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ التَّقِيَّةِ - وَهُمْ كُفَّارٌ، لِیَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ وَنَسَائِهِمْ. يَقُولُ اللَّهُ: "كَلِمًا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا"، يَعْنِي: كَلِمًا دَعَاهُمْ قَوْمُهُمْ إِلَى الشَّرْكِ بِاللَّهِ، ارْتَدُّوْا فَصَارُوا مُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ،

ليأمنوا عند هؤلاء وهؤلاء. عن قتادة قوله: "ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم"، قال: حيّ كانوا بتهامة، قالوا: "يا نبي الله، لا نقاتلك ولا نقاتل قومنا"، وأرادوا أن يأمنوا نبي الله ويأمنوا قومهم، فأبى الله ذلك عليهم، فقال: "كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها"، يقول: كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه. وجاء عن السدي قال: ثم ذكر نعيم بن مسعود الأشجعي وكان يأمن في المسلمين والمشركين، ينقل الحديث بين النبي ﷺ والمشركين، فقال: "ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة"، يقول: إلى الشرك. وأما تأويل قوله: "كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها"، فإنه كما جاء عن أبي العالية في قوله: "كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها"، قال: كلما ابتلوا بها، عموا فيها.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا وَيُلْغُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن لم يعزلوكم، أيها المؤمنون، هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، وهم كلما دعوا إلى الشرك أجابوا إليه "ويلقوا إليكم السلم"، ولم يستسلموا إليكم فيعطوكم المقادير ويصالحوكم، "ويكفوا أيديهم"، يقول: ويكفوا أيديهم عن قتالكم، "فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم"، يقول جل ثناؤه: إن لم يفعلوا، فخذوهم أين أصبتموهم من الأرض ولقيتموهم فيها، فاقتلوهم، فإن دماءهم لكم حينئذ حلال "وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً"، يقول جل ثناؤه: وهؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، وهم على ما هم عليه من الكفران، ولم يعزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم، جعلنا لكم حجة في قتلهم أينما لقيتموهم، بمقامهم على كفرهم، وتركهم هجرة دار الشرك "مبيناً" يعني: أنها تبين عن استحقاقهم ذلك منكم، وإصابتكم الحق في قتلهم. وذلك قوله: "سلطاناً مبيناً"، و"السلطان" هو الحجة

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ"، وما أذن الله لمؤمن ولا أباح له أن يقتل مؤمناً. يقول: ما كان ذلك له فيما جعل له ربه وأذن له فيه من الأشياء البتة وأما قوله: "إلا خطأ"، فإنه يقول: إلا أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ، وليس له مما جعل له ربه فأباحه له. وهذا من الاستثناء الذي يُسميه أهل العربية "الاستثناء المنقطع" ثم أخبر جل ثناؤه عباده بحكم من قُتل من المؤمنين خطأ، فقال: "ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير"، يقول: فعليه تحرير "رقبة مؤمنة"، في ماله "ودية مسلمة"، تؤديها عاقلة "إلى أهله إلا أن يصدقوا"، يقول: إلا أن يصدق أهل القتل خطأ على من لزمته دية قتلهم، فيعفوا عنه ويتجاوزوا عن ذنبه، فيسقط عنه.

وذكر أن هذه الآية نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وكان قد قتل رجلاً مسلماً بعد إسلامه، وهو لا يعلم بإسلامه. كما جاء عن مجاهد في قول الله: "وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ"، قال: عيَّاش بن أبي ربيعة، قتل رجلاً مؤمناً كان يعدُّبه مع أبي جهل وهو أخوه لأمه فاتَّبَعَ النبي ﷺ وهو يحسب أن ذلك الرجل كان كما هو. وكان عيَّاش هاجر إلى النبي ﷺ مؤمناً، فجاءه أبو جهل وهو أخوه لأمه فقال: إنَّ أمك تناشدك رَحِمَها وحقَّها أن ترجع إليها وهي أسماء ابنة مخزَّبة، فأقبل معه، فربطه أبو جهل حتى قدم مكة. فلما رآه الكفار زادهم ذلك كُفْراً وافتتاناً، وقالوا: إنَّ أبا جهل ليقدرُ من محمدٍ على ما يشاء ويأخذ أصحابه.

وقال آخرون: نزلت هذه الآية في أبي الدرداء. كما جاء قال ابن زيد في قوله: "وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ"، الآية، قال: نزل هذا في رجل قتل أبو الدرداء، نزل هذا كله فيه. كانوا في سرية، فعَدَلَ أبو الدرداء إلى شُعْبٍ يريد حاجة له، فوجد رجلاً من القوم في غم له، فحمل عليه بالسيف فقال: لا إله إلا الله! قال: فضربه، ثم جاء بغنمه إلى القوم. ثم وجد في نفسه شيئاً، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال له رسول الله ﷺ: ألا شققتَ عن قلبه! فقال: ما عَسَيْتُ أَجِدُ! هل هو يا رسول الله إلا دمٌ أو ماء؟ قال: فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه؟ قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ قال: فكيف بي يا رسول الله؟ قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ حتى تمنيتُ أن يكون ذلك مبتدأً إسلامي. قال: ونزل القرآن: "وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ" حتى بلغ "إلا أن يصدَّقوا"، قال: إلا أن يَصْعَوْها.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عَرَّفَ عباده بهذه الآية ما على من قتل مؤمناً خطأ من كفارة ودية. وجائز أن تكون الآية نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة وقتيله، وفي أبي الدرداء وصاحبه. وأيُّ ذلك كان، فالذي عَنَى الله تعالى بالآية: تعريفُ عباده ما ذكرنا، وقد عرف ذلك من عَقَل عنه من عباده تنزيله، وغير ضائرهم جهلهم بمن نزلت فيه.

وأما "الرقبة المؤمنة"، فإن أهل العلم مختلفون في صفتها.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب في ذلك، قال من قال: لا يجزئ في قتل الخطأ من الرقاب إلا من قد آمن وهو يعقل الإيمان من بالغى الرجال والنساء، إذا كان ممن كان أبواه على ملة من الملل سوى الإسلام، وولد بينهما وهما كذلك، ثم لم يسلموا ولا واحداً منهما حتى أعتق في كفارة الخطأ. وأما من ولد بين أبوين مسلمين، فقد أجمع الجميع من أهل العلم أنه وإن لم يبلغ حد الاختيار والتمييز، ولم يدرك الحُلُم، فمحكوم له بحكم أهل الإيمان في الموارثة، والصلاة عليه إن مات، وما يجب عليه إن جَنَى، ويجب له إن جُنِيَ عليه، وفي المناكحة. فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً، فواجب أن يكون له من الحكم فيما يجزئ فيه

من كفارة الخطأ إن أعتق فيها من حكم أهل الإيمان، مثل الذي له من حكم الإيمان في سائر المعاني التي ذكرناها وغيرها. ومن أبى ذلك، عكس عليه الأمر فيه، ثم سئل الفرق بين ذلك من أصل أو قياس. فلن يقول في شيء من ذلك قولاً إلا ألزم في غيره مثله. وأما "الدية المسلمة" إلى أهل القتل، فهي المدفوعة إليهم، على ما وجب لهم، موفرة غير منتقصة حقوق أهلها منها. وأما قوله: "إلا أن يصدقوا"، فإنه يعني به: إلا أن يتصدقوا بالدية على القاتل، أو على عاقلته، فأدغمت "التاء" من قوله: "يتصدقوا" في "الصاد" فصارتا "صاداً".

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن"، فإن كان هذا القتل الذي قتله المؤمن خطأ، "من قوم عدو لكم"، يعني: من عداد قوم أعداء لكم في الدين مشركين قد نابذوكم الحرب على خلافكم على الإسلام "وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة"، يقول: فإذا قتل المسلم خطأ رجلاً من عداد المشركين، والمقتول مؤمن، والقاتل يحسب أنه على كفره، فعليه تحرير رقبة مؤمنة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق"، وإن كان القتل الذي قتله المؤمن خطأ "من قوم بينكم" أيها المؤمنون "وبينهم ميثاق"، أي: عهد وذمة، وليسوا أهل حرب لكم "فدية مسلمة إلى أهله"، يقول: فعلى قاتله دية مسلمة إلى أهله، يتحملها عاقلته "وتحرير رقبة مؤمنة"، كفارة لقتله. ثم اختلف أهل التأويل في صفة هذا القتل الذي هو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، أهو مؤمن أو كافر؟ قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بتأويل الآية، قول من قال: عنى بذلك المقتول من أهل العهد. لأن الله أهتم ذلك فقال: "وإن كان من قوم بينكم وبينهم"، ولم يقل: "وهو مؤمن"، كما قال في القتل من المؤمنين وأهل الحرب وعن المقتول منهم وهو مؤمن. فكان في تركه وصفه بالإيمان الذي وصف به القاتلين الماضي ذكرهما قبل، الدليل الواضح على صحة ما قلنا في ذلك. فإن ظن ظان أن في قوله تبارك وتعالى: "فدية مسلمة إلى أهله"، دليلاً على أنه من أهل الإيمان، لأن الدية عنده لا تكون إلا لمؤمن فقد ظن خطأ. وذلك أن دية الذمي وأهل الإسلام سواء، لإجماع جميعهم على أن ديات عبيدهم الكفار وعبيد المؤمنين من أهل الإيمان سواء. فكذاك حكم ديات أحرارهم سواء، مع أن دياتهم لو كانت على ما قال من خالفنا في ذلك، فجعلها على النصف من ديات أهل الإيمان أو على الثلث، لم يكن في ذلك دليل على أن المعني بقوله: "وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق"، من أهل الإيمان، لأن دية المؤمنة لا خلاف بين الجميع إلا من لا يعد

خلافًا أنها على النصف من دية المؤمن، وذلك غير مخرجها من أن تكون دية. فكذاك حكم ديات أهل الذمة، لو كانت مقصورة عن ديات أهل الإيمان، لم يخرجها ذلك من أن تكون ديات. فكيف والأمر في ذلك بخلافه، ودياتهم وديات المؤمنين سواء؟ وأما "الميثاق" فإنه العهد والذمة. فإن قال قائل: وما صفة الخطأ، الذي إذا قتل المؤمن المؤمن أو المعاهد لزمته ديته والكفارة؟ قيل: هو ما قال النخعي في ذلك،

فعن إبراهيم قال: "الخطأ"، أن يرمي الشيء فيصيب إنساناً وهو لا يريد، فهو خطأ، وهو على العاقلة. فإن قال: فما الدية الواجبة في ذلك؟ قيل: أما في قتل المؤمن، فمائة من الإبل، إن كان من أهل الإبل، على عاقلة قاتله. لا خلاف بين الجميع في ذلك، وإن كان في مبلغ أسنانها اختلاف بين أهل العلم. فمنهم من يقول: هي أربع: خمس وعشرون منها حقة، وخمس وعشرون جذعة، وخمس وعشرون بنات مخاض، وخمس وعشرون بنات لبون. وإذا كان ذلك من جميعهم إجماعاً، فالواجب أن يكون مجزياً من لزمته دية قتل خطأ، أي هذه الأسنان التي اختلف المختلفون فيها، أداها إلى من وجبت له. لأن الله تعالى لم يحد ذلك بحد لا يجاوز به ولا يقصر عنه ولا رسوله، إلا ما ذكرت من إجماعهم فيما أجمعوا عليه، فإنه ليس للإمام مجاوزة ذلك في الحكم بتقصير ولا زيادة، وله التخيير فيما بين ذلك بما رأى صلاح فيه للفريقين. وإن كانت عاقلة القاتل من أهل الذهب، فإن لورثة القتل عليهم عندنا ألف دينار. وعليه علماء الأمصار. وقال بعضهم: ذلك تقويم من عمر رحمة الله عليه، للإبل على أهل الذهب في عصره. والواجب أن يقوم في كل زمان قيمتها، إذا عدم الإبل عاقلة القاتل

وأما من الورق على أهل الورق عندنا، فاثنا عشر ألف درهم، وقد بينا العِلل في ذلك في كتابنا ﴿كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام﴾. وقال آخرون: إنما على أهل الورق من الورق عشرة آلاف درهم. وأما دية المعاهد الذي بيننا وبين قومه ميثاق، فإن أهل العلم اختلفوا في مبلغها. فقال بعضهم: ديته ودية الحر المسلم سواء. وقال آخرون: بل ديته على النصف من دية المسلم. وقال آخرون: بل ديته على الثلث من دية المسلم.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين"، فمن لم يجد رقبة مؤمنة يحررها كفارة لخطئه في قتله من قتل من مؤمن أو معاهد، لعُسْرته بشمها "فصيام شهرين متتابعين"، يقول: فعليه صيام شهرين متتابعين. و"المتابعة" صوم الشهرين، وأن لا يقطعه بإفطار بعض أيامه لغير علة حائلة بينه وبين صومه.

ثم قال جل ثناؤه: "توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً"، يعني: تجاوزاً من الله لكم إلى

التيسير عليكم، بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من فرض تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها، بإيجابه عليكم صوم شهرين متتابعين "وكان الله عليماً حكيماً"، يقول: ولم يزل الله "عليماً"، بما يصلح عباده فيما يكلفهم من فرائضه وغير ذلك "حكيماً"، بما يقضي فيهم ويريد.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يقتل مؤمناً متعمداً، ومن يقتل مؤمناً عامداً قتله، مريداً إتلاف نفسه "فجزاؤه جهنم"، يقول: فتوا به من قتله إياه "جهنم"، يعني: عذاب جهنم "خالداً فيها"، يعني: باقياً فيها و"الهاء" و"الألف" في قوله: "فيها" من ذكر "جهنم" "وغضب الله عليه"، يقول: وغضب الله عليه بقتله إياه متعمداً "ولعنه" يقول: وأبعده من رحمته وأخزاه "وأعد له عذاباً عظيماً"، وذلك ما لا يعلم قدر مبلغه سواء تعالى ذكره. واختلف أهل التأويل في صفة القتل الذي يستحق صاحبه أن يسمى متعمداً، بعد إجماع جميعهم على أنه إذا ضرب رجلٌ رجلاً بحدٍّ حديدٍ يجرح بحدّه، أو يَضَعُ ويقطع، فلم يقلع عنه ضرباً به حتى أتلّف نفسه، وهو في حال ضربه إياه به قاصدٌ ضربه: أنه عامدٌ قتله. ثم اختلفوا فيما عدا ذلك. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، قولٌ من قال: كل من ضرب إنساناً بشيء الأغلب منه أنه يتلفه، فلم يقلع عنه حتى أتلّف نفسه به: أنه قاتل عمدٍ، ما كان المضروب به من شيء وأما قوله: "فجزاؤه جهنم خالداً فيها"، فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: ومن يقتل مؤمناً متعمداً، فجزاؤه إن جزاه جهنم خالداً فيها، ولكنه يعفو ويتفضل على أهل الإيمان به وبرسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها، ولكنه عز ذكره إما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار، وإما أن يدخله إياها ثم يخرجها منها بفضل رحمته، لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. فإن ظن ظان أن القاتل إن وجب أن يكون داخلاً في هذه الآية، فقد يجب أن يكون المشرك داخلاً فيه، لأن الشرك من الذنوب، فإن الله عز ذكره قد أخبر أنه غير غافرٍ للشرك لأحدٍ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، والقتل دون الشرك.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يا أيها الذين آمنوا"، يا أيها الذين صدّقوا الله وصدّقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم "إذا ضربتم في سبيل الله"، يقول: إذا سرتهم مسيراً لله في جهاد أعدائكم "فتبينوا"، يقول: فتأنّوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا

من التبس عليكم أمره، ولا تتقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه يقيناً حرباً لكم والله ولسوله "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام"، يقول: ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مظهرًا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم "لست مؤمنًا"، فتقتلوه ابتغاء "عرض الحياة الدنيا"، يقول: طلب متاع الحياة الدنيا، فإن "عند الله مغانم كثيرة"، من رزقه وفواضل نعمه، فهي خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فأثابكم بها على طاعتكم إياه، فالتمسوا ذلك من عنده "كذلك كنتم من قبل"، يقول، كما كان هذا الذي ألقى إليكم السلام فقتلتم له "لست مؤمنًا" فقتلتموه، كذلك كنتم أنتم من قبل، يعني: من قبل إعزاز الله دينه بتباعه وأنصاره، تستخفون بدينكم، كما استخفى هذا الذي قتلتموه وأخذتم ماله، بدينه من قومه أن يظهره لهم، حذرًا على نفسه منهم. وقد قيل إن معنى قوله: "كذلك كنتم من قبل" كنتم كفارًا مثلهم "فمن الله عليكم"، يقول: فتفضل الله عليكم بإعزاز دينه بأنصاره وكثرة تباعه. وقد قيل، فمن الله عليكم بالتوبة من قتلكم هذا الذي قتلتموه وأخذتم ماله بعد ما ألقى إليكم السلام فقتلتموه، يقول: فلا تعجلوا بقتل من أردتم قتله ممن التبس عليكم أمر إسلامه، فلعل الله أن يكون قد منَّ عليه من الإسلام بمثل الذي منَّ به عليكم، وهدهد لمثل الذي هداكم له من الإيمان. "إن الله كان بما تعملون خبيرًا"، يقول: إن الله كان بقتلكم من تقتلون، وكفكم عن تكفون عن قتله من أعداء الله وأعدائكم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم "خبيرًا"، يعني: ذا خبرة وعلم به، يحفظه عليكم وعليهم، حتى يجازي جميعكم به يوم القيامة جزاءه، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وذكر أن هذه الآية نزلت في سبب قتل قتلة سرية لرسول الله ﷺ بعد ما قال: "إني مسلم" أو بعد ما شهد شهادة الحق أو بعد ما سلم عليهم لغنيمة كانت معه، أو غير ذلك من ملكه، فأخذوه منه. كالذي جاء عن ابن عمر قال بعث النبي ﷺ محملاً بن جثامة مبعثًا، فلقبهم عامر بن الأضبط، فحياهم بتحية الإسلام، وكانت بينهم حنة في الجاهلية، فرماه محملاً بسهم، فقتله. فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ فتكلم فيه عيينة والأقرع، فقال الأقرع: يا رسول الله، سُنَّ اليوم وغير غدا! فقال عيينة: لا والله، حتى تذوق نساؤه من الثكل ما ذاق نسائي فجاء محملاً في بُردين، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال له النبي ﷺ: لا غفر الله لك! فقام وهو يتلقى دموه ببُرديه، فما مضت به ساعة حتى مات، ودفنوه فلفظته الأرض. فجاؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: إن الأرض تقبل من هو شرُّ من صاحبكم! ولكن الله جل وعز أراد أن يعظكم. ثم طرحوه بين صدفَي جبل، وألقوا عليه من الحجارة، ونزلت: "يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبونا"، الآية قال أبو جعفر: واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "كذلك كنتم من قبل". قال أبو جعفر: وأولى هذين القولين بتأويل الآية، القول الأول، وهو قول من قال: كذلك كنتم تخفون إيمانكم في قومكم من المشركين وأنتم مقيمون بين

أظهرهم، كما كان هذا الذي قتلتموه مقيمًا بين أظهر قومه من المشركين مستخفيًا بدينه منهم. واختلف أيضًا أهل التأويل في تأويل قوله: "فمن الله عليكم". قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، التأويل الذي ذكرته عن سعيد بن جبيرة: "فمن الله عليكم"، فأظهر الإسلام.

القول في تأويل قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون"، لا يعتدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان بالله وبرسوله، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم على مقاساة حُرُونه الأسفار والسير في الأرض، ومشقة ملاقات أعداء الله بجهادهم في ذات الله، وقتالهم في طاعة الله، إلا أهل العذر منهم بذهاب أبصارهم، وغير ذلك من العِلل التي لا سبيل لأهلها - للضرر الذي بهم - إلى قتالهم وجهادهم في سبيل الله "والمجاهدون في سبيل الله"، ومنهاج دينه، لتكون كلمة الله هي العليا، المستفرغون طاقتهم في قتال أعداء الله وأعداء دينهم بأموالهم، إنفاقًا لها فيما أوهَن كيد أعداء أهل الإيمان بالله - وبأنفسهم، مباشرة بها قتالهم، بما تكون به كلمة الله العلية، وكلمة الذين كفروا السافلة. وجاء عن زيد بن أرقم قال: لما نزلت: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله"، جاء ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، ما لي رخصة؟ قال: لا! قال ابن أم مكتوم: اللهم إني ضرير فرخص! فأنزل الله: "غير أولي الضرر"، وأمر رسول الله ﷺ فكتبها يعني: الكاتب.

القول في تأويل قوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة"، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، على القاعدين من أولي الضرر، درجة واحدة يعني: فضيلة واحدة وذلك بفضل جهاده بنفسه، فأما فيما سوى ذلك، فهما مستويان

القول في تأويل قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه: "وكلاً وعد الله الحسنى"، وعد الله الكل من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، والقاعدين من أهل الضرر "الحسنى"، ويعني جل ثناؤه: بـ "الحسنى"، الجنة

القول في تأويل قوله: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه: "درجات منه"، فضائل منه ومنازل من منازل الكرامة.

واختلف أهل التأويل في معنى "الدرجات" التي قال جل ثناؤه: "درجات منه".

قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بتأويل قوله: "درجات منه"، أن يكون معنيًا به درجات الجنة، كما قال ابن محيريز. لأن قوله تعالى ذكره: "درجات منه": ترجمة وبيان عن قوله: "أجرًا عظيمًا"، ومعلوم أن "الأجر"، إنما هو الثواب والثواب والجزاء. "ومغفرة" يقول: وصفح لهم عن ذنوبهم، ففضل عليهم بترك عقوبتهم عليها "ورحمة"، يقول: ورأفة بهم "وكان الله غفورًا رحيمًا"، يقول: ولم يزل الله غفورًا لذنوب عباده المؤمنين، يصفح لهم عن العقوبة عليها "رحيمًا" بهم، يتفضل عليهم بنعمه، مع خلافهم أمره ونهيه، وركوبهم معاصيه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٧٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٧٨ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٧٩﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "إن الذين توفاهم الملائكة"، إن الذين تقبض أرواحهم الملائكة "ظالمي أنفسهم"، يعني: مكسبي أنفسهم غضب الله وسخطه. وقد بينا معنى "الظلم" فيما مضى قبل.

قالوا فيم كنتم"، يقول: قالت الملائكة لهم: "فيم كنتم"، في أي شيء كنتم من دينكم" قالوا كنا مستضعفين في الأرض"، يعني: قال الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم: "كنا مستضعفين في الأرض"، يستضعفنا أهل الشرك بالله في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيمنعوننا من الإيمان بالله، واتباع رسوله ﷺ، معذرة ضعيفة وحجة واهية" قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"، يقول: فتخرجوا من أرضكم ودوركم، وتفارقوا من يمنعكم بها من الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ، إلى الأرض التي يمنعكم أهلها من سلطان أهل الشرك بالله، فتوحدوا الله فيها وتعبدوه، وتتبعوا نبيّه؟ يقول الله جل ثناؤه: "فأولئك مأواهم جهنم"، أي: هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم "مأواهم جهنم"، يقول: مصيرهم في الآخرة جهنم، وهي مسكنهم "وساءت مصيرًا"، يعني: وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها "مصيرًا" ومسكنًا ومأوى. ثم استثنى جل ثناؤه المستضعفين الذين استضعفهم المشركون "من الرجال والنساء والولدان"، وهم العجزة عن الهجرة بالعُسرة، وقلة الحيلة، وسوء البصر والمعرفة بالطريق من أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام، من القوم الذين أخبر جل ثناؤه أن مأواهم جهنم: أن تكون جهنم مأواهم، للعدو الذي هم فيه، على ما بينه تعالى ذكره. يقول الله جل ثناؤه: "فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم"، يعني: هؤلاء المستضعفين، يقول: لعل الله أن يعفو عنهم، للعدو الذي هم فيه وهم مؤمنون، فيفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة، إذ لم يتركوها اختيارًا ولا إيثارًا منهم لدار الكفر على دار الإسلام، ولكن للعجز الذي هم فيه عن الثقل عنها "وكان الله عفوًا غفورًا" يقول: ولم يزل

الله "عفوًا" يعني: ذا صفح بفضلته عن ذنوب عباده، بتركه العقوبة عليها "غفورًا"، سائرًا عليهم ذنوبهم بغفوه لهم عنها. وذكر أن هاتين الآيتين والتي بعدهما، نزلت في أقوام من أهل مكة كانوا قد أسلموا وآمنوا بالله وبرسوله، وتخلّفوا عن الهجرة مع رسول الله ﷺ حين هاجر، وعُرض بعضهم على الفتنة فافتتن، وشهد مع المشركين حرب المسلمين، فأبى الله قبول معذرتهم التي اعتدروا بها، التي بينها في قوله خبراً عنهم: "قالوا كنا مستضعفين في الأرض".

عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: "كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا! فاستغفروا لهم، فنزلت: "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم" الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فحزنوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]، فكتبوا إليهم بذلك: "إن الله قد جعل لكم مخرجًا"، فخرجوا فأدرّكهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتل من قتل.

وأما قوله: "لا يستطيعون حيلة"، فإن معناه كما جاء عن عكرمة في قوله: "لا يستطيعون حيلة"، قال: نهوضًا إلى المدينة "ولا يهتدون سبيلًا"، طريقًا إلى المدينة.

وأما قوله: "إن الذين توفاهم الملائكة"، ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون "توفاهم" في موضع نصب، بمعنى المضى، لأن "فعل" منصوبة في كل حال. والآخر: أن يكون في موضع رفع بمعنى الاستقبال، يراد به: إن الذين تتوفاهم الملائكة، فتكون إحدى "التأين" من "توفاهم" محذوفة وهي مرادة في الكلمة، لأن العرب تفعل ذلك، إذا اجتمعت تاءان في أول الكلمة، ربما حذفت إحداها وأثبتت الأخرى، وربما أثبتتهما جميعًا.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ومن يهاجر في سبيل الله"، ومن يفارق أرض الشرك وأهلها هربًا بدينه منها ومنهم، إلى أرض الإسلام وأهلها المؤمنين "في سبيل الله"، يعني: في منهاج دين الله وطريقه الذي شرعه لخلقه، وذلك الدين القيم "يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا"، يقول: يجد هذا المهاجر في سبيل الله "مراغمًا كثيرًا"، وهو المضطرب في البلاد والمذهب.

وقوله: "وسعة"، فإنه يحتمل السعة في أمر دينهم بمكة، وذلك منعهم إياهم -كان- من

إظهار دينهم وعبادة ربهم علانية.

ثم أخبر جل ثناؤه عمن خرج مهاجرًا من أرض الشرك فأرًا بدينه إلى الله وإلى رسوله، إن أدركته منيته قبل بلوغه أرض الإسلام ودار الهجرة فقال: من كان كذلك "فقد وقع أجره على الله"، وذلك ثواب عمله وجزاء هجرته وفراق وطنه وعشيرته إلى دار الإسلام وأهل دينه.

يقول جل ثناؤه: ومن يخرج مهاجرًا من داره إلى الله وإلى رسوله، فقد استوجب ثواب هجرته إن لم يبلغ دار هجرته باخترام المنية إيّاه قبل بلوغه إيّاها على ربه "وكان الله غفورًا رحيمًا"، يقول: ولم يزل الله تعالى ذكره "غفورًا" يعني: سائرًا ذنوب عباده المؤمنين بالعفو لهم عن العقوبة عليها "رحيمًا"، بهم رفيقًا. وذكر أن هذه الآية نزلت بسبب بعض من كان مقيمًا بمكة وهو مسلم، فخرج لما بلغه أن الله أنزل الآيتين قبلها، وذلك قوله: "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم" إلى قوله: "وكان الله عفوًا غفورًا"، فمات في طريقه قبل بلوغه المدينة. كالذي جاء عن سعيد بن جبير في قوله: "ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله"، قال: كان رجل من خزاعة يقال له ضمرة بن العيص - أو: العيص بن ضمرة بن زنباع - قال: فلما أمروا بالهجرة كان مريضًا، فأمر أهله أن يفرشوا له على سريريه ويحملوه إلى رسول الله ﷺ. قال: ففعلوا، فأتاه الموت وهو بالتَّعْنِيم، فنزلت هذه الآية. واختلف أهل التأويل في تأويل "المراغم". قال أبو جعفر: وقد بينا أولى الأقوال في ذلك بالصواب فيما مضى قبل.

واختلفوا أيضًا في معنى: "السعة" التي ذكرها الله في هذا الموضع، فقال: "وسعة".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطربًا ومتسّعًا. وقد يدخل في "السعة"، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني "السعة"، التي هي بمعنى الرّوح والفرج من مكروه ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظهري المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دلالة على أنه عنى بقوله: "وسعة"، بعض معاني "السعة" التي وصفنا. فكل معاني "السعة" التي هي بمعنى الرّوح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغم جوار أهل الشرك، وضيق الصدر بتعدّد إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة، داخل في ذلك.

وقد تأول قوم من أهل العلم هذه الآية أعني قوله: "ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدرکه الموت فقد وقع أجره على الله" أنها في حكم الغازي يخرج للغزو، فيدرکه الموت بعد ما يخرج من منزله فاصلا فيموت، أن له سَهْمَهُ من المغنم، وإن لم يكن شهد الواقعة

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ۖ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وإذا ضربتم في الأرض"، وإذا سرتهم أيها المؤمنون في الأرض، "فليس عليكم جناح"، يقول: فليس عليكم حرج ولا إثم "أن تقصروا من الصلاة"، يعني: أن تقصروا من عددها، فتصلوا ما كان لكم عدده منها في الحضر وأنتم مقيمون أربعاً، اثنتين، في قول بعضهم.

وقيل: معناه: لا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إلى أقل عددها في حال ضربكم في الأرض أشار إلى واحدة، في قول آخرين. وقال آخرون: معنى ذلك: لا جناح عليكم أن تقصروا من حدود الصلاة. "إن خفتهم أن يفتنكم الذين كفروا"، يعني: إن خشيتهم أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم. وفتنتهم إياهم فيها: حملهم عليهم وهم فيها ساجدون حتى يقتلوهم أو يأسروهم، فيمنعهم من إقامتها وأدائها، ويحولوا بينهم وبين عبادة الله وإخلاص التوحيد له. ثم أخبرهم جل ثناؤه عما عليه أهل الكفر لهم فقال: "إن الكافرين كانوا لكم عدوًّا مبيناً"، يعني: الجاحدين وحدانية الله "كانوا لكم عدوًّا مبيناً"، يقول: عدوًّا قد أبانوا لكم عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله وبرسوله، وترككم عبادة ما يعبدون من الأوثان والأصنام، ومخالفتكم ما هم عليه من الضلالة. واختلف أهل التأويل في معنى: "القصر" الذي وضع الله الجناح فيه عن فاعله. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية، قول من قال: "عنى بالقصر فيها، القصر من حدودها. وذلك ترك إتمام ركوعها وسجودها، وإباحة أدائها كيف أمكن أدائها، مستقبل القبلة فيها ومستدبرها، وراكباً وماشيئاً، وذلك في حال السَّلة والمسايعة والتحام الحرب وتراحف الصفوف، وهي الحالة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وأذن بالصلاة المكتوبة فيها راکباً، إيماءً بالركوع والسجود، على نحو ما روي عن ابن عباس من تأويله ذلك.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بقوله: "وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتهم أن يفتنكم الذين كفروا"، لدلالة قول الله تعالى: "فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة"، على أن ذلك كذلك. لأن إقامتها: إتمام حدودها من الركوع والسجود وسائر فروضها، دون الزيادة في عددها التي لم تكن واجبة في حال الخوف.

فإن ظن أن ذلك أمر من الله بإتمام عددها الواجب عليه في حال الأمن بعد زوال الخوف، فقد يجب أن يكون المسافر في حال قصره صلاته عن صلاة المقيم، غير مقيم صلاته، لنقص عدد صلاته من الأربع اللازمة كانت له في حال إقامته إلى الركعتين. وذلك قول إن قاله قائل، مخالف لما عليه الأمة مجمعة: من أن المسافر لا يستحق أن يقال له إذا أتى بصلاته

بكمال حدودها المفروضة عليه فيها، وقصر عددها عن أربع إلى اثنتين: "إنه غير مقيم صلاته". وإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى قد أمر الذي أباح له أن يقصر صلاته خوفاً من عدوه أن يفتنه، أن يقيم صلاته إذا اطمأن وزال الخوف، كان معلوماً أن الذي فرض عليه من إقامة ذلك في حال الطمأنينة، عين الذي كان أسقط عنه في حال الخوف. وإذا كان الذي فرض عليه في حال الطمأنينة: إقامة صلاته، فالذي أسقط عنه في غير حال الطمأنينة: ترك إقامتها. وقد دللنا على أن ترك إقامتها، إنما هو ترك حدودها، على ما بينّا.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا كنت في الضاربين في الأرض من أصحابك، يا محمد، الخائفين عدوهم أن يفتنهم "فأقامت لهم الصلاة"، يقول: فأقامت لهم الصلاة بحدودها وركوعها وسجودها، ولم تقصرها القصر الذي أبحث لهم أن يقصروها في حال تلاقيهم وعدوهم وتزاحف بعضهم على بعض، من ترك إقامة حدودها وركوعها وسجودها وسائر فروضها "فلتقم طائفة منهم معك"، يعني: فلتقم فرقة من أصحابك الذين تكون أنت فيهم معك في صلاتك وليكن سائرهم في وجوه العدو. وترك ذكر ما ينبغي لسائر الطوائف غير المصلية مع النبي ﷺ أن يفعله، لدلالة الكلام المذكور على المراد به، والاستغناء بما ذكر عما ترك ذكره "ولياخذوا أسلحتهم". واختلف أهل التأويل في الطائفة المأمورة بأخذ السلاح. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: فإذا سجدت الطائفة التي قامت معك في صلاتها "فليكونوا من ورائكم"، يعني: من خلفك وخلف من يدخل في صلاتك ممن لم يصل معك الركعة الأولى بإزاء العدو، وبعد فراغها من بقية صلاتها "ولتأت طائفة أخرى"، وهي الطائفة التي كانت بإزاء العدو "لم يصلوا"، يقول: لم يصلوا معك الركعة الأولى "فليصلوا معك"، يقول: فليصلوا معك الركعة التي بقيت عليك "ولياخذوا حذرهم وأسلحتهم"، لقتال عدوهم، بعد ما يفرغون من صلاتهم.

وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ، أنه فعله يوم ذات الرقاع، والخبر الذي روى سهل بن أبي حثمة. فعن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في غزاة، فلقي المشركين بعسفان، فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد هو وأصحابه، قال بعضهم لبعض يومئذ: كان فرصة لكم، لو أغرتم عليهم ما علموا بكم حتى توقعوهم! قال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى هي أحب إليهم من أهلهم وأموالهم، فاستعدوا حتى تغيروا عليهم فيها. فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: "وإذا كنت فيهم فأقامت لهم الصلاة" إلى آخر الآية، وأعلمه ما ائتم به

المشركون. فلما صلى رسول الله ﷺ العصر وكانوا قبالتة في القبلة، فجعل المسلمين خلفه صفين، فكبر رسول الله ﷺ فكبروا جميعاً، ثم ركع وركعوا معه جميعاً. فلما سجد سجد معه الصف الذين يلونه، وقام الصف الذين خلفهم مقبلين على العدو، فلما فرغ رسول الله ﷺ من سجوده وقام، سجد الصف الثاني ثم قاموا، وتأخر الذين يلون رسول الله ﷺ وتقدم الآخرون، فكانوا يلون رسول الله ﷺ، فلما ركع ركعوا معه جميعاً، ثم رفع فرفعوا معه، ثم سجد فسجد معه الذين يلونه، وقام الصف الثاني مقبلين على العدو، فلما فرغ رسول الله ﷺ من سجوده وقعد الذين يلونه، سجد الصف المؤخر، ثم قعدوا فتشهدوا مع رسول الله ﷺ جميعاً، فلما سلم رسول الله ﷺ سلم عليهم جميعاً. فلما نظر إليهم المشركون يسجد بعضهم ويقوم بعض ينظر إليهم، قالوا: لقد أخبروا بما أردنا!

وبعد: قال أبو جعفر: فتأويل الآية، على قول هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ورووا هذه الرواية: وإذا كنت يا محمد، فيهم يعني: في أصحابك خائفاً فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك، يعني: ممن دخل معك في صلاتك "إذا سجدوا" يقول: فإذا سجدت هذه الطائفة بسجودك، ورفعت رءوسها من سجودها "فليكونوا من ورائكم"، يقول: فليصبر من خلفك خلف الطائفة التي حرسك وإياهم إذا سجدت بهم وسجدوا معك "ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا"، يعني الطائفة الحارسة التي صلت معه، غير أنها لم تسجد بسجوده. فمعنى قوله: "لم يصلوا" - على مذهب هؤلاء -: لم يسجدوا بسجودك "فليصلوا معك" يقول: فليسجدوا بسجودك إذا سجدت، ويحرسك وإياهم الذين سجدوا بسجودك في الركعة الأولى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم"، يعني الحارسة. قال أبو جعفر: وأما قوله: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ"، فإنه يعني: تمنى الذين كفروا بالله "لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم": يقول: لو تستغلون بصلاتكم عن أسلحتكم التي تقاتلونهم بها، وعن أمتعتكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتهسون عنها. "فيميلون عليكم ميلاً واحدة"، يقول: فيحملون عليكم وأنتم مشاغيل بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم حملة واحدة، فيصيبون منكم غرةً بذلك، فيقتلونكم ويستبيحون عسكركم. يقول جل ذكره: فلا تفعلوا ذلك بعد هذا، فتشتغلوا جميعكم بصلاتكم إذا حضرتم صلاتكم وأنتم موافقو العدو، فتمكنوا عدوكم من أنفسكم وأسلحتكم وأمتعتكم، ولكن أقيموا الصلاة على ما بينت لكم، وخذوا من عدوكم حذرهم وأسلحتكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولا جناح عليكم"، ولا حرج عليكم ولا إثم "إن كان بكم أذى من مطر"، يقول: إن نالكم أذى من مطر تمطرونه وأنتم موافقو عدوكم "أو كنتم مرضى"، يقول: أو كنتم جرحى

أو أَعْلَاءَ "أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ"، إِنْ ضَعَفْتُمْ عَنْ حَمَلِهَا، وَلَكِنْ إِنْ وَضَعْتُمْ أَسْلِحَتَكُمْ مِنْ أَدَى مَطَرٍ أَوْ مَرَضٍ، فَخَذُوا مِنْ عَدُوِّكُمْ "حَذَرَكُمْ"، يَقُولُ: احْتَرَسُوا مِنْهُمْ أَنْ يَمِيلُوا عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْهُمْ غَافِلُونَ غَارَوْنَ "إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا"، يَعْنِي بِذَلِكَ: أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُدْلًا يَبْقُونَ فِيهِ أَبَدًا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ. وَذَلِكَ هُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَنْ قَوْلَهُ: "أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى" نَزَلَ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَكَانَ جَرِيحًا.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَإِذَا فَرَعْتُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، مِنْ صَلَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ مُوَافِقُو عَدُوِّكُمْ الَّتِي بَيْنَاهَا لَكُمْ، فَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْوَالِكُمْ قِيَامًا وَقُعُودًا وَمُضْطَجِعِينَ عَلَىٰ جُنُوبِكُمْ، بِالْتَعْظِيمِ لَهُ، وَالِدَعَاءِ لَأَنْفُسِكُمْ بِالظُّفْرِ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَظْفِرَكُمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ. وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وَأَمَّا قَوْلُهُ: "فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ"، فَإِنْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى قَوْلِهِ: "فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ"، فَإِذَا اسْتَقَرَّرْتُمْ فِي أَوْطَانِكُمْ وَأَقَمْتُمْ فِي أَصْصَارِكُمْ "فَأَقِيمُوا"، يَعْنِي: فَاتَّمُوا الصَّلَاةَ الَّتِي أَدْنَىٰ لَكُمْ بِقَصَرِهَا فِي حَالِ خَوْفِكُمْ فِي سَفَرِكُمْ وَضَرْبِكُمْ فِي الْأَرْضِ.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ. أَنْ أَوَّلَى الْمَعَانِي بِتَأْوِيلِ الْكَلِمَةِ، قَوْلٌ مِنْ قَالَ: "إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرَضًا مُنَجَّمًا"، لِأَنَّ "الموقوت" إِنَّمَا هُوَ "مفعول" مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: "وَقَتَّ اللَّهُ عَلَيْكَ فَرَضَهُ فَهُوَ يَقْتَهُ"، فَفَرَضَهُ عَلَيْكَ "موقوت"، إِذَا أَخْرَجْتَهُ، جَعَلَ لَهُ وَقْتًا يَجِبُ عَلَيْكَ أَدَاؤُهُ. فَكَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: "إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا"، إِنَّمَا هُوَ: كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرَضًا وَقَتَّ لَهُمْ وَقَتَّ وَجُوبُ أَدَائِهِ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ لَهُمْ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: "وَلَا تَهِنُوا"، وَلَا تَضَعُفُوا.

مِنْ قَوْلِهِمْ: "وَهَنَ فُلَانٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ يَهِنُ وَهْنًا وَوُهُونًا". وَقَوْلُهُ: "فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ"، يَعْنِي: فِي التَّمَاسِ الْقَوْمِ وَطَلِبِهِمْ، وَ"القوم" هُمُ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَأَعْدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ بِاللَّهِ "إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ"، يَقُولُ: إِنْ تَكُونُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، تَيَجِّعُونَ مِمَّا يَنَالُكُمْ مِنَ الْجِرَاحِ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، "فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ"، يَقُولُ: فَإِنَّ الْمَشْرِكِينَ يَتَجِّعُونَ مِمَّا يَنَالُهُمْ مِنْكُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْأَذَى مِثْلَ مَا تَيَجِّعُونَ أَنْتُمْ مِنْ جِرَاحِهِمْ وَأَذَاهُمْ فِيهَا "وترجون"، أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ "مِنْ اللَّهِ" مِنَ الثَّوَابِ عَلَىٰ مَا يَنَالُكُمْ مِنْهُمْ "مَا لَا يَرْجُونَ" هُمُ عَلَىٰ مَا يَنَالُهُمْ مِنْكُمْ. يَقُولُ: فَأَنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ

موقنين من ثواب الله لكم على ما يصيبكم منهم، بما هم به مكدّبون أولى وأحرى أن تصبروا على حربهم وقتالهم، منهم على قتالكم وحربكم، وأن تجددوا من طلبهم وابتغائهم، لقتالهم على ما يهنون فيه ولا يجدون، فكيف على ما جدّوا فيه ولم يهنوا؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وجاء عن ابن عباس قال: لما كان قتال أحد، وأصاب المسلمين ما أصاب، صعد النبي ﷺ الجبل، فجاء أبو سفيان فقال: "يا محمد، ألا تخرج؟ ألا تخرج؟ الحرب سجال، يوم لنا ويوم لكم". فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أجيئوه. فقالوا: "لا سواء، لا سواء، قتالنا في الجنة وقتالكم في النار". فقال أبو سفيان: "عزّى لنا ولا عزّى لكم"، فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: "الله مولانا ولا مولى لكم". قال أبو سفيان: "أعلّ هبل، أعلّ هبل" فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: "الله أعلى وأجل" فقال أبو سفيان: "موعدنا وموعدكم بدر الصغرى"، ونام المسلمون وبهم الكلوم وقال عكرمة: وفيها أنزلت: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وفيهم أنزلت: "إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً".

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: ولم يزل الله "عليماً" بمصالح خلقه "حكيماً"، في تدبيره وتقديره. ومن علمه، أيها المؤمنون، بمصالحكم عرفكم عند حضور صلاتكم وواجب فرض الله عليكم، وأنتم مواقف عدوكم ما يكون به وصولكم إلى أداء فرض الله عليكم، والسلامة من عدوكم. ومن حكمته بصركم ما فيه تأييدكم وتوهين كيد عدوكم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾

القول في تأويل قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله"، "إنا أنزلنا إليك" يا محمد "الكتاب"، يعني: القرآن "لتحكم بين الناس"، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم "بما أراك الله"، يعني: بما أنزل الله إليك من كتابه "ولا تكن للخائنين خصيماً"، يقول: ولا تكن لمن خان مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله "خصيماً" تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقه الذي خانه فيه "واستغفر الله"، يا محمد، وسلّه أن يصفح لك عن عقوبة ذنبك في مخاصمتك عن الخائن من خان مالا لغيره "إن الله كان غفوراً رحيماً"، يقول: إن الله لم يزل يصفح عن ذنوب عباده المؤمنين، بتركه عقوبتهم عليها إذا استغفروه منها "رحيماً" بهم. فافعل ذلك أنت، يا محمد، يغفر الله لك ما سلف من خصومتك عن هذا الخائن. وقد قيل إن النبي ﷺ لم يكن خاصم عن

الخائن، ولكنه همّ بذلك، فأمره الله بالاستغفار مما همّ به من ذلك. وذكر أن الخائنين الذين عاتب الله جلّ ثناؤه نبيه ﷺ في خصومته عنهم: بنو أبيرق. واختلف أهل التأويل في خيائته التي كانت منه، فوصفه الله بها.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بما دل عليه ظاهر الآية، قول من قال: كانت خيائته التي وصفه الله بها في هذه الآية، جحدّه ما أودع، لأن ذلك هو المعروف من معاني "الخيانات" في كلام العرب. وتوجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من معاني كلام العرب ما وجد إليه سبيل، أولى من غيره. كالذي جاء عن عكرمة، قال: استودع رجل من الأنصار طعمة بن أبيرق مشربة له فيها درع، وخرج فغاب. فلما قدم الأنصاري فتح مشربته، فلم يجد الدرع، فسأل عنها طعمة بن أبيرق، فرمى بها رجلا من اليهود يقال له زيد بن السمين: فتعلّق صاحب الدرع بطعمة في درعه. فلما رأى ذلك قومه، أتوا النبي ﷺ فكلّموه ليذراً عنه، فهمّ بذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم"، يعني: طعمة بن أبيرق وقومه "ها أنتم هؤلاء جادلتهم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً"، محمد ﷺ وقوم طعمة "ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً"، محمد وطعمة وقومه قال: "ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه" الآية، طعمة "ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً"، يعني زيد بن السمين "فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً"، طعمة بن أبيرق "ولولا فضل الله عليك ورحمته" يا محمد "لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء"، قوم طعمة بن أبيرق "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً" يا محمد "لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف"، حتى تنقضي الآية للناس عامة "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين" الآية. قال: لما نزل القرآن في طعمة بن أبيرق، لحق بقريش ورجع في دينه، ثم عدا على مشربة للحجاج بن علاط البهزيّ ثم السلمي، حليف لبني عبد الدار، فنقبها، فسقط عليه حجر فلحج. فلما أصبح أخرجه من مكة. فخرج فلقي ركباً من بهراء من قضاة، فعرض لهم فقال: ابن سبيل مُنْقَطِعٌ به! فحملوه، حتى إذا جنّ عليه الليل عدا عليهم فسرّهم، ثم انطلق. فرجعوا في طلبه فأدركوه، فقفّوه بالحجارة حتى مات قال ابن جريج: فهذه الآيات كلها فيه نزلت إلى قوله: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"، أنزلت في طعمة بن أبيرق ويقولون: إنه رمى بالدرع في دار أبي مليل بن عبد الله الخزرجي، فلما نزل القرآن لحق بقريش، فكان من أمره ما كان.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "ولا تجادل" يا محمد، فتخاصم "عن الذين يختانون أنفسهم"، يعني: يخونون أنفسهم، يجعلونها خبونة بخيانتهم ما خانوا من أموال من خانوه ماله، وهم بنو أبيرق. يقول: لا تخاصم عنهم من يطالبهم بحقوقهم وما خانوه فيه من أموالهم "إن الله لا يحب من كان خَوَّانًا أَثِيمًا"، يقول: إن الله لا يحب من كان من صفته خيانة الناس في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره مما حرّمه الله عليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل

القول في تاويل قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يستخفون من الناس"، يستخفي هؤلاء الذين يختانون أنفسهم، ما أتوا من الخيانة، وركبوا من العار والمعصية "من الناس"، الذين لا يقدرون لهم على شيء، إلا ذكرهم بقبيح ما أتوا من فعلهم، وشنيع ما ركبوا من جرمهم إذا اطلعوا عليه، حياءً منهم وحذرًا من قبيح الأحداث "ولا يستخفون من الله" الذي هو مطلع عليهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، ويده العقاب والنكال وتعجيل العذاب، وهو أحق أن يستحى منه من غيره، وأولى أن يعظم بأن لا يراهم حيث يكرهون أن يراهم أحد من خلقه "وهو معهم"، يعني: والله شاهدهم "إذ يبيتون ما لا يرضى من القول"، يقول: حين يسوون ليلا ما لا يرضى من القول، فيغيرونه عن وجهه، ويكذبون فيه. وقد بينا معنى "التبيت" في غير هذا الموضع، وأنه كل كلام أو أمر أصلح ليلا.

"وكان الله بما يعملون محيطًا" يعني جل ثناؤه: وكان الله بما يعمل هؤلاء

المستخفون من الناس، فيما أتوا من جرمهم، حياءً منهم، من تبيتهم ما لا يرضى من القول، وغيره من أفعالهم "محيطًا"، محصيًا لا يخفى عليه شيء منه، حافظًا لذلك عليهم، حتى يجازيهم عليه جزاءهم.

القول في تاويل قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا"، ها أنتم الذين جادلتم، يا معشر من جادل عن بني أبيرق "في الحياة الدنيا" و"الهاء" و"الميم" في قوله: "عنهم" من ذكر الخائنين.

"فمن يجادل الله عنهم"، يقول: فمن ذا يخاصم الله عنهم "يوم القيامة"، أي: يوم يقوم الناس من قبورهم لمحشرهم، فيدافع عنهم ما الله فاعل بهم ومعاقبهم به. وإنما يعني بذلك: إنكم أيها المدافعون عن هؤلاء الخائنين أنفسهم، وإن دافعتهم عنهم في عاجل الدنيا، فإنهم

سبصبرون في أجل الآخرة إلى من لا يدافع عنهم عنده أحد فيما يحلُّ بهم من أليم العذاب ونكال العقاب. وأما قوله: "أم من يكون عليهم وكيلاً"، فإنه يعني: ومن ذا الذي يكون على هؤلاء الخائنين وكيلاً يوم القيامة أي: ومن يتوكل لهم في خصومة ربهم عنهم يوم القيامة. وقد بينا معنى: "الوكالة"، فيما مضى، وأنها القيام بأمر من توكل له.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يعمل ذنباً، وهو "السوء" "أو يظلم نفسه"، بإكسابه إياها ما يستحق به عقوبة الله "ثم يستغفر الله"، يقول: ثم يتوب إلى الله بإنبائه مما عمل من سوء وظلم نفسه، ومراجعتة ما يحبه الله من الأعمال الصالحة التي تمحو ذنبه وتذهب جرمه "يجد الله غفوراً رحيمًا"، يقول: يجد ربه سائراً عليه ذنبه بصفحه له عن عقوبة جرمه، رحيمًا به. واختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا: أنه عني بها كل من عمل سوءاً أو ظلم نفسه، وإن كانت نزلت في أمر الخائنين والمجادلين عنهم الذين ذكر الله أمرهم في الآيات قبلها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يأت ذنباً على عمدٍ منه له ومعرفة به، فإنما يجترح ويأل ذلك الذنب وضراً وخزياً وعاراً على نفسه، دون غيره من سائر خلق الله. يقول: فلا تجادلوا، أيها الذين تجادلون، عن هؤلاء الخونة، فإنكم وإن كنتم لهم عشيرةً وقرابةً وجيراناً، برآء مما أتوه من الذنب ومن التبعة التي يتبعون بها، وإنكم متى دافعتم عنهم أو خاصمتم بسببهم، كنتم مثلهم، فلا تدافعوا عنهم ولا تخاصموا. وأما قوله: "وكان الله عليماً حكيماً"، فإنه يعني: وكان الله عالماً بما تفعلون، أيها المجادلون عن الذين يختانون أنفسهم، في جدالكهم عنهم وغير ذلك من أفعالكم وأفعال غيركم، وهو يحصيها عليكم وعليهم، حتى يجازي جميعكم بها "حكيماً" يقول: وهو حكيم بسياستكم وتديبركم وتديبر جميع خلقه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يعمل خطيئةً، وهي الذنب "أو إثماً"، وهو ما لا يحلُّ من المعصية. وإنما فرق بين "الخطيئة" و"الإثم"، لأن "الخطيئة"، قد تكون من قبل العمد وغير العمد، و"الإثم" لا يكون إلا من العمد، ففصل جل ثناؤه لذلك بينهما فقال: ومن يأت "خطيئة" على غير عمد منه لها "أو إثماً" على عمد منه. "ثم يرم به بريئاً"، يعني: ثم يضيف ماله من خطئه أو إثمه الذي تعمد "بريئاً" مما أضافه إليه ونحله إياه "فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً"، يقول: فقد تحمّل بفعله ذلك فريّةً وكذباً وإثماً عظيماً يعني، وجُرمًا عظيماً، على

علم منه وعمد لما أتى من معصيته وذنبه. واختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله: "برئاً"، بعد إجماع جميعهم على أن الذي رمى البريء من الإثم الذي كان آتاه، ابن أبيرق الذي وصفنا شأنه قبل. فقال بعضهم: عنى الله عزَّجَلَّ بالبريء، رجلاً من المسلمين يقال له: "ليبد بن سهل".

وقال آخرون: بل عنى رجلاً من اليهود يقال له: "زيد بن السمين"، وقد ذكرنا الرواية عمن قال ذلك فيما مضى. وممن قال: "كان يهودياً"، ابنُ سيرين. وقيل: "يرم به بريئاً"، بمعنى: ثم يرم بالإثم الذي أتى هذا الخائن، من هو بريء مما رماه به فـ"الهاء" في قوله: "به" عائدة على "الإثم". ولو جعلت كناية من ذكر "الإثم" و"الخطيئة"، كان جائزاً، لأن الأفعال وإن اختلفت العبارات عنها، فراجعة إلى معنى واحد بأنها فعلٌ.

وأما قوله: "فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً"، فإن معناه: فقد تحمل - هذا الذي رمى بما أتى من المعصية وركب من الإثم الخطيئة، مَنْ هو بريء مما رماه به من ذلك "بهتاناً"، وهو الفرية والكذب "وإثماً مبيناً"، يعني وزراً "مبيناً"، يعني: أنه يبين عن أمر متحمله وجراءته على ربه، وتقدمه على خلافه فيما نهاه عنه لمن يعرف أمره.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُدُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "ولولا فضل الله عليك ورحمته"، ولولا أن الله تفضل عليك، يا محمد، فعصمك بتوفيقه وتبينه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن الجدل عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قبله "لهمت طائفة منهم"، يقول: لهمت فرقة منهم، يعني: من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم "أن يضلوك"، يقول: يزلوك عن طريق الحق، وذلك لتلبيسهم أمر الخائن عليه ﷺ، وشهادتهم للخائن عنده بأنه بريء مما ادعى عليه، ومسألتهم إياه أن يعذره ويقوم بمعذرتة في أصحابه، فقال الله تبارك وتعالى: وما يضل هؤلاء الذين هموا بأن يضلوك عن الواجب من الحكم في أمر هذا الخائن درع جاره، "إلا أنفسهم". "وما يضرونك من شيء"، وما يضرك هؤلاء الذين هموا لك أن يزلوك عن الحق في أمر هذا الخائن من قومه وعشيرته "من شيء"، لأن الله مثبِّتٌ ومسدِّدٌ في أمورك، ومبينٌ لك أمر من سعوا في إضلالك عن الحق في أمره وأمرهم، ففاضحهُ وإياهم.

وقوله: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة"، يقول: ومن فضل الله عليك، يا محمد، مع سائر ما تفضل به عليك من نعمه، أنه أنزل عليك "الكتاب"، وهو القرآن الذي فيه بيان كل شيء وهُدًى وموعظة "والحكمة"، يعني: وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة، وهي ما كان في الكتاب مجملاً ذكره، من حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، وأحكامه، ووعدته ووعدته "وعلمك ما

لم تكن تعلم" من خبر الأولين والآخرين، وما كان وما هو كائن، فكل ذلك من فضل الله عليك، يا محمد، مُذْ خلقك، فاشكره على ما أولاك من إحسانه إليك، بالتمسك بطاعته، والمصارعة إلى رضاه ومحبه، ولزوم العمل بما أنزل إليك في كتابه وحكمته، ومخالفة من حاول إضلالك عن طريقه ومنهاج دينه، فإن الله هو الذي يتولاك بفضله، ويكفيك غائلة من أرادك بسوء وحاول صدك عن سبيله، كما كفأك أمر الطائفة التي همت أن تضلك عن سبيله في أمر هذا الخائن. ولا أحد دونه ينقذك من سوء إن أراد بك، إن أنت خالفته في شيء من أمره ونبيه، واتبعت هوى من حاول صدك عن سبيله. وهذه الآية تنبيه من الله نبيه محمداً ﷺ على موضع خطئه، وتذكير منه له الواجب عليه من حقه.

القول في تاويل قوله: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "لا خير في كثير من نجواهم"، لا خير في كثير من نجوى الناس جميعاً "إلا من أمر بصدقة أو معروف"، و"المعروف"، هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، "أو إصلاح بين الناس"، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما، ليراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به.

ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: "ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً"، يقول: ومن يأمر بصدقة أو معروف من الأمر، أو يصلح بين الناس "ابتغاء مرضاة الله"، يعني: طلب رضى الله بفعله ذلك "فسوف نؤتيه أجراً عظيماً"، يقول: فسوف نعطيه جزاء لما فعل من ذلك عظيماً، ولا حد لمبلغ ما سمى الله "عظيماً" يعلمه سواه.

وبعد: فتأويل الكلام: لا خير في كثير من المتناجين، يا محمد، من الناس، إلا فيمن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، فإن أولئك فيهم الخير.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُضْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ومن يشاقق الرسول"، ومن يباين الرسول محمداً ﷺ، معادياً له، فيفارقه على العداوة له "من بعد ما تبين له الهدى"، يعني: من بعد ما تبين له أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم "ويتبع غير سبيل المؤمنين"، يقول: ويتبع طريقاً غير طريق أهل التصديق، ويسلك منهاجاً غير منهاجهم، وذلك هو الكفر بالله، لأن الكفر بالله ورسوله غير سبيل المؤمنين وغير منهاجهم "نولّه ما تولى"، يقول: نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الأوثان والأصنام، وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه من عذاب الله شيئاً، ولا تنفعه

"ونصله جهنم"، يقول: ونجعل له صلاء نار جهنم، يعني: نحرقه بها.

وقد بينا معنى "الصلى" فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

"وساءت مصيراً"، يقول وساءت جهنم "مصيراً"، موضعاً يصير إليه من صار إليه.

ونزلت هذه الآية في الخائنين الذين ذكرهم الله في قوله: "ولا تكن للخائنين خصيماً"، لما أبى التوبة من أبى منهم، وهو طعمة بن الأبيرق، ولحق بالمشركون من عبدة الأوثان بمكة مرتدداً، مفارقاً لرسول الله ﷺ ودينه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله لا يغفر لطمعة إذا أشرك ومات على شركه بالله، ولا لغيره من خلقه بشركهم وكفرهم به "ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"، يقول: ويغفر ما دون الشرك بالله من الذنوب لمن يشاء. يعني بذلك جل ثناؤه: أن طعمة لولا أنه أشرك بالله ومات على شركه، لكان في مشيئة الله على ما سلف من خيائته ومعصيته، وكان إلى الله أمره في عذابه والعفو عنه وكذلك حكم كل من اجترم جرماً، فإلى الله أمره، إلا أن يكون جرمه شركاً بالله وكفراً، فإنه ممن حتمَّ عليه أنه من أهل النار إذا مات على شركه فأما إذا مات على شركه، فقد حرمَّ الله عليه الجنة ومأواه النار.

وأما قوله: "ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً"، فإنه يعني: ومن يجعل لله في عبادته شريكاً، فقد ذهب عن طريق الحق وزال عن قصد السبيل، ذهاباً بعيداً وزوالاً شديداً، وذلك أنه بإشراكه بالله في عبادته قد أطاع الشيطان وسلك طريقه، وترك طاعة الله ومنهاج دينه. فذاك هو الضلال البعيد والخسران المبين.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى التأويلات التي ذكرت بتأويل ذلك، إذ كان الصواب عندنا من القراءة ما وصفت، تأويل من قال: عنى بذلك الآلهة التي كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله ويسمونها الإناث من الأسماء، كالكالات والعزى ونائلة ومناة، وما أشبه ذلك.

وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً * إن يدعون من دونه إلا إناثاً"، يقول: ما يدعو الذين يشاققون الرسول ويتبعون غير سبيل المؤمنين شيئاً "من دون الله"، بعد الله وسواه، "إلا إناثاً"، يعني: إلا ما سموه بأسماء الإناث كالكالات والعزى وما أشبه ذلك. يقول جل ثناؤه: فحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعبدوا ما عبدوا من دونه من الأوثان والأنداد، حجة عليهم في ضلالتهم وكفرهم وذهابهم عن قصد السبيل، أنهم يعبدون إناثاً ويدعونها آلهة

وأربابًا، والإناث من كل شيء أخسُّه، فهم يقرون للخسيس من الأشياء بالعبودة، على علم منهم بخساسته، ويمتنعون من إخلاص العبودة للذي له ملك كل شيء، وييده الخلق والأمر.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وإن يدعون إلا شيطانًا مریدًا"، وما يدعو هؤلاء الذين يدعون هذه الأوثان الإناث من دون الله بدعائهم إياها "إلا شيطانًا مریدًا"، يعني: متمردًا على الله في خلافه فيما أمره به، وفيما نهاه عنه "إلا شيطانًا مریدًا"، يعني: متمردًا على الله في خلافه فيما أمره به، وفيما نهاه عنه، كما جاء عن قتادة: "وإن يدعون إلا شيطانًا مریدًا"، تمرّد على معاصي الله.

القول في تأويل قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "لعنه الله"، أخزاه وأقصاه وأبعده.

ومعنى الكلام: "وإن يدعون إلا شيطانًا مریدًا"، قد لعنه الله وأبعده من كل خير. "وقال لأتخذن"، يعني بذلك: أن الشيطان المرید قال لربه إذ لعنه: "لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا". يعني بـ "المفروض"، المعلوم، فإن قال قائل: وكيف يتخذ الشيطان من عباد الله نصيبًا مفروضًا. قيل: يتخذ منهم ذلك النصيب، بإغوائه إياهم عن قصد السبيل، ودعائه إياهم إلى طاعته، وتزيينه لهم الضلال والكفر حتى يزيلهم عن منهج الطريق، فمن أجاب دعاءه وأتبع ما زينه له، فهو من نصيبه المعلوم، وحظّه المقسوم. وإنما أخبر جل ثناؤه في هذه الآية بما أخبر به عن الشيطان من قبله: "لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا"، ليعلم الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، أنهم من نصيب الشيطان الذي لعنه الله، المفروض، وأنهم ممن صدق عليهم ظنه. وقد دللنا على معنى "اللعنة" فيما مضى، فكرهنا إعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيُبَيِّكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: مخبرًا عن قيل الشيطان المرید الذي وصف صفته في هذه الآية: "ولأضلنهم"، ولأصدن النصيب المفروض الذي أتخذ من عبادك عن محجة الهدى إلى الضلال، ومن الإسلام إلى الكفر "ولأمنينهم"، يقول: لأزيغنهم - بما أجعل في نفوسهم من الأمان - عن طاعتك وتوحيديك، إلى طاعتي والشرك بك، "ولأمرنهم فليستنكذن أذان الأنعام"، يقول: ولأمرن النصيب المفروض لي من عبادك، بعبادة غيرك من الأوثان والأنداد حتى ينسكوا له، ويحرموا ويحللوا له، ويشرعوا غير الذي شرعته لهم، فيتبعوني ويخالفونك.

و"البتك"، القطع، وهو في هذا الموضع: قطع أذن البحيرة ليعلم أنها بحيرة.

وإنما أراد بذلك الخبيث أنه يدعوهم إلى البحيرة، فيستجيبون له، ويعملون بها طاعة له. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى قوله: "فليغيرن خلق الله". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: معناه: "ولا مرنهم فليغيرن خلق الله"، قال: دين الله. وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه، وهي قوله: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]. وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك فعل كل ما نهى الله عنه: من خصاء ما لا يجوز خصاؤه، ووشم ما نهى عن وشمه ووشره، وغير ذلك من المعاصي ودخل فيه ترك كل ما أمر الله به. لأن الشيطان لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله وينهى عن جميع طاعته. فذلك معنى أمره نصيبه المفروض من عباد الله، بتغيير ما خلق الله من دينه.

قال أبو جعفر: فلا معنى لتوجيه من وجه قوله: "ولا مرنهم فليغيرن خلق الله"، إلى أنه وعد الأمر بتغيير بعض ما نهى الله عنه دون بعض، أو بعض ما أمر به دون بعض. فإن كان الذي وجه معنى ذلك إلى الخصاء والوشم دون غيره، إنما فعل ذلك لأن معناه كان عنده أنه عني به تغيير الأجسام، فإن في قوله جل ثناؤه إخباراً عن قيل الشيطان: "ولا مرنهم فليبتكن آذان الأنعام"، ما ينبئ أن معنى ذلك على غير ما ذهب إليه. لأن تبتك آذان الأنعام من تغيير خلق الله الذي هو أجسام. وقد مضى الخبر عنه أنه وعد الأمر بتغيير خلق الله من الأجسام مفسراً، فلا وجه لإعادة الخبر عنه به مجملاً إذ كان الفصح في كلام العرب أن يترجم عن المجمل من الكلام بالمفسر، وبالخاص عن العام، دون الترجمة عن المفسر بالمجمل، وبالعام عن الخاص. وتوجيه كتاب الله إلى الأفصح من الكلام، أولى من توجيهه إلى غيره، ما وجد إليه السبيل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۖ يَعْدُهُمْ وَيُمَيِّتُهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه، عن حال نصيب الشيطان المفروض الذين شاقوا الله ورسوله من بعد ما تبين لهم الهدى. يقول الله: ومن يتبع الشيطان فيطيعه في معصية الله وخلاف أمره، ويواليه فيتخذه ولياً لنفسه ونصييراً من دون الله "فقد خسر خسراناً مبيناً"، يقول: فقد هلك هلاكاً، وبخس نفسه حظاً فأوبقها بخساً مبيناً يبين عن عطبه وهلاكه، لأن الشيطان لا يملك له نصراً من الله إذا عاقبه على معصيته إياه في خلافه أمره، بل يخذله عند حاجته إليه. وإنما حاله معه ما دام حياً ممهلاً بالعقوبة، كما وصفه الله جل ثناؤه بقوله: "يعدهم ويميتهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً"، يعني بذلك جل ثناؤه: يعد الشيطان المرید أولياءه الذين هم نصيبه المفروض: أن يكون لهم نصيراً ممن أرادهم

بسوء، وظهيرًا لهم عليه، يمنعهم منه ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروهمهم والفَلَج عليهم. ثم قال: "وما يعدمهم الشيطان إلا غرورًا" يقول: وما يعد الشيطان أوليائه الذين اتخذوه وليًا من دون الله "إلا غرورًا" يعني: إلا باطلاً.

وإنما جعل عدته إياهم جل ثناؤه ما وعدهم "غرورًا"، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتخاذهم إياه وليًا على حقيقة من عداته الكذب وأمانيه الباطلة، حتى إذا حصحص الحق، وصاروا إلى الحاجة إليه، قال لهم عدو الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْؤُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِيَّيْكُمْ فَكُفُّوا عَنِّي أَلْمَافَةً لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وكما قال للمشركين ببدر، وقد زين لهم أعمالهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُبُورَ وَبَصُرَتْ بِرَبِّهَا وَحَصَّصَ الْحَقَّ، وَعَايَنَ جَدَّ الْأَمْرِ وَنَزَلَ عَذَابُ اللَّهِ بِحُزْبِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فصارت عداته، عدو الله إياهم عند حاجتهم إليه غرورًا ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾. [النور: ٣٩].

القول في تاويل قوله: ﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "أولئك"، هؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وليًا من دون الله "ماوَاهم جهنم"، يعني: مصيرهم الذين يصيرون إليه جهنم، "ولا يجدون عنها محيصًا"، يقول: لا يجدون عن جهنم - إذا صيرهم الله إليها يوم القيامة - معدلاً يعدلون إليه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات"، والذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا له بالوحدانية، ولرسوله ﷺ بالنبوة وعملوا الصالحات"، يقول: وأدوا فرائض الله التي فرضها عليهم "سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار"، يقول: سوف ندخلهم يوم القيامة إذا صاروا إلى الله، جزاء بما عملوا في الدنيا من الصالحات "جنات"، يعني: بساتين "تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا"، يقول: باقين في هذه الجنات التي وصفها "أبدًا"، دائماً.

وقوله: "وعد الله حقًا"، يعني: عِدَّة من الله لهم ذلك في الدنيا "حقًا"، يعني: يقينًا صادقًا، لا كعدة الشيطان الكاذبة التي هي غرور من وعدها من أوليائه، ولكنها عدة ممن لا يكذب ولا يكون منه الكذب، ولا يخلف وعده.

وإنما وصف جل ثناؤه وعده بالصدق والحق في هذه، لما سبق من خبره جل ثناؤه عن قول

الشيطان الذي قصه في قوله: "وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولا ضلنهم ولا منينهم ولا مرنهم فليبتكن آذان الأنعام"، ثم قال جل ثناؤه: "يعدّهم ويمينهم وما يعدّهم الشيطان إلا غروراً"، ولكن الله يعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنه سيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وعداً منه حقاً، لا كوعد الشيطان الذي وصّف صفته.

فوصف جل ثناؤه الواعدين والواعدين، وأخبر بحكم أهل كل وعد منهما، تنبيهاً منه جل ثناؤه خلقه على ما فيه مصلحتهم وخلاصهم من الهلكة والمعطبة، لينزجروا عن معصيته ويعملوا بطاعته، فيفوزوا بما أعدّ لهم في جنانه من ثوابه.

ثم قال لهم جل ثناؤه: "ومن أصدق من الله قيلاً"، يقول: ومن أصدق، أيها الناس، من الله قيلاً أي: لا أحد أصدق منه قيلاً! فكيف تتركون العمل بما وعدكم على العمل به ربكم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وتكفرون به وتخالفون أمره، وأنتم تعلمون أنه لا أحد أصدق منه قيلاً وتعملون بما يأمركم به الشيطان رجاءً لإدراك ما يعدّكم من عاداته الكاذبة وأمانيه الباطلة، وقد علمتم أن عاداته غرورٌ لا صحة لها ولا حقيقة، وتتخذونه ولياً من دون الله، وتتركون أن تطيعوا الله فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فتكونوا له أولياء؟ ومعنى "القيّل" و"القول" واحد.

القول في تأويل قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذين عُنوا بقوله: "ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب".

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، ما قال مجاهد: من أنه عُني بقوله: "ليس بأمانيكم"، مشركي قريش. وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية إذاً: ليس الأمر بأمانيكم، يا معشر أولياء الشيطان وحزبه، التي يمينكموها وليّكم عدوّ الله، من إنقاذكم ممن أرادكم بسوء، ونصرتكم عليه وإظفاركم به ولا أمانى أهل الكتاب الذين قالوا اغتراباً بالله وبحلمه عنهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ و﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، فإن الله مجازي كل عامل منكم جزاء عمله، من يعمل منكم سوءاً، ومن غيركم، يجز به، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة.

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى التأويلات التي ذكرناها بتأويل الآية، التأويل الذي ذكرناه عن أبي بن كعب وعائشة: وهو أن كل من عمل سوءاً صغيراً أو كبيراً من مؤمن أو كافر، جوزي به.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية: لعموم الآية كلّ عامل سوء، من غير أن يُخصَّص أو يستثنى منهم أحد. فهي على عمومها، إذ لم يكن في الآية دلالة على خصوصها، ولا قامت حجة بذلك

من خبر عن الرسول ﷺ. فعن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: "من يعمل سوءًا يجز به"، شقَّت على المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها، أو الشوكة يشاكها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٣)

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ولا يجد الذي يعمل سوءًا من معاصي الله وخلاف ما أمره به "من دون الله"، يعني: من بعد الله، وسواه "وليًّا" يلي أمره، ويحمي عنه ما ينزل به من عقوبة الله "ولا نصيرًا"، يعني: ولا ناصرًا ينصره مما يحلّ به من عقوبة الله وأليم نكاله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٤) قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: الذين قال لهم: "ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب"، يقول الله لهم: إنما يدخل الجنة وينعم فيها في الآخرة، من يعمل من الصالحات من ذكوركم وإناتكم، وذكور عبادي وإناتهم، وهو مؤمن بي وبرسولي محمد، مصدق بوحدانيتي ونبوة محمد ﷺ وبما جاء به من عندي لا أنتم أيها المشركون بي، المكذبون برسولي، فلا تطمعوا أن تحلّوا، وأنتم كفار، محلّ المؤمنين بي، وتدخلوا مداخلهم في القيامة، وأنتم مكذبون برسولي وأما قوله: "ولا يظلمون نقيرًا"، فإنه يعني: ولا يظلم الله هؤلاء الذين يعملون الصالحات من ثواب عملهم، مقدار النقرة التي تكون في ظهر النواة في القلة، فكيف بما هو أعظم من ذلك وأكثر؟ وإنما يخبر بذلك جل ثناؤه عباده أنه لا يبخسهم من جزاء أعمالهم قليلًا ولا كثيرًا، ولكن يُوفِّيهم ذلك كما وعدهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا قضاء من الله جل ثناؤه للإسلام وأهله بالفضل على سائر الملل غيره وأهلها، يقول الله: "ومن أحسن دينًا" أيها الناس، وأصوب طريقًا، وأهدى سبيلًا "ممن أسلم وجهه لله"، يقول: ممن استسلم وجهه لله فانقاد له بالطاعة، مصدقًا بنبيه محمدًا ﷺ فيما جاء به من عند ربه "وهو محسن"، يعني: وهو عامل بما أمره به ربه، محرّم حرامه ومحلّ حلاله "واتبع ملة إبراهيم حنيفًا"، يعني بذلك: واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، وأمر به بنيه من بعده وأوصاهم به "حنيفًا"، يعني: مستقيمًا على منهاجه وسبيله.

وقد بينا اختلاف المختلفين فيما مضى قبل في معنى "الحنيف"، والدليل على الصحيح من القول في ذلك بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٥) قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: واتخذ الله إبراهيم وليًّا. فإن قال قائل: وما معنى "الخلّة" التي أعطاها إبراهيم؟

قيل: ذلك من إبراهيم عليه السلام: العداوة في الله والبغض فيه، والولاية في الله والحب فيه، على ما يعرف من معاني "الخلة". وأما من الله لإبراهيم، فنُصرتَه على من حاوله بسوءٍ، كالذي فعل به إذ أرادَه نمرود بما أرادَه به من الإحراق بالنار فأنقذه منها، أو على حاجته عليه إذ حاجه وكما فعل بملك مصر إذ أرادَه عن أهله وتمكينه مما أحب وتصويره إمامًا لمن بعده من عباده، وقُدوة لمن خلفه في طاعته وعبادته. فذلك معنى مُحَالَته إياه. وقد قيل: سماه الله "خليلا"، من أجل أنه أصابَ أهلَ ناحيته جذبٌ، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل وقال بعضهم: من أهل مصر في امتياز طعام لأهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته. فلما قَرَب من أهله مرَّ بمفازة ذات رمل، فقال: لو ملأت غرائري من هذا الرمل، لثلا أعمُّ أهلي برجوعي إليهم بغير ميرة، وليظنوا أنني قد أتيتهم بما يحبون! ففعل ذلك، فتحول ما في غرائره من الرمل دقيقًا، فلما صار إلى منزله نام. وقام أهله، ففتحوا الغرائر، فوجدوا دقيقًا، فعجنوا منه وخبزوا. فاستيقظ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك! فعلم، فقال: نعم! هو من خليلي الله! قالوا: فسماه الله بذلك "خليلا".

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾
قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "واتخذ الله إبراهيم خليلًا"، لطاعته ربّه، وإخلاصه العبادة له، والمسارعة إلى رضاه ومحبته، لا من حاجة به إليه وإلى خلّته. وكيف يحتاج إليه وإلى خلّته، وله ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير ملوكًا، والمالك الذي إليه حاجة ملكه، دون حاجته إليه؟ يقول: فكذلك حاجة إبراهيم إليه، لا حاجته إليه فيتخذه من أجل حاجته إليه خليلًا ولكنه اتخذه خليلًا لمسارعته إلى رضاه ومحبته. يقول: فكذلك فسارعوا إلى رضائي ومحبي لا تأخذكم لي أولياء" وكان الله بكل شيء محيطًا"، ولم يزل الله محصيًا لكل ما هو فاعله عباده من خير وشرّ، عالمًا بذلك، لا يخفى عليه شيء منه، ولا يعزب عنه منه مثقال ذرة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ويستفتونك في النساء"، ويسألك، يا محمد، أصحابك أن تفتيهم في أمر النساء، والواجب لهن وعليهن فاكتنى بذكر "النساء" من ذكر "شأنهن"، لدلالة ما ظهر من الكلام على المراد منه. "قل الله يفتيكم فيهن"، قل لهن: يا محمد، الله يفتيكم فيهن، يعني: في النساء "وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن".

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "وما يتلى عليكم في الكتاب".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال التي ذكرناها عنه بالصواب، وأشبهها بظاهر التنزيل، قول من قال: معنى قوله: "وما يتلى عليكم في الكتاب"، وما يتلى عليكم من آيات الفرائض في أول هذه السورة وآخرها. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الصّدق ليس مما كُتب للنساء إلا بالنكاح، فما لم تنكح فلا صدق لها قبل أحد. وإذا لم يكن ذلك لها قبل أحد، لم يكن مما كتب لها. وإذا لم يكن مما كتب لها، لم يكن لقول قائل: عنى بقوله: "وما يتلى عليكم في الكتاب"، الإقسط في صدقات يتامى النساء وَجْهٌ. لأن الله قال في سياق الآية، مبيّنًا عن الفتيا التي وعدنا أن يفتيناها: "في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن"، فأخبر أن بعض الذي يفتينا فيه من أمر النساء، أمر اليتيمة المَحُولِ بينها وبين ما كتب الله لها. والصدق قبل عقد النكاح، ليس مما كتب الله لها على أحد. فكان معلومًا بذلك أن التي عنيت بهذه الآية، هي التي قد حيل بينها وبين الذي كتب لها مما يتلى علينا في كتاب الله. فإذا كان ذلك كذلك، كان معلومًا أن ذلك هو الميراث الذي يوجهه الله لهن في كتابه. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: ويستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في كتاب الله الذي أنزله على نبيه في أمر يتامى النساء اللاتي لا تعطوهن ما كتب لهن يعني: ما فرض الله لهن من الميراث عمن ورثته واختلف أهل التأويل في معنى قوله: "وترغبون أن تنكحوهن".

قال أبو جعفر: وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك، "وترغبون عن أن تنكحوهن". لأن حبسهم أموالهن عنهن مع عضلهم إياهن، إنما كان ليرثوا أموالهن، دون زوج إن تزوجن. ولو كان الذين حبسوا عنهن أموالهن، إنما حبسوها عنهن رغبة في نكاحهن، لم يكن للحبس عنهن وجهٌ معروف، لأنهم كانوا أولياءهن، ولم يكن يمنعهم من نكاحهن مانع، فيكون به حاجة إلى حبس مالها عنها، ليتخذ حبسها عنها سببًا إلى إنكاحها نفسها منه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في الكتاب وفي المستضعفين من الولدان وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط.

وقد ذكرنا الرواية بذلك عمن قاله من الصحابة والتابعين فيما مضى، والذين أفتاهم في أمر المستضعفين من الولدان أن يؤتوهم حقوقهم من الميراث، لأنهم كانوا لا يورثون الصغار من أولاد الميت، وأمرهم أن يقسطوا فيهم، فيعدلوا ويعطوهم فرائضهم على ما قسم الله لهم في كتابه، قال أبو جعفر: فقيامهم لليتامى بالقسط، كان العدل فيما أمر الله فيهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومهما يكن منكم، أيها المؤمنون، من عدل في أموال اليتامى، التي أمركم الله

أن تقوموا فيهم بالقسط، والانتهاى إلى أمر الله في ذلك وفي غيره وإلى طاعته " فإن الله كان به عليماً، لم يزل عالماً بما هو كائن منكم، وهو محصٍ ذلك كله عليكم، حافظ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يوم القيامة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وإن خافت امرأة من بعلها، يقول: علمت من زوجها "نشورًا"، يعني: استعلاءً بنفسه عنها إلى غيرها،

أثرةً عليها، وارتفاعاً بها عنها، إما لبغضة، وإما لكرهية منه بعض أسبابها إما دمايتها، وإما سنهها وكبرها، أو غير ذلك من أمورها "أو إعراضاً"، يعني: انصرافاً عنها بوجهه أو ببعض منافعه التي كانت لها منه "فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً"، يقول: فلا حرج عليهما، يعني: على المرأة الخائفة نشوز بعلها أو إعراضه عنها "أن يصلحا بينهما صلحاً"، وهو أن تترك له يومها، أو تضع عنه بعض الواجب لها من حق عليه، تستعطفه بذلك وتستديم المقام في حباله، والتمسك بالعقد الذي بينها وبينه من النكاح يقول: "والصلح خير"، يعني: والصلح بترك بعض الحق استدامة للحُرمة، وتماسكاً بعقد النكاح، خيرٌ من طلب الفرقة والطلاق. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسَ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بذلك: أحضرت أنفس النساء الشح بأنصباتهن من أزواجهن في الأيام والنفقة. و"الشح": الإفراط في الحرص على الشيء، وهو في هذا الموضع: إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها. فتأويل الكلام: وأحضرت أنفس النساء أهواءهن، من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضرائرهن. وبنحو ما قلنا في معنى "الشح" ذكر عن ابن عباس

قال أبو جعفر: وأما قوله "وإن تحسنوا وتتقوا"، فإنه يعني: وإن تحسنوا، أيها الرجال، في أفعالكم إلى نساءكم، إذا كرهتم منهن دماً أو خُلُقاً أو بعض ما تكرهون منهن بالصبر عليهن، وإيفائهن حقوقهن وعشرتهن بالمعروف "وتتقوا"، يقول: وتتقوا الله فيهن بترك الجور منكم عليهن فيما يجب لمن كرهتموه منهن عليكم، من القسمة له، والنفقة، والعشرة بالمعروف "فإن الله كان بما تعملون خبيراً"، يقول: فإن الله كان بما تعلمون في أمور نساءكم، أيها الرجال، من الإحسان إليهن والعشرة بالمعروف، والجور عليهن فيما يلزمكم لهنّ ويجب "خبيراً"، يعني: عالماً خبيراً، لا يخفي عليه منه شيء، بل هو به عالم، وله محصٍ عليكم، حتى يوفّيكم

جزاء ذلك: المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء"، لن تطبقوا، أيها الرجال، أن تسووا بين نسائكم وأزواجكم في حُبِّهن بقلوبكم حتى تعدلوا بينهن في ذلك، فلا يكون في قلوبكم لبعضهن من المحبة إلا مثل ما لصواحبها، لأن ذلك مما لا تملكونه، وليس إليكم "ولو حرصتم"، يقول: ولو حرصتم في تسويتكم بينهن في ذلك "فلا تميلوا كل الميل"، يقول: فلا تميلوا بأهوائكم إلى من لم تملكوا محبته منهن كل الميل، حتى يحملكم ذلك على أن تجوروا على صواحبها في ترك أداء الواجب لهن عليكم من حق: في القسم لهن، والنفقة عليهن، والعشرة بالمعروف "فتدروها كالمعلقة" يقول: فتدروا التي هي سوى التي ملتم بأهوائكم إليها "كالمعلقة"، يعني: كالتى لا هي ذات زوج، ولا هي أيم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. قال أبو جعفر: وإنما أمر الله جل ثناؤه بقوله: "فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة"، الرجال بالعدل بين أزواجهن فيما استطاعوا فيه العدل بينهن من القسمة بينهن، والنفقة، وترك الجور في ذلك بإرسال إحداهن على الأخرى فيما فرض عليهم العدل بينهن فيه، إذ كان قد صفح لهم عما لا يطبقون العدل فيه بينهن مما في القلوب من المحبة والهوى.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "وإن تصلحوا" أعمالكم، أيها الناس، فتعدلوا في قسمكم بين أزواجكم، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف، فلا تجوروا في ذلك "وتتقوا"، يقول: وتتقوا الله في الميل الذي نهاكم عنه، بأن تميلوا لإحداهن على الأخرى، فتظلموها حقها مما أوجب الله لها عليكم "فإن الله كان غفورًا"، يقول: فإن الله يستر عليكم ما سلف منكم من ميلكم وجوركم عليهن قبل ذلك، بتركه عقوبتكم عليه، ويغطي ذلك عليكم بعفوه عنكم ما مضى منكم في ذلك قبل "رحيمًا"، يقول: وكان رحيمًا بكم، إذ تاب عليكم، فقبل توبتكم من الذي سلف منكم من جوركم في ذلك عليهن، وفي ترخيصه لكم الصلح بينكم وبينهن، بصفحة عن حقوقهن لكم من القسم على أن لا يطلعن.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أبت المرأة التي قد نشز عليها زوجها إذ أعرض عنها بالميل منه إلى ضررتها لجمالها أو شبابها، أو غير ذلك مما تميل النفوس له إليها الصلح بصفحها لزوجه عن يومها وليلتها، وطلبت حقها منه من القسم والنفقة، وما أوجب الله لها عليه وأبى

الزوج الأخذَ عليها بالإحسان الذي ندبه الله إليه بقوله: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وإلحاقها في القسم لها والنفقة والعشرة بالتي هو إليها مائل، فتفرقا بطلاق الزوج إياها "يُغْنِ الله كلا من سعته"، يقول: يغن الله الزوجَ والمرأة المطلقة من سعة فضله. أما هذه، فبزوج هو أصلح لها من المطلِّق الأول، أو برزق أوسع وعصمة. وأما هذا، فبرزق واسع وزوجة هي أصلح له من المطلقة، أو عفة "وكان الله واسعاً"، يعني: وكان الله واسعاً لهما، في رزقه إياهما وغيرهما من خلقه "حكيمًا"، فيما قضى بينه وبينها من الفرقة والطلاق، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكم بينهما في هذه الآيات وغيرها، وفي غير ذلك من أحكامه وتدبيره وقضاياه في خلقه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: والله جميع مُلك ما حوته السموات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها. وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله: "وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته"، تنبيهًا منه خلقه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه وزوجته وتذكيرًا منه له أنه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء، فغير متعذر عليه أن يغنيه وكل ذي فاقة وحاجة، ويؤنس كل ذي وحشة. ثم رجع جل ثناؤه إلى عدل من سعى في أمر بني أبيرق وتوبيخهم، ووعيد من فعل ما فعل المرتد منهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، يقول: ولقد أمرنا أهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل "وإياكم"، يقول: وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: "اتقوا الله"، يقول: احذروا الله أن تعصوه وتخالفوا أمره ونهيه "وإن تكفروا"، يقول: وإن تجحدوا وصيته إياكم، أيها المؤمنون، فتخالفوها ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، يقول: فإنكم لا تضربون بخلافكم وصيته غير أنفسكم، ولا تعدون في كفركم ذلك أن تكونوا أمثال اليهود والنصارى، في نزول عقوبته بكم، وحلول غضبه عليكم، كما حل بهم إذ بدلوا عهده ونقضوا ميثاقه، فغير بهم ما كانوا فيه من خفض العيش وأمن السرب، وجعل منهم القردة والخنازير. وذلك أن له ملك جميع ما حوته السموات والأرض، لا يمتنع عليه شيء أراده بجميعة وبشيء منه، من إعزاز من أراد إعزازه، وإذلال من أراد إذلاله، وغير ذلك من الأمور كلها، لأن الخلق خلقه، بهم إليه الفاقة والحاجة، وبه قواهم وبقاؤهم، وهلاكهم وفناؤهم وهو "الغني" الذي لا حاجة تحل به إلى شيء، ولا فاقة تنزل به تضطره إليكم، أيها الناس، ولا إلى غيركم "والحميد" الذي استوجب عليكم أيها الخلق الحمد بصنائه الحميدة إليكم، وآلائه الجميلة لديكم. فاستديموا ذلك، أيها الناس، باتقائه، والمصارعة إلى طاعته فيما

يأمركم به وينهاكم عنه

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: والله ملك جميع ما حوته السموات والأرض، وهو القيم بجمعيه، والحافظ لذلك كله، لا يعزب عنه علم شيء منه، ولا يؤوده حفظه وتدبيره

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن يشأ الله، أيها الناس، "يذهبكم"، أي: يذهبكم بإهلاككم وإفنائكم "ويأت بآخرين"، يقول: ويأت بناس آخرين غيركم لموازة نبيه محمد ﷺ ونصرته "وكان الله على ذلك قديرًا"، يقول: وكان الله على إهلاككم وإفنائكم واستبدال آخرين غيركم بكم "قديرًا"، يعني: ذا قدرة على ذلك. وإنما وبخ جل ثناؤه بهذه الآيات، الخائنين الذين خانوا الدرع التي وصفنا شأنها، الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] وحذر أصحاب محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم، وأن يفعلوا فعل المرتد منهم في ارتداده ولحاقه بالمشركين وعرفهم أن من فعل فعله منهم، فلن يضر إلا نفسه، ولن يوبق برذته غير نفسه، لأنه المحتاج - مع جميع ما في السموات وما في الأرض - إلى الله، والله الغني عنهم. ثم توعدهم في قوله: "إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين"، بالهلاك والاستئصال، إن هم فعلوا فعل ابن أبيرق طعمة المرتد وباستبدال آخرين غيرهم بهم، لنصرة نبيه محمد ﷺ وصحبته ومؤازرته على دينه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "من كان يريد"، ممن أظهر الإيمان بمحمد ﷺ من أهل النفاق، الذين يستبطنون الكفر وهم مع ذلك يظهرون الإيمان "ثواب الدنيا"، يعني: عَرَضُ الدنيا، بإظهاره ما أظهر من الإيمان بلسانه. "فعند الله ثواب الدنيا"، يعني: جزاؤه في الدنيا منها وثوابه فيها، وهو ما يصيب من المغنم إذا شهد مع النبي مشهدًا، وأمنه على نفسه وذريته وماله، وما أشبه ذلك. وأما ثوابه في الآخرة، فنار جهنم. فمعنى الآية: من كان من العاملين في الدنيا من المنافقين يريد بعمله ثواب الدنيا وجزاءها من عمله، فإن الله مجازيه به جزاء في الدنيا من الدنيا، وجزاءه في الآخرة من الآخرة من العقاب والنكال. وذلك أن الله قادر على ذلك كله، وهو مالك جميعه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ٥٥ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون [هود: ١٥-١٦]. وإنما عنى بذلك جل ثناؤه: الذين تتبعوا في أمر بني أبيرق، والذين وصفهم في قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴿[النساء: ١٠٧، ١٠٨]، ومن كان من نظرائهم في أفعالهم ونفاقهم. وقوله: "وكان الله سميعًا بصيرًا"، يعني: وكان الله سميعًا لما يقول هؤلاء المنافقون الذين يريدون ثواب الدنيا بأعمالهم، وإظهارهم للمؤمنين ما يظهرون لهم إذا لقوا المؤمنين، وقولهم لهم: "آمنًا" "بصيرًا"، يعني: وكان ذا بصر بهم وبما هم عليه منطوون للمؤمنين، فيما يكتُمونه ولا يبدونه لهم من الغش والغُلّ الذي في صدورهم لهم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ وهذا تقدم من الله تعالى ذكره إلى عباده المؤمنين به وبرسوله أن يفعلوا فعل الذين سَعَوْا إلى رسول الله ﷺ في أمر بني أبيرق أن يقوم بالعدل لهم في أصحابه، وذُبَّهم عنهم، وتحسينهم أمرهم بأنهم أهل فاقة وفقر. يقول الله لهم: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ"، يقول: ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام بالقسط يعني: بالعدل "شهداء لله". و"الشهداء" جمع "شهيد". ونصبت "الشهداء" على القطع مما في قوله: "قوامين" من ذكر "الذين آمنوا"، ومعناه: قوموا بالقسط لله عند شهادتكم أو: حين شهادتكم. "ولو على أنفسكم"، يقول: ولو كانت شهادتكم على أنفسكم، أو على والدين لكم أو أقربيكم، فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموها على صحتها بأن تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها لغنيٍّ لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غنيٍّ، فتجوروا. فإن الله الذي سَوَّى بين حكم الغني والفقير فيما ألزمكم، أيها الناس، من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل "أولى بهما"، وأحق منكم، لأنه مالكما وأولى بهما دونكم، فهو أعلم بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما "فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا"، يقول: فلا تتبعوا أهواء أنفسكم في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها -لغني على فقير، أو لفقير على غني- إلا أحد الفريقين، فتقولوا غير الحق، ولكن قوموا فيه بالقسط، وأدوا الشهادة على ما أمركم الله بأدائها، بالعدل لمن شهدتم له وعليه. وتأويل قوله: "فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا"، أي: عن الحق، فتجوزوا بترك إقامة الشهادة بالحق. ولو وُجِّه إلى أن معناه: فلا تتبعوا أهواء أنفسكم هربًا من أن تعدلوا عن الحق في إقامة الشهادة بالقسط، لكان وجهًا. وقد قيل: معنى ذلك: فلا تتبعوا الهوى لتعدلوا كما يقال: "لا تتبع هواك لترضي ربك"، بمعنى: أنهاك عنه، كما ترضي ربك بتركه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ تَلَوُا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، تأويل

من تأوله، أنه لَيُّ الشاهد شهادته لمن يشهد له وعليه، وذلك تحريفه إياها بلسانه، وتركه إقامتها، ليبطل بذلك شهادته لمن شهد له، وعمن شهد عليه. وأما إعراضه عنها، فإنه تركه أدائها والقيام بها، فلا يشهد بها. فيكون تأويل الكلام: وإن تدفعوا القيام بالشهادة على وجهها لمن لزمكم القيام له بها، فتغيروها وتبدلوا، أو تعرضوا عنها فتركوا القيام له بها، كما يلوي الرجل دين الرجل فيدافعه بأدائه إليه على ما أوجب عليه له مطلقاً منه له وأما تأويل قوله: "فإن الله كان بما تعملون خبيراً"، فإنه أراد: "فإن الله كان بما تعملون"، من إقامتكم الشهادة وتحريفكم إياها، وإعراضكم عنها بكتمانكموها "خبيراً"، يعني ذا خبرة وعلم به، يحفظ ذلك منكم عليكم، حتى يجازيكم به جزاءكم في الآخرة، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته. يقول: فاتقوا ربكم في ذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا"، بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدّقوا بما جاؤوهم به من عند الله "آمنوا بالله ورسوله"، يقول: صدّقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه الله رسول، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم "والكتاب الذي نزل على رسوله"، يقول: وصدّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذي نزل الله عليه، وذلك القرآن "والكتاب الذي أنزل من قبل"، يقول: وآمنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ، وهو التوراة والإنجيل. وأما قوله: "ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"، فإن معناه: ومن يكفر بمحمد ﷺ فيجحد نبوته فقد ضلّ ضلالاً بعيداً. وإنما قال تعالى ذكره: "ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"، ومعناه: ومن يكفر بمحمد وبما جاء به من عند الله لأن جحود شيء من ذلك بمعنى جحود جميعه، ولأنه لا يصح إيمان أحدٍ من الخلق إلا بالإيمان بما أمره الله بالإيمان به، والكفر بشيء منه كفر بجميعه، فلذلك قال: "ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"، بعقب خطابه أهل الكتاب وأمره إياهم بالإيمان بمحمد ﷺ، تهديداً منه لهم، وهم مقرّون بوحدانية الله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، سوى محمد ﷺ وما جاء به من الفرقان. وأما قوله: "فقد ضلّ ضلالاً بعيداً"، فإنه يعني: فقد ذهب عن قصد السبيل، وجار عن محجّة الطريق، إلى المهالك ذهاباً وجوراً بعيداً. لأن كفر من كفر بذلك، خروج منه عن دين الله الذي شرعه لعباده. والخروج عن دين الله، الهلاك الذي فيه البوار، والضلال عن الهدى هو الضلال.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بتأويل الآية، قول من قال عنى بذلك أهل الكتاب الذين أقروا بحكم التوراة، ثم كذبوا بخلافهم إياه، ثم أقرّ من أقرّ منهم بيسى والإنجيل، ثم كذب به بخلافه إياه، ثم كذب بمحمد ﷺ والفرقان فازداد بتكذيبه به كفرا على كفره.

وأما قوله: "لم يكن الله ليغفر لهم"، فإنه يعني: لم يكن الله ليسترَ عليهم كفرهم وذنوبهم، بعفوه عن العقوبة لهم عليه، ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد "ولا يهديهم سبيلا" يقول: ولم يكن ليسدّدهم لإصابة طريق الحق فيوقفهم لها، ولكنه يخذلهم عنها، عقوبة لهم على عظيم جرمهم، وجرأتهم على ربهم. وقد ذهب قوم إلى أن المرتد يُستتاب ثلاثاً، انتزاعاً منهم بهذه الآية، وخالفهم على ذلك آخرون. قال أبو جعفر: وفي قيام الحجة بأن المرتد يستتاب المرّة الأولى، الدليل الواضح على أن حكم كلّ مرة ارتدّ فيها عن الإسلام حكمُ المرة الأولى، في أن توبته مقبولة، وأن إسلامه حقّ له دمه. لأن العلة التي حقنت دمه في المرة الأولى إسلامه، فغير جائز أن توجد العلة التي من أجلها كان دمه محقّقاً في الحالة الأولى، ثم يكون دمه مباحاً مع وجودها، إلا أن يفرّق بين حكم المرة الأولى وسائر المرات غيرها، ما يجب التسليم له من أصل محكم، فيخرج من حكم القياس حينئذ.

القول في تأويل قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "بشر المنافقين"، أخبر المنافقين. وقد بينّا معنى "التبشير" فيما مضى بما أغنى عن إعادته. "بأن لهم عذاباً أليماً"، يعني: بأن لهم يوم القيامة من الله على نفاقهم "عذاباً أليماً"، وهو الموضع، وذلك عذاب جهنم

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتَهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال أبو جعفر: أما قوله جل ثناؤه: "الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين"، فمن صفة المنافقين. يقول الله لنبيه: يا محمد، بشر المنافقين الذين يتخذون أهل الكفر بي والإلحاد في ديني "أولياء" يعني: أنصاراً وأخلاء "من دون المؤمنين"، يعني: من غير المؤمنين "أيتعون عندهم العزة"، يقول: أيطلبون عندهم المنعة والقوة، باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي؟ "فإن العزة لله جميعاً"، يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم، هم الأذلاء الأقلاء، فهلا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يُعزّ من يشاء ويدل من يشاء، فيعزّهم ويمنعهم؟ وأصل "العزة"، الشدة. ومنه قيل للأرض الصلبة الشديدة، "عزاز". وقيل: "قد استعزّ على المريض"، إذا اشتدّ مرضه وكاد يُشفى.

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٥﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "بشر المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين،" وقد نزل عليكم في الكتاب،" يقول: أخبر من اتخذ من هؤلاء المنافقين الكفار أنصارًا وأولياء بعد ما نزل عليهم من القرآن،" أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره،" يعني: بعد ما علموا نهى الله عن مجالسة الكفار الذين يكفرون بحجج الله وآي كتابه ويستهزئون بها "حتى يخوضوا في حديث غيره"، يعني بقوله: "يخوضوا"، يتحدثوا حديثًا غيره "بأن لهم عذابًا أليمًا".

وقوله: "إنكم إذا مثلهم"، يعني: وقد نزل عليكم أنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فأنتم مثله يعني: فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، مثلهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله. فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها، فأنتم إذا مثلهم في ركوبكم معصية الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه. وفي هذه الآية، الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسقة، عند خوضهم في باطلهم. وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون، تأولوا منهم هذه الآية أنه مراد بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه. ومن ذلك ما جاء عن إبراهيم التيمي، عن أبي وائل، قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساءه، فيسخط الله عليهم. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله: "أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم"؟ وقوله: "إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا"، يقول: إن الله جامع الفريقين من أهل الكفر والنفاق في القيامة في النار، فموفق بينهم في عقابه في جهنم وأليم عذابه، كما اتفقوا في الدنيا فاجتمعوا على عداوة المؤمنين، وتوازرؤا على التخذيل عن دين الله وعن الذي ارتضاه وأمر به وأهله.

القول في تاويل قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِمْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ١٦﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "الذين يتبعون بكم"، الذين ينتظرون، أيها المؤمنون، بكم "فإن كان لكم فتح من الله"، يعني: فإن فتح الله عليكم فتحًا من عدوكم، فأفاء عليكم فيةً من المغانم "قالوا" لكم "ألم نكن معكم"، نجاهد عدوكم ونغزوهم معكم، فأعطونا نصيبًا من الغنيمة، فإننا قد شهدنا القتال

معكم" وإن كان للكافرين نصيب"، يعني: وإن كان لأعدائكم من الكافرين حظّ منكم، بإصابتهم منكم "قالوا"، يعني: قال هؤلاء المنافقون للكافرين "ألم نستحوذ عليكم"، ألم نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين "ونمنعكم" منهم، بتخذيلنا إياهم، حتى امتنعوا منكم فانصرفوا "فالله يحكم بينكم يوم القيامة"، يعني: فالله يحكم بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، فيفصل بينكم بالقضاء الفاصل، بإدخال أهل الإيمان جنّته، وأهل النفاق مع أوليائهم من الكفار ناره "ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً"، يعني: حجة يوم القيامة.

وذلك وعدّ من الله المؤمنين أنه لن يدخل المنافقين مدخلهم من الجنة، ولا المؤمنين مدخل المنافقين، فيكون بذلك للكافرين على المؤمنين حجة بأن يقولوا لهم، إن أدخلوا مدخلهم: ها أنتم كنتم في الدنيا أعداءنا، وكان المنافقون أوليائنا، وقد اجتمعتم في النار، فجمع بينكم وبين أوليائنا! فأين الذين كنتم تزعمون أنكم تقاتلوننا من أجله في الدنيا؟ فذلك هو "السبيل" الذي وعد الله المؤمنين أن لا يجعلها عليهم للكافرين. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: "فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً"، فلا خلاف بينهم في أن معناه: ولن يجعل الله للكافرين يومئذ على المؤمنين سبيلاً.

كالذي جاء عن يُسَيْعِ الحضرمي قال: كنت عند علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، رأيت قول الله: "ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً"، وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له عليّ: أدنّه، أدنّه! ثم قال: "فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً"، يوم القيامة.

وأما "السبيل"، في هذا الموضع، فالحجة

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال أبو جعفر: قد دللنا فيما مضى قبل على معنى "خداع المنافق ربه"، ووجه "خداع الله إياهم"، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، مع اختلاف المختلفين في ذلك. فتأويل ذلك: إنّ المنافقين يخادعون الله، بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دماءهم بما أظهرها بالسستهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر، استدراجاً منه لهم في الدنيا، حتى يلقيه في الآخرة، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم،

وأما قوله: "وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس على وجه التقرب بها إلى الله، لأنهم يعملون شيئاً من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنين على وجه التقرب بها إلى الله، لأنهم

غير موقنين بمعادٍ ولا ثواب ولا عقاب، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمال الظاهرة إبقاءً على أنفسهم، وحذاراً من المؤمنين عليها أن يُقتلوا أو يُسلبوا أموالهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض الظاهرة، قاموا كسالى إليها، رياءً للمؤمنين ليحسبوه منهم وليسوا منهم، لأنهم غير معتقدي فرضها ووجوبها عليهم، فهم في قيامهم إليها كسالى.

وأما قوله: "ولا يذكرون الله إلا قليلاً"، فلعن قائلًا أن يقول: وهل من ذكر الله شيء قليل؟.

قيل له: إن معنى ذلك بخلاف ما ذهبت: ولا يذكرون الله إلا ذكر رياء، ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسبب وسلب الأموال، لا ذكر موقن مصدق بتوحيد الله، مخلص له الربوبية. فلذلك سماه الله "قليلاً"، لأنه غير مقصود به الله، ولا مبتغى به التقرب إلى الله، ولا مراد به ثواب الله وما عنده. فهو، وإن كثر، من وجه نَصَب عامله وذاكره، في معنى السراب الذي له ظاهرٌ بغير حقيقة ماء.

القول في تأويل قوله: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "مذبذبين"، مرددين.

وأصل "التذبذب"، التحرك والاضطراب وإنما عنى الله بذلك: أن المنافقين متحيرون في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقاد شيء على صحة، فهم لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع المشركين على جهالة، ولكنهم حيارى بين ذلك، فمثلهم المثل الذي ضرب لهم رسول الله ﷺ كالذي جاء عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدري أيَّهما تتبع!

وأما قوله: "ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً"، فإنه يعني: من يخذله الله عن طريق الرشاد، وذلك هو الإسلام الذي دعا الله إليه عباده. يقول: من يخذله الله عنه فلم يوفقه له "فلن تجد له"، يا محمد "سبيلاً"، يعني: طريقاً يسلكه إلى الحق غيره. وأي سبيل يكون له إلى الحق غير الإسلام؟ وقد أخبر الله جل ثناؤه: أنه من يبتغ غيره ديناً فلن يقبل منه، ومن أضله الله عنه فقد غوى فلا هادي له غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْئَيْدُونَ أَنْ تُخَلَّعُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا نهى من الله عباده المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه. يقول لهم جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا توالوا الكفار فتؤازروهم من دون أهل ملتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين. ثم قال جل ثناؤه: متوعداً من اتخذ منهم الكافرين أولياء من دون

المؤمنين، إن هو لم يرتدع عن موالاته، وينزجر عن مخالته أن يلحقه بأهل ولايتهم من المنافقين الذين أمر نبيه ﷺ بتبشيرهم بأن لهم عذاباً أليماً: "أتريدون"، أيها المتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ممن قد آمن بي وبرسولي "أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً"، يقول: حجة، باتخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فتستوجبوا منه ما استوجبه أهل النفاق الذين وصف لكم صفتهم، وأخبركم بمحلهم عنده "مبيناً"، يعني: يبين عن صحتها وحقيقتها. يقول: لا تعرضوا لغضب الله، بإيجابكم الحجة على أنفسكم في تقدمكم على ما نهاكم ربكم من موالاته أعدائه وأهل الكفر به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار"، إن المنافقين في الطبقة الأسفل من أطباق جهنم. وكل طبق من أطباق جهنم: "درك". وأما قوله: "ولن تجد لهم نصيراً"، فإنه يعني: ولن تجد لهؤلاء المنافقين، يا محمد، من الله إذا جعلهم في الدرك الأسفل من النار ناصراً ينصرهم منه، فينقذهم من عذابه، ويدفع عنهم أليم عقابه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا استثناء من الله جل ثناؤه، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا، وأخلصوا الدين لله وحده، وتبرءوا من الآلهة والأنداد، وصدقوا رسوله، أن يكونوا مع المصيرين على نفاقهم حتى توافيهم منايهم - في الآخرة، وأن يدخلوا مداخلهم من جهنم. بل وعدهم جل ثناؤه أن يحلهم مع المؤمنين محل الكرامة، ويسكنهم معهم مساكنهم في الجنة. ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيل من العطاء فقال: "وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً".

قال أبو جعفر: فتأويل الآية: "إلا الذين تابوا"، أي: راجعوا الحق، وآبوا إلا الإقرار بوحداية الله وتصديق رسوله وما جاء به من عند ربه من نفاقهم "وأصلحوا"، يعني: وأصلحوا أعمالهم، فعملوا بما أمرهم الله به، وأدّوا فرائضه، وانتهوا عما نهاهم عنه، وانزجروا عن معاصيه "واعتصموا بالله"، يقول: وتمسكوا بعهد الله. وقد دللنا فيما مضى قبل على أن "الاعتصام" التمسك والتعلق. فالاعتصام بالله: التمسك بعهد وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه، من طاعته وترك معصيته. "وأخلصوا دينهم لله"، يقول: وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها، ولم يعملوها رياء الناس، ولا على شك منهم في دينهم، وامترأ منهم في أن الله محصٍ عليهم ما عملوا، فمجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على إحسانه، وجزاء المسيء على إساءته، أو

يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ رَبُّهُ فَيَعْفُو مَتَقَرِّبِينَ بِهَا إِلَى اللَّهِ، مَرِيدِينَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ. فَذَلِكَ مَعْنَى: "إِخْلَاصَهُمْ لِلَّهِ دِينَهُمْ".

ثُمَّ قَالَ جَلُّ ثَنَائِهِ: "فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ"، يَقُولُ: فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ وَإِصْلَاحِهِمْ وَاعْتِصَامِهِمْ بِاللَّهِ وَإِخْلَاصِهِمْ دِينَهُمْ أَيُّ: مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ، لَا مَعَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ، الَّذِينَ أُوْعِدَهُم الدَّرَكُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّارِ.

ثُمَّ قَالَ: "وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا"، يَقُولُ: وَسَوْفَ يُعْطِي اللَّهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ، عَلَى تَوْبَتِهِمْ وَإِصْلَاحِهِمْ وَاعْتِصَامِهِمْ بِاللَّهِ وَإِخْلَاصِهِمْ دِينَهُمْ لَهُ، وَعَلَى إِيْمَانِهِمْ، ثَوَابًا عَظِيمًا وَذَلِكَ: دَرَجَاتٌ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا أُعْطِيَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى النِّفَاقِ مَنَازِلَ فِي النَّارِ، وَهِيَ السُّفْلَى مِنْهَا. لِأَنَّ اللَّهَ جَلُّ ثَنَائِهِ وَعَدَّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ ذَلِكَ، كَمَا أُوْعِدَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى نِفَاقِهِمْ مَا ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مَعْنَى قَوْلِ حَزِيْقَةَ بْنِ الْيَمَانِ،

كَالَّذِي جَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ، قَالَ حَزِيْقَةُ: لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ قَوْمٌ كَانُوا مُنَافِقِينَ! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا عَلِمْتُكَ بِذَلِكَ؟ فَغَضِبَ حَزِيْقَةُ، ثُمَّ قَامَ فَتَنَحَّى. فَلَمَّا تَفَرَّقُوا، مَرَّ بِهِ عُلْقَمَةُ فَدَعَاهُ فَقَالَ: أَمَا إِنَّ صَاحِبَكَ يَعْلَمُ الَّذِي قُلْتَ! ثُمَّ قَرَأَ: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا".

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَعْنِي جَلُّ ثَنَائِهِ بِقَوْلِهِ: "مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ"، مَا يَصْنَعُ اللَّهُ، أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ، بِعَذَابِكُمْ، إِنْ أَنْتُمْ تُبْتَمُّ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعْتُمْ إِلَى الْحَقِّ الْوَاجِبِ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ، فَشَكَرْتُمُوهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَهَالِيكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ، بِالْإِنَابَةِ إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَالْإِعْتِصَامِ بِهِ، وَإِخْلَاصِكُمْ أَعْمَالَكُمْ لَوَجْهِهِ، وَتَرْكِ رِيَاءِ النَّاسِ بِهَا، وَآمَنْتُمْ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَصَدَّقْتُمُوهُ، وَأَقْرَرْتُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَلْتُمْ بِهِ؟

يَقُولُ: لَا حَاجَةَ بِاللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، إِنْ أَنْتُمْ أَنْبَتُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، وَرَاجَعْتُمْ الْعَمَلَ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ. لِأَنَّهُ لَا يَجْتَلِبُ بِعَذَابِكُمْ إِلَى نَفْسِهِ نَفْعًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهَا ضَرًّا، وَإِنَّمَا عَقُوبَتُهُ مِنْ عَاقِبٍ مِنْ خَلْقِهِ، جَزَاءٌ مِنْهُ لَهُ عَلَى جَرَأَتِهِ عَلَيْهِ، وَعَلَى خِلَافِهِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَكَفَرَانِهِ شُكْرَ نِعَمِهِ عَلَيْهِ. فَإِنْ أَنْتُمْ شَكَرْتُمْ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَأَطَعْتُمُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى تَعْذِيْبِكُمْ، بَلْ يَشْكُرُ لَكُمْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنْ طَاعَةٍ لَهُ وَشُكْرٍ، بِمَجَازَاتِكُمْ عَلَى ذَلِكَ بِمَا تَقْصُرُ عَنْهُ أَمَانِيكُمْ، وَلَمْ تَبْلُغْ أَمَالَكُمْ "وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا" لَكُمْ وَلِعِبَادِهِ عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ، بِإِجْزَالِهِ لَهُمُ الثَّوَابَ عَلَيْهَا، وَإِعْظَامِهِ لَهُمُ الْعَوْضَ مِنْهَا "عَلِيمًا" بِمَا تَعْمَلُونَ، أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ، وَغَيْرُكُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَصَالِحٍ وَطَالِحٍ، مُحْصِيٍّ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَيْكُمْ، مُحِيطٌ بِجَمِيعِهِ،

حتى يجازيكم جزاءكم يوم القيامة، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

القول في تأويل قوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ واختلف أهل التأويل في ذلك والصواب في تأويل ذلك: لا يحب الله، أيها الناس، أن يجهر أحدٌ لأحد بالسوء من القول "إلا من ظلم"، بمعنى: إلا من ظلم، فلا حرج عليه أن يخبر بما أسيء عليه. وإذا كان ذلك معناه، دخل فيه إخبار من لم يُقَرَّ، أو أسيء قراه، أو نيل بظلم في نفسه أو ماله غيره من سائر الناس. وكذلك دعاؤه على من ناله بظلم: أن ينصره الله عليه، لأن في دعائه عليه إعلامًا منه لمن سمع دعاءه عليه بالسوء له.

وأما قوله: "وكان الله سميعًا عليمًا"، فإنه يعني: "وكان الله سميعًا"، لما تجهرون به من سوء القول لمن تجهرون له به، وغير ذلك من أصواتكم وكلامكم "عليمًا"، بما تخفون من سوء قولكم وكلامكم لمن تخفون له به فلا تجهرون له به، محص كل ذلك عليكم، حتى يجازيكم على ذلك كله جزاءكم، المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوا أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه "إن تبدوا" أيها الناس "خيرًا"، يقول: إن تقولوا جميلًا من القول لمن أحسن إليكم، فتظهروا ذلك شكرًا منكم له على ما كان منه من حسن إليكم، "أو تخفوه"، يقول: أو تتركوا إظهار ذلك فلا تبدوه "أو تعفوا عن سوء"، يقول: أو تصفحوا لمن أساء إليكم عن إساءته، فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي قد أذنت لكم أن تجهروا له به "فإن الله كان عفوًّا"، يقول: لم يزل ذا عفو عن خلقه، يصفح عمن عصاه وخالف أمره "قديرًا"، يقول: ذا قدرة على الانتقام منهم. وإنما يعني بذلك: أن الله لم يزل ذا عفو عن عباده، مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إياه. يقول: فاعفوا، أنتم أيضًا، أيها الناس، عمن أتى إليكم ظلمًا، ولا تجهروا له بالسوء من القول، وإن قدرتم على الإساءة إليه، كما يعفو عنكم ربكم مع قدرته على عقابكم، وأنتم تعصونه وتخالفون أمره.

وفي قوله جل ثناؤه: "إن تبدوا خيرًا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوًّا قديرًا"، الدلالة الواضحة على أن تأويل قوله: "لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم"، بخلاف التأويل الذي تأوله زيد بن أسلم، في زعمه أن معناه: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لأهل النفاق، إلا من أقام على نفاقه، فإنه لا بأس بالجهر له بالسوء من القول. وذلك أنه جل ثناؤه قال عقيب ذلك: "إن تبدوا خيرًا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء"، ومعقول أن الله جل ثناؤه لم يأمر المؤمنين بالعفو عن المنافقين على نفاقهم، ولا نهاهم أن يسئوا من كان منهم معلن النفاق "منافقًا". بل العفو عن ذلك، مما لا وجه له معقول. لأن "العفو" المفهوم، إنما هو

صفح المرء عما له قبل غيره من حق. وتسمية المنافق باسمه ليس بحق لأحد قبله، فيؤمر بعفوه عنه، وإنما هو اسم له. وغير مفهوم الأمر بالعفو عن تسمية الشيء بما هو اسمه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ"، من اليهود والنصارى "ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله"، بأن يكذبوا رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه بوحية، ويزعموا أنهم افتروا على ربهم. وذلك هو معنى إرادتهم التفريق بين الله ورسله، بنحلتهم إياهم الكذب والفرية على الله، وادّعائهم عليهم الأباطيل "ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض"، يعني أنهم يقولون: "نصدق بهذا ونكذب بهذا"، كما فعلت اليهود من تكذيبهم عيسى ومحمدًا صلى الله عليه وسلم، وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم. وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمدًا ﷺ، وتصديقهم بعيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم "ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا"، يقول: ويريد المفرقون بين الله ورسله، الزاعمون أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، أن يتخذوا بين أضعاف قولهم: "نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض" "سبيلًا"، يعني: طريقًا إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها، يدعون أهل الجهل من الناس إليه.

فقال جل ثناؤه لعباده، منبهاً لهم على ضلالتهم وكفرهم: "أولئك هم الكافرون حقًا"، يقول: أيها الناس، هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم، هم أهل الكفر بي، المستحقون عذابي والخلود في ناري حقًا. فاستيقنوا ذلك، ولا يشككنكم في أمرهم انتحالهم الكذب، ودعواهم أنهم يقرّون بما زعموا أنهم به مقرّون من الكتب والرسل، فإنهم في دعواهم ما ادعوا من ذلك كذبة. وذلك أن المؤمن بالكتب والرسل، هو المصدق بجميع ما في الكتاب الذي يزعم أنه به مصدق، وبما جاء به الرسول الذي يزعم أنه به مؤمن. فأما من صدّق ببعض ذلك وكذّب ببعض، فهو لبوة من كذب ببعض ما جاء به جاحد، ومن جحد نبوة نبي فهو به مكذب. وهؤلاء الذين جحدوا نبوة بعض الأنبياء، وزعموا أنهم مصدقون ببعض، مكذبون من زعموا أنهم به مؤمنون، لتكذيبهم ببعض ما جاءهم به من عند ربهم، فهم بالله ورسله الذين يزعمون أنهم بهم مصدقون، والذين يزعمون أنهم بهم مكذبون كافرون، فهم الجاحدون وحدانية الله ونبوة أنبيائه حق الجحود، المكذبون بذلك حق التكذيب. فاحذروا أن تغتروا بهم وبيدعتهم، فإننا قد أعتدنا لهم عذابًا مهينًا. وأما قوله: "وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا"، فإنه يعني: "وأعتدنا" لمن جحد بالله ورسوله جحود هؤلاء الذين وصفت لكم، أيها الناس، أمرهم من أهل الكتاب، ولغيرهم من سائر أجناس الكفار "عذابًا"، في الآخرة "مهينًا"، يعني: يهين من عذب به بخلوده

فيه. وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: والذين صدقوا بوحدانية الله، وأقروا بنبوته رسله أجمعين، وصدقوهم فيما جاءوهم به من عند الله من شرائع دينه "ولم يفرقوا بين أحد منهم"، يقول: ولم يكذبوا بعضهم ويصدقوا بعضهم، ولكنهم أقرؤا أن كل ما جاءوا به من عند ربهم حق "أولئك"، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم من المؤمنين بالله ورسله "سوف يؤتيهم"، يقول: سوف يعطيهم "أجورهم"، يعني: جزاءهم وثوابهم على تصديقهم الرسل في توحيد الله وشرائع دينه، وما جاءت به من عند الله "وكان الله غفورًا"، يقول: ويغفر لمن فعل ذلك من خلقه ما سلف له من آثامه، فيستر عليه بعفوه له عنه، وتركه العقوبة عليه، فإنه لم يزل للذنوب المنيين إليه من خلقه غفورًا "رحيمًا"، يعني: ولم يزل بهم رحيمًا، بتفضله عليهم بالهداية إلى سبيل الحق، وتوفيقه إياهم لما فيه خلاص رقابهم من النار.

القول في تأويل قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "يسألك" يا محمد "أهل الكتاب"، يعني بذلك: أهل التوراة من اليهود "أن تنزل عليهم كتابًا من السماء". واختلف أهل التأويل في "الكتاب" الذي سأل اليهود محمدًا ﷺ أن ينزل عليهم من السماء. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن أهل التوراة سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتابًا من السماء، آية معجزة جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها، شاهدة لرسول الله ﷺ بالصدق، أمرة لهم باتباعه.

وجائز أن يكون الذي سألوه من ذلك كتابًا مكتوبًا ينزل عليهم من السماء إلى جماعتهم وجائز أن يكون ذلك كتبًا إلى أشخاص بأعينهم. بل الذي هو أولى بظاهر التلاوة، أن تكون مسألتهم إياه ذلك كانت مسألة لتنزيل الكتاب الواحد إلى جماعتهم، لذكر الله تعالى في خبره عنهم "الكتاب" بلفظ الواحد بقوله: "يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء"، ولم يقل "كتبًا".

وأما قوله: "فقد سألوا موسى أكبر من ذلك"، فإنه توبيخ من الله جل ثناؤه سائلي الكتاب الذي سألوا رسول الله ﷺ أن ينزله عليهم من السماء، في مسألتهم إياه ذلك وتقريع منه لهم. يقول الله لنبيه ﷺ: يا محمد، لا يعظمَنَّ عليك مسألتهم ذلك، فإنهم من جهلهم بالله وجراءتهم عليه واغترارهم بحلمه، لو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوك أن تنزله عليهم، لخالفوا أمر الله

كما خالفوه بعد إحياء الله أوائلهم من صعقتهم، فعبدوا العجل واتخذوه إلهًا يعبدونه من دون خالقهم وبارئهم الذي أراهم من قدرته وعظيم سلطانه ما أراهم، لأنهم لن يعدّوا أن يكونوا كأوائلهم وأسلافهم.

ثم قصّ الله من قصّتهم وقصة موسى ما قصّ، يقول الله: "فقد سألو موسى أكبرَ من ذلك"، يعني: فقد سأل أسلاف هؤلاء اليهود وأوائلهم موسى ﷺ، أعظم مما سألوكم من تنزيل كتاب عليهم من السماء، فقالوا له: "أرنا الله جهرة"، أي: عيانًا نعاينه وننظر إليه.

وقد أتينا على معنى "الجهرة"، بما في ذلك من الرواية والشواهد على صحة ما قلنا في معناه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقد بينا معنى: "الصاعقة"، فيما مضى باختلاف المختلفين في تأويلها، والدليل على أولى ما قيل فيها بالصواب.

وأما قوله: "ثم اتخذوا العجل"، فإنه يعني: ثم اتخذ هؤلاء الذين سألو موسى ما سألوه من رؤية ربهم جهرةً، بعد ما أحياهم الله فبعثهم من صعقتهم العجل الذي كان السامريُّ نبذ فيه ما نبذ من القبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل ﷺ إلهًا يعبدونه من دون الله. وقد أتينا على ذكر السبب الذي من أجله اتخذوا العجل، وكيف كان أمرهم وأمره، فيما مضى بما فيه الكفاية.

وقوله: "من بعد ما جاءتهم البينات"، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء الذين سألو موسى ما سألو، البينات من الله، والدلالات الواضحات بأنهم لن يروا الله عيانًا جهارًا.

وإنما عني بـ "البنات": أنها آيات تبين عن أنهم لن يروا الله في أيام حياتهم في الدنيا جهرة. وكانت تلك الآيات البينات لهم على أن ذلك كذلك: إصعاق الله إياهم عند مسألتهم موسى أن يريهم ربه جهرة، ثم إحياء إياهم بعد مماتهم، مع سائر الآيات التي أراهم الله دلالةً على ذلك.

يقول الله، مقبِّحًا إليهم فعلهم ذلك، وموضحًا لعباده جهلهم ونقص عقولهم وأحلامهم: ثم أقرّوا للعجل بأنه لهم إله، وهم يرونه عيانًا، وينظرون إليه جهارًا، بعد ما أراهم ربهم من الآيات البينات ما أراهم: أنهم لا يرون ربهم جهرةً وعيانًا في حياتهم الدنيا، فعكفوا على عبادته مصدِّقين بألوهته!!

وقوله: "فغفونا عن ذلك"، يقول: فغفونا لعبدة العجل عن عبادتهم إياه، وللمصدقين منهم بأنه إلههم بعد الذي أراهم الله أنهم لا يرون ربهم في حياتهم من الآيات ما أراهم عن تصديقهم بذلك، بالتوبة التي تابوها إلى ربهم بقتلهم أنفسهم، وصبرهم في ذلك على أمر ربهم "وأتينا موسى سلطانًا مبينًا"، يقول: وأتينا موسى حجة تبين عن صدقه، وحقيقة نبوته، وتلك الحجة هي: الآيات البينات التي آتاها الله إياها.

القول في تاويل قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ورفعنا فوقهم الطور"، يعني: الجبل، وذلك لما امتنعوا من العمل بما في التوراة وقبول ما جاءهم به موسى فيها "بميثاقهم"، يعني: بما أعطوا الله الميثاق والعهد: لنعملن بما في التوراة "وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً"، يعني "باب حطة"، حين أمروا أن يدخلوا منه سجوداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم "وقلنا هم لا تعدوا في السبت"، يعني بقوله: "لا تعدوا في السبت"، لا تتجاوزوا في يوم السبت ما أبيح لكم إلى ما لم يبيح لكم "وقلنا لهم لا تعدوا في السبت"، أمر القوم أن لا يأكلوا الحيتان يوم السبت ولا يعرضوا لها، وأحل لهم ما وراء ذلك.

وقوله: "وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً"، يعني: عهداً مؤكداً شديداً، بأنهم يعملون بما أمرهم الله به، ويتنهون عما نهاهم الله عنه، مما ذكر في هذه الآية، ومما في التوراة. وقد بينا فيما مضى، السبب الذي من أجله كانوا أمروا بدخول الباب سجداً، وما كان من أمرهم في ذلك وخبرهم وقصتهم وقصة السبت، وما كان اعتداؤهم فيه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تاويل قوله: ﴿فِيمَا تَفَضُّهُمْ مِيثَاقُهُمْ وكُفِّرَهُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَّلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغِيرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه: فبنقض هؤلاء الذين وصفت صفتهم من أهل الكتاب "ميثاقهم"، يعني: عهودهم التي عاهدوا الله أن يعملوا بما في التوراة "وكفرهم بآيات الله"، يقول: وجحودهم "بآيات الله"، يعني: بأعلام الله وأدلته التي احتج بها عليهم في صدق أنبيائه ورسله وحقيقته ما جاءوهم به من عنده "وقتلهم الأنبياء بغير حق"، يقول: وبقتلهم الأنبياء بعد قيام الحجة عليهم بنبوته "بغير حق"، يعني: بغير استحقاق منهم ذلك لكبرية أتوها، ولا خطيئة استوجبوا القتل عليها "وقولهم قلوبنا غلف"، يعني: وبقولهم "قلوبنا غلف"، يعني: يقولون: عليها غشاوة وأغطية عما تدعونا إليه، فلا نفقه ما تقول ولا نعقله. وقد بينا معنى: "الغلف"، وذكرنا ما في ذلك من الرواية فيما مضى قبل. بل طبع الله عليها بكفرهم"، يقول جل ثناؤه: كذبوا في قولهم: "قلوبنا غلف"، ما هي بغلف، ولا عليها أغطية، ولكن الله جل ثناؤه جعل عليها طابعاً بكفرهم بالله.

وقد بينا صفة "الطبع على القلب"، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

"فلا يؤمنون إلا قليلاً"، يقول: فلا يؤمن - هؤلاء الذين وصف الله صفتهم، لطبعه على قلوبهم، فيصدقوا بالله ورسله وما جاءتهم به من عند الله - إلا إيماناً قليلاً يعني: تصديقاً قليلاً وإنما صار "قليلاً"، لأنهم لم يصدقوا على ما أمرهم الله به، ولكن صدّقوا ببعض الأنبياء

وبعض الكتب، وكذبوا ببعض. فكان تصديقهم بما صدَّقوا به قليلاً لأنهم وإن صدَّقوا به من وجه، فهم به مكذبون من وجه آخر، وذلك من وجه تكذيبهم من كذبوا به من الأنبياء وما جاءوا به من كتب الله، ورسُلُ الله يصدِّق بعضهم بعضاً. وبذلك أمر كل نبي أمته. وكذلك كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويحقق بعض بعضاً. فالمكذب ببعضها مكذب بجميعها، من جهة جحوده ما صدقه الكتاب الذي يقرّ بصحته. فلذلك صار إيمانهم بما آمنوا من ذلك قليلاً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

واختلف في معنى قوله: "فبما نقضهم"، الآية، هل هو مواصِلٌ لما قبله من الكلام، أو هو منفصل منه. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن قوله: "فبما نقضهم ميثاقهم" وما بعده، منفصل معناه من معنى ما قبله، وأن معنى الكلام: فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وبكذا وبكذا، لعناهم وغضبنا عليهم فترك ذكر "لعناهم"، لدلالة قوله: "بل طبع الله عليها بكفرهم"، على معنى ذلك. إذ كان من طبع على قلبه، فقد لُعن وسُخط عليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وبكفر هؤلاء الذين وصف صفتهم "وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً"، يعني: بفريتهم عليها، ورميهم إياها بالزنا، وهو "البهتان العظيم"، لأنهم رموها بذلك، وهي مما رموها به بغير ثبوت ولا برهان بريئة، فبهتوها بالباطل من القول. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ويقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله. ثم كذبهم الله في قيلهم، فقال: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم"، يعني: وما قتلوا عيسى وما صلبوه ولكن شبه لهم.

واختلف أهل التأويل في صفة التشبيه الذي شبه لليهود في أمر عيسى.

فجاء عن عبد الصمد بن معقل: أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم عليه السلام لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشقَّ عليه، فدعا الحواريين فصنع لهم طعاماً، فقال: احضروني الليلة، فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل، عشاهاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاضموا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا من ردَّ علي شيئاً الليلة مما أصنع، فليس مني ولا أنا منه! فأقروه، حتى إذا فرغ من ذلك قال: أمّا ما صنعت بكم الليلة، مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أنّي خيركم، فلا يتعظّم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم

لبعض نفسه، كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي التي استعنتكم عليها، فتدعون لي الله وتجتهدون في الدعاء: أن يؤخر أجلي. فلما نَصَبُوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً. فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله! ما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها! قالوا: والله ما ندري ما لنا! لقد كنا نسمر فنكثر السمر، وما نطيق الليلة سمرًا، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه! فقال: يذهب بالراعي وتفرق الغنم! وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينغى به نفسه. ثم قال: الحق، ليكفرنَّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبغيني أحدكم بدراهم يسيرة، وليأكلن ثمني! فخرجوا ففترقوا، وكانت اليهود تطلبه، فأخذوا شمعون أحد الحواريين، فقالوا: هذا من أصحابه! فجدد وقال: ما أنا بصاحبه! فتركوه، ثم أخذه آخرون فجدد كذلك. ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه، فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دلتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلَّهم عليه. وكان شبَّه عليهم قبل ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟! ويبصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شبَّه لهم، فمكث سبْعًا. ثم إنَّ أمَّه والمرأة التي كان يداوئها عيسى فأبرأها الله من الجنون، جاءتا تبكيان حيث المصلوب، فجاءهما عيسى فقال: علام تبكيان؟ قالتا: عليك! فقال: إني قد رفعتني الله إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبَّه لهم، فأمرَّا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفقد الذي كان باعه ودلَّ عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه، فقالوا: إنه ندم على ما صنع، فاختنق وقتل نفسه. فقال: لو تابَ لتابَ الله عليه! ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له: يُحَنَّى فقال: هو معكم، فانطلقوا، فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم، فليندِرْهم وليدعهم.

وقال آخرون بما جاء عن قتادة قوله: "إننا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه" إلى قوله: "وكان الله عزيزًا حكيماً"، أولئك أعداء الله اليهود ائتمروا بقتل عيسى ابن مريم رسول الله، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه. وذكر لنا أن نبي الله عيسى ابن مريم قال لأصحابه: أيكم يُقَذَف عليه شبيهي، فإنه مقتول؟ فقال رجل من أصحابه: أنا، يا نبي الله! فقتل ذلك الرجل، ومنع الله نبيه ورفعته إليه.

و قال ابن إسحاق: وكان فيهم، فيما ذكر لي، رجل اسمه سرجس، فكانوا ثلاثة عشر رجلاً سوى عيسى، جحدته النصارى، وذلك أنه هو الذي شبَّه لليهود مكان عيسى. قال: فلا أدري ما هو؟ من هؤلاء الاثني عشر، أم كان ثالث عشر، فجحدوه حين أقرُّوا لليهود بصلب عيسى،

وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه. فإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر، وإن كانوا اثني عشر، فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى ثلاثة عشر.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب، أحد القولين اللذين ذكرناهما عن وهب بن منبه: من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان في البيت مع عيسى حين أحيط به وبهم، من غير مسألة عيسى إياهم ذلك. ولكن ليخزي الله بذلك اليهود، وينقذ به نبيه ﷺ من مكروه ما أرادوا به من القتل، ويبتلي به من أراد ابتلاءه من عباده في قبلة في عيسى، وصدق الخبر عن أمره. أو: القول الذي رواه عبد الصمد عنه.

وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب، لأن الذين شهدوا عيسى من الحواريين، لو كانوا في حال ما رفع عيسى وألقي شبهه على من ألقى عليه شبهه، كانوا قد عاينوا وهو يرفع من بينهم، وأثبتوا الذي ألقى عليه شبهه، وعابنوه متحولاً في صورته بعد الذي كان به من صورة نفسه بمحضٍ منهم، لم يخف ذلك من أمر عيسى وأمر من ألقى عليه شبهه عليهم، مع معايتهم ذلك كله، ولم يلتبس ولم يشك عليهم، وإن أشكل على غيرهم من أعدائهم من اليهود أن المقتول والمصلوب كان غير عيسى، وأن عيسى رفع من بينهم حياً.

وكيف يجوز أن يكون كان أشكل ذلك عليهم، وقد سمعوا من عيسى مقالته: "من يلقي عليه شبهي، ويكون رفيقي في الجنة"، إن كان قال لهم ذلك، وسمعوا جواب مُجيبه منهم: "أنا"، وعابنوا تحول المجيب في صورة عيسى يعقب جوابه؟ ولكن ذلك كان إن شاء الله على نحو ما وصف وهب بن منبه: إما أن يكون القوم الذين كانوا مع عيسى في البيت الذي رفع منه من حواريه، حولهم الله جميعاً في صورة عيسى حين أراد الله رفعه، فلم يثبتوا عيسى معرفة بعينه من غيره لتشابه صور جميعهم، فقتلت اليهود منهم من قتلت وهم يرونه بصورة عيسى، ويحسبونه إياه، لأنهم كانوا به عارفين قبل ذلك. وظن الذين كانوا في البيت مع عيسى مثل الذي ظنت اليهود، لأنهم لم يميزوا شخص عيسى من شخص غيره، لتشابه شخصه وشخص غيره ممن كان معه في البيت. فاتفقوا جميعهم يعني: اليهود والنصارى من أجل ذلك على أن المقتول كان عيسى، ولم يكن به، ولكنه شبه لهم، كما قال الله جل ثناؤه: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم".

أو يكون الأمر في ذلك كان على نحو ما روى عبد الصمد بن معقل، عن وهب بن منبه: أن القوم الذين كانوا مع عيسى في البيت، تفرقوا عنه قبل أن يدخل عليه اليهود، وبقي عيسى، وألقي شبهه على بعض أصحابه الذين كانوا معه في البيت بعد ما تفرق القوم غير عيسى، وغير

الذي ألقى عليه شبهه. ورفع عيسى، فقتل الذي تحوّل في صورة عيسى من أصحابه، وظن أصحابه واليهود أن الذي قتل وصلب هو عيسى، لما رأوا من شبهه به، وخفاء أمر عيسى عليهم. لأن رفعه وتحوّل المقتول في صورته، كان بعد تفرق أصحابه عنه، وقد كانوا سمعوا عيسى من الليل ينعى نفسه، ويحزن لما قد ظنّ أنه نازل به من الموت، فحكوا ما كان عندهم حقاً، والأمر عند الله في الحقيقة بخلاف ما حكوا. فلم يستحق الذين حكوا ذلك من حواربيّه أن يكونوا كذبة، إذ حكوا ما كان حقاً عندهم في الظاهر، وإن كان الأمر كان عند الله في الحقيقة بخلاف الذي حكوا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وإن الذين اختلفوا فيه"، اليهود الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قتله. وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت قبل دخولهم، فيما ذكر. فلما دخلوا عليهم، فقدوا واحداً منهم، فالتبس أمر عيسى عليهم بفقدهم واحداً من العدة التي كانوا قد أحصوها، وقتلوا من قتلوا على شك منهم في أمر عيسى.

وهذا التأويل على قول من قال: لم يفارق الحواريون عيسى حتى رفع ودخل عليهم اليهود. وأما تأويله على قول من قال: تفرّقوا عنه من الليل، فإنه: "وإن الذين اختلفوا"، في عيسى، هل هو الذي بقي في البيت منهم بعد خروج من خرج منهم من العدة التي كانت فيه، أم لا؟ "لفي شك منه"، يعني: من قتله، لأنهم كانوا أحصوا من العدة حين دخلوا البيت أكثر ممن خرج منه ومن وجد فيه، فشكوا في الذي قتلوه: هل هو عيسى أم لا؟ من أجل فقدهم من فقدوا من العدد الذي كانوا أحصوه، ولكنهم قالوا: "قتلنا عيسى"، لمشابهة المقتول عيسى في الصورة. يقول الله جل ثناؤه: "ما لهم به من علم"، يعني: أنهم قتلوا من قتلوه على شك منهم فيه واختلاف، هل هو عيسى أم هو غيره؟ من غير أن يكون لهم بمن قتلوه علم، من هو؟ هو عيسى أم هو غيره؟ "إلا اتباع الظن"، يعني جل ثناؤه: ما كان لهم بمن قتلوه من علم، ولكنهم اتبعوا ظنهم فقتلوه، ظناً منهم أنه عيسى، وأنه الذي يريدون قتله، ولم يكن به "وما قتلوه يقيناً"، يقول: وما قتلوا - هذا الذي اتبعوه في المقتول الذي قتلوه وهم يحسبونه عيسى - يقيناً أنه عيسى ولا أنه غيره، ولكنهم كانوا منه على ظنّ وشبهة. وهذا كقول الرجل للرجل: "ما قتلت هذا الأمر علماً، وما قتلته يقيناً"، إذا تكلم فيه بالظن على غير يقين علم. ف"الهاء" في قوله: "وما قتلوه"، عائدة على "الظن". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ﴾ قال أبو جعفر: أما قوله جل ثناؤه: "بل رفعه الله إليه"، فإنه يعني: بل رفع الله المسيح إليه. يقول: لم يقتلوه ولم يصلبوه،

ولكن الله رفعه إليه فطهره من الذين كفروا.

وقد بينا كيف كان رفع الله إياه إليه فيما مضى، وذكرنا اختلاف المختلفين في ذلك، والصحيح من القول فيه بالأدلة الشاهدة على صحته، بما أغنى عن إعادته.

وأما قوله: "وكان الله عزيزاً حكيماً"، فإنه يعني: ولم يزل الله منتقماً من أعدائه، كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقة بظلمهم، وكلعنه الذين قصّ قصتهم بقوله: "فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله" "حكيماً"، يقول: ذا حكمة في تدبيره وتصريفه خلقه في قضائه. يقول: فاحذروا أيها السائلون محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء، من حلول عقوبتي بكم، كما حل بأوائلكم الذين فعلوا فعلكم، في تكذيبهم رسلي وافترائهم على أوليائي

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصحة والصواب، قول من قال: تأويل ذلك: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى". وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال، لأن الله جل ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد ﷺ بحكم أهل الإيمان، في الموارثة والصلاة عليه، وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة. فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسى قبل موته، لوجب أن لا يرث الكتابي إذا مات على ملته إلا أولاده الصغار، أو البالغون منهم من أهل الإسلام، إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم. وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغ مسلم، كان ميراثه مصروفاً حيث يصرف مال المسلم يموت ولا وارث له، وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقبيره. لأن من مات مؤمناً بعيسى، فقد مات مؤمناً بمحمد وبجميع الرسل. وذلك أن عيسى صلوات الله عليه، جاء بتصديق محمد وجميع المرسلين صلوات الله عليهم، فالمصدق بعيسى والمؤمن به، مصدق بمحمد وبجميع أنبياء الله ورسله. كما أن المؤمن بمحمد، مؤمن بعيسى وبجميع أنبياء الله ورسله. فغير جائز أن يكون مؤمناً بعيسى من كان بمحمد مكذباً. فإن ظن ظانٌّ أن معنى إيمان اليهودي بعيسى الذي ذكره الله في قوله: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته"، إنما هو إقراره بأنه لله نبي مبعوث، دون تصديقه بجميع ما أتى به من عند الله فقد ظن خطأ. وذلك أنه غير جائز أن يكون منسوباً إلى الإقرار بنبوة نبي، من كان له مكذباً في بعض ما جاء به من وحي الله وتنزيله. بل غير جائز أن يكون منسوباً إلا الإقرار بنبوة أحد من أنبياء الله، لأن الأنبياء جاءت الأمم بتصديق جميع أنبياء الله ورسله. فالمكذب بعض أنبياء الله فيما أتى به أمته من عند الله، مكذب جميع أنبياء الله فيما دعوا إليه من دين الله عباد الله. وإذا كان ذلك كذلك وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن كل كتابي مات قبل إقراره بمحمد صلوات الله عليه وما جاء به من عند الله،

محكوم له بحكم الملة التي كان عليها أيام حياته، غير منقول شيء من أحكامه في نفسه وماله وولده صغارهم وكبارهم بموته، عما كان عليه في حياته دلّ الدليل على أن معنى قول الله: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته"، إنما معناه: إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وأن ذلك في خاص من أهل الكتاب، ومعنيّ به أهل زمان منهم دون أهل كل الأزمنة التي كانت بعد عيسى، وأن ذلك كائن عند نزوله، كالذي جاء عن أبي هريرة: أن نبي الله ﷺ قال: الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي. وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، بين ممصّرتين، فيدقّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، ويقاقل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال، وتقع الأمانة في الأرض في زمانه، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغلمان أو الصبيان بالحيات، لا يضرب بعضهم بعضاً. ثم يلبث في الأرض ما شاء الله وربما قال: أربعين سنة ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه. قال أبو جعفر: فتأويل الآية إذ كان الأمر على ما وصفنا: وما من أهل الكتاب إلا من ليؤمنن بعيسى، قبل موت عيسى وحذف "من" بعد "إلا"، لدلالة الكلام عليه، فاستغنى بدلالته عن إظهاره، كسائر ما قد تقدم من أمثاله التي قد أتينا على البيان عنها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ويوم القيامة يكون عيسى على أهل الكتاب "شهيذاً"، يعني: شاهداً عليهم بتكذيب من كذبه منهم، وتصديق من صدقه منهم، فيما أتاهم به من عند الله، وإبلاغه رسالة ربه

القول في تأويل قوله: ﴿فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فحرّمنا على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذي واثقوا ربه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءهم، وقالوا البهتان على مريم، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه طيبات من المأكّل وغيرها، كانت لهم حلالاً عقوبة لهم بظلمهم، الذي أخبر الله عنهم في كتابه وقوله: "وبصدهم عن سبيل الله كثيراً"، يعني: وبصدهم عباد الله عن دينه وسبيله التي شرعها لعباده، صدّاً كثيراً. وكان صدّهم عن سبيل الله: بقولهم على الله الباطل، وادعائهم أن ذلك عن الله، وتبديلهم كتاب الله، وتحريف معانيه عن وجوهه. وكان من عظيم ذلك: جحودهم نبوة نبيّنا محمد ﷺ، وتركهم بيان ما قد علموا من أمره لمن جهل أمره من الناس.

وبنحو ذلك كان مجاهد يقول

وقوله: "وأخذهم الربا"، وهو أخذهم ما أفضلوا على رءوس أموالهم، لفضل تأخير في الأجل بعد مَحِلِّهَا، وقد بينت معنى "الربا" فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته. "وقد نهوا عنه" يعني: عن أخذ الربا.

وقوله: "وأكلهم أموال الناس بالباطل"، يعني ما كانوا يأخذون من الرُشَى على الحكم، كما وصفهم الله به في قوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]. وكان من أكلهم أموال الناس بالباطل، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: "هذا من عند الله"، وما أشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة. فعاقبهم الله على جميع ذلك، بتحريمه ما حَرَّمَ عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً قبل ذلك. وإنما وصفهم الله بأنهم أكلوا ما أكلوا من أموال الناس كذلك بالباطل، لأنهم أكلوه بغير استحقاق، وأخذوا أموالهم منهم بغير استيجاب.

وقوله: "وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً"، يعني: وجعلنا للكافرين بالله وبرسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود، العذاب الأليم وهو الموضع من عذاب جهنم عنده، يصلونها في الآخرة، إذا وردوا على ربهم، فيعاقبهم بها.

القول في تأويل قوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال أبو جعفر: هذا من الله جل ثناؤه استثناء، استثنى من أهل الكتاب من اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآيات التي مضت، من قوله: "يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء". ثم قال جل ثناؤه لعباده، مبيناً لهم حكم من قد هداه لدينه منهم ووفقه لرشده: ما كلُّ أهل الكتاب صفتهم الصفة التي وصفت لكم، "لكن الراسخون في العلم منهم"، وهم الذين قد رَسَخُوا في العلم بأحكام الله التي جاءت بها أنبياءه، وأتقنوا ذلك، وعرفوا حقيقته. وقد بينا معنى "الرسوخ في العلم"، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

"والمؤمنون" يعني: والمؤمنون بالله ورسله، هم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل الله إليك، يا محمد، وبالكتب التي أنزلها على من قبلك من الأنبياء والرسل، ولا يسألونك كما سألك هؤلاء الجهلة منهم: أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، لأنهم قد علموا بما قرأوا من كتب الله وأتتهم به أنبياءهم، أنك لله رسول، واجبٌ عليهم اتباعك، لا يسعهم غير ذلك، فلا حاجة بهم إلى أن يسألوك آية معجزة ولا دلالة غير الذي قد علموا من أمرك بالعلم الراسخ في قلوبهم من إخبار أنبيائهم إياهم بذلك، وبما أعطيتك من الأدلة على نبوتك، فهم لذلك من علمهم

ورسوخهم فيه، يؤمنون بك وبما أنزل إليك من الكتاب، وبما أنزل من قبلك من سائر الكتب ثم اختلف في "المقيمين الصلاة"، أهم الراسخون في العلم، أم هم غيرهم؟.

والصواب بتأويل الكلام: "والمؤمنون منهم يؤمنون بما أنزل إليك"، يا محمد، من الكتاب "وبما أنزل من قبلك"، من كتبي، وبالملائكة الذين يقيمون الصلاة. ثم يرجع إلى صفة "الراسخين في العلم"، فيقول: لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بالكتب والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر. وأما قوله: "والمؤتون الزكاة"، فإنه معطوف به على قوله: "والمؤمنون يؤمنون"، وهو من صفتهم. وتأويله: والذين يعطون زكاة أموالهم من جعلها الله له وصرفها إليه "والمؤمنون بالله واليوم الآخر"، يعني: والمصدقون بوحدانية الله وألوهته، والبعث بعد الممات، والثواب والعقاب "أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا"، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم "سنؤتيهم"، يقول: سنعطيهم "أجرًا عظيمًا"، يعني: جزاءً على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره، وثوابًا عظيمًا، وذلك الجنة.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح"، إنا أرسلنا إليك، يا محمد، بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائر الأنبياء الذين سميتهم لك من بعده، والذين لم أسمهم لك وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ، لأن بعض اليهود لما فضحهم الله بالآيات التي أنزلها على رسوله ﷺ وذلك من قوله: "يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء" فتلا ذلك عليهم رسول الله ﷺ، قالوا: "ما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى!" فأنزل الله هذه الآيات، تكذيبًا لهم، وأخبر نبيه والمؤمنين به أنه قد أنزل عليه بعد موسى وعلى من سماهم في هذه الآية، وعلى آخرين لم يسمهم

وأما قوله: "وآتينا داود زبورًا: هو اسم الكتاب الذي أوتيته داود، كما سمى الكتاب الذي أوتيته موسى" التوراة"، والذي أوتيته عيسى "الإنجيل"، والذي أوتيته محمد "الفرقان"

القول في تأويل قوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إنا أوحينا إليك، كما أوحينا إلى نوح وإلى رسل قد قصصناهم عليك، ورسل لم نقصصهم عليك. وأما قوله: "وكلّم الله موسى تكليمًا"، فإنه يعني بذلك جل ثناؤه: وخاطب الله بكلامه موسى خطابًا

القول في تأويل قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى

نوح والنبيين من بعده، ومن ذكر من الرسل "رسلاً"، فنصب "الرسل" على القطع من أسماء الأنبياء الذين ذكر أسماءهم "مبشرين"، يقول: أرسلتهم رسلاً إلى خلقي وعبادي، مبشرين بشوابي من أطاعني واتبع أمري وصدق رسلي، ومنذرين عقابي من عصاني وخالف أمري وكذب رسلي "لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"، يقول: أرسلت رسلي إلى عبادي مبشرين ومنذرين، لئلا يحتج من كفر بي وعبد الأنداد من دوني، أو ضل عن سبيلي بأن يقول إن أردت عقابه: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتُ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّحُ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]. فقطع حجة كل مبطل ألحد في توحيده وخالف أمره، بجميع معاني الحجج القاطعة عذره، إعداراً منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. "وكان الله عزيزاً حكيماً"، يقول: ولم يزل الله ذا عزة في انتقامه ممن انتقم منه من خلقه، على كفره به، ومعصيته إياه، بعد تثبيتته حجته عليه برسله وأدلتته "حكيماً"، في تدبيره فيهم ما دبّره.

القول في تاويل قوله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن يكفر بالذي أوحينا إليك، يا محمد، اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، وقالوا لك: "ما أنزل الله على بشر من شيء" فكذبوك، فقد كذبوا. ما الأمر كما قالوا: لكن الله يشهد بتنزيله إليك ما أنزل من كتابه ووحيه، أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه، وصفيه من عباده، ويشهد لك بذلك ملائكته، فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك "وكفى بالله شهيداً"، يقول: وحسبك بالله شاهداً على صدقك دون ما سواه من خلقه، فإنه إذا شهد لك بالصدق ربك، لم يضرّك تكذيب من كذبك. وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، دعاهم النبي ﷺ إلى اتباعه، وأخبرهم أنهم يعلمون حقيقة نبوته، فجحّدوا نبوته وأنكروا معرفته.

كالذي جاء عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: إني والله أعلم إنكم لتعلمون أيّ رسول الله! فقالوا: ما نعلم ذلك! فأنزل الله: "لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً".

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ الذين جحدوا، يا محمد، نبوتك بعد علمهم بها، من أهل الكتاب الذين اقتضصت عليك قصتهم، وأنكروا أن يكون الله جل ثناؤه أوحى إليك كتابه "وصدوا عن سبيل الله"، يعني: عن الدين الذي بعثك الله به إلى خلقه، وهو الإسلام. وكان صدهم عنه، قيلهم للناس الذين يسألونهم عن محمد من أهل الشرك: "ما نجد صفة

محمد في كتابنا! "، وادعاءهم أنهم عهد إليهم أن النبوة لا تكون إلا في ولد هارون ومن ذرية داود، وما أشبه ذلك من الأمور التي كانوا يثبِّطون الناس بها عن اتباع رسول الله ﷺ والتصديق به وبما جاء به من عند الله.

وقوله: "قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً"، يعني: قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً، وزالوا عن المحجَّة. وإنما يعني جل ثناؤه بجورهم عن المحجَّة وضلالهم عنها، إخطاءهم دين الله الذي ارتضاه لعباده، وابتعث به رسله. يقول: من جحد رسالة محمد ﷺ، وصدَّ عما بُعث به من الملة من قبل منه، فقد ضلَّ فذهب عن الدين الذي هو دين الله الذي ابتعث به أنبياءه، ضلالاً بعيداً.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين جحدوا رسالة محمد ﷺ، فكفروا بالله بجحود ذلك، وظلموا بمقامهم على الكفر على علم منهم، بظلمهم عباد الله، وحسدًا للعرب، وبغيًا على رسوله محمد ﷺ "لم يكن الله ليغفر لهم"، يعني: لم يكن الله ليغفو عن ذنوبهم بتركه عقوبتهم عليها، ولكنه يفضحهم بها بعقوبته إياهم عليها "ولا ليهديهم طريقاً"، يقول: ولم يكن الله تعالى ذكره ليهدي هؤلاء الذين كفروا وظلموا، الذين وصفنا صفتهم، فيوفقهم لطريق من الطرق التي ينالون بها ثواب الله، ويصلون بلزومهم إياه إلى الجنة، ولكنه يخذلهم عن ذلك، حتى يسلكوا طريق جهنم. وإنما كنى بذكر "الطريق" عن الدين. وإنما معنى الكلام: لم يكن الله ليوفقهم للإسلام، ولكنه يخذلهم عنه إلى "طريق جهنم"، وهو الكفر، يعني: حتى يكفروا بالله ورسله، فيدخلوا جهنم "خالدين فيها أبداً"، يقول: مقيمين فيها أبداً "وكان ذلك على الله يسيراً"، يقول: وكان تخليد هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم في جهنم، على الله يسيراً، لأنه لا يقدر من أراد ذلك به على الامتناع منه، ولا له أحد يمنعه منه، ولا يستصعب عليه ما أراد فعله به من ذلك، وكان ذلك على الله يسيراً، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "يا أيها الناس"، مشركي العرب، وسائر أصناف الكفر "قد جاءكم الرسول"، يعني: محمداً ﷺ، قد جاءكم "بالحق من ربكم"، يقول: بالإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً، يقول: "من ربكم"، يعني: من عند ربكم "فآمنوا خيراً لكم"، يقول: فصدَّقوه وصدَّقوا بما جاءكم به من عند ربكم من الدين، فإن الإيمان بذلك خير لكم من الكفر به "وإن تكفروا"، يقول: وإن تجحدوا رسالته وتكذبوا به وبما جاءكم به من عند ربكم، فإن جحودكم ذلك وتكذيبكم به، لن يضرَّ غيركم، وإنما مكروه ذلك عائداً عليكم، دون الذي أمركم بالذي بعث به إليكم رسوله محمداً ﷺ، وذلك أن الله ما في

السموات والأرض، ملكًا وخلقًا، لا ينقص كفركم بما كفرتم به من أمره، وعصيانكم إياه فيما عصيتموه فيه، من ملكه وسلطانه شيئًا "وكان الله عليماً حكيماً"، يقول: "وكان الله عليماً"، بما أنتم صائرون إليه من طاعته فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ومعصيته في ذلك، على علم منه بذلك منكم، أمركم ونهاكم "حكيماً" يعني: حكيماً في أمره وإياكم بما أمركم به، وفي نهيه إياكم عما نهاكم عنه، وفي غير ذلك من تدبيره فيكم وفي غيركم من خلقه.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يا أهل الكتاب"، يا أهل الإنجيل من النصارى "لا تغلوا في دينكم"، يقول: لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غير الحق، فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله، قول منكم على الله غير الحق. لأن الله لم يتخذ ولدًا فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابنًا "ولا تقولوا على الله إلا الحق".

وأصل "الغلو"، في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال أبو جعفر: يعني ثناؤه بقوله: "إنما المسيح عيسى ابن مريم"، ما المسيح، أيها الغالون في دينهم من أهل الكتاب، بابن الله، كما تزعمون، ولكنه عيسى ابن مريم، دون غيرها من الخلق، لا نسب له غير ذلك. ثم نعتة الله جل ثناؤه بنعته ووصفه بصفته فقال: هو رسول الله أرسله الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه. وأصل "المسيح"، "الممسوح"، صرف من "مفعول" إلى "فعل". وسماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب. وقيل: مُسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الأدميين، كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه، فيطهر منه. ولذلك قال مجاهد ومن قال مثل قوله: "المسيح"، الصديق. وأما "المسيح الدجال"، فإنه أيضًا بمعنى: الممسوح العين،

وأما قوله: "وكلمته ألقاها إلى مريم"، فإنه يعني: بـ "الكلمة"، الرسالة التي

أمر الله ملائكته أن تأتي مريم بها، بشارة من الله لها، التي ذكر الله جل ثناؤه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، يعني: برسالة منه، وبشارة من عنده. وقال قتادة: "وكلمته ألقاها إلى مريم"، قال: هو قوله: "كن"، فكان.

وقد بينا اختلاف المختلفين من أهل الإسلام في ذلك فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله: "ألقاها إلى مريم"، يعني: أعلمها بها وأخبرها، كما يقال: "ألقيت إليك كلمة حسنة"، بمعنى: أخبرتك بها وكلمتك بها.

وأما قوله: "وروح منه"، فإن أهل العلم اختلفوا في تأويله. فقال بعضهم: معنى قوله: "وروح منه"، ونفخة منه، لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في دُرْع مريم بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى

أنه "روح من الله"، لأنه بأمره كان. قال: وإنما سمي النفخ "روحًا"، لأنها ريح تخرج من الروح وقال بعضهم يعني بقوله: "وروح منه" إنه كان إنسانًا بإحياء الله له بقوله: "كن". قالوا: وإنما معنى قوله: "وروح منه"، وحياة منه، بمعنى إحياء الله إياه بتكوينه.

وقال آخرون: معنى قوله: "وروح منه"، ورحمة منه، كما قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿وَأَيَّدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. قالوا: ومعناه في هذا الموضع: ورحمة منه. قالوا: فجعل الله عيسى رحمة منه على من اتبعه وآمن به وصدقه، لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: وروح من الله خلقها فصورها، ثم أرسلها إلى مريم فدخلت في فيها، فصيرها الله تعالى روح عيسى عليه السلام. وقال آخرون: معنى "الروح" ههنا، جبريل عليه السلام. قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضًا إليها روح من الله. قالوا: ف"الروح" معطوف به على ما في قوله: "ألقاها" من ذكر الله، بمعنى: أن إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله، ثم من جبريل عليه السلام. قال أبو جعفر: ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيدٍ من الصواب.

القول في تأويل قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "فآمِنُوا بالله ورسله"، فصدّقوا، يا أهل الكتاب، بوحداية الله وربوبيته، وأنه لا ولد له، وصدّقوا رسله فيما جاءوكم به من عند الله، وفيما أخبرتكم به أن الله واحد لا شريك له، ولا صاحبة له، لا ولد له "ولا تقولوا ثلاثة"، يعني: ولا تقولوا: الأرباب ثلاثة.

ثم قال لهم جل ثناؤه: متوعدًا لهم في قولهم العظيم الذي قالوه في الله: "انتهوا"، أيها القائلون: الله ثالث ثلاثة، عما تقولون من الزور والشرك بالله، فإن الانتهاء عن ذلك خير لكم من قيله، لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم على قيلكم ذلك، إن أقمتُم عليه، ولم تُتَيَّبُوا إلى الحق الذي أمرتكم بالإنباء إليه والآجل في معادكم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "إنما الله إله واحد"، ما الله، أيها القائلون: الله ثالث ثلاثة، كما تقولون، لأن من كان له ولد، فليس بإله. وكذلك من كان له صاحبة، فغير جائز أن يكون إلهًا معبودًا. ولكن الله الذي له الألوهة والعبادة، إله واحد معبود، لا ولد له، ولا والد، ولا صاحبة، ولا شريك. ثم نزه جل ثناؤه نفسه وعظمها ورفعها عما قال فيه أعداؤه الكفرة به فقال: "سبحانه أن يكون له ولد"، يقول: علا الله وجل وعز وتعظم وتزّه عن أن يكون له ولد أو صاحبة.

ثم أخبر جل ثناؤه عباده: أن عيسى وأمه ومن في السموات ومن في الأرض، عبيده وإماؤه وخلقهم، وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه احتجاجًا منه بذلك على من ادّعى أن المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا، لم يكن ذا حاجة إليه، ولا كان له عبدًا مملوكًا، فقال: "له ما

في السموات وما في الأرض"، يعني: الله ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ملكًا وخلقًا، وهو يرزقهم ويقتوهم ويدبرهم، فكيف يكون المسيح ابنًا لله، وهو في الأرض أو في السموات، غير خارج من أن يكون في بعض هذه الأماكن؟ وقوله: "وكفى بالله وكيلًا"، يقول: وحسب ما في السموات وما في الأرض قِيَمًا ومدبرًا ورازقًا، من الحاجة معه إلى غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: "لن يستنكف المسيح"، لن يأنف ولن يستكبر المسيح "أن يكون عبدًا لله"، يعني: من أن يكون عبدًا لله وأما قوله: "ولا الملائكة المقربون"، فإنه يعني: ولن يستنكف أيضًا من الإقرار لله بالعبودية والإذعان له بذلك، رسله "المقربون"، الذين قربهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: ومن يتعظم عن عبادة ربه، ويأنف من التذلل والخضوع له بالطاعة من الخلق كلهم، ويستكبر عن ذلك "فسيحشرهم إليه جميعًا"، يقول: فسيبعثهم يوم القيامة جميعًا، فيجمعهم لموعدهم عنده.

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: فأما المؤمنون المقرون بوحداية الله، الخاضعون له بالطاعة، المتذللون له بالعبودية، والعاملون الصالحات من الأعمال، وذلك: أن يردوا على ربهم قد آمنوا به وبرسله، وعملوا بما أتاهم به رسله من عند ربهم، من فعل ما أمرهم به، واجتناب ما أمرهم باجتنابه "فيوفِّيهم أجورهم"، يقول: فيؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافيًا تامًا "ويزيدهم من فضله"، يعني جل ثناؤه: ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها، من الفضل والزيادة ما لم يعرفهم مبلغه، ولم يحد لهم متناه. وذلك أن الله وعد من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة الواحدة عشر أمثالها من الثواب والجزاء. فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحدود مبلغه، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كان كل ذلك من فضله على عباده. غير أن الذي وعد عباده المؤمنين أن يوفِّيهم فلا ينقصهم من الثواب على أعمالهم الصالحة، هو ما حد مبلغه من العشر، والزيادة على ذلك غير محدود مبلغها، فيزيد من شاء من خلقه على ذلك قدر ما يشاء، لا حدّ لقدره يوقف عليه. وقد قال بعضهم: الزيادة إلى سبعمائة ضعف. وقال آخرون: إلى ألفين. وقد ذكرت اختلاف المختلفين في ذلك فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله: "وأما الذين استنكفوا واستكبروا"، فإنه يعني: وأما

الذين تعظّموا عن الإقرار لله بالعبودية، والإذعان له بالطاعة، واستكبروا عن التذلل لألوهته وعبادته، وتسليم الربوبية والوحدانية له "فيعذبهم عذاباً أليماً"، يعني: عذاباً موجعاً "ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً"، يقول: ولا يجد المستكفون من عبادته والمستكبرون عنها، إذا عذبهم الله الأليم من عذابه، سوى الله لأنفسهم ولياً ينجيهم من عذابه وينقذهم منه "ولا نصيراً"، يعني: ولا ناصرًا ينصرهم فيستنقذهم من ربهم، ويدفع عنهم بقوته ما أحلّ بهم من نعمته، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم من أهل الدنيا في الدنيا بسوء، من نصرتهم والمدافعة عنهم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم"، يا أيها الناس من جميع أصناف الملل، يهودها ونصاراها ومشركيها، الذين قص الله جل ثناؤه قصصهم في هذه السورة "قد جاءكم برهان من ربكم"، يقول: قد جاءكم حجة من الله تبرهن لكم بطول ما أنتم عليه مقيمون من أديانكم ومللكم، وهو محمد ﷺ، الذي جعله الله عليكم حجة قطع بها عذركم، وأبلغ إليكم في المعذرة بإرساله إليكم، مع تعريفه إياكم صحة نبوته، وتحقيق رسالته "وأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا"، يقول: وأنزلنا إليكم معه "نورًا مبينًا"، يعني: يبين لكم المحجة الواضحة، والسبل الهداية إلى ما فيه لكم النجاة من عذاب الله وأليم عقابه، إن سلكتموها واستترتم بضوئه. وذلك "النور المبين"، هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فأما الذين صدّقوا الله وأقروا بوحدانيته، وما بعث به محمدًا ﷺ من أهل الملل "واعتصموا به"، يقول: وتمسكوا بالنور المبين الذي أنزله إلى نبيه "فسيدخلهم في رحمة منه وفضل"، يقول: فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته، ويلحقهم من فضله ما لحق أهل الإيمان به والتصديق برسله "ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا"، يقول: ويوفقهم لإصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه، ويسدّدهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته، ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم. وذلك هو "الصراط المستقيم"، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام.

القول في تأويل قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: "يستفتونك"، يسألونك، يا محمد، أن تفتيهم في الكلاله. وقد بينا معنى: "الكلالة" فيما مضى بالشواهد الدالة على صحته، وقد ذكرنا اختلاف المختلفين فيه، فأغنى ذلك عن إعادته، وبينا أن "الكلالة" عندنا: ما عدا الولد والوالد.

"إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك"، يعني بقوله: "إن امرؤ هلك"، إن إنسان من الناس مات "ليس له ولد" ذكر ولا أنثى "وله أخت"، يعني: وللميت أخت لأبيه وأمه، أو لأبيه "فلها نصف ما ترك"، يقول: فلاخته التي تركها بعده بالصفة التي وصفتنا، نصف تركته ميراثاً عنه، دون سائر عصبته. وما بقي فلعصبته.

وذكر أن أصحاب رسول الله ﷺ همهم شأن الكلالة، فأنزل الله تبارك وتعالى فيها هذه الآية.

وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول: إن هذه الآية هي آخر آية نزلت من القرآن.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: وأخو المرأة يرثها إن ماتت قبله، إذا ورثت كلاله، ولم يكن لها ولد ولا والد.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الْكُلَّانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فإن كانتا اثنتين"، فإن كانت المتروكة من الأخوات لأبيه وأمه أو لأبيه "اثنتين" فلهما ثلثا ما ترك أخوهما الميت، إذا لم يكن له ولد، وورث كلاله "وإن كانوا إخوة"، يعني: وإن كان المتروكون من إخوته "رجالاً ونساء فللذكر" منهم بميراثهم عنه من تركته "مثل حظ الأنثيين"، يعني: مثل نصيب اثنتين من أخواته. وذلك إذا ورث كلاله، والإخوة والأخوات إخوته وأخواته لأبيه وأمه، أو: لأبيه.

القول في تأويل قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يبين الله لكم قسمة موارثكم، وحكم الكلالة، وكيف فرائضهم "أن تضلوا"، بمعنى: لئلا تضلوا في أمر الموارث وقسمتها، أي: لئلا تجوروا عن الحق في ذلك وتخطئوا الحكم فيه، فتضلوا عن قصد السبيل وفي قول بعضهم: خفض، بمعنى: يبين الله لكم بأن لا تضلوا، ولئلا تضلوا وأسقطت "لا" من اللفظ وهي مطلوبة في المعنى، لدلالة الكلام عليها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: "والله بكل شيء" من مصالح عباده في قسمة موارثهم وغيرها، وجميع الأشياء "عليم"، يقول: هو بذلك كله ذو علم.

آخر تفسير سورة النساء.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم

تفسير سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

القول في تأويل قوله عز ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا"، يا أيها الذين أقرؤا بوحدانية الله، وأذعنوا له بالعبودية، وسلموا له الألوهة وصدقوا رسوله محمداً ﷺ في نبوته وفيما جاءهم به من عند ربهم من شرائع دينه "أوفوا بالعقود"، يعني: أوفوا بالعهود التي عاهدتموها ربكم، والعقود التي عاهدتموها إياه، وأوجبتكم بها على أنفسكم حقوقاً، وألزمتم أنفسكم بها لله فروضاً، فأتتموها بالوفاء والكمال والتمام منكم لله بما ألزمكم بها، ولمن عاهدتموه منكم، بما أوجبتموه له بها على أنفسكم، ولا تنكثوها فتتقضوها بعد توكيدها.

واختلف أهل التأويل في "العقود" التي أمر الله جل ثناؤه بالوفاء بها بهذه الآية، بعد إجماع جميعهم على أن معنى "العقود"، العهود.

قال أبو جعفر: و"العقود" جمع "عقد"، وأصل "العقد"، عقد الشيء بغيره، وهو وصله به، كما يعقد الحبل بالحبل، إذا وصل به شداً. يقال منه: "عقد فلان بينه وبين فلان عقداً، فهو يعقده" وذلك إذا وثقه على أمر وعاهده عليه عهداً بالوفاء له بما عاقده عليه، من أمان وذمة، أو نصرة، أو نكاح، أو بيع، أو شركة، أو غير ذلك من العقود.

قال أبو جعفر: وإذن فأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، ما قاله ابن عباس، وأن معناه: أوفوا، يا أيها الذين آمنوا، بعقود الله التي أوجبها عليكم، وعقدها فيما أحل لكم وحرّم عليكم، وألزمكم فرضه، وبين لكم حدوده.

و"الإيفاء بالعهد"، إتمامه على ما عقد عليه من شروطه الجائزة.

القول في تأويل قوله: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "بهيمة الأنعام" التي ذكر الله عز ذكره في هذه الآية أنه أحلها لنا.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب في ذلك، قول من قال: عنى

بقوله: "أحلت لكم بهيمة الأنعام"، الأنعام كلها: أجنتها وسخّالها وكبارها. لأن العرب لا تمتنع من تسمية جميع ذلك "بهيمة وبهائم"، ولم يخصص الله منها شيئاً دون شيء. فذلك على

عمومه وظاهره، حتى تأتي حجة بخصوصه يجب التسليم لها.

وأما "النعم" فإنها عند العرب، اسم للإبل والبقر والغنم خاصة، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، [النحل: ٥]، ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ففصل جنس النعم من غيرها من أجناس الحيوان.

وأما "بهائمها"، فإنها أولادها. وإنما قلنا يلزم الكبار منها اسم "بهيمة"، كما يلزم الصغار، لأن معنى قول القائل: "بهيمة الأنعام"، نظير قوله: "ولد الأنعام". فلما كان لا يسقط معنى الولادة عنه بعد الكبر، فكذلك لا يسقط عنه اسم البهيمة بعد الكبر.

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذي عناه الله بقوله: "إلا ما يتلى عليكم". فقال بعضهم: عنى الله بذلك: أحلت لكم أولاد الإبل والبقر والغنم، إلا ما بين الله لكم فيما يتلى عليكم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾، الآية [المائدة: ٣].

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من قال: "عنى بذلك: إلا ما يتلى عليكم من تحريم الله ما حرّم عليكم بقوله: "حرمت عليكم الميتة"، الآية. لأن الله عزّ وجلّ استثنى مما أباح لعباده من بهيمة الأنعام، ما حرّم عليهم منها. والذي حرّم عليهم منها، ما بينه في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]. وإن كان حرّمه الله علينا، فليس من بهيمة الأنعام فيستثنى منها. فاستثناء ما حرّم علينا مما دخل في جملة ما قبل الاستثناء، أشبه من استثناء ما حرّم مما لم يدخل في جملة ما قبل الاستثناء.

القول في تأويل قوله: ﴿غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَخُصُّكُمْ مَا يُرِيدُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب على ما تظاهر به تأويل أهل التأويل في قوله: "أحلت لكم بهيمة الأنعام"، من أنها الأنعام وأجنتها وسخالها، وعلى دلالة ظاهر التنزيل قول من قال: معنى ذلك: أوفوا بالعقود، غير محلي الصيد وأنتم حرم، فقد أحلت لكم بهيمة الأنعام في حال إحرامكم أو غيرها من أحوالكم، إلا ما يتلى عليكم تحريمه من الميتة منها والدم، وما أهل لغير الله به.

قال أبو جعفر: فمعنى الكلام إذا: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بعقود الله التي عقد عليكم مما حرّم وأحلّ، لا محلين الصيد في حرّمكم، ففيما أحلّ لكم من بهيمة الأنعام المذكاة دون ميتتها، متّسع لكم ومستغنى عن الصيد في حال إحرامكم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه، وإيجاب ما شاء إيجابه عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضايه فأوفوا، أيها المؤمنون، له بما عقد عليكم من تحليل ما أحل لكم وتحريم ما حرم عليكم، وغير ذلك من عقود، فلا تنكثوها ولا تنقضوها.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى قول الله: "لا تحلوا شعائر الله". قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بقوله: "لا تحلوا شعائر الله"، قول عطاء الذي ذكرناه من توجيهه معنى ذلك إلى: لا تحلوا حرمة الله ولا تضيعوا فرائضه. لأن "الشعائر" جمع "شعيرة"، "والشعيرة" "فعيلة" من قول القائل: "قد شعر فلان بهذا الأمر"، إذا علم به. ف"الشعائر"، المعالم، من ذلك.

وإذا كان ذلك كذلك، كان معنى الكلام: لا تستحلوا، أيها الذين آمنوا، معالم الله فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج: من تحريم ما حرم الله إصابته فيها على المحرم، وتضييع ما نهى عن تضييعه فيها، وفيما حرم من استحلال حُرمة حرمة، وغير ذلك من حدوده وفرائضه، وحلاله وحرامه، لأن كل ذلك من معالمه وشعائره التي جعلها أمارات بين الحق والباطل، يُعلم بها حاله وحرامه، وأمره ونهيه. وإنما قلنا ذلك القول أولى بتأويل قوله تعالى: "لا تحلوا شعائر الله"، لأن الله نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها نهياً عاماً، من غير اختصاص شيء من ذلك دون شيء، فلم يجز لأحد أن يوجّه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها، ولا حجة بذلك كذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولا الشهر الحرام"، ولا تستحلوا الشهر الحرام بقتالكم فيه أعداءكم من المشركين وهو كقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال ابن عباس وغيره. وأما "الشهر الحرام" الذي عناه الله بقوله: "ولا الشهر الحرام"، فرجب مُضَر، وهو شهر كانت مضر تحرم فيه القتال. وقد بينا الدلالة على صحة ما قلنا في ذلك فيما مضى، وذلك في تأويل قوله: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه".

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْأَهْدَىٰ وَلَا الْقَلَادِیَّةَ﴾ قال أبو جعفر: "أما الهدى"، فهو ما أهده المرء من بعير أو بقرة أو شاة أو غير ذلك، إلى بيت الله، تقرباً به إلى الله، وطلب ثوابه.

يقول الله عز وجل: فلا تستحلوا ذلك، فتغصبوه أهله غلبَةً ولا تحلوا بينهم وبين ما أهدوا من ذلك أن يبلغوا به المحل الذي جعله الله جل وعز محلاً من لعبته.

وقد روي عن ابن عباس أن "الهدى" إنما يكون هدياً ما لم يُقْلَد.

وأما قوله: "ولا القلائد"، فإنه يعني: ولا تحلوا أيضًا القلائد.

ثم اختلف أهل التأويل في "القلائد" التي نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن إحلالها.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى بتأويل قوله: "ولا القلائد" إذ كانت معطوفة على أول الكلام، ولم يكن في الكلام ما يدل على انقطاعها عن أوله، ولا أنه عنى بها النهي عن التقليد أو اتخاذ القلائد من شيء أن يكون معناه: ولا تُحَلِّوا القلائد.

فإذا كان ذلك بتأويله أولى، فمعلوم أنه نَهَى من الله جل ذكره عن استحلال حرمة المقلد، هديًا كان ذلك أو إنسانًا، دون حرمة القلادة. وإن الله عز ذكره، إنما دلَّ بتحريمه حرمة القلادة، على ما ذكرنا من حرمة المقلد، فاجتزأ بذكره "القلائد" من ذكر "المقلد"، إذ كان مفهومًا عند المخاطبين بذلك معنى ما أريد به.

فمعنى الآية إذ كان الأمر على ما وصفنا: يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهدى، ولا المقلد نفسه بقلائد الحرم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾

قال أبو جعفر: يعني بقوله عز ذكره: "ولا آمين البيت الحرام"، ولا تحلوا قاصدي البيت الحرام العامدية. تقول منه: "أمت كذا"، إذا قصده وعمدته

"والبيت الحرام"، بيت الله الذي بمكة، وقد بينت فيما مضى لم قيل له "الحرام".

"يبتغون فضلًا من ربهم"، يعني: يلتمسون أرباحًا في تجاراتهم من الله

"ورضوانًا"، يقول: وأن يرضى الله عنهم بنسكهم.

ثم اختلف أهل العلم فيما نسخ من هذه الآية، بعد إجماعهم على أن منها منسوخًا.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: نسخ الله من هذه الآية قوله: "ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام"، لإجماع الجميع على أن الله قد أحلَّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كلها. وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قُتِلَ عنقه أو ذراعيه لحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أمانًا من القتل، إذا لم يكن تقدّم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان وقد بينا فيما مضى معنى "القلائد" في غير هذا الموضع.

وأما قوله: "ولا آمين البيت الحرام"، فإنه محتمل ظاهره: ولا تحلوا حرمة آمين البيت

الحرام من أهل الشرك والإسلام، لعموم جميع من أمَّ البيت. وإذا احتمل ذلك، فكان أهل الشرك داخلين في جملتهم، فلا شك أن قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، ناسخٌ له.

لأنه غير جائز اجتماع الأمر بقتلهم وترك قتلهم في حال واحدة ووقت واحد. وفي إجماع الجميع على أن حكم الله في أهل الحرب من المشركين قتلهم، أموا البيت الحرام أو البيت المقدس، في أشهر الحرم وغيرها ما يُعلم أن المنع من قتلهم إذا أموا البيت الحرام منسوخ. ومحتمل أيضًا: ولا آمين البيت الحرام من أهل الشرك. وأكثر أهل التأويل على ذلك.

وإن كان غني بذلك المشركون من أهل الحرب، فهو أيضًا لا شك منسوخ. وإذا كان ذلك كذلك وكان لا اختلاف في ذلك بينهم ظاهر، وكان ما كان مستفيضًا فيهم ظاهرًا حجة فالواجب، وإن احتمل ذلك معنى غير الذي قالوا، التسليم لما استفاض بصحته نقلهم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "يبتغون"، يطلبون ويلتمسون و"الفضل" الأرباح في التجارة و"الرضوان"، رضى الله عنهم، فلا يحل بهم من العقوبة في الدنيا ما أحلّ بغيرهم من الأمم في عاجل دنياهم، بحجّهم بيته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا حللتكم فاصطادوا الصيد الذي نهيتكم أن تحلوه وأنتم حرم. يقول: فلا حرج عليكم في اصطاده، واصطادوا إن شئتم حينئذ، لأن المعنى الذي من أجله كنت حرّمته عليكم في حال إحرامكم قد زال.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولا يجرمنكم"، ولا يحملنكم

القول في تأويل قوله: ﴿شَتَانُ قَوْمٍ﴾ وهو كما جاء عن ابن عباس قوله: "ولا يجرمنكم شأن قوم"، لا يحملنكم بغض قوم.

القول في تأويل قوله: ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ قال أبو جعفر وتأويل الآية: ولا يحملنكم بغض قوم، لأن صدوكم عن المسجد الحرام، أيها المؤمنون، أن تعتدوا حكم الله فيهم، فتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه، ولكن الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم. وذكر أنها نزلت في النهي عن الطلب بدُحُول الجاهلية. فعن مجاهد في قول الله: "أن تعتدوا"، رجل مؤمن من حلفاء محمد، قتل حليفًا لأبي سفيان من هذيل يوم الفتح بعرفة، لأنه كان يقتل حلفاء محمد، فقال محمد ﷺ: لعن الله من قتل بدُحُول الجاهلية.

القول في تأويل قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وتعاونوا على البر والتقوى"، وليعن بعضهم، أيها المؤمنون،

بعضاً "على البر"، وهو العمل بما أمر الله بالعمل به "والتقوى"، هو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه.

وقوله: "ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"، يعني: ولا يعن بعضكم بعضاً "على الإثم"، يعني: على ترك ما أمركم الله بفعله "والعدوان"، يقول: ولا على أن تتجاوزوا ما حدّ الله لكم في دينكم، وفرض لكم في أنفسكم وفي غيركم. وإنما معنى الكلام: ولا يجرمنكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، ولكن ليعن بعضكم بعضاً بالأمر بالانتهاء إلى ما حدّه الله لكم في القوم الذين صدوكم عن المسجد الحرام وفي غيرهم، والانتفاء عما نهاكم الله أن تأتوا فيهم وفي غيرهم، وفي سائر ما نهاكم عنه، ولا يعن بعضكم بعضاً على خلاف ذلك. وبما قلنا في "البر والتقوى" قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال أبو جعفر: وهذا وعيد من الله جل ثناؤه وتهذّب لمن اعتدى حدّه وتجاوز أمره يقول عز ذكره: "واتقوا الله"، يعني: واحذروا الله، أيها المؤمنون، أن تلقوه في معادكم وقد اعتديتم حدّه فيما حدّ لكم، وخالفتم أمره فيما أمركم به، أو نهيه فيما نهاكم عنه، فتستوجبوا عقابه، وتستحقوا أليم عذابه. ثم وصف عقابه بالشدّة فقال عز ذكره: إن الله شديد عقابه لمن عاقبه من خلقه، لأنها نار لا يطفأ حرّها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهيها، نعوذ بالله منها ومن عمل يقرّبنا منها.

القول في تأويل قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: حرّم الله عليكم، أيها المؤمنون، الميتة.

و"الميتة": كل ما له نفس سائلة من دواب البر وطيّره، مما أباح الله أكلها، أهلّيها ووحشّيها، فارقتها روحها بغير تذكية. وأما "الدم"، فإنه الدم المسفوح، دون ما كان منه غير مسفوح، لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فأما ما كان قد صار في معنى اللحم، كالكبد والطحال، وما كان في اللحم غير منسفع، فإن ذلك غير حرام، لإجماع الجميع على ذلك.

وأما قوله: "ولحم الخنزير"، فإنه يعني: وحرّم عليكم لحم الخنزير، أهلّيّه وبرّيّه. فالميتة والدم مخرجهما في الظاهر مخرج عموم، والمراد منهما الخصوص. وأما لحم الخنزير، فإن ظاهره كباطنه، وباطنه كظاهره، حرام جميعه، لم يخص منه شيء.

وأما قوله: "وما أهلّ لغير الله به"، فإنه يعني: وما ذكر عليه غير اسم الله. وأصله من "استهلال الصبي"، وذلك إذا صاح حين يسقط من بطن أمه. ومنه "إهلال

المحرم بالحج"، إذا لَبَّى به وإنما عنى بقوله: "وما أهل لغير الله به"، وما ذبح للآلهة وللأوثان، يسمى عليه غير اسم الله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْمُنْخَنَقَةُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في صفة "المنخنقة" الذي عنى الله جل ثناؤه بقوله: "والمنخنقة". وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول من قال: "هي التي تختنق، إما في وثاقها، وإما بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت". وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في تأويل ذلك من غيره، لأن "المنخنقة"، هي الموصوفة بالانخناق، دون خنق غيرها لها، ولو كان معنيًا بذلك أنها مفعول بها، لقليل: "والمنخنوقة"، حتى يكون معنى الكلام ما قالوا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "والموقودة"، والميتة وقيدًا. يقال منه: "وقدّه يَقْدُهُ وَقْدًا"، إذا ضربه حتى أشرف على الهلاك

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْمُتَرِدَّةُ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وحرمت عليكم الميتة تردّيًا من جبل أو في بئر، أو غير ذلك.

و"ترديها"، رميها بنفسها من مكان عالٍ مشرف إلى سفله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. عن الضحاك: "والمتردية"، التي تردّي من الجبل فتموت.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "النطيحة"، الشاة التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح بغير تذكية. فحرم الله جل ثناؤه ذلك على المؤمنين، إن لم يدركوا ذكاته قبل موته. وأصل "النطيحة"، "المنطوحة"، صرفت من "مفعولة" إلى "فعيلة".

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وما أكل السبع"، وحرم عليكم ما أكل السبع غير المعلم من الصوائد. "وما أكل السبع"، قال: كان أهل الجاهلية إذا قتل السبع شيئًا من هذا أو أكل منه، أكلوا ما بقي.

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "إلا ما ذكيتم"، إلا ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهورًا. ثم اختلف أهل التأويل فيما استثنى الله بقوله: "إلا ما ذكيتم". قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب، القول الأول، وهو أن قوله: "إلا ما ذكيتم" استثناء من قوله: "وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع"، لأن كل ذلك مستحق الصفة التي هو بها قبل حال موته فيقال لما قرب المشركون لألهتهم فسموه لهم: "هو ما أهل لغير الله به"، بمعنى سمى قربانًا لغير الله. وكذلك "المنخنقة"، إذا انخنقت وإن لم تمت، فهي منخنقة. وكذلك سائر ما حرمه

الله جل وعز بعد قوله: "وما أهل لغير الله به"، إلا بالتذكية، فإنه يوصف بالصفة التي هو بها قبل موته، فحرمه الله على عباده إلا بالتذكية المحللة، دون الموت بالسبب الذي كان به موصوفاً. فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: وحرم عليكم ما أهل لغير الله به والمنخنة وكذا وكذا، إلا ما ذكيتم من ذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا ذَبَحْ عَلَى النَّصْبِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "وما ذبح على النصب"، وحرم عليكم أيضاً الذي ذبح على النصب. فـ"ما" في قوله: "وما ذبح"، رفعٌ، عطفاً على "ما" التي في قوله: "وما أكل السبع". و"النصب"، الأوثان من الحجارة، جماعة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرض، فكان المشركون يقربون لها، وليست بأصنام. وكان ابن جريج يقول: "النصب" ليست بأصنام، "الصنم" يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب، ثلثمة وستون حجراً منهم من يقول ثلثمة منها لخزاعة فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرّحوا اللحم وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحق أن نعظمه! فكان النبي ﷺ لم يكره ذلك، فأنزل الله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧].

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "وأن تستقسموا بالأزلام"، وأن تطلبوا علم ما قسم لكم أو لم يقسم، بالأزلام وهو "استفعلت" من "القسم" قسم الرزق والحاجات. وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو نحو ذلك، أجال القداح وهي "الأزلام" وكانت قداحاً مكتوباً على بعضها: "نهاني ربي"، وعلى بعضها: "أمرني ربي" فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربي"، مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "نهاني ربي"، كفّ عن المضي لذلك وأمسك، فقيل: "وأن تستقسموا بالأزلام"، لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يقسم لهم.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ مُنْ فَسَقَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ذلكم"، هذه الأمور التي ذكرها، وذلك: أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وسائر ما ذكر في هذه الآية مما حرم أكله، والاستقسام بالأزلام، "فسق"، يعني: خروج عن أمر الله عز ذكره وطاعته، إلى ما نهى عنه وزجر، إلى معصيته.

القول في تأويل قوله: ﴿الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "اليوم ينس الذين كفروا من دينكم"، الآن انقطع طمع الأحزاب وأهل الكفر والجحود، أيها المؤمنون، "من دينكم"، يقول: من دينكم أن تركوه فترتدوا عنه راجعين إلى الشرك

فإن قال قائل: وأي يوم هذا اليوم الذي أخبر الله أن الذين كفروا يئسوا فيه من دين المؤمنين؟ قيل: ذكر أن ذلك كان يوم عرفة، عام حج النبي ﷺ حجة الوداع، وذلك بعد دخول العرب في الإسلام.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك: فلا تخشوا، أيها المؤمنون، هؤلاء الذين قد يئسوا من دينكم أن ترجعوا عنه من الكفار، ولا تخافوهم أن يظهروا عليكم، فيقهروكم ويردوكم عن دينكم "واخشون"، يقول: ولكن خافون، إن أنتم خالفتم أمري واجترأتم على معصيتي، وتعديتهم حدودي، أن أجلب بكم عقابي، وأنزل بكم عذابي.

القول في تأويل قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم يوم أنزل هذه الآية على نبيه دينهم، بإفرادهم بالبلد الحرام وإجلاته عنه المشركين، حتى حججه المسلمون دونهم لا يخالطهم المشركون. فأما الفرائض والأحكام، فإنه قد اختلف فيها: هل كانت أكملت ذلك اليوم، أم لا؟ فروي عن ابن عباس والسدي ما ذكرنا عنهما قبل. وروي عن البراء بن عازب أن آخر آية نزلت من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]. ولا يدفع ذو علم أن الوحي لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى أن قبض، بل كان الوحي قبل وفاته أكثر ما كان تابعا. فإذا كان ذلك كذلك وكان قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ آخرها نزولا وكان ذلك من الأحكام والفرائض كان معلوما أن معنى قوله: "اليوم أكملت لكم دينكم"، على خلاف الوجه الذي تأوله من تأوله أعني: كمال العبادات والأحكام والفرائض. فإن قال قائل: فما جعل قول من قال: "قد نزل بعد ذلك فرض"، أولى من قول من قال: "لم ينزل"؟

قيل: لأن الذي قال: "لم ينزل"، مخبر أنه لا يعلم نزول فرض، والنفي لا يكون شهادة، والشهادة قول من قال: "نزل". وغير جائز دفع خبر الصادق فيما أمكن أن يكون فيه صادقا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: وأتممت نعمتي، أيها المؤمنون، بإظهاركم على عدوِّي وعدوكم من المشركين، ونفبي إياهم عن بلادكم، وقطعي طمعهم من رجوعكم وعودكم إلى ما كنتم عليه من الشرك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ورضيت لكم الاستسلام لأمري، والانقياد لطاعتي، على ما شرعت لكم من حدوده وفرائضه ومعالمه "دينا"، يعني بذلك: طاعة منكم لي.

فإن قال قائل: أو ما كان الله راضياً بالإسلام لعباده إلا يوم أنزل هذه الآية؟

قيل: لم يزل الله راضياً لخلق الإسلام ديناً، ولكنه جل ثناؤه لم يزل يصرف نبيه محمداً ﷺ وأصحابه في درجات الإسلام ومراتبه بعد درجة، ومرتبة بعد مرتبة، وحالا بعد حال، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه، ثم قال حين أنزل عليهم هذه الآية: "ورضيت لكم الإسلام" بالصفة التي هو بها اليوم والحال التي أتم عليها اليوم منه "ديناً" فالزموه ولا تفارقوه. ذكر من قال: نزلت هذه الآية بعرفة في حجة الوداع على رسول الله ﷺ. كالذي جاء عن طارق بن شهاب قال، قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو أنزلت فينا لاتخذناها عيداً! فقال عمر: إني لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: أنزلت يوم عرفة، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة قال سفيان: وأشك، كان يوم الجمعة أم لا "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً".

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقول: "فمن اضطر"، فمن أصابه ضرٌّ في مخمصة"، يعني: في مجاعة.

القول في تأويل قوله: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فمن اضطر في مخمصة إلى أكل ما حرمت عليه منكم، أيها المؤمنون، من الميتة، والدم ولحم الخنزير وسائر ما حرمت عليه بهذه الآية "غير متجانف لإثم"، يقول: لا متجانفاً لإثم. وأما "المتجانف لإثم"، فإنه المتمايل له، المنحرف إليه. وهو في هذا الموضع مراد به المتعمد له، القاصد إليه وأما تجانف أكل الميتة في أكلها وفي غيرها مما حرم الله أكله على المؤمنين بهذه الآية، للإثم في حال أكله فهو: تعمد أكل ذلك لغير دفع الضرورة النازلة به ولكن لمعصية الله، وخلاف أمره فيما أمره به من ترك أكل ذلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: وفي هذا الكلام متروك، اكتفى بدلالة ما ذكر عليه منه. وذلك أن معنى الكلام: فمن اضطر في مخمصة إلى ما حرمت عليه مما ذكرت في هذه الآية، غير متجانف لإثم فأكله، فإن الله غفور رحيم فترك ذكر "فأكله"، وذكر "له" لدلالة سائر ما ذكر من الكلام عليهما.

وأما قوله: "فإن الله غفور رحيم"، فإن معناه: فإن الله لمن أكل ما حرمت عليه بهذه الآية أكله، في مخمصة، غير متجانف لإثم "غفور رحيم"، يقول: يستر له عن أكله ما أكل من ذلك، بعفوه عن مؤاخذته إياه، وصفحه عنه وعن عقوبته عليه "رحيم"، يقول: وهو به رفيق. ومن رحمته ورفقه به أباح له أكل ما أباح له أكله من الميتة وسائر ما ذكر معها في هذه الآية، في حال خوفه على نفسه من كلب الجوع وضرر الحاجة العارضة ببذنه.

فإن قال قائل: وما الأكل الذي وعد الله المضطر إلى الميتة وسائر المحرمات معها بهذه الآية، غفرانُهُ إذا أكل منها؟

قيل: كما جاء عن أبي واقد الليثي قال: قلنا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيينا فيها مخمصة، فما يصلح لنا من الميتة؟ قال: إذا لم تصطبحوها، أو تغتبقوها، أو تحتفتوا بقلها فشأنكم بها.

القول في تأويل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك، يا محمد، أصحابك: ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمأكَل؟ فقل لهم: أحل لكم منها "الطيّبات"، وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح وأحل لكم أيضًا مع ذلك، صيد ما علّمتم من "الجوارح"، وهن الكواسب من سباع البهائم. والطيّر سميت "جوارح"، لجرحها لأربابها، وترك من قوله: "وما علمتم"، "وصيد" ما علمتم من الجوارح، اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام على ما ترك ذكره.

وذلك أن القوم، فيما بلغنا، كانوا سألوا رسول الله ﷺ حين أمرهم بقتل الكلاب، عما يحلّ لهم اتخاذه منها وصيده، فأنزل الله عز ذكره فيما سألوا عنه من ذلك هذه الآية. فاستثنى مما كان حرّم اتخاذه منها، وأمر بقنينة كلاب الصيد وكناب الماشية، وكناب الحرث، وأذن لهم باتخاذ ذلك. كالذي جاء عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يستأذن عليه، فأذن له فقال: قد أذنّا لك يا رسول الله! قال: أجل، ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب! قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته. فجاءوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله: "يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علّمتم من الجوارح مكلّبين".

ثم اختلف أهل التأويل في "الجوارح" التي عنى الله بقوله: "وما علّمتم من الجوارح".

قال أبو جعفر: وأولى القولين بتأويل الآية قول من قال: "كل ما صاد من الطير والسباع فمن الجوارح، وأنّ صيد جميع ذلك حلال إذا صاد بعد التعليم"، لأن الله جل ثناؤه عم بقوله: "وما علّمتم من الجوارح مكلّبين"، كلّ جارحة، ولم يخص منها شيئاً. فكل "جارحة"، كانت بالصفة التي وصف الله من كل طائر وسبع، فحلال أكل صيدها.

وقد روي عن النبي ﷺ بنحو ما قلنا في ذلك خبرٌ، مع ما في الآية من الدلالة التي ذكرنا على صحة ما قلنا في ذلك، وهو كما جاء عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال: ما أمسك عليك فكل. فأباح ﷺ صيد البازي وجعله من الجوارح. ففي ذلك دلالة بيّنة على فساد قول من قال: "عنّى الله بقوله: "وما علّمتم من الجوارح"، ما علمنا من

الكلاب خاصة، دون غيرها من سائر الجوارح". **فإن ظن ظان أن في قوله: "مكلبين"، دلالة على أن الجوارح التي ذكرت في قوله: "وما علمتم من الجوارح"، هي الكلاب خاصة، فقد ظن غير الصواب. وذلك أن معنى الآية: قل أحل لكم، أيها الناس، في حال مصيركم أصحاب كلاب الطييات، وصيد ما علمتوه الصيد من كواسب السباع والطيور. فقوله: "مكلبين"، صفة للقائض، وإن صاد بغير الكلاب في بعض أحيانه. وهو نظير قول القائل يخاطب قومًا: "أحل لكم الطييات وما علمتم من الجوارح مكلبين مؤمنين". فمعلوم أنه إنما عنى قائل ذلك، إخبار القوم أن الله جل ذكره أحل لهم، في حال كونهم أهل إيمان، الطييات وصيد الجوارح التي أعلمهم أنه لا يحل لهم منه إلا ما صادوه به فكذلك قوله: "أحل لكم الطييات وما علمتم من الجوارح مكلبين" لذلك نظيره، في أن التكليل للقائض بالكلاب كان صيده أو بغيرها لا أنه إعلام من الله عز ذكره أنه لا يحل من الصيد إلا ما صادته الكلاب.**

القول في تأويل قوله: ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "تعلمونهن"، تؤدبون الجوارح فتعلمونهن طلب الصيد لكم "مما علمكم الله"، يعني بذلك: من التأديب الذي أدبكم الله، والعلم الذي علمكم. واختلف في ذلك

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندنا في تأويل قوله: "تعلمونهن مما علمكم الله": أن "التعليم" الذي ذكره الله في هذه الآية للجوارح، إنما هو أن يعلم الرجل جراحه الاستشلاء إذا أُشلي على الصيد وطلبه إياه إذا أغرى، أو إمساكه عليه، إذا أخذه من غير أن يأكل منه شيئًا، وألا يفر منه إذا أراده، وأن يجيبه إذا دعاه. فذلك، هو تعليم جميع الجوارح، طيرها وبهائمها. فإن أكل من الصيد جراحة صائد فجراحه حيثئذ غير معلّم. فإن أدرك صيده صاحبه حيًّا فذكاه، حلّ له أكله. وإن أدركه ميتًا، لم يحلّ له أكله، لأنه مما أكله السبع الذي حرمه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾، ولم يدرك ذكاته. وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ، بما جاء عن الشعبي، عن عدي بن حاتم: أنه سأل النبي ﷺ عن الصيد فقال: إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أدركته وقد قتل وأكل منه فلا تأكل منه شيئًا، وإنما أمسك على نفسه.

قال أبو جعفر: وإذا كان الأمر في الكلب على ما ذكرت: من أنه إذا أكل من الصيد فغير معلّم، فكذلك حكم كل جراحة: في أن ما أكل منها من الصيد فغير معلّم، لا يحلّ له أكل صيده إلا أن يدرك ذكاته.

القول في تأويل قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "فكلوا مما أمسكن عليكم"، فكلوا، أيها الناس، مما أمسكت عليكم جوارحكم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ على ما أمسكت عليكم جوارحكم من الصيد.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه: واتقوا الله، أيها الناس، فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فاحذروه في ذلك أن تقدموا على خلافه، وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلّمة، أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تطعموا ما لم يسم الله عليه من الصيد والذبائح مما صاده أهل الأوثان وعبدة الأصنام ومن لم يوحد الله من خلقه، أو ذبحوه، فإن الله قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه.

ثم خوفهم إن هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك ومن غيره. فقال: اعلّموا أن الله سريع حسابه لمن حاسبه على نعمه عليه منكم وشكر الشاكر منكم ربّه على ما أنعم به عليه بطاعته إياه فيما أمر ونهى، لأنه حافظ لجميع ذلك فيكم، فيحيط به، لا يخفى عليه منه شيء، فيجازي المطيع منكم بطاعته، والعاصي بمعصيته، وقد بين لكم جزاء الفريقين.

القول في تأويل قوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "اليوم أحل لكم الطيبات"، اليوم أحل لكم، أيها المؤمنون، الحلال من الذبائح والمطاعم دون الخبائث منها. وقوله: "وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم"، وذبائح أهل الكتاب من

اليهود والنصارى وهم الذين أوتوا التوراة والإنجيل وأنزل عليهم، فدأبوا بهما أو بأحدهما "حل لكم" يقول: حلال لكم، أكله دون ذبائح سائر أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وعبدة الأوثان والأصنام. فإن من لم يكن منهم مَن أقرّ بتوحيد الله عزّ ذكره ودان دين أهل الكتاب، فحرام عليكم ذبائحهم.

وأما "الطعام" الذي قال الله: "وطعام الذين أوتوا الكتاب"، فإنه الذبائح. وأما قوله: "وطعامكم حل لهم"، فإنه يعني: ذبائحكم، أيها المؤمنون، حل لأهل الكتاب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "والمحصنات من المؤمنات"، أحل لكم، أيها المؤمنون، المحصنات من المؤمنات وهن الحرائر منهن أن تنكحوهن "والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم"، يعني: والحرائر من الذين أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين دانوا بما في التوراة والإنجيل من قبلكم، أيها المؤمنون بمحمد ﷺ من العرب وسائر الناس، أن تنكحوهن أيضًا "إذا آتيتموهن أجورهن"، يعني: إذا أعطيتن من نكحتن من محصناتكم ومحصناتهم "أجورهن"، وهي مهورهن.

وأما قوله: "إذا آتيتموهن أجورهن"، فإن "الأجر": العوض الذي يبذله الزوج للمرأة للاستمتاع بها، وهو المهر.

القول في تأويل قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: أحل لكم المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، وأنتم محصنون غير مسافحين ولا متخذي أخدان. ويعني بقوله جل ثناؤه: "محصنين"، أعفَاء "غير مسافحين"، يعني: لا معالنين بالسفاح بكل فاجرة، وهو الفجور "ولا متخذي أخدان"، يقول: ولا منفردين ببغيّة واحدة، قد خادنها وخادنته، واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها. وقد بينا معنى "الإحصان" ووجوهه ومعنى "السفاح" و"الخدن" في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "ومن يكفر بالإيمان"، ومن يجحد ما أمر الله بالتصديق به، من توحيد الله ونبوة محمد ﷺ وما جاء به من عند الله وهو "الإيمان"، الذي قال الله جل ثناؤه: "ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله" يقول: فقد بطل ثواب عمله الذي كان يعمل في الدنيا، يرجو أن يدرك به منزلة عند الله. "وهو في الآخرة من الخاسرين"، يقول: وهو في الآخرة من الهالكين، الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من ثواب الله بكفرهم بمحمد، وعملهم بغير طاعة الله. وقد ذكر أن قوله: "ومن يكفر بالإيمان"، عنى به أهل الكتاب، وأنه أنزل على رسول الله صلى عليه وسلم من أجل قوم تحرّجوا نكاح نساء أهل الكتاب لما قيل لهم: "أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم".

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة، وأنتم على غير طهر الصلاة، فاغسلوا وجوهكم بالماء، وأيديكم إلى المرافق. ثم اختلف أهل التأويل في قوله: "إذا قمتم إلى الصلاة"، أمرأه كل حال قام إليها، أو بعضها؟ وأي أحوال القيام إليها؟ قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، قول من قال: إن الله عنى بقوله: "إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا" جميع أحوال قيام القائم إلى الصلاة، غير أنه أمر فرض بغسل ما أمر الله بغسله القائم إلى صلاته، بعد حدث كان منه ناقض طهارته، وقبل إحداث الوضوء منه وأمر ندب لمن كان على طهر قد تقدم منه، ولم يكن منه بعده حدث ينقض طهارته. ولذلك كان ﷺ يتوضأ لكل صلاة قبل فتح مكة، ثم صلى يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلم أمته أن ما كان يفعل

ﷺ من تجديد الطهر لكل صلاة، إنما كان منه أخذًا بالفضل، وإيثارا منه لأحب الأمرين إلى الله، ومسارةً منه إلى ما ندبه إليه ربّه لا على أن ذلك كان عليه فرضًا واجبًا.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في حدّ "الوجه" الذي أمر الله بغسله، القائم إلى الصلاة بقوله: "إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك عندنا قول من قال: "الوجه" الذي أمر الله جل ذكره بغسله القائم إلى صلاته: كل ما انحدر عن منابت شعر الرأس إلى مُنقطع الذّقن طولًا وما بين الأذنين عرضًا مما هو ظاهر لعين الناظر، دون ما بطن من الفم والأنف والعين، ودون ما غطاه شعر اللحية والعارضين والشاربين فستره عن أبصار الناظرين، ودون الأذنين. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب وإن كان ما تحت شعر اللحية والشاربين قد كان "وجهًا" يجب غسله قبل نبات الشعر الساتر عن أعين الناظرين على القائم إلى صلاته لإجماع جميعهم على أن العينين من الوجه، ثم هم -مع إجماعهم على ذلك- مجمعون على أن غسل ما علاهما من أجفانهما دون إيصال الماء إلى ما تحت الأجفان منهما مجزئ.

فإذ كان ذلك منهم إجماعًا بتوقيف الرسول ﷺ أمته على ذلك، فنظير ذلك كل ما علاه شيء من مواضع الوضوء من جسد ابن آدم من نفس خلقه ساتره لا يصل الماء إليه إلا بكلفة ومؤنة وعلاج، قياسًا لما ذكرنا من حكم العينين في ذلك. فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن مثل العينين في مؤنة إيصال الماء إليهما عند الوضوء ما بطن من الأنف والفم وشعر اللحية والصدغين والشاربين، لأن كل ذلك لا يصل الماء إليه إلا بعلاج لإيصال الماء إليه نحو كلفة علاج الحدقتين لإيصال الماء إليهما أو أشدّ. وإذا كان ذلك كذلك، كان بيّنًا أن غسل مَنْ غسل من الصحابة والتابعين ما تحت منابت شعر اللحية والعارضين والشاربين، وما بطن من الأنف والفم، إنما كان إثارًا منه لأشق الأمرين عليه: من غسل ذلك وترك غسله، كما أثر ابن عمر غسل ما تحت أجفان العينين بالماء بصبّه الماء في ذلك لا على أن ذلك كان عليه عنده فرضًا واجبًا. فأما من ظنّ أن ذلك من فعلهم كان على وجه الإيجاب والفرض، فإنه خالف في ذلك بقوله منهاجهم وأعفل سبيل القياس، لأن القياس هو ما وصفنا من تمثيل المختلف فيه من ذلك، بالأصل المجمع عليه من حكم العينين وأن لا خبر عن واحد من أصحاب رسول الله ﷺ أوجب على تارك إيصال الماء في وضوئه إلى أصول شعر لحيته وعارضيه، وتارك المضمضة والاستنشاق إعادة صلاته إذا صلى بطهره ذلك. ففي ذلك أوضح الدليل على صحة ما قلنا من أن فعلهم ما فعلوا من ذلك كان إثارًا منهم لأفضل الفعلين من الترك والغسل.

فإن ظن ظان أن في الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا توضأ أحدكم

فليستشر". دليلا على وجوب الاستئثار، فإن في إجماع الحجة على أن ذلك غير فرض واجب، يجب على من تركه إعادة الصلاة التي صلاها قبل غسله، ما يغني عن إكثار القول فيه.

وأما الأذنان فإن في إجماع جميعهم على أن ترك غسلهما، أو غسل ما أقبل منهما مع الوجه، غير مفسد صلاة من صلى بطهره الذي ترك فيه غسلهما مع إجماعهم جميعا على أنه لو ترك غسل شيء مما يجب عليه غسله من وجهه في وضوئه أن صلاته لا تجزئه بطهوره ذلك ما ينبئ عن أن القول في ذلك ما قاله أصحاب رسول الله ﷺ الذي ذكرنا قولهم: إنها ليسا من الوجه دون ما قاله الشعبي.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَأَيَّدِيكُمْ إِلَىٰ الْمَرَافِقِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "المرافق"، هل هي من اليد الواجب غسلها، أم لا؟ بعد إجماع جميعهم على أن غسل اليد إليها واجب. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن غسل اليدين إلى المرفقين من الفرض الذي إن تركه أو شيئا منه تارك، لم تجزه الصلاة مع تركه غسله. فأما المرفقان وما وراءهما، فإن غسل ذلك من النذب الذي ندب إليه ﷺ أمته بقوله: "أمتي العُرُ المحجلون من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل عُزَّتَهُ فليفعل". فلا تفسد صلاة تارك غسلهما وغسل ما وراءهما، لما قد بينا قبل فيما مضى: من أن كل غاية حُدَّتْ بـ"إلى" فقد تحتل في كلام العرب دخول الغاية في الحدّ وخروجها منه. وإذا احتمل الكلام ذلك لم يجز لأحد القضاء بأنها داخله فيه، إلا لمن لا يجوز خلافه فيما بينَ وحكم، ولا حكم بأن المرافق داخله فيما يجب غسله عندنا ممن يجب التسليم بحكمه.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في صفة "المسح" الذي أمر الله به بقوله: "وامسحوا برءوسكم". قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن الله جل ثناؤه أمر بالمسح برأسه القائم إلى صلاته مع سائر ما أمره بغسله معه أو مسحه، ولم يحد ذلك بحدٍّ لا يجوز التقصير عنه ولا يجاوزه. وإذا كان ذلك كذلك، فما مسح به المتوضى من رأسه فاستحقّ بمسحه ذلك أن يقال: "مسح برأسه"، فقد أدّى ما فرض الله عليه من مسح ذلك لدخوله فيما لزمه اسم "ماسح برأسه" إذا قام إلى صلاته. و"الرأس" الذي أمر الله جل وعز بالمسح به بقوله: "وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين" هو منابت شعر الرأس، دون ما جاوز ذلك إلى القفا ممّا استدبر، ودون ما انحدر عن ذلك مما استقبل من قبل وجهه إلى الجبهة.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ واختلف أهل التأويل في ذلك قال أبو جعفر: والصواب من القول عندنا في ذلك، أن الله عزّ ذكره أمر بعموم مسح الرجلين

بالماء في الوضوء، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم. وإذا فعل ذلك بهما المتوضئ، كان مستحقاً اسم "ماسح غاسل"، لأن "غسلهما" إمرار الماء عليهما أو إصابتها بالماء. و"مسحهما"، إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما. فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو "غاسل ماسح". ولذلك من احتمال "المسح" المعنيين اللذين وصفتُ من العموم والخصوص اللذين. أحدهما مسح ببعض والآخر مسح بالجميع اختلفت قراءة القراءة في قوله: "وأرجلكم" فنصبها بعضهم توجيهاً منه ذلك إلى أن الفرض فيهما الغسل وإنكاراً منه المسح عليهما، مع تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بعموم مسحهما بالماء. وخفضها بعضهم، توجيهاً منه ذلك إلى أن الفرض فيهما المسح. ولما قلنا في تأويل ذلك إنه معني به عموم مسح الرجلين بالماء كره من كره للمتوضئ الاجتزاء بإدخال رجله في الماء دون مسحها بيده، أو بما قام مقام اليد، توجيهاً منه قوله: "وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين" إلى مسح جميعهما عامّاً باليد، أو بما قام مقام اليد، دون بعضهما مع غسلهما بالماء فإن قال قائل: وما الدليل على أن المراد بالمسح في الرجلين العموم، دون أن يكون خصوصاً، نظير قولك في المسح بالرأس؟ قيل: الدليل على ذلك، تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ويل للأعقاب وبُطون الأقدام من النار". ولو كان مسح بعض القدم مجزئاً عن عمومها بذلك لما كان لها الويل بترك ما ترك مسحه منها بالماء بعد أن يُمسح بعضها. لأن من أدى فرض الله عليه فيما لزمه غسله منها لم يستحق الويل، بل يجب أن يكون له الثواب الجزيل. وفي وجوب الويل لعقب تارك غسل عقبه في وضوئه، أوضح الدليل على وجوب فرض العموم بمسح جميع القدم بالماء، وصحة ما قلنا في ذلك، وفساد ما خالفه. كما جاء عن محمد بن زياد قال: كان أبو هريرة يمرُّ ونحن نتوضأ من المَطْهَرَة، فيقول: أسبغوا الوضوء، اسبغوا الوضوء، قال أبو القاسم: ويلٌ للعراقيب من النار.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿إِلَى الْكُعْبَيْنِ﴾ قال أبو جعفر: واختلف أهل التأويل في "الكعب". قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن "الكعبين" هما العظمان اللذان في مفصل الساق والقدم، تسميها العرب "المُنْجَمِين". وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يقول: هما عظما الساق في طرفها

واختلف أهل العلم في وجوب غسلهما في الوضوء وفي الحد الذي ينبغي أن يبلغ بالغسل إليه من الرجلين نحو اختلافهم في وجوب غسل المرفقين، وفي الحد الذي ينبغي أن يبلغ بالغسل إليه من اليدين. وقد ذكرنا ذلك ودلنا على الصحيح من القول فيه بعلمه فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "وإن كنتم جنباً" وإن كنتم أصابتكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها "فاطَّهَّرُوا"، يقول: فطهَّروا بالاعتسال منها قبل دخولكم في صلاتكم التي قمتم إليها.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: إن كنتم جرحى أو مُجَدَّرين وأنتم جنب وقد بيَّنا أن ذلك كذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته

وأما قوله: "أو على سفر" فإنه يقول: وإن كنتم مسافرين وأنتم جنب "أو جاء أحد منكم من الغائط" يقول: أو جاء أحدكم وقد قضى حاجته فيه وهو مسافر. وإنما عنى بذكر مجيئه منه قضاء حاجته فيه أو لامستم النساء" يقول أو جامعتم النساء وأنتم مسافرون. وقد ذكرنا اختلاف المختلفين فيما مضى قبل في "اللمس" وبينا أولى الأقوال في ذلك بالصواب فيما مضى بما أغنى عن إعادته

القول في تاويل قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً" فإن لم تجدوا أيها المؤمنون إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم مرضى مقيمون، أو على سفر أصحاء، أو قد جاء أحد منكم من قضاء حاجته، أو جامع أهله في سفره "ماء فتيمموا صعيداً طيباً، يقول: فتعمَّدوا واقصدوا وجه الأرض "طيباً"، يعني: طاهراً نظيفاً غير قدر ولا نجس، جائزاً لكم حالاً "فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه" يقول: فاضربوا بأيديكم الصعيد الذي تيممتموه وتعمدتموه بأيديكم، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم مما علق بأيديكم "منه"، يعني: من الصعيد الذي ضربتموه بأيديكم من ترابه وغباره. وقد بينا فيما مضى كيفية المسح بالوجه والأيدي منه" واختلاف المختلفين في ذلك والقول في معنى "الصعيد" و"التيمم"، ودللنا على الصحيح من القول في كل ذلك بما أغنى عن تكريره في هذا الموضع

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج" ما يريد الله بما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى صلاتكم، والغسل من جنابتكم والتيمم صعيداً طيباً عند عدمكم الماء "ليجعل عليكم من حرج ليلزمكم في دينكم من ضيق، ولا ليعتكم فيه.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ولكن يريد ليطهركم" ولكن الله يريد أن يطهركم بما فرض عليكم من الوضوء من الأحداث والغسل من الجنابة، والتيمم عند عدم الماء، فتتظفوا

وتطهروا بذلك أجسامكم من الذنوب. وجاء عن أبي عبيد مولى سليمان بن عبد الملك، عن عمرو بن عبسة: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا غسل المؤمن كفّيه انتشرت الخطايا من كفّيه، وإذا تمضمض واستنشق خرجت خطاياه من فيه ومنخريه، وإذا غسل وجهه خرجت من وجهه حتى تخرج من أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت من يديه، فإذا مسح رأسه وأذنيه خرجت من رأسه وأذنيه، فإذا غسل رجله خرجت حتى تخرج من أظفار قدميه، فإذا انتهى إلى ذلك من وضوئه كان ذلك خطئه منه، فإذا قام فصلّى ركعتين مقبلا فيهما بوجهه وقلبه على ربه، كان من خطاياه كيوم ولدته أمه"

وقوله: "وليتم نعمته عليكم" فإنه يقول: ويريد ربكم مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم إياه فيما فرض عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصلاة بالماء إن وجدتموه، وتيممكم إذا لم تجدوه أن يتم نعمته عليكم بإباحته لكم التيمم، وتصويره لكم الصعيد الطيب طهورا، رخصة منه لكم في ذلك مع سائر نعمه التي أنعم بها عليكم أيها المؤمنون "لعلكم تشكرون" يقول: لكي تشكروا الله على نعمه التي أنعمها عليكم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّيْ وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: واذكروا نعمة الله عليكم أيها المؤمنون، بالعقود التي عقدتموها الله على أنفسكم، واذكروا نعمته عليكم في ذلك بأن هداكم من العقود لما فيه الرضا، ووفقكم لما فيه نجاتكم من الضلالة والرّدّى في نعم غيرها جمّة. وأما قوله: "وميثاقه الذي واثقكم به" فإنه يعني: واذكروا أيضا أيها المؤمنون، في نعم الله التي أنعم عليكم "ميثاقه الذي واثقكم به، وهو عهده الذي عاهدكم به.

واختلف أهل التأويل في "الميثاق" الذي ذكر الله في هذه الآية، أي موثيقه عني؟

ثال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك: قول ابن عباس، وهو أن معناه: "واذكروا" أيها المؤمنون "نعمة الله عليكم" التي أنعمها عليكم بهدائه إياكم للإسلام "وميثاقه الذي واثقكم به"، يعني: وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا ﷺ على السمع والطاعة له في المنشط والمكره، والعسر واليسر "إذ قلتم سمعنا" ما قلت لنا، وأخذت علينا من المواثيق وأطعناك فيما أمرتنا به ونهيتنا عنه، وأنعم عليكم أيضا بتوفيقكم لقبول ذلك منه بقولكم له: "سمعنا وأطعنا"، يقول: ففؤا لله، أيها المؤمنون بميثاقه الذي واثقكم به، ونعمته التي أنعم عليكم في ذلك بإقراركم على أنفسكم بالسمع له والطاعة فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، يف لكم بما ضمن لكم الوفاء به إذا أنتم وفيتم له بميثاقه، من إتمام نعمته عليكم، وبإدخالكم جنته وإنعامكم بالخلود في دار كرامته، وإنقاذكم من عقابه وأليم

عذابه.

و أما قوله: "واتقوا الله إنّ الله عليم بذات الصدور"، فإنه وعيد من الله جل اسمه للمؤمنين كانوا برسوله ﷺ من أصحابه وتهذّباً لهم أن ينقضوا ميثاق الله الذي واثقهم به في رسوله وعهدهم الذي عاهدوه فيه بأن يضمروا له خلاف ما أبدوا له بألسنتهم..

يقول لهم جل ثناؤه: واتقوا الله، أيها المؤمنون، فخافوه أن تبدّلوا عهده وتنقضوا ميثاقه الذي واثقكم به، أو تخالفوا ما ضمتكم له بقولكم: "سمعنا وأطعنا"، بأن تضمروا له غير الوفاء بذلك في أنفسكم، فإن الله مطلع على ضمائر صدوركم وعالم بما تخفيه نفوسكم لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيحلّ بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به، كالذي حلّ بمن قبلكم من اليهود من المسخ وصنوف النقم، وتصيروا في معادكم إلى سخط الله وأليم عقابه.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدّي، واعملوا فيه بأمري.

وأما قوله: "ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا" فإنه يقول: ولا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة. وقد ذكرنا الرواية عن أهل التأويل في معنى قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] وفي قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢] واختلاف المختلفين في قراءة ذلك، والذي هو أولى بالصواب من القول فيه والقراءة بالأدلة الدالة على صحته، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقد قيل: إن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين همت اليهود بقتله.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨) قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: اعدلوا أيها المؤمنون، على كل أحد من الناس ولياً لكم كان أو عدواً، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه. وأما قوله: "هو أقرب للتقوى" فإنه يعني بقوله: "هو" العدل عليهم أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئاً من معاصيه.

وإنما وصف جل ثناؤه "العدل" بما وصفه به من أنه "أقرب للتقوى" من الجور، لأن من كان عادلاً كان لله بعدله مطيعاً، ومن كان لله مطيعاً، كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائراً كان لله عاصياً، ومن كان لله عاصياً، كان بعيداً من تقواه.

وأما قوله: "واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون"، فإنه يعني: واحذروا أيها المؤمنون، أن تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءه الذين بين لكم، فيحل بكم عقوبته، وتستوجبوا منه أليم نكاله "إن الله خبير بما تعملون"، يقول: إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، مُحْصِي ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم به جزاءكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات"، وعد الله أيها الناس الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به من عند ربهم، وعملوا بما واثقهم الله به، وأوفوا بالعقود التي عاقدهم عليها بقولهم: "لنسمعن ولنطيعن الله ورسوله" فسمعوا أمر الله ونهيه وأطاعوه، فعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه. ويعني بقوله: "لهم مغفرة" لهؤلاء الذين وفوا بالعقود والميثاق الذي واثقهم به ربهم "مغفرة" وهي ستر ذنوبهم السالفة منهم عليهم وتغطيتها بعفوه لهم عنها، وتركه عقوبتهم عليها وفضيحتهم بها "وأجر عظيم" يقول: ولهم مع عفوه لهم عن ذنوبهم السالفة منهم، جزاء على أعمالهم التي عملوها ووفائهم بالعقود التي عاقدوا ربهم عليها "أجر عظيم"، و"العظيم" من خيره غير محدود مبلغه، ولا يعرف منتهاه غيره تعالى ذكره.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "والذين كفروا" والذين جحدوا وحدانية الله، ونقضوا ميثاقه وعقوده التي عاقدوها إياه "وكذبوا بآياتنا" يقول: وكذبوا بأدلة الله وحججه الدالة على وحدانيته التي جاءت بها الرسل وغيرها "أولئك أصحاب الجحيم" يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم أهل "الجحيم"، يعني: أهل النار الذين يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبداً.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ

يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا" يا أيها الذين أقرؤا بتوحيد الله ورسالة رسوله ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم "اذكروا نعمة الله عليكم"، اذكروا النعمة التي أنعم الله بها عليكم، فاشكروه عليها بالوفاء له بميثاقه الذي واثقكم به، والعقود التي عاقدتم نبيكم ﷺ عليها. ثم وصف نعمته التي أمرهم

جل ثناؤه بالشكر عليها مع سائر نعمه، فقال، هي كفُّه عنكم أيدي القوم الذين همُّوا بالبطش بكم، فصرفهم عنكم، وحال بينهم وبين ما أرادوه بكم. ثم اختلف أهل التأويل في صفة هذه النعمة التي ذكر الله جل ثناؤه أصحاب نبيه ﷺ بها، وأمرهم بالشكر له عليها. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك، قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية، نعمته على المؤمنين به وبرسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيهم محمداً ﷺ مما كانت يهود بني النضير همت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم نبي الله ﷺ في الدية التي كان تحمّلها عن قتيلي عمرو بن أمية.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه: واحذروا الله، أيها المؤمنون أن تخالفوه فيما أمركم ونهاكم، وأن تنقضوا الميثاق الذي واثقكم به فتستوجبوا منه العقاب الذي لا قبل لكم به "وعلى الله فليتكمل المؤمنون" يقول: وإلى الله فليلق أزمّة أمورهم، ويستسلم لقضائه، ويثق بنصرته وعونه المقرون بوحدانيّة الله ورسالة رسوله، العاملون بأمره ونهيه، فإن ذلك من كمال دينهم وتمام إيمانهم وأنهم إذا فعلوا ذلك كلأهم ورعاهم وحفظهم ممن أرادهم بسوء، كما حفظكم ودافع عنكم، أيها المؤمنون اليهود الذين همُّوا بما همُّوا به من بسط أيديهم إليكم، كلاءةً منه لكم، إذ كنتم من أهل الإيمان به وبرسوله دون غيره، فإن غيره لا يطيق دَفْعُ سوءٍ أراد بكم ربكم ولا اجتلاب نفعٍ لكم لم يقضه لكم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَوَعَضْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَفِيسًا﴾ قال أبو جعفر: وهذه الآية أنزلت إعلامًا من الله جلّ ثناؤه نبيه ﷺ والمؤمنين به، أخلاق الذين همُّوا ببسط أيديهم إليهم من اليهود. وأن الذي هموا به من الغدر ونقض العهد الذي بينهم وبينه، من صفاتهم وصفات أوائلهم وأخلاقهم وأخلاق أسلافهم قديما واحتجاجا لنبيه ﷺ على اليهود، بإطلاعه إياه على ما كان علمه عندهم دون العرب من خفيّ أمورهم ومكنون علومهم وتوبيخا لليهود في تماديهم في الغي، وإصرارهم على الكفر، مع علمهم بخطأ ما هم عليه مقيمون. يقول الله لنبيه ﷺ: لا تستعظموا أمر الذين همُّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهود بما همُّوا به لكم، ولا أمر الغدر الذي حاولوه وأرادوه بكم، فإن ذلك من أخلاق أوائلهم وأسلافهم، لا يعدُّون أن يكونوا على منهاج أولهم وطريق سلفهم. ثم ابتدأ الخبر عز ذكره عن بعض عدّراتهم وخياناتهم وجرائمهم على ربهم ونقضهم ميثاقهم الذي واثقهم عليه بارئهم، مع نعمة التي خصَّهم بها، وكراماته التي طوّقهم شكرها، فقال، ولقد أخذ الله ميثاق سلف من هم ببسط يده إليكم من يهود بني إسرائيل، يا معشر المؤمنين بالوفاء له بعهوده وطاعته فيما أمرهم

ونهاهم "وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا" يعني بذلك: وبعثنا منهم اثني عشر كفيلا كفلا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه.

و"النقيب" في كلام العرب، كالعريف على القوم، غير أنه فوق "العريف".

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقال الله لبني إسرائيل: "إني معكم"، يقول: إني ناصركم على عدوكم وعدوي الذين أمرتكم بقتالهم، إن قاتلتموهم ووفيتهم بعهدي وميثاقي الذي أخذته عليكم. وفي الكلام محذوف، استغنى بما ظهر من الكلام عما حذف منه. وذلك أن معنى الكلام: وقال الله لهم إني معكم فترك ذكر "لهم"، استغناء بقوله: "ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل"، إذ كان متقدّم الخبر عن قوم مسمّين بأعيانهم، فكان معلوماً أن ما في سياق الكلام من الخبر عنهم، إذ لم يكن الكلام مصروفاً عنهم إلى غيرهم. ثم ابتدأ ربنا جل ثناؤه القسم فقال: قسماً لئن أقمتم، معشر بني إسرائيل، الصلاة "وآتيتم الزكاة"، أي: أعطيتموها من أمرتكم بإعطائها "وآمنتم برسلي" يقول: وصدّقتم بما آتاكم به رسلي من شرائع ديني. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "وعزّرتموهم".

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قول من قال: "معنى ذلك: نصرتموهم". وذلك أن الله جل ثناؤه قال في "سورة الفتح": ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨، ٩] ف"التوقير" هو التعظيم. وإذا كان ذلك كذلك كان القول في ذلك إنما هو بعض ما ذكرنا من الأقوال التي حكيناها عن حكيما عنه. وإذا فسد أن يكون معناه: التعظيم وكان النصر قد يكون باليد واللسان، فأما باليد فالذب بها عنه بالسيف وغيره، وأما باللسان فحُسن الثناء، والذب عن العرض صحّ أنه النصر، إذ كان النصر يحوي معنى كلّ قائل قال فيه قولاً مما حكينا عنه.

وأما قوله: "وأقرضتم الله قرضاً حسناً" فإنه يقول: وأنفقتم في سبيل الله، وذلك في جهاد عدوه وعدوكم "قرضاً حسناً" يقول: وأنفقتم ما أنفقتم في سبيله، فأصبتم الحق في إنفاقكم ما أنفقتم في ذلك، ولم تتعدوا فيه حدود الله وما ندبكم إليه وحثكم عليه إلى غيره.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دَخَلَتْكُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك بني إسرائيل، يقول لهم جل ثناؤه: لئن أقمتم الصلاة، أيها القوم الذين أعطوني ميثاقهم بالوفاء بطاعتي واتباع أمري، وآتيتم الزكاة، وفعلتم سائر ما وعدتكم عليه جنتي "لأنكفرن عنكم سيئاتكم"، يقول: لأعطين بعضي عنكم - وصفحي عن عقوبتكم، على سالف أجرامكم التي أجرمتموها فيما بيني وبينكم على ذنوبكم

التي سلفت منكم من عبادة العجل وغيرها من موبقات ذنوبكم "ولأدخلنكم" مع تغطيتي على ذلك منكم بفضلتي يوم القيامة "جنات تجري من تحتها الأنهار". فـ "الجنات" البساتين. وإنما قلت معنى قوله: "لَأَكْفَرَنَّ" لأعطين، لأن "الكفر" معناه الجحود، والتغطية، والستر وقوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجار هذه البساتين التي أدخلكموها الأنهار.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره: فمن جحد منكم، يا معشر بني إسرائيل، شيئاً مما أمرته به فتركه، أو ركب ما نهيته عنه فعمله بعد أخذي الميثاق عليه بالوفاء لي بطاعتي واجتناب معصيتي "فقد ضلَّ سواء السبيل" يقول: فقد أخطأ قصد الطريق الواضح، وزلَّ عن منهج السبيل القاصد. "والضلال"، الركوب على غير هدى، وقد بينا ذلك بشواهد في غير هذا الموضع.

وقوله "سواء" يعني به: وسط: و"السبيل"، الطريق.

وقد بينا تأويل ذلك كله في غير هذا الموضع، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَبِمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، لا تعجب من هؤلاء اليهود الذين همُّوا أن ييسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك، ونكثوا العهد الذي بينك وبينهم، غدرًا منهم بك وبأصحابك، فإن ذلك من عاداتهم وعادات سلفهم، ومن ذلك أني أخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى ﷺ على طاعتي، وبعثت منهم اثني عشر نقيبًا وقد تُخِيروا من جميعهم ليتحسَّسُوا أخبار الجبابرة، ووعدتهم النصر عليهم، وأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، بعد ما أريتهم من العبر والآيات - بإهلاك فرعون وقومه في البحر، وخلق البحر لهم، وسائر العبر - ما أريتهم، فنقضوا ميثاقهم الذي واثقوني ونكثوا عهدي، فلعنتمهم بنقضهم ميثاقهم. فإذا كان ذلك من فعل خيارهم مع أيادي عندهم، فلا تستنكروا مثله من فعل أراذلهم. وفي الكلام محذوف اكتُفي بدلالة الظاهر عليه، وذلك أن معنى الكلام: "فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل" - فنقضوا الميثاق، فلعنتمهم "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم" فاكتمى بقوله: "فبما نقضهم ميثاقهم" من ذكر "فنقضوا". ويعني بقوله جل ثناؤه: "فبما نقضهم ميثاقهم"، فنقضهم ميثاقهم، كما قال قتادة. وقد ذكرنا معنى "اللعن" في غير هذا الموضع. و"الهاء والميم" من قوله: "فبما نقضهم" عائدتان على ذكر بني إسرائيل قبل.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ قال أبو جعفر: اختلفت القراءة في قراءة ذلك. قال أبو جعفر: وأعجبُ القراءتين إليّ في ذلك، قراءة من قرأ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ على "فعيلة"، لأنها أبلغ في ذم القوم من "قاسية". وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من

تأوله: "فعيلة" من "القسوة"، كما قيل: "نفس زكية" و"زاكية"، و"امراة شاهدة" و"شهيدة"، لأن الله جل ثناؤه وصف القوم بنقضهم ميثاقهم وكفرهم به، ولم يصفهم بشيء من الإيمان، فتكون قلوبهم موصوفة بأن إيمانها يخالطه كفر، كالدراهم القسيّة التي يخالط فضّتها غشّ.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره:

وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودنا من بني إسرائيل قسيّة، منزوعا منها الخير، مرفوعا منها التوفيق، فلا يؤمنون ولا يهتدون، فهم لنزع الله عزّ وجلّ التوفيق من قلوبهم والإيمان، يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى ﷺ، وهو التوراة، فيبدّلونه، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله جل وعز على نبيهم، ثم يقولون لجهال الناس: "هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ، والتوراة التي أوحاها إليه". وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود، ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد ﷺ، ولكن الله عزّ ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدرك موسى منهم، إذ كانوا من أبنائهم وعلى مناهجهم في الكذب على الله، والفرية عليه، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة،

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: "ونسوا حظّا" وتركوا نصيبا، وهو كقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: تركوا أمر الله فتركهم الله. وقد مضى بيان ذلك بشواهد في غير هذا الموضع، فأغنى ذلك عن إعادته. وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ولا تزال يا محمد تطلع من اليهود الذين أنبأتك نبأهم، من نقضهم ميثاقهم، ونكثهم عهدي، مع أياديّ عندهم، ونعمتي عليهم على مثل ذلك من الغدر والخيانة "إلا قليلا منهم"، إلا قليلا منهم [لم يحزنوا]. و"الخائنة" في هذا الموضع: الخيانة، وُضع وهو اسم - موضع المصدر، كما قيل: "خاطئة"، للخطيئة و"قائلة" للقيولة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله عز ذكره نبيه محمدا ﷺ بالعفو عن هؤلاء القوم الذين همّوا أن يسطروا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جل وعز له: اعف، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين همّوا بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرّهم بترك التعرّض لمكروهم، فإني أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره: وأخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي وأداء فرائضي، واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقي الذي أخذته عليهم منهاج الأمة الضالة من اليهود، فبدلوا كذلك دينهم، ونقضوه نقضهم، وتركوا حظهم من ميثاقي الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي، وضيّعوا أمري

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَأَعَرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "فأعرينا بينهم" حرشنا بينهم وألقينا، كما تغري الشيء بالشيء. يقول جل ثناؤه: لما ترك هؤلاء النصارى، الذين أخذت ميثاقهم بالوفاء بعهدي، حظهم مما عهدت إليهم من أمري ونهيي، أغريت بينهم العداوة والبغضاء.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالآية عندي ما قاله الربيع بن أنس، وهو أن المعني بالإغراء بينهم، النصارى، في هذه الآية خاصة وأن "الهاء والميم" عائدتان على النصارى دون اليهود، لأن ذكر "الإغراء" في خبر الله عن النصارى، بعد تقضي خبره عن اليهود، وبعد ابتدائه خبره عن النصارى، فلأن يكون ذلك معنيًا به النصارى خاصة، أولى من أن يكون معنيًا به الحزبان جميعًا، لما ذكرنا. ثم اختلف أهل التأويل في صفة "إغراء الله عز ذكره بينهم العداوة، والبغضاء". فإن قال قائل: وما العداوة التي بين النصارى، فتكون مخصوصة بمعنى ذلك؟

قيل: ذلك عداوة النسطورية واليعقوبية، والملكية والملكية النسطورية واليعقوبية. وليس الذي قاله من قال: "معني بذلك: إغراء الله بين اليهود والنصارى" ببعيد، غير أن هذا أقرب عندي، وأشبه بتأويل الآية، لما ذكرنا.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: اعف عن هؤلاء الذين هموا بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك واصفح، فإن الله عز وجل من وراء الانتقام منهم، وسينبئهم الله عند ورودهم عليه في معادهم، بما كانوا في الدنيا يصنعون، من نقضهم ميثاقه، ونكثهم عهده، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم أمره ونهيه، فيعاقبهم على ذلك حسب استحقاقهم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره لجماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ: "يا أهل الكتاب" من اليهود والنصارى "قد جاءكم رسولنا"، يعني محمدًا ﷺ

وقوله: "يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب"، يقول: يبين لكم محمد رسولنا، كثيرا مما كنتم تكتمونه الناس ولا تبينونه لهم مما في كتابكم. وكان مما يخفونه من كتابهم فينبئهم رسول الله ﷺ للناس: رَجُمُ الزَّانِينَ المحصنين.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في تبين رسول الله ﷺ ذلك للناس، من إخفائهم ذلك من كتابهم. كالذي جاء عن ابن عباس قال، من كفر بالرجم، فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب. قوله: "يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب"، فكان الرجم مما أخفوا.

وقوله: "ويعفو عن كثير" يعني بقوله: "ويعفو"، ويترك أخذكم بكثير مما كنتم تخفون من كتابكم الذي أنزله الله إليكم، وهو التوراة، فلا تعملون به حتى يأمره الله بأخذكم به.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: "قد جاءكم"، يا أهل التوراة والإنجيل "من الله نور"، يعني بالنور، محمداً ﷺ الذي أثار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبين الحق. ومن إنارته الحق، تبينه لليهود كثيرا مما كانوا يخفون من الكتاب.

وقوله: "وكتاب مبين"، يقول: جل ثناؤه: قد جاءكم من الله تعالى النور الذي أثار لكم به معالم الحق، "وكتاب مبين"، يعني كتابا فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيد الله، وحلاله وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ، يبين للناس جميع ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، ويوضحه لهم، حتى يعرفوا حقه من باطله.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ قال أبو جعفر: يعني عز ذكره: يهدي بهذا الكتاب المبين الذي جاء من الله جل جلاله ويعني بقوله: "يهدي به الله"، يرشد به الله ويسدد به، و"الهاء" في قوله: "به" عائدة على "الكتاب" "من اتبع رضوانه"، يقول: من اتبع رضى الله. واختلف في معنى "الرضى" من الله جل وعز.

فقال بعضهم: الرضى منه بالشيء، القبول له والمدح والثناء. قالوا: فهو قابل الإيمان، ومُزَكَّ له، ومثني على المؤمن بالإيمان، وواصف الإيمان بأنه نور وهُدًى وفصل.

وقال آخرون: معنى "الرضى" من الله جل وعز، معنى مفهوم، هو خلاف السخط، وهو صفة من صفاته على ما يعقل من معاني: "الرضى" الذي هو خلاف السخط، وليس ذلك بالمدح، لأن المدح والثناء قول، وإنما شئني ويمدح ما قد رُضي. قالوا: فالرضا معنى،

و"النَّاء" و"المدح" معنًى ليس به.

ويعني بقوله: "سُبُلُ السَّلام"، طرق السَّلام و"السَّلام"، هو الله عزَّ ذكره.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره: يهدي الله بهذا الكتاب المبين، من اتبع رضوان الله إلى سبل السَّلام وشرائع دينه "ويخرجهم"، يقول: ويخرج من اتبع رضوانه و"الهَاء والميم" في: "ويخرجهم" إلى من ذُكر "من الظُّلمات إلى النور"، يعني: من ظلمات الكفر والشرك، إلى نور الإسلام وضيائه "بإذنه"، يعني: بإذن الله جل وعز. و"إذنه في هذا الموضع: تحببته إياه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سُبُل السَّلام.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني عز ذكره بقوله: "ويهديهم"، ويرشدهم ويسددهم "إلى صراط مستقيم"، يقول: إلى طريق مستقيم، وهو دين الله القويم الذي لا اعوجاج فيه.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال أبو جعفر: هذا ذمٌّ من الله عز ذكره للنصارى والنصرانية، الذين ضلُّوا عن سبل السَّلام واحتجاجٌ منه لنبيه محمد ﷺ في فريتهم عليه بادِّعائهم له ولدًا.

يقول جل ثناؤه: أقسم، لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم و"كفرهم" في ذلك، تغطيتهم الحق في تركهم نفي الولد عن الله جل وعز، وادِّعائهم أن المسيح هو الله، فرية وكذبًا عليه. وقد بينا معنى: "المسيح" فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه، لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للنصارى الذين افتروا عليّ، وضلُّوا عن سواء السبيل بقبيلهم: إن الله هو المسيح ابن مريم: "من يملك من الله شيئًا"، يقول: من الذي يطيق أن يدفع من أمر الله جل وعز شيئًا، فيردّه إذا قضاه. من قول القائل: "ملك على فلان أمره"، إذا صار لا يقدر أن ينفذ أمرًا إلا به.

وقوله: "إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا"، يقول: من ذا الذي يقدر أن يرد من أمر الله شيئًا، إن شاء أن يهلك المسيح بن مريم، بإعدامه من الأرض وإعدام أمه مريم، وإعدام جميع من في الأرض من الخلق جميعًا.

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الجهلة من النصارى: لو كان المسيح كما تزعمون أنه هو الله، وليس كذلك لقدر أن يردّ أمر الله إذا جاءه بإهلاكه وإهلاك أمه. وقد أهلك

أمه فلم يقدر على دفع أمره فيها إذ نزل ذلك. ففي ذلك لكم معتبرٌ إن اعتبرتم، وحجة عليكم إن عقلتم: في أن المسيح، بشر كسائر بني آدم، وأن الله عزَّ وجلَّ هو الذي لا يغلب ولا يقهر ولا يردُّ له أمر، بل هو الحيُّ الدائم القيُّوم الذي يحيي ويميت، وينشئ ويفني، وهو حي لا يموت.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ قال أبو

جعفر: يعني تبارك وتعالى بذلك: والله له تصريف ما في السموات والأرض وما بينهما يعني: وما بين السماء والأرض يهلك من يشاء من ذلك ويبقي ما يشاء منه، ويوجد ما أراد ويعدم ما أحب، لا يمنعه من شيء أراد من ذلك مانع، ولا يدفعه عنه دافع، يُنفذ فيهم حكمه، ويُمضي فيهم قضاءه لا المسيح الذي إن أراد إهلاكه ربُّه وإهلاك أمه، لم يملك دفع ما أراد به ربُّه من ذلك. يقول جل وعز: كيف يكون إلهاً يُعبد من كان عاجزاً عن دفع ما أراد به غيره من السوء، وغير قادرٍ على صرف ما نزل به من الهلاك؟ بل الإله المعبود، الذي له ملك كل شيء، وييده تصريف كل من في السماء والأرض وما بينهما. فقال جل ثناؤه: "وما بينهما"، وقد ذكر "السموات" بلفظ الجمع، ولم يقل: "وما بينهما"، لأن المعنى: وما بين هذين النوعين من الأشياء وقوله: "يخلق ما يشاء"، يقول جل ثناؤه: وينشئ ما يشاء ويوجده، ويخرجه من حال العدم إلى حال الوجود، ولن يقدر على ذلك غير الله الواحد القهار. وإنما يعني بذلك، أن له تدبير السموات والأرض وما بينهما وتصريفه، وإفناءه وإعدامه، وإيجاد ما يشاء مما هو غير موجود ولا مُنشأ. يقول: فليس ذلك لأحد سواي، فكيف زعمتم، أيها الكذبة، أن المسيح إله، وهو لا يطيق شيئاً من ذلك، بل لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه ولا عن أمه، ولا اجتلاب نفعٍ إليها إلا بإذني؟

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره:

الله المعبود، هو القادر على كل شيء، والمالك كل شيء، الذي لا يعجزه شيء أراد، ولا يغلبه شيء طلبه، المقتدر على هلاك المسيح وأمّه ومن في الأرض جميعاً لا العاجز الذي لا يقدر على منع نفسه من ضرر نزل به من الله، ولا منع أمّه من الهلاك.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

بذنوبكم﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل وعز عن قوم من اليهود والنصارى أنهم قالوا هذا القول. وقوله: "وأحبّاءه"، وهو جمع "حبيب".

يقول الله لنبيه محمد ﷺ: "قل" لهؤلاء الكذبة المفترين على ربهم "فلم يعذبكم ربكم، يقول: فلا شيء يعذبكم ربكم بذنوبكم، إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناءه وأحبّاءه، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم مقرّون أنه معذبكم؟ وذلك أن اليهود قالت: إن الله معذبنا

أربعين يوماً عدَدَ الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم يخرجنا جميعاً منها، فقال الله لمحمد ﷺ: قل لهم: إن كنتم، كما تقولون، أبناء الله وأحباؤه، فلم يعذبكم بذنوبكم؟ يعلمهم عز ذكره أنهم أهل فرية وكذب على الله جل وعز.

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لئيبه محمد ﷺ، قل لهم: ليس الأمر كما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه "بل أنتم بشر ممن خلق"، يقول: خلق من بني آدم، خلقكم الله مثل سائر بني آدم، إن أحسنتم جُوزيتهم بإحسانكم، كما سائر بني آدم مجزيون بإحسانهم، وإن أسأتم جُوزيتهم بإساءتكم، كما غيركم مجزيُّ بها، ليس لكم عند الله إلا ما لغيركم من خلقه، فإنه يغفر لمن يشاء من أهل الإيمان به ذنوبه، فيصفح عنه بفضلها، ويسترها عليه برحمته، فلا يعاقبه بها.

وقد بينا معنى "المغفرة"، في موضع غير هذا بشواهد، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع. "ويعذب من يشاء" يقول: ويعدل على من يشاء من خلقه فيعاقبه على ذنوبه، ويفضحه بها على رءوس الأشهاد فلا يسترها عليه. وإنما هذا من الله عزَّجَلَّ وعيد لهؤلاء اليهود والنصارى المتكلمين على منازل سلفهم الخيار عند الله، الذين فضلهم الله جل وعز بطاعتهم إياه، واجتباهم لمسارعتهم إلى رضاه، واصطبارهم على ما ناهيهم فيه. يقول لهم: لا تغتروا بمكان أولئك مني ومنازلهم عندي، فإنهم إنما نالوا ما نالوا مني بالطاعة لي، وإيثار رضاي على محابهم لا بالأمان، فجدُّوا في طاعتي، وانتهوا إلى أمري، وانزجروا عما نهيتهم عنه، فإني إنما أغفر ذنوب من أشاء أن أغفر ذنوبه من أهل طاعتي، وأعذب من أشاء تعذيبه من أهل معصيتي لا لمن قرَّبْتُ زُلْفَةً آبائه مني، وهو لي عدو، ولأمرني ونهيي مخالف.

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ قال أبو جعفر يقول: لله تدبير ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وتصريفه، وبيده أمره، وله ملكه، يصرفه كيف يشاء، ويدبره كيف أحب، لا شريك له في شيء منه، ولا لأحد معه فيه ملك. فاعلموا أيها القائلون: "نحن أبناء الله وأحباؤه"، أنه إن عذبكم بذنوبكم، لم يكن لكم منه مانع، ولا لكم عنه دافع، لأنه لا نسب بين أحد وبينه فيحاييه لسبب ذلك، ولا لأحد في شيء دونه ملك، فيحول بينه وبينه إن أراد تعذيبه بذنوبه، وإليه مصير كل شيء ومرجعه. فاتَّقوا أيها المفترون، عقابه إياكم على ذنوبكم بعد مرجعكم إليه، ولا تغتروا بالأمان وفضائل الآباء والأسلاف.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرْآنٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يا أهل

الكتاب"، اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مُهاجِر رسول الله ﷺ يوم نزلت هذه الآية. وذلك أنهم أو: بعضهم، فيما ذكر لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان به وبما جاءهم به من عند الله، قالوا: ما بعث الله من نبي بعد موسى، ولا أنزل بعد التوراة كتابًا!

ويعني بقوله جل ثناؤه: "فقد جاءكم رسولنا"، قد جاءكم محمد ﷺ رسولنا "يبين لكم"، يقول: يعرفكم الحق، ويوضح لكم أعلام الهدى، ويرشدكم إلى دين الله المرتضى "على فترة من الرسل"، يقول: على انقطاع من الرسل و"الفترة" في هذا الموضع الانقطاع يقول: قد جاءكم رسولنا يبين لكم الحق والهدى، على انقطاع من الرسل.

و"الفترة""الفعلة" من قول القائل: "فتر هذا الأمر يفتر فتورًا"، وذلك إذا هداً وسكن. وكذلك "الفترة" في هذا الموضع، معناها: السكون، يراد به سكون مجيء الرسل، وذلك انقطاعها. ثم اختلف أهل التأويل في قدر مدة تلك الفترة فقال قتادة: خمسمائة سنة وستون سنة. وكان الضحاك يقول في قوله: "على فترة من الرسل"، قال: كانت الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما، أربعمائة سنة وبضعًا وثلاثين سنة.

ويعني بقوله: "أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير" أن لا تقولوا، وكى لا تقولوا، كما قال جل ثناؤه: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضْلُوا﴾ [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا، وكى لا تضلوا. فمعنى الكلام: قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل، كى لا تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. يعلمهم عز ذكره أنه قد قطع عذرهم برسوله ﷺ، وأبلغ إليهم في الحجة.

ويعني بـ"البشير"، المبشر من أطاع الله وآمن به وبرسوله، وعمل بما آتاه من عند الله، بعظيم ثوابه في آخرته وبـ"النذير"، المنذر من عصاه وكذب رسوله ﷺ وعمل بغير ما آتاه من عند الله من أمره ونهيه، بما لا قبل له به من أليم عقابه في معاده، وشديد عذابه في قيامته.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بِشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لهؤلاء اليهود الذين وصفنا صفتهم: قد أعذرنا إليكم، واحتججنا عليكم برسولنا محمد ﷺ إليكم، وأرسلناه إليكم ليبين لكم ما أشكل عليكم من أمر دينكم، كيلا تقولوا: "لم يأتنا من عندك رسولٌ يبين لنا ما نحن عليه من الضلالة"، فقد جاءكم من عندي رسول يبشر من آمن بي وعمل بما أمرته وانتهى عما نهيته عنه، وينذر من عصاني وخالف أمري، وأنا القادر على كل شيء، أقدر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني، فانتقوا عقابي على معصيتكم إياي وتكذيبكم رسولي، واطلبوا ثوابي على طاعتكم إياي وتصديقكم بشيري ونذيري، فإني أنا الذي لا يعجزه شيء أراده، ولا يفوته شيء طلبه.

القول في تأويل عز ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أيضا من الله تعريفٌ لنبيه محمد ﷺ، قديمٌ تمادي هؤلاء اليهود في الغي، وبعدهم عن الحق، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم، وبطء إنباتهم إلى الرشاد، مع كثرة نعم الله عندهم، وتتابع أياديهِ وآلائهِ عليهم مسلِّياً بذلك نبيه محمداً ﷺ عما يحلُّ به من علاجهم، وينزل به من مقاساتهم في ذات الله. يقول الله له ﷺ: لا تأسَ على ما أصابك منهم، فإن الذهابَ عن الله، والبعد من الحق، وما فيه لهم الحظ في الدنيا والآخرة، من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم وتعزُّر بما لاقى منهم أخوك موسى ﷺ واذكُرْ إذ قال موسى لهم: "يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم"، يقول: اذكروا أيادي الله عندهم، وآلاءه قبلكم

القول في تأويل جل ثناؤه: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: أنَّ موسى ذكَّرَ قومه من بني إسرائيل بأيام الله عندهم، وبآلائه قبلهم، مُحَرِّضُهُمْ بذلك على اتباع أمر الله في قتال الجبارين، فقال لهم: اذكروا نعمة الله عليكم أنَّ فَضْلَكُمْ، بأن جعل فيكم أنبياء يأتونكم بوحيه، ويخبرونكم بأبناء الغيب، ولم يعط ذلك غيركم في زمانكم هذا. فقل: إن الأنبياء الذين ذكَّركم موسى أنهم جُعلوا فيهم: هم الذين اختارهم موسى إذ صار إلى الجبل، وهم السبعون الذين ذكرهم الله فقال: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

"وجعلكم ملوكاً" سخر لكم من غيركم خدماً يخدمونكم. وقيل: إنما قال ذلك لهم موسى، لأنه لم يكن في ذلك الزمان أحدٌ سواهم يخدمه أحد من بني آدم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَاتَّاکُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف فيمن عناه بهذا الخطاب. قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: "وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين"، في سياق قوله: "اذكروا نعمة الله عليكم"، ومعطوفٌ عليه. ولا دلالة في الكلام تدلُّ على أن قوله: "وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين" مصروف عن خطاب الذين ابتدئ بخطابهم في أول الآية. فإذا كان ذلك كذلك، فأَنْ يكون خطاباً لهم، أولى من أن يقال: هو مصروف عنهم إلى غيرهم. فإن ظن ظان أن قوله: "وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين"، لا يجوز أن يكون لهم خطاباً، إذ كانت أمة محمد قد أوتيت من كرامة الله جلَّ وعزَّ بنبيها ﷺ، محمداً، ما لم يؤت أحدٌ غيرهم، وهم من العالمين فقد ظنَّ غير الصواب. وذلك أن قوله: "وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين"، خطاب من موسى ﷺ لقومه يَوْمئِذٍ، وعنى بذلك عالمي زمانه، لا عالمي كل زمان. ولم يكن أوتي في ذلك الزمان من نِعَمِ الله وكرامته، ما أوتي قومه ﷺ، أحد من العالمين. فخرج الكلام منه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك، لا

على جميع عالم كل زمان.

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عز ذكره عن قول موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل، وأمره إياهم عن أمر الله إياه بأمرهم بدخول الأرض المقدسة. ثم اختلف أهل التأويل في الأرض التي عنها بـ"الأرض المقدسة". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: هي الأرض المقدسة، كما قال نبي الله موسى صلى الله عليه، لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض، لا تُدرك حقيقة صحته إلا بالخبر، ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به. غير أنها لن تخرج من أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر، لإجماع جميع أهل التأويل والسير والعلماء بالأخبار على ذلك. ويعني بقوله: "التي كتب الله لكم" التي أثبت في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن ومنازل دون الجبابة التي فيها.

فإن قال قائل: فكيف قال: "التي كتب الله لكم"، وقد علمت أنهم لم يدخلوها بقوله: "فإنها محرمة عليهم"؟ فكيف يكون مثبتا في اللوح المحفوظ أنها مساكن لهم، ومحرمة عليهم سكنها؟ قيل: إنها كتبت لبني إسرائيل داراً ومساكن، وقد سكنوها ونزلوها وصارت لهم، كما قال الله جل وعز. وإنما قال لهم موسى: "ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم"، يعني بها: كتبها الله لبني إسرائيل، وكان الذين أمرهم موسى بدخولها من بني إسرائيل ولم يعن ﷺ أن الله تعالى ذكره كتبها للذين أمرهم بدخولها بأعيانهم.

ولو قال قائل: قد كانت مكتوبة لبعضهم ولخاص منهم فأخرج الكلام على العموم، والمراد منه الخاص، إذ كان يوشع وكالب قد دخلا وكانا ممن خوطب بهذا القول كان أيضاً وجهاً صحيحاً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال ابن إسحاق.

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عز ذكره عن قيل موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل، إذ أمرهم عن أمر الله عز ذكره إياه بدخول الأرض المقدسة، أنه قال لهم: امضوا، أيها القوم، لأمر الله الذي أمركم به من دخول الأرض المقدسة "ولا تتردوا" يقول: لا ترجعوا القهقري مرتدين "على أدباركم" يعني: إلى ورائكم، ولكن امضوا قُدماً لأمر الله الذي أمركم به، من الدخول على القوم الذين أمركم الله بقتالهم والهجوم عليهم في أرضهم، وأن الله عز ذكره قد كتبها لكم مسكناً وقراراً. ويعني بقوله: "فانقلبوا خاسرين"، أي: تنصرفوا خائنين هُلكاً.

وقد بينا معنى "الخسارة" في غير هذا الموضع، بشواهد المغنية عن إعادته في هذا الموضع.

و عن قتادة، قوله: "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم" أمروا بها، كما أمروا بالصلاة والزكاة والحجَّ والعُمرة.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن جواب قوم موسى ﷺ، إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة: أنهم أبوا عليه إجابته إلى ما أمرهم به من ذلك، واعتلّوا عليه في ذلك بأن قالوا، إن في الأرض المقدسة التي تأمرنا بدخولها، قومًا جبارين لا طاقة لنا بجرهم، ولا قوة لنا بهم. وسموهم "جبارين"، لأنهم كانوا لشدة بطشهم وعظيم خلقهم، فيما ذكر لنا، قد قهروا سائر الأمم غيرهم. وأصل "الجبار"، المصلح أمر نفسه وأمر غيره، ثم استعمل في كل من اجترأ نفعا إلى نفسه بحق أو باطل طلب الإصلاح لها، حتى قيل للمتعدّي إلى ما ليس له بغيا على الناس، وقهرا لهم، وعتوا على ربه "جبار".

عن السدي في قصة ذكرها من أمر موسى وبني إسرائيل، قال، ثم أمرهم بالسير إلى أريحا وهي أرض بيت المقدس فساروا، حتى إذا كانوا قريبا منهم، بعث موسى اثني عشر نقيبا من جميع أسباط بني إسرائيل، فساروا يريدون أن يأتوه بخبر الجبارين، فلقىهم رجل من الجبارين، يقال له: "عاج"، فأخذ الاثنى عشر فجعلهم في حُجْزَتِهِ، وعلى رأسه حَمْلَةٌ حطب، وانطلق بهم إلى امرأته فقال، انظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا!! فطرحهم بين يديها، فقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: لا بل خلّ عنهم حتى يُخْبِرُوا قومهم بما رأوا!! ففعل ذلك.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عز ذكره عن قول قوم موسى لموسى، جوابا لقوله لهم: "ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم"، فقالوا: "إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها"، يعنون: حتى يخرج من الأرض المقدسة الجبارون الذين فيها، جبنا منهم، وجزعا من قتالهم. وقالوا له: إن يخرج منها هؤلاء الجبارون دخلناها، وإلا فإننا لا نطيق دخولها وهم فيها، لأنه لا طاقة لنا بهم ولا يدان.

كالذي جاء عن ابن إسحاق، أن كالب بن يافنا، أسكت الشعب عن موسى ﷺ فقال لهم: إنا سنعلو الأرض ونرثها، وإن لنا بهم قوّة! وأما الذين كانوا معه فقالوا: لا نستطيع أن نصل إلى ذلك الشعب، من أجل أنهم أجراً منا! ثم إن أولئك الجواسيس أخبروا بني إسرائيل الخبر، وقالوا: إنا مررنا في أرض وحسناها، فإذا هي تأكل ساكنها، ورأينا رجالها جساما، ورأينا الجبابرة بني الجبابرة، وكنا في أعينهم مثل الجراد! فأرجفت الجماعة من بني إسرائيل، فرفعوا

أصواتهم بالبكاء. فبكى الشعب تلك الليلة، ووسوسوا على موسى وهارون، فقالوا لهما: يا ليتنا متنا في أرض مصر! وليتنا نموت في هذه البرية، ولم يدخلنا الله هذه الأرض لننقذ في الحرب، فتكون نساؤنا وأبنائنا وأثقالنا غنيمة! ولو كنا قعوداً في أرض مصر، كان خيراً لنا وجعل الرجل يقول لأصحابه: تعالوا نجعل علينا رأساً ونصرف إلى مصر.

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عز ذكره عن الرجلين الصالحين من قوم موسى: "يوشع بن نون" و"كالب بن يافنا"، أنهما وفيًا لموسى بما عهد إليهما من ترك إعلام قومه بني إسرائيل الذين أمرهم بدخول الأرض المقدسة على الجبارة من الكنعانيين بما رأيا وعابنا من شدة بطش الجبارة وعظم خلقهم، ووصفهما الله عز وجل بأنهما ممن يخاف الله ويراقبه في أمره ونهيه

وأما قوله: "أنعم الله عليهما"، فإنه يعني: أنعم الله عليهم بطاعة الله في طاعة نبيه موسى صلى الله عليه، وانتهائهم إلى أمره، والانزجار عما زجرهما عنه ﷺ، من إفشاء ما عابنا من عجيب أمر الجبارين إلى بني إسرائيل، الذي حدث عنه أصحابهما الآخرون الذين كانوا معهم من النقباء.

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عز ذكره عن قول الرجلين اللذين يخافان الله لبني إسرائيل، إذ جئوا وخافوا من الدخول على الجبارين، لما سمعوا خبرهم، وأخبرهم النقباء الذين أفشوا ما عابنا من أمرهم فيهم، وقالوا: "إن فيها قومًا جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها"، فقالا لهم: ادخلوا عليهم، أيها القوم باب مدينتهم، فإن الله معكم، وهو ناصركم، وإنكم إذا دخلتم الباب غلبتموهم

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أيضًا خبر من الله جل وعز عن قول الرجلين اللذين يخافان الله، أنهما قالوا لقوم موسى يشجعانهم بذلك، ويرغبانهم في المضي لأمر الله بالدخول على الجبارين في مدينتهم توكلوا أيها القوم، على الله في دخولكم عليهم، فيقولان لهم: ثقوا بالله، فإنه معكم إن أطعتموه فيما أمركم من جهاد عدوكم. وعنيا بقولهما: "إن كنتم مؤمنين" إن كنتم مصدقي نبيكم ﷺ فيما أنباكم عن ربكم من النصر والظفر عليهم، وفي غير ذلك من إخباره عن ربه ومؤمنين بأن ربكم قادر على الوفاء لكم بما وعدكم من تمكينكم في بلاد عدوّه وعدوكم.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُ دَخَلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ذكره عن قول الملأ من قوم

موسى لموسى، إذ رُغِّبُوا في جهاد عدوِّهم، ووعدوا نصر الله إياهم إن هم ناهضوهم ودخلوا عليهم باب مدينتهم، أنهم قالوا له: "إننا لن ندخلها أبداً" يعنون: إننا لن ندخل مدينتهم أبداً.

ويعنون بقولهم: "أبداً"، أيام حياتنا "ما داموا فيها"، يعنون: ما كان الجبارون مقيمين في تلك المدينة التي كتبها الله لهم وأمروا بدخولها "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"، لا نجيء معك يا موسى إن ذهبت إليهم لقتالهم، ولكن نترك تذهب أنت وحدك وربك فتقاتلناهم. وجاء أن المقداد بن الأسود قال للنبي ﷺ: إنا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون.

وكان ابن عباس والضحاك بن مزاحم وجماعة غيرهما يقولون: إنما قالوا هذا القول لموسى عليه السلام، حين تبين لهم أمر الجبارين وشدة بطشهم.

وعن عبيد بن سليمان قال، سمعت الضحاك يقول: أمر الله جل وعز بني إسرائيل أن يسيروا إلى الأرض المقدسة مع نبيهم موسى عليه السلام، فلما كانوا قريباً من المدينة قال لهم موسى: "ادخلوها"، فأبوا وجبنوا، وبعثوا اثني عشر نقيباً لينظروا إليهم، فانطلقوا فنظروا فجاءوا بحبة فاكهة من فاكهتهم بوقر الرجل، فقالوا: اقدروا قوة قوم وبأسهم هذه فاكهتهم! فعند ذلك قالوا لموسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون".

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل وعز عن قيل قوم موسى حين قال له قومه ما قالوا، من قولهم: "إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون" أنه قال عند ذلك، وغضب من قيلهم له، داعياً: يا رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي يعني بذلك، لا أقدر على أحد أن أحمله على ما أحب وأريد من طاعتك وأتباع أمرك ونهيك، إلا على نفسي وعلى أخي. ويعني بقوله: "فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين"، افصل بيننا وبينهم بقضاء منك تقضيه فينا وفيهم فتبعدهم منا.

وعنى بقوله: "الفاسقين" الخارجين عن الإيمان بالله وبه إلى الكفر بالله وبه. وقد دللنا على أن معنى "الفسق"، الخروج من شيء إلى شيء، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الناصب لـ "الأربعين".

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: إن "الأربعين" منصوبة بـ "التحريم" وإن قوله: "محرمة عليهم أربعين سنة"، معنيٌّ به جميع قوم موسى، لا

بعض دون بعض منهم. لأن الله عز ذكره عمَّ بذلك القوم، ولم يخصص منهم بعضاً دون بعض. وقد وفى الله جل ثناؤه بما وعدهم به من العقوبة، فتيههم أربعين سنة، وحرم على جميعهم، في الأربعين سنة التي مكثوا فيها تائهيهم، دخول الأرض المقدسة، فلم يدخلها منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا صالح ولا طالح، حتى انقضت السنون التي حرم الله عز وجل عليهم فيها دخولها. ثم أذن لمن بقي منهم وذريتهم بدخولها مع نبي الله موسى والرجلين اللذين أنعم الله عليهما، وافتتح قرية الجبارين، إن شاء الله، نبي الله موسى ﷺ، وعلى مقدمته يوشع، وذلك لإجماع أهل العلم بأخبار الأولين أن عوج بن عناق قتله موسى ﷺ. فلو كان قتله إياه قبل مصيره في التيه، وهو من أعظم الجبارين خلقاً، لم تكن بنو إسرائيل تجزَع من الجبارين الجزع الذي ظهر منها. ولكن ذلك كان، إن شاء الله، بعد فناء الأمة التي جزعت وعصت ربها، وأبت الدخول على الجبارين مدينتهم.

وبعد: فإن أهل العلم بأخبار الأولين مجمعون على أن بلعم بن باعور، كان ممن أعان الجبارين بالدعاء على موسى. ومحال أن يكون ذلك كان وقوم موسى ممتنعون من حربهم وجهادهم، لأن المعونة إنما يحتاج إليها من كان مطلوباً، فأما ولا طالب، فلا وجه للحاجة إليها. ومعنى: "يتيهون في الأرض"، يحارون فيها ويضلون ومن ذلك قيل للرجل الضال عن سبيل الحق: "تائه". وكان تيههم ذلك: أنهم كانوا يصبحون أربعين سنة كل يوم جادين في قدر ستة فراسخ للخروج منه، فيمسون في الموضع الذي ابتدأوا السير منه.

القول في تاويل قوله جل ثناؤه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فلا تأس"، فلا تحزن.

القول في تاويل قوله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واتل على هؤلاء اليهود الذين هموا أن يسطوا أيديهم إليكم، وعلى أصحابك معك وعرفهم مكروه عاقبة الظلم والمكر، وسوء مغبة الخثر ونقض العهد، وما جزاء الناكث وثواب الوافي خبر ابني آدم، هابيل وقابيل، وما آل إليه أمر المطيع منهما ربّه الوافي بعهده، وما إليه صار أمر العصي منهما ربّه الخائر الناقض عهده. فلتعرف بذلك اليهود وخامة غبّ غدّهم ونقضهم ميثاقهم بينك وبينهم، وهمهم بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإن لك ولهم في حسن ثوابي وعظم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتول الوافي بعهده من ابني آدم، وعاقبت به القاتل الناكث عهده عزاءً جميلاً.

واختلف أهل العلم في سبب تقرب ابني آدم القربان، وسبب قبول الله عز وجل ما تقبل منه،

وَمَنِ اللَّذَانِ قَرَبَا؟

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، أن اللذين قَرَبَا القربان كانا ابني آدم لصلبه، لا من ذريته من بني إسرائيل. وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة، والمخاطبون بهذه الآية كانوا عالمين أن تقريب القربان لله لم يكن إلا في ولد آدم، دون الملائكة والشیاطين وسائر الخلق غيرهم. فإذا كان معلوماً ذلك عندهم، فمعمول أنه لو لم يكن معنياً بـ"ابني آدم" اللذين ذكرهما الله في كتابه، ابتناءً لصلبه، لم يفدّهم بذكره جل جلاله إياهما فائدة لم تكن عندهم. وإذا كان غير جائز أن يخاطبهم خطاباً لا يفيدهم به معنى، فمعلوم أنه عني بـ"ابني آدم"، [ابني آدم لصلبه]، لا بني بنيه الذين بعد منه نسبهم، مع إجماع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل، على أنهما كانا ابني آدم لصلبه، وفي عهد آدم وزمانه، وكفى بذلك شاهداً. كالذي جاء عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم أمر ابنه قابيل أن يُنكِحَ أخته تُوْمَةُ هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته تُوْمَةَ قابيل، فسلم لذلك هابيل ورضي، وأبى قابيل ذلك وكره، تكرماً عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحن ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي! ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قابيل من أحسن الناس، فضن بها عن أخيه وأرادها لنفسه. فالله أعلم أي ذلك كان فقال له أبوه: يا بني إنها لا تحل لك! فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه، فقال له أبوه: يا بني فقرب قرباناً، ويقرب أخوك هابيل قرباناً، فأيكما قبل الله قربانه فهو أحق بها. وكان قابيل على بدو الأرض، وكان هابيل على رعاية الماشية، فقرب قابيل قمحاً وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه وبعضهم يقول: قرب بقرة فأرسل الله جل وعز ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، وبذلك كان يُقبَلُ القربان إذا قبله.

قال أبو جعفر: وأما القول في تقريبهما ما قَرَبَا، فإن الصواب فيه من القول أن يقال: إن الله عز ذكره أخبر عباده عنهما أنهما قد قربا، ولم يخبر أن تقريبهما ما قَرَبَا كان عن أمر الله إياهما به، ولا عن غير أمره. وجائز أن يكون كان عن أمر الله إياهما بذلك وجائز أن يكون عن غير أمره. غير أنه أي ذلك كان، فلم يقربا ذلك إلا طلب قرابة إلى الله إن شاء الله.

وأما تأويل قوله: "قال لأقتلنك"، فإن معناه: قال الذي لم يُتَقَبَّلْ منه قربانه، والذي تُقَبَّلْ منه قربانه: "لأقتلنك"، فترك ذكر: "المتقبل قربانه" و"المردود عليه قربانه"، استغناء بما قد جرى من ذكرهما عن إعادته. وكذلك ترك ذكر "المتقبل قربانه" مع قوله، "قال إنما يتقبل الله من المتقين".

ويعني بقوله: "من المتقين"، من الذين اتقوا الله وخافوه، بأداء ما كلفهم من فرائضه،

واجتناب ما نهاهم عنه من معصيته.

وكانت قرايين الأمم الماضية قبل أمتنا، كالصدقات والزكوات فينا، غير أن قرايينهم كان يُعلم المتقبل منها وغير المتقبل فيما ذكر بأكل النار ما تُقبل منها، وترك النار ما لم يُتقبل منها. و"القربان" في أمتنا، الأعمال الصالحة، من الصلاة، والصيام، والصدقة على أهل المسكنة، وأداء الزكاة المفروضة. ولا سبيل لها إلى العلم في عاجل بالمتقبل منها والمردود.

وقد ذكر عن عامر بن عبد الله العنبري، أنه حين حضرته الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقد كنتَ وكنتَ! فقال: يبكيني أنني أسمع الله يقول: "إنما يتقبل الله من المتقين".

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ يَدِي إِلَيْكَ لَا قُتْلُكَ لِي﴾^(١٧٩) قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن المقتول من ابني آدم أنه قال لأخيه لما قال له أخوه القاتل: لأقتلنك: والله "لئن بسطت إلي يديك"، يقول: مددت إلي يديك "لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك"، يقول: ما أنا بما دادي إليك "لأقتلك".

وقد اختلف في السبب الذي من أجله قال المقتول ذلك لأخيه، ولم يمانعه ما فعل به.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز ذكره قد كان حرم عليهم قتل نفس بغير نفس ظلماً، وأن المقتول قال لأخيه: "ما أنا بباسط يدي إليك إن بسطت إلي يديك"، لأنه كان حراماً عليه من قتل أخيه مثل الذي كان حراماً على أخيه القاتل من قتله. فأما الامتناع من قتله حين أراد قتله، فلا دلالة على أن القاتل حين أراد قتله وعزم عليه، كان المقتول عالماً بما هو عليه عازمٌ منه ومحاولٌ من قتله، فترك دفعه عن نفسه. بل قد ذكر جماعة من أهل العلم أنه قتله غيلةً، اغتاله وهو نائم، فشدخ رأسه بصخرة. فإذا كان ذلك ممكناً، ولم يكن في الآية دلالة على أنه كان مأموراً بترك منع أخيه من قتله، يكون جائزاً ادعاء ما ليس في الآية، إلا برهان يجب تسليّمه.

وأما تأويل قوله: "إني أخاف الله رب العالمين" فإنه: إني أخاف الله في بسط يدي إليك إن بسطتها لقتلك "رب العالمين"، يعني: مالك الخلائق كلها أن يعاقبني على بسط يدي إليك.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(١٨٠) قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن تأويله: إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله: "إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك"، وأما معنى: "وإثمك"، فهو إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله جل ثناؤه في أعمالٍ سواه.

وإنما قلنا ذلك هو الصواب، لإجماع أهل التأويل عليه. لأن الله عز ذكره قد أخبرنا أن كل عامل فيجزأ عمله له أو عليه. وإذا كان ذلك حكمه في خلقه، فغير جائز أن يكون آثام المقتول مأخوذًا بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبتها بنفسه، دون ما ركبته قتيلاً. ويعني بقوله: "فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين"، يقول: فتكون بقتلك إياي من سكان الجحيم، ووقود النار المخلدن فيها "وذلك جزاء الظالمين"، يقول: والنار ثوابُ التاركين طريق الحق، الزائلين عن قصد السبيل، المتعدّين ما جُعِلَ لهم إلى ما لم يجعل لهم. وهذا يدل على أن الله عز ذكره قد كان أمر ونهى آدم بعد أن أهبته إلى الأرض، ووعد وأوعد. ولولا ذلك ما قال المقتول للقاتل: "فتكون من أصحاب النار" بقتلك إياي، ولا أخبره أن ذلك جزاء الظالمين. فكان مجاهد يقول: علّقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذاها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

وعن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كفلٌ منها، ذلك بأنه أول من سنّ القتل.

القول في تأويل قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "فطوّعت" فآتته وساعدته عليه. وهو "فعّلت" من "الطوع"، من قول القائل: "طاعني هذا الأمر"، إذا انقاد له. وأما قوله: "فأصبح من الخاسرين"، فإن تأويله: فأصبح القاتل أخاه من ابني آدم، من حزب الخاسرين، وهم الذين باعوا آخرتهم بدنياهم، بإيثارهم إياها عليها، فوكسوا في بيعهم، وغبنوا فيه، وخابوا في صفقتهم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

وتأويل الآية كما جاء عن ابن عباس وعن مرة، عن عبد الله وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: لما مات الغلام تركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن. فبعث الله جل وعزّ غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثا عليه. فلما رآه قال: "يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سَوْأَةَ أَخِي"، فهو قول الله: "فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سَوْأَةَ أَخِيهِ". قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: فأثار الله للقاتل إذ لم يدر ما يصنع بأخيه المقتول "غرابًا يبحث في الأرض"، يقول: يحفر في الأرض، فيثير ترابها "ليريه كيف يواري سَوْأَةَ أَخِيهِ"، يقول: ليريه كيف يواري جيفة أخيه. وكل ما ذكر الله عزّ وجلّ في هذه الآيات، مثل ضربه الله عز ذكره لبني آدم، وحرّض به المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ على

استعمال العفو والصفح عن اليهود الذين كانوا هموا بقتل النبي ﷺ وقتلهم من بني النضير، إذ أتوهم يستعينونهم في دية قتيلي عمرو بن أمية الضمري، وعرفهم جل وعز رداءة سجيّة أوائلهم، وسوء استقامتهم على منهج الحق، مع كثرة أيادي وآلته عندهم. وضرب مثلهم في غدرهم، ومثل المؤمنين في الوفاء لهم والعفو عنهم، بابني آدم المقرّبين قرايينهما، اللذين ذكرهما الله في هذه الآيات. ثم ذلك مثل لهم على التأسّي بالفاضل منهما دون الطالح. وبذلك جاء الخبر عن رسول الله ﷺ. فعن المعتمر بن سليمان، عن أبيه قال، قلت لبكر بن عبد الله، أما بلغك أن نبيّ الله ﷺ قال: "إن الله جل وعز ضرب لكم ابني آدم مثلاً فخذوا خيرهما ودعوا شرهما؟" قال: بلى.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "من أجل ذلك"، من جرّ ذلك وجريته وجنايته. يقول: من جرّ القاتل أخاه من ابني آدم اللذين اقتصصنا قصتهما الجريّة التي جرّها، وجنايته التي جناها "كتبنا على بني إسرائيل". يقال منه: "أجلت هذا الأمر"، أي: جررته إليه وكسبته يعني بقوله: "أنا أجله"، أنا الجارّ ذلك عليه والجاني.

فمعنى الكلام: من جنابة ابن آدم القاتل أخاه ظلماً، حكمنا على بني إسرائيل أنه من قتل منهم نفساً ظلماً، بغير نفس قتلت، فقتل بها قصاصاً "أو فساد في الأرض"، يقول: أو قتل منهم نفساً بغير فساد كان منها في الأرض، فاستحققت بذلك قتلها. و"فسادها في الأرض"، إنما يكون بالحرب لله ولرسوله، وإخافة السبيل.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله جل ثناؤه: "من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: تأويل ذلك: أنه من قتل نفساً مؤمنة بغير نفس قتلتها فاستحققت القود بها والقتل قصاصاً أو بغير فساد في الأرض، بحرب الله ورسوله وحرب المؤمنين فيها فكأنما قتل الناس جميعاً فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه، كما أوعده ذلك من فعله ربّه بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وأما قوله: "ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً" فأولى التأويلات به، قول من قال: من حرّم قتل من حرّم الله عز ذكره قتله على نفسه، فلم يتقدّم على قتله، فقد حيى الناس منه بسلامتهم منه، وذلك إحياءه إياها. وذلك نظير خبر الله عز ذكره عمن حاج إبراهيم في ربّه إذ

قال له إبراهيم: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فكان معنى الكافر في قوله: "أنا أحيي"، أنا أترك من قَدَرْتُ على قتله - وفي قوله: "وأُمِيت"، قتله من قتله. فكَذلك معنى "الإحياء" في قوله: "ومن أحيّاها"، من سلّم الناس من قتله إياهم، إلا فيما أذن الله في قتله منهم "فكأنما أحيى الناس جميعاً".

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم به: أن رسله صلوات الله عليهم قد أتت بني إسرائيل الذين قصّ الله قصصهم وذكر نبأهم في الآيات التي تقدّمت، من قوله: "يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم" إلى هذا الموضوع "بالبينات"، يعني: بالآيات الواضحة والحجج البيّنة على حقيقة ما أرسلوا به إليهم، وصحة ما دعوهم إليه من الإيمان بهم، وأداء فرائض الله عليهم.

يقول الله عز ذكره: "ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون"، يعني: أن كثيراً من بني إسرائيل. و"الهاء والميم" في قوله: "ثم إن كثيراً منهم"، من ذكر بني إسرائيل، وكذلك ذلك في قوله: "ولقد جاءتهم". "بعد ذلك"، يعني: بعد مجيء رسل الله بالبينات. "في الأرض لمسرفون"، يعني: أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمر الله ونهيه، ومحادّو الله ورسله، باتباعهم أهواءهم. وخلافهم على أنبيائهم، وذلك كان إسرافهم في الأرض.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا بيان من الله عز ذكره عن حكم "الفساد في الأرض"، الذي ذكره في قوله: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض" أعلم عباده: ما الذي يستحق المفسد في الأرض من العقوبة والנקال، فقال تبارك وتعالى: لا جزاء له في الدنيا إلا القتل، والصلب، وقطع اليد والرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، خزيًا لهم. وأما في الآخرة إن لم يتب في الدنيا، فعذاب عظيم. ثم اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي أن يقال: أنزل الله هذه الآية على نبيه ﷺ، معرّفه حكمه على من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فسادًا، بعد الذي كان من فعل رسول الله ﷺ بالعريّين ما فعل. وإذ كان ذلك أولى بالآية لما وصفنا، فتأويلها: من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل، أنه من قتل نفساً بغير نفس، أو سعى بفسادٍ في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحيّاها فكأنما أحيى الناس جميعاً ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون - يقول: لساعون في الأرض بالفساد، وقاتلوا النفوس بغير نفس، وغير سعي في الأرض بالفساد حرباً لله ولرسوله فمن فعل ذلك منهم، يا محمد، فإنما

جزاؤه: أن يقتلوا، أو يصلبوا، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض.
وقد اختلف أهل العلم في نسخ حكم النبي ﷺ في العرنيين.

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: "المحارب لله ورسوله"، من حارب في سابلة المسلمين ودمتهم، والمغير عليهم في أمصارهم وقراهم حِرابَة.

وأما قوله: "ويسعون في الأرض فساداً"، فإنه يعني: ويعملون في أرض الله بالمعاصي: من إخافة سُبُل عباده المؤمنين به، أو سُبُل دمتهم، وقطع طرقهم، وأخذ أموالهم ظلماً وعدواناً، والتوثب على حرمهم فجوراً وفُسوقاً.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما للذي حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، من أهل ملة الإسلام أو دمتهم - إلا بعض هذه الخلال التي ذكرها جل ثناؤه.

ثم اختلف أهل التأويل في هذه الخلال، أتلزم المحارب باستحقاقه اسم "المحاربة"، أم يلزمه ما لزمه من ذلك على قدر جُرْمه، مختلفاً باختلاف أجرامه؟

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، تأويل من أوجب على المحارب من العقوبة على قدر استحقاقه، وجعل الحكم على المحاربين مختلفاً باختلاف أفعالهم. فأوجب على مُخِيف السبيل منهم إذا قُدِرَ عليه قبل التوبة، وقبل أخذ مالٍ أو قتل النفي من الأرض. وإذا قُدِرَ عليه بعد أخذ المال وقتل النفس المحرم قتلها الصلب، لما ذكرت من العلة قبل لقائلي هذه المقالة. فتأويله: إن الذي يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فساداً، لن يخلو من أن يستحق الجزاء بإحدى هذه الخلال الأربع التي ذكرها الله عز ذكره لا أن الإمام محكم فيه ومخير في أمره كائناً ما كانت حالته، عظمت جريرته أو خفّت، لأن ذلك لو كان كذلك، لكان للإمام قتل من شَهِر السلاح مخيفاً السبيل وصلبته، وإن لم يأخذ مالاً ولا قتل أحداً، وكان له نفي من قتل وأخذ المال وأخاف السبيل. وذلك قولٌ إن قاله قائل، خلاف ما صحّت به الآثار عن رسول الله ﷺ من قوله: "لا يحل دَمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل قتل رجلاً فقتل به، أو زنى بعد إحصان فرجم، أو ارتدّ عن دينه" وخلاف قوله: "القطع في رُبُع دينارٍ فصاعداً"، وغير المعروف من أحكامه.

وأما قوله: "أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف"، فإنه يعني به جل ثناؤه: أنه تقطع أيديهم مخالفاً في قطعها قطع أرجلهم. وذلك أن تقطع أيمن أيديهم، وأشمل أرجلهم. فذلك "الخلاف" بينهما في القطع.

ولو كان مكان "من" في هذا الموضع "على" أو "الباء"، فقول: "أو تقطع أيديهم وأرجلهم على خلاف أو: بخلاف"، لأدّى عما أدّت عنه "من" من المعنى.

واختلف أهل التأويل في معنى "النفي" الذي ذكر الله في هذا الموضع.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى "النفي" من الأرض، في هذا الموضع، هو نفيه من بلد إلى بلد غيره، وحَبْسُهُ في السجن في البلد الذي نفي إليه، حتى تظهر توبته من فسوقه، ونزوعه عن معصيته ربّه.

وأما معنى "النفي"، في كلام العرب، فهو الطرد

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "ذلك"، هذا الجزاء الذي جازيت به الذين حاربوا الله ورسوله، وسعوا في الأرض فسادًا في الدنيا، من قتل أو صلب أو قطع يد ورجل من خلاف "لهم"، يعني: لهؤلاء المحاربين "خزي في الدنيا"، يقول: هو لهم شرٌّ وعار وذلةً، ونكال وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: "ولهم في الآخرة عذاب عظيم"، يقول عز ذكره: لهؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادًا، فلم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا في الآخرة، مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها "عذاب عظيم"، يعني: عذاب جهنم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: توبة المحارب الممتنع بنفسه أو بجماعة معه قبل القدرة عليه، تضع عنه تبعات الدنيا التي كانت لزمته في أيام حربه وجرباته، من حدود الله، وعُزْم لازم، وقود وقصاص، إلا ما كان قائمًا في يده من أموال المسلمين والمعاهدين بعينه، فيردّ على أهله لإجماع الجميع على أن ذلك حكم الجماعة الممتنعة المحاربة لله ولرسوله، الساعية في الأرض فسادًا على وجه الردة عن الإسلام. فكذا ذلك حكم كل ممتنع سعى في الأرض فسادًا، جماعة كانوا أو واحدًا.

فأما المستخفي بسرقة، والمتلصص على وجه اغتفال من سرقة، والشاهر السلاح في خلاء على بعض السابلة، وهو عند الطلب غير قادر على الامتناع، فإن حكم الله عليه تاب أو لم يتب ماضٍ، وبحقوق من أخذ ماله، أو أصاب وليّه بدم أو ختل مأخوذ، وتوبته فيما بينه وبين الله جل وعزّ قياَسًا على إجماع الجميع على أنه لو أصاب شيئًا من ذلك وهو للمسلمين سلّم، ثم صار

لهم حرباً، أن حربه إياهم لن يضع عنه حقاً لله عز ذكره، ولا لآدمي، فكذلك حكمه إذا أصاب ذلك في خلاء أو باستخفاء، وهو غير ممتنع من السلطان بنفسه إن أَراده، ولا له فئة يلجأ إليها مانعةً منه.

وفي قوله: "إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم"، دليل واضح لمن وُفّق لفهمه، أن الحكم الذي ذكره الله جل وعزّ في المحاربين، يجري في المسلمين والمعاهدين، دون المشركين الذين قد نصبوا للمسلمين حرباً، وذلك أن ذلك لو كان حكماً في أهل الحرب من المشركين، دون المسلمين ودون ذمتهم، لوجب أن لا يُسقط إسلامهم عنهم إذا أسلموا أو تابوا بعد قدرتنا عليهم ما كان لهم قبل إسلامهم وتوبتهم من القتل، وما للمسلمين في أهل الحرب من المشركين. وفي إجماع المسلمين أن إسلام المشرك الحربيّ يضع عنه، بعد قدرة المسلمين عليه، ما كان واضعه عنه إسلامه قبل القدرة عليه ما يدلّ على أن الصحيح من القول في ذلك قول من قال: "عنى بأية المحاربين في هذا الموضع، حُرّاب أهل الملة أو الذمة، دون من سواهم من مشركي أهل الحرب".

وأما قوله: "فاعلموا أن الله غفور رحيم"، فإن معناه: فاعلموا أيها المؤمنون، أن الله غير مؤاخِذٍ من تاب من أهل الحرب لله ولرسوله، الساعين في الأرض فساداً، وغيرهم بذنوبه، ولكنه يعفو عنه فيسترها عليه، ولا يفضحه بها بالعقوبة في الدنيا والآخرة رحيم به في عفوه عنه، وتركه عقوبته عليها.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعد من الثواب وأوعد من العقاب "اتقوا الله" يقول: أجبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبّيكم بالصالح من أعمالكم "وابتغوا إليه الوسيلة"، يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه.

و"الوسيلة": هي "الفيلة" من قول القائل: "توسلت إلى فلان بكذا"، بمعنى: تقرّبت إليه

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه للمؤمنين به وبرسوله: وجاهدوا، أيها المؤمنون، أعدائي وأعداءكم في سبيلي، يعني في دينه وشريعته التي شرعها لعباده، وهي الإسلام. يقول: اتّعبوا أنفسكم في قتالهم وحملهم على الدخول في الحنيفية المسلمة، "لعلكم تفلحون"، يقول: كيما تنجحوا، فتدركوا البقاء الدائم والخلود في جناته.

وقد دللنا على معنى "الفلاح" فيما مضى بشواهد، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول عز ذكره: إن الذين جحدوا ربوبيه ربهم وعبدوا غيره، من بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ومن غيرهم الذين عبدوا الأوثان والأصنام، وهلكوا على ذلك قبل التوبة لو أن لهم ملك ما في الأرض كلها وضعفه معه، ليفتدوا به من عقاب الله إياهم على تركهم أمره، وعبادتهم غيره يوم القيامة، فافتدوا بذلك كله، ما تقبل الله منهم ذلك فداءً وعوضاً من عذابهم وعقابهم، بل هو معدّهم في حميم يوم القيامة عذاباً موجعاً لهم. وإنما هذا إعلالٌ من الله جل ثناؤه لليهود الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرين رسول الله ﷺ: أنهم وغيرهم من سائر المشركين به، سواءً عنده فيما لهم من العذاب الأليم والعقاب العظيم. وذلك أنهم كانوا يقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، اغتراراً بالله جل وعزّ وكذباً عليه. فكذبهم تعالى ذكره بهذه الآية وبالتي بعدها، وحسم طمعهم، فقال لهم ولجميع الكفرة به وبرسوله: "إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم"، يقول لهم جل ثناؤه: فلا تطمعوا أيها الكفرة في قبول الفدية منكم، ولا في خروجكم من النار بوسائل آبائكم عندي بعد دخولكموها، إن أنتم متمدن على كفركم الذي أنتم عليه، ولكن توبوا إلى الله توبةً نصوحاً.

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "يريدون أن يخرجوا من النار"، يريد هؤلاء الذين كفروا برهم يوم القيامة، أن يخرجوا من النار بعد دخولها، وما هم بخارجين منها" لهم عذاب مقيم" أن يقول: لهم عذاب دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبداً

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: ومن سرق من رجل أو امرأة، فاقطعوا أيها الناس، يده ولذالك رفع "السارق والسارقة"، لأنهما غير معيّنين. ولو أريد بذلك سارق وسارقة بأعيانهما، لكان وجه الكلام النصب. وقال تعالى ذكره: "فاقطعوا أيديهما"، والمعنى: أيديهما اليمنى ثم اختلفوا في "السارق" الذي عناه الله عز ذكره. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، قول من قال: "الآية معني بها خاص من السراق، وهم سراق ربع دينار فصاعداً أو قيمته"، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: "القطع في ربع دينار فصاعداً". وقد استقصيت ذكر أقوال المختلفين في ذلك مع عللهم التي اعتلوا بها لأقوالهم، والبيان عن أولها بالصواب، بشواهد، في كتابنا "كتاب السرقة"، فكرهنا إطالة الكتاب بإعادة

ذلك في هذا الموضع.

وقوله: "جزاء بما كسبا نكالا من الله"، يقول: مكافأةً لهما على سرقتهما وعملهما في التلصص بمعصية الله "نكالا من الله" يقول: عقوبة من الله على لُصوصيتهما.

كان عمر بن الخطاب يقول: "اشتدوا على السَّراق، فاقطعوهم يداً يداً، ورجلا رجلاً".

وقوله: "والله عزيز حكيم" يقول جل ثناؤه: "والله عزيز" في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل معاصيه "حكيم"، في حكمه فيهم وقضائه عليهم.

يقول: فلا تفرطوا أيها المؤمنون، في إقامة حكمي على السَّراق وغيرهم من أهل الجرائم الذين أوجبت عليهم حدوداً في الدنيا عقوبةً لهم، فإني بحكمتي قضيت ذلك عليهم، وعلمي بصلاح ذلك لهم ولكم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: "فمن تاب"، من هؤلاء السراق، يقول: من رجع منهم عمّا يكرهه الله من معصيته إياه، إلى ما يرضاه من طاعته "من بعد ظلمه"، و"ظلمه"، هو اعتداؤه وعمله ما نهاه الله عنه من سرقة أموال الناس "وأصلح"، يقول: وأصلح نفسه بحملها على مكروهاها في طاعة الله، والتوبة إليه ممّا كان عليه من معصيته.

وقوله: "فإن الله يتوب عليه"، يقول: فإن الله جل وعز يُرجعه إلى ما يحبّ ويرضى، عما يكره ويسخط من معصيته

وقوله: "إن الله غفور رحيم" يقول: إن الله عز ذكره سائرٌ على من تاب وأناب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبه، بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة، وتركه فضيحتَه بها على رءوس الأَشهاد "رحيم" به وبعباده التائبين إليه من ذنوبهم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبينا محمد ﷺ: ألم يعلم هؤلاء يعني القائلين: "لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة"، الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه أن الله مدبّر ما في السموات وما في الأرض، ومصرفه وخالقه، لا يمتنع شيء مما في واحدة منهما مما أَرَادَهُ، لأن كل ذلك ملكه، وإليه أمره، ولا نسب بينه وبين شيء مما فيهما ولا مما في واحدة منهما، فيحاييه بسبب قرابته منه، فينجيه من عذابه، وهو به كافر، ولأمره ونهيه مخالف أو يدخله النار وهو له مطيع لبعد قرابته منه، ولكنه يعذب من يشاء من خلقه في الدنيا على معصيته بالقتل والخسف والمسح وغير ذلك من صنوف عذابه، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتوبة

عليه من كفره ومعصيته، فينقذه من الهلكة، وينجيه من العقوبة "والله على كل شيء قدير"، يقول: والله جل وعز على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه على معصيته، وغفران ما أراد غفرانه منهم باستنقاذهم من الهلكة بالتوبة عليه وغير ذلك من الأمور كلها قادرٌ، لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والعباد عباده.

وخرج قوله: "ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض"، خطاباً له ﷺ، والمعني به من ذكرت من فرق بني إسرائيل الذين كانوا بمدينة رسول الله ﷺ وما حوالياها. وقد بينا استعمال العرب نظير ذلك في كلامها بشواهد فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، أن يقال: عني بقوله: "لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم"، قومٌ من المنافقين. وجائز أن يكون كان ممن دخل في هذه الآية ابنُ سوريا وجائز أن يكون أبو لبابة وجائز أن يكون غيرهما، غير أن أثبت شيء روي في ذلك، ما ذكرناه من الرواية قبل عن أبي هريرة والبراء بن عازب، لأن ذلك عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ. وإذا كان ذلك كذلك، كان الصحيح من القول فيه أن يقال: عني به عبد الله بن سوريا.

وإذا صحَّ ذلك، كان تأويل الآية: يا أيُّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في جحود نبوتك، والتكذيب بأنك لي نبي، من الذين قالوا: "صدّقنا بك يا محمد أنك لله رسول مبعوث، وعلمنا بذلك يقيناً، بوجودنا صِفَتَكَ في كتابنا".

وذلك أن في حديث أبي هريرة الذي رواه ابن إسحاق عن الزهري: أن ابن سوريا قال لرسول الله ﷺ: "أما والله يا أبا القاسم، إنهم ليعلمون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك". فذلك كان على هذا الخبر من ابن سوريا إيماناً برسول الله ﷺ بفيه، ولم يكن مصدّقاً لذلك بقلبه. فقال الله جل وعزّ لنبيه محمد ﷺ، مُطْلِعَهُ على ضمير ابن سوريا وأنه لم يؤمن بقلبه، يقول: ولم يصدّق قلبه بأنك لله رسول مرسل.

القول في تأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: يا أيُّها الرسول لا يحزنك تسرّع من تسرّع من هؤلاء المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم تصديقك، وهم معتقدون تكذيبك إلى الكفر بك، ولا تسرّع اليهود إلى جحود نبوتك. ثم وصف جل وعزّ صفتهم،

ونعتهم له بنعوتهم الذميمة وأفعالهم الرديئة، وأخبره مُعْزِّياً له على ما يناله من الحزن

بتكذيبهم إياه، مع علمهم بصدقه، أنهم أهل استحلال الحرام والمآكل الرديئة والمطاعم الدنيئة من الرشى والسُّحت، وأنهم أهل إفك وكذب على الله، وتحريف لكتابه. ثم أعلمه أنه مُحل بهم خزيه في عاجل الدنيا، وعقابه في آجل الآخرة. فقال: هم "سماعون للكذب"، يعني هؤلاء المنافقين من اليهود، يقول: هم يسمعون الكذب، و"سمعهم الكذب"، سمعهم قول أخبارهم: أن حكم الزاني المحصن في التوراة، التحميم والجلد "سماعون لقوم آخرين لم يأتوك"، يقول: يسمعون لأهل الزاني الذين أرادوا الاحتكام إلى رسول الله ﷺ، وهم القوم الآخرون الذين لم يكونوا أتوا رسول الله ﷺ، وكانوا مصرّين على أن يأتوه، واختلف أهل التأويل في "السماعين للكذب السماعين لقوم آخرين".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: إن "السماعين للكذب"، هم "السماعون لقوم آخرين". وقد يجوز أن يكون أولئك كانوا من يهود المدينة، والمسموع لهم من يهود فدك ويجوز أن يكون كانوا من غيرهم. غير أنه أي ذلك كان، فهو من صفة قوم من يهود، سمعوا الكذب على الله في حكم المرأة التي كانت بغت فيهم وهي محصنة، وأن حكمها في التوراة التحميم والجلد، وسألوا رسول الله ﷺ عن الحكم اللازم لها، وسمعوا ما يقول فيها قوم المرأة الفاجرة قبل أن يأتوا رسول الله ﷺ محتكمين إليه فيها. وإنما سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك لهم، ليُعلموا أهل المرأة الفاجرة ما يكون من جوابه لهم. فإن لم يكن من حكمه الرجم رَضوا به حكماً فيهم. وإن كان من حكمه الرجم، حذروه وتركوا الرضى به وبحكمه. وبنحو الذي قلنا كان ابن زيد يقول.

القول في تأويل قوله عَزَّجَلْ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يحرف هؤلاء السَّماعون للكذب، السماعون لقوم آخرين منهم لم يأتوك بعد من اليهود "الكلم". وكان تحريفهم ذلك، تغييرهم حكم الله تعالى ذكره الذي أنزله في التوراة في المحصنات والمحصنين من الزناة بالرجم إلى الجلد والتحميم. فقال تعالى ذكره: "يحرفون الكلم"، يعني: هؤلاء اليهود، والمعنى حكم الكلم، فاكتمى بذكر الخبر من "تحريف الكلم" عن ذكر "الحكم"، لمعرفة السامعين لمعناه. وكذلك قوله: "من بعد مواضعه"، والمعنى: من بعد وضع الله ذلك مواضعه، فاكتمى بالخبر من ذكر "مواضعه"، عن ذكر "وضع ذلك"، كما قال تعالى ذكره: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، والمعنى: ولكن البرُّ من آمن بالله واليوم الآخر.

ويعني بقوله: "إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا"، يقول هؤلاء الباغون السَّماعون للكذب: إن أفتاكم محمد بالجلد والتحميم في صاحبنا "فخذوه"، يقول: فاقبلوه

منه، وإن لم يفتكم بذلك وأفتاكم بالرجم، فاحذروا. وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله جل وعز: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا تسلية من الله تعالى ذكره نبيه محمدًا ﷺ من حزنه على مسارعة الذين قصّ قصتهم من اليهود والمنافقين في هذه الآية. يقول له تعالى ذكره: لا يحزنك تسرّعهم إلى جحود نبوتك، فإني قد حتمت عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كفرهم، للسابق من غصبي عليهم. وغير نافعهم حزنك على ما ترى من تسرّعهم إلى ما جعلته سببًا لهلاكهم واستحقاقهم وعيدي. ومعنى "الفتنة" في هذا الموضع: الضلالة عن قصد السبيل. يقول تعالى ذكره: ومن يرد الله، يا محمد، مَرَّجعه بضلالته عن سبيل الهدى، فلن تملك له من الله استنقاذًا مما أراد الله به من الحيرة والضلالة. فلا تشعر نفسك الحزن على ما فاتك من اهتدائه للحق،

القول في تأويل قوله جل وعز: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من اليهود الذين وصفت لك صفتهم. وإن مسارعتهم إلى ذلك، أن الله قد أراد فتنتهم، وطبع على قلوبهم، ولا يهتدون أبدًا "أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم"، يقول: هؤلاء الذين لم يرد الله أن يطهر من دنس الكفر ووسخ الشرك قلوبهم، بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان، فيتوبوا، بل أراد بهم الخزي في الدنيا وذلك الذل والهوان وفي الآخرة عذاب جهنم خالدين فيها أبدًا. وبنحو الذي قلنا في معنى "الخزي"، روي القول عن عكرمة.

القول في تأويل قوله: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: هؤلاء اليهود الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم، سماعون لقليل الباطل والكذب، ومن قيل بعضهم لبعض: "محمد كاذب، ليس بنبي"، وقيل بعضهم: "إن حكم الزاني المحصن في التوراة الجلد والتحميم"، وغير ذلك من الأباطيل والإفك ويقبلون الرشى فيأكلونها على كذبهم على الله وفريتهم عليه وأصل "السحت": كَلَبُ الجوع، يقال منه: "فلان مسحوت المعدة"، إذا كان أكلًا لا يُلَفَى أبدًا إلا جائعًا، وإنما قيل للرشوة: "السحت"، تشبيهاً بذلك

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرُضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم"، إن جاء هؤلاء القوم الآخرون الذين لم يأتوك بعد وهم قوم المرأة البغيّة محتكمين إليك، فاحكم بينهم إن شئت بالحق الذي جعله الله حكمًا له فيمن فعل فعل المرأة البغيّة منهم أو أعرض عنهم فدع الحكم

بينهم إن شئت، والخيار إليك في ذلك. وبمثل الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

كالذي قال ابن زيد: كان في حكم حيي بن أخطب: للنّضيريّ ديتان، والقرطيّ دية لأنه كان من النضير. قال: وأخبر الله نبيه ﷺ بما في التوراة، قال: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهُمْ فِيهَا أَنْ تَنْفُسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى آخر الآية. قال: فلما رأت ذلك قريظة، لم يرضوا بحكم ابن أخطب، فقالوا: نتحاكم إلى محمد! فقال الله تبارك وتعالى: "فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم"، فخيرّه "وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله"، الآية كلها. وكان الشريف إذا زنى بالدينئة رجموها هي، وحمّموا وجه الشريف، وحملوه على البعير، وجعلوا وجهه من قبل ذنب البعير. وإذا زنى الديء بالشريفة رجموه، وفعلوا بها هي ذلك. فتحاكموا إلى النبي ﷺ فرجماها. قال: وكان النبي ﷺ قال لهم: من أعلمكم بالتوراة؟ قالوا: فلان الأعور! فأرسل إليه فأتاه، فقال: أنت أعلمهم بالتوراة؟ قال: كذاك تزعم يهود! فقال له النبي ﷺ: أنشدك بالله وبالتوراة التي أنزلها على موسى يوم طُور سيناء، ما تجد في التوراة في الزانيين؟ فقال: يا أبا القاسم، يرجمون الدينئة، ويحملون الشريف على بعير، ويحمّمون وجهه، ويجعلون وجهه من قبل ذنب البعير، ويرجمون الديء إذا زنى بالشريفة، ويفعلون بها هي ذلك. فقال له النبي ﷺ: "أنشدك بالله وبالتوراة التي أنزلها على موسى يوم طُور سيناء، ما تجد في التوراة؟ فجعل يروغ، والنبي ﷺ ينشده بالله وبالتوراة التي أنزلها على موسى يوم طُور سيناء، حتى قال: يا أبا القاسم، "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". فقال رسول الله ﷺ: فهو ذاك، اذهبوا بهما فارجموهما. قال عبد الله: فكنت فيمن رجمهما فما زال يُجنّئُ عليها، ويقيها الحجارة بنفسه حتّى مات. ثم اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية، هل هو ثابت اليوم؟ وهل للحكام من الخيار في الحكم والنظر بين أهل الذمة والعهد إذا احتكموا إليهم، مثل الذي جعل لنبيه ﷺ في هذه الآية، أم ذلك منسوخ؟ قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: إن حكم هذه الآية ثابت لم ينسخ، وأن للحكام من الخيار في الحكم بين أهل العهد إذا ارتفعوا إليهم فاحتكموا، وترك الحكم بينهم والنظر، مثل الذي جعله الله لرسوله ﷺ من ذلك في هذه الآية. وأما قوله: "وإن تُعرض عنهم فلن يضروك شيئاً"، فإن معناه: وإن تعرض يا محمد، عن المحتكمين إليك من أهل الكتاب، فتدع النظر بينهم فيما احتكموا فيه إليك، فلا تحكم فيه بينهم "فلن يضروك شيئاً"، يقول: فلن يقدروا لك على ضرر في دين ولا دنيا، فدع النظر بينهم إذا اخترت ترك النظر بينهم. وأما قوله: "وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط"، فإن معناه: وإن اخترت الحكم والنظر، يا محمد، بين أهل العهد إذا أتوك "فاحكم بينهم بالقسط"، وهو العدل، وذلك هو الحكم بما جعله الله حكماً في مثله على جميع خلقه من أمة نبينا ﷺ. وبنحو ما قلنا في ذلك قال جماعة أهل التأويل.

وأما قوله: "إن الله يحب المقسطين"، فمعناه: إن الله يحب العادلين في حكمهم بين الناس، القاضين بينهم بحكم الله الذي أنزله في كتابه وأمره أنبياءه صلوات الله عليهم. يقال منه: "أقسط الحاكم في حكمه"، إذا عدل وقضى بالحق،

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: وكيف يحكمك هؤلاء اليهود، يا محمد، بينهم، فيرضون بك حكماً بينهم "وعندهم التوراة" التي أنزلتها على موسى، التي يقرّون بها أنها حق، وأنها كتابي الذي أنزلته إلى نبيي، وأن ما فيه من حكم فمن حكمي، يعلمون ذلك لا يتناكرونه، ولا يتدافعونه، ويعلمون أن حكمي فيها على الزاني المحصن الرجم، وهم مع عملهم بذلك "يتولون"، يقول: يتركون الحكم به، بعد العلم بحكمي فيه، جراءة عليّ وعصياناً لي. وهذا، وإن كان من الله تعالى ذكره خطاباً لنبيه ﷺ، فإنه تقريبٌ منه لليهود الذين نزلت فيهم هذه الآية. يقول لهم تعالى ذكره: كيف تقرّون، أيها اليهود، بحكم نبيي محمد ﷺ، مع جحودكم نبوته وتكذيبكم إياه، وأنتم تتركون حكمي الذي تقرّون به أنه حق عليكم واجبٌ، جاءكم به موسى من عند الله؟ يقول: فإذا كنتم تتركون حكمي الذي جاءكم به موسى الذي تقرّون بنبوته في كتابي، فأنتم بترك حكمي الذي يخبركم به نبيي محمد أنه حكمي - أخرى، مع جحودكم نبوته. ثم قال تعالى ذكره مخبراً عن حال هؤلاء اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآية عنده، وحال نظرائهم من الجائرين عن حكمه، الزائلين عن محجة الحق "وما أولئك بالمؤمنين"، يقول: ليس من فعل هذا الفعل - أي: من تولّى عن حكم الله، الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه، في خلقه بالذي صدّق الله ورسوله فأقرّ بتوحيده ونبوة نبيه ﷺ، لأن ذلك ليس من فعل أهل الإيمان. وأصل "التولى عن الشيء"، الانصراف عنه

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إنا أنزلنا التوراة فيها بيانٌ ما سألك هؤلاء اليهود عنه من حكم الزانيين المحصنين

"ونور"، يقول: فيها جلاء ما أظلم عليهم، وضياء ما التبس من الحكم

"يحكم" بها النبيون الذين أسلموا"، يقول: يحكم بحكم التوراة في ذلك، أي: فيما احتكموا إلى النبي ﷺ فيه من أمر الزانيين "النبيون الذين أسلموا"، وهم الذين أذعنوا لحكم الله وأقرّوا به. وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك نبياً محمداً ﷺ، في حكمه على الزانيين المحصنين من اليهود بالرجم، وفي تسويته بين دم قتلى النضير وقريظة في القصاص والدية، ومن قبل محمد من الأنبياء يحكم بما فيها من حكم الله

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويحكم بالتوراة وأحكامها التي أنزل الله فيها في كل زمان - على ما أمر بالحكم به فيها - مع النبيين الذين أسلموا "الربانيون والأحبار".

و"الربانيون" جمع "رَبَّانِيٍّ"، وهم العلماء الحكماء البُصراء بسياسة الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم و"الأحبار"، هم العلماء. وقد بينا معنى "الربانيين" فيما مضى بشواهد، وأقوال أهل التأويل فيه. وأما "الأحبار"، فإنهم جمع "حَبْرٍ"، وهو العالم المحكم للشيء

وأما قوله: "بما استحفظوا من كتاب الله"، فإن معناه: يحكم النبيون الذين أسلموا بحكم التوراة، والربانيون والأحبار يعني العلماء بما استودعوا علمه من كتاب الله الذي هو التوراة. و"الباء" في قوله: "بما استحفظوا"، من صلة "الأحبار".

وأما قوله: "وكانوا عليه شهداء"، فإنه يعني: أن الربانيين والأحبار بما استودعوا من كتاب الله، يحكمون بالتوراة مع النبيين الذين أسلموا للذين هادوا، وكانوا على حكم النبيين الذين أسلموا للذين هادوا شهداء أنهم قضوا عليهم بكتاب الله الذي أنزله على نبيه موسى وقضائه عليهم

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لعلماء اليهود وأحبارهم: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي، وإمضاءه عليهم على ما أمرت، فإنهم لا يقدرُونَ لكم على ضر ولا نفع إلا بإذني، ولا تكتموا الرجم الذي جعلته حُكْمًا في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دون كل أحدٍ من خلقي، فإن النفع والضر بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استُحفظتم من كتابي.

وأما قوله: "ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلًا" يقول: ولا تأخذوا بترك الحكم بآيات كتابي الذي أنزلته على موسى، أيها الأحبار، عوضًا خسيسًا وذلك هو "الثمن القليل".

وإنما أراد تعالى ذكره، نهيهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله، وتغييرهم حكمه عما حكم به في الزانيين المحصنين، وغير ذلك من الأحكام التي بدلوها طلبًا منهم للرشي

القول في تاويل قوله عز ذكره: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن كنتم حُكْمَ الله الذي أنزله في كتابه وجعله حُكْمًا بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره، كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبيه والتحميم، وكتمانهم الرجم، وكقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية، وفي الأشراف

بالقصاص، وفي الأذنياء بالدية، وقد سَوَّى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة "فأولئك هم الكافرون"، يقول: هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه، ولكن بدلوا وغيروا حكمه، وكتبوا الحق الذي أنزله في كتابه "هم الكافرون"، يقول: هم الذين سَتَرُوا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه، وغطَّوه عن الناس، وأظهروا لهم غيره، وقضوا به، لسحت أخذوه منهم عليه. وقد اختلف أهل التأويل في تأويل "الكفر" في هذا الموضع.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت، وهم المعنيون بها. وهذه الآيات سياق الخبر عنهم، فكونها خبراً عنهم أولى. فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذكره قد عمَّ بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله، فكيف جعلته خاصاً؟

قيل: إن الله تعالى عمَّ بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم، على سبيل ما تركوه، كافرون. وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه، نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكتبنا على هؤلاء اليهود الذين يحكمونك، يا محمد، وعندهم التوراة فيها حكم الله.

ويعني بقوله: "وكتبنا"، وفرضنا عليهم فيها أن يحكموا في النفس إذا قتلت نفساً بغير حق "بالنفس"، يعني: أن تقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة،

"والعين بالعين"، يقول: وفرضنا عليهم فيها أن يفتأوا العين التي فقأ صاحبها مثلها من نفس أخرى بالعين المفقوءة ويجدع الأنف بالأنف وتقطع الأذن بالأذن وتقلع السن بالسن ويُقتَصَّ من الجراح غيره ظمناً للمجروح.

وهذا إخبار من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ عن اليهود وتعزية منه له عن كفر من كفر منهم به بعد إقراره بنبوته، وإدباره عنه بعد إقباله وتعريف منه له جرائهم قديماً وحديثاً على ربهم وعلى رسل ربهم، وتقدمهم على كتاب الله بالتحريف والتبديل.

يقول تعالى ذكره له: وكيف يرضى هؤلاء اليهود، يا محمد، بحكمك، إذا جاءوا يحكمونك وعندهم التوراة التي يقرؤون بها أنها كتابي ووحبي إلى رسولي موسى ﷺ، فيها حكمي بالرجم على الزناة المحصنين، وقضائي بينهم أن من قتل نفساً ظمناً فهو بها قود، ومن فقأ عيناً بغير حق فعينه بها مفقوءة قصاصاً، ومن جدع أنفاً فأنفه به مجدوع، ومن قلع سنّاً فسنّه بها مقلوعة، ومن

جرح غيره جرحاً فهو مقتصٌ منه مثل الجرح الذي جرحه؟ ثم هم مع الحكم الذي عندهم في التوراة من أحكامي، يتولون عنه ويتركون العمل به، يقول: فهم بترك حكمك، وبسخط قضائك بينهم، أحرى وأولى. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

قال أبو جعفر: فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم، رجالهم ونسأؤهم، إذا كان في النفس وما دون النفس ويستوي فيه العبيد رجالهم ونسأؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المعنى به: "فمن تصدق به فهو كفارة له". قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: عني به: "فمن تصدق به فهو كفارة له"، المجروح فلأن تكون "الهاء" في قوله: "له" عائدة على "من"، أولى من أن تكون من ذكر من لم يجبر له ذكر إلا بالمعنى دون التصريح، وأحرى، إذ الصدقة هي المكفرة ذنب صاحبها دون المتصدق عليه في سائر الصدقات غير هذه، فالواجب أن يكون سبيل هذه سبيل غيرها من الصدقات. و"التصدق"، في هذا الموضع، بالدم، العفو عنه.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن لم يحكم بما أنزل الله في التوراة من قود النفس القاتلة قصاصاً بالنفس المقتولة ظلماً. ولم يبقاً عين الفاقئ بعين المفقوء ظلماً، قصاصاً ممن أمره الله به بذلك في كتابه، ولكن أقاد من بعضٍ ولم يُقَدِّ من بعض، أو قتل في بعض اثنين بواحد، فإن من يفعل ذلك من "الظالمين" يعني: ممن جار عن حكم الله، ووضع فعله ما فعل من ذلك في غير موضعه الذي جعله الله له موضعاً.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وقفينا على آثارهم"، أتبعنا. يقول: أتبعنا عيسى ابن مريم على آثار النبيين الذين أسلموا من قبلك، يا محمد، فبعثناه نبياً مصدقاً لكتابتنا الذي أنزلناه إلى موسى من قبله أنه حق، وأن العمل بما لم ينسخه الإنجيل منه فرض واجب "وآتينا الإنجيل"، يقول: وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه "الإنجيل" فيه هدى ونور" يقول: في الإنجيل "هدى"، وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانه "ونور"، يقول: وضياء من عمى الجهالة "ومصدقاً لما بين يديه"، يقول: أوحينا إليه ذلك وأنزلناه إليه بتصديق ما كان قبله من كتب الله التي كان أنزلها على كل أمة أنزل إلى نبيها كتاب للعمل بما أنزل إلى نبيهم في ذلك

الكتاب، من تحليل ما حلّل، وتحريم ما حرّم

"وهدى وموعظة"، يقول: أنزلنا الإنجيل إلى عيسى مصدّقاً للكتب التي قبله، وبياناً لحكم الله الذي ارتضاه لعباده المتّقين في زمان عيسى، "وموعظة"، لهم يقول: وزجراً لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبّه من الأعمال، وتنبهاً لهم عليه.

و"المتقون"، هم الذين خافوا الله وحذروا عقابه، فاتقوه بطاعته فيما أمرهم، وحذروه بترك ما نهاهم عن فعله. وقد مضى البيان عن ذلك بشواهد قبل، فأغنى ذلك عن إعادته.

القول في تأويل قوله عزّ ذكره: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال أبو جعفر وتأويل الآية: وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل، فيه هدى ونورٌ ومصدّق لما بين يديه من التوراة، وأمرنا أهله أن يحكموا بما أنزلنا فيه، فلم يطيعونا في أمرنا إياهم بما أمرناهم به فيه، ولكنهم خالفوا أمرنا، فالذين خالفوا أمرنا الذي أمرناهم به فيه، هم الفاسقون.

وقد بينا معنى "الفسق" بشواهد فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله عزّ ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خطابٌ من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ. يقول تعالى ذكره: أنزلنا إليك، يا محمد، "الكتاب"، وهو القرآن الذي أنزله عليه ويعني بقوله: "بالحق"، بالصدق ولا كذب فيه، ولا شك أنه من عند الله "مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب"، يقول: أنزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه

"ومهيماً عليه"، يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، مصدّقاً للكتب قبله، وشهيذاً عليها أنها حق من عند الله، أُميماً عليها، حافظاً لها.

وأصل "الهيمنة"، الحفظ والارتقاب. يقال، إذا رَقِبَ الرجل الشيء وحفظه وشهده: "قد هيمن فلان عليه، فهو يُهيمن هيمنة، وهو عليه مهيمن".

القول في تأويل قوله عزّ ذكره: ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزله إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته. يقول تعالى ذكره: احكم، يا محمد، بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي في كل ما احتمكوا فيه إليك، من الحدود والجُروح والقُود والنفوس، فارجم الزاني المحصّن، واقتل النفسَ القاتلةَ بالنفسِ المقتولة ظلماً، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف

بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدقاً في ذلك ما بين يديه من الكتب، ومهيماً عليه رقيباً، يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين يقولون: إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضع إذا قتله، فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا عن الذي جاءك من عند الله من الحق، وهو كتاب الله الذي أنزله إليك. يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليهم، ولا تترك العمل بذلك اتباعاً منك أهواءهم، وإثارة لها على الحق الذي أنزلته إليك في كتابي

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لكل قوم منكم جعلنا شريعةً. و"الشريعة" هي "الشريعة" بعينها وكل ما شرعت فيه من شيء فهو "شريعة". وأما "المنهاج"، فإن أصله: الطريق البين الواضح فمعنى الكلام: لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمُّه، وسبيلاً واضحاً يعمل به. ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: "لكل جعلنا منكم". قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معناه: لكل أهل ملة منكم، أيها الأمم جعلنا شريعةً ومنهاجاً. كما كان الضحاك يقول في قوله: "شريعةً ومنهاجاً"، قال: سبيلاً وسنةً.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة، ولم يجعل لكل أمة شريعةً ومنهاجاً غير شرائع الأمم الأخر ومنهاجهم، فكنتم تكونون أمة واحدة لا تختلف شرائعكم ومنهاجكم، ولكنه تعالى ذكره يعلم ذلك، فخالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع منكم من العاصي، والعامل بما أمره في الكتاب الذي أنزله إلى نبيه ﷺ من المخالف. و"الابتلاء": هو الاختيار، وقد أبنت ذلك بشواهد فيما مضى قبل.

وقوله: "فيما آتاكم"، يعني: فيما أنزل عليكم من الكتب،

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿فَلَسْتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فبادروا أيها الناس، إلى الصالحات من الأعمال، والقرب إلى ربكم، بإدمان العمل بما في كتابكم الذي أنزله إلى نبيكم، فإنه إنما أنزله امتحاناً لكم وابتلاءً، ليتبين المحسن منكم من المسيء، فيجازي جميعكم على عمله جزاءه عند مصيركم إليه، فإن إليه مصيركم جميعاً، فيخبر كل فريق منكم بما كان يخالف فيه الفرق الأخرى، فيفصل بينهم بفصل القضاء، وتبين المحق مجازاته إياه بجناته، من المسيء بعقابه إياه بالنار، فيتبين حيث ذل حزب عياناً، المحق منهم من المبطّل.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ٥١﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ"، وأنزلنا إليك، يا محمد، الكتابَ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، وأن احكم بينهم فـ"أن" في موضع نصب بـ"التنزيل". ويعني بقوله: "بما أنزل الله"، بحكم الله الذي أنزله إليك في كتابه.

وأما قوله: "ولا تتبع أهواءهم"، فإنه نهى من الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبع أهواء اليهود الذين احتكموا إليه في قتلهم وفاجرهم، وأمر منه له بلزوم العمل بكتابه الذي أنزله إليه.

وقوله: "واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك"، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واحذر، يا محمد، هؤلاء اليهود الذين جاءوك محتكمين إليك "أن يفتنوك"، فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه، فيحملوك على ترك العمل به واتباع أهوائهم.

وقوله: "فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم"، يقول تعالى ذكره: فإن تولي هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليك عنك، فتركوا العمل بما حكمت به

عليهم وقضيت فيهم "فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم"، يقول: فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى بحكمك وقد قضيت بالحق، إلا من أجل أن الله يريد أن يتعجل عقوبتهم في عاجل الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم "وإن كثيراً من الناس لفاسقون"، يقول: وإن كثيراً من اليهود "لفاسقون"، يقول: لتاركوا العمل بكتاب الله، ولخارجون عن طاعته إلى معصيته.

كالذي جاء عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وابن صوريا وشأس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أبحار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله فيهم: "وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ"، إلى قوله: "لقوم يوقنون".

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٢﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أيغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك، فلم يرضوا بحكمك، إذ حكمت فيهم بالقسط "حكم الجاهلية"، يعني: أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه. ثم قال تعالى ذكره موبخاً لهؤلاء الذين أبوا قبول حكم رسول الله ﷺ عليهم ولهم من اليهود، ومستجھلاً فعلهم ذلك منهم: ومن هذا الذي هو أحسن حكماً، أيها اليهود،

من الله تعالى ذكره عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقرُّ بربوبيته؟ يقول تعالى ذكره: أيَّ حكم أحسن من حكم الله، إن كنتم موقنين أن لكم ربًّا، وكنتم أهل توحيد وإقرار به؟

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المعنى بهذه الآية، وإن كان مأثورًا بذلك جميع المؤمنين. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهي المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريثان.

وأما قوله: "بعضهم أولياء بعض"، فإنه عنى بذلك: أن بعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم وأن النصارى كذلك، بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم معرفًا بذلك عبادة المؤمنين: أن من كان لهم أو لبعضهم وليًّا، فإنما هو وليُّهم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حرب. فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضًا بعضكم أولياء بعض، ولليهودي والنصراني حربًا كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء، لأن من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحرب، ومنهم البراءة، وأبان قطع ولايتهم.

القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ومن يتولاهم منكم فإنه منهم"، ومن يتولَّ اليهود والنصارى دون المؤمنين، فإنه منهم. يقول: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولًّا أحدًا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راضٍ. وإذا رضي ورضي دينه، فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه، ولذلك حكم من حكم من أهل العلم لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم، بأحكام نصارى بني إسرائيل، لمواليتهم إياهم، ورضاهم بملتهم، ونصرتهم لهم عليها، وإن كانت أنسابهم لأنسابهم مخالفة، وأصل دينهم لأصل دينهم مفارقًا. وفي ذلك الدلالة الواضحة على صحة ما نقول، من أن كل من كان يدين بدينٍ فله حكم أهل ذلك الدين، كانت دينونته به قبل مجيء الإسلام أو بعده. إلا أن يكون مسلمًا من أهل ديننا انتقل إلى ملة غيرها، فإنه لا يُقرَّ على ما دان به فانتقل إليه، ولكن يقتل لردته عن الإسلام ومفارقة دين الحق، إلا أن يرجع قبل القتل إلى الدين الحق وفساد ما خالفه من قول من زعم: أنه لا يحكم بحكم أهل الكتابين لمن دان بدينهم، إلا أن يكون إسرائيليًّا أو منتقلًا إلى دينهم من غيرهم قبل نزول الفرقان. فأما من دان بدينهم بعد نزول

الْفُرْقَان، ممن لم يكن منهم، ممن خالف نسبه نسبهم وجنسه جنسهم، فإنه حكمه لحكمهم مخالفٌ.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: إن الله لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها، فوالى اليهود والنصارى مع عداوتهم الله ورسوله والمؤمنين على المؤمنين، وكان لهم ظهيراً ونصيراً، لأن من تولاهم فهو لله ولرسوله وللمؤمنين حربٌ. وقد بينا معنى "الظلم" في غير هذا الموضع، وأنه وضع الشيء في غير موضعه، بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ اختلف أهل التأويل فيمن عنى بهذه الآية.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن ذلك من الله خبر عن ناس من المنافقين كانوا يوالون اليهود والنصارى ويغشون المؤمنين، ويقولون: نخشى أن تدور دوائر إما لليهود والنصارى، وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان، أو غيرهم على أهل الإسلام، أو تنزل هؤلاء المنافقين نازلةً، فيكون بنا إليهم حاجة. وقد يجوز أن يكون ذلك كان من قول عبد الله بن أبي، ويجوز أن يكون كان من قول غيره، غير أنه لا شك أنه من قول المنافقين.

فتأويل الكلام إذا: فتري، يا محمد، الذين في قلوبهم شكٌ، ومرضٌ إيمانٍ بنبوتك وتصديق ما جئتهم به من عند ربك "يسارعون فيهم"، يعني في اليهود والنصارى ويعني بمسارعتهم فيهم: مسارعتهم في موالاتهم ومصانعتهم "يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة"، يقول هؤلاء المنافقون: إنما نسارع في موالاة هؤلاء اليهود والنصارى، خوفاً من دائرة تدور علينا من عدونا. ويعني بـ "الدائرة"، الدولة يعني: أن تدول للدهر دولة، فنحتاج إلى نصرتهم إيانا، فنحن نواليهم لذلك. فقال الله تعالى ذكره لهم: "فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين".

القول في تأويل قوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده"، فلعل الله أن يأتي بالفتح. ثم اختلفوا في تأويل "الفتح" في هذا الموضع.

وقد يجوز أن يكون ذلك القضاء الذي وعد الله نبيه محمداً ﷺ بقوله: "فعسى الله أن يأتي بالفتح" فتح، مكة، لأن ذلك كان من عظيم قضاء الله، وفصل حكمه بين أهل الإيمان والكفر، ومقرراً عند أهل الكفر والنفاق، أن الله معلي كلمته وموهن كيد الكافرين.

وأما قوله: "أو أمر من عنده"، فإن السدي كان يقول في ذلك: "أو أمر من عنده"

قال: "الأمر"، الجزية. وقد يحتمل أن يكون "الأمر" الذي وعد الله نبيه محمداً ﷺ أن يأتي به هو الجزية، ويحتمل أن يكون غيرها. غير أنه أي ذلك كان، فهو مما فيه إدالة المؤمنين على أهل الكفر بالله ورسوله، ومما يسوء المنافقين ولا يسرهم. وذلك أن الله تعالى ذكره قد أخبر عنهم أن ذلك الأمر إذا جاء، أصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين.

وأما قوله: "فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين"، فإنه يعني هؤلاء المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود والنصارى. يقول تعالى ذكره: لعل الله أن يأتي بأمر من عنده يُدِيل به المؤمنين على الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، فيصبح هؤلاء المنافقون على ما أسروا في أنفسهم من مخالّة اليهود والنصارى ومودّتهم، وبغضة المؤمنين ومُحَادّتهم، "نادمين"

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ يقول الله تعالى ذكره، مخبراً عن حالهم عنده بنفاقهم وخبث أعمالهم "حبطت أعمالهم"، يقول: ذهبت أعمالهم التي عملوها في الدنيا باطلا لا ثواب لها ولا أجر، لأنهم عملوها على غير يقين منهم بأنها عليهم الله فرض واجب، ولا على صحة إيمان بالله ورسوله، وإنما كانوا يعملونها ليدفعوا المؤمنين بها عن أنفسهم وأموالهم وذرائعهم، فأحبط الله أجرها، إذ لم تكن له "فأصبحوا خاسرين"، يقول: فأصبح هؤلاء المنافقون، عند مجيء أمر الله بإدالة المؤمنين على أهل الكفر، قد وكسوا في شرائع الدنيا بالآخرة، وخابت صفقتهم، وهلكوا.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله: "يا أيها الذين آمنوا"، أي: صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ "من يرتد منكم عن دينه"، يقول: من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه اليوم، فيبدله ويغيره بدخوله في الكفر، إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر، فلن يضرب الله شيئاً، وسيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، يقول: فسوف يجيء الله بدلا منهم، المؤمنين الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يرتدوا، بقوم خير من الذين ارتدوا وابدلوا دينهم، يحبهم الله ويحبون الله. وكان هذا الوعيد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيه محمد ﷺ. وكذلك وعده من وعد من المؤمنين ما وعده في هذه الآية، لمن سبق له في علمه أنه لا يبدل ولا يغير دينه، ولا يرتد. فلما قبض الله نبيه ﷺ، ارتد أقوام من أهل الوبر، وبعض أهل المدر، فأبدل الله المؤمنين بخير منهم كما قال تعالى ذكره، ووفى للمؤمنين بوعده، وأنفذ فيمن ارتد منهم وعيده. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل

التأويل. ثم اختلف أهل التأويل في أعيان القوم الذين أتى الله بهم المؤمنين، وأبدل المؤمنين مكاناً من ارتدّ منهم. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، ما رُوي به الخبر عن رسول الله ﷺ: أنهم أهل اليمن، قوم أبي موسى الأشعري. ولولا الخبر الذي روي في ذلك عن رسول الله ﷺ بالخبر الذي روي عنه، ما كان القول عندي في ذلك إلا قول من قال: "هم أبو بكر وأصحابه". وذلك أنه لم يقاتل قوماً كانوا أظهروا الإسلام على عهد رسول الله ﷺ ثم ارتدوا على أعقابهم كفاراً، غير أبي بكر ومن كان معه ممن قاتل أهل الردة معه بعد رسول الله ﷺ. ولكننا تركنا القول في ذلك للخبر الذي رُوي فيه عن رسول الله ﷺ: أن كان مَعِدِنَ البيان عن تأويل ما أنزل الله من وحيه وآي كتابه. كالذي جاء عن عياض الأشعري قال: لما نزلت هذه الآية، "يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه"، قال: أو ما رسول الله ﷺ إلى أبي موسى بشيء كان معه، فقال: هم قومٌ هذا!

القول في تأويل قوله: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "أذلة على المؤمنين"، أرقاء عليهم، رحماء بهم. من قول القائل: "ذل فلان لفلان". إذا خضع له واستكان. ويعني بقوله: "أعزة على الكافرين"، أشداء عليهم، غلظاء بهم. من قول القائل: "قد عزني فلان"، إذا أظهر العزة من نفسه له، وأبدى له الجفوة والغلظة. ونحن الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "يجاهدون في سبيل الله"، هؤلاء المؤمنين الذين وعد الله المؤمنين أن يأتيهم بهم إن ارتدّ منهم مرتدّ، بدلا منهم، يجاهدون في قتال أعداء الله على النحو الذي أمر الله بقتالهم، والوجه الذي أذن لهم به، ويجاهدون عدوهم. فذلك مجاهدتهم في سبيل الله "ولا يخافون لومة لائم"، يقول: ولا يخافون في ذات الله أحداً، ولا يصدّهم عن العمل بما أمرهم الله به من قتال عدوهم، لومة لائم لهم في ذلك.

وأما قوله: "ذلك فضل الله"، فإنه يعني هذا النعت الذي نعتهم به تعالى ذكره من أنهم أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم فضل الله الذي تفضل به عليهم، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منةً عليه وتطوّلاً "والله واسع"، يقول: والله جواد بفضله على من جاد به عليه، لا يخاف نفاد خزائنه فتتلف في عطاءه "عليم"، بموضع جوده وعطاءه، فلا يبذله إلا لمن استحقه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قدر المصلحة، لعلمه بموضع صلاحه له من موضع ضره.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا"، ليس لكم، أيها المؤمنون، ناصر إلا الله ورسوله، والمؤمنون الذين صفتهم ما ذكر تعالى ذكره. فأما اليهود والنصارى الذين أمرهم الله أن تبرأوا من ولايتهم، ونهاكم أن تتخذوا منهم أولياء، فليسوا لكم أولياء لا نصراء، بل بعضهم أولياء بعض، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً. وقيل إن هذه الآية نزلت في عبادة بن الصامت، في تبرئه من ولاية يهود بني قينقاع وحلفهم، إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين. فعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف بن الخزرج فخلعهم إلى رسول الله، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار ولايتهم! ففيه نزلت: "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون" لقول عبادة: "أتولى الله ورسوله والذين آمنوا"، وتبرئه من بني قينقاع ولايتهم إلى قوله: "إن حزب الله هم الغالبون". وأما قوله: "والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون"، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى به. فقال بعضهم: عني به علي بن أبي طالب. وقال بعضهم: عني به جميع المؤمنين.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۖ﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده جميعاً الذين تبرأوا من حلف اليهود وخلعوههم رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين، ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين، لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم، لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، دون حزب الشيطان ويعني بقوله: "إن حزب الله"، فإن أنصار الله

القول في تاويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَولِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به ورسوله محمد ﷺ: "يا أيها الذين آمنوا"، أي: صدقوا الله ورسوله "لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُؤًا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم"، يعني اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء، وأنزلت عليهم الكتب من قبل بعث نبينا ﷺ، ومن قبل نزول كتابنا "أولياء"، يقول: لا تتخذوهم، أيها المؤمنون، أنصاراً أو إخواناً أو حلفاء، فإنهم لا يألونكم خبلاً وإن أظهروا لكم مودةً وصداقة.

وكان اتخاذ هؤلاء اليهود الذين أخبر الله عنهم المؤمنين أنهم اتخذوا دينهم هزواً ولعباً بالدين على ما وصفهم به ربنا تعالى ذكره، أن أحدهم كان يظهر للمؤمنين الإيمان وهو على كفره مقيم، ثم يراجع الكفر بعد يسير من المدة بإظهار ذلك بلسانه قولاً بعد أن كان يُبدي بلسانه الإيمان قولاً وهو للكفر مستبطن تلعباً بالدين واستهزاءً به، كما أخبر تعالى ذكره عن فعل بعضهم ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]. وبنحو الذي قلنا في ذلك جاء الخبر عن ابن عباس. وأما "الكفار" الذين ذكرهم الله تعالى ذكره في قوله: "من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء"، فإنهم المشركون من عبدة الأوثان. نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من أهل الكتاب ومن عبدة الأوثان وسائر أهل الكفر، أولياء دون المؤمنين. وأما قوله: "واتقوا الله إن كنتم مؤمنين"، فإنه يعني: وخافوا الله، أيها المؤمنون، في هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب ومن الكفار، أن تتخذوهم أولياء ونصراء، وارهبوا عقوبته في فعل ذلك إن فعلتموه بعد تقدمه إليكم بالنهي عنه، إن كنتم تؤمنون بالله وتصدقونه على وعيده على معصيته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا أذن مؤذنكم، أيها المؤمنون بالصلاة، سخر من دعوتكم إليها هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين، ولعبوا من ذلك "ذلك" بأنهم قوم لا يعقلون"، يعني تعالى ذكره بقوله: "ذلك"، فعلهم الذي يفعلونه، وهو هزؤهم ولعبهم من الدعاء إلى الصلاة، إنما يفعلونه بجهلهم بربهم، وأنهم لا يعقلون ما لهم في إجابتهم إن أجابوا إلى الصلاة، وما عليهم في استهزائهم ولعبهم بالدعوة إليها، ولو عَقَلُوا ما لمن فعل ذلك منهم عند الله من العقاب، ما فعلوه.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ مَنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل، يا محمد، لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: يا أهل الكتاب، هل تكرهون منا أو تجدون علينا في شيء إذ تستهزئون بديننا، وإذ أنتم إذا نادينا إلى الصلاة اتخذتم نداءنا ذلك هزواً ولعباً "إلا أن آمنا بالله"، يقول: إلا أن صدقنا وأقررنا بالله فوحدناه، وبما أنزل إلينا من عند الله من الكتاب، وما أنزل إلى أنبياء الله من الكتب من قبل كتابنا "وأن أكثركم فاسقون"، يقول: وإلا أن أكثركم مخالفون أمر الله، خارجون عن طاعته، تكذبون عليه.

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من اليهود.

كالذي جاء عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نفرٌ من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وعازر، وزيد، وخالد، وأزار بن أبي أزار، وأشيع، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ قال: أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بمن آمن به! فأُنزل الله فيهم: "قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون". عطفًا بها على "أن" التي في قوله: "إلا أن آمنا بالله"، لأن معنى الكلام: هل تنقمون منا إلا إيمانًا بالله وفسقكم.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار "هل أنبئكم"، يا معشر أهل الكتاب، بشر من ثواب ما تنقمون منا من إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتاب الله، وما أنزل من قبلنا من كتبه؟ و"المثوبة"، الثواب، "مثوبة الخير"، و"مثوبة الشر" وأما معنى قوله: "من لعنه الله"، فإنه يعني: من أبغده الله وأسحقه من رحمته "وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير"، يقول: وغضب عليه، وجعل منهم المسوخ القردة والخنازير، غضباً منه عليهم وسخطاً، فعجل لهم الخزي والنكال في الدنيا. وأما سبب مسخ الله من مسخ منهم قردة، فقد ذكرنا بعضه فيما مضى من كتابنا هذا،

القول في تأويل قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وذلك بمعنى: والذين عبدوا الطاغوت وقد بينا معنى "الطاغوت" فيما مضى بشواهد من الروايات وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا.

وأما قوله: "أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل"، فإنه يعني بقوله: "أولئك"، هؤلاء الذين ذكرهم تعالى ذكره، وهم الذين وصف صفتهم فقال: "من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت"، وكل ذلك من صفة اليهود من بني إسرائيل.

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم "شر مكاناً"، في عاجل الدنيا والآخرة عند الله ممن نَقَمْتُم عليهم، يا معشر اليهود، إيمانهم بالله، وبما أنزل إليهم من عند الله من الكتاب، وبما أنزل إلى من قبلهم من الأنبياء "وأضل عن سواء السبيل"، يقول تعالى ذكره: وأنتم مع ذلك، أيها اليهود، أشد أخذًا على غير الطريق القويم، وأجور عن سبيل الرشd والقصد منهم.

قال أبو جعفر: وهذا من لحن الكلام. "اللحن" هنا بمعنى التعريض والإيماء، عدولا عن

تصريح القول ﴿﴾ وذلك أن الله تعالى ذكره إنما قصد بهذا الخبر إخبار اليهود الذين وصف صفتهم في الآيات قبل هذه، بقبيح فعالهم وذميم أخلاقهم، واستيجابهم سخطه بكثرة ذنوبهم ومعاصيهم، حتى مسخ بعضهم قرده وبعضهم خنازير، خطاباً منه لهم بذلك، تعريضاً بالجميل من الخطاب، ولحن لهم بما عرفوا معناه من الكلام بأحسن اللحن، وعلم نبيه ﷺ من الأدب أحسنه فقال له: قل لهم، يا محمد، هؤلاء المؤمنون بالله وبكتبه الذين تستهزئون منهم، شرٌّ، أم من لعنه الله؟ وهو يعني المقول ذلك لهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا جاءكم، أيها المؤمنون، هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا لكم: "آمنّا": أي صدّقنا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ واتبعناه على دينه، وهم مقيمون على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذي يعتقدونه بقلوبهم ويضمرونه في صدورهم، وهم يبدون كذباً التصديق لكم بألسنتهم "وقد خرجوا به"، يقول: وقد خرجوا بالكفر من عندكم كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمحييتهم إليكم عن كفرهم وضلالتهم، يظنون أن ذلك من فعلهم يخفى على الله، جهلاً منهم بالله "والله أعلم بما كانوا يكتمون"، يقول: والله أعلم بما كانوا- عند قولهم لكم بألسنتهم: "آمنّا بالله وبمحمد وصدّقنا بما جاء به"- يكتُمون منهم، بما يضمرونه من الكفر، بأنفسهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "وترى" يا محمد "كثيراً"، من هؤلاء اليهود الذين قصصت عليك نبأهم من بني إسرائيل "يسارعون في الإثم والعدوان"، يقول: يعجلون بمواقعة الإثم. وقيل: إن "الإثم" في هذا الموضع، معني به الكفر. وأما "العدوان"، فإنه مجاوزة الحد الذي حدّه الله لهم في كل ما حدّه لهم.

وتأويل ذلك: أن هؤلاء اليهود الذين وصفهم في هذه الآيات بما وصفهم به تعالى ذكره، يسارع كثير منهم في معاصي الله وخلاف أمره، ويتعدّون حدوده التي حدّ لهم فيما أحلّ لهم وحرّم عليهم، في أكلهم "السحت" وذلك الرشوة التي يأخذونها من الناس على الحكم بخلاف حكم الله فيهم. يقول الله تعالى ذكره: "لبئس ما كانوا يعملون"، يقول: أقسم لبئس العمل ما كان هؤلاء اليهود يعملون، في مسارعتهم في الإثم والعدوان، وأكلهم السحت.

القول في تأويل قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون في الإثم

والعدوان وأكل الرشى في الحكم، من اليهود من بني إسرائيل، ربانيوهم وهم أئمتهم المؤمنون، وساستهم العلماء بسياستهم وأحبارهم، وهم علماءهم وقوادهم "عن قولهم الإثم" يعني: عن قول الكذب والزور، وذلك أنهم كانوا يحكمون فيهم بغير حكم الله، ويكتبون كتباً بأيديهم ثم يقولون: "هذا من حكم الله، وهذا من كتبه". يقول الله: ﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وأما قوله: "وأكلهم السحت"، فإنه يعني به الرشوة التي كانوا يأخذونها على حكمهم بغير كتاب الله لمن حكموا له به. وقد بينا معنى "الربانيين" و"الأحبار" ومعنى "السحت"، بشواهد ذلك فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

"لبئس ما كانوا يصنعون"، وهذا قسم من الله أقسم به، يقول تعالى ذكره: أقسم: لبئس الصنيع كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار، في تركهم نبي الذين يسارعون منهم في الإثم والعدوان وأكل السحت، عما كانوا يفعلون من ذلك. وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشدَّ توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوفَ عليهم منها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن جراءة اليهود على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس من صفته، توبيخاً لهم بذلك، وتعريفاً منه نبيه ﷺ قديم جهلهم واغترارهم به، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم إجرامهم واحتجاجاً لنبيه محمد ﷺ بأنه له نبي مبعوث ورسول مرسل: أن كانت هذه الأنبياء التي أنبأهم بها كانت من خفي علومهم ومكنونها التي لا يعلمها إلا أحبارهم وعلماءهم دون غيرهم من اليهود، فضلاً عن الأمة الأمية من العرب الذين لم يقرأوا كتاباً، ولا وعوا من علوم أهل الكتاب علماً، فأطلع الله على ذلك نبيه محمداً ﷺ، ليقرر عندهم صدقه، ويقطع بذلك حجتهم. يقول تعالى ذكره: "وقالت اليهود"، من بني إسرائيل "يد الله مغلولة"، يعنون: أن خير الله مُمْسِكٌ وعطاؤه محبوس عن الاتساع عليهم، كما قال تعالى ذكره في تأديب نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وإنما وصف تعالى ذكره "اليد" بذلك، والمعنى العطاء، لأن عطاء الناس وبذل معروفهم الغالب بأيديهم. فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضاً، إذا وصفوه بجود وكرم، أو ببخل وشحّ وضيق، بإضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف إلى يديه

فخاطبهم الله بما يتعارفونه ويتحاورونه بينهم في كلامهم فقال: "وقالت اليهود يد الله مغلولة"، يعني بذلك: أنهم قالوا: إن الله يبخل علينا، ويمنعنا فضله فلا يُفْضِلُ، كالمغلولة يده

الذي لا يقدر أن يسطحها بعباء ولا بذلٍ معروف، تعالى الله عما قالوا، أعداء الله! فقال الله مكذبهم ومخبرهم بسخطه عليهم: "غلت أيديهم"، يقول: أمسكت أيديهم عن الخيرات، وقبضت عن الانبساط بالعطيات "ولعنوا بما قالوا"، وأبعدوا من رحمة الله وفضله بالذي قالوا من الكفر، وافتروا على الله ووصفوه به من الكذب والإفك

"بل يدها مبسوطتان"، يقول: بل يدها مبسوطتان بالذل والإعطاء وأرزاق عباده وأقوات خلقه، غير مغلولتين ولا مقبوضتين "ينفق كيف يشاء"، يقول: يعطي هذا، ويمنع هذا فيقتّر عليه. وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: "ينفق كيف يشاء"، يقول: يرزق كيف يشاء.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: إن هذا الذي أطلعناك عليه من خفيّ أمور هؤلاء اليهود، مما لا يعلمه إلا علماؤهم وأخبارهم،

احتجاجاً عليهم لصحة نبوتك، وقطعاً لعذر قائل منهم أن يقول: "ما جاءنا من بشير ولا نذير": "ليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً". يعني بـ"الطغيان": الغلو في إنكار ما قد علموا صحته من نبوة محمد ﷺ، والتماذي في ذلك "وكفراً"، يقول: ويزيدهم مع غلوهم في إنكار ذلك، جحودهم عظمة الله ووصفهم إياه بغير صفته، بأن ينسبوه إلى البخل، ويقولوا: "يد الله مغلولة". وإنما أعلم تعالى ذكره نبيه ﷺ أنهم أهل عتوّ وتمردٍ على ربهم، وأنهم لا يذعنون لحق وإن علموا صحته، ولكنهم يعاندونه، يسلي بذلك نبيه محمداً ﷺ عن الموجدة بهم في ذهابهم عن الله، وتكذيبهم إياه. وقد بينت معنى "الطغيان" فيما مضى بشواهد، بما أغنى عن إعادته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة"، بين اليهود والنصارى

القول في تأويل قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كلما جمع أمرهم على شيء فاستقام واستوى، فأرادوا مناهضة من ناوهم، شتته الله عليهم وأفسده، لسوء فعالهم وخُبث نياتهم

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته ويكذبون رسله، ويخالفون أمره ونهيه، وذلك سعيهم فيها بالفساد

"والله لا يحب المفسدين"، يقول: والله لا يحب من كان عاملاً بمعاصيه في أرضه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ولو أن أهل الكتاب"، وهم اليهود والنصارى "آمنوا" بالله وبرسوله محمد ﷺ، فصدّقوه واتبعوه وما أنزل عليه "واتقوا" ما نهاهم الله عنه فاجتنبوه "لكفرنا عنهم سيئاتهم"، يقول: محوّنّا عنهم ذنوبهم فغطينا عليها، ولم نفضحهم بها "ولأدخلناهم جنات النعيم"، يقول: ولأدخلناهم بساكنين ينعمون فيها في الآخرة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل"، ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل "وما أنزل إليهم من ربهم"، يقول: وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاءهم به محمد ﷺ.

وأما معنى قوله: "لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم"، فإنه يعني: لأنزل الله عليهم من السماء قطرها، فأنبت لهم به الأرض حبها ونباتها، فأخرج ثمارها.

وأما قوله: "ومن تحت أرجلهم"، فإنه يعني تعالى ذكره: لأكلوا من بركة ما تحت أقدامهم من الأرض، وذلك ما تخرجه الأرض من حبها ونباتها وثمارها، وسائر ما يؤكل مما تخرجه الأرض. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "منهم أمة"، منهم جماعة "مقتصدة"، يقول: مقتصدة في القول في عيسى ابن مريم، قائلة فيه الحق أنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، لا غالية قائلة: إنه ابن الله، تعالى الله عما قالوا من ذلك، ولا مقصرة قائلة: هو لغير رشدة "وكثير منهم"، يعني: من بني إسرائيل من أهل الكتاب اليهود والنصارى "ساء ما يعملون"، يقول: كثير منهم سيئ عملهم، وذلك أنهم يكفرون بالله، فتكذب النصارى بمحمد ﷺ، وترغم أن المسيح ابن الله وتكذب اليهود بعيسى وبمحمد صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى فيهم ذاماً لهم: "ساء ما يعملون"، في ذلك من فعلهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ، بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قصّ تعالى ذكره قصصهم في هذه السورة، وذكر فيها معاييهم وخُبث أديانهم، واجترأهم على ربهم، وتوهمهم

على أنبيائهم، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم إياه، ورداءة مطاعهم ومآكلهم وسائر المشركين غيرهم، ما أنزل عليه فيهم من معايهم، والإزراء عليهم، والتقصير بهم، والتهجين لهم، وما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن لا يشعر نفسه حذرًا منهم أن يُصيبوه في نفسه بمكروه ما قام فيهم بأمر الله، ولا جزعًا من كثرة عددهم وقلة عدد من معه، وأن لا يتقى أحدًا في ذات الله، فإن الله تعالى ذكره كافيه كل أحد من خلقه، ودافع عنه مكروه كل من يبغى مكروهه. وأعلمه تعالى ذكره أنه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغ ذلك وإن قل ما لم يبلغ منه فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنزلته لو لم يبلغ من تنزيله شيئًا.

وبما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. واختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية. فجاء عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة ظليلة، فيقبل تحتها. فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال من يمنعك مني؟ قال: الله! فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه، قال: وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله: "والله يعصمك من الناس". وقال آخرون بما جاء عن ابن جريج قال: كان النبي ﷺ يهاب قريشًا، فلما نزلت: "والله يعصمك من الناس"، استلقى ثم قال: "من شاء فليخذلني مرتين أو ثلاثًا. ويعني بقوله: "والله يعصمك من الناس"، يمنعك من أن ينالك بسوء. وأصله من "عصام القربة"، وهو ما توكى به من سير وخيط.

وأما قوله: "إن الله لا يهدي القوم الكافرين"، فإنه يعني: إن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق، وجار عن قصد السبيل، وجحد ما جئت به من عند الله، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجه.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه محمدًا ﷺ بإبلاغ اليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرة. يقول تعالى ذكره له: "قل"، يا محمد، لهؤلاء اليهود والنصارى "يا أهل الكتاب"، التوراة والإنجيل "لستم على شيء"، مما تدعون أنكم عليه مما جاءكم به موسى ﷺ، معشر اليهود، ولا مما جاءكم به عيسى، معشر النصارى "حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم"، مما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقان، فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه، وتقرؤا بأن كل ذلك من عند الله، فلا تكذبوا بشيء منه، ولا تفرقوا بين رسل الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض، فإن الكفر بواحد من ذلك كفر بجميعه، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضًا، فمن كذب ببعضها فقد كذب بجميعها. وبنحو الذي قلنا في ذلك جاء الأثر.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا"، وأقسم: ليزيدن كثيرا من هؤلاء اليهود والنصارى الذين قص قصصهم في هذه الآيات، الكتاب الذي أنزلته إليك، يا محمد "طغيانا"، يقول: تجاوزا وغلوا في التكذيب لك، على ما كانوا عليه لك من ذلك قبل نزول الفرقان "وكفرا" يقول: وجحودا لنبوتك. وقد أتينا على البيان عن معنى "الطغيان"، فيما مضى قبل.

وأما قوله: "فلا تأس على القوم الكافرين"، يعني بقوله: "فلا تأس"، فلا تحزن. يقول تعالى ذكره لنبيه: لا تحزن، يا محمد، على تكذيب هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى من بني إسرائيل لك، فإن مثل ذلك منهم عادة وخلق في أنبيائهم، فكيف فيك؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين صدّقوا الله ورسوله، وهم أهل الإسلام "والذين هادوا"، وهم اليهود والصابثون"، وقد بينا أمرهم "والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر"، فصّدّق بالبعث بعد الممات "وعمل"، من العمل "صالحا" لمعاده "فلا خوف عليهم"، فيما قدّموا عليه من أهوال القيامة "ولا هم يحزنون"، على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها، بعد معايتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه.

القول في تأويل قوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أقسم: لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل على الإخلاص في توحيدنا، والعمل بما أمرناهم به، والانتفاء عما نهيناهم عنه وأرسلنا إليهم بذلك رسلا ووعدناهم على ألسن رسلنا إليهم على العمل بطاعتنا الجزيل من الثواب، وأوعدناهم على العمل بمعصيتنا الشديد من العقاب كلما جاءهم رسول لنا بما لا تشتهيه نفوسهم ولا يوافق محبتهم، كذبوا منهم فريقا، ويقتلون منهم فريقا، نقضا لميثاقنا الذي أخذناه عليهم، وجراة علينا وعلى خلاف أمرنا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى: وظن هؤلاء الإسرائيليون الذين وصف تعالى ذكره صفتهم: أنه أخذ ميثاقهم: وأنه أرسل إليهم رسلا وأنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وقتلوا فريقا أن لا يكون من الله لهم ابتلاء

واختبارًا بالشدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون

"فعموا وصموا"، يقول: فعموا عن الحق والوفاء بالميثاق الذي أخذته عليهم، من إخلاص عبادتي، والانتهاه إلى أمري ونهيي، والعمل بطاعتي، بحسبانهم ذلك وظنهم "وصموا" عنه ثم تبت عليهم. يقول: ثم هديتهم بلطف مني لهم حتى أنابوا ورجعوا عما كانوا عليه من معاصي وخلاف أمري والعمل بما أكرهه منهم، إلى العمل بما أحبه، والانتهاه إلى طاعتي وأمرني ونهيي "ثم عموا وصموا كثير منهم"، يقول: ثم عموا أيضًا عن الحق والوفاء بميثاقي الذي أخذته عليهم: من العمل بطاعتي، والانتهاه إلى أمري، واجتناب معاصي "وصموا كثير منهم"، يقول: عمى كثير من هؤلاء الذين كنت أخذت ميثاقهم من بني إسرائيل، باتباع رسلي والعمل بما أنزلت إليهم من كتيبي عن الحق وصموا، بعد توبتي عليهم، واستنقاذي إياهم من الهلكة "والله بصير بما يعملون"، يقول "بصير"، فيرى أعمالهم خيرها وشرها، فيجازيهم يوم القيامة بجميعها، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تاويل قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن بعض ما فتن به الإسرائيليين الذين أخبر عنهم أنهم حسبوا أن لا تكون فتنة. يقول تعالى ذكره: فكان مما ابتليتهم واختبرتهم به، فنقضوا فيه ميثاقي، وغيروا عهدي الذي كنت أخذته عليهم بأن لا يعبدوا سواي، ولا يتخذوا ربًّا غيري، وأن يوحدوني، وينتهوا إلى طاعتي عبدي عيسى ابن مريم، فإني خلقتها، وأجريت على يده نحو الذي أجريت على يد كثير من رسلي، فقالوا كفرًا منهم: "هو الله".

وهذا قول اليعقوبية من النصارى عليهم غضب الله.

يقول الله تعالى ذكره: فلما اختبرتهم وابتليتهم بما ابتليتهم به، أشركوا بي، وقالوا لخلق من خلقي، وعبد مثلهم من عبيدي، وبشر نحوهم معروفٍ نسبه وأصله، مولود من البشر، يدعوه إلى توحيددي، ويأمرهم بعبادتي وطاعتي، ويقرّ لهم بأني ربه وربهم، وينهاهم عن أن يشركوا بي شيئًا: "هو إلههم"، جهلا منهم بالله وكفرًا به، ولا ينبغي لله أن يكون والدًا ولا مولودًا.

ويعني بقوله: "وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم"، يقول: اجعلوا العبادة والتذلل للذي له يَدَلُّ كل شيء، وله يخضع كل موجود "ربي وربكم"، يقول: مالكي ومالككم، وسيدي وسيدكم، الذي خلقتني وإياكم "إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة"، أن يسكنها في الآخرة "ومأواه النار"، يقول: ومرجعه ومكانه - الذي يأوي إليه ويصير

في معاده، من جعل لله شريكاً في عبادته - نارُ جهنم "وما للظالمين"، يقول: وليس لمن فعل غير ما أباح الله له، وعبد غير الذي له عبادة الخلق "من أنصار"، ينصرونه يوم القيامة من الله، فينقذونه منه إذا أورده جهنم.

القول في تاويل قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أيضاً خبر من الله تعالى ذكره عن فريق آخر من الإسرائيليين الذين وصف صفتهم في الآيات قبل: أنه لما ابتلاهم بعد حسبانهم أنهم لا يتبلون ولا يفتنون، قالوا كفراً برهم وشرّاً: "الله ثالث ثلاثة".

وهذا قولٌ كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكية والنسطورية. كانوا فيما بلغنا يقولون: "الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم: أباً والدّاً غير مولود، وابتناً مولوداً غير والد، وزوجاً متبّعة بينهما". يقول الله تعالى ذكره، مكدّباً لهم فيما قالوا من ذلك: "وما من إله إلا إله واحد"، يقول: ما لكم معبود، أيها الناس، إلا معبود واحد، وهو الذي ليس بوالد لشيء ولا مولود، بل هو خالق كل والد ومولود "وإن لم ينتهوا عما يقولون"، يقول: إن لم ينتهوا فائقوا هذه المقالة عما يقولون من قولهم: "الله ثالث ثلاثة" "ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم"، يقول: ليمسّن الذين يقولون هذه المقالة، والذين يقولون المقالة الأخرى: "هو المسيح ابن مريم"، لأن الفريقين كلاهما كفر مشركون، فلذلك رجع في الوعيد بالعذاب إلى العموم، ولم يقل: "ليمسّنهم عذاب أليم"، لأن ذلك لو قيل كذلك، صار الوعيد من الله تعالى ذكره خاصاً لقائل القول الثاني، وهم القائلون: "الله ثالث ثلاثة"، ولم يدخل فيهم القائلون: "المسيح هو الله". فعمّ بالوعيد تعالى ذكره كلّ كافر، ليعلم المخاطبون بهذه الآيات أنّ وعيد الله قد شمل كلا الفريقين من بني إسرائيل، ومن كان من الكفار على مثل الذي هم عليه.

فتأويل الكلام، إذ كان الأمر على ما وصفنا: وإن لم ينته هؤلاء الإسرائيليون عما يقولون في الله من عظيم القول، ليمسّن الذين يقولون منهم: "إن المسيح هو الله"، والذين يقولون: "إن الله ثالث ثلاثة"، وكل كافر سلك سبيلهم عذاب أليم، بكفرهم بالله.

القول في تاويل قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أفلا يرجع هذان الفريقان الكافران القائل أحدهما: "إن الله هو المسيح ابن مريم"، والآخر القائل: "إن الله ثالث ثلاثة" عما قالوا من ذلك، ويتوبان مما قالوا ونطقا به من كفرهما، ويسألان ربهما المغفرة مما قالوا "والله غفور" "لذنوب التائبين من خلقه، المنيين إلى طاعته بعد معصيتهم" رحيم بهم، في قبوله توبتهم ومراجعتهم إلى ما يحبّ مما يكره، فيصفح

بذلك من فعلهم عما سلف من أجرامهم قبل ذلك.

القول في تاويل قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره، احتجاجاً لنبیه محمد ﷺ على فرق النصارى في قولهم في المسيح. يقول مكذباً لليعقوبية في قيلهم: "هو الله" والآخرين في قيلهم: "هو ابن الله": ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة في المسيح، ولكنه ابن مريم ولدته ولادة الأمهات أبناءهن، وذلك من صفة البشر لا من صفة خالق البشر، وإنما هو الله رسولٌ كسائر رسله الذين كانوا قبله فمضوا وخلّوا، أجرى على يده ما شاء أن يجريه عليها من الآيات والعبر، حجة له على صدقه، وعلى أنه الله رسول إلى من أرسله إليه من خلقه، كما أجرى على أيدي من قبله من الرسل من الآيات والعبر، حجة لهم على حقيقة صدقهم في أنهم لله رسولٌ وأمه صديقة، يقول تعالى ذكره وأمّ المسيح صديقة. و"الصديقة" الفعيلة، من "الصدق" وقد قيل إن "أبا بكر الصديق" (رضي الله عنه) إنما قيل له: "الصديق" لصدقه. وقد قيل: إنما سمي "صديقاً"، لتصديقه النبي ﷺ في مسيره في ليلة واحدة إلى بيت المقدس من مكة، وعوده إليها. وقوله: "كانا يأكلان الطعام"، خبرٌ من الله تعالى ذكره عن المسيح وأمه: أنهما كانا أهل حاجة إلى ما يغذوهما وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم، فإن كان كذلك، فغير كائن إلهاً، لأن المحتاج إلى الغذاء قوامه بغيره. وفي قوامه بغيره وحاجته إلى ما يقيمه، دليل واضح على عجزه. والعاجز لا يكون إلا مربوباً لا ربّاً.

القول في تاويل قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبیه محمد ﷺ: انظر يا محمد، كيف نبين لهؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى "الآيات"، وهي الأدلة، والأعلام والحجج على بطلان ما يقولون في أنبياء الله، وفي فريتهم على الله، وادّعائهم له ولداً، وشهادتهم لبعض خلقه بأنه لهم ربٌّ وإله، ثم لا يرتدعون عن كذبهم وباطل قيلهم، ولا ينزجرون عن فريتهم على ربهم وعظيم جهلهم، مع ورود الحجج القاطعة عذرهم عليهم. يقول تعالى ذكره لنبیه محمد ﷺ: "ثم انظر"، يا محمد "أننى يؤفكون"، يقول: ثم انظر، مع تبيننا لهم آياتنا على بطلان قولهم، أي وجه يُصرفون عن بياننا الذي نبينه لهم؟ وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحق يضلون؟ والعرب تقول لكل مصروف عن شيء: "هو مأفوك عنه".

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أيضاً احتجاجٌ من الله تعالى ذكره لنبیه محمد ﷺ على النصارى القائلين في المسيح ما وصف من قيلهم فيه قبل.

يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لهؤلاء الكفرة من النصارى، الزاعمين أن المسيح ربهم، والقائلين إن الله ثالث ثلاثة أتعبدون سوى الله الذي يملك ضركم ونفعكم، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو يحييكم ويميتكم شيئاً لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً؟ يخبرهم تعالى ذكره أن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله، والذي زعم من زعم منهم أنه الله ابن، لا يملك لهم ضرراً يدفعه عنهم إن أحلّه الله بهم، ولا نفعاً يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم. يقول تعالى ذكره: فكيف يكون رباً وإلهاً من كانت هذه صفته؟ بل الربُّ المعبودُ: الذي بيده كل شيء، والقادر على كل شيء. فإياه فاعبدوا وأخلصوا له العبادة، دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرّون.

وأما قوله: "والله هو السميع العليم" فإنه يعني تعالى ذكره بذلك: "والله هو السميع"، لاستغفارهم لو استغفروه من قيلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقتهم ومنطق خلقه "العليم"، بتوبتهم لو تابوا منه، وبغير ذلك من أمورهم.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۖ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خطابٌ من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ. يقول تعالى ذكره: "قل"، يا محمد، لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح "يا أهل الكتاب"، يعني بـ"الكتاب"، الإنجيل "لا تغلوا في دينكم"، يقول: لا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحقَّ إلى الباطل، فتقولوا فيه: "هو الله"، أو: "هو ابنه"، ولكن قولوا: "هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً"، يقول: ولا تتبعوا أيضاً في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا: "هو لغير رشدة"، وتبهتوا أمّه كما بهتوها بالفرية وهي صدّيقة "وأضلوا كثيراً"، يقول تعالى ذكره: وأضل هؤلاء اليهود كثيراً من الناس، فحادوا بهم عن طريق الحق، وحملوهم على الكفر بالله والتكذيب بالمسيح

"وضلوا عن سواء السبيل"، يقول: وضل هؤلاء اليهود عن قصد الطريق، وركبوا غير محبّة الحق. وإنما يعني تعالى ذكره بذلك، كفرهم بالله، وتكذيبهم رسله: عيسى ومحمدًا ﷺ، وذهابهم عن الإيمان وبعدهم منه. وذلك كان ضلالهم الذي وصفهم الله به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۖ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، قل لهؤلاء النصارى الذين وصف تعالى ذكره صفتهم: لا تغلوا فتقولوا في المسيح غير الحق، ولا تقولوا

فيه ما قالت اليهود الذين قد لعنهم الله على لسان أنبيائه ورسله، داود وعيسى ابن مريم. وكان لعن الله إياهم على ألسنتهم، كالذي: جاء عن ابن عباس قوله: "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم" قال: لعنوا بكل لسان: لعنوا على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن.

فتأويل الكلام إذا: لعن الله الذين كفروا من اليهود بالله على لسان داود وعيسى ابن مريم، ولعن والله آبائهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، بما عصوا الله فخالفوا أمره "وكانوا يعتدون"، يقول: وكانوا يتجاوزون حدوده.

القول في تأويل قوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٦﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كان هؤلاء اليهود الذين لعنهم الله "لا يتناهون"، يقول: لا يمتنعون عن منكر فعلوه، ولا ينهي بعضهم بعضاً. ويعني بـ"المنكر"، المعاصي التي كانوا يعصون الله بها. فتأويل الكلام: كانوا لا يمتنعون عن منكر أتوه "لبئس ما كانوا يفعلون". وهذا قسم من الله تعالى ذكره يقول: أقسم: لبئس الفعل كانوا يفعلون، في تركهم الانتهاء عن معاصي الله تعالى ذكره، وركوب محارمه، وقتل أنبياء الله ورسله

القول في تأويل قوله: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝٧٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ترى"، يا محمد، كثيراً من بني إسرائيل "يتولون الذين كفروا"، يقول: يتولون المشركين من عبدة الأوثان، ويعادون أولياء الله ورسله "لبئس ما قدمت لهم أنفسهم"، يقول تعالى ذكره: أقسم: لبئس الشيء الذي قدمت لهم أنفسهم أمامهم إلى معادهم في الآخرة "أن سخط الله عليهم"، يقول: قدمت لهم أنفسهم سخط الله عليهم بما فعلوا. "وفي العذاب هم خالدون"، يقول: وفي عذاب الله يوم القيامة "هم خالدون"، دائم مقامهم ومكثهم فيه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا اخْذَوْهُمْ أُولِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝٧٨﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو كان هؤلاء الذين يتولون الذين كفروا من بني إسرائيل "يؤمنون بالله والنبى"، يقول: يصدقون الله ويقرّون به ويوحّدونه، ويصدقون نبيه محمداً ﷺ بأنه الله نبي مبعوث، ورسول مرسل "وما أنزل إليه"، يقول: ويقرّون بما أنزل إلى محمد ﷺ من عند الله من آي الفرقان

"ما اتخذوهم أولياء"، يقول: ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً من دون المؤمنين "ولكن كثيراً منهم فاسقون"، يقول: ولكن كثيراً منهم أهل خروج عن طاعة الله إلى

معصيته، وأهل استحلال لما حَرَّمَ الله عليهم من القول والفعل.

القول في تأويل قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيْنَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لتجدن، يا محمد، أشدَّ الناس عداوةً للذين صدَّقوك واتبعوك وصدَّقوا بما جئتهم به من أهل الإسلام "اليهود والذين اشركوا"، يعني: عبدة الأوثان الذين اتخذوا الأوثان آلهة يعبدونها من دون الله "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا"، يقول: ولتجدن أقرب الناس مودةً ومحبة.

و"المودة" "المفعلة"، من قول الرجل: "وددت كذا أو دُء، وودًا، وودًا ومودة"، إذا أحبته. "للذين آمنوا"، يقول: للذين صدَّقوا الله ورسوله محمدًا ﷺ "الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قيسيين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون"، عن قبول الحق واتباعه والإذعان به.

وقيل: إن هذه الآية والتي بعدها نزلت في نفرٍ قدِموا على رسول الله ﷺ من نصارى الحبشة، فلما سمعوا القرآن أسلموا واتبعوا رسول الله ﷺ.

وقيل: إنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابٍ له أسلموا معه. كما جاء عن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي وفدًا إلى النبي ﷺ، فقرأ عليهم النبي ﷺ فأسلموا. قال: فأنزل الله تعالى فيهم: "لتجدن أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا"، إلى آخر الآية. قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه، فأسلم النجاشي، فلم يزل مسلمًا حتى مات. قال: فقال رسول الله ﷺ: إن أخاكم النجاشي قد مات، فصلُّوا عليه! فصلَّى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة، والنجاشي ثمَّ. وقال آخرون: بل هذه صفة قوم كانوا على شريعة عيسى من أهل الإيمان، فلما بعث الله تعالى ذكره نبيَّه محمدًا ﷺ آمنوا به.

قال أبو جعفر: والصواب في ذلك من القول عندي: أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا: "إنا نصارى"، أن نبيَّ الله ﷺ يجدهم أقرب الناس ودادًا لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسمِّ لنا أسماءهم. وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه.

وأما قوله تعالى: "ذلك بأن منهم قيسيين ورهبانًا"، فإنه يقول: قربت مودة هؤلاء الذين وصف الله صفتهم للمؤمنين، من أجل أن منهم قيسيين ورهبانًا. و"القيسيون" جمع "قيسي". وقد يجمع "القيسي" "قسوسًا"، لأن "القس" و"القيسي" بمعنى واحد.

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: "ذلك بأن منهم قيسيين ورهبانًا".

قال أبو جعفر: والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم لأن منهم أهل اجتهد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه، لأنهم أهل دين واجتهد فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝٣٨﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا سمع هؤلاء الذين قالوا: "إنا نصارى" الذين وصف لك، يا محمد، صفتهم أنك تجدهم أقرب الناس لمودة للذين آمنوا ما أنزل إليك من الكتاب يُتلى "ترى أعينهم تفيض من الدمع".

و"فيض العين من الدمع"، امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه

وقوله: "مما عرفوا من الحق"، يقول: فيض دموعهم، لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حق، كما جاء عن السدي قال: بعث النجاشي إلى النبي ﷺ اثني عشر رجلا يسألونه ويأتونه بخبره، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن، فبكوا. وكان منهم سبعة رهبان وخمسة قسيسين أو: خمسة رهبان، وسبعة قسيسين فأنزل الله فيهم: "وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع"، إلى آخر الآية.

وأما قوله: "يقولون"، فإنه لو كان بلفظ اسم، كان نصباً على الحال، لأن معنى الكلام: وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، قائلين: "ربنا آمنا". ويعني بقوله تعالى ذكره: "يقولون ربنا آمنا"، أنهم يقولون: يا ربنا، صدقنا لما سمعنا ما أنزلته إلى نبيك محمد ﷺ من كتابك، وأقررنا به أنه من عندك، وأنه الحق لا شك فيه.

وأما قوله: "فاكتبنا مع الشاهدين"، فإنه روي عن ابن عباس وغيره في تأويله كما جاء عن ابن عباس في قوله: "اكتبنا مع الشاهدين"، قال: أمة محمد ﷺ. فذهب ابن عباس إلى أن "الشاهدين"، هم "الشهداء" في قوله: "لتكونوا شهداء على الناس"، وهم أمة محمد ﷺ. وإذا كان التأويل ذلك، كان معنى الكلام: "يقولون ربنا آمنا فاككتبنا مع الشاهدين"، الذين يشهدون لأنبياك يوم القيامة، أنهم قد بلغوا أمهم رسالاتك. ومعنى "الكتاب"، في هذا الموضع: الجعل. يقول: فاجعلنا مع الشاهدين، وأثبتنا معهم في عدادهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسوله محمد ﷺ من كتابه، آمنوا به وصدقوا كتاب الله، وقالوا: "ما لنا لا نؤمن بالله"، يقول: لا نقرّ بوحدانية الله "وما جاءنا من الحق"، يقول: وما جاءنا من عند الله من كتابه وآي تنزيله، ونحن نطمعُ بإيماننا بذلك أن يدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين. يعني بـ "القوم الصالحين"، المؤمنين بالله، المطيعين له، الذين استحقوا من الله الجنة بطاعتهم إياه. وإنما معنى ذلك: ونحن نطمعُ أن يدخلنا ربُّنا مع أهل طاعته مداخلهم من جنته يوم القيامة، ويلحق منازلنا بمنزلهم، ودرجاتنا بدرجاتهم في جنَّاته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فجزاهم الله بقولهم: "ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين" "جنات تجري من تحتها الأنهار"، يعني: بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار "خالدين فيها"، يقول: دائماً فيها مكثهم، لا يخرجون منها ولا يحولون عنها "وذلك جزاء المحسنين"، يقول: وهذا الذي جزيَتْ هؤلاء القائلين بما وصفتُ عنهم من قيلهم على ما قالوا، من الجنات التي هم فيها خالدون، جزاء كل محسنٍ في قِبله وفِعله. و"إحسان المحسن" في ذلك، أن يوحد الله توحيداً خالصاً محضاً لا شرك فيه، ويقرّ بأنبياء الله وما جاءت به من عند الله من الكتب، ويؤدّي فرائضه، ويجتنب معاصيه. فذلك كمال إحسان المحسنين الذين قال الله تعالى ذكره: "جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها".

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأما الذين جحدوا توحيد الله، وأنكروا نبوة محمد ﷺ، وكذبوا بآيات كتابه، فإن أولئك "أصحاب الجحيم". يقول: هم سكّانها واللابثون فيها. و"الجحيم": ما اشتدَّ حرُّه من النار، وهو "الجاحِم" والجحيم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيُّهم ﷺ أنه حق من عند الله "لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم"، يعني بـ "الطيبات"، اللذيات التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب،

فتمنعوها إيّاها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرّموا على أنفسهم النساء والمطاعم

الطَّيِّبَةِ، والمُشَارِبَ اللَّذِيذَةِ، وَحَبَسَ فِي الصَّوَامِعِ بَعْضُهُمْ أَنْفُسَهُمْ، وَسَاحَ فِي الْأَرْضِ بَعْضُهُمْ. يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: فَلَا تَفْعَلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا فَعَلَ أَوْلَئِكَ، وَلَا تَعْتَدُوا حَدَّ اللَّهِ الَّذِي حَدَّ لَكُمْ فِيمَا أَحَلَّ لَكُمْ وَفِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، فَتَجَاوَزُوا حَدَّهَ الَّذِي حَدَّهُ، فَتَخَالَفُوا بِذَلِكَ طَاعَتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ اعْتَدَى حَدَّهَ الَّذِي حَدَّهُ لَخَلْقِهِ، فِيمَا أَحَلَّ لَهُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ. وَبَنَحُوا الَّذِي قَلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. كَالَّذِي جَاءَ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ"، الْآيَةَ، ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ رَفَضُوا النِّسَاءَ وَاللَّحْمَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّوَامِعَ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَيْسَ فِي دِينِي تَرْكُ النِّسَاءِ وَاللَّحْمِ، وَلَا اتِّخَاذُ الصَّوَامِعِ وَخُبِّرْنَا أَنَّ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اتَّفَقُوا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ اللَّيْلَ لَا أَنَامُ! وَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ النَّهَارَ فَلَا أَفْطِرُ! وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلَا آتِي النِّسَاءَ! فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَلَمْ أُنبَأْ أَنَّكُمْ اتَّفَقْتُمْ عَلَى كَذَا؟ قَالُوا: بَلَى! يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ! قَالَ: لَكِنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَآتِي النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي وَكَانَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَةِ: ﴿مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِكَ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِكَ وَقَدْ ضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْأَنَاسِ مِنْ أَصْحَابِهِ: إِنْ مَنْ قَبْلَكُمْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَهَؤُلَاءِ إِخْوَانُهُمْ فِي الدُّورِ وَالصَّوَامِعِ! اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَصُومُوا رَمَضَانَ، وَحُجُّوا وَعَاتَمَرُوا، وَاسْتَقِيمُوا يَسْتَقِمَ لَكُمْ.

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى "الْإِعْتِدَاءِ" الَّذِي قَالَ تَعَالَى ذَكَرَهُ: "وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ". وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ مَعْنَى "الْإِعْتِدَاءِ"، تَجَاوُزَ الْمَرْءِ مَالَهُ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فِيمَا مَضَى، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ قَدْ عَمَّ بِقَوْلِهِ: "لَا تَعْتَدُوا"، النَّهْيَ عَنِ الْعُدْوَانِ كُلِّهِ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَمَّا عَمَّ بِالْعُمُومِ حَتَّى يَخْصَّه مَا يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَدَّى حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِمَّا أَحَلَّ أَوْ حَرَّمَ، فَمَنْ تَعَدَّاهُ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي جُمْلَةِ مَنْ قَالَ تَعَالَى ذَكَرَهُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ".

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ، لَهُؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ نَهَاَهُمْ أَنْ يَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ: كُلُوا، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، مِنْ رِزْقِ اللَّهِ الَّذِي رَزَقَكُمْ وَأَحْلَهُ لَكُمْ، حَلَالًا طَيِّبًا،

وَأَمَّا قَوْلُهُ: "وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ"، فَإِنَّهُ يَقُولُ: وَخَافُوا، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَنْ تَعْتَدُوا فِي حُدُودِهِ، فَتُحْلَلُوا مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَتُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ لَكُمْ، وَاحْذَرُوا فِي ذَلِكَ أَنْ تَخَالَفُوهُ، فَيَنْزِلَ بِكُمْ سَخَطُهُ، أَوْ تَسْتَوْجِبُوا بِهِ عِقَابَهُ "الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ"، يَقُولُ: الَّذِي أَنْتُمْ بُوْحْدَانِيَّتِهِ مُقَرُّونَ، وَبِرُبُوبِيَّتِهِ مُصَدِّقُونَ.

القول في تاويل قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، للذين كانوا حَرَّمُوا على أنفسهم الطيبات من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا حَرَّمُوا ذلك بأيمانٍ حَلَفُوا بها، فنهاهم عن تحريمها وقال لهم: لَا يُؤَاخِذُكُمْ رَبُّكُمْ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذَا: لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، مِنْ أَيْمَانِكُمْ بِمَا لَعَنْتُمْ فِيهِ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا أَوْجَبْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْهَا، وَعَقَّدْتُمْ عَلَيْهِ قُلُوبَكُمْ. وقد بينا اليمين التي هي "لغو" والتي الله مُؤَاخِذُ الْعِبْدِ بها، والتي فيها الْحِنْثُ، والتي لَا حِنْثُ فيها فيما مضى من كتابنا هذا، فكرهنا إعادة ذلك في هذا الموضع.

وأما قوله: "بما عقدتم الأيمان" أي بما تعمدتم

القول في تاويل قوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ﴾ قال أبو جعفر: ومعنى الكلام: "لا يؤاخذكم الله أيها الناس، بلغو من القول والأيمان، إذا لم تتعمدوا بها معصية الله تعالى ذكره ولا خلاف أمره، ولم تقصدوا بها إثماً، ولكن يؤاخذكم بما تعمدتم به الإثم، وأوجبتموه على أنفسكم، وعزمت عليه قلوبكم، ويكفر ذلك عنكم، فيغطي على سيئ ما كان منكم من كذب وزور قول، ويمحوه عنكم فلا يتبعكم به ربكم" إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم".

القول في تاويل قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "من أوسط ما تطعمون أهليكم"، من أعدله

القول في تاويل قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: فكفارة ما عقدتم من الأيمان: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم. يقول: إما أن تطعموهم أو تكسوهم. والخيار في ذلك إلى المكفر.

القول في تاويل قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: أو فك عبد من أسر العبودة وذلكها. وأصل "التحرير"، الفك من الأسر

والمكفر مخير في تكفير يمينه التي حنث فيها بإحدى هذه الحالات الثلاث التي سماها الله في كتابه، وذلك: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم أهله، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة بإجماع من الجميع، لا خلاف بينهم في ذلك.

القول في تاويل قوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "فمن لم يجد"، لكفارة يمينه التي لزمه تكفيرها من الطعام والكسوة والرقاب ما يكفرها به على ما فرضنا عليه وأوجبناه في كتابنا وعلى لسان رسولنا محمد ﷺ "فصيام ثلاثة أيام"،

يقول: فعلية صيام ثلاثة أيام.

ثم اختلف أهل العلم في معنى قوله: "فمن لم يجد"، ومتى يستحق الحاث في يمينه الذي قد لزمته الكفارة، اسم "غير واجد"، حتى يكون ممن له الصيام في ذلك.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن من لم يكن عنده في حال حثه في يمينه إلا قدر قوته وقوت عياله يومه وليلته، لا فضل له عن ذلك، يصوم ثلاثة أيام، وهو ممن دخل في جملة من لا يجد ما يطعم أو يكسو أو يعتق. وإن كان عنده في ذلك الوقت من الفضل عن قوته وقوت عياله يومه وليلته، ما يطعم أو يكسو عشرة مساكين، أو يعتق رقبة، فلا يجزيه حيثنذ الصوم، لأن إحدى الحالات الثلاث حيثنذ من إطعام أو كسوة أو عتق، حق قد أوجبه الله تعالى ذكره في ماله وجوب الدين. وقد قامت الحجة بأن المفلس إذا فرق ماله بين غرمائه: أنه لا يترك ذلك اليوم إلا ما لا بد له من قوته وقوت عياله يومه وليلته. فكذاك حكم المعدم بالدين الذي أوجبه الله تعالى ذكره في ماله بسبب الكفارة التي لزمته ماله.

واختلف أهل العلم في صفة الصوم الذي أوجبه الله في كفارة اليمين.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أوجب على من لزمته كفارة يمين، إذا لم يجد إلى تكفيرها بالإطعام أو الكسوة أو العتق سبيلاً أن يكفرها بصيام ثلاثة أيام، ولم يشترط في ذلك متتابعة. فكيفما صامهنّ المكفر مفارقة ومتابعة، أجزأه. لأن الله تعالى ذكره إنما أوجب عليه صيام ثلاثة أيام، فكيفما أتى بصومهنّ أجزأ.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ذلك"، هذا الذي ذكرت لكم أنه كفارة أيمانكم، من إطعام العشرة المساكين، أو كسوتهم، أو تحرير الرقبة، وصيام الثلاثة الأيام إذا لم تجدوا من ذلك شيئاً هو كفارة أيمانكم التي عقدتموها إذا حلفتُمْ واحفظوا، أيها الذين آمنوا أيمانكم أن تحتثوا فيها، ثم تُضيعوا الكفارة فيها بما وصفته لكم "كذلك يبين الله لكم آياته"، كما بين لكم كفارة أيمانكم، كذلك يبين الله لكم جميع آياته يعني أعلام دينه فيوضحها لكم لئلا يقول المضيع المفرط فيما ألزمه الله: "لم أعلم حكم الله في ذلك!" "لعلكم تشكرون"، يقول: لتشكروا الله على هدايته وإياكم وتوفيقه لكم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا بيان من الله تعالى ذكره للذين حرّموا على أنفسهم النساء والنوم واللحم من أصحاب النبي ﷺ، تشبهاً منهم بالقسيسين والرهبان، فأنزل الله فيهم على نبيه ﷺ كتابه ينهاهم عن ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا

طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ، [المائدة: ٨٧]. فنهاهم بذلك عن تحريم ما أحل الله لهم من الطيبات. ثم قال: ولا تعتدوا أيضًا في حدودي، فتحلوا ما حرمت عليكم، فإن ذلك لكم غير جائز، كما غير جائز لكم تحريم ما حللت، وإني لا أحب المعتدين. ثم أخبرهم عن الذي حرم عليهم مما إذا استحلوه وتقدموا عليه، كانوا من المعتدين في حدوده فقال لهم: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، إن الخمر التي تشربونها، والميسر الذي تتيأسرونه، والأنصاب التي تذبحون عندها، والأزلام التي تستقسمون بها "رجس"، يقول: إثم ونتن سخطه الله وكرهه لكم "من عمل الشيطان"، يقول: شربكم الخمر، وقماركم على الجزر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم "فاجتنبوه"، يقول: فاتركوه وارفضوه ولا تعملوه "لعلكم تفلحون"، يقول: لكي تنجحوا فتدركوا الفلاح عند ربكم بترككم ذلك. وقد بينا معنى "الخمر"، و"الميسر"، و"الأزلام" فيما مضى، فكرهنا إعادته. وأما "الأنصاب"، فإنها جمع "نصب"، وقد بينا معنى "النصب" بشواهد فيما مضى.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر والمياسرة بالقداح، ويحسن ذلك لكم، إرادة منه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر ومياسرتكم بالقداح، ليعادي بعضكم بعضًا، ويبغض بعضكم إلى بعض، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام "ويصدكم عن ذكر الله"، يقول: ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم، وباشتغالكم بهذا الميسر، عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم "وعن الصلاة"، التي فرضها عليكم ربكم "فهل أنتم منتهون"، يقول: فهل أنتم منتهون عن شرب هذه، والمياسرة بهذا، وعاملون بما أمركم به ربكم من أداء ما فرض عليكم من الصلاة لأوقاتها، ولزوم ذكره الذي به نجح طلباتكم في عاجل دنياكم وآخرتكم؟

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول"، في اجتنابكم ذلك، واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالفوا الشيطان في أمره إياكم بمعصية الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكم العداوة والبغضاء بينكم بالخمر والميسر

"واحدروا"، يقول: واتقوا الله وراقبوه أن يراكم عند ما نهاكم عنه من هذه الأمور التي حرّمها عليكم في هذه الآية وغيرها، أو يفقدكم عند ما أمركم به، فتوبقوا أنفسكم وتهلكوها" فإن توليتهم"، يقول: فإن أنتم لم تعملوا بما أمرناكم به، وتنتهوا عما نهيناكم عنه، ورجعتم مدبرين عما أنتم عليه من الإيمان والتصديق بالله وبرسوله، واتباع ما جاءكم به نبيكم "فاعملوا أنما على رسولنا البلاغ المبين"، يقول: فاعلموا أنه ليس على من أرسلناه إليكم بالندارة غير إبلاغكم الرسالة التي أرسل بها إليكم، مبينة لكم بياناً يوضح لكم سبيل الحق، والطريق الذي أمرتم أن تسلكوه. وأما العقاب على التولية والانتقام بالمعصية، فعلى المرسل إليه دون الرسل. وهذا من الله تعالى وعيد لمن تولّى عن أمره ونهيه. يقول لهم تعالى ذكره: فإن توليتهم عن أمري ونهبي، فتوقّعوا عقابي، واحدروا سخطي.

القول في تأويل قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ إِمَّا تَطَعُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للقوم الذين قالوا إذ أنزل الله تحريم الخمر بقوله: "إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه": كيف بمن هلك من إخواننا وهم يشربونها؟ وبنا وقد كنّا نشرها؟ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات منكم حرج فيما شربوا من ذلك، في الحال التي لم يكن الله تعالى حرّمه عليهم "إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات"، يقول: إذا ما اتقى الله الأحياء منهم فخافوه، وراقبوه في اجتنابهم ما حرّم عليهم منه، وصدّقوا الله ورسوله فيما أمراهم ونهاهم، فأطاعوهما في ذلك كله "وعملوا الصالحات"، يقول: واكتسبوا من الأعمال ما يرضاه الله في ذلك مما كلفهم بذلك ربهم "ثم اتقوا وآمنوا"، يقول: ثم خافوا الله وراقبوه باجتنابهم محارمه بعد ذلك التكليف أيضاً، فثبتوا على اتقاء الله في ذلك والإيمان به، ولم يغيروا ولم يبدّلوا "ثم اتقوا وأحسنوا"، يقول: ثم خافوا الله، فدعاهم خوفهم الله إلى الإحسان، وذلك "الإحسان"، هو العمل بما لم يفرضه عليهم من الأعمال، ولكنه نوافل تقرّبوا بها إلى ربهم طلباً رضاه، وهرباً من عقابه "والله يحب المحسنين"، يقول: والله يحب المتقرّبين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاه.

فالاتقاء الأوّل: هو الاتقاء بتلقّي أمر الله بالقبول والتصديق، والدينونة به والعمل والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق، وترك التبديل والتغيير والاتقاء الثالث: هو الاتقاء بالإحسان، والتقرب بنوافل الأعمال. وبنحو الذي قلنا من أن هذه الآية نزلت فيما ذكرنا أنها نزلت فيه، جاءت الأخبار عن الصحابة والتابعين. كما جاء عن ابن عباس قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: يا رسول الله، فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فنزلت: "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح"، الآية.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْلُونَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله "ليلونكم الله بشيء من الصيد"، يقول: ليختبرنكم الله "بشيء من الصيد"، يعني: ببعض الصيد. وإنما أخبرهم تعالى ذكره أنه يبلوهم بشيء، لأنه لم يبلهم بصيد البحر، وإنما ابتلاهم بصيد البر، فالابتلاء ببعض لا بجميع. وقوله: "تناله أيديكم"، فإنه يعني: إما باليد، كالبيض والفراخ وإما بإصابة النبل والرماح، وذلك كالحمير والبقر والظباء، فيمتحنكم به في حال إحرامكم بعمرتكم أو بحجكم. وبنحو ذلك قالت جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: ليختبرنكم الله، أيها المؤمنون، ببعض الصيد في حال إحرامكم، كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به، والملتزمين إلى حدوده وأمره ونهيه، ومن الذي يخاف الله فيتقي ما نهاه عنه، ويجتنبه خوف عقابه "بالغيب"، بمعنى: في الدنيا، بحيث لا يراه. وقد بينا أن "الغيب"، إنما هو مصدر قول القائل: "غاب عني هذا الأمر فهو يغيب غيباً وغيباً"، وأن ما لم يُعَين، فإن العرب تسميه "غيباً". فتأويل الكلام إذاً: ليعلم أولياء الله من يخاف الله فيتقي محارمه التي حرّمها عليه من الصيد وغيره، بحيث لا يراه ولا يُعَينه. وأما قوله: "فمن اعتدى بعد ذلك"، فإنه يعني: فمن تجاوز حدّ الله الذي حدّه له، بعد ابتلائه بتحريم الصيد عليه وهو حرام، فاستحلّ ما حرّم الله عليه منه بأخذه وقتله "فله عذابٌ، من الله" أليم، يعني: مؤلم موجه.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله "لا تقتلوا الصيد"، الذي بينت لكم، وهو صيد البر دون صيد البحر "وأنتم حرم"، يقول: وأنتم محرمون بحج أو عمرة. فتأويل الكلام: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة. وقوله: "ومن قتله منكم متعمداً"، فإن هذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده حكم القاتل من المحرمين الصيد الذي نهاه عن قتله متعمداً. ثم اختلف أهل التأويل في صفة "العمد" الذي أوجب الله على صاحبه به الكفارة والجزاء في قتله الصيد.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره حرّم قتل صيد البر على كل محرّم في حال إحرامه ما دام حراماً بقوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد" ثم بيّن حكم من قتل ما قتل من ذلك في حال إحرامه متعمداً لقتله، ولم يخص به المتعمد قتله في حال نسيانه إحرامه، ولا المخطئ في قتله في حال ذكره إحرامه، بل عمّ في

التنزيل بإيجاب الجزاء، كل قاتل صيد في حال إحرامه متعمداً. وغير جائز إحالة ظاهر التنزيل إلى باطن من التأويل لا دلالة عليه من نص كتاب، ولا خبر لرسول الله ﷺ، ولا إجماع من الأمة. ولا دلالة من بعض هذه الوجوه. فإذا كان ذلك كذلك، فسواء كان قاتل الصيد من المحرمين عامداً قتله ذاكراً لإحرامه، أو عامداً قتله ناسياً لإحرامه، أو قاصداً غيره فقتله ذاكراً لإحرامه في أن على جميعهم من الجزاء ما قال ربنا تعالى ذكره، وهو: مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل من المسلمين، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً.

وأما قوله: "فجزاء مثل ما قتل من النعم"، فإنه يقول: وعليه كفاءً وبديل، يعني بذلك: جزاء الصيد المقتول. يقول تعالى ذكره: فعلى قاتل الصيد جزاء الصيد المقتول، مثل ما قتل من النعم. ثم اختلف أهل العلم في صفة "الجزاء"، وكيف يجزي قاتل الصيد من المحرمين ما قتل بمثله من النعم. قال أبو جعفر: وأولى القولين في تأويل الآية، ما قال عمر وابن عباس، ومن قال بقولهما: أن المقتول من الصيد يُجْزَى بمثله من النعم، كما قال الله تعالى ذكره: "فجزاء مثل ما قتل من النعم". وغير جائز أن يكون مثل الذي قتل من الصيد دراهم، وقد قال الله تعالى: "من النعم"، لأن الدراهم ليست من النعم في شيء.

القول في تأويل قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغِ كَعْبَةِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يحكم بذلك الجزاء الذي هو مثل المقتول من الصيد من النعم عدلان منكم يعني: فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل "هدياً"، يقول: يقضي بالجزاء ذوا عدل، أي يُهْدَي فيبلغ الكعبة. و"الهاء" في قوله: "ويحكم به"، عائدة على "الجزاء".

قال أبو جعفر: ووجه حكم العدلين إذا أرادوا أن يحكما بمثل المقتول من الصيد من النعم على القاتل: أن ينظرا إلى المقتول ويستوصفاه، فإن ذكر أنه أصاب ظيباً صغيراً، حكما عليه من ولد الضأن بنظير ذلك الذي قتله في السن والجسم، فإن كان الذي أصاب من ذلك كبيراً، حكما عليه من الضأن كبير. وإن كان الذي أصاب حماراً وحشاً، حكما عليه بقرة. إن كان الذي أصاب كبيراً من البقر، وإن كان صغيراً فصغيراً. وإن كان المقتول ذكراً فمثله من ذكور البقر. وإن كان أنثى فمثله من البقر أنثى. ثم كذلك ذلك، ينظران إلى أشبه الأشياء بالمقتول من الصيد شبهاً من النعم، فيحكمان عليه به، كما قال تعالى ذكره. وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل وأما قوله: "هدياً" فإنه مُصَدَّرٌ على الحال من "الهاء" التي في قوله: "يحكم به". وقوله: "بالغ الكعبة" من نعت "الهدي" وصفته. وإنما جاز أن ينعت به، وهو مضاف إلى معرفة، لأنه في معنى النكرة. وذلك أن معنى قوله: "بالغ الكعبة"، يبلغ الكعبة. فهو وإن كان مضافاً فمعناه التثوين، لأنه بمعنى الاستقبال، وهو نظير قوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطَرّاً﴾

[الأحقاف: ٢٤]، فوصف بقوله: "مطرنا""عارضاً"، لأن في "مطرنا" معنى التنوين، لأن تأويله الاستقبال، فمعناه: هذا عارض يمطرنا. فكذلك ذلك في قوله: "هدياً بالغ الكعبة".

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أو عليه كفارة طعام مساكين و"الكفارة" معطوفة على "الجزاء" في قوله: "فجزاء مثل ما قتل من النعم". واختلف أهل التأويل في معنى قوله: "أو كفارة طعام مساكين". ثم اختلفوا أيضاً في الصوم. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب عندي في قوله: "فجزاء مثل ما قتل من النعم"، أن يكون مراداً به: فعلى قاتله متعمداً مثل الذي قتل من النعم لا القيمة، إن اختار أن يجزيه بالمثل من النعم. وذلك أن القيمة إنما هي من الدنانير أو الدراهم. والدراهم أو الدنانير ليست للصيد بمثل، والله تعالى ذكره إنما أوجب الجزاء مثلاً من النعم. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب عندي في قوله: "أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً" أن يكون تخييراً، وأن يكون للقاتل الخيار في تكفيره بقتله الصيد وهو محرم بأيّ هذه الكفارات الثلاث شاء. لأن الله تعالى ذكره، جعل ما أوجب في قتل الصيد من الجزاء والكفارة عقوبة لفعله، وتكفيراً لذنبه، في إتلافه ما أتلّف من الصيد الذي كان حراماً عليه إتلافه في حال إحرامه، وقد كان حلالاً له قبل حال إحرامه، كما جعل الفدية من صيام أو صدقة أو نسك في حلق الشعر الذي حلقه المحرم في حال إحرامه، وقد كان له حلالاً قبل حال إحرامه، [عقوبة لفعله، وتكفيراً لذنبه] وحلق الشعر الذي حلقه المحرم في حال إحرامه وقد كان له حلقه قبل حال إحرامه، ثم منع من حلقه في حال إحرامه نظير الصيد. ثم جعل عليه إن حلقه جزاءً من حلقه إياه. فأجمع الجميع على أنه في حلقه إياه إذا حلقه من أذاته، مخير في تكفيره، فعله ذلك بأيّ الكفارات الثلاث شاء. لا فرق بين ذلك فمثله إن شاء الله قاتل الصيد من المحرمين ثم اختلفوا في صفة التقويم إذا أراد التكفير بالإطعام. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن قاتل الصيد إذا جزأه بمثله من النعم، فإنما يجزيه بنظيره في خلق وقدره في جسمه، من أقرب الأشياء به شبهاً من الأنعام. فإن جزأه بالإطعام، قوّمه قيمته بموضعه الذي أصابه فيه، لأنه هنالك وجب عليه التكفير بالإطعام. ثم إن شاء أطعم بالموضع الذي أصابه فيه، وإن شاء بمكة، وإن شاء بغير ذلك من المواضع حيث شاء، لأن الله تعالى ذكره؛ إنما شَرَطَ بلوغ الكعبة بالهدي في قتل الصيد دون غيره من جزائه، فللجأزي بغير الهدى أن يجزيه بالإطعام والصوم حيث شاء من الأرض. وبمثل الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل العلم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك:

أو على قاتل الصيد محرماً، عدل الصيد المقتول من الصيام. وذلك أن يقوم الصيد حياً غير

مقتول قيمته من الطعام بالموضع الذي قتله فيه المحرم، ثم يصوم مكان كل مدٍّ يومًا. وذلك أن النبي ﷺ عدَّلَ المدَّ من الطعام بصوم يوم في كفارة المَوَاقِعِ في شهر رَمَضَانَ.

وقد بينا فيما مضى قبل أن "العَدْلُ" في كلام العرب بالفتح، هو قدر الشيء من غير جنسه وأن "العَدْلُ" هو قدره من جنسه. كما جاء عن ابن جريج قال، قلت لعطاء: ما "عدل ذلك صيامًا"؟ قال: عدَّلَ الطعام من الصيام. قال: لكل مدٍّ يومًا، يأخذ زعم بصيام رمضان وبالظَّهَارِ. وزعم إن ذلك رأى يراه، ولم يسمعه من أحد، ولم تمض به سنة. قال: ثم عاودته بعد ذلك بحين، قلت: ما "عدل ذلك صيامًا"؟ قال: إن أصاب ما عدَّله شاةً، قَوِّمْتَ طعامًا، ثم صام مكان كل مدٍّ يومًا. قال: ولم أسأله: هذا رأي أو سنة مسنونة؟

القول في تأويل قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِه﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: أوجبت على قاتل الصيد محرماً ما أوجبت من الجزاء والكفارة الذي ذكرت في هذه الآية، كي يذوق وبال أمره وعذابه. يعني: "بأمره"، ذنبه وفعله الذي فعله من قتله ما نهاه الله عَزَّوَجَلَّ عن قتله في حال إحرام يقول: فألزمته الكفارة التي ألزمته إياها، لأذيقه عقوبة ذنبه. بإلزامه الغرامة، والعمل ببدنه مما يتعبه ويشق عليه. وأصل "الوبال"، الشدة في المكروه، ومنه قول الله عَزَّوَجَلَّ: فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا [المزمّل: ١٦]. وقد بيّن تعالى ذكره بقوله: "ليذوق وبال أمره"، أن الكفارات اللازمة الأموال والأبدان، عقوبات منه لخلقه، وإن كانت تمحيصاً لهم، وكفارةً لذُنُوبهم التي كفروها بها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل من قاتل لعباده المؤمنين به وبرسوله ﷺ: عفا الله، أيها المؤمنون، عما سلف منكم في جاهليتكم، من إصابتكم الصيد وأنتم حُرْمٌ، وقتلكموه، فلا يؤاخذكم بما كان منكم في ذلك قبل تحريمه إياه عليكم، ولا يلزمكم له كفارة في مال ولا نفس. ولكن من عاد منكم لقتله وهو محرم، بعد تحريمه بالمعنى الذي كان يَقْتُلُهُ في حال كفره، وقبل تحريمه عليه، من استحلاله قتله، فينتقم الله منه. وقد يحتمل أن يكون معناه: من عاد لقتله بعد تحريمه في الإسلام، فينتقم الله منه في الآخرة. فأما في الدنيا، فإن عليه من الجزاء والكفارة فيها ما بينت.

وأما قوله: "ذو انتقام"، فإنه يعني به: معاقبته لمن عصاه على معصيته إياه.

القول في تأويل قوله: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "أحل لكم"، أيها المؤمنون، "صيد البحر" وهو ما صيد طريقاً

وعنى بـ "البحر"، في هذا الموضع، الأنهار كلها. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: أحل لكم، أيها المؤمنون، طري سمك الأنهار الذي صدموه في حال حِلِّكم وحرَمكم، وما لم تصيدوه من

طعامه الذي قتله ثم رمى به إلى ساحله. واختلف أهل التأويل في معنى قوله: "وطعامه".

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، قول من قال: "طعامه"، ما قذفه البحر، أو حَسَر عنه فوجد ميتاً على ساحله. وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر قبله صيد الذي يصاد، فقال: "أحل لكم صيد البحر"، فالذي يجب أن يعطف عليه في المفهوم ما لم يُصَدَّ منه، فقال: أحل لكم ما صدموه من البحر، وما لم تصيدوه منه. كما جاء عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: "أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم"، قال: "طعامه"، ما لفظه ميتاً فهو طعامه".

القول في تأويل قوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "متاعاً لكم"، منفعة لمن كان منكم مقيماً أو حاضراً في بلده، يستمتع بأكله ويتنفع به "وللسيارة"، يقول: ومنفعة أيضاً ومتعة للسائرين من أرض إلى أرض، ومسافرين يتزودونه في سفرهم مليحاً. و"السيارة"، جمع "سيار". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: وحرم الله عليكم، أيها المؤمنون، صيد البر "ما دمتم حرماً"، يقول: ما كنتم محرمين، لم تجلوا من إحرامكم.

ثم اختلف أهل العلم في المعنى الذي عني الله تعالى ذكره بقوله: "وحُرِّمَ عليكم صيد البر". قال أبو جعفر: والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره، عمَّ تحريم كل معاني صيد البر على المحرم في حال إحرامه، من غير أن يخص من ذلك شيئاً دون شيء، فكل معاني الصيد حرام على المحرم ما دام حراماً، بيعه وشراؤه واصطياده وقتله، وغير ذلك من معانيه، إلا أن يجده مذبوحاً قد ذبحه حلالاً لحلال، فيحل له حيثئذ أكله، للثابت عن الخبر عن رسول الله ﷺ واختلفوا في صفة الصيد الذي عني الله تعالى بالتحريم في قوله: "وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً". فعن أبي مجلز: "وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً"، قال: ما كان يعيش في البر والبحر فلا تصده، وما كان حياته في الماء فذاك. وجاء عن عطاء بن أبي رباح قال، أكثر ما يكون حيث يُفْرَخ، فهو منه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقدُّم من الله تعالى ذكره إلى خلقه بالحذر من عقابه على معاصيه. يقول تعالى ذكره: واخشوا الله، أيها الناس، واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ، من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم وفي غيرها، فإنَّ الله مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه، ومجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له.

القول في تأويل قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: صَيَّرَ اللَّهُ الكعبة البيت الحرام قوامًا للناس الذين لا قِوَامَ لهم من رئيس يحجز قِوِيَهُم عن ضعيفهم، ومسيئهم عن محسنهم، وظالمهم عن مظلومهم "والشهر الحرام والهدي والقلائد"، فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض، إذ لم يكن لهم قِيَامٌ غيره، وجعلها معالم لدينهم، ومصالح أمورهم. و"الكعبة"، سميت فيما قيل "كعبة" لتربعها. وجعل تعالى ذكره الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قوامًا لمن كان يحرم ذلك من العرب ويعظمه، بمنزلة الرئيس الذي يقوم به أمر تَبَاعِهِ. وأما "الكعبة"، فالحرم كله. وسمّاها الله تعالى "حرامًا"، لتحريمه إياها أن يصاد صيدها أو يُخْتَلَى خَلاها، أو يُعْضَد شجرها، وقد بينا ذلك بشواهد فيما مضى قبل.

وقوله: "والشهر الحرام والهدي والقلائد"، يقول تعالى ذكره: وجعل الشهر الحرام والهدي والقلائد أيضًا قِيَامًا للناس، كما جعل الكعبة البيت الحرام لهم قِيَامًا. و"الناس" الذين جعل ذلك لهم قِيَامًا، مختلفٌ فيهم. قال أبو جعفر: وأقوال أهل التَأْوِيل وإن اختلفت من قائلها ألفاظها، فإن معانيها آيَةٌ إلى ما قلنا في ذلك، من أن "القوام" للشيء، هو الذي به صلاحه، كما الملك الأعظم، قوامٌ رعيته ومن في سلطانه، لأنه مدبّر أمرهم، وحاجز ظالمهم عن مظلومهم، والدافع عنهم مكروه من بغاهم وعاداهم. وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد، قوامٌ أمر العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية، وهي في الإسلام لأهله معالمٌ حجهم ومناسكهم، ومتوجّههم لصلاتهم، وقبلتهم التي باستقبالها يتم فرضهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قالت جماعة أهل التأويل. وقد أتينا على البيان عن ذكر: "الشهر الحرام" و"الهدي" و"القلائد"، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ذلك"، تصييره الكعبة البيت الحرام قِيَامًا للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد. يقول تعالى ذكره: صيرت لكم، أيها الناس، ذلك قِيَامًا، كي تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث، مما به قوامكم، علمًا منه بمنافعكم ومضاركم، أنه كذلك يعلم جميع ما في السموات وما في الأرض مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم، ولتعلموا أنه بكل شيء "عليم"، لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم، وهو محصياها عليكم، حتى يجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته.

القول في تأويل قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: اعلموا، أيها الناس، أن ربكم الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا

يخف عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلايتها، وهو يُخصيها عليكم لمجازيكم بها، شديد عقابه من عصاه وتمرد عليه، على معصيته إياه وهو غفور لذنوب من أطاعه وأتاب إليه، فسائر عليه، وتارك فضيحتة بها رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها.

القول في تأويل قوله: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا من الله تعالى ذكره تهديد لعباده ووعيد. يقول تعالى ذكره: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم، أيها الناس، بإنذاركم عقابنا بين يدي عذاب شديد، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حججكم إلا أن يؤدي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثواب على الطاعة، وعلينا العقاب على المعصية "والله يعلم ما تبذرون وما تكتُمون"، يقول: وغير خفي علينا المطيع منكم، القابل رسالتنا، العامل بما أمرته بالعمل به من المعاصي الآبي رسالتنا، التارك العمل بما أمرته بالعمل به، لأننا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق به بلسانه "وما تكتُمون"، يعني: ما تخفونه في أنفسكم من إيمان وكفر، أو يقين وشك ونفاق. يقول تعالى ذكره: فمن كان كذلك، لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور، وظواهر أعمال النفوس، مما في السموات وما في الأرض، وييده الثواب والعقاب فحقيق أن يُتقى، وأن يُطاع فلا يعصى.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ، قل يا محمد: لا يعتدل الرديء والجيد، والصالح والطالح، والمطيع والعاصي ولو أعجبك كثرة الخبيث"، يقول: لا يعتدل العاصي والمطيع لله عند الله، ولو كثرت أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم، لأن أهل طاعة الله هم المفلحون الفائزون بثواب الله يوم القيامة وإن قلوا، دون أهل معصيته وإن أهل معاصيه هم الأخسرون الخائبون وإن كثروا. يقول تعالى ذكره لنبية ﷺ: فلا تعجبن من كثرة من يعصى الله فيمهلها ولا يعاجله بالعقوبة، فإن العقبي الصالحة لأهل طاعة الله عنده دونهم وهذا الكلام وإن كان مخرجه مخرج الخطاب لرسول الله ﷺ، فالمراد به بعض أتباعه، يدل على ذلك قوله: "فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون"

القول في تأويل قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واتقوا الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم، واحذروا أن يستحوذ عليكم الشيطان بإعجابكم كثرة الخبيث، فتصيروا منهم "يا أولي الألباب"، يعني بذلك أهل العقول والحجج، الذين عقلوا عن الله آياته، وعرفوا مواقع حججه. "لعلكم تفلحون"، يقول: اتقوا الله لتفلحوا، أي: كي تنجحوا في طلبكم ما عنده.

القول في تاويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ قال أبو جعفر: ذكر أن هذه الآية أنزلت على رسول الله ﷺ بسبب مسائل كان يسألها إياه أقوام، امتحاناً له أحياناً، واستهزاءً أحياناً. فيقول له بعضهم: "من أبي؟" ويقول له بعضهم إذا ضلت ناقته: "أين ناقتي؟" فقال لهم تعالى ذكره: لا تسألوا عن أشياء من ذلك كمسألة عبد الله بن حذافة إياه من أبوه "إن تبد لكم تسؤكم"، يقول: إن أبدينا لكم حقيقة ما تسألون عنه، ساءكم إبداءها وإظهارها. وبنحو الذي قلنا في ذلك تظاهرت الأخبار عن أصحاب رسول الله ﷺ.

قال أبو جعفر: ونزلت هذه الآية من أجل إكثار السائلين رسول الله ﷺ المسائل، كمسألة ابن حذافة إياه من أبوه، ومسألة سائله إذ قال: "الله فرض عليكم الحج"، أفي كل عام؟ وما أشبه ذلك من المسائل، لتظاهر الأخبار بذلك عن الصحابة والتابعين وعامة أهل التأويل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للذين نهاهم من أصحاب رسول الله ﷺ عن مسألة رسول الله ﷺ عما نهاهم عن مسألتهم إياه عنه، من فرائض لم يفرضها الله عليهم، وتحليل أمور لهم يحللها لهم، وتحريم أشياء لم يحرمها عليهم قبل نزول القرآن بذلك: أيها المؤمنون السائلون عما سألوا عنه رسولي مما لم أنزل به كتاباً ولا وحياً، لا تسألوا عنه، فإنكم إن أظهر ذلك لكم تبياناً بوحى وتنزيل ساءكم، لأن التنزيل بذلك إذا جاءكم إنما يجيئكم بما فيه امتحانكم واختباركم، إما بإيجاب عمل عليكم، ولزوم فرض لكم، وفي ذلك عليكم مشقة ولزوم مؤونة وكلفة وإما بتحريم ما لو لم يأتكم بتحريمه وحي، كنتم من التقدم عليه في فسحة وسعة وإما بتحليل ما تعتقدون تحريمه، وفي ذلك لكم مساءة لتقلكم عما كنتم ترونه حقاً إلى ما كنتم ترونه باطلاً ولكنكم إن سألتهم عنها بعد نزول القرآن بها، وبعد ابتدائكم ببيان أمرها في كتابي إلى رسولي إليكم، ليسر عليكم ما أنزلته إليه من بيان كتابي، وتأويل تنزيلي ووحى

وأما قوله: "عفا الله عنها" فإنه يعني به: عفا الله لكم عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتهم عنها رسول الله ﷺ الذي كره الله لكم مسألتكم إياه عنها، أن يؤاخذكم بها، أو يعاقبكم عليها، إن عرف منها توبتكم وإنابتكم "والله غفور"، يقول: والله سائر ذنوب من تاب منها، فتارك أن يفضحه في الآخرة "حليم" ذو أناة عن أن يعاقبه بها، لتغمدته التائب منها برحمته، وعفوه، عن عقوبته عليها.

القول في تاويل قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قد سأل الآيات قوماً من قبلكم، فلما آتاهموها الله أصبحوا بها جاحدين، منكرين أن تكون دلالة على حقيقة ما احتج بها عليهم، وبرهاناً على صحة ما جعلت برهاناً

على تصحيحه تقوم صالح الذين سألوا الآية، فلما جاءتهم الناقة آيةً عقروها وكالذين سألوا عيسى مائدة تنزل عليهم من السماء، فلما أعطوها كفروا بها، وما أشبه ذلك.

فحذر الله تعالى المؤمنين بنبيه ﷺ أن يسلكوا سبيل من قبلهم من الأمم التي هلكت بكفرهم بآيات الله لما جاءتهم عند مسألتهموها، فقال لهم: لا تسألوا الآيات، ولا تبحثوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، فقد سأل الآيات من قبلكم قومٌ، فلما أوتوها أصبحوا بها كافرين

القول في تاويل قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما بحر الله بحيرة، ولا سيب سائبة، ولا وصل وصيلة، ولا حمى حامياً ولكنكم الذين فعلتم ذلك، أيها الكفرة، فحرمتموه افتراء على ربكم كما جاء عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَهُ في النار، وكان أول من سبَّ السَّيْب". و"البحيرة" الفعيلة من قول القائل: "بَحَرْتُ أذن هذه الناقة"، إذا شقها

وأما "السائبة": فإنها المسيبة المخلاة. وكانت الجاهلية يفعل ذلك أحدهم ببعض مواشيه، فيحرّم الانتفاع به على نفسه، كما كان بعض أهل الإسلام يعتق عبده سائبةً، فلا ينتفع به ولا بولائه. وأما "الوصيلة"، فإن الأنثى من نَعَمهم في الجاهلية كانت إذا أتأمت بطناً بذكر وأنثى، قيل: "قد وصلت الأنثى أخاها"، بدفعها عنه الذبح، فسمّوها "وصيلة". وأما "الحامي"، فإنه الفحل من النعم يُحمى ظهره من الركوب والانتفاع، بسبب تتابع أولادٍ تحدث من فحلته. قال أبو جعفر: وهذه أمور كانت في الجاهلية فأبطلها الإسلام، فلا نعرف قومًا يعملون بها اليوم.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المعنى ب"الذين كفروا" في هذا الموضع، والمراد بقوله: "وأكثرهم لا يعقلون". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن المعنيين بقوله: "ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب"، الذين بحروا البحائر، وسيّوا السوائب، ووصلوا الوصائل، وحموا الحوامي، مثل عمرو بن لحي وأشكاله ممن سنّ لأهل الشرك السنن الرديئة، وغير دين الله دين الحق، وأضافوا إلى الله تعالى ذكره: أنه هو الذي حرّم ما حرّموا، وأحلّ ما أحلوا، افتراءً على الله الكذب وهم يعلمون، واختلاقاً عليه الإفك وهم يفهمون، فكذبهم الله تعالى ذكره في قيلهم ذلك، وإضافتهم إليه ما أضافوا من تحليل ما أحلوا وتحريم ما حرّموا، فقال تعالى ذكره: ما جعلت من بحيرة ولا سائبة، ولكن الكفار هم الذين يفعلون ذلك، ويفترون على الله الكذب. وأن يقال، إن المعنيين بقوله: "وأكثرهم لا يعقلون"، هم أتباع من سنّ لهم هذه السنن من جهلة المشركين، فهم لا شك أنهم أكثر من الذين لهم سنوا ذلك لهم، فوصفهم الله تعالى بأنهم لا يعقلون، لأنهم لم يكونوا يعقلون أن الذين سنوا

لهم تلك السنن وأخبروهم أنها من عند الله، كذبة في إخبارهم، أفكّة، بل ظنوا أنهم فيما يقولون محقون، وفي إخبارهم صادقون. وإنما معنى الكلام: وأكثرهم لا يعقلون أن ذلك التحريم الذي حرّمه هؤلاء المشركون وأضافوه إلى الله تعالى ذكره كذب وباطل. وهذا القول الذي قلنا في ذلك، نظير قول الشعبي الذي ذكرنا قبل. ولا معنى لقول من قال: "عني بالذي كفروا أهل الكتاب"، وذلك أن النكير في ابتداء الآية من الله تعالى ذكره على مشركي العرب، فالختم بهم أولى من غيرهم، إذ لم يكن عرض في الكلام ما يُصرف من أجله عنهم إلى غيرهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين يبحرون البحائر ويسبيون السوائب؟ الذين لا يعقلون أنهم بإضافتهم تحريم ذلك إلى الله تعالى ذكره يفترون على الله الكذب: تعالوا إلى تنزيل الله وآي كتابه وإلى رسوله، ليتبين لكم كذب قيلكم فيم تضيفونه إلى الله تعالى ذكره من تحريمكم ما تحرّمون من هذه الأشياء أجابوا من دعاهم إلى ذلك بأن يقولوا: حسبنا ما وجدنا عليه من قبلنا آبائنا يعملون به، ويقولون: "نحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة، وقد اكتفينا بما أخذنا عنهم، ورضينا بما كانوا عليه من تحريم وتحليل". قال الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أَوَلَوْ كَانَ آبَاءُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا؟ يقول: لم يكونوا يعلمون أن ما يضيفونه إلى الله تعالى ذكره من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، كذبٌ وفريّةٌ على الله، لا حقيقة لذلك ولا صحة، لأنهم كانوا أتباع المفترين الذين ابتدعوا تحريم ذلك، افتراءً على الله بقليلهم ما كانوا يقولون من إضافتهم إلى الله تعالى ذكره ما يضيفون ولا كانوا فيما هم به عاملون من ذلك على استقامة وصواب، بل كانوا على ضلالة وخطأ.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم فأصلحوها، واعملوا في خلاصها من عقاب الله تعالى ذكره، وانظروا لها فيما يقربها من ربها، فإنه "لا يضرركم من ضلّ"، يقول: لا يضرركم من كفر وسلك غير سبيل الحق، إذا أنتم اهتديتم وأمتتم بربكم، وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فحرمتم حرامه وحللتهم حلاله. واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال وأصحّها التأويلات عندنا بتأويل هذه الآية، ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيها، وهو: "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم"، الزموا العمل بطاعة الله وبما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه "لا يضرركم من ضلّ إذا اهتديتم"، يقول: فإنه لا يضرركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله، وأديتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه، من فرض الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رام ظلمًا لمسلم أو معاهد ومنعه منه فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غيّه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم وأديتم حق الله تعالى ذكره فيه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من عباده: اعملوا، أيها المؤمنون، بما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه، ومروا أهل الزبغ والضلال وما حاد عن سبيلي بالمعروف، وانهؤهم عن المنكر. فإن قبلوا، فلهم ولكم، وإن تمادؤا في غيهم وضلالهم، فإن إليّ مرجع جميعكم ومصيركم في الآخرة ومصيرهم، وأنا العالم بما يعمل جميعكم من خير وشر، فأخبر هناك كل فريق منكم بما كان يعمل في الدنيا، ثم أجازيه على عمله الذي قدّم به عليّ جزاءه حسب استحقاقه، فإنه لا يخفى عليّ عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: "يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم"، يقول: ليشهد بينكم "إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية"، يقول: وقت الوصية "اثنان ذوا عدل منكم"، يقول: ذوا رشد وعقل وحجى من المسلمين واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "ذوا عدل منكم". قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بقوله: "اثنان ذوا عدل منكم"، تأويل من تأوّل بمعنى أنهما من أهل الملة، دون من تأوّل أنهما من حيّ الموصي. وأولى المعنيين بقوله: "شهادة بينكم" اليمين، لا "الشهادة" التي يقوم بها من عنده شهادة لغيره، لمن هي عنده، على من هي عليه عند الحكام. لأننا لا نعلم لله تعالى ذكره حكمًا يجب فيه على الشاهد اليمين، فيكون جائزًا صرف "الشهادة" في هذا الموضع، إلى "الشهادة" التي يقوم بها بعض الناس عند الحكام والأئمة. وفي حكم الآية في هذه، اليمين على ذوي العدل وعلى من قام مقامهم، باليمين بقوله "تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله" أوضح الدليل على صحة ما قلنا في ذلك، من أن "الشهادة" فيه: الأيمان، دون الشهادة التي يقضى بها للمشهود له على المشهود عليه وفساد ما خالفه.

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال أبو جعفر:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين: ليشهد بينكم إذا حضر أحدكم الموت، عدلان من المسلمين، أو آخران من غير المسلمين.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "أو آخران من غيركم". قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك عندنا بالصواب، تأويل من تأوّل: أو آخران من غير أهل الإسلام. وذلك أن الله تعالى عرّف عباده المؤمنين عند الوصية، شهادة اثنين من عدول المؤمنين، أو اثنين من غير المؤمنين. وقد دللنا قبل على أن قوله تعالى: "ذوا عدل منكم"، إنما هو من أهل دينكم وملتكم، بما فيه كفاية لمن وفق

لفهمه. وإذ صح ذلك بما دللنا عليه، فمعلوم أن معنى قوله: "أو آخران من غيركم"، إنما هو: أو آخران من غير أهل دينكم وملتكم. وإذ كان ذلك كذلك، فسواء كان الآخران اللذان من غير أهل ديننا، يهوديين كانا أو نصرانيين أو مجوسيين أو عابدي وثن، أو على أي دين كانا. لأن الله تعالى ذكره لم يخصص آخرين من أهل ملة بعينها دون ملة، بعد أن يكونا من غير أهل الإسلام.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين: صفة شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت وقت الوصية، أن يشهد اثنان ذوا عدل منكم، أيها المؤمنون، أو رجلان آخران من غير أهل ملتكم، إن أنتم سافرتم ذاهبين وراجعين في الأرض. وقد بينا فيما مضى السبب الذي من أجله قيل للمسافر: "الضارب في الأرض". فأصابتكم مصيبة الموت، يقول: فنزل بكم الموت. ووجه أكثر التأويل هذا الموضع إلى معنى التعقيب دون التخيير، وقالوا: معناه: شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية، اثنان ذوا عدل منكم إن وجداء، فإن لم يوجد فآخران من غيركم وإنما فعل ذلك من فعله، لأنه وجه معنى "الشهادة" في قوله: "شهادة بينكم"، إلى معنى الشهادة التي توجب للقوم قيام صاحبها عند الحاكم، أو يُبطلها. ووجه ذلك آخرون إلى معنى التخيير، وقالوا: إنما عني بالشهادة في هذا الموضع، الأيمان على الوصية التي أوصى إليهما، واتّمان الميت إياهما على ما اتّمنهما عليه من مال ليؤدّياه إلى ورثته بعد وفاته، إن ارتبب بهما. قالوا: وقد يتّمن الرجل على ماله من رآه موضعاً للأمانة من مؤمن وكافر في السفر والحضر. وقد ذكرنا الرواية عن بعض من قال هذا القول فيما مضى، وسنذكر بقيته إن شاء الله تعالى بعد.

القول في تأويل قوله: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت، إن شهد اثنان ذوا عدل منكم، أو كان أوصى إليهما أو آخران من غيركم إن كنتم في سفر فحضرتمكم المنيّة، فأوصيتم إليهما، ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال وتركه لورثتكم. فإذا أنتم أوصيتم إليهما ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال، فأصابتكم مصيبة الموت، فأدّيا إلى ورثتكم ما اتّمتموهما وأدّعوا عليهما خيانة خاناها مما اتّمنا عليه، فإن الحكم فيهما حيثن أن تحبسوهما يقول: تستوفقونهما بعد الصلاة. وفي الكلام محذوف اجتزئ بدلالة ما ظهر منه على ما حذف، وهو: "فأصابتكم مصيبة الموت، وقد أسندتم وصيتكم إليهما، ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال"، فإنكم تحبسونهما من بعد الصلاة "فيقسمان بالله إن ارتبتم"، يقول: فيحلفان بالله إن اتهمتموهما بخيانة فيما اتّمنا عليه من تغيير وصية أوصى إليهما بها أو تبديلها و"الارتباب"، هو الاتهام "لا نشترى به ثمنًا"، يقول: يحلفان بالله لا نشترى بأيماننا بالله ثمنًا، يقول: لا نحلف كاذبين

على عوض نأخذه عليه، وعلى مال نذهب به، أو لحقَّ نجحده لهؤلاء القوم الذين أوصى إلينا وليهم وميتهم. و"الهاء" في قوله: "به"، من ذكر "الله"، والمعنيُّ به الحلف والقسم، ولكنه لما كان قد جرى قبل ذلك ذكر القسم به، فعُرف معنى الكلام، اكتفي به من إعادة ذكر القسم والحلف.

"ولو كان ذا قربي"، يقول: يقسمان بالله لا نطلب بإقسامنا بالله عوضاً فنكذب فيها لأحد، ولو كان الذي نقسم به له ذا قرابة منا. وبنحو الذي قلنا في ذلك روي الخبر عن ابن عباس.

وقوله: "تحبسونهما من بعد الصلاة"، من صلاة الآخرين. ومعنى الكلام أو آخران من غيركم تحبسونهما من بعد الصلاة، إن ارتبتم بهما، فيقسمان بالله لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قربي. واختلفوا في "الصلاة" التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، فقال: "تحبسونهما من بعد الصلاة". قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا، قول من قال: "تحبسونهما من بعد صلاة العصر". لأن الله تعالى عرّف "الصلاة" في هذا الموضع بإدخال "الألف واللام" فيها، ولا تدخلهما العرب إلا في معروف، إما في جنس، أو في واحد معهود معروف عند المتخاطبين. فإذا كان كذلك، وكانت "الصلاة" في هذا الموضع مجمعة على أنه لم يُعَنَّ بها جميع الصلوات، لم يجز أن يكون مراداً بها صلاة المستحلف من اليهود والنصارى، لأن لهم صلوات ليست واحدة، فيكون معلوماً أنها المعنيّة بذلك. فإذا كان ذلك كذلك، صح أنها صلاة بعينها من صلوات المسلمين. وإذا كان ذلك كذلك، وكان النبي ﷺ صحيحاً عنه أنه إذ لَاعَنَ بين العَجَلَانِيْن، لَاعَنَ بينهما بعد العصر دون غيره من الصلوات كان معلوماً أن التي عنيت بقوله: "تحبسونهما من بعد الصلاة"، هي الصلاة التي كان رسول الله ﷺ يتخيرها لاستحلاف من أراد تغليظَ اليمين عليه. هذا مع ما عند أهل الكفر بالله من تعظيم ذلك الوقت، وذلك لقربه من غروب الشمس. وكان ابن زيد يقول في قوله: "لا نشترى به ثمناً"، قال: نأخذ به رشوة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَانِ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "فإن عُثِرَ"، فإن اطلع منهما أو ظهر.

وأصل "العثر"، الوقوع على الشيء والسقوط عليه، ومن ذلك قولهم: "عثرت إصبع فلان بكذا"، إذا صدمته وأصابته ووقعت عليه، وأما قوله: "على أنهما استحقا إثماً"، فإنه يقول تعالى ذكره: فإن اطلع من الوصيين اللذين ذكر الله أمرهما في هذه الآية بعد حلفهما بالله: لا نشترى بأيماننا ثمناً ولو كان ذا قربي، ولا نكتم شهادة الله "على أنهما استحقا إثماً"، يقول: على أنهما استوجبا بأيمانهما التي حلفا بها إثماً، وذلك أن يطلع على أنهما كانا كاذبين في أيمانهما بالله ما حُتّا ولا بدّلنا ولا غيّرنا. فإن وجدا قد خانا من مال الميت شيئاً، أو غيرا وصيته، أو بدّلنا فأثما بذلك من حلفهما

بريهما "فآخراَن يقومان مقامهما"، يقول، يقوم حينئذ مقامهما من ورثة الميت، الأوليان الموصى إليهما. واختلف أهل التأويل في المعنى الذي له حَكَمُ الله تعالى ذكره على الشاهدين بالآيمان فنقلها إلى الآخرين، بعد أن عثر عليهما أنهما استحقا إثماً.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أنَّ الشاهدين ألزما اليمينَ في ذلك باتهام ورثة الميت إياهما فيما دفع إليهما الميت من ماله، ودعواهم قبلهما خيانةً مالٍ معلوم المبلغ، ونقلت بعد إلى الورثة عند ظهور الريبة التي كانت من الورثة فيهما، وصحة التهمة عليهما بشهادة شاهد عليهما أو على أحدهما، فيحلف الوارث حينئذ مع شهادة الشاهد عليهما، أو على أحدهما، إنما صحح دعواه إذا حَقَّقَ حقه أو: الإقرار يكون من الشهود ببعض ما ادَّعى عليهما الوارث أو بجميعة، ثم دعواهما في الذي أقرّا به من مال الميت ما لا يقبل فيه دعواهما إلا بينة، ثم لا يكون لهما على دعواهما تلك بينة، فينقل حينئذ اليمين إلى أولياء الميت. كالذي جاء عن ابن عباس، عن تميم الدراي في هذه الآية: "يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت"، قال: برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام. فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بربل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جام فضة يريد به الملك، وهو عَظُم تجارته، فمرض، فأوصى إليهما، وأمرهما أن يُبلِغا ما ترك أهله. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجَـم فبعناه بألف درهم، فقسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدما إلى أهله، دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجَـم، فسألوا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره: قال تميم: فلما أسلمتُ بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، وأدّيت إليهم خمسمئة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها! فوثبوا إليه، فأتوا به رسول الله ﷺ. وأما قوله: "عليهم" في هذا الموضع، فإن معناها: فيهم

القول في تأويل قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَيْنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فيقسم الآخراَن اللذان يقومان مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثماً بخيانتهم مال الميت، الأوليان باليمين والميت من الخائنين: "الشهادتنا أحقُّ من شهادتهما"، يقول: لأيماننا أحقُّ من أيمان المقسمين المستحقين الإثم، وأيمانهم الكاذبة في أنهما قد خانا في كذا وكذا من مال ميتنا، وكذا في أيمانهم التي حلفا بها "وما اعتدينا"، يقول: وما تجاوزنا الحقَّ في أيماننا. وقد بينا أن معنى "الاعتداء"، المجاوزة في الشيء حده.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ذلك"، هذا الذي قلت لكم في أمر الأوصياء إذا ارتبتم في أمرهم، واهتمتموهم بخيانة لِمَالٍ من أوصى إليهم، من حبسهم بعد الصلاة، واستحلافكم إياهم

على ما ادَّعى قتلهم أولياء الميت "أدنى" لهم "أن يأتوا بالشهادة على وجهها"، يقول: هذا الفعل، إذا فعلتم بهم، أقرب لهم أن يصدقوا في أيمانهم، ولا يكتموا، ويقرُّوا بالحق ولا يخونوا "أو يخافوا أن تردَّ أيمان بعد أيمانهم"، يقول: أو يخاف هؤلاء الأوصياء إن عثر عليهم أنهم استحقُّوا إثماً في أيمانهم بالله، أن تردَّ أيمانهم على أولياء الميت، بعد أيمانهم التي عُثِرَ عليها أنها كذب، فيستحقُّوا بها ما ادَّعوا قتلهم من حقوقهم، فيصدقوا حيثنَّذ في أيمانهم وشهادتهم، مخافة الفضيحة على أنفسهم، وحذراً أن يستحقَّ عليهم ما خانوا فيه أولياء الميت وورثته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول

تعالى ذكره: وخافوا الله، أيها الناس، وراقبوه في أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة، وأن تذهبوا بها مال من يَحْرُم عليكم ماله، وأن تخونوا من اتَّمنكم "واسمعوا"، يقول: اسمعوا ما يقال لكم وما توعظون به، فاعملوا به، وانتهوا إليه "والله لا يهدي القوم الفاسقين"، يقول: والله لا يوفِّق من فسَّق عن أمر ربِّه، فخالفه وأطاع الشيطانَ وعصى ربِّه. ثم اختلف أهل العلم في حكم هاتين الآيتين، هل هو منسوخ، أو هو مُحْكَم ثابت؟

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن حكم الآية غير منسوخ وذلك أن من حكم الله تعالى ذكره الذي عليه أهل الإسلام، من لدن بعث الله تعالى ذكره نبيَّه محمداً ﷺ إلى يومنا هذا، أن من ادَّعى عليه دعوى ممَّا يملكه بنو آدم، أن المدَّعى عليه لا يبرئه مما ادَّعى عليه إلا اليمين، إذا لم يكن للمدَّعي بيِّنة تصحِّح دعواه وأنه إن اعترف في يد المدَّعى عليه سلعة له، فادَّعى أنها له دون الذي في يده، فقال الذي هي في يده: "بل هي لي، اشتريتها من هذا المدَّعي"، أن القول قول من رَعِم الذي هي في يده أنه اشتراها منه، دون من هي في يده مع يمينه، إذا لم يكن للذي هي في يده بيِّنة تحقق به دعواه الشراء منه. فإذا كان ذلك حكم الله الذي لا خلاف فيه بين أهل العلم، وكانت الآيتان اللتان ذكر الله تعالى ذكره فيهما أمر وصية الموصي إلى عدلين من المسلمين، أو إلى آخرين من غيرهم، إنما ألزم النبي ﷺ، فيما ذكر عنه، الوصيين اليمينَ حين ادَّعى عليهما الورثة ما ادَّعوا، ثم لم يلزم المدَّعى عليهما شيئاً إذ حلفا، حتى اعترفت الورثة في أيديهما ما اعترفوا من الجام أو الإبريق أو غير ذلك من أموالهم، فزعماً أنهما اشترياه من ميتهم، فحيثنَّذ ألزم النبي ﷺ ورثة الميت اليمين، لأن الوصيين تحوُّلاً مدَّعين بدعواهما ما وجدًا في أيديهما من مال الميت أنه لهما، اشترى ذلك منه، فصاراً مُقرَّين بالمال للميت، مدَّعين منه الشراء، فاحتاجا حيثنَّذ إلى بيِّنة تصحِّح دعواهما، وصارت وورثة الميت ربَّ السلعة، أولى باليمين منهما. فذلك قوله تعالى ذكره: "فإن عثر على أنها استحقا إثماً فأخراَن يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما"، الآية.

القول في تأويل قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوَا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واتقوا الله، أيها الناس. واسمعوا وعظه إياكم وتذكيره لكم، واحذروا يومَ يَجْمَعُ الله الرسل ثم حذف "واحذروا"، واكتفى بقوله: "واتقوا الله واسمعوا"، عن إظهاره، وأما قوله: "ماذا أوجبتم"، فإنه يعني به: ما الذي أجابتمكم به أممكم، حين دعوتهم إلى توحيدي، والإقرار بي، والعمل بطاعتي، والانتفاء عن معصيتي؟ "قالوا لا علم لنا". فاختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب، قول من قال: "معناه: لا علم لنا، إلا علم أنت أعلم به منا"، لأنه تعالى ذكره أخبر عنهم أنهم قالوا: "لا علم لنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ"، أي: إنك لا يخفى عليك ما عندنا من علم ذلك ولا غيره من خفي العلوم وجليها. فإنما نفى القوم أن يكون لهم بما سئلوا عنه من ذلك علم لا يعلمه هو تعالى ذكره لا أنهم نفوا أن يكونوا علموا ما شاهدوا. كيف يجوز أن يكون ذلك كذلك، وهو تعالى ذكره يخبر عنهم أنهم يُخْبِرُونَ بما أجابهم به الأمم، وأنهم يستشهدون على تبليغهم الرسالة شهداء، فقال تعالى ذكره: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا [البقرة: ١٤٣].

القول في تأويل قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لعباده: احذروا يومَ يجمع الله الرسل فيقول لهم: ماذا أجابتمكم أممكم في الدنيا "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس". ف "إذ" من صلة "أجبتم"، كأن معناها: ماذا أجابت عيسى الأمم التي أرسل إليها عيسى. قال أبو جعفر: ومعنى الكلام: "إذ قال الله"، حين قال "يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس"، يقول: يا عيسى اذكر أياي عندك وعند والدتك، إذ قويتك بروح القدس وأعتك به. وقوله: "روح القدس"، يعني: بجبريل. يقول: إذ أعتك بجبريل. وقد بينت معنى ذلك، وما معنى "القدس"، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّمَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّيْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَّمْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيله، لعيسى: "اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس"، في حال تكليمك الناس في المهد وكهلاً. وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره: أنه أیده بروح القدس صغيراً في المهد، وكهلاً كبيراً فرد "الكهل" على قوله "في المهد"، لأن معنى ذلك: صغيراً، كما قال الله تعالى ذكره: دَعَانَا لِجَنَّةٍ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا، [يونس: ١٢]. وقوله: "وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل"، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك "إذ علمتك الكتاب"، وهو الخط "والحكمة"، وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك، وهو

الإنجيل "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير"، يقول: كصورة الطير..... "بإذني"، يعني بقوله "تخلق" تعمل وتصلح - "من الطين كهيئة الطير بإذني"، يقول: بعوني على ذلك، وعلم مني به "فتنفخ فيها"، يقول: فتنفخ في الهيئة، فتكون الهيئة والصورة طيراً بإذني "وتبرئ الأكمه"، يقول: وتشفي "الأكمه"، وهو الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، المطموس البصر "والأبرص بإذني". وقد بينت معاني هذه الحروف فيما مضى من كتابنا هذا مفسراً بشواهده، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله "وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات"، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفي عنك بني إسرائيل إذ كففتهم عنك، وقد هموا بقتلك "إذ جئتهم بالبينات"، يقول: إذ جئتهم بالأدلة والأعلام المعجزة على نبوتك، وحقيقة ما أرسلتك به إليهم. "فقال الذين كفروا منهم"، يقول تعالى ذكره: فقال الذين جحدوا نبوتك وكذبوك من بني إسرائيل "إن هذا إلا سحر مبين".

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واذكر أيضاً، يا عيسى، إذ ألقيت "إلى الخواريين"، وهم وزراء عيسى على دينه. وقد بينا معنى ذلك، ولم قيل لهم "الخواريون"، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذاً: وإذ ألقيت إلى الخواريين أن صدّقوا بي وبرسولي عيسى، فقالوا: "آمنّا"، أي: صدّقنا بما أمرتنا أن نؤمن يا ربنا "واشهد" علينا "بأنّا مسلمون"، يقول: واشهد علينا بأننا خاضعون لك بالدّلة، سامعون مطيعون لأمرك.

القول في تأويل قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مَوْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واذكر، يا عيسى، أيضاً نعمتي عليك، إذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي، إذ قالوا لعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء - ف"إذ"، الثانية من صلة "أوحيت". كما جاء عن ابن عباس: أنه كان يحدث عن عيسى عليه السلام: أنه قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا الله ثلاثين يوماً، ثم تسألوه فيعطيك ما سألتم؟ فإن أجر العامل على من عمل له! ففعلوا، ثم قالوا: يا معلّم الخير، قلت لنا: "إن أجر العامل على من عمل له"، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: "اتقوا الله إن كنتم مؤمنين" قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين"، إلى قوله: "لا أعذبه أحداً من العالمين". قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم. وأما "المائدة" فإنها "الفاعلة" من: "ماد فلان القوم يميدهم ميّداً"، إذا أطعمهم ومارهم وأما قوله: "قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين"، فإنه يعني: قال عيسى للخواريين القائلين له: "هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء" راقبوا الله، أيها القوم، وخافوه أن

يَنْزِلُ بِكُمْ مِنْ اللَّهِ عِقَابُهُ عَلَى قَوْلِكُمْ هَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَفِي شَكِّكُمْ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِنْزَالِ مَائِدَةٍ مِنَ السَّمَاءِ، كَفَرُ بِهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ أَنْ يُنْزَلَ بِكُمْ نَقْمَتُهُ "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"، يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ عَلَى مَا أَتَوَعَّدُكُمْ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ اللَّهُ إِيَّاكُمْ عَلَى قَوْلِكُمْ: "هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ"؟

القول في تأويل قوله: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: قال الحواريون مجيبي عيسى على قوله لهم: "اتقوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"، فِي قَوْلِكُمْ لِي "هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ": إِنَّا إِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ، وَسَأَلْنَاكَ أَنْ تَسْأَلَ لَنَا رَبَّنَا لِنَأْكُلَ مِنَ الْمَائِدَةِ، فَنَعْلَمَ يَقِينًا قُدْرَتَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ "وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا"، يَقُولُ: وَتَسْكُنَ قُلُوبُنَا، وَتَسْتَقِرَّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ مَا شَاءَ وَأَرَادَ، "وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا"، وَنَعْلَمَ أَنَّكَ لَمْ تَكْذِبْنَا فِي خَبَرِكَ أَنَّكَ اللَّهُ رَسُولُ مَرْسَلٍ وَنَبِيِّ مَبْعُوثٍ "وَنَكُونَ عَلَيْهَا"، يَقُولُ: وَنَكُونَ عَلَى الْمَائِدَةِ "مِنَ الشَّاهِدِينَ"، يَقُولُ: مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ لَهَا حُجَّةً لِنَفْسِهِ عَلَيْنَا فِي تَوْحِيدِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَا شَاءَ، وَلَكَ عَلَى صَدَقَتِكَ فِي نُبُوتِكَ.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن نبيه عيسى ﷺ، أَنَّهُ أَجَابَ الْقَوْمَ إِلَى مَا سَأَلُوا مِنْ مَسْأَلَةِ رَبِّهِ مَائِدَةً تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: "تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا". فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: نَتَّخِذُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نُعَظِّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعَدَنَا. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ بِالصُّوَابِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: "مَعْنَاهُ: تَكُونُ لَنَا عِيدًا، نَعْبُدُ رَبَّنَا فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَنْزَلَ فِيهِ، وَنُصَلِّيُ لَهُ فِيهِ، كَمَا يَعْبُدُ النَّاسُ فِي أَعْيَادِهِمْ"، لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ الْمُسْتَعْمَلِ بَيْنَهُمْ فِي "الْعِيدِ"، مَا ذَكَرْنَا، دُونَ الْقَوْلِ الَّذِي قَالَهُ مَنْ قَالَ: "مَعْنَاهُ: عَائِدَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا". وَتَوْجِيهِ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ إِلَى الْمَعْرُوفِ مِنْ كَلَامِ مَنْ خَوَّطَبَ بِهِ، أَوَّلَى مِنْ تَوْجِيهِهِ إِلَى الْمَجْهُولِ مِنْهُ، مَا وَجَدَ إِلَيْهِ السَّبِيلَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: "لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا"، فَإِنَّ الْأَوَّلَى مِنْ تَأْوِيلِهِ بِالصُّوَابِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: "تَأْوِيلُهُ: لِلْأَحْيَاءِ مِنْ الْيَوْمِ، وَمَنْ يَجِيءُ بَعْدَنَا مِنْهَا"، لِلْعَلَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي قَوْلِهِ: "تَكُونُ لَنَا عِيدًا"، لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَغْلَبُ مِنْ مَعْنَاهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: "وَآيَةً مِنْكَ"، فَإِنَّ مَعْنَاهُ: وَعَلَامَةً وَحُجَّةً مِنْكَ يَا رَبِّ، عَلَى عِبَادِكَ فِي وَحْدَانِيَّتِكَ، وَفِي صَدَقَتِي عَلَى أَنِّي رَسُولٌ إِلَيْهِمْ بِمَا أُرْسَلْتُ بِهِ "وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"، وَأَعْطَانَا مِنْ عَطَائِكَ، فَإِنَّكَ يَا رَبِّ خَيْرٌ مِنْ يُعْطَى، وَأَجُودُ مِنْ تَفْضَّلَ، لِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ عَطَاءُهُ مِنٌّْ وَلَا نَكْدٌ.

وقد اختلف أهل التأويل في "المائدة"، هل أنزلت عليهم، أم لا؟ وما كانت؟

قال أبو جعفر: والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أنزل المائدة على

الذين سألوا عيسى مسألته ذلك ربّه. وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة، فإن يقال: كان عليها مأكول. وجائز أن يكون كان سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون كان ثمرًا من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضارّ الجهل به، إذا أقرّ تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا جواب من الله تعالى ذكره القوم فيما سألوا نبيهم عيسى مسألة ربهم، من إنزاله مائدة عليهم. فقال تعالى ذكره: إني منزلها عليكم، أيها الحواريون، فمطعمكموها "فمن يكفر بعد منكم"، يقول: فمن يجحد بعد إنزالها عليكم، وإطعامكموها - منكم رسالتي إليه، وينكر نبوة نبيي عيسى ﷺ، ويخالف طاعتي فيما أمرته ونهيته "فإني أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين"، من عالمي زمانه. ففعل القوم، فجحدوا وكفروا بعد ما أنزلت عليهم، فيما ذكر لنا، فعذبوا، فيما بلغنا، بأن مسخروا قردة وخنازير

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم"، "إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله". وكما جاء عن السدي: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله"، قال: لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه، قالت النصراري ما قالت، وزعموا أنّ عيسى أمرهم بذلك، فسأله عن قوله فقال: "سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" إلى قوله: "وأنت على كل شيء شهيد". قال أبو جعفر: وأما تأويل الكلام، فإنه: أنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين، أي: معبودين تعبدونهما من دون الله. قال عيسى: تنزيهاً لك يا رب وتعظيمًا أن أفعل ذلك أو أتكلّم به ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، يقول: ليس لي أن أقول ذلك، لأنّي عبد مخلوق، وأمّي أمة لك، وكيف يكون للعبد والأمة ادّعاء ربوبية؟ "إن كنت قلته فقد علمته"، يقول: إنك لا يخفى عليك شيء، وأنت عالم أي لم أقل ذلك ولم أمرهم به.

القول في تأويل قوله: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبراً عن نبيه عيسى ﷺ: أنه يبرأ إليه مما قالت فيه وفي أمه الكفرة من النصراري، أن يكون دعاهم إليه أو أمرهم به، فقال: "سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته". ثم قال: "تعلم ما في نفسي"، يقول: إنك، يا رب، لا يخفى عليك ما أضمرت نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما قد نطقْتُ به وأظهرته بجوارحي؟ يقول: لو كنت قد قلت للناس: "اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله"، كنت قد علمته، لأنك تعلم

ضمائر النفوس مما لم تنطق به، فكيف بما قد نطقت به؟ "ولا أعلم ما في نفسك"، يقول: ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه، لأنني إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتني "إنك أنت علام الغيوب"، يقول: إنك أنت العالم بخفيات الأمور التي لا يطلع عليها سواك، ولا يعلمها غيرك.

القول في تأويل قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول عيسى، يقول: ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من القول أن أقوله لهم، وهو أن قلت لهم: "اعبدوا الله ربي وربكم" "وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم"، يقول: وكنتم على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم "فلما توفيتني"، يقول: فلما قبضتني إليك "كنت أنت الرقيب عليهم"، يقول: كنت أنت الحفيظ عليهم دوني، لأنني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم. وفي هذا تبيان أن الله تعالى ذكره إنما عرفه أفعال القوم ومقاتلهم بعد ما قبضه إليه وتوفاه بقوله: "أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله". "وأنت على كل شيء شهيد" يقول: وأنت تشهد على كل شيء، لأنه لا يخفى عليك شيء، وأما أنا، فإنما شهدت بعض الأشياء، وذلك ما عاينت وأنا مقيم بين أظهر القوم، فإنما أنا أشهد على ذلك الذي عاينت ورأيت وشهدت. وبنحو الذي قلنا في قوله: "كنت أنت الرقيب عليهم"، قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، بإماتتك إياهم عليها "فإنهم عبادك"، مستسلمون لك، لا يمتنعون مما أردت بهم، ولا يدفعون عن أنفسهم ضرباً ولا أمراً تنالهم به "وإن تغفر لهم"، بهدايتك إياهم إلى التوبة منها، فتستر عليهم "فإنك أنت العزيز"، في انتقامه ممن أراد الانتقام منه، لا يقدر أحدٌ يدفعه عنه "الحكيم"، في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة، وتوفيقه من وفق منهم لسيبل النجاة من العقاب

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال الله لعيسى: هذا القول النافع في يوم ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم ذلك، في الآخرة عند الله "لهم جنات تجري من تحتها الأنهار"، يقول: للصادقين في الدنيا، جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة، ثواباً لهم من الله عز وجل على ما كان من صدقهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه، فوفوا به لله، فوفى الله عز وجل لهم ما وعدهم من ثوابه "خالدين فيها أبداً"، يقول: باقين في الجنات التي أعطاهاهموها "أبداً"، دائماً، لهم فيها نعيم لا ينتقل عنهم ولا يزول.

وقد بينا فيما مضى أن معنى "الخلود"، الدوام والبقاء.

القول في تأويل قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه، من العمل بطاعته واجتناب معاصيه "ورضوا عنه"، يقول: ورضوا هم عن الله تعالى ذكره في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم، من جزيل ثوابه "ذلك الفوز العظيم"، يقول: هذا الذي أعطاهم الله من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها، مرضياً عنهم وراضين عن ربهم، هو الظفر العظيم بالطلبية، وإدراك الحاجة التي كانوا يطلبونها في الدنيا، ولها كانوا يعملون فيها، فنالوا ما طلبوا، وأدركوا ما أمَّلوا.

القول في تأويل قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أيها النصارى، "لله ملك السموات والأرض"، يقول: له سلطان السموات والأرض "وما فيهن"، دون عيسى الذين تزعمون أنه إلهكم، ودون أمه، ودون جميع من في السموات ومن في الأرض، فإن السموات والأرض خلق من خلقه وما فيهن، وعيسى وأمه من بعض ذلك بالحلول والانتقال، يدلان بكونهما في المكان الذي هما فيه بالحلول فيه والانتقال، أنهما عبادان مملوكان لمن له ملك السموات والأرض وما فيهن. ينبههم وجميع خلقه على موضع حجته عليهم، ليدبروه ويعتبروه فيعقلوا عنه "وهو على كل شيء قدير"، يقول تعالى ذكره: والله الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن، قادرٌ على إفنائهن وعلى إهلاكهن، وإهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعاً كما ابتدأ خلقهم، لا يعجزه ذلك ولا شيء أرادته، لأن قدرته القدرة التي لا تشبهها قدرة، وسلطانه السلطان الذي لا يشبهه سلطان ولا مملكة.

آخر تفسير سورة المائدة



تفسير سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسِّرْ

القول في تاويل قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "الحمد لله"، الحمد الكامل لله وحده لا شريك له دون جميع الأنداد والآلهة، ودون ما سواه مما تعبد به كَفَرَةُ خَلْقِهِ من الأوثان والأصنام.

وهذا كلام مخرجه مخرج الخبر يُنْحَى به نحو الأمر. يقول: أخلصوا الحمد والشكر للذي خَلَقَكُمْ، أيها الناس، وخلق السماوات والأرض، ولا تشركوا معه في ذلك أحداً أو شيئاً، فإنه المستوجب عليكم الحمد بأياديهِ عندكم ونعمة عليكم، لا من تعبدونه من دونه، وتجعلونه له شريكاً من خَلْقِهِ.

وقد بينا الفصل بين معنى "الحمد" و"الشكر" بشواهد فيما مضى قبل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وأظلم الليل، وأنار النهار

القول في تاويل قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، معجَّباً خلقه المؤمنين من كَفَرَةِ عِبَادِهِ، ومحتجاً على الكافرين: إِنَّ إِلَهَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ، أيها الناس، حمده، هو الذي خَلَقَ السماوات والأرض، الذي جعل منهما معاشكم وأقواتكم، وأقوات أنعامكم التي بها حياتكم. فمن السماوات ينزل عليكم الغيث، وفيها تجري الشمس والقمر باعتقاب واختلاف لمصالحكم. ومن الأرض ينبت الحب الذي به غذاؤكم، والثمار التي فيها ملاذكُم، مع غير ذلك من الأمور التي فيها مصالحكم ومنافعكم بها والذين يجحدون نعمة الله عليهم بما أنعم به عليهم من خلق ذلك لهم ولكم، أيها الناس "بربهم"، الذي فعل ذلك وأحدثه "يعدلون"، يجعلون له شريكاً في عبادتهم إياه، فيعبدون معه الآلهة والأنداد والأصنام والأوثان، وليس منها شيء شريكه في خلق شيء من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم، بل هو المنفرد بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إياه غيره. فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها من عظة، لمن فكر فيها بعقل، وتدبرها بفهم!

ولقد قيل: إنها فاتحة التوراة. يقال من مساواة الشيء بالشيء: "عدلتُ هذا بهذا"، إذا ساويته به، "عدلاً". وأما في الحكم إذا أنصفت فيه، فإنك تقول: "عدلت فيه أعدلاً عدلاً".

القول في تأويل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "هو الذي خلقكم من طين"، أن الله الذي خلق السماوات والأرض، وأظلم ليلهما وأنار نهارهما، ثم كفر به مع إنعامه عليهم الكافرون، وعدلوا به من لا ينفعهم ولا يضرهم. هو الذي خلقكم، أيها الناس، من طين. وإنما يعني بذلك تعالى ذكره: أن الناس ولدٌ من خلقه من طين، فأخرج ذلك مخرج الخطاب لهم، إذ كانوا وكده. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معناه: ثم قضى أجل الحياة الدنيا "وأجلٌ مسمى عنده"، وهو أجل البعث عنده.

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم أنتم تشكون في قدرة من قدر على خلق السماوات والأرض، وإظلام الليل وإنارة النهار، وخلقكم من طين حتى صيركم بالهيئة التي أنتم بها على إنشائه إياكم من بعد مماتكم وفنائكم، وإيجاده إياكم بعد عدمكم. و"المرية" في كلام العرب، هي الشك.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذي له الألوهة التي لا تبغي لغيره، المستحق عليكم إخلاص الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناس، الذي يعدل به كفاركم من سواه، هو الله الذي هو في السماوات وفي الأرض يعلم سرركم وجهركم، فلا يخفى عليه شيء. يقول: فربكم الذي يستحق عليكم الحمد، ويجب عليكم إخلاص العبادة له، هو هذا الذي صفته لا من لا يقدر لكم على ضر ولا نفع، ولا يعمل شيئاً، ولا يدفع عن نفسه سوءاً أريد بها.

وأما قوله: "ويعلم ما تكسبون"، يقول: ويعلم ما تعملون وتجرحون، فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا أَتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين برهم يعدلون أوثانهم وآلهتهم "آية من آيات ربهم"، يقول: حجة وعلامة ودلالة من حُجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، وحقيقة نبوتك، يا محمد، وصدق ما أتيتهم به من عندي "إلا كانوا عنها معرضين"، يقول: إلا أعرضوا عنها، يعني عن الآية، فصدوا عن قبولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلت على صحته، جهلاً منهم بالله، واغتراراً بحلمه عنهم.

القول في تأويل قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فقد كذب هؤلاء العادلون بالله، الحق لما جاءهم، وذلك "الحق"، هو محمد ﷺ كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم. قال الله لهم متوعداً على تكذيبهم إياه وجحودهم نبوته: سوف يأتي المكذبين بك، يا محمد، من قومك وغيرهم "أنباء ما كانوا به يستهزون"، يقول: سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزون من آياتي وأدلتي التي آتيتهم. ثم وفي لهم بوعيده لما تمادوا في غيهم، وعتوا على ربهم، فقتلتهم يوم بدر بالسيف.

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم يرو هؤلاء المكذبون بآياتي، الجاحدون نبوتك، كثرة من أهلكنا من قبلهم من القرون وهم الأمم الذين وطأت لهم البلاد والأرض توطئة لم أوطئها لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أعطهم؟ قال أبو جعفر: أمطرت فأخرجت لهم الأشجار ثمارها، وأعطتهم الأرض ريع نباتها، وجابوا صخور جبالها، ودرت عليهم السماء بمطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها بإذني، فغمطوا نعمة ربهم، وعصوا رسول خالقهم، وخالفوا أمر بارئهم، وبغوا حتى حق عليهم قلبي، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكنا بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب.

ومعنى قوله: "وأرسلنا السماء عليهم مدراراً"، المطر. ويعني بقوله: "مدراراً"، غزيرة دائمة "وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين"، يقول: وأحدثنا من بعد الذين أهلكناهم قرناً آخرين، فابتدأنا سواهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال أبو جعفر: وهذا إخبار من الله تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ، عن هؤلاء القوم الذين يعدلون بربهم الأوثان والآلهة والأصنام. يقول تعالى ذكره: وكيف يتفقون الآيات، أم كيف يستدلون على بطلان ما هم عليه مُقيمون من الكفر بالله وجحود نبوتك، بحجج الله وآياته وأدلته، وهم لعنادهم الحق وبعدهم من الرشد، لو أنزلت عليك، يا محمد، الوحي الذي أنزلته عليك مع رسولي، في قِرطاس يعاينونه ويمسونه بأيديهم، وينظرون إليه ويقرءونه منه، معلّقاً بين السماء والأرض، بحقيقة ما تدعوهم إليه، وصحة ما تأتيهم به من توحيد وتزلي، لقال الذين يعدلون بي غيري فيشركون في توحيدي سواي: "إن هذا إلا سحر مبين"، أي: ما هذا الذي جئنا به إلا سحر سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة

"مبين"، يقول: مبين لمن تدبره وتأمله أنه سحر لا حقيقة له. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء المكذبون بآياتي، العادلون بي الأنداد والآلهة، يا محمد، لك لو دعوتهم إلى توحيدى والإقرار بربوبيتى، وإذا أتيتهم من الآيات والعبر بما أتيتهم به، واحتججت عليهم بما احتججت عليهم مما قطعت به عذرهم: هلا نزل عليك ملك من السماء في صورته، يصدقك على ما جئتنا به، ويشهد لك بحقيقة ما تدعى من أن الله أرسلك إلينا! كما قال تعالى ذكره مخبراً عن المشركين في قيلهم لنبي الله ﷺ: وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا [الفرقان: ٧]، "ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون"، يقول: ولو أنزلنا ملكاً على ما سألوا، ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي، لجاءهم العذاب عاجلاً غير آجل، ولم يُنظَرُوا فيؤخروا بالعقوبة مراجعة التوبة، كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات، ثم كفرت بعد مجيئها، من تعجيل النعمة، وترك الإنظار

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء العادلين بي، القائلين: لولا أنزل على محمدٍ ملك بتصديقه - ملكاً ينزل عليهم من السماء، يشهد بتصديق محمد ﷺ، ويأمرهم باتباعه "لجعلناه رجلاً"، يقول: لجعلناه في صورة رجل من البشر، لأنهم لا يقدر أن يروا الملك في صورته. يقول: وإذا كان ذلك كذلك، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكاً أو بشراً، إذ كنت إذا أنزلت عليهم ملكاً إنما أنزله بصورة إنسي، وحججي في كلتا الحالتين عليهم ثابتة: بأنك صادق، وأن ما جئتهم به حق. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال بعض أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَلْبَسُنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وللبسنا عليهم": ولو أنزلنا ملكاً من السماء مصدقاً لك، يا محمد، شاهداً لك عند هؤلاء العادلين بي، الجاحدين آياتك على حقيقة نبوتك، فجعلناه في صورة رجل من بني آدم، إذ كانوا لا يطيقون رؤية الملك بصورته التي خلقته بها التبس عليهم أمره، فلم يدروا أملك هو أم إنسي! فلم يوقنوا به أنه ملك، ولم يصدقوا به، وقالوا: "ليس هذا ملكاً"! وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك، وصحة برهانك وشاهدك على نبوتك.

يقال منه: "لبست عليهم الأمر ألبسه لبساً"، إذا خلطته عليهم "ولبست الثوب ألبسه لبساً". و"اللبوس"، اسم الثياب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مسلماً عنه بوعيده المستهزئين به عقوبة ما يلقي منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هوّن عليك، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفين بحقك فيّ وفي طاعتي، وامض لما أمرتك به من الدّعاء إلى توحيدى والإقرار بي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيهم، وأصروا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النعمة لهم، وحلول المثلث بهم. فقد استهزأت أمم من قبلك برسل أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل ما فعل قومك بك "فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون"، يعني بقوله: "فحاق"، فنزل وأحاط بالذين هزئوا من رسلهم "ما كانوا به يستهزئون"، يقول: العذاب الذي كانوا يهزءون به، وينكرون أن يكون واقعاً بهم على ما أنذرتهم رسلهم.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "قل"، يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأنداد، المكذبين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي "سيروا في الأرض"، يقول: جولوا في بلاد المكذبين رسلهم، الجاحدين آياتي من قبلهم من ضربائهم وأشكالهم من الناس "ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين"، يقول: ثم انظروا كيف أعقبهم تكذيبهم ذلك، الهلاك والعطب وخزي الدنيا وعازها، وما حلّ بهم من سخط الله عليهم، من البوار وخراب الديار وعفو الآثار. فاعتبروا به، إن لم تنهكم حلومكم، ولم تزجركم حُجج الله عليكم، عمّا أنتم [عليه] مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحلّ بكم مثل الذي حلّ بهم.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم "لمن ما في السماوات والأرض"، يقول: لمن ملك ما في السماوات والأرض؟ ثم أخبرهم أن ذلك لله الذي استعبد كل شيء، وقهر كل شيء بملكه وسلطانه لا للأوثان والأنداد، ولا لما يعبدونه ويتخذونه إلهاً من الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا تدفع عنها ضرراً.

وقوله: "كتب على نفسه الرحمة"، يقول: قضى أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة. يقول تعالى ذكره: أن هؤلاء العادلين بي، الجاحدين نبوتك، يا محمد، إن تابوا وأنابوا قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خلقي أن رحمتي وسعت كل شيء

القول في تأويل قوله: ﴿لِيَجْمَعَ كُفُّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قال أبو جعفر: وهذه "اللام" التي في قوله: "ليجمعنكم"، لام قسم.

وأما تأويل قوله: "لا ريب فيه"، فإنه لا شك فيه، يقول: في أن الله يجمعكم إلى يوم القيامة، فيحشركم إليه جميعاً، ثم يؤتى كل عامل منكم أجراً ما عمل من حسن أو سيئ.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "الذين خسروا أنفسهم"، العادلين به الأوثان والأصنام. يقول تعالى ذكره: ليجمعن الله "الذين خسروا أنفسهم"، يقول: الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها بادعائهم لله الند والعديل، فأوبقوها بإستيجابهم سخط الله وأليم عقابه في المعاد.

وأصل "الخسار"، الغبن. يقال منه: "خسر الرجل في البيع"، إذا غبن

وقوله: "فهم لا يؤمنون"، يقول: "فهم"، لإهلاكهم أنفسهم وغبنهم إياه حظاً "لا يؤمنون"، أي لا يوحدون الله، ولا يصدقون بوعده ووعيده، ولا يقرؤون بنبوته محمد ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لا يؤمن هؤلاء العادلون بالله الأوثان، فيخلصوا له التوحيد، ويُفردوا له الطاعة، ويقروا بالألوهية، جهلاً "وله ما سكن في الليل والنهار"، يقول: وله ملك كل شيء، لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكن في الليل والنهار. فمعلوم بذلك أن معناه ما وصفنا "وهو السميع"، يقول: وهو السميع ما يقول هؤلاء المشركون فيه، من ادعائهم له شريكاً، وما يقول غيرهم من خلقه "العليم"، بما يضمرونه في أنفسهم، وما يظهره بجوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فهو يحصيه عليهم، ليوفي كل إنسان ثواب ما اكتسب، وجزاء ما عمل. وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله: "سكن"، قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لهؤلاء المشركين العادلين برهم الأوثان والأصنام، والمنكرين عليك إخلاص التوحيد لربك، الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان: شيئاً غير الله تعالى ذكره: "أتخذ ولياً"، أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث "فاطر السماوات والأرض"، يقول: شيئاً غير الله فاطر السماوات والأرض أتخذ ولياً؟ ف"فاطر السماوات"، من نعت "الله" وصفته، ولذلك خُفِضَ.

وبعني بقوله: "فاطر السماوات والأرض"، مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما

وأما قوله: "وهو يطعم ولا يطعم"، فإنه يعني: وهو يرزق خلقه ولا يرزق

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، للذين يدعونك إلى اتخاذ الآلهة أولياء من دون الله، ويحثونك على عبادتها: أغير الله فاطر السماوات والأرض، وهو يرزقني وغيري ولا يرزقه أحد، ألتخذ ولياً هو له عبد مملوك وخلق مخلوق؟ وقل لهم أيضاً: "إني أمرني ربي: أن أكون أول من أسلم" يقول: أول من خضع له بالعبودية، وتذلل لأمره ونهيه، وانقاد له من أهل دهرِي وزماني "ولا تكونَنَّ من المشركين"، يقول: وقل لي: لا تكونن من المشركين بالله، الذين يجعلون الآلهة والأنداد شركاء.

وجعل قوله: "أمرت" بدلا من: "قل لي"، لأن قوله "أمرت" معناه: "قل لي". فكأنه قيل: قل إني قيل لي: كن أول من أسلم، ولا تكونن من المشركين فاجتزئ بذكر "الأمر" من ذكر "القول"، إذ كان "الأمر"، معلوماً أنه "قول".

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله، الذين يدعونك إلى عبادة أوثانهم: إن ربي نهاني عن عبادة شيء سواه "وإني أخاف إن عصيت ربي"، فعبدتها "عذاب يوم عظيم"، يعني: عذاب يوم القيامة. ووصفه تعالى بـ "العظم" لعظم هولُه، وفظاعة شأنه.

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف القراءة في قراءة ذلك. وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي، قراءة من قرأه: ﴿يُصْرِفْ عَنْهُ﴾، بفتح "الياء" وكسر "الراء"، لدلالة قوله: "فقد رحمه" على صحة ذلك

وإذا كان ذلك هو الوجه الأولي بالقراءة، فتأويل الكلام: مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ من خلقه يومئذ عذابه فقد رحمه "وذلك هو الفوز المبين"، ويعني بقوله: "وذلك"، وصرفُ الله عنه العذاب يوم القيامة، ورحمته إياه "الفوز"، أي: النجاة من الهلكة، والظفر بالطلبة "المبين"، يعني الذي بين لمن رآه أنه الظفر بالحاجة وإدراك الطلبة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: يا محمد، إن يصبك الله "بضر"، يقول: بشدة في دنياك، وشظف في عيشك وضيق فيه، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أول من أسلم لأمره ونهيه، وأذن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه "وإن يمسسك بخير"، يقول: وإن يصبك بخير، أي: برخاء في عيش، وسعة في الرزق، وكثرة في المال، فتقر أنه أصابك بذلك "فهو على كل شيء قدير"، يقول تعالى ذكره: والله الذي أصابك بذلك، فهو

على كل شيء قدير هو القادر على نفعك وضرك، وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالألوه الذليلة المهيئة التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضرر عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذكره: فكيف تعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتقر لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة؟

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وهو"، نفسه، يقول: والله الظاهر فوق عباده ويعني بقوله: "القاهر"، المذل المستعبد خلقه، العالي عليهم. وإنما قال: "فوق عباده"، لأنه وصف نفسه تعالى ذكره بقهره إياهم. ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه.

فمعنى الكلام إذاً: والله الغالب عباده، المذل لهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقهم إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه "وهو الحكيم"، يقول: والله الحكيم في علوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره "الخبير"، بمصالح الأشياء ومضارها، الذي لا يخفي عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دحل.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ أُنْشِئْ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يكذبون ويجحدون نبوتك من قومك: أي شيء أعظم شهادة وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادة: "الله"، الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ، والغلط والكذب. ثم قل لهم: إن الذي هو أكبر الأشياء شهادة، شهيدٌ بيني وبينكم، بالحق منا من المبطل، والرشيد منا في فعله وقوله من السفیه، وقد رضينا به حكماً بيننا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة أهل التأويل

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذَرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: "الله شهيد بيني وبينكم" "وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به" عقابه، وأنذر به من بلغه من سائر الناس غيركم إن لم ينته إلى العمل بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه نزول نعمة الله به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وجاء عن قتادة قوله: "أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ"، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: يا أيها الناس، بلغوا ولو آية من كتاب الله، فإنه من بلغه آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله، أخذه أو تركه. وعن قتادة في قوله: "لأنذركم به ومن بلغ"، أن النبي ﷺ قال: بلغوا عن الله، فمن بلغه آية

من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله. قال أبو جعفر: فمعنى هذا الكلام: لأنذركم بالقرآن، أيها المشركون، وأنذر من بلغه القرآن من الناس كلهم.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين، الجاحدين بنبوتك، العادلين بالله، رباً غيرَه: "أئنكم"، أيها المشركون "لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى"، يقول: تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام. ثم قال لنبية محمد ﷺ: "قل"، يا محمد "لا أشهد"، بما تشهدون: أن مع الله آلهة أخرى، بل أجد ذلك وأنكره "قل إنما هو إله واحد"، يقول: إنما هو معبود واحد، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة "وإني بريء مما تشركون"، يقول: قل: وإني بريء من كل شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبودونه معه، لا أعبد سوى الله شيئاً، ولا أدعوه غيره إلهاً.

القول في تاويل قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الذين "آتيناهم الكتاب"، التوراة والإنجيل يعرفون أنما هو إله واحد، لا جماعة الآلهة، وأن محمداً نبياً مبعوث "كما يعرفون أبناءهم". وقوله: "الذين خسروا أنفسهم"، من نعت "الذين" الأولى.

ويعنى بقوله: "خسروا أنفسهم"، أهلكوها وألقوها في نار جهنم، بإنكارهم محمداً أنه الله رسول مرسل، وهم بحقيقة ذلك عارفون "فهم لا يؤمنون"، يقول: فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون. وقد قيل: إن معنى "خسارتهم أنفسهم"، أن كل عبد له منزل في الجنة ومنزل في النار. فإذا كان يوم القيامة، جعل الله لأهل الجنة منازل أهل النار في الجنة، وجعل لأهل النار منازل أهل الجنة في النار، فذلك خسران الخاسرين منهم، لبيعهم منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار، بما فرط منهم في الدنيا من معصيتهم الله، وظلمهم أنفسهم، وذلك معنى قول الله تعالى ذكره: الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفُرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، [المؤمنون: ١١].

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أشد اعتداءً، وأخطأ فعلاً وأخطأ قولاً "ممن افترى على الله كذباً"، يعني: ممن اختلق على الله قيل باطل، واخترق من نفسه عليه كذباً، فزعم أن له شريكاً من خلقه، وإلهاً يعبد من دونه - كما قاله المشركون من عبدة الأوثان - أو ادعى له ولداً أو صاحبةً، كما قالت النصارى "أو كذب بآياته"، يقول: أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاهها رسله على حقيقة نبوتهم، كذبت بها اليهود "إنه لا يفلح الظالمون"، يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاء في الجنان، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون

بنوة أنبيائه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء المفترين على الله كذبًا، والمكذبين بآياته، لا يفلحون اليوم في الدنيا، ولا يوم نحشرهم جميعًا - يعني: ولا في الآخرة.

ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ما ظهر عما حذف.

وتأويل الكلام: إنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا، "ويوم نحشرهم جميعًا"، فقوله: "ويوم نحشرهم"، مردود على المراد في الكلام. لأنه وإن كان محذوفًا منه، فكأنه فيه، لمعرفة السامعين بمعناه "ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم"، يقول: ثم نقول، إذا حشرنا هؤلاء المفترين على الله الكذب، بادعائهم له في سلطانه شريكًا، والمكذبين بآياته ورسله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة "أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون"، أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذبًا، وتدعونهم من دونه أربابًا؟ فأتوا بهم إن كنتم صادقين!

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم لم يكن قولهم إذ قلنا لهم: "أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون"؟ إجابة منهم لنا عن سؤالنا إياهم ذلك، إذ فتناهم فاختبرناهم، "إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين"، كذبًا منهم في إيمانهم على قيلهم ذلك.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "ثم لم تكن فتنتهم".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: معناه: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذارًا مما سلف منهم من الشرك بالله "إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين"، فوضعت "الفتنة" موضع "القول"، لمعرفة السامعين معنى الكلام. وإنما "الفتنة"، الاختبار والابتلاء ولكن لما كان الجواب من القوم غير واقع هنالك إلا عند الاختبار، وضعت "الفتنة" التي هي الاختبار، موضع الخبر عن جوابهم ومعدرتهم. ويعني بقوله: "ما كنا مشركين"، ما كنا ندعو لك شريكًا، ولا ندعو سواك.

القول في تأويل قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال أبو

جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر، يا محمد، فاعلم، كيف كذب هؤلاء المشركون العادلون برهم الأوثان والأصنام، في الآخرة عند لقاء الله على أنفسهم بقيلهم: "والله يا ربنا ما كنا مشركين"، واستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلقون في الدنيا، من الكذب والفرية. ومعنى "النظر" في هذا الموضع، النظر بالقلب، لا النظر بالبصر. وإنما معناه: تبين فاعلم كيف كذبوا في الآخرة. وقال: "كذبوا"، ومعناه: يكذبون، لأنه لما كان الخبر قد مضى

في الآية قبلها، صار كالشيء الذي قد كَانَ وَوُجِدَ. "وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ"، يقول: وفارقهم الأنداد والأصنام، وتبرءوا منها، فسلكوا غير سبيلها، لأنها هلكت، وأعيد الذين كانوا يعبدونها اجترأ ثم أخذوا بما كانوا يفترونه من قيلهم فيها على الله، وعبادتهم إياها، وإشراكهم إياها في سلطان الله، فضلت عنهم، وعوقب عابدوها بفريتهم.

وقد بينا فيما مضى أن معنى "الضلال"، الأخذ على غير الهدى.

وقد ذكر أن هؤلاء المشركين يقولون هذا القول عند معاينتهم سعة رحمة الله يومئذ.

وعن سعيد بن جبير قال: أتى رجلُ ابنَ عباس فقال: سمعت الله يقول: "والله ربنا ما كنا مشركين"، وقال في آية أخرى: وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا، [النساء: ٤٢] ؟ قال ابن عباس: أما قوله: "والله ربنا ما كنا مشركين"، فإنه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام: قالوا: "تعالوا نجحد"، فقالوا: "والله ربنا ما كنا مشركين"، فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم، "ولا يكتُمون الله حديثًا".

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء العادلين برّبهم الأوثان والأصنام من قومك، يا محمد "من يستمع إليك"، يقول: من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره ونهيه، ولا يفقه ما تقول ولا يُوعيه قلبه، ولا يتدبره، ولا يصغي له سمعه، ليتفقهه فيفهم حجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأن الله قد جعل على قلبه "أكنة". وهي جمع "كنان"، وهو الغطاء

وقال تعالى ذكره: "وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه"، بمعنى: أن لا يفقهوه، كما قال: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا، لأن "الكن" إنما جعل على القلب، لئلا يفقهه، لا ليفقهه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن ير هؤلاء العادلون برّبهم الأوثان والأصنام، الذين جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوا عنك ما يسمعون منك "كل آية"، يقول: كل حجة وعلامة تدلُّ أهل الحجا والفهم على توحيد الله وصدق قولك وحقيقة نبوتك "لا يؤمنوا بها"، يقول: لا يصدقون بها، ولا يقرّون بأنها دالة على ما هي عليه دالة "حتى إذا جاؤوك يجادلونك"، يقول: حتى إذا صاروا إليك بعد معاينتهم الآيات الدالة على حقيقة ما جئتكم به "يجادلونك"، يقول: يخاصمونك "يقول الذين كفروا"، يعني بذلك: الذين جحدوا

آيات الله وأنكروا حقيقتها، يقولون لنبي الله ﷺ إذا سمعوا حجج الله التي احتج بها عليهم، وبيانه الذي بينه لهم "إن هذا إلا أساطير الأولين"، أي: ما هذا إلا أساطير الأولين.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "وهم ينهون عنه وينأون عنه".

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، قول من قال: تأويله: "وهم ينهون عنه"، عن إتباع محمد ﷺ مَنْ سواهم من الناس، وينأون عن اتباعه. وذلك أن الآيات قبلها جرت بذكر جماعة المشركين العادلين به، والخبر عن تكذيبهم رسول الله ﷺ، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل الله ووحيه، فالواجب أن يكون قوله: "وهم ينهون عنه"، خبراً عنهم، إذ لم يأتنا ما يدل على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم. بل ما قبل هذه الآية وما بعدها، يدل على صحة ما قلنا، من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسول الله ﷺ، دون أن يكون خبراً عن خاص منهم. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: وإن ير هؤلاء المشركون، يا محمد، كل آية لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقولون: "إن هذا الذي جئتنا به إلا أحاديث الأولين وأخبارهم!" وهم ينهون عن استماع التنزيل، وينأون عنك فيبعدون منك ومن اتباعك "وإن يهلكون إلا أنفسهم"، يقول: وما يهلكون بصددهم عن سبيل الله، وإعراضهم عن تنزيله، وكفرهم بربه - إلا أنفسهم لا غيرها، وذلك أنهم يكسبونها بفعلهم ذلك، سخط الله وأليم عقابه، وما لا قبيل لها به "وما يشعرون"، يقول: وما يدرون ما هم مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم. والعرب تقول لكل من بعد عن شيء: "قد نأى عنه، فهو ينأى نأياً".

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "ولو ترى"، يا محمد، هؤلاء العادلين بربه الأصنام والأوثان، الجاحدين نبوتك، الذين وصفت لك صفتهم "إذ وقفوا"، يقول: إذ حُبسوا "على النار"، يعني: في النار - فوضعت "على" موضع "في" كما قال: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ [البقرة: ١٠٢]، بمعنى في ملك سليمان.

"فقالوا يا ليتنا نرد"، يقول: فقال هؤلاء المشركون بربه، إذ حُبسوا في النار: "يا ليتنا نرد"، إلى الدنيا حتى نتوب ونراجع طاعة الله "ولا نكذب بآيات ربنا"، يقول: ولا نكذب بحجج ربنا ولا نجحدها "ونكون من المؤمنين"، يقول: ونكون من المصدقين بالله وحججه ورسله، متبعي أمره ونهيه.

القول في تأويل قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما هؤلاء العادلين بربه، الجاحدين نبوتك، يا

محمد، في قلوبهم إذا وقفوا على النار: "يا ليتنا نردُّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين" الأسى والندم على ترك الإيمان بالله والتصديق بك، لكن بهم الإشفاق مما هو نازلٌ بهم من عقاب الله وأليم عذابه، على معاصيهم التي كانوا يخفونها عن أعين الناس ويسترونها منهم، فأبداها الله منهم يوم القيامة وأظهرها على رؤوس الأشهاد، ففضحهم بها، ثم جازاهم بها جزاءهم. يقول: بل بدا لهم ما كانوا يخفون من أعمالهم السيئة التي كانوا يخفونها" من قبل ذلك في الدنيا، فظهرت "ولو رُدُّوا"، يقول: ولو رُدُّوا إلى الدنيا فأمهلوا "لعادوا لما نهوا عنه"، يقول: لرجعوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك، من جحود آيات الله، والكفر به، والعمل بما يسخط عليهم ربُّهم "إنهم لكاذبون"، في قلوبهم: "لو رددنا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين"، لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب، لا إيماناً بالله. وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين، العادلين به الأوثان والأصنام، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عنهم. يقول تعالى ذكره: "وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا"، يخبر عنهم أنهم ينكرون أن الله يُحيي خلقه بعد أن يميتهم، ويقولون: "لا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء". فهم بجحودهم ذلك، وإنكارهم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة، لا يبالون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية، لأنهم لا يرجون ثواباً على إيمان بالله وتصديق برسوله وعمل صالح بعد موت، ولا يخافون عقاباً على كفرهم بالله ورسوله وسيي من عمل يعملونه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "لو ترى"، يا محمد، هؤلاء القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين "إذ وقفوا"، يوم القيامة، أي: حسبوا، "على ربهم"، يعني على حكم الله وقضائه فيهم "قال أليس هذا بالحق"، يقول: فقليل لهم: أليس هذا البعث والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، حقاً فأجابوا، فقالوا: بلى والله إنه لحق "قال فذوقوا العذاب"، يقول: فقال الله تعالى ذكره لهم: فذوقوا العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون "بما كنتم تكفرون"، يقول: بتكذيبكم به وجحودكموه الذي كان منكم في الدنيا.

القول في تأويل قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "قد خسر الذين كذبوا بقاء الله"، قد هلك ووُكس، في بيعهم الإيمان بالكفر "الذين كذبوا بقاء الله"، يعني: الذين أنكروا

البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، والجنة والنار، من مشركي قريش ومن سلك سبيلهم في ذلك "حتى إذا جاءتهم الساعة" يقول: حتى إذا جاءتهم الساعة التي يبعث الله فيها الموتى من قبورهم. ويعني بقوله: "بغته"، فجأة، من غير علم من تفجؤه بوقت مفاجأتها إياه.

يقال منه: "بغته أبغته بغته"، إذا أخذته كذلك: "قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها"، يقول تعالى ذكره: وكس الذين كذبوا بقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازلهم من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغته قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبينوا خسارة صفقة يبيعهم التي سلفت منهم في الدنيا، تندمًا وتلهفًا على عظيم الغبن الذي غبنوه أنفسهم، وجليل الخسران الذي لا خسران أجل منه "يا حسرتنا على ما فرطنا فيها"، يقول: يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها، يعني: صفقتهم تلك. فعن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله: "يا حسرتنا"، قال: "يرى أهل النار منازلهم من الجنة فيقولون: يا حسرتنا".

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين كذبوا بقاء الله، "يحملون أوزارهم على ظهورهم". وقوله: "وهم" من ذكرهم "يحملون أوزارهم"، يقول: آثامهم وذنوبهم. واحداها "وزر"، يقال منه: "وزر الرجل يزر"، إذا أثم، وقال تعالى ذكره: "على ظهورهم"، لأن الحمل قد يكون على الرأس والمنكب وغير ذلك، فبين موضع حملهم ما يحملون من ذلك. وذكر أن حملهم أوزارهم يومئذ على ظهورهم، نحو الذي جاء عن عمرو بن قيس الملائي قال: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحًا، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك! فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عمك الصالح، طالما ركبتك في الدنيا، فاركبني اليوم! وتلا يوم نحشر الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا، [مريم: ٨٥]. وإن الكافر يستقبله أقبح شيء صورة وأنته ريحًا، فيقول، هل تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك! فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عمك السيئ، طالما ركبتني في الدنيا، فأنا اليوم أركبك وتلا "وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ". وأما قوله تعالى ذكره: "أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ"، فإنه يعني: أَلَا سَاءَ الوزر الذي يزرُونَ - أي: الإثم الذي يَأْثُمُونَهُ بِهِمْ

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تكذيب من الله تعالى ذكره هؤلاء الكفار المنكرين البعث بعد الممات في قولهم: إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، [المائدة: ٢٩]

يقول تعالى ذكره، مكذبًا لهم في قبلهم ذلك: "ما الحياة الدنيا"، أيها الناس "إلا لعب

ولهو"، يقول: ما باغي لذات الحياة التي أذنت لكم وقرّبت منكم في داركم هذه، ونعيمها وسرورها، فيها، والمتلذذ بها، والمنافس عليها، إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بملاذّها، أو تأتية الأيام بفجائعها وصروفها، فتؤثر عليه وتكدر، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا، ويورثه منه ترحًا. يقول: لا تغتروا، أيها الناس، بها، فإن المغتر بها عمّا قليل يندم "وللدار الآخرة خير للذين يتقون"، يقول: وللعمل بطاعته، والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرور أهلها فيها، خير من الدار التي تفتنى وشيكا، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيم "للذين يتقون"، يقول: للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه، والمسارة إلى رضاه "أفلا تعقلون"، يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به، من أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وهم يرون من يخترم منهم، ومن يهلك فيموت، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبه المصائب وتفجعه الفجائع. ففي ذلك لمن عقل مذكر ومزدرج عن الركون إليها، واستعباد النفس لها ودليل واضح على أن لها مدبرًا ومصرفًا يلزم الخلق إخلاص العباد له، بغير إشراك شيء سواه معه.

القول في تاويل قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٢) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "قد نعلم"، يا محمد، إنه ليحزنك الذي يقول المشركون، وذلك قولهم له: إنه كذاب "فإنهم لا يكذبونك".

واختلفت القراءة في قراءة ذلك فقرأته جماعة من أهل الكوفة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [بالتخفيف]، بمعنى: إنهم لا يكذبونك فيما أتيتهم به من وحي الله، ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحًا، بل يعلمون صحته، ولكنهم يجحدون حقيقته قولًا فلا يؤمنون به.

وقرأته جماعة من قراءة المدينة والعراقيين والكوفة والبصرة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق ولكنهم يكذبونك قولًا عنادًا وحسدًا.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القراءة، ولكل واحدة منهما في الصحة مخرج مفهوم.

وجاء عن أبي صالح في قوله: "قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك"، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين، فقال له: ما يحزنك؟ فقال: كذبني هؤلاء! قال فقال له جبريل: إنهم لا يكذبونك، هم يعلمون أنك صادق، "ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون". وجاء عن محمد بن كعب: "فإنهم لا يكذبونك"، قال: لا يبطلون ما في يديك.

وأما قوله: "ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"، فإنه يقول: ولكن المشركين بالله، بحجج

الله وآي كتابه ورسوله يجحدون، فينكرون صحّة ذلك كله. وكان السدي يقول: "الآيات" في هذا الموضع، معني بها محمد ﷺ. وقد ذكرنا الرواية بذلك عنه قبل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ قال أبو جعفر: وهذا تسليّة من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وتعزيّة له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إيّاه على ما جاءهم به من الحق من عند الله. يقول تعالى ذكره: إن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوتك، وينكروا آيات الله أنّها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يشنهم ذلك من المضي لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم "ولا مبدّل لكلمات الله"، يقول: ولا مغيّر لكلمات الله و"كلماته" تعالى ذكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، من وعده إيّاه النصر على من خالفه وضادّه، والظفر على من تولّى عنه وأدبر "ولقد جاءك من نبي المرسلين"، يقول: ولقد جاءك يا محمد، من خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أممهم، وما صنعت بهم حين جحدوا آياتي وتمادوا في غيهم وضلالهم أبناء وترك ذكر "أنباء"، لدلالة "من" عليها. يقول تعالى ذكره: فانتظر أنت أيضًا من النصرة والظفر مثل الذي كان مني فيمن كان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم، واقتدر بهم في صبرهم على ما لقوا من قومهم. وبنحو ذلك تأوّل من تأوّل هذه الآية من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن كان عظم عليك، يا محمد، إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق الذي بعثت به، فشقّ ذلك عليك، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم "فإن استطعت أن تبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ"، يقول: فإن استطعت أن تتخذ سربًا في الأرض مثل نافقاء اليربوع، وهي أحد جحرته فتذهب فيه "أو سُلْمًا فِي السَّمَاءِ"، يقول: أو مصعدًا تصعد فيه، كالدرج وما أشبهها "فتأتيهم بآية"، منها يعني بعلامة وبرهان على صحة قولك، غير الذي أتيتك فافعل. وبنحو الذي قلنا في ذلك: قال بعض أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار، يا محمد، فيحزنك تكذيبهم إياك، لو شاء أن أجمعهم على استقامة من الدين، وصواب من محجة الإسلام، حتى تكون

كلمة جميعكم واحدة، وملتكم وملتهم واحدة، لجمعتهم على ذلك، ولم يكن بعيداً عليّ، لأنّي القادرُ على ذلك بلطفي، ولكنني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي، ونافذ قضائي فيهم، من قبل أن أخلقهم وأصوّر أجسامهم "فلا تكونن"، يا محمد، "من الجاهلين"، يقول: فلا تكونن ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه، وأنّ من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه، ونافذ قضائه بأنّه كائنٌ من الكافرين به اختياراً لا إضطراراً، فإنك إذا علمت صحة ذلك، لم يكبر عليك إعراضٌ من أعرض من المشركين عما تدعوه إليه من الحق، وتكذيبٌ من كذبك منهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال بعض أهل التأويل. قال أبو جعفر: وفي هذا الخبر من الله تعالى ذكره، الدلالة الواضحة على خطأ ما قال أهل التّفويض من القدريّة، المنكرون أن يكون عند الله لطائف لمن شاء توفيقه من خلقه، يلفظُ بها له حتى يهتدي للحقّ، فينقاد له، وينيب إلى الرشاد فيدعن به ويؤثره على الضلال والكفر بالله. وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه لو شاء الهداية لجميع من كفر به، حتى يجتمعوا على الهدى، فعل. ولا شك أنه لو فعل ذلك بهم، كانوا مهتدين لا ضلالاً. وهم لو كانوا مهتدين، كان لا شك أنّ كونهم مهتدين كان خيراً لهم. وفي تركه تعالى ذكره أن يجمعهم على الهدى، تركٌ منه أن يفعل بهم في دينهم بعض ما هو خيرٌ لهم فيه، مما هو قادر على فعله بهم، وقد ترك فعله بهم. وفي تركه فعل ذلك بهم، أوضح الدليل أنه لم يعطهم كل الأسباب التي بها يصلون إلى الهداية، ويتسبّبون بها إلى الإيمان.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا يكبرن عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك، وعن الاستجابة لدعائك إذا دعوتهم إلى توحيد ربّهم والإقرار بنبوتك، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك، إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق، وسهّل لهم اتباع الرّشد، دون من ختم الله على سمعه، فلا يفقه من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتها، فهم كما وصفهم به الله تعالى ذكره: صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ [البقرة: ١٧١] "والموتى يبعثهم الله"، يقول: والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولاً إذ كانوا لا يتدبرون حُجج الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزعرون عما هم عليه من تكذيب رُسُل الله وخلافهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: "ثم إليه يرجعون"، فإنه يقول تعالى ذكره: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئاً، فيشب هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب

هذا الكافر بما أوعده أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحداً منهم مثقال ذرة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء العادلون برههم، المعرضون عن آياته: "لولا نزل عليه آية من ربه"، يقول: قالوا: هلا نزل على محمد آية من ربه؟ و"الآية"، العلامة. وذلك أنهم قالوا: مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا [الفرقان: ٧، ٨]. قال الله تعالى لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد، لقائلي هذه المقالة لك: "إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً"، يعني: حجة على ما يريدون ويسألون "ولكن أكثرهم لا يعلمون"، يقول: ولكن أكثر الذين يقولون ذلك فيسألونك آية، لا يعلمون ما عليهم في الآية إن نزلها من البلاء، ولا يدرون ما وجه ترك إنزال ذلك عليك، ولو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك، لم يقولوا ذلك، ولم يسألوكه، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل لهؤلاء المعرضين عنك، المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبن الله غافلاً عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون! وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم عليها، وهو غير غافل عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغير أو كبير، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناساً مجنسةً وأصنافاً مصنفة، تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سُخِّرَتْ له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومُثَبَّتٌ كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب، ثم إنه تعالى ذكره مميتها ثم منشراها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها. يقول: فالرب الذي لم يضيع حفظ أعمال البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، أخرى أن لا يُضَيَّعَ أعمالكم، ولا يُفَرِّطَ في حفظ أفعالكم التي تجترحونها، أيها الناس، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً، إذ كان قد خصكم من نعمه، وبسط عليكم من فضله، ما لم يعمَّ به غيركم في الدنيا، وكنتم بشكره أحق، وبمعرفة واجبه عليكم أولى، لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميزون، والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير، الذي به بين مصالحكم ومضاركم تفرقون. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: "ما فرطنا في الكتاب من شيء"، فإن معناه: ما ضيعنا إثبات شيء منه، كالذي

جاء عن ابن عباس: "ما فرطنا في الكتاب من شيء"، ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب. وأما قوله: "ثم إلى ربهم يحشرون"، فإن أهل التأويل اختلفوا في معنى "حشرهم"، الذي عناه الله تعالى ذكره في هذا الموضع. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن كل دابة وطائر محشورٌ إليه. وجائز أن يكون معنىً بذلك حشر القيامة وجائز أن يكون معنىً به حشر الموت وجائز أن يكون معنىً به الحشران جميعاً، ولا دلالة في ظاهر التنزيل، ولا في خبر عن النبي ﷺ أي ذلك المراد بقوله: "ثم إلى ربهم يحشرون"، إذ كان "الحشر"، في كلام العرب الجمع، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره: وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ [ص: ١٩]، يعني: مجموعة. فإذا كان الجمع هو "الحشر"، وكان الله تعالى ذكره جامعاً خلقه إليه يوم القيامة، وجامعهم بالموت، كان أصوب القول في ذلك أن يُعَمَّ بمعنى الآية ما عمه الله بظاهرها وأن يقال: كل دابة وكل طائر محشورٌ إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة، إذ كان الله تعالى ذكره قد عم بقوله: "ثم إلى ربهم يحشرون"، ولم يخص به حشراً دون حشر.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والذين كذبوا بحجج الله وأعلامه وأدلته "صم"، عن سماع الحق "بكم"، عن القيل به "في الظلمات"، يعني: في ظلمة الكفر حائراً فيها، يقول: هو مرتطم في ظلمات الكفر، لا يبصر آيات الله فيعتبر بها، ويعلم أن الذي خلقه وأنشأ فدبره وأحكم تدبيره، وقدره أحسن تقدير، وأعطاه القوة، وصحح له آلة جسمه لم يخلقه عبثاً، ولم يتركه سدى، ولم يعطه ما أعطاه من الآلات إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دون معصيته وما يسخطه. فهو لحيرته في ظلمات الكفر، وتردده في غمراتها، غافل عما الله قد أثبت له في أم الكتاب، وما هو به فاعلٌ يوم يحشر إليه مع سائر الأمم. ثم أخبر تعالى ذكره أنه المضل من يشاء إضلالاً من خلقه عن الإيمان إلى الكفر، والهادي إلى الصراط المستقيم منهم من أحب هدايته، فموفقه بفضلته وطوّله للإيمان به، وترك الكفر به وبرسله وما جاءت به أنبيأؤه، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أم الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد إلا من سبق له فيها الشقاء، وأن بيده الخير كله، وإليه الفضل كله، له الخلق والأمر.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: وتأويل الكلام: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام: أخبروني، إن جاءكم، أيها القوم، عذاب الله، كالذي جاء من قبلكم من الأمم الذين هلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصاعقة أو جاءكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم،

وتبعثون لموقف القيامة، أغير الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أو إلى غيره من أهتكم تفرعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء؟ "إن كنتم صادقين"، يقول: إن كنتم محققين في دعواكم وزعمكم أن أهتكم التي تدعونها من دون الله تنفع أو تضر.

القول في تأويل قوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا ذُكِّرْتُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مكذباً لهؤلاء العادلين به الأوثان: ما أنتم، أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد، إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم، وبه تستغيثون، وإليه تفرعون، دون كل شيء غيره "فيكشف ما تدعون إليه"، يقول: فيفرج عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه، عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم، لأنه القادر على كل شيء، ومالك كل شيء، دون ما تدعونه إلهاً من الأوثان والأصنام "وتنسون ما تشركون"، يقول: وتنسون حين يأتيكم عذاب الله أو تأتيكم الساعة بأهوالها، ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه، فتجعلونه له ندّاً من وثن وصنم، وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتدعونه إلهاً.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: متوعداً لهؤلاء العادلين به الأصنام ومحدّثهم أن يسلك بهم إن هم تمادوا في ضلالهم سبيل من سلك سييلهم من الأمم قبلهم، في تعجيل الله عقوبته لهم في الدنيا ومخبراً نبيه عن سنته في الذين خلوا قبلهم من الأمم على منهاجهم في تكذيب الرسل: "لقد أرسلنا"، يا محمد، "إلى أمم"، يعني: إلى جماعات وقرون "من قبلك فأخذناهم بالبأساء"، يقول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذبوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحانهم بالابتلاء "بالبأساء"، وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة "والضراء"، وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام. وقد بينا ذلك بشواهد ووجوه إعرابه في "سورة البقرة"، بما أغني عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: "لعلهم يتضرعون" يقول: فعلنا ذلك بهم ليتضرعوا إلّٰي، ويخلصوا لي العباد، ويُفردوا رغبتهم إلّٰي دون غيري، بالتذلل منهم لي بالطاعة، والاستكانة منهم إلّٰي بالإجابة.

وفي الكلام محدوفٌ قد استغني بما دلّ عليه الظاهر من إظهاره دون قوله: "ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم"، وإنما كان سبب أخذه إياهم، تكذيبهم الرسل وخلافهم أمره لا إرسال الرسل إليهم. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن معنى الكلام: "ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك" رسلاً فكذبوهم، "فأخذناهم بالبأساء".

و"التضرع": هو "التفعل" من "الضرعة"، وهي الذلة والاستكانة.

القول في تاويل قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أيضًا من الكلام الذي فيه متروك استغني بدلالة الظاهر عن ذكر ما ترك. وذلك أنه تعالى ذكره أخبر عن الأمم التي كذبت رسلها أنه أخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا له، ثم قال: "فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا"، ولم يخبر عما كان منهم من الفعل عند أخذه إياهم بالبأساء والضراء. ومعنى الكلام: "ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون"، فلم يتضرعوا، "فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا". ومعنى: "فلولا"، في هذا الموضع، فهلا. والعرب إذ أولت "لولا" اسمًا مرفوعًا، جعلت ما بعدها خبرًا، وتلقته بالأمر، فقالت: "فلولا أخوك لزرتك" و"لولا أبوك لضربتك"، وإذا أولتها فعلا أو لم تولها اسمًا، جعلوها استفهامًا فقالوا: "لولا جئتنا فنكرمك"، و"لولا زرت أخاك فنزورك"، بمعنى: "هلا"، كما قال تعالى ذكره: لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ [المنافقون: ١٠]. وكذلك تفعل بـ "لوما" مثل فعلها بـ "لولا". فتأويل الكلام إذا: فهلا إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلها، الذين لم يتضرعوا عند أخذناهم بالبأساء والضراء "تضرعوا"، فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه. وقد بينا معنى "البأس" في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

"ولكن قست قلوبهم"، يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمر ربهم، استهانةً بعقاب الله، واستخفافًا بعذابه، وقساوة قلب منهم. "وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون"، يقول: وحسن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الأعمال التي يكرها الله ويسخطها منهم.

القول في تاويل قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "فلما نسوا ما ذكروا به"، فلما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا "فتحنا عليهم أبواب كل شيء"، يقول: بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في العيش، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام، استدراجًا منَّا لهم ويعني تعالى بقوله: "حتى إذا فرحوا بما أوتوا"، يقول: حتى إذا فرح هؤلاء المكذَّبون رسلهم بفتحنا عليهم أبواب السَّعة في المعيشة، والصحة في الأجسام ويعني تعالى ذكره بقوله: "أخذناهم بغتة"، أتيناهم بالعذاب فجأة، وهم غارُّون لا يشعرون أن ذلك كائن، ولا هو بهم حالٌّ

وأما قوله: "فإذا هم مبلسون"، فإنهم هالكون، منقطعة حججهم، نادمون على ما سلف

منهم من تكذيبهم رسلهم عن عقبة بن عامر: أن النبي ﷺ قال: وإذا رأيت الله تعالى ذكره يعطي العباد ما يسألون على معاصيهم إياه، فإنما ذلك استدراج منه لهم! ثم تلا "فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء" الآية.

وأصل "الإبلاس" في كلام العرب، عند بعضهم: الحزن على الشيء والندم عليه وعند بعضهم: انقطاع الحجة، والسكوت عند انقطاع الحجة وعند بعضهم: الخشوع وقالوا: هو المخذول المتروك

القول في تأويل قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "فقطع دابر القوم الذين ظلموا"، فاستوصل القوم الذين عتوا على ربهم، وكذبوا رسله، وخالفوا أمره، عن آخرهم، فلم يترك منهم أحد إلا أهلك بغتة إذ جاءهم عذاب الله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

و"دابر القوم"، الذي يدبرهم، وهو الذي يكون في أدبارهم وآخرهم.

"والحمد لله رب العالمين"، يقول: والثناء الكامل والشكر التام "لله رب العالمين"، على إنعامه على رسله وأهل طاعته، بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر، وتحقيق عدالتهم ما وعدوهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسله من نقم الله وعاجل عذابه.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأصنام، المكذبين بك: أرايتم، أيها المشركون بالله غيره، إن أصمكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم فطبع عليها، حتى لا تفقهوا قولاً ولا تبصروا حجة، ولا تفهموا مفهوماً، أي إله غير الله الذي له عبادة كل عابد "يأتيكم به"، يقول: يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى رده عليكم إذا شاء؟

وهذا من الله تعالى ذكره، تعليم نبيه الحجة على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، وإنما يستحق العبادة عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادر على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء.

ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "انظر كيف نصرَفُ الآيات"، يقول: انظر كيف نتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا فينبوا، "ثم هم يصدفون"، يقول: ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر، عن الذاكرة والاعتبار يُعْرضون.

يقال منه: "صدف فلانٌ عني بوجهه، فهو يصدفُ صُدُوفًا وَصَدْفًا"، أي: عدل وأعرض،

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بريهم الأوثان، المكذبين بأنك لي رسول إليهم: أخبروني "إن أتاكم عذاب الله"، وعقابه على ما تشركون به من الأوثان والأنداد، وتكذيبكم إياي بعد الذي قد عايتم من البرهان على حقيقة قلبي "بغته"، يقول: فجأة على غرة لا تشعرون "أو جهرة"، يقول: أو أتاكم عذاب الله وأنتم تعايونونه وتنتظرون إليه "هل يهلك إلا القوم الظالمون"، يقول: هل يهلك الله منا ومنكم إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العباداة، وترك عباداة من يستحق علينا العباداة؟ وقد بينا معنى "الجهرة" في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته، وأنها من "الإجهار"، وهو إظهار الشيء للعين

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٨) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما نرسل رسلنا إلا ببشارة أهل الطاعة لنا بالجنة والفوز المبين يوم القيامة، جزاءً منا لهم على طاعتنا وبيانذار من عصانا وخالف أمرنا، عقوبتنا إياه على معصيتنا يوم القيامة، جزاءً منا على معصيتنا، لنعذر إليه فيهلك إن هلك عن بينة "فمن آمن وأصلح"، يقول: فمن صدق من أرسلنا إليه من رسلنا إنذارهم إياه، وقبل منهم ما جاؤوه به من عند الله، وعمل صالحاً في الدنيا "فلا خوف عليهم"، عند قدومهم على ربهم، من عقابه وعذابه الذي أعدّه الله لأعدائه وأهل معاصيه "ولا هم يحزنون"، عند ذلك على ما خلفوا وراءهم في الدنيا.

القول في تاويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٢٩) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأما الذين كذبوا بمن أرسلنا إليه من رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ودافعوا حجتنا، فإنهم بياشرهم عذابنا وعقابنا، على تكذيبهم ما كذبوا به من حججنا "بما كانوا يفسقون"، يقول: بما كانوا يكذبون. وكان ابن زيد يقول: كل "فسق" في القرآن، فمعناه الكذب.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣٠) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المنكرين نبوتك: لست أقول لكم إنني الرب الذي له خزائن السماوات والأرض، وأعلم غيوب الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الرب الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك، لأنه لا ينبغي أن يكون رباً إلا من له ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو الله الذي لا إله غيره "ولا أقول لكم إني ملك"، لأنه

لا ينبغي لملك أن يكون ظاهرًا بصورته لأبصار البشر في الدنيا، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك "إن أتبع إلا ما يوحى إلي"، يقول: قل لهم: ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، إلا وحي الله الذي يوحى إلي، وتنزله الذي ينزله عليّ، فأمضي لوحيه وأتّمر لأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عذرکم على صحة قلبي في ذلك، وليس الذي أقول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة، فما وجه إنكاركم ذلك؟ وذلك تنبيه من الله تعالى نبيه ﷺ على موضع حُجته على منكري نبوته من مشركي قومه. "قل هل يستوي الأعمى والبصير"، يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق، والبصير به "والأعمى"، هو الكافر الذي قد عمى عن حجج الله فلا يتبينها فيتبعها "والبصير"، المؤمن الذي قد أبصر آيات الله وحججه، فاقنّدي بها واستضاء بضياها "أفلا تتفكرون"، يقول لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله: أفلا تتفكرون فيما أحتج عليكم به، أيها القوم، من هذه الحجج، فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه، من فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربكم، وتكذيبكم إياي مع ظهور حجج صدقي لأعينكم، فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون، إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون؟ وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأنذر، يا محمد، بالقرآن الذي أنزلناه إليك، القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علمًا منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله "ليس لهم من دونه ولي"، أي ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم "ولي"، ينصرهم فيستنقذهم منه، "ولا شفيع"، يشفع لهم عند الله تعالى ذكره فيخلصهم من عقابه "لعلهم يتقون"، يقول: أنذرهم كي يتقوا الله في أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتناّب معاصيه. وقيل: "وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا"، ومعناه: يعلمون أنهم يحشرون، فوضعت "المخافة" موضع "العلم"، لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك.

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذكره نبيه محمدًا ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه، وتذكيرهم، والإقبال عليهم بالإنذار وصدّ عنه المشركون به، بعد الإغذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم، حتى يكون الله هو الحاكم في أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: ذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ، في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون له: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك! فعن ابن مسعود قال: مرّ الملاء من قريش بالنبي ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أَرْضِيتَ بهؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك! فنزلت هذه الآية: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" وكذلك فتننا بعضهم ببعض"، إلى آخر الآية. واختلف أهل التأويل في الدعاء الذي كان هؤلاء الرهط، الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، يدعون ربهم به. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى نبيه محمداً ﷺ أن يطرد قوماً كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، و"الدعاء لله"، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولاً وكلاماً وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمال التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابده بما هو عامل له. وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي، لأن الله قد سمى "العبادة"، "دعاء"، فقال تعالى ذكره: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، [غافر: ٦٠]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاص من الدعاء. ولا قول أولى بذلك بالصحة، من وصف القوم بما وصفهم الله به: من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، فيعمّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصّون منها بشيء دون شيء. فتأويل الكلام إذاً: يا محمد، أنذر القرآن الذي أنزلته إليك، الذين يعلمون أنهم إلى ربهم محشورون فهم من خوف ورودهم على الله الذي لا شفيح لهم من دونه ولا نصير، في العمل له دائبون إذ أعرض عن إنذارك واستماع ما أنزل الله عليك المكذبون بالله واليوم الآخر من قومك، استكباراً على الله ولا تطردهم ولا تُقَصِّمهم، فتكون ممن وضع الإقصاء في غير موضعه، فأقصى وطرد من لم يكن له طرده وإقصاؤه، وقرب من لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه، فإن الذين نهيتك عن طردهم هم الذين يدعون ربهم فيسألونه عفوه ومغفرته بصالح أعمالهم، وأداء ما ألزمهم من فرائضه، ونوافل تطوعهم، وذكرهم بإياه بألستهم بالغداة والعشي، يلتمسون بذلك القربة إلى الله، والدنو من رضاه "ما عليك من حسابهم من شيء"، يقول: ما عليك من حساب ما رزقتهم من الرزق من شيء وما عليهم من حساب ما رزقتك من الرزق من شيء "فتطردهم"، حذار محاسبتي إياك بما خولتهم في الدنيا من الرزق.

وقوله: "فطردهم"، جواب لقوله: "ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء". وقوله: "فتكون من الظالمين" جواب لقوله: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم".

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وكذلك فتنا بعضهم ببعض" ، وكذلك اخترنا وابتلينا وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا على معنى "الفتنة"، وأنها الاختبار والابتلاء، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وإنما فتنة الله تعالى ذكره بعض خلقه ببعض، مخالفته بينهم فيما قسم لهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضاً غنياً وبعضاً فقيراً، وبعضاً قوياً، وبعضاً ضعيفاً، فأحوج بعضهم إلى بعض، اختباراً منه لهم بذلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

وأما قوله: "ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا"، يقول تعالى: اخترنا الناس بالغنى والفقر، والعز والذل، والقوة والضعف، والهدى والضلال، كي يقول من أضله الله وأعماه عن سبيل الحق، للذين هداهم الله ووفقهم: "أهؤلاء من الله عليهم"، بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء "من بيننا"، ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاء بهم، ومعادة للإسلام وأهله.

يقول تعالى ذكره: "أليس الله بأعلم بالشاكرين"، وهذا منه تعالى ذكره إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء وتقريب لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرًا نعمتي، ممن هو لها كافر. فمني على من مننت عليه منهم بالهداية، جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد، عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير، لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحد إلا جزاءً على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره، لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله تعالى ذكره بهذه الآية.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بتأويل الآية، قول من قال: المعنيون بقوله: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم"، غير الذين نهى الله النبي ﷺ عن طردهم. لأن قوله: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا"، خبر مستأنف بعد تقضي الخبر عن الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم. ولو كانوا هم، لقليل: "وإذا جاؤوك فقل سلام عليكم". وفي ابتداء الله الخبر عن قصة هؤلاء، وتركه وصل الكلام بالخبر عن الأولين، ما ينبئ عن أنهم غيرهم.

فتأويل الكلام إذا إذ كان الأمر على ما وصفنا وإذا جاءك، يا محمد، القوم الذين يصدّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، فيقرّون بذلك قولاً وعملاً مسترشدين عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة، فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: "سلام عليكم"، أَمَنَةُ الله لكم من ذنوبكم، أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها "كتب ربكم على نفسه الرحمة"، يقول: قضى ربكم الرحمة بخلقه "أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم". ومعنى قوله: "إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة"، أنه من اقترف منكم ذنباً، فجهل باقترافه إياه ثم تاب وأصلح "فإنه غفور"، لذنبه إذا تاب وأناب، وراجع العمل بطاعة الله، وترك العود إلى مثله، مع الندم على ما فرط منه "رحيم"، بالتائب أن يعاقبه على ذنبه بعد توبته منه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وكذلك نفصل الآيات"، وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها، يا محمد، إلى هذا الموضع، حججتنا على المشركين من عبدة الأوثان، وأدلتنا، وميّرناها لك وبينها، كذلك نفصل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل غيرهم، فبينها لك، حتى تبين حقه من باطله، وصحيحه من سقيمه.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين برّبهم من قومك، العادلين به الأوثان والأنداد، الذين يدعونك إلى موافقتهم على دينهم وعبادة الأوثان: إنّ الله نهاني أن أعبد الذين تدعون من دونه، فلن أتبعكم على ما تدعونني إليه من ذلك، ولا أوافقكم عليه، ولا أعطيكم محبتكم وهواكم فيه. وإن فعلت ذلك، فقد تركت محبة الحق، وسلكت على غير الهدى، فصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عُنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برّبهم، الداعين لك إلى الإشراف ربك "إني على بيّنة من ربي"، أي إني على بيان قد تبينته، وبرهان قد وضح لي "من ربي"، يقول: من توحيدي، وما أنا عليه من إخلاص عبودته من غير إشراك شيء به. "وكذبتكم به" يقول: وكذبتكم بأنتم بربكم و"الهاء" في قوله "به" من ذكر الرب جلّ وعز "ما عندي ما تستعجلون به"، يقول: ما الذي تستعجلون من نعم الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر. وذلك أنهم قالوا حين بعث الله نبيّه محمداً ﷺ

بتوحيده، فدعاهم إلى الله، وأخبرهم أنه رسوله إليهم: هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [الأنبياء: ٣]. وقالوا للقرآن: هو أضغاث أحلام. وقال بعضهم: بل هو اختلاق اختلقه. وقال آخرون: بل محمد شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون فقال الله لنبيه ﷺ: أجبهم بأن الآيات بيد الله لا بيدك، وإنما أنت رسول، وليس عليك إلا البلاغ لما أرسلت به، وأن الله يقضي الحق فيهم وفيك، ويفصل به بينك وبينهم، فيتبين المحق منكم والمبطل "وهو خير الفاصلين"، أي: وهو خير من بين وميز بين المحق والمبطل وأعدلهم، لأنه لا يقع في حكمه وقضائه حيف إلى أحد لو سيلة له إليه ولا لقراءة ولا مناسبة، ولا في قضائه جور، لأنه لا يأخذ الرشوة في الأحكام فيجور، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الآلهة والأوثان، المكذبيك فيما جئتهم به، السائلينك أن تأتيهم بآية استعجالا منهم بالعذاب: لو أن بيدي ما تستعجلون به من العذاب "القضي الأمر بيني وبينكم"، ففصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه، ولكن ذلك بيد الله، الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، الذين يضعون عبادتهم التي لا تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها، فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام، وهو أعلم بوقت الانتقام منهم، وحال القضاء بيني وبينهم.

القول في تاويل قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال أبو جعفر: يقول: وعند الله مفاتيح الغيب. ويعني بقوله: "وعنده مفاتيح الغيب"، خزائن الغيب قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذا: والله أعلم بالظالمين من خلقه، وما هم مستحقوه وما هم بهم صانع، فإن عنده علم ما غاب علمه عن خلقه فلم يطلعوا عليه ولم يدركوه، ولن يعلموه ولن يدركوه "ويعلم ما في البر والبحر"، يقول: وعنده علم ما لم يغب أيضًا عنكم، لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمه العباد. فكأن معنى الكلام: وعند الله علم ما غاب عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم، لا يخفى عليه شيء، لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم. فأخبر الله تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقة في الصحاري

والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا الله يعلمها "ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين"، يقول: ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها. ويعني بقوله: "مبين"، أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم.

القول في تاويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية ﷺ: وقل لهم، يا محمد، والله أعلم بالظالمين، والله هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم "ويعلم ما جرحتم بالنهار"، يقول: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وأما "الاجتراح" عند العرب، فهو عمل الرجل بيده أو رجله أو فمه، وهي "الجوارح" عندهم، جوارح البدن فيما ذكر عنهم. ثم يقال لكل مكتسب عملاً "جارح"، لاستعمال العرب ذلك في هذه "الجوارح"، ثم كثر ذلك في الكلام حتى قيل لكل مكتسب كسباً، بأي أعضاء جسمه اكتسب: "مجترح". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

قال أبو جعفر: وهذا الكلام وإن كان خبراً من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإن فيه احتجاجاً على المشركين به، الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم. فقال تعالى ذكره محتجاً عليهم: "وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى"، يقول: فالذي يقبض أرواحكم بالليل ويبعثكم في النهار، لتبلغوا أجلا مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحته، غير منكرٍ له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم ردها إلى أجسادكم، وإنشاءكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تعينون وتشاهدون، وغير منكر لمن قدر على ما تعينون من ذلك، القدرة على ما لم تعينوه. وإن الذي لم تروه ولم تعينوه من ذلك، شبيه ما رأيتم وعايَنتم.

القول في تاويل قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: "ثم يبعثكم"، يبركم ويوقظكم من منامكم "فيه" يعني في النهار، و"الهاء" التي في "فيه" راجعة على "النهار" "ليقضي أجل مسمى"، يقول: ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته "ثم إليه مرجعكم"، يقول: ثم إلى الله معادكم ومصيركم "ثم ينبئكم بما كنتم تعملون"، يقول: ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. "ليقضي أجل مسمى"، وذلك الموت.

القول في تاويل قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "وهو القاهر"، والله الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلّل المغلّو عليه لذته "ويرسل عليكم حفظة"، وهي ملائكته الذين يتعاقبونكم ليلاً ونهاراً، يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه ولا يضيعون. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تاويل قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم ردت الملائكة الذين توفّوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم، إلى الله سيدهم الحق، "ألا له الحكم"، يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه "وهو أسرع الحاسبين"، يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وأجالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناس، وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها، لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، ولا يعزّب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين [سبأ: ٣].

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَاكُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برّهم، الداعين إلى عبادة أوثانهم: من الذين ينجيكم "من ظلمات البر"، إذا ضللتهم فيه فتحيرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل، فلا تهتدون له غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء "تضرعاً"، منكم إليه واستكانة جهراً وخفية"، يقول: وإخفاء للدعاء أحياناً، وإعلاناً وإظهاراً تقولون: لئن أنجيتنا من هذه يا رب أي من هذه الظلمات التي نحن فيها "لنكونن من الشاكرين"، يقول: لنكونن ممن يوحدك بالشكر، ويخلص لك العبادة، دون من كنا نشركه معك في عبادتك. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين برّهم سواه من الآلهة، إذا أنت استفهمتهم عمن به يستعينون عند نزول الكرب بهم في البر والبحر: الله القادر على فرجكم عند حلول الكرب بكم، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من همّ الضلال وخوف الهلاك، ومن كرب كل سوى ذلك وهم لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضرر، ثم أنتم بعد تفضيله عليكم بكشف

النازل بكم من الكرب، ودفع الحال بكم من جسيم الهم، تعدلون به آلهتكم وأصنامكم، فتشركونها في عبادتكم إياه. وذلك منكم جهل بواجب حقه عليكم، وكفر لأيديه عندكم، وتعرض منكم لإنزال عقوبته عاجلاً بكم.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء العادلين برهم غيره من الأصنام والأوثان، يا محمد: إن الذي ينجيكم من ظلمات البر والبحر ومن كل كرب، ثم تعودون للإشراك به، هو القادر على أن يرسل عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم، لشرككم به، وادعائكم معه إلهاً آخر غيره، وكفرانكم نعمه، مع إسباغه عليكم آلاءه ومِنَّه.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى "العذاب" الذي توعد الله به هؤلاء القوم أن يبعثه عليهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم. قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: عني بالعذاب من فوقهم، الرجم أو الطوفان وما أشبه ذلك مما ينزل عليهم من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، الخسف وما أشبهه. وذلك أن المعروف في كلام العرب من معنى "فوق" و"تحت" الأرجل، هو ذلك، دون غيره. وإن كان لما روي عن ابن عباس في ذلك وجه صحيح، غير أن الكلام إذا تَنَوَّعَ في تأويله، فحملة على الأغلب الأشهر من معناه أحق وأولى من غيره، ما لم تأت حجة مانعة من ذلك يجب التسليم لها.

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أو يخلطكم "شيعاً"، فرقاً، واحدها "شيعه".

وأما قوله: "يلبسكم" فهو من قولك: "لبست عليه الأمر"، إذا خلطت، "فأنا ألبسه". وإنما قلت إن ذلك كذلك، لأنه لا خلاف بين القرأة في ذلك بكسر "الباء"، ففي ذلك دليل بين على أنه من: "لبس يلبس"، وذلك هو معنى الخلط. وإنما عني بذلك: أو يخلطكم أهواء مختلفة وأحزاباً مفترقة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. قوله: "أو يلبسكم شيعاً"، قال: الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف، والأهواء، وسفك دماء بعضهم بعضاً. وأما قوله: "ويذيق بعضهم بأس بعض"، فإنه يعني: يقتل بعضهم بيد بعض. ثم اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية. قال أبو جعفر: والصواب من القول عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره توعد بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان، وإياهم خاطب بها، لأنها بين إخبار عنهم وخطاب لهم، وذلك أنها تتلو قوله: "قل ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون"، ويتلوها قوله: "وكذب به قومك وهو الحق". وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين، فإذا كان

غير جائز أن يكون ذلك كذلك، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين، كان بيننا أن ذلك وعيد لمن تقدّم وصف الله إياه بالشرك، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب لا لمن لم يجر له ذكر. غير أن ذلك وإن كان كذلك، فإنه قد عم وعيده بذلك كلّ من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على الله وعلى رسوله، والتكذيب بآيات الله من هذه وغيرها. وأما الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ أنه قال: "سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة"، فجائز أن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت وعيداً لمن ذكرت من المشركين، ومن كان على مناهجهم من المخالفين ربهم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعيد أمته مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا من الله تعالى ذكره بمعصيتهم إياه هذه العقوبات، فأعادهم بدعائه إياه ورغبته إياه، من المعاصي التي يستحقون بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها، ولم يُعْذِرْهم من ذلك ما يستحقون به اثنتين منها.

فغن السدي قال: قال رسول الله ﷺ: إني سألت ربي خصالاً فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة: سألته أن لا تكفر أمتي صفقة واحدة، فأعطانيها. وسألته لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم من قبلهم، فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها.

القول في تاويل قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر، يا محمد، بعين قلبك إلى ترديدنا حججنا على هؤلاء المكذبين برّبهم الجاحدين نعمه، وتصريفناها فيهم "لعلهم يفقهون"، يقول: ليفقهوا ذلك ويعتبروه، فيذكروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخطه الله منهم، من عبادة الأوثان والأصنام، والتكذيب بكتاب الله تعالى ذكره ورسوله ﷺ.

القول في تاويل قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكذب، يا محمد، قومك بما تقول وتخبر وتوعد من الوعيد "وهو الحق"، يقول: والوعيد الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم: من بعث العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو لبسهم شيعاً، وإذاقة بعضهم بأس بعض "الحق" الذي لا شك فيه أنه واقع إن هم لم يتوبوا وينيوا مما هم عليه مقيمون من معصية الله والشرك به، إلى طاعة الله والإيمان به "قل لست عليكم بوكيل"، يقول: قل لهم، يا محمد، لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم "لكل نبيٍّ مستقر"، يقول: لكل خبر مستقر، يعني قرار يستقرّ عنده، ونهاية ينتهي إليه، فيتبين حقه وصدقه، من كذبه وباطله "وسوف تعلمون"، يقول: وسوف تعلمون، أيها المكذبون بصحة ما أخبركم به من وعيد الله إياكم، أيها المشركون، حقيقته عند حلول عذابه بكم، فرأوا ذلك وعينوه، فقتلهم

يومئذ بأيدي أوليائه من المؤمنين.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: وإذا رأيت، يا محمد، المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحينا إليك، و"خوضهم فيها"، كان استهزاءهم بها، وسبهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها "فأعرض عنهم"، يقول: فصد عنهم بوجهك، وقم عنهم، ولا تجلس معهم "حتى يخوضوا في حديث غيره"، يقول: حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم "وإما ينسيناك الشيطان"، يقوله: وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرت ذلك، ففهم عنهم، ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوض فيه بما خاضوا به فيه. وذلك هو معنى "ظلمهم" في هذا الموضع. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن اتقى الله فخافه، فأطاعه فيما أمره به، واجتنب ما نهاه عنه، فليس عليه بترك الإعراض عن هؤلاء الخائضين في آيات الله في حال خوضهم في آيات الله، شيء من تبعه فيما بينه وبين الله، إذا لم يكن تركه الإعراض عنهم رصاً بما هم فيه، وكان الله بحقوقه متقياً، ولا عليه من إثمهم بذلك حرج، ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله "لعلهم يتقون"، يقول: ليتقوا. ومعنى "الذكرى"، الذكر. و"الذكرى" بمعنى. وقد ذكر أن النبي ﷺ إنما أمر بالقيام عن المشركين إذا خاضوا في آيات الله، لأن قيامه عنهم كان مما يكرهونه، فقال الله له: إذا خاضوا في آيات الله فقم عنهم، ليتقوا الخوض فيها ويتركوا ذلك.

القول في تاويل قوله: ﴿وَدَّرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهُوَ غُرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: ذر هؤلاء الذين اتخذوا دين الله وطاعتهم إياه لعباً ولهواً، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته، واللهاً والاستهزاء بها إذا سمعوا وتليت عليهم، فأعرض عنهم، فإني لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقام منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينة الحياة الدنيا، ونسيانهم المعاد إلى الله تعالى ذكره والمصير إليه بعد الممات

وقد نسخ الله تعالى ذكره هذه الآية بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وكذلك قال عدد من أهل التأويل. وأما قوله: "وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت"، فإنه يعني

به: وذكر، يا محمد، هذا القرآن هؤلاء المولّين عنك وعنه " أن تبسل نفس"، بمعنى: أن لا تبسل، كما قال: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنَّ تَضَلُّوا، [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا وإنما معنى الكلام: وذكرهم به ليؤمنوا ويتبعوا ما جاءهم من عند الله من الحق، فلا تُبَسِّلْ أنفسهم بما كسبت من الأوزار ولكن حذفت "لا"، لدلالة الكلام عليها. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "أن تبسل نفس". وأصل "الإبسال" التحريم، يقال منه: "أبسلت المكان"، إذا حرّمته فلم يقرب ومنه قولهم: "أسد باسل"، ويراد به: لا يقربه شيء، فكأنه قد حرّم نفسه، ثم يجعل ذلك صفة لكل شديد يتحامى لشدته. ويقال: "أعطى الراقي بُسْلَتَهُ"، يراد بذلك: أجرته، "وشراب بَسِيل"، بمعنى متروك. وكذلك "المبْسُلُ بالجريرة"، وهو المترتن بها، قيل له: "مُبْسَلٌ"، لأنه محرّم من كل شيء إلا مما رُهن فيه وأسلم به قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذا: وذكر بالقرآن هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلك سبيلهم من المشركين، كيلا تُبَسِّلْ نفس بذنوبها وكفرها برّبها، وترتن فتغلق بما كسبت من إجرامها في عذاب الله "ليس لها من دون الله"، يقول: ليس لها، حين تسلم بذنوبها فترتن بما كسبت من آثامها، أحدٌ ينصرها فينقذها من الله الذي جازاها بذنوبها جزاءها "ولا شفيع"، يشفع لها، لوسيلة له عنده.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن تعدل النفس التي أبسلت بما كسبت، يعني: "وإن تعدل كل عدل"، يعني: كل فداء. يقال منه: "عَدَلْ يَعْدِلْ"، إذا فدى، "عَدَلًا"، ومنه قول الله تعالى ذكره: أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا، [المائدة: ٩٥]، وهو ما عادله من غير نوعه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين إن فدوا أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة كل فداء لم يؤخذ منهم، هم "الذين أسبلوا بما كسبوا"، يقول: أسلموا لعذاب الله، فرهنوا به جزاءً بما كسبوا في الدنيا من الآثام والأوزار، "لهم شرابٌ من حميم". و"الحميم" هو الحارّ، في كلام العرب وإنما جعل تعالى ذكره لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية شراباً من حميم، لأن الحارّ من الماء لا يروي من عطش. فأخبر أنهم إذا عطشوا في جهنم لم يغاثوا بماء يرويههم، ولكن بما يزيدون به عطشاً على ما بهم من العطش "وعذاب أليم"، يقول: ولهم أيضاً مع الشراب الحميم من الله العذاب الأليم والهوان المقيم "بما كانوا يكفرون"، يقول: بما كان من كفرهم في الدنيا بالله، وإنكارهم توحيده، وعبادتهم معه آلهة دونه.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى امْتَثِلْ﴾ قال أبو

جعفر: وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره نبيه ﷺ على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان. يقول له تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأنداد، والأميرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر؟ فلا شك أنكم تعلمون أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره، أحق وأولى من خدمة من لا يرجى نفعه ولا يخشى ضره!

"ونرد على أعقابنا"، يقول: ونرد إلى أدبارنا، فنرجع القهقري خلفنا، لم نظفر بحاجتنا. وقد بينا معنى: "الرد على العقب"، وأن العرب تقول لكل طالب حاجة لم يظفر بها: "رد على عقبيه"، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وإنما يراد به في هذا الموضع: ونرد من الإسلام إلى الكفر "بعد إذ هدانا الله، فوفقنا له، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان، يهوي في الأرض حيران. وقوله: "استهوته"، "استفعلته"، من قول القائل: "هوى فلان إلى كذا يهوي وأما "حيران"، فإنه "فعالان" من قول القائل: "قد حار فلان في الطريق، فهو يحار فيه حيرة وحيراناً وحيرة"، وذلك إذ ضل فلم يهتد للمحجّة.

"له أصحاب يدعونه إلى الهدى"، يقول: لهذا الحيران الذي قد استهوته الشياطين في الأرض، أصحاب على المحجة واستقامة السبيل، يدعونه إلى المحجة لطريق الهدى الذي هم عليه، يقولون له: اتنا. قال أبو جعفر: وهذا مثل ضربه الله تعالى ذكره لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدين الحق، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولون له: "اتنا فكن معنا على استقامة وهدى"! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان.

وبمثل الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل، وخالف في ذلك جماعة.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأوثان، القائلين لأصحابك: "اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، فإننا على هدى": ليس الأمر كما زعمتم "إن هدى الله هو الهدى"، يقول: إن طريق الله الذي بينه لنا وأوضحه، وسبيلنا الذي أمرنا بلزومه، ودينه الذي شرعه لنا فيبينه، هو الهدى والاستقامة التي لا شك فيها، لا عبادة الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل "وأمرنا لنسلم لرب العالمين"، يقول: وأمرنا ربنا ورب كل شيء تعالى وجهه، لنسلم له، لنخضع له بالذلة والطاعة

والعبودية، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة.

وقد بينا معنى "الإسلام" بشواهد فيما مضى من كتابنا، بما أغنى عن إعادته.

وقيل: "وأمرنا لنسلم"، بمعنى: وأمرنا كي نسلم، وأن نسلم لرب العالمين لأن العرب تضع "كي" و"اللام" التي بمعنى "كي"، مكان "أن" و"أن" مكانها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأمرنا أن أقيموا الصلاة. فتأويل الكلام: وأمرنا بإقامة الصلاة، وذلك أداؤها بحدودها التي فرضت علينا "واتقوه"، يقول: واتقوا رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له، فخافوه واحذروا سخطه، بأداء الصلاة المفروضة عليكم، والإذعان له بالطاعة، وإخلاص العبادة له "وهو الذي إليه تحشرون"، يقول: وربكم رب العالمين، هو الذي إليه تحشرون فتجمعون يوم القيامة، فيجازي كل عامل منكم بعمله، وتوفي كل نفس ما كسبت.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأنداد، الداعيك إلى عبادة الأوثان: "أمرنا لنسلم لرب العالمين، الذي خلق السماوات والأرض بالحق، لا من لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر". واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "بالحق". وفي قوله "كُنْ فَيَكُونُ" قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه المنفرد بخلق السماوات والأرض دون كل ما سواه، معرِّفاً من أشرك به من خلقه جهله في عبادة الأوثان والأصنام، وخطأ ما هم عليه مقيمون من عبادة ما لا يضر ولا ينفع، ولا يقدر على اجتلاب نفع إلى نفسه، ولا دفع ضرر عنها ومحتجاً عليهم في إنكارهم البعث بعد الممات والثواب والعقاب، بقدرته على ابتداء ذلك ابتداءً، وأن الذي ابتدع ذلك غير متعذر عليه إفناؤه ثم إعادته بعد إفناؤه، فقال: "وهو الذي خلق"، أيها العادلون برهم من لا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شيء "السماوات والأرض بالحق"، حجة على خلقه، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلوا بها على عظيم قدرته وسلطانه، فيخلصوا له العبادة "ويوم يقول كن فيكون"، يقول: ويوم يقول حين تبدل الأرض غير الأرض والسماوات كذلك: "كن فيكون"، كما شاء تعالى ذكره، فتكون الأرض غير الأرض ويكون الكلام عند قوله: "كن فيكون" متناهياً.

وإذا كان كذلك معناه، وجب أن يكون في الكلام محذوفٌ يدلُّ عليه الظاهر، ويكون معنى الكلام: ويوم يقول كذلك: "كن فيكون" تبدل السماوات والأرض غير السماوات والأرض. ويدلُّ على ذلك قوله: "وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق"، ثم ابتداء الخبر عن القول

فقال: "قوله الحق"، بمعنى وعده هذا الذي وعدَ تعالى ذكره، من تبديله السماوات والأرض غير الأرض والسماوات، الحقُّ الذي لا شك فيه "وله الملك يوم ينفخ في الصور"، فيكون قوله: "يوم ينفخ في الصور"، من صلة "الملك" ويكون معنى الكلام: والله الملك يومئذ، لأن النفخة الثانية في الصور حال تبديل الله السماوات والأرض غيرهما. وجائز أن يكون "القول" أعنى: "قوله الحق"، مرفوعاً بقوله: "ويوم يقول كن فيكون"، ويكون قوله: "كن فيكون" محلاً للقول مرفعاً، فيكون تأويل الكلام: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق، ويوم يبدلها غير السماوات والأرض، فيقول لذلك: "كن فيكون"، "قوله الحق". وأما قوله: "وله الملك يوم ينفخ في الصور"، فإنه خُصَّ بالخبر عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة، لأنه عنى تعالى ذكره أنه لا منازع له فيه يومئذ ولا مدّعي له، وأنه المنفرد به دون كل من كان ينازعه فيه في الدنيا من الجبابرة، فأذعن جميعهم يومئذ له به، وعلموا أنهم كانوا من دعواهم في الدنيا في باطل. واختلف في معنى "الصور" في هذا الموضع. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أنه قال: "إن إسرأفيل قد التقم الصور وحنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ"، وأنه قال: "الصور قرن ينفخ فيه". ويعني بقوله: "عالم الغيب والشهادة"، عالم ما تعينون: أيها الناس، فتشاهدونه، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه "وهو الحكيم"، في تدييره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلى العدم، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب الخير"، بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسئى، حافظ ذلك عليهم ليحازيهم على كل ذلك. يقول تعالى ذكره: فاحذروا، أيها العادلون بربكم، عقابه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ما تعملون.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر، يا محمد لحجاجك الذي تحاج به قومك، وخصومتك إياهم في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك ونعلمكه من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين، وحقيقة ما أنت عليهم به محتج حجاج إبراهيم خليلي قومه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرضا به ولياً وناصرًا دون الأصنام، فاتخذة إماماً واقتد به، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثلاً إذ قال لأبيه مفارقاً لدينه، وعائباً عبادته الأصنام دون بارئه وخالفه: يا آزر. ثم اختلف أهل العلم في المعنى بـ "آزر"، وما هو، اسم هو أم صفة؟ وإن كان اسماً، فمن المسمى به؟ قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب منهما عندي قول من قال: "هو اسم أبيه"، لأن الله تعالى ذكره أخبر أنه أبوه، وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم

القول في تأويل قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال: "أنتخذ أصناماً آلهة"، تعبدها وتتخذها رباً دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك؟

و"الأصنام": جمع "صنم"، و"الصنم" التمثال من حجر أو خشب أو من غير ذلك في صورة إنسان، وهو "الوثن". وقد يقال للصورة المصوّرة على صورة الإنسان في الحائط وغيره: "صنم" و"وثن". "إني أراك وقومك في ضلال مبين"، يقول: "إني أراك"، يا آزر، "وقومك" الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة "في ضلال"، يقول: في زوال عن محجة الحق، وعدول عن سبيل الصواب "مبين"، يقول: يتبين لمن أبصره أنه جورٌ عن قصد السبيل، وزوالٌ عن محجة الطريق القويم. يعني بذلك أنه قد ضلّ هو وهم عن توحيد الله وعبادته، الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم، دون غيره من الآلهة والأوثان.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وكذلك"، وكما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلافه ما كانوا عليه من الضلال، نريه ملكوت السماوات والأرض يعني ملكه.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عنى الله تعالى ذكره بقوله: "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض"، أنه أراه ملك السماوات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلّى له بواطن الأمور وظواهرها، لما ذكرنا قبل من معنى "الملكوت"، في كلام العرب، فيما مضى قبل.

وأما قوله: "وليكون من الموقنين"، فإنه يعني أنه أراه ملكوت السماوات والأرض، ليكون ممن يقرّ بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه له وبصره إياه، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالة، من عبادتهم الأصنام، واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما واره الليل وغيبه.

وقوله: "رأى كوكباً"، يقول: أبصر كوكباً حين طلع "قال هذاربي"

كان سبب قيل إبراهيم ذلك، ما جاء عن محمد بن إسحاق فيما ذكر لنا، والله أعلم أن آزر كان رجلاً من أهل كوثى، من قرية بالسواد، سواد الكوفة، وكان إذ ذاك ملك المشرق النمرود،

فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم (عليه السلام)، خليل الرحمن، حجة على قومه، ورسولا إلى عباده، ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم نبي إلا هود وصالح، فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله ما أراد، أتى أصحاب النجوم نمروذ فقالوا له: تَعَلَّمْ، أأنا نجد في علمنا أن غلامًا يولد في قريتك هذه يقال له "إبراهيم"، يفارق دينكم، ويكسر أوثانكم، في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا. فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود، بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحسبها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة آزر، فإنه لم يعلم بحبلها، وذلك أنها كانت امرأة حَدَثَة، فيما يذكر، لم تعرف الحبل في بطنها، ولمَّا أرادَ الله أن يبلغ بولدها، يريدُ أن يقتل كل غلام ولد في ذلك الشهر من تلك السنة، حذرًا على ملكه. فجعل لا تلد امرأة غلامًا في ذلك الشهر من تلك السنة، إلا أمر به فذبح. فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبًا منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما يُصنع بالمولود، ثم سَدَّت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة فتنظر ما فعل، فتجده حيًّا يمصّ إبهامه، يزعمون، والله أعلم، أن الله جعل رزق إبراهيم فيها وما يجيئه من مصّه. وكان آزر، فيما يزعمون، سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل، فقالت: ولدت غلامًا فمات! فصَدَّقَها، فسكت عنها. وكان اليوم، فيما يذكرون، على إبراهيم في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة. فلم يلبث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهرًا حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر! فأخرجته عشاءً فَنَظَرَ، وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال: "إن الذي خلَقني ورزقني وأطعمني وسقاني لرَبِّي، ما لي إله غيره!" ثم نظر في السماء فرأى كوكبًا، قال: "هذا ربي"، ثم اتَّبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال: "لا أحب الآفلين"، ثم طلع القمر فرأه بازغًا، قال: "هذا ربي"، ثم اتَّبعه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال: "لئن لم يهديني ربِّي لأكونن من القوم الضالين!" فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس، أعظَمَ الشمس، ورأى شيئًا هو أعظم نورًا من كل شيء رآه قبل ذلك، فقال: "هذا ربي، هذا أكبر!" فلما أفلت قال: "يا قوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين". ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته، وعرف ربّه، وبرئ من دين قومه، إلا أنه لم يبادئهم بذلك. وأخبر أنه ابنه، وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت من شأنه، فسَرَّ بذلك آزر وفرح فرحًا شديدًا. وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدونها، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيذهب بها إبراهيم، فيما يذكرون، فيقول: "من يشتري ما يضُرُّه ولا ينفعه"، فلا يشتريها منه أحد. فإذا بارت عليه، ذهب بها إلى نهر فصَوَّبَ فيه رؤوسها، وقال: "اشربي"، استهزاء بقومه وما هم عليه من الضلالة، حتى فشا عيبه إياها واستهزأوه بها في قومه وأهل قريته، من غير أن يكون ذلك بلغ نمروذ الملك.

قال أبو جعفر: وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس وعمن روي عنه، من أن إبراهيم قال للكوكب أو للقمر: "هذا ربي"، وقالوا: غير جائز أن يكون لله نبيّ ابتعثه بالرسالة، أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغٌ إلا وهو لله موحدٌ، وبه عارف، ومن كل ما يعبد من دونه برئ. قالوا: ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر، لم يجز أن يختصه بالرسالة، لأنه لا معنى فيه إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من خلقه مناسبة، فيحاييه باختصاصه بالكرامة. قالوا: وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه، فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة. وزعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس: "هذا ربي"، لم يكن لجعله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه، وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، وعلى العيب لقومه في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسن وأبهج من الأصنام، ولم تكن مع ذلك معبودة، وكانت آفلة زائلة غير دائمة، والأصنام التي هي دونها في الحسن وأصغر منها في الجسم، أحق أن لا تكون معبودة ولا آلهة. قالوا: وإنما قال ذلك لهم، معارضةً، كما يقول أحد المتناظرين لصاحبه معارضاً له في قول باطل قال به بباطل من القول، على وجه مطالبتة إياه بالفرقان بين القولين الفاسدين عنده، اللذين يصحح خصمه أحدهما ويدعي فساد الآخر. وقال آخرون منهم: بل ذلك كان منه في حال طفولته، وقبل قيام الحجة عليه. وتلك حال لا يكون فيها كفر ولا إيمان. وقال آخرون منهم: إنما معنى الكلام: أهذا ربي؟ على وجه الإنكار والتوبيخ، أي: ليس هذا ربي. قال أبو جعفر: وفي خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: "لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين"، الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول في ذلك، الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه. وأما قوله: "فلما أفل"، فإن معناه: فلما غاب وذهب

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما طلع القمر فرآه إبراهيم طالعاً، وهو "بُزُوغُه". يقال منه: "بزغت الشمس بُزُوعًا"، إذا طلعت، وكذلك القمر. "قال هذا ربي فلما أفل"، يقول: فلما غاب "قال"، إبراهيم، "لئن لم يهديني ربي"، ويوفقني لإصابة الحق في توحيده "لأكونن من القوم الضالين"، أي: من القوم الذين أخطؤوا الحق في ذلك، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله. وقد بينا معنى "الضلال"، في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله "فلما رأى الشمس بازغة"، فلما

رأى إبراهيم الشمس طالعةً، قال: هذا الطالعُ ربِّي "هذا أكبر"، يعني: هذا أكبر من الكوكب والقمر فحذف ذلك لدلالة الكلام عليه

"فلما أفلت"، يقول: فلما غابت، قال إبراهيم لقومه "يا قوم إنِّي بريء مما تشركون"، أي: من عبادة الآلهة والأصنام ودعائه إلهاً مع الله تعالى ذكره.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه لما تبين له الحق وعرفه، شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قيل الحق والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: "يا قوم إنِّي بريء مما تشركون" مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إنِّي وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويحيي ويميت لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع. ثم أخبرهم تعالى ذكره: أن توجيهه وجهه لعبادته، بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه على ما يحبُّ من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجَّه له وجهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيه الوجه على غير التحنُّف غير نافع موجَّه، بل ضارٌّ ومهلكه "وما أنا من المشركين"، ولست منكم، أي: لست ممن يدين دينكم، ويتبع ملتكم أيها المشركون. وبنحو الذي قلنا في ذلك كان ابن زيد يقول:

القول في تأويل قوله: ﴿وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وجادل إبراهيم قومه في توحيد الله وبراءته من الأصنام، وكان جدالهم إياه قولهم: أن آلهتهم التي يعبدونها خير من إلهه. قال إبراهيم: "أتحاجوني في الله"، يقول: أتجادلونني في توحيد الله وإخلاصي العمل له دون ما سواه من آلهة "وقد هدان"، يقول: وقد وفقني ربي لمعرفة وحدانيته، وبصّرني طريق الحق حتى أيقنت أن لا شيء يستحق أن يعبد سواه "ولا أخاف ما تشركون به"، يقول: ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دونه شيئاً ينالني به في نفسي من سوء ومكروه. وذلك أنهم قالوا له: "إننا نخاف أن تمسك آلهتنا بسوء من برص أو خبل، لذكر إياها بسوء!" فقال لهم إبراهيم: لا أخاف ما تشركون بالله من هذه الآلهة أن تنالني بضر ولا مكروه، لأنها لا تنفع ولا تضر "إلا أن يشاء ربي شيئاً"، يقول: ولكن خوفي من الله الذي خلقني وخلق السماوات والأرض، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو بقاء، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك، نالني به، لأنه القادر على ذلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك كان ابن

جريح يقول "وسع ربي كل شيء علماً"، يقول: وعلم ربي كل شيء، فلا يخفى عليه شيء، لأنه خالق كل شيء، وليس كالألوهة التي لا تضر ولا تنفع ولا تفهم شيئاً، وإنما هي خشبة منحوتة، وصورة ممثلة "أفلا تتذكرون"، يقول: أفلا تعتبرون، أيها الجهلة، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادتكم صورة مصورة وخشبة منحوتة، لا تقدر على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله وترككم عبادة من خلقكم وخلق كل شيء، وييده الخير، وله القدرة على كل شيء، والعالم لكل شيء.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال أبو جعفر: وهذا جواب إبراهيم لقومه حين خوفوه من آلهتهم أن تمسه، لذكره إياها بسوء في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر، لدفعت عن أنفسها كسرى إياها وضربي لها بالفأس! وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضرركم في إشراككم في عبادتكم إياه "ما لم ينزل به عليكم سلطاناً"، يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حجة، ولم يضع لكم عليه برهاناً، ولم يجعل لكم به عذراً "أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ"، يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربي مخلصاً له العبادة، حنيفاً له ديني، بريئاً من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناماً لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهاناً ولا حجة "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"، يقول: إن كنتم تعلمون صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتج به عليكم، فقولوا وأخبروني: أي الفريقين أحق بالأمن؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك، كان محمد بن إسحاق يقول

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذي أخبر تعالى ذكره عنه أنه قال هذا القول أعني: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"، الآية. قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هذا خبر من الله تعالى ذكره عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاء منه بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه. وذلك أن ذلك لو كان من قول قوم إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركونها في عبادة الله، لكانوا قد أقروا بالتوحيد واتبعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيد، ولكنه كما ذكرت من تأويله بديلاً.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي عناه الله تعالى بقوله: "ولم يلبسوا إيمانهم بظلم".

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصحة في ذلك، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ، وهو

الخبر الذي رواه ابن مسعود عنه أنه قال: الظلم الذي ذكره الله تعالى ذكره في هذا الموضع، هو الشرك. وأما قوله: "أولئك لهم الأمن وهم مهتدون"، فإنه يعني: هؤلاء الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك "لهم الأمن" يوم القيامة من عذاب الله "وهم مهتدون"، يقول: وهم المصبيون سبيل الرشاد، والسالكون طريق النجاة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وتلك حجتنا"، قول إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين: "أي الفريقين أحق بالأمن"، أمن يعبد رباً واحداً مخلصاً له الدين والعبادة، أم من يعبد أرباباً كثيرة؟ وإجابتهم إياه بقولهم: "بل من يعبد رباً واحداً أحق بالأمن"، وقضاؤهم له على أنفسهم، فكان في ذلك قطع عذرهم وانقطاع حجتهم، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم. فهي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه

فمعنى الكلام إذاً: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه"، فرغنا بها درجته عليهم، وشرّفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة. فأما في الدنيا، فآتيناه فيها أجره وأما في الآخرة، فهو من الصالحين "نرفع درجات من نشاء"، أي بما فعل من ذلك وغيره.

وأما قوله: "إن ربك حكيم عليم"، فإنه يعني: إن ربك، يا محمد، "حكيم"، في سياسته خلقه، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم المكذبة لهم، الجاحدة بتوحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره "عليم"، بما يؤول إليه أمر رسله والمرسل إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أو إنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته.

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فأتس، يا محمد، في نفسك وقومك المكذبيك، والمشركين، بأبيك خليلي إبراهيم ﷺ، واصبر على ما ينوبك منهم صبره، فإني بالذي يؤول إليه أمرك وأمرهم عالم، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فجزينا إبراهيم ﷺ على طاعته إيانا، وإخلاصه توحيد ربه، ومفارقة دين قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عليين، وآتيناه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولاداً خصصناهم بالنبوة، وذرية شرفناهم منا بالكرامة، وفضلناهم على العالمين، منهم: ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب "كلا هدينا"، يقول: هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصواب من الأديان "ونوحاً هدينا من قبل"، يقول: وهدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم وإسحاق ويعقوب من

الحق والصواب، فوفقناه له نوحًا، من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

"ومن ذريته داود"، و"الهاء" التي في قوله: "ومن ذريته"، من ذكر نوح. وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطًا فقال: "وإسماعيل واليسع ويونس ولوطًا وكلا فضلنا على العالمين". ومعلوم أن لوطًا لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليه وسلم أجمعين. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معطوفًا على أسماء من سُمينا من ذريته، كان لا شك أنه لو أريد بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أن لوطًا ليس من ذرية إبراهيم، ولكنه من ذرية نوح، فلذلك وجب أن تكون "الهاء" في "الذرية" من ذكر نوح.

فتأويل الكلام: ونوحًا وفقنا للحق والصواب من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهدينا أيضًا من ذرية نوح، داود وسليمان. و"داود"، هو داود بن إيشا و"سليمان" هو ابنه: سليمان بن داود و"أيوب"، هو أيوب بن موص بن رزاح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم و"يوسف"، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم و"موسى"، هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب و"هارون"، أخو موسى.

"وكذلك نجزي المحسنين"، يقول تعالى ذكره: جزينا نوحًا بصبره على ما امتحن به فينا، بأن هديناه فوفقناه لإصابة الحق الذي خذلنا عنه من عصانا فخالف أمرنا ونهينا من قومه، وهدينا من ذريته من بعده من ذكر تعالى ذكره من أنبيائه لمثل الذي هديناه له. وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم إيانا وصبرهم على المحن فينا، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن.

القول في تأويل قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضًا لمثل الذي هدينا له نوحًا من الهدى والرشاد من ذريته: زكريا بن إدو بن برخيّا، ويحيى بن زكريا، أما "إلياس". فكان ابن إسحاق يقول: هو إلياس بن يسي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، ابن أخي موسى نبي الله ﷺ.

وقوله: "كل من الصالحين"، يقول: من ذكرناه من هؤلاء الذين سميناه "من الصالحين"، يعني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلى الله عليه وسلم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضًا من ذرية نوح "إسماعيل" وهو: إسماعيل بن إبراهيم "واليسع"، هو اليسع بن أخطوب بن العجوز. و"يونس" هو: يونس بن متى "ولوطًا وكلا فضلنا"، من ذرية نوح ونوحًا، لهم بينا الحق ووفقناهم له، وفضلنا جميعهم "على العالمين"، يعني: على عالم أزمانهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضاً من آباء هؤلاء الذين سماهم تعالى ذكره "ومن ذرياتهم وإخوانهم"، آخرين سواهم، لم يسمهم، للحق والدين الخالص الذي لا شرك فيه، فوفقناهم له "واجتبيناهم"، يقول: واخترناهم لديننا وبلاغ رسالتنا إلى من أرسلناهم إليه، كالذي اخترنا ممن سمّينا. يقال منه: "اجتبي فلان لنفسه كذا"، إذا اختاره واصطفاه، "يجتبيه اجتباءً". "وهديناهم إلى صراط مستقيم"، يقول: وسدّدناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج، وذلك دين الله الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربّنا لأنبيائه، وأمر به عباده.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ذلك هدى الله"، هذا الهدي الذي هديت به من سميت من الأنبياء والرسل، فوفقتهم به لإصابة الدين الحق الذي نالوا بإصابتهم إياه رضا ربهم، وشرف الدنيا، وكرامة الآخرة، هو "هدى الله"، يقول: هو توفيق الله ولطفه، الذي يوفق به من يشاء، ويلطف به لمن أحب من خلقه، حتى ينيب إلى طاعة الله، وإخلاص العمل له، وإقراره بالتوحيد، ورفض الأوثان والأصنام

"ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون"، يقول: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم، برّبهم تعالى ذكره، فعبدوا معه غيره "لحبط عنهم"، يقول: لبطل فذهب عنهم أجر أعمالهم التي كانوا يعملون، لأن الله لا يقبل مع الشرك به عملاً.

القول في تأويل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "أولئك"، هؤلاء الذين سميناهم من أنبيائه ورسله، نوحاً وذريته الذين هداهم لدين الإسلام، واختارهم لرسالته إلى خلقه، هم "الذين آتيناهم الكتاب"، يعني بذلك: صحف إبراهيم وموسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى صلوات الله عليهم أجمعين "والحكم"، يعني: الفهم بالكتاب، ومعرفة ما فيه من الأحكام.

وقد بينا معنى "النبة" و"الحكم"، فيما مضى بشواهدهما، فأغنى ذلك عن إعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فإن يكفر بها هؤلاء، يا محمد، بآيات كتابي الذي أنزلته إليك فيجحد هؤلاء المشركون العادلون برّبهم ثم يختلف أهل التأويل في المعنى ب"هؤلاء".

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: "إن يكفر بها هؤلاء"، كفار قريش "فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين"، يعني به الأنبياء الثمانية

عشر الذين سماهم الله تعالى ذكره في الآيات قبل هذه الآية. وذلك أن الخير في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأن يكون خبراً عنهم، أولى وأحق من أن يكون خبراً عن غيرهم. فتأويل الكلام، إذ كان ذلك كذلك: فإن كفر قومك من قريش، يا محمد، بآياتنا، وكذبوا وجحدوا حقيقتها، فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رُسُلنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها. وقد قال بعضهم: معنى قوله: "فقد وكلنا بها قومًا"، رزقناها قومًا.

القول في تأويل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَتَاهُمْ أَقْتَدِه﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "أولئك"، هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتفاء عما فيه من نهي، فوفقهم جل ثناؤه لذلك "فبهتاهم اقتده"،

يقول تعالى ذكره: فبالعمل الذي عملوا، والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيق الذي وفقناهم "اقتده"، يا محمد، أي: فاعمل، وخذ به واسلكه، فإنه عمل الله فيه رضا، ومنهاج من سلكه اهتدى. وهذا التأويل على مذهب من تأول قوله: "فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين"، أنهم الأنبياء المسمون في الآيات المتقدمة. وهو القول الذي اخترناه في تأويل ذلك. وأما على تأويل من تأول ذلك: أن القوم الذين وكلوا بها هم أهل المدينة أو: أنهم هم الملائكة فإنهم جعلوا قوله: "فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين"، اعتراضًا بين الكلامين، ثم ردوا قوله: "أولئك الذين هدى الله فبهتاهم اقتده"، على قوله: "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة". ومعنى: "الاقتداء" في كلام العرب، بالرجل: اتباع أثره، والأخذ بهديه. يقال: "فلان يقدو فلانًا"، إذا نحا نحوه، واتبع أثره، "فدّة، وقُدوة وقُدوة وقِدْيّة".

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: "قل" لهؤلاء الذين أمرتك أن تذكرهم بآياتي، أن تبسل نفس بما كسبت، من مشركي قومك يا محمد: "لا أسألكم"، على تذكيري إياكم، والهدى الذي أدعوكم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، عوضًا أعتاضه منكم عليه، وأجرًا آخذه منكم، وما ذلك مني إلا تذكير لكم، ولكل من كان مثلكم ممن هو مقيم على باطل، بأس الله أن يحلّ بكم، وسخطه أن ينزل بكم على شرككم به وكفركم وإنذارًا لجميعكم بين يدي عذاب شديد، لتذكروا وتترجروا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "وما قدروا الله حق قدره"، وما أجلوا الله حق إجلاله، ولا عظموه حق تعظيمه "إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء"، يقول: حين قالوا: لم ينزل الله على آدمي كتاباً ولا وحياً. واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: "إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء"، وفي تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: عني بقوله "وما قدروا الله حق قدره"، مشركو قريش.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَاتِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لمشركي قومك القائلين لك: "ما أنزل الله على بشر من شيء" قل: "من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً"، يعني: جلأً وضياءً من ظلمة الضلالة "وهدى للناس"، يقول: بياناً للناس، يبين لهم به الحق من الباطل فيما أشكل عليهم من أمر دينهم "تجعلونه قراتيس تبذونها".

والأصوب من القراءة في قوله: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَاتِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، أن يكون بالياء لا بالتاء، على معنى: أن اليهود يجعلونه قراتيس يبذونها ويخفون كثيراً، ويكون الخطاب بقوله: "قل من أنزل الكتاب"، لمشركي قريش.

وإذا فتأويله في قراءته: يجعله أهله قراتيس، وجرى الكلام في "يبذونها" بذكر "القراتيس"، والمراد منه المكتوب في القراتيس، يراد: يبذون كثيراً مما يكتبون في القراتيس فيظهارونه للناس، ويخفون كثيراً مما يثبتونه في القراتيس فيسرُّونه ويكتمونه الناس.

القول في تأويل قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثَمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وعلمكم الله جل ثناؤه بالكتاب الذي أنزله إليكم، ما لم تعلموا أنتم من أخبار من قبلكم، ومن أنباء من بعدكم، وما هو كائن في معادكم يوم القيامة "ولا آباؤكم"، يقول: ولم يعلمه آباؤكم، أيها المؤمنون بالله من العرب وبرسوله ﷺ

وأما قوله: "قل الله"، فإنه أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيه محمداً ﷺ أن يجيب استفتاءه هؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه بقوله: "قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً" وهدى للناس يجعلونه قراتيس يبذونها ويخفون كثيراً"، بقيل الله، كأمره إياه في موضع آخر في هذه السورة بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، [الأنعام: ٦٣]. فأمره باستفهام المشركين عن ذلك، كما أمره باستفهامهم إذ قالوا: "ما أنزل الله على بشر من شيء"، عمن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس. ثم أمره بالإجابة عنه هنالك بقيله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ

أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ [الأنعام: ٦٤]، كما أمره بالإجابة ههنا عن ذلك بقيله: الله أنزله على موسى

وأما قوله: "ثم ذرهم في خوضهم يلعبون"، فإنه يقول لنييه محمد ﷺ: ثم ذر هؤلاء المشركين العادلين برهم الأوثان والأصنام، بعد احتجاجك عليهم في قيلهم: "ما أنزل الله على بشر من شيء"، بقولك: "من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس"، وإجابتك ذلك بأن الذي أنزله: الله الذي أنزل عليك كتابه "في خوضهم"، يعني: فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم بالله وآياته "يلعبون"، يقول: يستهزئون ويسخرون. وهذا من الله وعيد لهؤلاء المشركين وتهديد لهم: يقول الله جل ثناؤه: ثم دعهم لاعبين، يا محمد. فإني من وراء ما هم فيه من استهزائهم بآياتي بالمرصاد، وأذيقهم بأسى، وأحل بهم إن تمادوا في غيهم سخطي.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهذا القرآن، يا محمد "كتاب". وهو اسم من أسماء القرآن، قد بينته وبينت معناه فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته، ومعناه مكتوب، فوضع "الكتاب" مكان "المكتوب".

"أنزلناه"، يقول: أوحينا إليك "مبارك"، وهو "مفاعل" من "البركة" "مصدق" الذي بين يديه"، يقول: صدق هذا الكتاب ما قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه قبلك، لم يخالفها دلالة ومعنى "نوراً وهدى للناس"، يقول: هو الذي أنزل إليك، يا محمد، هذا الكتاب مباركاً، مصدقاً كتاب موسى وعيسى وغير ذلك من كتب الله. ولكنه جل ثناؤه ابتدأ الخبر عنه، إذ كان قد تقدم من الخبر عن ذلك ما يدل على أنه له مواصل، فقال: "وهذا كتاب أنزلناه إليك مبارك"، ومعناه: وكذلك أنزلت إليك كتابي هذا مباركاً، كالذي أنزلت من التوراة إلى موسى هدى ونوراً.

وأما قوله: "ولتنذر أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا"، فإنه يقول: أنزلنا إليك، يا محمد، هذا الكتاب مصدقاً ما قبله من الكتب، ولتنذر به عذاب الله وبأسه مَنْ في أُمَّ الْقُرَى، وهي مكة "ومن حولها"، شرقاً وغرباً، من العادلين برهم غيره من الآلهة والأنداد، والجاحدين برسله، وغيرهم من أصناف الكفار. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وقد بينا فيما مضى العلة التي من أجلها سميت مكة "أُمَّ الْقُرَى"، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد في الآخرة إلى الله، ويصدق بالشواب والعقاب، فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، ويصدق به، ويقر بأن الله أنزله، ويحافظ على الصلوات المكتوبات التي أمره الله بإقامتها، لأنه منذر من بلغه وعيد

الله على الكفر به وعلى معاصيه، وإنما يجحد به وبما فيه ويكذب، أهل التكذيب بالمعاد، والجحود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إن عمل بما فيه ثوابًا، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقابًا.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ذكره بقوله: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا"، ومن أخطأ قولاً وأجهل فعلاً "ممن افترى على الله كذبًا"، يعني: ممن اختلق على الله كذبًا، فادعى عليه أنه بعثه نبيًا وأرسله نذيرًا، وهو في دعواه مبطل، وفي قيله كاذب.

وهذا تسفيه من الله لمشركي العرب، وتجهيل من لهم، في معارضة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والحنفي مسيلم، لنبي الله ﷺ، بدعوى أحدهما النبوة، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسول الله ﷺ ونفي من عن نبيه محمد ﷺ اختلاق الكذب عليه ودعوى الباطل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولو ترى، يا محمد، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين برهم الآلهة والأنداد، والقائلين: "ما أنزل الله على بشر من شيء"، والمفترين على الله كذبًا، الزاعمين أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، والقائلين: "سأنزل مثل ما أنزل الله"، فتعابنهم وقد غشيتهم سكرات الموت، ونزل بهم أمر الله، وحناء آجالهم، والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم، كما قال جل ثناؤه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٧، ٢٨]. يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم. و"الغمرات" جمع "غمرة"، و"غمرة كل شيء"، كثرته ومعظمه، وأصله الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها وقال ابن عباس: قوله: "ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت"، قال: سكرات الموت. وأما "بسط الملائكة أيديها"، فإنه مدها.

القول في تاويل قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما تقولون رسل الله التي تقبض أرواح هؤلاء الكفار لها، يخبر عنها أنها تقول لأجسامها ولأصحابها: "أخرجوا أنفسكم"، إلى سخط الله ولعنته، فإنكم اليوم تثابون على كفركم بالله، وقيلكم عليه الباطل، وزعمكم أن الله أوحى إليكم ولم يوح إليكم شيئًا، وإنكاركم أن يكون الله أنزل على بشر شيئًا، واستكباركم عن الخضوع لأمر الله وأمر رسوله، والانقياد لطاعته "عذاب الهون"، وهو عذاب جهنم الذي يهينهم فيذلهم، حتى يعرفوا صغار أنفسهم وذلتها

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُكُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما هو قائل يوم القيامة لهؤلاء العادلين به الآلهة والأنداد، يخبر عباده أنه يقول لهم عند ورودهم عليه: "لقد جئتمونا فرادى".

وبعني بقوله: "فرادى"، وحداً لا مال معهم، ولا إناث، ولا رقيق، ولا شيء مما كان الله خولهم في الدنيا "كما خلقناكم أول مرة"، عراً غُلْفاً غُرلاً خُفَاءً، كما ولدتهم أمهاتهم، وكما خلقهم جل ثناؤه في بطون أمهاتهم، لا شيء عليهم ولا معهم مما كانوا يتباهون به في الدنيا.

وعن ابن أبي هلال حدثه: أنه سمع القرظي يقول: قرأت عائشة زوج النبي ﷺ قول الله: "ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة"، فقالت: واسوأناه، إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوء بعض! فقال رسول الله ﷺ: "لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه"، لا ينظر الرجال إلى النساء، ولا النساء إلى الرجال، شغل بعضهم عن بعض.

وأما قوله: "وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم"، فإنه يقول: خلقتهم أيها القوم ما مكناكم في الدنيا مما كنتم تتباهون به فيها، خلفكم في الدنيا فلم تحملوه معكم. وهذا تعبير من الله جل ثناؤه لهؤلاء المشركين بمباهاتهم التي كانوا يتباهون بها في الدنيا بأموالهم. وكل ما ملكته غيرك وأعطيته: "فقد خولته".

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لهؤلاء العادلين برهم الأنداد يوم القيامة: ما نرى معكم شفعاكم الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة. وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، لقيه: إن اللات والعزى يشفعان له عند الله يوم القيامة. وقيل: إن ذلك كان قول كافة عبدة الأوثان.

القول في تاويل قوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيله يوم القيامة لهؤلاء المشركين به الأنداد: "لقد تقطع بينكم"، يعني تواصلهم الذي كان بينهم في الدنيا، ذهب ذلك اليوم، فلا تواصل بينهم ولا تواد ولا تناصر، وقد كانوا في الدنيا يتواصلون ويتناصرون، فاضمحل ذلك كله في الآخرة، فلا أحد منهم ينصر صاحبه، ولا يواصله. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: "وضل عنكم ما كنتم تزعمون"، فإنه يقول: وحاد عن طريقكم ومنهاجكم ما كنتم من آلهتكم تزعمون أنه شريك ربكم، وأنه لكم شفيع عند ربكم، فلا يشفع لكم اليوم.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم

عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه. يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة، أيها الناس، دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان، هو الله الذي فلق الحبَّ يعني: شق الحبَّ من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع "والنوى"، من كل ما يغرس مما له نواة، فأخرج منه الشجر. و"الحبَّ" جمع "الحبة"، و"النوى" جمع "النواة". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يخرج السنبل الحي من الحب الميت، ومخرج الحب الميت من السنبل الحي، والشجر الحي من النوى الميت، والنوى الميت من الشجر الحي.

والشجر ما دام قائماً على أصوله لم يجفّ، والنبات على ساقه لم ييسس، فإن العرب تسميه "حيّاً"، فإذا ييس وجفّ أو قطع من أصله، سمّوه "ميتاً". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

وأما قوله: "ذلكم الله"، فإنه يقول: فاعل ذلك كلّ الله جل جلاله "فأنى تؤفكون"، يقول: فأى وجوه الصّدّ عن الحقّ، أيها الجاهلون، تصدّون عن الصواب وتصرفون، أفلا تتدبرون فتعلمون أنّه لا ينبغي أن يُجعل لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى، فأخرج لكم من يابس الحب والنوى زروعاً وحروثاً وثماراً تتغذون ببعضه وتفكّهون ببعضه، شريك في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يبصر؟

القول في تأويل قوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "فالق الإصباح"، شاقّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده. و"الإصباح" مصدر من قول القائل: "أصبحنا إصباحاً". وأما قوله: "وجاعل الليل سكناً" قال أبو جعفر: أخبر جل ثناؤه أنه جعل الليل سكناً، لأنه يسكن فيه كل متحرك بالنهار، ويهدأ فيه، فيستقر في مسكنه ومأواه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في ذلك قال أبو جعفر: وأولى القولين في تأويل ذلك عندي بالصواب، تأويل من تأوله: وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب وعددٍ لبلوغ أمرهما ونهاية آجالهما، ويدوران لمصالح الخلق التي جُعِلَ لها. و"الحسبان" في كلام العرب جمع "حساب"

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهذا الفعل الذي وصفه أنه فعله، وهو فلقه الإصباح، وجعله الليل سكناً والشمس والقمر حساباً، تقدير الذي عزّ سلطانه، فلا يقدر أحد أراد به سوء وعقاب أو انتقام، من الامتناع منه "العليم"، بمصالح خلقه وتديبرهم لا تقدير الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تفقه شيئاً ولا

تعقله، ولا تضر ولا تنفع، وإن أريدت بسوء لم تقدر على الامتناع منه ممن أرادها. يقول جل ثناؤه: وأخلصوا، أيها الجهلة، عبادتكم لفاعل هذه الأشياء، ولا تشركوا في عبادته شيئاً غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والله الذي جعل لكم، أيها الناس، النجوم أدلة في البر والبحر إذا ضللتكم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلاً تستدلون بها على المحجة، فتهتدون بها إلى الطريق والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلمات ذلك، كما قال جل ثناؤه: وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [النحل: ١٦]، أي: من ضلال الطريق في البر والبحر وعن بالظلمات، ظلمة الليل، وظلمة الخطأ والضلال، وظلمة الأرض أو الماء.

وقوله: "قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون"، يقول: قد ميزنا الأدلة، وفرقنا الحجج فيكم وبينها، أيها الناس، ليتدبرها أولو العلم بالله منكم، ويفهمها أولو الحجا منكم، فينبوا من جهلهم الذي هم مقيمون عليه، وينزجروا عن خطأ فعلهم الذي هم عليه ثابتون، ولا يتمادوا عناداً لله مع علمهم بأن ما هم عليه مقيمون خطأ في غيرهم. وبنحو ما قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإلهكم، أيها العادلون بالله غيره "الذي أنشأكم"، يعني: الذي ابتداء خلقكم من غير شيء، فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً "من نفس واحدة"، يعني: من آدم وأما قوله: "فمستقر ومستودع"، فإن أهل التأويل في تأويله مختلفون.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه عم بقوله: "فمستقر ومستودع"، كل خلقه الذي أنشأ من نفس واحدة، مستقراً ومستودعاً، ولم يخص من ذلك معنى دون معنى. ولا شك أن من بني آدم مستقراً في الرحم، ومستودعاً في الصلب، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها، ومستودع في أصلاب الرجال، ومنهم مستقر في القبر، مستودع على ظهر الأرض. فكل "مستقر" أو "مستودع" بمعنى من هذه المعاني، فداخل في عموم قوله: "فمستقر ومستودع" ومراد به، إلا أن يأتي خبر يجب التسليم له بأنه معنيٌّ به معنى دون معنى، وخاص دون عام وأما قوله: "قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون"، يقول تعالى: قد بينا الحجج، وميزنا الأدلة والأعلام وأحكمناها "لقوم يفقهون"، مواقع الحجج ومواضع العبر، ويفهمون الآيات والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نبهتهم عليه من إنشائي من نفس واحدة ما عاينوا من البشر، وخلق ما خلقت منها من عجائب الألوان والصور، علموا أن ذلك من فعل من ليس له مثل ولا شريك في شركه في عبادتهم إياه

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُمْتَرَاكِبًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والله الذي له العبادة خالصة لا شريك فيها لشيء سواه، هو الإله الذي أنزل من السماء ماء "فأخرجنا به نبات كل شيء"، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء من غذاء الأنعام والبهائم والطيور والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم، ما يتغذون به ويأكلونه فينبئون عليه وينمون.

وإنما معنى قوله: "فأخرجنا به نبات كل شيء"، فأخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح. ولو قيل: معناه: فأخرجنا به نبات جميع أنواع النبات، فيكون "كل شيء"، هو أصناف النبات كان مذهباً، وإن كان الوجه الصحيح هو القول الأول. وقوله: "فأخرجنا منه خضراً"، يقول: "فأخرجنا منه"، يعني: من الماء الذي أنزلناه من السماء "خضراً"، رطباً من الزرع. "والخضر"، هو "الأخضر" قوله: "نخرج منه حباً متراكباً"، يقول: نخرج من الخضر حباً يعني: ما في السنبل، سنبل الحنطة والشعير والأرز، وما أشبه ذلك من السنابل التي حبها يركب بعضها بعضاً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن النخل من طلوعها قنوانه دانية، ولذلك رفعت "القنوان". و"القنوان" جمع "قنو"، كما "الصنوان" جمع "صنو"، وهو العذق ويعني بقوله: "دانية"، قريبة متهدلة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأخرجنا أيضاً جنات من أعناب يعني: بساتين من أعناب. وقوله: "والزيتون والرمّان"، عطف ب"الزيتون" على "الجنات"، بمعنى: وأخرجنا الزيتون والرمّان مشتبهاً وغير متشابه. وكان قتادة يقول في معنى "مشتبهاً وغير متشابه": "مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمرة. وجائز أن يكون مراداً به: مشتبهاً في الخلق، مختلفاً في الطعم.

قال أبو جعفر: ومعنى الكلام: وشجر الزيتون والرمّان، فاكثفي من ذكر "الشجر" بذكر ثمره، كما قيل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، [يوسف: ٨٢]، فاكثفي بذكر "القرية" من ذكر "أهلها"، لمعرفة المخاطبين بذلك بمعناه.

القول في تأويل قوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أما قوله: "ويَنْعِهِ"، فإنه نُضِجُهُ وبلوغه حين يبلغ.

فعن ابن عباس قوله: "انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه"، قال: "ينعه"، نضجه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره إن في إنزال الله من السماء الماء الذي أخرج به نبات كل شيء، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدّد في هذه الآية من صنوف خلقه "آيات"، يقول: في ذلكم، أيها الناس، إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموّه، علمتم أن له مدبراً ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجاج وبرهان وبيان "لقوم يؤمنون"،

يقول: لقوم يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء.

وخصّ بذلك تعالى ذكره القوم الذين يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها، دون من قد طبع الله على قلبه، فلا يعرف حقاً من باطل، ولا يتبين هدىً من ضلالة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وجعل هؤلاء العادلون برهم الآلهة والأنداد لله شركاء، الجن، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصفات: ١٥٨]. وفي الجن وجهان من النصب. أحدهما: أن يكون تفسيراً للشركاء. والآخر: أن يكون معنى الكلام: وجعلوا الله الجن شركاء، وهو خالقهم. وأما قوله: ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾، فإنه يعني بقوله: ﴿خرقوا﴾ اختلقوا. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذاً: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير "وخرقوا له بنين وبنات"، يقول: وتخرصوا لله كذباً، فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم منهم بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك.

القول في تأويل قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: تنزه الله، وعلا فارفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه، في ادّعائهم له شركاء من الجن، واختراقهم له بنين وبنات، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته، لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكون منهم الجماع الذي يحدث عنه الأولاد، والذين تضطرّهم لضعفهم الشهوات إلى اتخاذ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس الله تعالى ذكره بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء، ولا بالضعيف المحتاج فندعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لذة.

وقوله: "تعالى"، "تفاعل" من "العلو"، والارتفاع.

القول في تأويل قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الله الذي جعل هؤلاء الكفرة به له الجن شركاء، وخرقوا له بنين

وبنات بغير علم "بديع السماوات والأرض"، يعني: مبتدعها ومحدثها وموجدتها بعد أن لم تكن "أنتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة"، والولد إنما يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة، فيكون له ولد. وذلك أنه هو الذي خلق كل شيء. يقول: فإذا كان لا شيء إلا الله خلقه، فأنتى يكون لله ولد، ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد؟

القول في تأويل قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والله خلق كل شيء، ولا خالق سواه. وكل ما تدعون أيها العادلون بالله الأوثان من دونه، خلقه وعبيده، ملكاً، كان الذي تدعونه رباً وتزعمون أنه له ولد، أو جنيّاً أو إنسياً وهو بكل شيء عليم، يقول: والله الذي خلق كل شيء، لا يخفى عليه ما خلق ولا شيء منه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، عالم بعددكم وأعمالكم، وأعمال من دعوتموه رباً أو لله ولداً، وهو محصياها عليكم وعليهم، حتى يجازي كلا بعمله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم، هو الله ربكم، أيها العادلون بالله الآلهة والأوثان، والجاعلون له الجن شركاء، وآلهتكم التي لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تفعل خيراً ولا شراً "لا إله إلا هو".

وهذا تكذيب من الله جل ثناؤه للذين زعموا أن الجن شركاء الله. يقول جل ثناؤه لهم: أيها الجاهلون، إنه لا شيء له الألوهية والعبادة، إلا الذي خلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادة جميع من في السموات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها، فإنه خالق كل شيء وبارئ وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة "فاعبدوه"، يقول: فذلوا له بالطاعة والعبادة والخدمة، واخضعوا له بذلك.

"وهو على كل شيء وكيل"، يقول: والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ، يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتديره وتصريفه بقدرته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر" وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب، فالؤمنون يرونه، والكافرون عنه يومئذ محجوبون، كما قال جل ثناؤه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وأما قوله: "وهو اللطيف الخبير"، فإنه يقول: والله تعالى ذكره المتيسر له من إدراك

الأبصار، والمتأني له من الإحاطة بها رؤية ما يعسر على الأبصار من إدراكها إياه وإحاطتها به ويتعذر عليها "الخير"، يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه، فلفظ بقدرته فهياً أبصار خلقه هيئة لا تدركه، وخبر بعلمه كيف تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه،

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله جل ثناؤه نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين نبههم بهذه الآيات من قوله: "إن الله فالق الحب والنوى" إلى قوله: "وهو اللطيف الخبير" على حججه عليهم، وعلى سائر خلقه معهم، العادلين به الأوثان والأنداد، والمكذبين بالله ورسوله محمد ﷺ وما جاءهم من عند الله قل لهم يا محمد: "قد جاءكم"، أيها العادلون بالله، والمكذبون برسوله "بصائر من ربكم"، أي: ما تبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر. وهي جمع "بصيرة"

وقوله: "فمن أبصر فلنفسه" يقول: فمن تبين حجج الله وعرفها وأقر بها، وآمن بما دلته عليه من توحيد الله وتصديق رسوله وما جاء به، فإنما أصاب حظ نفسه، ولنفسه عمل، وإياها بغي الخير "ومن عمي فعليها"، يقول: ومن لم يستدل بها، ولم يصدق بما دلته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عمي عن دلائلها التي تدل عليها، يقول: فنفسه ضر، وإليها أساء لا إلى غيرها.

وأما قوله: "وما أنا عليكم بحفيظ"، يقول: وما أنا عليكم برفيق أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم، الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما صرفت لكم، أيها الناس، الآيات والحجج في هذه السورة، وبينتها، فعرفتكموها، في توحيدي وتصديقي رسولي وكتابي ووقفتكم عليها، فكذلك أبين لكم آياتي وحججي في كل ما جهلتموه فلم تعرفوه من أمري ونهيي

و تأويل قوله: "ولنبينه لقوم يعلمون"، يقول تعالى ذكره: كما صرفنا الآيات والعبر والحجج في هذه السورة لهؤلاء العادلين برهم الآلهة والأنداد، كذلك نصرف لهم الآيات في غيرها، كيلا يقولوا لرسولنا الذي أرسلناه إليهم: "إنما تعلمت ما تأتينا به تتلوه علينا من أهل الكتاب"، فينزعوا عن تكذيبهم إياه، وتقولهم عليه الإفك والزور، ولنبين بتصرفنا الآيات الحق، لقوم يعلمون الحق إذا تبين لهم فيتبعوه ويقبلوه، وليسوا كمن إذا بين لهم عموا عنه فلم

يعقلوه، وازدادوا من الفهم به بعدًا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: اتبع، يا محمد، ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك، فاعمل به، وانزجر عما زجرك عنه فيه، ودع ما يدعوك إليه مشركو قومك من عبادة الأوثان والأصنام، فإنه لا إله إلا هو. يقول: لا معبود يستحق عليك إخلاص العبادة له إلا الله الذي هو فائق الحب والنوى، وفائق الإصباح، وجاعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسابًا ﴿وأعرض عن المشركين﴾، يقول: ودع عنك جدالهم وخصومتهم. ثم نسخ ذلك جل ثناؤه بقوله في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، الآية [التوبة: ٥].

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: أعرض عن هؤلاء المشركين بالله، ودع عنك جدالهم وخصومتهم ومسابتهم ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾، يقول: لو أراد ربك هدايتهم واستنقاذهم من ضلالتهم، للطف لهم بتوفيقه إياهم فلم يشركوا به شيئًا، ولأمنا بك فاتبعوك وصدقوا ما جئتكم به من الحق من عند ربك ﴿وما جعلناك عليهم حفيظًا﴾، يقول جل ثناؤه: وإنما بعثتك إليهم رسولاً مبلغًا، ولم نبعثك حافظًا عليهم ما هم عاملوه، تحصي ذلك عليهم، فإن ذلك إلينا دونك

﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾، يقول: ولست عليهم بقيم تقوم بأرزاقهم وأقواتهم ولا بحفظهم، فما لم يُجعل إليك حفظه من أمرهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به: ولا تسبوا الذين يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد، فيسبب المشركون الله جهلاً منهم بربهم، واعتداءً بغير علم، فعن السدي: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم﴾، قال: لما حضر أبا طالب الموت، قالت قريش: انطلقوا بنا فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه، فإننا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: "كان يمنعه فلما مات قتلوه"! فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأمّية وأبي ابنا خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمر بن العاص، والأسود بن البختري، وبعثوا رجلاً منهم يقال له: "المطلب"، قالوا: استأذن على أبي طالب! فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك! فأذن لهم، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمدًا قد آذانا وآذى آلهتنا، فنحن أن تدعوه فتنهأه عن ذكر آلهتنا، ولنَدَعُهُ وإلهه! فدعاه، فجاء نبي الله ﷺ،

فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك! قال رسول الله ﷺ: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن تدعنا وأهلنا، وتدعك وإلهك! قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم! فقال النبي ﷺ: "أرايتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدّت لكم الخراج؟ قال أبو جهل: نعم وأبيك، لنعطيكها وعشر أمثالها، فما هي؟ قال: قولوا: "لا إله إلا الله!" فأبوا واشمأزوا. قال أبو طالب: يابن أخي، قل غيرها، فإن قومك قد فزعوا منها! قال: يا عم، ما أنا بالذي أقول غيرها حتى يأتوني بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها! إرادة أن يؤيسهم، فغضبوا وقالوا: لتكفرن عن شتمك آلهمنا، أو لنشتمنك ولنشتمن من يأمرك. فذلك قوله ﴿فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: كما زينّا لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام، عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بخذلاننا إياهم عن طاعة الرحمن، كذلك زينّا لكل جماعة اجتمعت على عمل من الأعمال من طاعة الله ومعصيته، عملهم الذي هم عليه مجتمعون، ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم "فينبئهم بما كانوا يعملون". يقول: فيوقفهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إن كان خيراً فخييراً، وإن كان شراً فشرّاً، أو يعفو بفضله، ما لم يكن شركاً أو كفراً.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وحلف بالله هؤلاء العادلون بالله جهد حلفهم، وذلك أوكد ما قدروا عليه من الإيمان وأصعبها وأشدّها ﴿لئن جاءتهم آية﴾، يقول: قالوا: نقسم بالله لئن جاءتنا آية تصدّق ما تقول، يا محمد، مثل الذي جاء من قبلنا من الأمم ﴿ليؤمنن بها﴾، يقول: قالوا: لنصدقن بمجيئها بك، وأنتك الله رسول مرسل، وأنّ ما جئتنا به حق من عند الله. وقيل: "ليؤمنن بها"، فأخرج الخبر عن "الآية"، والمعنى لمجيء الآية. يقول لنبينه ﷺ: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾، وهو القادر على إتيانكم بها دون كل أحد من خلقه ﴿وما يشعركم﴾، يقول: وما يديركم ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾؟

وذكر أن الذين سألوه الآية من قومه، هم الذين آيس الله نبيّه من إيمانهم من مشركي قومه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المخاطبين بقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلات في ذلك بتأويل الآية، قول من قال: ذلك خطاب من الله

للمؤمنين به من أصحاب رسوله أعنى قوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ وأن قوله: "أنها"، بمعنى: لعلها. ومعنى الكلام: وما يدريكم، أيها المؤمنون، لعل الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون، فيعاجلوا بالنقمة والعذاب عند ذلك، ولا يؤخروا به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلات في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه، أخبر عن هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها: أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ويصرفها كيف شاء، وأن ذلك بيده يقيمه إذا شاء، ويزيغه إذا أراد وأن قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، دليل على محذوف من الكلام وأن قوله: "كما" تشبيه ما بعده بشيء قبله.

وإذا كان ذلك كذلك، فالواجب أن يكون معنى الكلام: ونقلب أفئدتهم، فنزيغها عن الإيمان، وأبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة موضع الحجة، وإن جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليبنا إياها قبل مجيئها مرة قبل ذلك. وإذا كان ذلك تأويله، كانت "الهاء" من قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ كناية ذكر "التقليب".

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ونذر هؤلاء المشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها عند مجيئها في تمردهم على الله واعتدائهم في حدوده، يترددون، لا يهتدون لحق، ولا يبصرون صواباً، قد غلب عليهم الخذلان، واستحوذ عليهم الشيطان.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، آيس من فلاح هؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام، القائلين لك: "لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك"، فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عياناً، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك، ودلالة على نبوتك، وأخبروهم أنك محق فيما تقول، وأن ما جئتهم به حق من عند الله، وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهم لك قبلاً ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾، يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفر بأيديهم، متى شأوا آمنوا، ومتى شأوا كفروا. وليس ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشد فأضلته.

وأما قوله: ﴿وحشرنا عليهم﴾، فإن معناه: وجمعنا عليهم، وسقنا إليهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ، مسليته بذلك عما لقي من كفره قومه في ذات الله، وحاتاً له على الصبر على ما نال فيه: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا﴾، يقول: وكما ابتليناك، يا محمد، بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداء شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليصدوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتباعك والإيمان بك وبما جئتهم به من عند ربك، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرسل، بأن جعلنا لهم أعداء من قومهم يؤذونهم بالجدال والخصومات. يقول: فهذا الذي امتحنتك به، لم تخصص به من بينهم وحده، بل قد عممتهم بذلك معك لأبتليهم وأختبرهم، مع قدرتي على منع من آذاهم من إيذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعرف أولي العزم منهم من غيرهم. يقول: فاصبر أنت كما صبر أولو العزم من الرسل. وأما "شياطين الإنس والجن"، فإنهم مردتهم، وقد بينا الفعل الذي منه بُني هذا الاسم، بما أغنى عن إعادته. ونصب "العدو" و"الشياطين" بقوله: ﴿جعلنا﴾.

وأما قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فإنه يعني أنه يلقي الملقى منهم القول، الذي زينّه وحسنه بالباطل إلى صاحبه، ليغترّ به من سمعه، فيضلّ عن سبيل الله. ثم اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿شياطين الإنس والجن﴾.

والصواب في ذلك أنه معنيٌّ به أنه جعل مردة الإنس والجن لكل نبي عدوًّا يوحى بعضهم إلى بعض من القول ما يؤذيهم به. وبنحو الذي قلنا في ذلك جاء الخبر عن رسول الله ﷺ. كما جاء عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا ذر، هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن؟ قال: قلت: يا رسول الله، هل للإنس من شياطين؟ قال: نعم!

وأما قوله: ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فإنه المزيّن بالباطل، كما وصفت قبل. يقال منه: "زخرف كلامه وشهادته"، إذا حسن ذلك بالباطل ووّشاه.

وأما "الغرور"، فإنه ما غرّ الإنسان فخدعه فصدّه عن الصواب إلى الخطأ وعن الحق إلى الباطل وهو مصدر من قول القائل: "غررت فلانًا بكذا وكذا، فأنا أغرّه غرورًا وغرًّا".

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو شئت، يا محمد، أن يؤمن الذين كانوا لأنبيائي أعداء من شياطين الإنس والجن فلا ينالهم مكرهم ويؤمنوا غوائلهم وأذاهم، فعلت ذلك، ولكني لم أشأ ذلك، لأبتلي بعضهم ببعض، فيستحق كل فريق منهم ما سبق له في الكتاب السابق ﴿فذرهم﴾، يقول: فدعهم يعني الشياطين الذين يجادلونك بالباطل من مشركي قومك ويخاصمونك بما يوحى إليهم أولياؤهم من شياطين الإنس والجن ﴿وما يفترون﴾، يعني: وما يخلقون من إفك وزور.

يقول له ﷺ: اصبر عليهم، فإني من وراء عقابهم على افتراءهم على الله، واختلاقهم عليه الكذب والزور.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفِيدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ ﴿ولتصغى إليه﴾، يقول جل ثناؤه: يوحى بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض المزيّن من القول بالباطل، ليغرّوا به المؤمنين من أتباع الأنبياء فيفتنهم عن دينهم ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، يقول: ولتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وليكتسبوا من الأعمال ما هم مكتسبون.

القول في تأويل قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام، القائلين لك: "كفّ عن آلهتنا، ونكف عن إلهك". إن الله قد حكم عليّ بذكر آلهتكم بما يكون صدّاً عن عبادتها ﴿أفغير الله ابْتَغِي حَكَمًا﴾، أي: قل: فليس لي أن أتعديّ حكمه وأتجاوزّه، لأنه لا حَكَمَ أعدل منه، ولا قائل أصدق منه ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ يعني القرآن "مفصلاً"، يعني: مبيناً فيه الحكم فيما تختصمون فيه من أمري وأمركم.

وقد بينا معنى: "التفصيل"، فيما مضى قبل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن أنكر هؤلاء العادلون بالله الأوثان من قومك توحيد الله، وأشركوا معه الأنداد، وجحدوا ما أنزلته إليك، وأنكروا أن يكون حقّاً وكذبوا به فالذين آتيناهم الكتاب، وهو التوراة والإنجيل، من بني إسرائيل ﴿يعلمون أنه منزل من ربك﴾، يعني: القرآن وما فيه ﴿بالحق﴾ يقول: فصلاً بين أهل الحق والباطل، يدلّ على صدق الصادق في علم الله، وكذب الكاذب المفتري عليه ﴿فلا تكونن من الممترين﴾، يقول: فلا تكونن، يا محمد، من الشاكين في حقيقة الأنبياء التي جاءتك من الله في هذا الكتاب، وغير ذلك مما تضمنه، لأن الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق.

وقد بيّنا فيما مضى ما وجه قوله: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾، بما أغنى عن إعادته، مع

الرواية المروية فيه

القول في تأويل قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكملت "كلمة ربك"، يعني القرآن.

سماه "كلمة"، كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر: "هذه كلمة فلان".

﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، يقول: كملت كلمة ربك من الصدق والعدل.

و"الصدق" و"العدل" نصبا على التفسير للكلمة، كما يقال: "عندي عشرون درهما".

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، يقول: لا مغير لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه، وذلك نظير قوله جل ثناؤه ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، [الفتح: ١٥]. فكانت إرادتهم تبديل كلام الله، مسألتهم نبي الله أن يتركهم يحضرون الحرب معه، وقولهم له ولمن معه من المؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، بعد الخبر الذي كان الله أخبرهم تعالى ذكره في كتابه بقوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ الآية، [التوبة: ٨٣]، فحاولوا تبديل كلام الله وخبره بأنهم لن يخرجوا مع نبي الله في غزاة، ولن يقاتلوا معه عدوًا بقولهم لهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، فقال الله جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: "يريدون أن يبدلوا" بمسألتهم إياهم ذلك كلام الله وخبره: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. فكَذَلِكَ معنى قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، إنما هو: لا مغير لما أخبر عنه من خبر أنه كائن، فيظل مجيئه وكونه ووقوعه على ما أخبر جل ثناؤه، لأنه لا يزيد المفترون في كتب الله ولا ينقصون منها. وذلك أن اليهود والنصارى لا شك أنهم أهل كتب الله التي أنزلها على أنبيائه، وقد أخبر جل ثناؤه أنهم يحرفون غير الذي أخبر أنه لا مبدل له. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فإن معناه: والله "السميع"، لما يقول هؤلاء العادلون بالله، المقسمون بالله جهد أيمانهم: لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، وغير ذلك من كلام خلقه "العليم"، بما تؤول إليه أيمانهم من برٍّ وصدق وكذب وحسب، وغير ذلك من أمور عباده.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تطع هؤلاء العادلين بالله الأنداد، يا محمد، فيما دعوك إليه من أكل ما ذبحوا لآلهتهم، وأهلوا به لغير ربهم، وأشكالهم من أهل الزيف والضلال، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن دين الله، ومحجة الحق والصواب، فيصدُّوك عن ذلك.

وإنما قال الله لنبيه: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، من بني آدم، لأنهم كانوا حينئذ كفارًا ضلالًا فقال له جل ثناؤه: لا تطعهم فيما دعوك إليه، فإنك إن تطعهم ضللت ضلالهم، وكنت

مثلهم، لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه. ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الذين نهى نبيه عن طاعتهم فيما دعوه إليه في أنفسهم، فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، فأخبر جل ثناؤه أنهم من أمرهم على ظن عند أنفسهم، وحسبان على صحة عزم عليه، وإن كان خطأ في الحقيقة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، يقول: ما هم إلا متخرصون، يظنون ويوقعون خروفاً، لا يقين علم. يقال منه: "خَرَصَ يَخْرُصُ خَرْصًا وخروصًا"، أي كذب، و"تخرص بظن"، و"تخرص بكذب"، و"خرصت النخل آخرصه"، و"خرصت إبلك"، أصابها البرد والجوع.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، إن ربك الذي هناك أن تطيع هؤلاء العادلين بالله الأوثان، لئلا يضلوك عن سبيله، هو أعلم منك ومن جميع خلقه أي خلقه يضل عن سبيله بزخرف القول الذي يوحى الشياطين بعضهم إلى بعض، فيصدوا عن طاعته واتباع ما أمر به ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾، يقول: وهو أعلم أيضًا منك ومنهم بمن كان على استقامة وسداد، لا يخفى عليه منهم أحد. يقول: واتبع، يا محمد، ما أمرت به، واتبع عما نهيتك عنه من طاعة من نهيتك عن طاعته، فإني أعلم بالهادي والمضل من خلقي، منك.

القول في تاويل قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وعباده المؤمنين به وبآياته: "فكلوا"، أيها المؤمنون، مما ذكيت من ذبائحكم وذبحتموه الذبح الذي بينت لكم أنه تحلل به الذبيحة لكم، وذلك ما ذبحه المؤمنون بي من أهل دينكم دين الحق، أو ذبحه من دان بتوحيدي من أهل الكتاب، دون ما ذبحه أهل الأوثان ومن لا كتاب له من المجوس ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، يقول: إن كنتم بحجج الله التي أتتكم وأعلامه، بإحلال ما أحللت لكم، وتحريم ما حرمت عليكم من المطاعم والمأكول، مصدقين، ودعوا عنكم زخرف ما توحىه الشياطين بعضها إلى بعض من زخرف القول لكم، وتلبس دينكم عليكم غرورًا.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ قال أبو جعفر: ومعنى قوله: ﴿وما لكم﴾، في هذا الموضع: وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟ وذلك أن الله تعالى ذكره تقدم إلى المؤمنين بتحليل ما ذكر اسم الله عليه، وإباحة أكل ما ذبح بدينه أو دين من كان يدين ببعض شرائع كتبه

المعروفة، وتحريم ما أهلك به لغيره، من الحيوان وزجرهم عن الإصغاء لما يوحى الشياطين بعضهم إلى بعض من زخرف القول في الميتة والمنخقة والمتردية، وسائر ما حرم الله من المطاعم. ثم قال: وما يمنعكم من أكل ما ذبح بديني الذي ارتضيته، وقد فصلت لكم

الحلال من الحرام فيما تطعمون، وبينته لكم بقولي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾، [المائدة: ٣]، فلا لبس عليكم في حرام ذلك من حلاله، فستمنعوا من أكل حلاله حذرًا من واقعة حرامه.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، فإنه يعني تعالى ذكره: أن ما اضطررنا إليه من المطاعم المحرمة التي بينَ تحريمها لنا في غير حال الضرورة، لنا حلال ما كنا إليه مضطرين، حتى تزول الضرورة.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن كثيرًا من الناس الذين يجادلونكم في أكل ما حرم الله عليكم، أيها المؤمنون بالله، من الميتة، ليضلون أتباعهم بأهوائهم من غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان عندهم بما فيه يجادلون، إلا ركوبًا منهم لأهوائهم، واتباعًا منهم لدواعي نفوسهم، اعتداءً وخلافًا لأمر الله ونهيه، وطاعة للشياطين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، يقول: إن ربك، يا محمد، الذي أحل لك ما أحل وحرم عليك ما حرم، هو أعلم بمن اعتدى حدوده فتجاوزها إلى خلافها، وهو لهم بالمرصاد.

القول في تاويل قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ودعوا، أيها الناس، علانية الإثم، وذلك ظاهره وسره، وذلك باطنه، و"الإثم" كل ما عصي الله به من محارمه

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه، ويركبون معاصي الله ويأتون ما حرم الله ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾، يقول: سيثيبهم الله يوم القيامة بما كانوا في الدنيا يعملون من معاصيه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، لا تأكلوا، أيها المؤمنون، مما مات فلم تذبحوه أنتم، أو يذبحه موحدٌ يدين الله بشرائع شرعها له في كتاب منزل، فإنه حرام عليكم ولا ما أهلك به لغير الله مما ذبحه المشركون لأوثانهم، فإن أكل ذلك "فسق"، يعني: معصية كفر.

فكنى بقوله: "وإنه"، عن "الأكل"، وإنما ذكر الفعل، كما قال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، [ال عمران: ١٧٣] يراد به، فزاد قولهم ذلك إيمانًا، فكنى عن "القول"، وإنما جرى ذكره بفعل.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾. اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ

ليوحون إلى أوليائهم ﴿ قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا المؤمنين في تحريمهم أكل الميتة، بما ذكرنا من جدالهم إياهم وجائز أن يكون الموحون كانوا شياطين الإنس يوحون إلى أوليائهم منهم وجائز أن يكونوا شياطين الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس وجائز أن يكون الجنسان كلاهما تعاونوا على ذلك، كما أخبر الله عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، [الأنعام: ١١٢]. بل ذلك الأغلب من تأويله عندي، لأن الله أخبر نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس، كما جعل لأنبيائه من قبله، يوحى بعضهم إلى بعض المزيّن من الأقوال الباطلة، ثم أعلمه أن أولئك الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومن تبعه من المؤمنين فيما حرم الله من الميتة عليهم. واختلف أهل التأويل في الذي عنى الله جل ثناؤه بنهيه عن أكله مما لم يذكر اسم الله عليه. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عنى بذلك ما ذبح للأصنام والآلهة، وما مات أو ذبحه من لا تحل ذبيحته. وأما قوله "﴿وإنه لفسق﴾"، فإنه يعني: وإن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من الميتة، وما أهل به لغير الله، لفسق. واختلف أهل التأويل في معنى: "الفسق"، في هذا الموضع. فقال بعضهم: معناه: المعصية. فتأويل الكلام على هذا: وإن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه لمعصية لله وإثم. وقال آخرون: معنى ذلك: الكفر.

وأما قوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾، فقد ذكرنا اختلاف المختلفين في المعنى بقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون﴾، والصواب من القول فيه وأما إيحائهم إلى أوليائهم، فهو إشارتهم إلى ما أشاروا لهم إليه: إما بقول، وإما برسالة، وإما بكتاب. وقد بينا معنى: "الوحي" فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وأما الأولياء: فهم النصارى والظهرة، في هذا الموضع. ويعني بقوله: ﴿ليجادلوكم﴾، ليخاصموكم، بالمعنى الذي قد ذكرت قبل.

وأما قوله: ﴿وإن أطعموهم إنكم لمشركون﴾، فإنه يعني: وإن أطعموهم في أكل الميتة وما حرم عليكم ربكم؛ وأما قوله: ﴿إنكم لمشركون﴾، يعني: إنكم إذا مثلهم، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالاً. فإذا أنتم أكلتموها كذلك، فقد صرتم مثلهم مشركين. قال أبو جعفر: واختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن هذه الآية محكمة فيما أنزلت، لم ينسخ منها شيء، وأن طعام أهل الكتاب حلال، وذبائحهم ذكية. وذلك مما حرم الله على المؤمنين أكله بقوله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾، بمعزل. لأن الله إنما حرم علينا بهذه الآية الميتة، وما أهل به للطواغيت، وذبائح أهل الكتاب ذكية سمّوا عليها أو لم يسمّوا، لأنهم أهل توحيد وأصحاب كتب الله،

يدينون بأحكامها، يذبحون الذبائح بأديانهم، كما يذبح المسلم بدينه، سمى الله على ذبيحته أو لم يسمه، إلا أن يكون ترك من ذكر تسمية الله على ذبيحته على الدينونة بالتعطيل، أو بعبادة شيء سوى الله، فيحرم حينئذ أكل ذبيحته، سمى الله عليها أو لم يسم.

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا الكلام من الله جل ثناؤه يدل على نبيه المؤمنين برسوله يومئذ عن طاعة بعض المشركين الذين جادلوهم في أكل الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمره إياهم بطاعة مؤمن منهم كان كافرًا، فهداه جل ثناؤه لرشده، ووفقه للإيمان. فقال لهم: أطاعة من كان ميتًا، يقول: من كان كافرًا؟ فجعله جل ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة "الميت" الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة ﴿فأحييناه﴾، يقول: فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه في معاده. فجعل إبصاره الحق تعالى ذكره بعد عماء عنه، ومعرفته بوحدانيته وشرائع دينه بعد جهله بذلك، حياة وضياء يستضيء به فيمشي على قصد السبيل، ومنهج الطريق في الناس ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، لا يدرى كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ، لشدة ظلمة الليل وإضلاله الطريق. فكذا هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشدًا ولا يعرف حقًا، يعني في ظلمات الكفر. يقول: أفطاعة هذا الذي هديناه للحق وبصّرناه الرشاد، كطاعة من مثله مثل من هو في الظلمات متردد، لا يعرف المخرج منها، في دعاء هذا إلى تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل، وتحليل هذا ما حرم الله، وتحريمه ما أحل؟

القول في تأويل قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما خذلت هذا الكافر الذي يجادلكم أيها المؤمنون بالله ورسوله، في أكل ما حرمت عليكم من المطاعم عن الحق، فزينت له سوء عمله فرآه حسنًا، ليستحق به ما أعددت له من أليم العقاب، كذلك زينت لغيره ممن كان على مثل ما هو عليه من الكفر بالله وآياته، ما كانوا يعملون من معاصي الله، ليستوجبوا بذلك من فعلهم، ما لهم عند ربهم من النكال.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ جُرْمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكل قرية عظماءها مجرميها يعني أهل الشرك بالله والمعصية له ﴿ليمكروا فيها﴾، بغرور من القول أو بباطل من الفعل، بدين الله وأنبيائه ﴿وما يمكرون﴾: أي ما يحيق مكروهم ذلك، إلا بأنفسهم، لأن الله تعالى ذكره من وراء عقوبتهم على صدهم عن سبيله

"وهم لا يشعرون"، يقول: لا يدرون ما قد أعدَّ الله لهم من أليم عذابه، فهم في غيهم وعتوهم على الله يتمادون. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وأما "المكر"، فإنه الخديعة والاحتيال للممكور به بالغدر، ليورطه الماكر به مكروهاً من الأمر.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين يجادلون المؤمنين بزخرف القول فيما حرم الله عليهم، ليصدوا عن سبيل الله ﴿آية﴾، يعني: حجة من الله على صحة ما جاءهم به محمد من عند الله وحقيقته قالوا لنبي الله وأصحابه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ﴾، يقول: يقولون: لن نصدق بما دعانا إليه محمد ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أن الله حرّمه علينا ﴿حتى نُؤْتَى﴾، يعنون: حتى يعطيهم الله من المعجزات مثل الذي أعطى موسى من فلق البحر، وعيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

يقول تعالى ذكره: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، يعني بذلك جل ثناؤه: أن آيات الأنبياء والرسل لن يُعطاهما من البشر إلا رسول مرسل، وليس العادلون برهم الأوثان والأصنام منهم فيعطوها. يقول جل ثناؤه: فأنا أعلم بمواضع رسالاتي، ومن هو لها أهل، فليس لكم أيها المشركون أن تتخيروا ذلك عليّ أنتم، لأن تخيير الرسول إلى المرسل دون المرسل إليه، والله أعلم إذا أرسل رسالة بموضع رسالاته.

القول في تأويل قوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، معلّمه ما هو صانع بهؤلاء المتمردين عليه: "سيصيب"، يا محمد، الذين اكتسبوا الإثم بشركهم بالله وعبادتهم غيره ﴿صغار﴾، يعني: ذلة وهوان.

وأما قوله: ﴿صغار عند الله﴾، فإن معناه: سيصيبهم صغارٌ من عند الله وقوله: ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾، يقول: يصيب هؤلاء المكذبين بالله ورسوله، المستحلين ما حرّم الله عليهم من الميتة، مع الصغار عذابٌ شديد، بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله بالجدال بالباطل، والزخرف من القول، غرورًا لأهل دين الله وطاعته.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال أبو جعفر: ويقول تعالى ذكره: فمن يرد الله أن يهديه للإيمان به ورسوله وما جاء به من عند ربه، فيوفقه له ﴿يشرح صدره للإسلام﴾، يقول: فسح صدره لذلك وهوّنه عليه، وسهّله له، بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره بالقبول، كالذي جاء الأثر به عن رسول الله ﷺ،

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى، يشغله بكفره وصدّه عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه، حرجًا. و"الحرج"، أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذه، من شدة ضيقه قال أبو جعفر: وفي هذه الآية أبين البيان لمن وفق لفهمهما، عن أن السبب الذي به يُوصل إلى الإيمان والطاعة، غير السبب الذي به يُوصل إلى الكفر والمعصية، وأن كلا السببين من عند الله. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدر من أراد هدايته للإسلام، ويجعل صدر من أراد إضلاله ضيقًا عن الإسلام حرجًا كأنما يصعد في السماء. ومعلوم أن شرح الصدر للإيمان خلاف تضيقه له، وأنه لو كان يوصل بتضييق الصدر عن الإيمان إليه، لم يكن بين تضيقه عنه وبين شرحه له فرق، ولكان من ضيق صدره عن الإيمان، قد شُرح صدره له، ومن شرح صدره له، فقد ضُيق عنه، إذ كان موصولًا بكل واحد منهما أعني من التضيق والشرح إلى ما يُوصل به إلى الآخر. ولو كان ذلك كذلك، وجب أن يكون الله قد كان شرح صدر أبي جهل للإيمان به، وضيق صدر رسول الله ﷺ عنه. وهذا القول من أعظم الكفر بالله. وفي فساد ذلك أن يكون كذلك، الدليل الواضح على أن السبب الذي به آمن المؤمنون بالله ورسوله، وأطاعه المطيعون، غير السبب الذي كفر به الكافرون بالله وعصاه العاصون، وأن كلا السببين من عند الله وبيده، لأنه أخبر جل ثناؤه أنه هو الذي يشرح صدر هذا المؤمن به للإيمان إذا أراد هدايته، ويضيق صدر هذا الكافر عنه إذا أراد إضلاله.

القول في تأويل قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قال أبو جعفر: وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضيقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأن ذلك ليس في وسعه. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقًا حرجًا، كأنما يصعد في السماء من ضيقه عن الإيمان فيجزيه بذلك، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيل الحق. وقد اختلف أهل التأويل في معنى "الرجس".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله ابن عباس، ومن قال إن "الرجس" و"النجس" واحد

القول في تأويل قوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهذا الذي بينا لك، يا محمد، في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك، يقول: طريق ربك، ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينًا، وجعله مستقيمًا لا اعوجاج

فيه. فاثبت عليه، وحرّم ما حرّمته عليك، وأحل ما أحلّته لك، فقد بينّا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته "لقوم يذكرون"، يقول: لمن يتذكر ما احتجّ الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها. وخص بها "الذين يتذكرون"، لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولو الحجة والفضل

القول في تاويل قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٧)

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "لهم"، للقوم الذين يذكرون آيات الله فيعتبرون بها، ويوقنون بدلالتها على ما دلت عليه من توحيد الله ومن نبوة نبيه محمد ﷺ وغير ذلك، فيصدّقون بما وصلوا بها إلى علمه من ذلك. وأما "دار السلام"، فهي دار الله التي أعدّها لأوليائه في الآخرة، جزاء لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته. و"السلام"، اسم من أسماء الله تعالى، وأما قوله: ﴿وهو وليّهم﴾، فإنه يقول: والله ناصر هؤلاء القوم الذين يذكرون آيات الله ﴿بما كانوا يعملون﴾، يعني: جزاء بما كانوا يعملون من طاعة الله، ويتبعون رضوانه.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ويوم يحشرهم جميعًا﴾، ويوم يحشر هؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام وغيرهم من المشركين، مع أوليائهم من الشياطين الذين كانوا يؤحون إليهم زخرف القول غرورًا ليجادلوا به المؤمنين، فيجمعهم جميعًا في موقف القيامة يقول للجن: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾، وحذف "يقول للجن" من الكلام، اكتفاءً بدلالة ما ظهر من الكلام عليه منه. وعنى بقوله: ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾، استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فيجيب أولياء الجن من الإنس فيقولون: "ربنا استمتع بعضنا ببعض" في الدنيا. فأما استمتاع الإنس بالجن، فكان كما: جاء عن ابن جريج قوله: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾، قال: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: "أعوذ بكبير هذا الوادي"، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس، فإنه كان، فيما ذكر، ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إيّاهم في استعازتهم بهم، فيقولون: "قد سدنّا الجنّ والجنّ"

القول في تاويل قوله: ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قالوا: بلغنا الوقت الذي وقّت لموتنا. وإنما يعني جل ثناؤه بذلك: أنهم قالوا: استمتع بعضنا ببعض أيّام حياتنا إلى حال موتنا

القول في تاويل قوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عمّا هو قائل لهؤلاء الذين يحشرهم يوم القيامة

من العادلين به في الدنيا الأوثان، ولقرنائهم من الجن، فأخرج الخبر عما هو كائن، مُخَرَج الخبر عما كان، لتقدم الكلام قبله بمعناه والمراد منه، فقال: قال الله لأولياء الجن من الإنس الذين قد تقدم خبره عنهم: ﴿النار مثواكم﴾، يعني نار جهنم "مثواكم"، الذي تتوون فيه، أي تقيمون فيه. و"المثوى" هو "المفعل" من قولهم: "نوى فلان بمكان كذا"، إذا أقام فيه.

﴿خالدين فيها﴾، يقول: لا بشين فيها ﴿إلا ما شاء الله﴾، يعني إلا ما شاء الله من قدر مدة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثنائها الله من خلودهم في النار ﴿إن ربك حكيم﴾، في تدبيره في خلقه، وفي تصريفه إياهم في مشيئته من حال إلى حال، وغير ذلك من أفعاله ﴿عليم﴾، بعواقب تدبيره إياهم، وما إليه صائرة أمرهم من خير وشر.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ﴿نُوَلِّي﴾.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: وكذلك نجعل بعض الظالمين لبعض أولياء. لأن الله ذكر قبل هذه الآية ما كان من قول المشركين، فقال جل ثناؤه: ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾، وأخبر جل ثناؤه: أن بعضهم أولياء بعض، ثم عقب خبره ذلك بخبره عن أن ولاية بعضهم بعضاً بتوليته إياهم، فقال: وكما جعلنا بعض هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياء بعض يستمتع بعضهم ببعض، كذلك نجعل بعضهم أولياء بعض في كل الأمور "بما كانوا يكسبون"، من معاصي الله ويعملونه.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما هو قائل يوم القيامة لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذكره يومئذ: ﴿يا معشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾، يقول: يخبرونكم بما أوحى إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلتي على توحيدتي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمرتي، والانتهاة إلى حدودي ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾، يقول: يحذرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتكم إياي، فتنتهوا عن معاصي.

وهذا من الله جل ثناؤه تقرير وتوبيخ لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رُسُلٌ منكم ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة، وينذرونكم وعيد الله على مقامكم على ما كنتم عليه مقيمين، فلم تقبلوا ذلك، ولم تتذكروا ولم تعتبروا.

واختلف أهل التأويل في "الجن"، هل أرسل منهم إليهم، أم لا؟

فعلى قول ابن عباس، أنّ من الجنّ رسلا للإنس إلى قومهم فتأويل الآية على هذا التأويل الذي تأوله ابن عباس: ألم يأتكم، أيها الجن والإنس، رسل منكم، فأما رسل الإنس فرسل من الله إليهم، وأما رسل الجن فرسل رُسل الله من بني آدم، وهم الذين إذا سمعوا القرآن ولّوا إلى قومهم منذرين. وأما الذين قالوا بقول الضحّاك، فإنهم قالوا: إن الله تعالى ذكره أخبر أنّ من الجن رسلا أرسلوا إليهم، كما أخبر أنّ من الإنس رسلا أرسلوا إليهم. قالوا: ولو جاز أن يكون خبره عن رسل الجن بمعنى أنهم رسل الإنس، جاز أن يكون خبره عن رسل الإنس بمعنى أنهم رُسل الجن. قالوا: وفي فساد هذا المعنى ما يدلّ على أن الخبرين جميعاً بمعنى الخبر عنهم أنهم رُسل الله، لأن ذلك هو المعروف في الخطاب دون غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريبه إياهم بقوله لهم: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾، أنهم يقولونه.... ﴿شهدنا على أنفسنا﴾، بأن رسلك قد أتتنا بآياتك، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا، فكذبناها وجحدنا رسالتها، ولم تتبع آياتك ولم تؤمن بها. قال الله خبراً مبتدأ: وَغَرَّتْ هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِاللَّهِ الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ، وأولياءهم من الجن ﴿الحياة الدنيا﴾، يعني: زينة الحياة الدنيا، وطلب الرئاسة فيها والمنافسة عليها، أن يسلموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فاكتمى بذكر "الحياة الدنيا" من ذكر المعاني التي غرَّتهم وخدعتهم فيها، إذ كان في ذكرها مكتمى عن ذكر غيرها، لدلالة الكلام على ما ترك ذكره يقول الله تعالى ذكره: ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾، يعني: هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ به يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرسله، لتتم حجة الله عليهم بإقرارهم على أنفسهم بما يوجب عليهم عقوبته وأليم عذابه.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، أي: إنما أرسلنا الرسل، يا محمد، إلى من وصفت أمره، وأعلمت خبره من مشركي الإنس والجن، يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم إليّ، من أجل أن ربك لم يكن مهلك القرى بظلم.

و معناه: أن لم يكن ليهلكهم بشركهم، دون إرسال الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم. وذلك أن قوله: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، عقيب قوله: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾، فكان في ذلك الدليل الواضح على أن نصّ قوله: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، إنما هو: إنما فعلنا ذلك من أجل أننا لا نهلك القرى بغير تذكير

وتنبه.

وأما قوله: ﴿ذلك﴾، فإنه يجوز أن يكون نصباً، بمعنى: فعلنا ذلك ويجوز أن يكون رفعاً، بمعنى الابتداء، كأنه قال: ذلك كذلك. وأما "أن"، فإنها في موضع نصب، بمعنى: فعلنا ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى فإذا حذف ما كان يخفصها، تعلق بها الفعل فنصب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويشبه بها، إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾، يقول جل ثناؤه: وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: "وربك"، يا محمد، الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية "الغني"، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم. يقول عز ذكره: فلم أخلقهم، يا محمد، ولم أمرهم بما أمرتهم به، وأنهم عما نهيتهم عنه، لحاجة لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأنفضل عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فإني ذو الرأفة والرحمة.

وأما قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾، فإنه يقول: إن يشأ ربك، يا محمد، الذي خلق خلقه لغير حاجة منه إليهم وإلى طاعتهم إياه ﴿يذْهِبْكُمْ﴾، يقول: يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾، يقول: ويأت بخلق غيركم وأمم سواكم، يخلفونكم في الأرض "من بعدكم"، يعني: من بعد فنائكم وهلاككم ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم. ومعنى "من" في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: "أعطيتك من دينارك ثوباً"، بمعنى: مكان الدينار ثوباً، لا أن الثوب من الدينار بعض، كذلك الذين خوطبوا بقوله: ﴿كما أنشأكم﴾، لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين، ولكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنهم أنشئوا مكان خلق خلف قوم آخرين قد هلكوا قبلهم.

و"الذرية" "الفعلية"، من قول القائل: "ذراً الله الخلق"، بمعنى خلقهم، "فهو يذرؤهم"، وأصل "الإنشاء"، الإحداث. يقال: "قد أنشأ فلان يحدث القوم"، بمعنى ابتداء وأخذ فيه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمشركين به: أيها العادلون بالله الأوثان والأصنام، إن الذي يُوعَدكم به ربكم من عقابه على إصراركم على كفركم، واقعٌ بكم ﴿وما أنتم بمعجزين﴾، يقول: لن تعجزوا ربكم هرباً منه في الأرض فتفوتوه، لأنكم حيث كنتم في قبضته، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إيّاه قادر. يقول: فاحذروه وأنبيوا إلى طاعته، قبل نزول البلاء بكم.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِلَىٰ غَايَةٍ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لقومك من قريش الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿اعملوا على مكاتبتكم﴾، يقول: اعملوا على حيالكم وناحياتكم.

﴿إني عامل﴾، يقول جل ثناؤه، لنبية: قل لهم: اعملوا ما أنتم عاملون، فإني عامل ما أنا عامله مما أمرني به ربي ﴿فسوف تعلمون﴾، يقول: فسوف تعلمون عند نزول نقمة الله بكم، أيّنا كان المحقّق في عمله، والمصيب سبيل الرشاد، أنا أم أنتم. وقوله تعالى ذكره لنبية: قل لقومك: ﴿يا قوم اعملوا على مكاتبتكم﴾، أمرٌ منه له بوعيدهم وتهديدهم، لا إطلاقٌ لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله.

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾، فسوف تعلمون، أيها الكفرة بالله، عند معاينتكم العذاب، من الذي تكون له عاقبة الدار منا ومنكم. يقول: من الذي تُعقّبه دنياه ما هو خير له منها أو شر منها، بما قدّم فيها من صالح أعماله أو سيئها.

ثم ابتدأ الخبر جل ثناؤه فقال: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾، يقول: إنه لا ينجح ولا يفوز بحاجته عند الله من عمل بخلاف ما أمره الله به من العمل في الدنيا وذلك معنى: "ظلم الظالم"، في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وجعل هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام لربهم ﴿مما ذرأ﴾ خالقهم، يعني: مما خلق من الحرث والأنعام. "نصيباً"، يعني قسماً وجزءاً.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة النصيب الذي جعلوا لله، والذي جعلوه لشركائهم من الأوثان والشيطان. قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالآية ما قال ابن عباس ﴿في قوله﴾ ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعْمِهِمْ﴾، الآية، وذلك أن أعداء الله كانوا إذا احترقوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منها جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو

ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه. فإن سقط منه شيء فيما سُمِّيَ الله ردُّوه إلى ما جعلوا للوثن. وإن سبقهم الماء إلى الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئاً جعلوه لله. جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التي جعلوا لله. فاختلط بالذي جعلوا للوثن، قالوا: "هذا فقير"! ولم يردوه إلى ما جعلوا لله. وإن سبقهم الماء الذي جعلوا لله فسقى ما سُمِّيَ للوثن، تركوه للوثن. وكانوا يحرمون من أنعامهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله. فقال الله في ذلك: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾، الآية.

وَمَنْ قَالَ بمثل قوله في ذلك، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنهم جعلوا لله من حرثهم وأنعامهم قسماً مقدراً، فقالوا: "هذا لله" وجعلوا مثله لشركائهم، وهم أوثانهم، بإجماع من أهل التأويل عليه، فقالوا: "هذا لشركائنا" وإن نصيب شركائهم لا يصل منه إلى الله، بمعنى: لا يصل إلى نصيب الله، وما كان لله وصل إلى نصيب شركائهم. فلو كان وصول ذلك بالتسمية وترك التسمية، كان أعيان ما أخبر الله عنه أنه لم يصل، جائزاً أن تكون قد وصلت، وما أخبر عنه أنه قد وصل، لم يصل. وذلك خلاف ما دلَّ عليه ظاهر الكلام، لأن الذبيحتين تُذبح إحداهما لله، والأخرى للآلهة، جائز أن تكون لحومهما قد اختلطت، وخلطوها إذ كان المكروه عندهم تسمية الله على ما كان مذبوحاً للآلهة، دون اختلاط الأعيان واتصال بعضها ببعض.

وأما قوله: ﴿ساء ما يحكمون﴾، فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن فعل هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم. يقول جل ثناؤه: وقد أساءوا في حكمهم، إذ أخذوا من نصيب شركائهم، ولم يعطوني من نصيب شركائهم. وإنما عنى بذلك تعالى ذكره الخبر عن جهلهم وضلالتهم، وذهابهم عن سبيل الحق، بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم، وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى، ما لا يضرهم ولا ينفعهم، حتى فضّلوه في أقسامهم عند أنفسهم بالقسم عليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكما زَيْنَ شركاء هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام لهم ما زينوا لهم، من تصييرهم لربهم من أموالهم قسماً بزعمهم، وتركهم ما وصل من القسم الذي جعلوه لله إلى قسم شركائهم في قسمهم، وردّهم ما وصل من القسم الذي جعلوه لشركائهم إلى قسم نصيب الله، إلى قسم شركائهم ﴿كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾، من الشياطين، فحسنوا لهم وأد البنات ﴿ليردوهم﴾، يقول: ليهلكوهم ﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾، فعلوا ذلك بهم، ليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا، بفعلهم ما حرم الله عليهم

ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأن كان يهديهم للحق، ويوفقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم. يقول الله لنبيه، متوعداً لهم على عظيم فريتهم على ربهم فيما كانوا يقولون في الأنصباء التي يقسمونها: "هذا لله وهذا لشركائنا"، وفي قتلهم أولادهم "ذرهم"، يا محمد، "وما يفترون"، وما يتقولون عليّ من الكذب والزور، فإني لهم بالمرصاد، ومن ورائهم العذاب والعقاب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَرِّعِيهِمْ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء الجهلة من المشركين أنهم كانوا يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم، من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك. يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء العادلون برهم من المشركين، جهلاً منهم، لأنعام لهم وحرت: هذه أنعامٌ وهذا حرث حجر يعني بـ"الأنعام" و"الحرث" ما كانوا جعلوه لله ولآلهتهم، التي قد مضى ذكرها في الآية قبل هذه. وقيل: إن "الأنعام"، السائبة والوصيلة والبحيرة التي سموا. وعن السدي: أما قوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا﴾، فيقولون: حرام، أن نطعم إلا من شئنا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وحرم هؤلاء الجهلة من المشركين ظهور بعض أنعامهم، فلا يركبون ظهورها، وهم يتنفعون برسلها ونتائجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب. وحرّموا من أنعامهم أنعاماً آخر، فلا يحجّجون عليها، ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحالٍ، ولا إن حلبوها، ولا إن حملوا عليها. وبما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿ما في بطون هذه الأنعام﴾. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الكفرة أنهم قالوا في أنعام بأعيانها: "ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا دون إناثنا"، واللبن ما في بطونها، وكذلك أجتتها. ولم يخص الله بالخبر عنهم أنهم قالوا: بعض ذلك حرام عليهن دون بعض.

وإذ كان ذلك كذلك، فالواجب أن يقال إنهم قالوا: ما في بطون تلك الأنعام من لبن وجنين حلّ لذكورهم خالصة دون إناثهم، وإنهم كانوا يؤثرون بذلك رجالهم، إلا أن يكون الذي في بطونها من الأجنة ميتاً، فيشترك حيثنذ في أكله الرجال والنساء.

وأما قوله: ﴿ومحرم على أزواجنا﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بـ"الأزواج".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا يقولون لما في بطون هذه الأنعام يعني أنعامهم: "هذا محرم على أزواجنا"، و"الأزواج"، إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لا شك بنات من هن أولاده، وحلائل من هن أزواجه.

وفي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ومحرم على أزواجنا﴾، الدليل الواضح على أن تأنيث "الخالصة"، كان لما وصفت من المبالغة في وصف ما في بطون الأنعام بالخلوصة للذكور، لأنه لو كان لتأنيث الأنعام لقليل: و"محرمة على أزواجنا"، ولكن لما كان التأنيث في "الخالصة" لما ذكرت، ثم لم يقصد في "المحرم" ما قصد في "الخالصة" من المبالغة، رجع فيها إلى تذكير "ما"، واستعمال ما هو أولى به من صفته وأما قوله: ﴿وإن يكن مية فهم فيه شركاء﴾، قرأ ذلك بعض قراء المدينة والكوفة والبصرة: ﴿وإن يكن مَيْتَةً﴾، بالياء، و"ميتة"، بالنصب، وتخفيف الياء.

وكأن من قرأ: ﴿وإن يكن﴾، بالياء ﴿ميتة﴾ بالنصب، أراد: وإن يكن ما في بطون تلك الأنعام فذكر "يكن" لتذكير "ما" ونصب "الميتة"، لأنه خبر "يكن". وأما من قرأه: ﴿وإن تكن ميتة﴾، فإنه إن شاء الله أراد: وإن تكن ما في بطونها ميتة، فأنت "تكن" لتأنيث "ميتة".

وقوله: ﴿فهم فيه شركاء﴾، فإنه يعني أن الرجال وأزواجهم شركاء في أكله، لا يحرمونه على أحد منهم، كما ذكرنا عن ذلك عنه قبل من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: "سيجزى"، أي: سيثيب ويكافئ هؤلاء المفترين عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرمه الله، وتحليلهم ما لم يحلل الله، وإضافتهم كذبهم في ذلك إلى الله وقوله: ﴿وصفهم﴾، يعني بـ"وصفهم"، الكذب على الله، وذلك كما قال جل ثناؤه في موضع آخر من كتابه: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾، [النحل: ٦٢] كما جاء عن مجاهد وأبي العالية وقتادة وأما قوله: ﴿إنه حكيم عليم﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: إن الله في مجازاتهم على وصفهم الكذب وقيلهم الباطل عليه "حكيم"، في سائر تدبيره في خلقه "عليم"، بما يصلحهم، وبغير ذلك من أمورهم.

القول في تأويل قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذب، العادلون به الأوثان والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم، وتحريم [ما أنعمت به] عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعة لها أولادهم، وحرَّموا ما أحل الله لهم وجعله لهم رزقاً من أنعامهم "سفها"، منهم. يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلك جهالة منهم بما لهم وعليهم، ونقص عقول، وضعف أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضره وأجل

مكروهه، من عظيم عقاب الله عليه لهم ﴿افتراء على الله﴾، يقول: تكذَّباً على الله وتخرفاً عليه الباطل ﴿قد ضلوا﴾، يقول: قد تركوا محجة الحق في فعلهم ذلك، وزالوا عن سواء السبيل ﴿وما كانوا مهتدين﴾، يقول: ولم يكن فاعلو ذلك على هدى واستقامة في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدين للصواب فيها، ولا موفقين له. ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خبرهم في هذه الآيات من قوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الذين كانوا يحرون البحائر، ويسببون السوائب، ويثدون البنات، كما جاء

عن ابن جريج قال، قال عكرمة، قوله: ﴿الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾، قال: نزلت فيمن يثد البنات من ربيعة ومضر، كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتثد أخرى. فإذا كانت الجارية التي تثد، غدا الرجل أو راح من عند امرأته، وقال لها: "أنت علي كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تثنديها"، فتخذ لها في الأرض خدًا، وترسل إلى نساءها فيجتمعن عندها، ثم يتداولنها، حتى إذا أبصرته راجعاً دستها في حفرتها، ثم سوت عليها التراب كما جاء عن السدي وقتادة

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره ما أنعم به عليهم من فضله، وتنبية منه لهم على موضع إحسانه، وتعريف منه لهم ما أحلّ وحرّم وقسم في أموالهم من الحقوق لمن قسم له فيها حقاً.

يقول تعالى ذكره: وربكم، أيها الناس ﴿أنشأ﴾، أي أحدث وابتدع خلقاً، لا الآلهة والأصنام ﴿جَنَاتٍ﴾، يعني: بساتين ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾، وهي ما عرّش الناس من الكروم ﴿وغير معروشات﴾، غير مرفوعات مبنيات، لا ينبتة الناس ولا يرفعونه، ولكن الله يرفعه وينبته وينميّه، كما جاء عن السدي وابن عباس قول في تأويل قوله: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وأنشأ النخل والزرع مختلفاً أكله يعني بـ"الأكل"، الثمر. يقول: وخلق النخل والزرع مختلفاً ما يخرج منه مما يؤكل من الثمر والحب "والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه"، في الطعم، منه الحلو، والحامض، والمزّ، كما جاء عن ابن جريج

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَتُوا حَقَّ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: كان ذلك فرضاً فرضه الله على المؤمنين في طعامهم وثمارهم التي تُخرجها زروعهم وغرؤسهم، ثم نسخه الله بالصدقة المفروضة، والوظيفة المعلومة من العشر ونصف العشر. وذلك أن الجميع مجمعون لا خلاف بينهم: أن صدقة الحرث لا تؤخذ إلا بعد الدياس والتنقية والتذرية، وأن صدقة التمر

لا تؤخذ إلا بعد الإجازة.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، ينبي عن أنه أمر من الله جل ثناؤه بإيتاء حقه يوم حصاده، وكان يوم حصاده هو يوم جدّه وقطعه، والحبّ لا شك أنه في ذلك اليوم في سنبله، والتمر وإن كان ثمر نخل أو كرم غير مستحكم جفوفه وبيسه، وكانت الصدقة من الحبّ إنما تؤخذ بعد دياسه وتذريته وتنقيته كيلا والتمر إنما تؤخذ صدقته بعد استحكاميبيه وجفوفه كيلا علم أن ما يؤخذ صدقة بعد حين حصده، غير الذي يجب إيتاؤه المساكين يوم حصاده.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "الإسراف"، الذي نهى الله عنه بهذه الآية، ومن المنهي عنه.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾، عن جميع معاني "الإسراف"، ولم يخصص منها معنى دون معنى.

وإذا كان ذلك كذلك، وكان "الإسراف" في كلام العرب: الإخطاء بإصابة الحق في العطية، إما بتجاوز حدّه في الزيادة، وإما بتقصير عن حدّه الواجب كان معلوماً أن المفرق ماله مبارأة، والبالذلة للناس حتى أجحفت به عطيته، مسرفٌ بتجاوزه حدّ الله إلى ما [ليس له]. وكذلك المقصّر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهل سُهْمَان الصدقة إذا وجبت فيه، أو منعه من ألزمه الله نفقته من أهله وعياله ما ألزمه منها. وكذلك السلطان في أخذه من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه. كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون، داخلون في معنى مَنْ أتى ما نهى الله عنه من الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾، في عطيتكم من أموالكم ما يجحف بكم إذ كان ما قبله من الكلام أمراً من الله بإيتاء الواجب فيه أهله يوم حصاده. فإن الآية قد كانت تنزل على رسول الله ﷺ بسبب خاص من الأمور، والحكم بها على العام، بل عامّة آي القرآن كذلك. فكذاك قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، مع ما أنشأ من الجنات المعروفات وغير المعروفات.

و"الحمولة"، ما حمل عليه من الإبل وغيرها. و"الفرش"، صغار الإبل التي لم تدرك أن يُحمّل عليها. واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن "الحمولة"، هي ما حمل من الأنعام، لأن ذلك من صفتها إذا حملت، لا أنه اسم لها، كالإبل والخيول والبغال، فإذا كانت إنما سميت "حمولة" لأنها تحمل، فالواجب أن يكون كل ما حمل على ظهره من الأنعام

فحمولة. وهي جمع لا واحد لها من لفظها، كالركوبة، و"الجزورة". وكذلك "الفرش"، إنما هو صفة لما لطف فقرب من الأرض جسمه، ويقال له: "الفرش". وأحسبها سميت بذلك تمثيلاً لها في استواء أسنانها ولطفها بالفرش من الأرض، وهي الأرض المستوية التي يتوطئها الناس. فأما "الحمولة"، بضم "الحاء"، فإنها الأحمال، وهي "الحمول" أيضاً بضم الحاء.

القول في تأويل قوله: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: كلوا مما رزقكم الله، أيها المؤمنون، فأحل لكم ثمرات حروثكم وغروسكم، ولحوم أنعامكم، إذ حرم بعض ذلك على أنفسهم المشركون بالله، فجعلوا لله ما ذراً من الحرث والأنعام نصيباً وللشيطان مثله، فقالوا: "هذا لله بزعيمهم وهذا لشركائنا" ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾، كما اتبعها باحرؤ البحيرة، ومسيو السوائب، فتحرموا على أنفسهم من طيب رزق الله الذي رزقكم ما حرموه، فتطيعوا بذلك الشيطان، وتعصوا به الرحمن كما جاء عن زيد بن زيد إن الشيطان لكم عدو يبغي هلاككم وصدكم عن سبيل ربكم ﴿مُبِينٌ﴾، قد أبان لكم عدواته، بمناصبته أباكم بالعداوة، حتى أخرجهم من الجنة بكيدته، وخدعه حسداً منه له، وبغياً عليه.

القول في تأويل قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقرير من الله جل ثناؤه العادلين به الأوثان من عبدة الأصنام، الذين بحروا البحائر، وسيوا السوائب، ووصلوا الوصائل وتعليم منه نبيه ﷺ والمؤمنين به، الحجة عليهم في تحريمهم ما حرموا من ذلك. فقال للمؤمنين به وبرسوله: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، ومن الأنعام أنشأ حمولة وفرشاً. ثم بين جل ثناؤه "الحمولة" و"الفرش"، فقال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾. وإنما نصب "الثمانية"، لأنها ترجمة عن "الحمولة" و"الفرش"، وبدل منها. كأن معنى الكلام: ومن الأنعام أنشأ ثمانية أزواج فلما قدم قبل "الثمانية" "الحمولة" و"الفرش" بين ذلك بعد فقال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، على ذلك المعنى. ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، فذلك أربعة، لأن كل واحد من الأنثيين من الضأن زوج، فالأنثى منه زوج الذكر، والذكر منه زوج الأنثى، وكذلك ذلك من المعز ومن سائر الحيوان. فلذلك قال جل ثناؤه: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، كما قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، [الذاريات: ٤٩]، لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر، فهما وإن كانا اثنتين فيهما زوجان، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، [الأعراف: ١٨٩]، وكما قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، [الأحزاب: ٣٧] كما جاء عن الضحاك ثم قال لهم: كلوا مما رزقكم الله من هذه الثمار واللحوم، واركبوا هذه الحمولة، أيها المؤمنون، فلا تتبعوا خطوات الشيطان في تحريم ما حرم هؤلاء الجهلة بغير

أمرى إياهم بذلك.

قل، يا محمد، لهؤلاء الذين حرّموا ما حرّث والأنعام اتباعاً للشيطان، من عبدة الأوثان والأصنام الذين زعموا أن الله حرم عليهم ما هم محرمون من ذلك: الذّكرين حرم ربكم، أيها الكذبة على الله، من الضّأن والمعز؟ فإنهم إن ادعوا ذلك وأقروا به، كذبوا أنفسهم وأبانوا جهلهم. لأنهم إذا قالوا: "يحرم الذّكرين من ذلك"، أوجبوا تحريم كل ذّكرين من ولد الضّأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم الذّكران منها وظهورها. وفي ذلك فساد دعواهم وتكذيب قولهم ﴿أم الأنثيين﴾، فإنهم إن قالوا: "حرم ربنا الأنثيين"، أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضّأن والمعز على أنفسهم وظهورها. وفي ذلك أيضاً تكذيب لهم، ودحض دعواهم أن ربهم حرم ذلك عليهم، إذ كانوا يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره ﴿أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾، يقول: أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني أرحام أنثى الضّأن وأنثى المعز، فلذلك قال: "أرحام الأنثيين"، وفي ذلك أيضاً لو أقروا به فقالوا: "حرم علينا ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين"، بطول قولهم وبيان كذبهم، لأنهم كانوا يقرّون بإقرارهم بذلك أن الله حرّم عليهم ذكور الضّأن والمعز وإنثائها، أن يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها، وقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإنثائها. و"ما" التي في قوله: ﴿أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾، نصب عطفاً بها على "الأنثيين". ﴿نبئوني بعلم﴾، يقول: قل لهم: خبروني بعلم ذلك على صحته: أي ذلك حرم ربكم عليكم، وكيف حرم؟ ﴿إن كنتم صادقين﴾، فيما تحلونه ربكم من دعواكم، وتضيفونه إليه من تحريمكم. وإنما هذا إعلامٌ من الله جل ثناؤه نبيه أن كل ما قاله هؤلاء المشركون في ذلك وأضافوه إلى الله، فهو كذب على الله، وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك، وأنهم إنما اتّبعوا في ذلك خطوات الشيطان، وخالفوا أمره. وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة ومجاهد و"الضّأن" جمع لا واحد له من لفظه، وقد يجمع "الضّأن"، "الضّئين" والضّئين، مثل "الشّعير" و"الشّعير"، كما يجمع "العبد" على "عبيد" و"عبيد". وأما الواحد من ذكوره فـ"ضائن"، والأنثى "ضائنة"، وجمع "الضائنة" "ضوائن". وكذلك "المعز"، جمع على غير واحد، وكذلك "المعزى"، وأما "الماعر"، فجمعه "مواعر".

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذَّكَّرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ أَمْ﴾
اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾ قال أبو جعفر: وتأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذَّكَّرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ أَمْ﴾
نحو تأويل قوله: ﴿مِنَ الضّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، وهذه أربعة أزواج، على نحو ما بيّنا من

الأزواج الأربعة قبل من الضأن والمعز، فذلك ثمانية أزواج، كما وصف جل ثناؤه.

وأما قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فإنه أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين قص قصصهم في هذه الآيات التي مضت. يقول له عز ذكره: قل لهم، يا محمد، أي هذه سألتكم عن تحريمه حرم ربكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أخبراً قلت: "إن الله حرم هذا عليكم"، أخبركم به رسول عن ربكم، أم شهدتم ربكم فرأيتموه فوصاكم بهذا الذي تقولون وتزورون على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من إخباركم عن الله أنه حرام بما تزعمون على ما تزعمون، لا يعلم إلا بوحى من عنده مع رسول يرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فبأي هذين الوجهين علمتم أن الله حرم ذلك كذلك، برسول أرسله إليكم، فأنبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكم فأوصاكم بذلك، وقال لكم: "حرمت ذلك عليكم"، فسمعتم تحريمه منه، وعهدت إليكم بذلك؟ فإنه لم يكن واحداً من هذين الأمرين. يقول جل ثناؤه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، يقول: فمن أشد ظملاً لنفسه، وأبعد عن الحق ممن تخرّص على الله قيل الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، وتحليل ما لم يحلل ﴿ليضل الناس بغير علم﴾، يقول: ليصدّهم عن سبيله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾، يقول: لا يوفق الله للرشد من افتري على الله وقال عليه الزور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، كفرّاً بالله، وجحوداً لنبوة نبيه محمد ﷺ، كما جاء عن السدي وابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبیه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء الذين جعلوا الله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله والقائلين هذه أنعام وحرث حبر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم والمحرّمين من أنعام آخر ظهورها والتاركين ذكر اسم الله على آخر منها والمحرّمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم، ومحلّيه لذكورهم، المحرّمين ما رزقهم الله افتراءً على الله، وإضافةً منهم ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذي حرّمه عليهم: أجماعكم من الله رسول بتحريمه ذلك عليكم، فأنبئونا به، أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدةً منكم له، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه؟ فإنكم كذبة إن ادعيتم ذلك، ولا يمكنكم دعواه، لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم فإني لا أجد فيما أوحى إليّ من كتابه وآي تنزيله، شيئاً محرّماً على أكل يأكله مما تذكرون أنه حرّمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريم ما حرّم عليكم منها بزعمكم "إلا أن يكون ميتة"، قد ماتت بغير تذكية "أو دمًا مسفوحًا"، وهو

الْمُنْصَبِّ أَوْ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَحْمِ خَنْزِيرٍ ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾، يقول: أَوْ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فَسَقًا، يعني بذلك: أَوْ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَذْبُوحًا ذَبَحَهُ ذَابِحٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لَصْنَمِهِ وَآلِهَتِهِ، فذكر عليه اسم وثنه، فَإِنَّ ذَلِكَ الذَّبْحَ فَسَقٌ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك، لأنه ميتة. وهذا إعلام من الله جل ثناؤه للمشركين الذين جادلوا نبيَّ الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرَّمه الله، وأن الذي زعموا أن الله حرَّمه حلالٌ قد أحلَّه الله، وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن بن طاوس ومجاهد

وأما قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾، فإن معناه: أَوْ دَمًا مُسَالًا مُهْرَاقًا. يقال منه: "سفحت دمه"، إذا أرقته، أسفحه سَفْحًا، فهو دم مسفوح"، كما قال طرفة بن العبد:

إِنِّي وَجَدَكَ مَا هَجَوْتُكَ وَالْ... أَنْصَابٍ يَسْفَحُ فَوْقَهُنَّ دَمٌ

وفي اشتراطه جل ثناؤه في الدم عند إعلامه عباده تحريمه إياه، المسفوح منه دون غيره، الدليل الواضح أن ما لم يكن منه مسفوحًا، فحلال غير نجس. كما جاء عن عكرمة وقتادة وغيرهما وقد بينا معنى "الرجس"، فيما مضى من كتابنا هذا، وأنه النجس والتنن، وما يُعصى الله به، بشواهده، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع. وكذلك القول في معنى "الفسق" وفي قوله: ﴿أهل لغير الله به﴾، قد مضى ذلك كله بشواهده الكافية من وفق لفهمه، عن تكراره وإعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر:

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، والصواب من القول فيه عندنا فيما مضى من كتابنا هذا، في "سورة البقرة" بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وأن معناه: فمن اضطر إلى أكل ما حرَّم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير، أو ما أهل لغير الله به، غير باغٍ في أكله إِيَّاهُ تِلْذِذًا، لا لضرورة حالة من الجوع، ولا عَادٍ في أكله بتجاوزه ما حدَّه الله وأباحه له من أكله، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك، لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه، فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، فيما فعل من ذلك، فسأتر عليه بتركه عقوبته عليه، ولو شاء عاقبه عليه ﴿رَحِيمٌ﴾، بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرَّمه عليه ومنعه منه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى

ذكره: وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ "كل ذي ظفر"، وهو من البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والإوز والبط. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن سعيد بن

جبير وابن عباس وغيرهما

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَنا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "الشحوم" التي أخبر الله تعالى ذكره: أنه حرمها على اليهود من البقر والغنم. قال أبو جعفر: والصواب في ذلك من القول أن يقال: إن الله أخبر أنه كان حرم على اليهود من البقر والغنم شحومهما، إلا ما استثناء منها مما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. فكل شحم سوى ما استثناء الله في كتابه من البقر والغنم، فإنه كان محرماً عليهم. وبنحو ذلك من القول تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ، وذلك قوله: "قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها".

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورَهُمَا﴾، فإنه يعني: إلا شحوم الجنب وما علق بالظهر، فإنها لم تحرم عليهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ قال أبو جعفر: و"الحوايا" جمع، واحدها "حاوية"، و"حاوية"، و"حوية"، وهي ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي "المباعر"، وتسمى "المرايض"، وفيها الأمعاء. ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرماً عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، أو ما حملت الحوايا ف"الحوايا"، رفع، عطفاً على "الظهور"، و"ما" التي بعد "إلا"، نصبٌ على الاستثناء من "الشحوم". وبمثل ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن البقر والغنم حرماً على الذين هادوا شحومهما، سوى ما حملت ظهورهما، أو ما حملت حواياهما، فإننا أحلنا ذلك لهم، وإلا ما اختلط بعظم، فهو لهم أيضاً حلال. فردّ قوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، على قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورَهُمَا﴾ ف"ما" التي في قوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، في موضع نصب عطفاً على "ما" التي في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورَهُمَا﴾. وعنى بقوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، شحم الألية والجنب، وما أشبه ذلك كما جاء عن بن جريج والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فهذا الذي حرماً على الذين هادوا من الأنعام والطيور، ذوات الأظافر غير المنفرجة، ومن البقر والغنم، ما حرماً عليهم من شحومهما، الذي ذكرنا في هذه الآية، حرمانه عليهم عقوبة منّا لهم، وثواباً على أعمالهم السيئة، وبغيهم على ربهم، كما جاء عن قتادة وابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿وَذَرَوْا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ودعوا، أيها الناس، علانية الإثم، وذلك ظاهره وسره، وذلك باطنه. كما جاء عن قتادة واليبيع بن انس

ثم اختلف أهل التأويل في المعني بالظاهر من الإثم والباطن منه، في هذا الموضع.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره تقدم إلى خلقه بترك ظاهر الإثم وباطنه، وذلك سره وعلايته. و"الإثم" كل ما عصي الله به من محارمه، وقد يدخل في ذلك سرُّ الزنى وعلايته، ومعايرة أهل الرايات وأولات الأخدان منهن، ونكاح حلائل الآباء والأمهات والبنات، والطواف بالبيت عرياناً، وكل معصية لله ظهرت أو بطن. وإذ كان ذلك كذلك، وكان جميع ذلك "إثمًا"، وكان الله عمّ بقوله: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾، جميع ما ظهر من الإثم وجميع ما بطن لم يكن لأحد أن يخص من ذلك شيئاً دون شيء، إلا بحجة للعدر قاطعة.

غير أنه لو جاز أن يوجه ذلك إلى الخصوص بغير برهان، كان توجيهه إلى أنه عنى بظاهر الإثم وباطنه في هذا الموضع، ما حرم الله من المطاعم والمآكل من الميتة والدم، وما بين الله تحريمه في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ إلى آخر الآية، أولى، إذ كان ابتداء الآيات قبلها بذكر تحريم ذلك جرى، وهذه في سياقها. ولكنه غير مستنكر أن يكون عنى بها ذلك، وأدخل فيها الأمر باجتنب كل ما جانسه من معاصي الله، فخرج الأمر عامًا بالنهي عن كل ما ظهر أو بطن من الإثم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه، ويركبون معاصي الله ويأتون ما حرم الله ﴿سيجزون﴾، يقول: سيشيهم الله يوم القيامة بما كانوا في الدنيا يعملون من معاصيه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾، لا تأكلوا، أيها المؤمنون، مما مات فلم تذبحوه أنتم، أو يذبحه موحدٌ يدين الله بشرائع شرعها له في كتاب منزل، فإنه حرام عليكم ولا ما أهل به لغير الله مما ذبحه المشركون لأوثانهم، فإن أكل ذلك "فسق"، يعني: معصية كفر.

فكنى بقوله: "وإنه"، عن "الأكل"، وإنما ذكر الفعل، كما قال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، [ال عمران: ١٧٣] يراد به، فزاد قولهم ذلك إيماناً، فكنى عن "القول"، وإنما جرى ذكره بفعل.

﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾. اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾، قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا المؤمنين في تحريمهم أكل الميتة، بما ذكرنا من

جدالهم إياهم وجائز أن يكون الموحدون كانوا شياطين الإنس يوحون إلى أوليائهم منهم وجائز أن يكونوا شياطين الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس وجائز أن يكون الجنسان كلاهما تعاونوا على ذلك، كما أخبر الله عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، [الأنعام: ١١٢]. بل ذلك الأغلب من تأويله عندي، لأن الله أخبر نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس، كما جعل لأنبيائه من قبله، يوحى بعضهم إلى بعض المزيين من الأقوال الباطلة، ثم أعلمه أن أولئك الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومن تبعه من المؤمنين فيما حرم الله من الميتة عليهم. كما جاء عن ابن عباس والضحاك وغيرهما واختلف أهل التأويل في الذي عنى الله جل ثناؤه بنهيه عن أكله مما لم يذكر اسم الله عليه. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عنى بذلك ما ذُبح للأصنام والآلهة، وما مات أو ذبحه من لا تحل ذبيحته. وأما من قال: "عنى بذلك: ما ذبحه المسلم فنسي ذكر اسم الله"، فقول بعيد من الصواب، لشذوذه وخروجه عما عليه الحجة مجمعة من تحليله، وكفى بذلك شاهداً على فساده. وقد بينا فساده من جهة القياس في كتابنا المسمى: "لطيف القول في أحكام شرائع الدين"، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وأما قوله "وإنه لفسق"، فإنه يعني: وإنَّ أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من الميتة، وما أهل به لغير الله، لفسق. واختلف أهل التأويل في معنى: "الفسق"، في هذا الموضع فقال بعضهم: معناه: المعصية. فتأويل الكلام على هذا: وإنَّ أكل ما لم يذكر اسم الله عليه لمعصية لله وإثم. كما جاء عن ابن عباس وقال آخرون: معنى ذلك: الكفر.

وأما قوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾، فقد ذكرنا اختلاف لمختلفين في المعنى بقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون﴾، والصواب من القول فيه وأما إيحائهم إلى أوليائهم، فهو إشارتهم إلى ما أشاروا لهم إليه: إما بقول، وإما برسالة، وإما بكتاب. وقد بينا معنى: "الوحي" فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقد جاء عن أبي زُمَيْل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، فجاءه رجل من أصحابه، فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة! يعني المختار بن أبي عبيد فقال ابن عباس: صدق! فنفرت فقلت: يقول ابن عباس "صدق"! فقال ابن عباس: هما وحيان، وحي الله، ووحى الشيطان، فوحي الله إلى محمد، ووحى الشياطين إلى أوليائهم. ثم قرأ: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾. وأما الأولياء: فهم النصراء والظہراء، في هذا الموضع. ويعني بقوله: ﴿ليجادلوكم﴾، ليخاصموكم، بالمعنى الذي قد ذكرت قبل.

وأما قوله: ﴿وإن أظعنموهم إنكم لمشركون﴾، فإنه يعني: وإن أظعنموهم في أكل الميتة وما حرم عليكم ربكم؛ كما جاء عن ابن عباس

وأما قوله: ﴿إنكم لمشركون﴾، يعني: إنكم إذا مثلهم، إذ كان هؤلاء يأكلون الميتة استحلالاً. فإذا أظعنتموها كذلك، فقد صرتم مثلهم مشركين.

قال أبو جعفر: واختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن هذه الآية محكمة فيما أنزلت، لم ينسخ منها شيء، وأن طعام أهل الكتاب حلال، وذبائحهم ذكية. وذلك مما حرم الله على المؤمنين أكله بقوله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾، بمعزل. لأن الله إنما حرم علينا بهذه الآية الميتة، وما أكل به للطواغيت، وذبائح أهل الكتاب ذكية سموا عليها أو لم يسموا، لأنهم أهل توحيد وأصحاب كتب الله، يدينون بأحكامها، يذبحون الذبائح بأديانهم، كما يذبح المسلم بدينه، سمى الله على ذبيحته أو لم يسمه، إلا أن يكون ترك من ذكر تسمية الله على ذبيحته على الدينونة بالتعطيل، أو بعبادة شيء سوى الله، فيحرم حينئذ أكل ذبيحته، سمى الله عليها أو لم يسم.

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا الكلام من الله جل ثناؤه يدل على نبيه المؤمنين برسوله يومئذ عن طاعة بعض المشركين الذين جادلوه في أكل الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمره إياهم بطاعة مؤمن منهم كان كافراً، فهداه جل ثناؤه لرشده، ووقفه للإيمان. فقال لهم: أطاعة من كان ميثاً، يقول: من كان كافراً؟ فجعله جل ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة "الميت" الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة ﴿فأحييناه﴾، يقول: فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه في معاده. فجعل إبصاره الحق تعالى ذكره بعد عماء عنه، ومعرفته بوحدانيته وشرائع دينه بعد جهله بذلك، حياة وضياء يستضيء به فيمشي على قصد السبيل، ومنهج الطريق في الناس ﴿كمن مثله في الظلمات﴾، لا يدري كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ، لشدة ظلمة الليل وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشداً ولا يعرف حقاً، يعني في ظلمات الكفر. يقول: أظاعة هذا الذي هديناه للحق وبصّرناه الرشاد، كطاعة من مثله مثل من هو في الظلمات متردد، لا يعرف المخرج منها، في دعاء هذا إلى تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل، وتحليل هذا ما حرم الله، وتحريمه ما أحل؟

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في رجلين بأعيانها معروفين: أحدهما مؤمن، والآخر كافر.

ثم اختلف أهل التأويل فيهما. فقال بعضهم: أما الذي كان مَيِّتًا فأحياه الله، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأما الذي مثله في الظلمات ليس بخارج منها، فأبو جهل بن هشام. كما جاء عن الضحاك وقال آخرون: بل الميت الذي أحياه الله، عمار بن ياسر رحمة الله عليه. وأما الذي مثله في الظلمات ليس بخارج منها، فأبو جهل بن هشام. كما جاء عن عكرمة

القول في تأويل قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما خذلت هذا الكافر الذي يجادلکم أيها المؤمنون بالله ورسوله، في أكل ما حرّمت عليكم من المطاعم عن الحق، فزيت له سوء عمله فرآه حسنًا، ليستحق به ما أعددت له من أليم العقاب، كذلك زينت لغيره ممن كان على مثل ما هو عليه من الكفر بالله وآياته، ما كانوا يعملون من معاصي الله، ليستوجبوا بذلك من فعلهم، ما لهم عند ربهم من النكال.

قال أبو جعفر: وفي هذا أوضح البيان على تكذيب الله الزاعمين أن الله فوّض الأمور إلى خلقه في أعمالهم، فلا صنع له في أفعالهم، وأنه قد سوى بين جميعهم في الأسباب التي بها يصلون إلى الطاعة والمعصية. لأن ذلك لو كان كما قالوا، لكان قد زين لأنبيائه وأوليائه من الضلالة والكفر، نظير ما زين من ذلك لأعدائه وأهل الكفر به، وزين لأهل الكفر به من الإيمان به، نظير الذي زين منه لأنبيائه وأوليائه. وفي إخباره جل ثناؤه أنه زين لكل عامل منهم عمله، ما ينبي عن تزوين الكفر والفسوق والعصيان، وخص أعداءه وأهل الكفر، بتزوين الكفر لهم والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان به والطاعة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ جُرْمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكل قرية عظماء مجرميها يعني أهل الشرك بالله والمعصية له ﴿ليمكروا فيها﴾، بغرور من القول أو بباطل من الفعل، بدين الله وأنبيائه ﴿وما يَمْكُرُونَ﴾: أي ما يحق مكرهم ذلك، إلا بأنفسهم، لأن الله تعالى ذكره من وراء عقوبتهم على صدهم عن سبيله "وهم لا يشعرون"، يقول: لا يدرون ما قد أعد الله لهم من أليم عذابه، فهم في غيهم وعتوهم على الله يتمادون. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن عكرمة وقتادة ومجاهد وأما "المكر"، فإنه الخديعة والاحتيال للممكور به بالغدر، ليورطه الماكر به مكروهاً من الأمر.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين

يجادلون المؤمنين بزخرف القول فيما حرم الله عليهم، ليصدّوا عن سبيل الله ﴿آية﴾، يعني: حجة من الله على صحة ما جاءهم به محمد من عند الله وحقيقته قالوا لنبي الله وأصحابه: ﴿لن نؤمن﴾، يقول: يقولون: لن نصدق بما دعانا إليه محمد ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أنّ الله حرّمه علينا ﴿حتى نؤتي﴾، يعنون: حتى يعطيهم الله من المعجزات مثل الذي أعطى موسى من فلق البحر، وعيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص. يقول تعالى ذكره: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، يعني بذلك جل ثناؤه: أن آيات الأنبياء والرسول لن يُعطاهما من البشر إلا رسول مرسل، وليس العادلون بربهم الأوثان والأصنام منهم فيعطوها. يقول جل ثناؤه: فأنا أعلم بمواضع رسالاتي، ومن هو لها أهل، فليس لكم أيها المشركون أن تتخيروا ذلك عليّ أنتم، لأنّ تخيّر الرسول إلى المرسل دون المرسل إليه، والله أعلم إذا أرسل رسالة بموضع رسالته.



القول في تاويل قوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٦١) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ، معلّمه ما هو صانع بهؤلاء المتمردين عليه: "سيصيب"، يا محمد، الذين اكتسبوا الإثم بشركهم بالله وعبادتهم غيره ﴿صغار﴾، يعني: ذلة وهوان، وهو مصدر من قول القائل: "صَغَرَ يصغرُ صَغَارًا وَصَغَرًا"، وهو أشدّ الذلّ. كما جاء عن السدي في معنى كلمة صغار وأما قوله: ﴿صغار عند الله﴾، فإن معناه: سيصيبهم صغارٌ من عند الله وقوله: ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾، يقول: يصيب هؤلاء المكذبين بالله ورسوله، المستحلين ما حرّم الله عليهم من الميتة، مع الصغار عذابٌ شديد، بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله بالجدال بالباطل، والزخرف من القول، غرورًا لأهل دين الله وطاعته.

القول في تاويل قوله: ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال أبو جعفر: ويقول تعالى ذكره: فمن يرد الله أن يهديه للإيمان به وبرسوله وما جاء به من عند ربه، فيوفقه له ﴿يشرح صدره للإسلام﴾، يقول: فسح صدره لذلك وهوّنه عليه، وسهّله له، بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره بالقبول، كالذي جاء الأثر به عن رسول الله ﷺ، كما جاء عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر قال: سئل النبي ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا. قال: وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾، قالوا: كيف يشرح صدره، يا رسول الله؟ قال: نور يُقذف فيه، فينشرح له وينفسح. قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: "الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت." ﴿ضعيف﴾ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وابن جريج



القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى، يشغله بكفره وصدّه عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه، حرجًا. و"الحرج"، أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذه، من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخله نور الإيمان، لرَيْن الشرك عليه. وأصله من "الحرج"، و"الحرج" جمع "حَرْجَة"، وهي الشجرة الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيء لشدة التفافها بها، كما جاء عن أبي الصلت الثقفي: أن عمر بن الخطاب رحمة الله عليه قرأ هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بنصب الراء. قال: وقرأ بعض مَنْ عنده من أصحاب رسول الله ﷺ: "ضَيِّقًا حَرْجًا". قال صفوان: فقال عمر: ابغوني رجلا من كنانة واجعلوه راعيًا، وليكن مُدْلَجِيًّا. قال: فأتوه به. فقال له عمر: يا فتى، ما الحرجة؟ قال: "الحرجة" فينا، الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعيةٌ ولا وحشيةٌ ولا شيء. قال: فقال عمر: كذلك قلبُ المنافق لا يصل إليه شيء من الخير. واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. فقال: بعضهم معناه: شاكًا. وقال آخرون: معناه: ملتبسًا. وقال آخرون: معناه: أنه من شدة الضيق لا يصل إليه الإيمان. قال أبو جعفر: وفي هذه الآية أبينُ البيان لمن وُفِّق لفهمهما، عن أن السبب الذي به يُوصل إلى الإيمان والطاعة، غير السبب الذي به يُوصل إلى الكفر والمعصية، وأن كلا السببين من عند الله. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدرَ من أراد هدايته للإسلام، ويجعل صدرَ من أراد إضلاله ضيقًا عن الإسلام حَرَجًا كأنما يصعد في السماء. ومعلومٌ أن شرح الصدر للإيمان خلافُ تضيقه له، وأنه لو كان يوصل بتضيق الصدر عن الإيمان إليه، لم يكن بين تضيقه عنه وبين شرحه له فرق، ولكان من ضَيِّق صدره عن الإيمان، قد شُرح صدره له، ومن شرح صدره له، فقد ضَيِّق عنه، إذ كان مَوْصُولًا بكل واحد منهما أعني من التضيق والشرح إلى ما يُوصل به إلى الآخر. ولو كان ذلك كذلك، وجب أن يكون الله قد كان شرح صدرَ أبي جهل للإيمان به، وضَيِّق صدر رسول الله ﷺ عنه. وهذا القول من أعظم الكفر بالله. وفي فساد ذلك أن يكون كذلك، الدليلُ الواضح على أن السبب الذي به آمن المؤمنون بالله ورسله، وأطاعه المطيعون، غير السبب الذي كفر به الكافرون بالله وعصاه العاصون، وأن كلا السببين من عند الله وبيده، لأنه أخبر جل ثناؤه أنه هو الذي يشرح صدرَ هذا المؤمن به للإيمان إذا أراد هدايته، ويضيق صدر هذا الكافر عنه إذا أراد إضلاله.

القول في تأويل قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قال أبو جعفر: وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضيقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصُّعود إلى

السماء وعجزه عنه، لأن ذلك ليس في وسعه. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل. كما جاء عن بن جريج والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كأنما يصعد في السماء من ضيقه عن الإيمان فيجزيه بذلك، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيل الحق. وقد اختلف أهل التأويل في معنى "الرجس".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله ابن عباس، ومن قال إن "الرجس" و"النجس" واحد، للخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا دخل الخلاء: "اللهم إني أعوذ بك من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم".

القول في تأويل قوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهذا الذي بينا لك، يا محمد، في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك، يقول: طريق ربك، ودينه الذي ارتضاه لنفسه ديناً، وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه. فاثبت عليه، وحرّم ما حرّمته عليك، وأحل ما أحلته لك، فقد بينا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته "لقوم يذكرون"، يقول: لمن يتذكر ما احتجّ الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها. وخص بها "الذين يذكرون"، لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولو الحجي والفضل وقيل: "يذكرون".... وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "لهم"، للقوم الذين يذكرون آيات الله فيعتبرون بها، ويوقنون بدلائلها على ما دلت عليه من توحيد الله ومن نبوة نبيه محمد ﷺ وغير ذلك، فيصدقون بما وصلوا بها إلى علمه من ذلك. وأما "دار السلام"، فهي دار الله التي أعدّها لأولياته في الآخرة، جزاء لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته. و"السلام"، اسم من أسماء الله تعالى، كما قال السدي.

وأما قوله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾، فإنه يقول: والله ناصر هؤلاء القوم الذين يذكرون آيات الله ﴿بما كانوا يعملون﴾، يعني: جزاء بما كانوا يعملون من طاعة الله، ويتبعون رضوانه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾، ويوم يحشر هؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام وغيرهم من المشركين، مع أوليائهم من الشياطين الذين كانوا يؤحون إليهم

زخرف القول غرورًا ليجادلوا به المؤمنين، فيجمعهم جميعًا في موقف القيامة يقول للجن: ﴿يَا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾، وحذف "يقول للجن" من الكلام، اكتفاءً بدلالة ما ظهر من الكلام عليه منه. وعنى بقوله: ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾، استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، كما جاء عن ابن عباس وقتادة ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فيجيب أولياء الجن من الإنس فيقولون: "ربنا استمتع بعضنا ببعض" في الدنيا. فأما استمتاع الإنس بالجن، فكان كما جاء عن ابن جريج قوله: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾، قال: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: "أعوذ بكبير هذا الوادي"، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس، فإنه كان، فيما ذكر، ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إيّاهم في استعاذتهم بهم، فيقولون: "قد سدنا الجن والجن"

القول في تأويل قوله: ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قالوا: بلغنا الوقت الذي وقّت لموتنا. وإنما يعني جل ثناؤه بذلك: أنهم قالوا: استمتع بعضنا ببعض أيام حياتنا إلى حال موتنا كما جاء عن السدي

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عما هو قائل لهؤلاء الذين يحشرهم يوم القيامة من العادلين به في الدنيا الأوثان، ولقُرْنائهم من الجن، فأخرج الخبر عما هو كائن، مُخْرَج الخبر عما كان، لتقدّم الكلام قبله بمعناه والمراد منه، فقال: قال الله لأولياء الجن من الإنس الذين قد تقدّم خبره عنهم: ﴿النار مَثْوَاكُمْ﴾، يعني نار جهنم "مَثْوَاكُمْ"، الذي تتوون فيه، أي تقيمون فيه. و"المثوى" هو "المَفْعَل" من قولهم: "ثَوَى فلان بمكان كذا"، إذا أقام فيه.

﴿خالدين فيها﴾، يقول: لا بشئ فيها ﴿إلا ما شاء الله﴾، يعني إلا ما شاء الله من قَدَر مُدَّة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلک المدة التي استثناه الله من خلودهم في النار ﴿إن ربك حكيم﴾، في تدبيره في خلقه، وفي تصريفه إيّاهم في مشيئته من حال إلى حال، وغير ذلك من أفعاله ﴿عليم﴾، بعواقب تدبيره إيّاهم، وما إليه صائرة أمرهم من خير وشر.

وروي عن ابن عباس أنه كان يتأول في هذا الاستثناء: أن الله جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عَذَابِهِ إيّاهم إلى مشيئته.

عن ابن عباس: ﴿قال النار مَثْوَاكُمْ خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾، قال: إن هذه الآية: آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، أن لا ينزلهم جنة ولا نارًا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ﴿نُؤَلِّي﴾.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: وكذلك نجعل بعض الظالمين لبعض أولياء. لأن الله ذكر قبل هذه الآية ما كان من قول المشركين، فقال جل ثناؤه: ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾، وأخبر جل ثناؤه: أن بعضهم أولياء بعض، ثم عقب خبره ذلك بخبره عن أن ولاية بعضهم بعضاً بتوليته إياهم، فقال: وكما جعلنا بعض هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياء بعض يستمتع بعضهم ببعض، كذلك نجعل بعضهم أولياء بعض في كل الأمور "بما كانوا يكسبون"، من معاصي الله ويعملونه.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما هو قائل يوم القيامة لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذكره يومئذ: ﴿يا معشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾، يقول: يخبرونكم بما أوحى إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلتي على توحيدي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمري، والانتهاء إلى حدودي ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾، يقول: يحذرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتكم إياي، فتنتهوا عن معاصي.

وهذا من الله جل ثناؤه تقريع وتوبيخ لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة، وينذرونكم وعيد الله على مقامكم على ما كنتم عليه مقيمين، فلم تقبلوا ذلك، ولم تذكروا ولم تعتبروا. واختلف أهل التأويل في "الجن"، هل أرسل منهم إليهم، أم لا؟ فقال بعضهم: قد أرسل إليهم رسل، كما أرسل إلى الإنس منهم رسل.

سئل الضحاك عن الجن، هل كان فيهم نبي قبل أن يُبعث النبي ﷺ؟ فقال: أَلَمْ تسمع إلى قول الله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾، يعني بذلك: رسلا من الإنس ورسلا من الجن؟ فقالوا: بلى! وقال آخرون: لم يرسل منهم إليهم رسول، ولم يكن له من الجن قط رسول مرسل، وإنما الرسل من الإنس خاصة، فأما من الجن فالتنذر. قالوا: وإنما قال الله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رسل منكم﴾، والرسل من أحد الفريقين، كما قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، [الرحمن: ١٩]، ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾، [الرحمن: ٢٢]،

وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح دون العذب منهما، وإنما معنى ذلك: يخرج من

بعضهما، أو من أحدهما. قال: وذلك كقول القائل لجماعة أدؤُر: "إن في هذه الدُّور لشرًّا"، وإن كان الشر في واحدة منهن، فيخرج الخبر عن جميعهن، والمراد به الخبر عن بعضهن، وكما يقال: "أكلت خبزًا ولبنًا"، إذا اختلطا، ولو قيل: "أكلت لبنًا"، كان الكلام خطأ، لأن اللبن يشرب ولا يؤكل. كما قال ابن عباس: هم الجن لقوا قومهم، وهم رسل إلى قومهم.

فعلى قول ابن عباس هذا، أن من الجن رسلا للإنس إلى قومهم فتأويل الآية على هذا التأويل الذي تأوله ابن عباس: ألم يأتكم، أيها الجن والإنس، رسل منكم، فأما رسل الإنس فرسل من الله إليهم، وأما رسل الجن فرسل رُسل الله من بني آدم، وهم الذين إذا سمعوا القرآن ولَّوْا إلى قومهم منذرين. وأما الذين قالوا بقول الضحاك، فإنهم قالوا: إن الله تعالى ذكره أخبر أن من الجن رسلا أرسلوا إليهم، كما أخبر أن من الإنس رسلا أرسلوا إليهم. قالوا: ولو جاز أن يكون خبره عن رسل الجن بمعنى أنهم رسل الإنس، جاز أن يكون خبره عن رسل الإنس بمعنى أنهم رُسل الجن. قالوا: وفي فساد هذا المعنى ما يدل على أن الخبرين جميعًا بمعنى الخبر عنهم أنهم رُسل الله، لأن ذلك هو المعروف في الخطاب دون غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۝﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريره إياهم بقوله لهم: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾، أنهم يقولونه ﴿شهدنا على أنفسنا﴾، بأن رسلك قد أتتنا بآياتك، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا، فكذبناها ووجدنا رسالتها، ولم تتبع آياتك ولم نؤمن بها. قال الله خبراً مبتدأ: وَغَرَّتْ هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِاللَّهِ الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ، وأولياءهم من الجن ﴿الحياة الدنيا﴾، يعني: زينة الحياة الدنيا، وطلب الرئاسة فيها والمنافسة عليها، أن يسلموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قوماً عاقلين. فاكتمى بذكر "الحياة الدنيا" من ذكر المعاني التي غرَّتْهم وخدعتهم فيها، إذ كان في ذكرها مكتمى عن ذكر غيرها، لدلالة الكلام على ما ترك ذكره يقول الله تعالى ذكره: ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾، يعني: هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ به يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرسله، لتتم حجة الله عليهم بإقرارهم على أنفسهم بما يوجب عليهم عقوبته وأليم عذابه.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۝﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، أي: إنما أرسلنا الرسل، يا محمد، إلى من وصفت أمره، وأعلمت خبره من مشركي الإنس والجن، يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم إليّ، من أجل أن ربك لم يكن مهلك القرى بظلم.

وقد يتجه من التأويل في قوله: "بظلم"، وجهان:

أحدهما: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، أي: بشرك مَنْ أشرك، وكفر مَنْ كفر من أهلها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، [لقمان: ١٣] ﴿وأهلها غافلون﴾، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلاً تنبههم على حجج الله عليهم، وتذرهم عذاب الله يوم معادهم إليه، ولم يكن بالذي يأخذهم غفلة فيقولوا: "ما جاءنا من بشير ولا نذير".

والآخر: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، يقول: لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب عندي، القول الأول: أن يكون معناه: أن لم يكن ليهلكهم بشرهم، دون إرسال الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم. وذلك أن قوله: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، عقيب قوله: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يقضون عليكم آياتي﴾، فكان في ذلك الدليل الواضح على أن نصّ قوله: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾، إنما هو: إنما فعلنا ذلك من أجل أننا لا نهلك القرى بغير تذكير وتنبيه.

وأما قوله: ﴿ذلك﴾، فإنه يجوز أن يكون نصباً، بمعنى: فعلنا ذلك ويجوز أن يكون رفعاً، بمعنى الابتداء، كأنه قال: ذلك كذلك. وأما "أن"، فإنها في موضع نصب، بمعنى: فعلنا ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى فإذا حذف ما كان يخفضها، تعلق بها الفعل فنصب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾، يقول جل ثناؤه: وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: "وربك"، يا محمد، الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية "الغني"، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم. يقول عز ذكره: فلم أخلقهم، يا محمد، ولم أمرهم بما أمرتهم به، وأنهم عما نهيتهم عنه، لحاجة لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضل عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فإني ذو الرأفة والرحمة.

وأما قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾، فإنه يقول: إن يشأ ربك، يا

محمد، الذي خلق خلقه لغير حاجة منه إليهم وإلى طاعتهم إياه ﴿يذهبكم﴾، يقول: يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾، يقول: ويأت بخلق غيركم وأمم سواكم، يخلفونكم في الأرض "من بعدكم"، يعني: من بعد فنائكم وهلاككم ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم.

ومعنى "من" في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: "أعطيتك من دينارك ثوبًا"، بمعنى: مكان الدينار ثوبًا، لا أن الثوب من الدينار بعض، كذلك الذين خوطبوا بقوله: ﴿كما أنشأكم﴾، لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين، ولكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنهم أنشئوا مكان خلق خلف قوم آخرين قد هلكوا قبلهم. و"الذرية" "الفعلية"، من قول القائل: "ذرا الله الخلق"، بمعنى خلقهم، "فهو يذرؤهم"، ثم ترك الهمزة فقليل: "ذرا الله"، ثم أخرج "الفعلية" بغير همز، على مثال "العبيبة". وقد بينا اشتقاق ذلك فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته ههنا. وأصل "الإنشاء"، الإحداث. يقال: "قد أنشأ فلان يحدث القوم"، بمعنى ابتدأ وأخذ فيه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمشركين به: أيها العادلون بالله الأوثان والأصنام، إن الذي يوعدكم به ربكم من عقابه على إصراركم على كفركم، واقع بكم ﴿وما أنتم بمعجزين﴾، يقول: لن تعجزوا ربكم هربًا منه في الأرض فتفتوتوه، لأنكم حيث كنتم في قبضته، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إياه قادر. يقول: فاحذروه وأنبيوا إلى طاعته، قبل نزول البلاء بكم.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لقومك من قريش الذين يجعلون مع الله إلها آخر: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾، يقول: اعملوا على حيالكم وناحيتكم. كما جاء عن ابن عباس يقال منه: "هو يعمل على مكانته، ومكيته" ﴿إني عامل﴾، يقول جل ثناؤه، لنبية: قل لهم: اعملوا ما أنتم عاملون، فإني عامل ما أنا عامله مما أمرني به ربي ﴿فسوف تعلمون﴾، يقول: فسوف تعلمون عند نزول نقمة الله بكم، أيًا كان المحق في عمله، والمصيب سبيل الرشاد، أنا أم أنتم. وقوله تعالى ذكره لنبية: قل لقومك: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾، أمر منه له بوعيدهم وتهديهم، لا إطلاق لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله.

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾، فسوف تعلمون، أيها الكفرة بالله، عند معايتكم العذاب، من الذي تكون له عاقبة الدار منا ومنكم. يقول: من الذي تعقبه دنياه ما هو

خير له منها أو شرمها، بما قدّم فيها من صالح أعماله أو سيئها. ثم ابتداء الخبر جل ثناؤه فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾، يقول: إنه لا ينجح ولا يفوز بحاجته عند الله مَنْ عمل بخلاف ما أمره الله به من العمل في الدنيا وذلك معنى: "ظلم الظالم"، في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وجعل هؤلاء العادلون برهم الأوثان والأصنام لربهم ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ خالقهم، يعني: مما خلق من الحرث والأنعام. يقال منه: "ذَرَأَ الله الخلق يذرؤهم ذَرَاءً، وَذَرَوْا"، إذا خلَقهم. "نصيبًا"، يعني قسمًا وجزءًا. ثم اختلف أهل التأويل في صفة النصيب الذي جعلوا لله، والذي جعلوه لشركائهم من الأوثان والشيطان.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالآية ما قال ابن عباس ومن قال بمثل قوله في ذلك، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنهم جعلوا لله من حرثهم وأنعامهم قسمًا مقدراً، فقالوا: "هذا لله" وجعلوا مثله لشركائهم، وهم أوثانهم، بإجماع من أهل التأويل عليه، فقالوا: "هذا لشركائنا" وإن نصيب شركائهم لا يصل منه إلى الله، بمعنى: لا يصل إلى نصيب الله، وما كان لله وصل إلى نصيب شركائهم. فلو كان وصول ذلك بالتسمية وترك التسمية، كان أعيان ما أخبر الله عنه أنه لم يصل، جائزاً أن تكون قد وصلت، وما أخبر عنه أنه قد وصل، لم يصل. وذلك خلاف ما دلّ عليه ظاهر الكلام، لأن الذبيحتين تُذبح إحداهما لله، والأخرى للالهة، جائز أن تكون لحومهما قد اختلطت، وخطوطها إذ كان المكروه عندهم تسمية الله على ما كان مذبوحةً للالهة، دون اختلاط الأعيان واتصال بعضها ببعض.

وأما قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن فعل هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم. يقول جل ثناؤه: وقد أساءوا في حكمهم، إذ أخذوا من نصيب لشركائهم، ولم يعطوني من نصيب شركائهم. وإنما عنى بذلك تعالى ذكره الخبر عن جهلهم وضلالتهم، وذهابهم عن سبيل الحق، بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم، وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى، ما لا يضرهم ولا ينفعهم، حتى فضّلوه في أقسامهم عند أنفسهم بالقسم عليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكما زين شركاء هؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام لهم ما زينوا لهم، من تصييرهم لربهم من أموالهم قسماً بزعمهم، وتركهم ما وصل من القسم الذي جعلوه لله إلى قسم شركائهم في قسمهم، وردّهم ما وصل من القسم الذي جعلوه

لشركائهم إلى قسم نصيب الله، إلى قسم شركائهم ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾، من الشياطين، فحسنوا لهم وأد البنات ﴿لِيرُدَّوَهُمْ﴾، يقول: ليهلكوهم ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، فعلوا ذلك بهم، ليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا، بفعلهم ما حرم الله عليهم ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأن كان يهديهم للحق، ويوفقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم. يقول الله لنبيه، متوعداً لهم على عظيم فريتهم على ربهم فيما كانوا يقولون في الأنبياء التي يقسمونها: "هذا لله وهذا لشركائنا"، وفي قتلهم أولادهم "ذرهم"، يا محمد، "وما يفترون"، وما يتقولون عليّ من الكذب والزور، فإني لهم بالمرصاد، ومن ورائهم العذاب والعقاب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء الجهلة من المشركين أنهم كانوا يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم، من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك.

يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء العادلون بربهم من المشركين، جهلا منهم، لأنعام لهم وحرث: هذه أنعامٌ وهذا حرث حجر يعني بـ"الأنعام" و"الحرث" ما كانوا جعلوه لله ولآلهتهم، التي قد مضى ذكرها في الآية قبل هذه. وقيل: إن "الأنعام"، السائبة والوصيلة والبحيرة التي سموا. و"الحجر" في كلام العرب، الحرام. يقال: "حجرت على فلان كذا"، أي حرمت عليه، ومنه قول الله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾، [الفرقان: ٢٢]،

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وحرّم هؤلاء الجهلة من المشركين ظهور بعض أنعامهم، فلا يركبون ظهورها، وهم يتنفعون برسلها ونتائجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب. وحرّموا من أنعامهم أنعاماً آخر، فلا يحجون عليها، ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحال، ولا إن حلبوها، ولا إن حملوا عليها.

وبما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن أبي وائل ومجاهد والسدي

وأما قوله: ﴿افتراء على الله﴾، فإنه يقول: فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرّموا، وقالوا ما قالوا من ذلك، كذباً على الله، وتخريصاً الباطل عليه؛ لأنهم أضافوا ما كانوا يحرمون من ذلك، على ما وصفه عنهم جل ثناؤه في كتابه، إلى أن الله هو الذي حرّمه، فنفى الله ذلك عن نفسه، وأكذبهم، وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذبة فيما يدعون.

ثم قال عز ذكره: ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾، يقول: سيثيبهم ربهم بما كانوا يفترون على الله الكذب ثوابهم، ويجزيهم بذلك جزاءهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿ما في بطون هذه الأنعام﴾. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الكفرة أنهم قالوا في أنعام بأعيانها: "ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا دون إناثنا"، واللبن ما في بطونها، وكذلك أجتتها. ولم يخص الله بالخبر عنهم أنهم قالوا: بعض ذلك حرام عليهم دون بعض. وإذا كان ذلك كذلك، فالواجب أن يقال إنهم قالوا: ما في بطون تلك الأنعام من لبن وجنين حل لذكورهم خالصة دون إناثهم، وإنهم كانوا يؤثرون بذلك رجالهم، إلا أن يكون الذي في بطونها من الأجنة ميتاً، فيشترك حيثذ في أكله الرجال والنساء.

واختلف أهل العربية في المعنى الذي من أجله أثنت "الخالصة". قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: أريد بذلك المبالغة في خلوص ما في بطون الأنعام التي كانوا حرموا ما في بطونها على أزواجهم، لذكورهم دون إناثهم، أما قوله: ﴿ومحرم على أزواجنا﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بـ"الأزواج". قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا يقولون لما في بطون هذه الأنعام يعني أنعامهم: "هذا محرم على أزواجنا"، و"الأزواج"، إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لا شك بنات من هن أولاده، وحلائل من هن أزواجه. وفي قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ومحرم على أزواجنا﴾، الدليل الواضح على أن تأنيث "الخالصة"، كان لما وصفت من المبالغة في وصف ما في بطون الأنعام بالخلوصة للذكور، لأنه لو كان لتأنيث الأنعام لقليل: و"محرم على أزواجنا"، ولكن لما كان التأنيث في "الخالصة" لما ذكرت، ثم لم يقصد في "المحرم" ما قصد في "الخالصة" من المبالغة، رجع فيها إلى تذكير "ما"، واستعمال ما هو أولى به من صفته.

وقوله: ﴿فهم فيه شركاء﴾، فإنه يعني أن الرجال وأزواجهم شركاء في أكله، لا يحرمونه على أحد منهم، كما ذكرنا عن ذكرنا ذلك عنه قبل من أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: "سيجزي"، أي: سيثيب ويكافئ هؤلاء المفترين عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرمه الله، وتحليلهم ما لم يحلل الله، وإضافتهم كذبهم في ذلك إلى الله وقوله: ﴿وصفهم﴾، يعني بـ"وصفهم"، الكذب على الله، وذلك كما قال جل ثناؤه في موضع آخر من كتابه: ﴿وَوَصَّفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾، [النحل: ٦٢]. و"الوصف" و"الصفة" في كلام العرب واحد، وهما

مصدران مثل "الوزن" و"الزنة". وبنحو الذي قلنا في معنى "الوصف" قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابي العالية وغيرهم وأما قوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: إن الله في مجازاتهم على وصفهم الكذب وقيلهم الباطل عليه "حكيم"، في سائر تدبيره في خلقه "عليم"، بما يصلحهم، وبغير ذلك من أمورهم.

القول في تأويل قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قد هلك هؤلاء المفترئون على ربهم الكذب، العادلون به الأوثان والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم، وتحريم [ما أنعمت به] عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعة لها أولادهم، وحرّموا ما أحل الله لهم وجعله لهم رزقاً من أنعامهم "سفها"، منهم. يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلك جهالة منهم بما لهم وعليهم، ونقص عقول، وضعف أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضرّه وأجل مكروهه، من عظيم عقاب الله عليه لهم ﴿افتراء على الله﴾، يقول: تكذباً على الله وتخرفاً عليه الباطل ﴿قد ضلوا﴾، يقول: قد تركوا محجة الحق في فعلهم ذلك، وزالوا عن سواء السبيل ﴿وما كانوا مهتدين﴾، يقول: ولم يكن فاعلو ذلك على هدى واستقامة في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدين للصواب فيها، ولا موفقين له. ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خبرهم في هذه الآيات من قوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الذين كانوا يبحرون البحائر، ويسبيون السوائب، ويثدون البنات، كما قال عكرمة، قوله: ﴿الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾، قال: نزلت فيمن يثد البنات من ربيعة ومضر، كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتثد أخرى. فإذا كانت الجارية التي تثد، غدا الرجل أو راح من عند امرأته، وقال لها: "أنت علي كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تثديها"، فتخذ لها في الأرض خدّاً، وترسل إلى نساها فيجتمعن عندها، ثم يتداولنها، حتى إذا أبصرته راجعاً دستها في حفرتها، ثم سوت عليها التراب. وكان أبو رزين يتأول قوله: ﴿قد ضلوا﴾، أنه معني به: قد ضلوا قبل هؤلاء الأفعال من قتل الأولاد، وتحريم الرزق الذي رزقهم الله بأمور غير ذلك.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره ما أنعم به عليهم من فضله، وتنبية منه لهم على موضع إحسانه، وتعريف منه لهم ما أحلّ وحرّم وقسم في أموالهم من الحقوق لمن قسم له فيها حقاً.

يقول تعالى ذكره: وربكم، أيها الناس ﴿أنشأ﴾، أي أحدث وابتدع خلقاً، لا الآلهة والأصنام ﴿جنان﴾، يعني: بساتين ﴿معروشات﴾، وهي ما عرش الناس من الكروم ﴿وغير معروشات﴾، غير مرفوعات مبنيات، لا يبنته الناس ولا يرفعونه، ولكن الله يرفعه وينبته وينميّه، كما جاء عن ابن

عباس والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وأنشأ النخل والزروع مختلفا أكله يعني بـ"الأكل"، الثمر. يقول: وخلق النخل والزروع مختلفًا ما يخرج منه مما يؤكل من الثمر والحب "والزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه"، في الطعم، منه الحلو، والحامض، والمز، كما جاء عن ابن جريج قوله: ﴿متشابهًا وغير متشابه﴾، قال: "متشابهًا"، في المنظر "وغير متشابه"، في الطعم. وأما قوله: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾، فإنه يقول: كلوا من رطبه ما كان رطبًا ثمره كما جاء عن محمد بن كعب وغيره

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: كان ذلك فرضًا فرضه الله على المؤمنين في طعامهم وثمارهم التي تُخرجها زروعهم وغرؤوسهم، ثم نسخ الله بالصدقة المفروضة، والوظيفة المعلومة من العشر ونصف العشر. وذلك أن الجميع مجمعون لا خلاف بينهم: أن صدقة الحرث لا تؤخذ إلا بعد الدياس والتنقية والتذرية، وأن صدقة التمر لا تؤخذ إلا بعد الإجازة. فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، ينبئ عن أنه أمر من الله جل ثناؤه بإيتاء حقه يوم حصاده، وكان يوم حصاده هو يوم جدّه وقطعه، والحبُّ لا شك أنه في ذلك اليوم في سنبله، والتمر وإن كان ثمر نخل أو كرم غير مستحكم جفوفه وبيسه، وكانت الصدقة من الحبِّ إنما تؤخذ بعد دياسه وتذريته وتنقيته كيلا والتمر إنما تؤخذ صدقته بعد استحكام بيسه وجفوفه كيلا علم أن ما يؤخذ صدقة بعد حين حصده، غير الذي يجب إيتاؤه المساكين يوم حصاده. كما جاء عن ابن عباس وسعيد وغيرهما

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "الإسراف"، الذي نهى الله عنه بهذه الآية، ومن المنهي عنه.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾، عن جميع معاني "الإسراف"، ولم يخصص منها معنى دون معنى.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان "الإسراف" في كلام العرب: الإخطاء بإصابة الحق في العطية، إما بتجاوز حدّه في الزيادة، وإما بتقصير عن حدّه الواجب كان معلومًا أن المفرّق ماله مبارأة، والباذلُ للناس حتى أجحفت به عطيته، مسرفٌ بتجاوزه حدّ الله إلى ما [ليس له]. وكذلك المقصّر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهل سُهْمَانِ الصدقة إذا وجبت فيه، أو منعه من ألزمه الله نفقته من أهله وعياله ما ألزمه منها. وكذلك السلطان في أخذه

من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه. كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون، داخلون في معنى مَنْ أتى ما نهى الله عنه من الإسراف بقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾، في عطيتكم من أموالكم ما يجحف بكم إذ كان ما قبله من الكلام أمراً من الله بإيتاء الواجب فيه أهله يوم حصاده. فإن الآية قد كانت تنزل على رسول الله ﷺ بسبب خاص من الأمور، والحكم بها على العام، بل عامة آي القرآن كذلك. فكذلك قوله: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، مع ما أنشأ من الجنات المعروشات وغير المعروشات. و"الحمولة"، ما حمل عليه من الإبل وغيرها. و"الفرش"، صغار الإبل التي لم تدرك أن يُحمَل عليها.

القول في تاويل قوله: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: كلوا مما رزقكم الله، أيها المؤمنون، فأحل لكم ثمرات حروثكم وغرسكم، ولحوم أنعامكم، إذ حرم بعض ذلك على أنفسهم المشركون بالله، فجعلوا لله ما ذراً من الحرث والأنعام نصيباً وللشيطان مثله، فقالوا: "هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا" ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾، كما اتبعها باحرو البحيرة، ومسيو السوائب، فحرموا على أنفسهم من طيب رزق الله الذي رزقكم ما حرموه، فطيعوا بذلك الشيطان، وتعصوا به الرحمن كما جاء عن زيد إن الشيطان لكم عدو يبغي هلاككم وصدكم عن سبيل ربكم ﴿مبين﴾، قد أبان لكم عدواته، بمناصبته أباكم بالعداوة، حتى أخرجه من الجنة بكيدته، وخدعه حسداً منه له، وبغيّاً عليه.

القول في تاويل قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقرير من الله جل ثناؤه للعادلين به الأوثان من عبدة الأصنام، الذين بحروا البحائر، وسيو السوائب، ووصلوا الوسائل وتعليم منه نبيه ﷺ والمؤمنين به، الحجة عليهم في تحريمهم ما حرموا من ذلك. فقال للمؤمنين به وبرسوله: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، ومن الأنعام أنشأ حمولة وفرشاً. ثم بين جل ثناؤه "الحمولة" و"الفرش"، فقال: ﴿ثمانية أزواج﴾. وإنما نصب "الثمانية"، لأنها ترجمة عن "الحمولة" و"الفرش"، وبدل منها. كأن معنى الكلام: ومن الأنعام أنشأ ثمانية أزواج فلما قدّم قبل "الثمانية" "الحمولة" و"الفرش" بين ذلك بعد فقال: ﴿ثمانية أزواج﴾، على ذلك المعنى.

﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾، فذلك أربعة، لأن كل واحد من الاثنين من الضأن

زوج، فالأنثى منه زوج الذكر، والذكر منه زوج الأنثى، وكذلك ذلك من المعز ومن سائر الحيوان. فلذلك قال جل ثناؤه: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، كما قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، [الذاريات: ٤٩]، لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر، فهما وإن كانا اثنين فيهما زوجان، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، [الأعراف: ١٨٩]، وكما قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، [الأحزاب: ٣٧] كما جاء عن الضحاك: ﴿من الضأن اثنين﴾، ذكر وأنثى، ﴿ومن البقر اثنين﴾، ذكر وأنثى ﴿ومن الإبل اثنين﴾، ذكر وأنثى. ويقال للثنتين: "هما زوج"، ثم قال لهم: كلوا مما رزقكم الله من هذه الثمار واللحوم، واركبوا هذه الحمولة، أيها المؤمنون، فلا تتبعوا خطوات الشيطان في تحريم ما حرم هؤلاء الجهلة بغير أمري إياهم بذلك.

قل، يا محمد، لهؤلاء الذين حرّموا ما حرّموا من الحرث والأنعام اتباعاً للشيطان، من عبدة الأوثان والأصنام الذين زعموا أن الله حرم عليهم ما هم محرمون من ذلك: أذكركم حرم ربكم، أيها الكذبة على الله، من الضأن والمعز؟ فإنهم إن ادعوا ذلك وأقروا به، كذبوا أنفسهم وأبأنوا جهلهم. لأنهم إذا قالوا: "يحرم الذكركين من ذلك"، أوجبوا تحريم كل ذكركين من ولد الضأن والمعز، وهم يستمتعون بلحوم الذكران منها وظهرها. وفي ذلك فساد دعواهم وتكذيب قولهم ﴿أمّ الأنثيين﴾، فإنهم إن قالوا: "حرم ربنا الأنثيين"، أوجبوا تحريم لحوم كل أنثى من ولد الضأن والمعز على أنفسهم وظهرها. وفي ذلك أيضاً تكذيب لهم، ودحض دعواهم أنّ ربهم حرم ذلك عليهم، إذ كانوا يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهره ﴿أمّ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾، يقول: أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني أرحام أنثى الضأن وأنثى المعز، فلذلك قال: "أرحام الأنثيين"، وفي ذلك أيضاً لو أقروا به فقالوا: "حرم علينا ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين"، بطول قولهم وبيان كذبهم، لأنهم كانوا يقرّون بإقرارهم بذلك أنّ الله حرّم عليهم ذكور الضأن والمعز وإنائها، أن يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها، وقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإنائها. و"ما" التي في قوله: ﴿أمّ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾، نصب عطفاً بها على "الأنثيين".

﴿نبئوني بعلم﴾، يقول: قل لهم: خبروني بعلم ذلك على صحته: أيّ ذلك حرم ربكم عليكم، وكيف حرم؟ ﴿إن كنتم صادقين﴾، فيما تنحلونه ربكم من دعواكم، وتضيفونه إليه من تحريمكم. وإنما هذا إعلامٌ من الله جل ثناؤه نبيه أنّ كل ما قاله هؤلاء المشركون في ذلك وأضافوه إلى الله، فهو كذب على الله، وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك، وأنهم إنما اتبعوا في ذلك خطوات الشيطان، وخالفوا أمره. وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة ومجاهد والسدي و"الضأن" جمع لا واحد له من لفظه، وقد

يجمع "الضأن"، "الضئين والضئين"، مثل "الشعير" و "الشعير"، كما يجمع "العبد" على "عبيد، وعبيد". وأما الواحد من ذكوره فـ "ضائن"، والأنثى "ضائنة"، وجمع "الضائنة" "ضوائن". وكذلك "المعز"، جمع على غير واحد، وكذلك "المعزى"، وأما "الماعز"، فجمعه "مواعر".

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنْثَيَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: وتأويل قوله: ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾، نحو تأويل قوله: ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾، وهذه أربعة أزواج، على نحو ما بينا من الأزواج الأربعة قبل من الضأن والمعز، فذلك ثمانية أزواج، كما وصف جل ثناؤه.

وأما قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فإنه أمر من الله جل ثناؤه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين قص قصصهم في هذه الآيات التي مضت. يقول له عز ذكره: قل لهم، يا محمد، أي هذه سألتكم عن تحريمه حرم ربكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أخيراً قلت: "إن الله حرم هذا عليكم"، أخبركم به رسول عن ربكم، أم شهدتم ربكم فرأيتموه فوصاكم بهذا الذي تقولون وتزورون على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من إخباركم عن الله أنه حرام بما تزعمون على ما تزعمون،

لا يعلم إلا بوحى من عنده مع رسول يرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فبأي هذين الوجهين علمتم أن الله حرم ذلك كذلك، برسول أرسله إليكم، فأنبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكم فأوصاكم بذلك، وقال لكم: "حرم ذلك عليكم"، فسمعتم تحريمه منه، وعهدته إليكم بذلك؟ فإنه لم يكن واحداً من هذين الأمرين. يقول جل ثناؤه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، يقول: فمن أشد ظمناً لنفسه، وأبعد عن الحق ممن تخرّص على الله قيل الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، وتحليل ما لم يحلل ﴿ليضل الناس بغير علم﴾، يقول: ليصدّهم عن سبيله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾، يقول: لا يوفق الله للرشد من افتري على الله وقال عليه الزور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرم، وكفراً بالله، وجحوداً لنبوة نبيه محمد ﷺ، كما جاء عن بن زيد والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء الذين جعلوا الله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً،

ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله والقائلين هذه أنعام وحرث حبر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم والمحرمين من أنعام آخر ظهورها والتاركين ذكر اسم الله على آخر منها والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم، ومحليهم لذكورهم، المحرمين ما رزقهم الله افتراءً على الله، وإضافةً منهم ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذي حرّمه عليهم: أجازكم من الله رسولٌ بتحريمه ذلك عليكم، فأنبئونا به، أم وصّاكم الله بتحريمه مشاهدةً منكم له، فسمعتهم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه؟ فإنكم كذبة إن ادعيتهم ذلك، ولا يمكنكم دعواه، لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم فيني لا أجد فيما أوحى إليّ من كتابه وآي تنزيله، شيئاً محرّماً على أكل يأكله مما تذكرون أنه حرّمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريم ما حرّم عليكم منها بزعمكم "إلا أن يكون ميتة"، قد ماتت بغير تذكية "أو دمًا مسفوحًا"، وهو المُنْصَبُّ أو "إلا أن يكون لحم خنزير" فإنه رجس أو فسقًا، يقول: أو "إلا أن يكون فسقًا، يعني بذلك: أو "إلا أن يكون مذبحًا ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته، فذكر عليه اسم وثنه، فإن ذلك الذبح فسقٌ نهى الله عنه وحرّمه، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك، لأنه ميتة. وهذا إعلام من الله جل ثناؤه للمشرّكين الذين جادلوا نبيّ الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرّمه الله، وأن الذي زعموا أن الله حرّمه حلالٌ قد أحلّه الله، وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن بن طائوس ومجاهد

وأما قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾، فإن معناه: أو دمًا مُسَالًا مُهَرَقًا. يقال منه: "سفحت دمه"، إذا أرقته، أسفحه سفحًا، فهو دم مسفوح"، وفي اشتراطه جل ثناؤه في الدم عند إعلامه عباده تحريمه إياه، المسفوح منه دون غيره، الدليل الواضح أن ما لم يكن منه مسفوحًا، فحلال غير نجس. وذلك كالذي جاء عن عكرمة: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾، قال: لولا هذه الآية لتبّع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود. وقد بينا معنى "الرجس"، فيما مضى من كتابنا هذا، وأنه النجس والتّن، وما يُعصى الله به، بشواهد، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع. وكذلك القول في معنى "الفسق" وفي قوله: ﴿أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، قد مضى ذلك كله بشواهد الكافية من وفق لفهمه، عن تكراره وإعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر:

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، والصواب من القول فيه عندنا فيما مضى من كتابنا هذا، في "سورة البقرة" بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وأن معناه: فمن اضطر إلى أكل ما حرّم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير، أو

ما أهل لغير الله به، غير باغ في أكله إياه تلذذاً، لا لضرورة حالة من الجوع، ولا عادٍ في أكله بتجاوزه ما حدّه الله وأباحه له من أكله، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك، لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه، فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، فيما فعل من ذلك، فساطر عليه بتركه عقوبته عليه، ولو شاء عاقبه عليه ﴿رَحِيمٌ﴾، بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرّمه عليه ومنعه منه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وحرّمنا على اليهود "كل ذي ظفر"، وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والإوز والبط. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وسعيد

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "الشحوم" التي أخبر الله تعالى ذكره: أنه حرّمها على اليهود من البقر والغنم. قال أبو جعفر: والصواب في ذلك من القول أن يقال: إن الله أخبر أنه كان حرم على اليهود من البقر والغنم شحومهما، إلا ما استثناه منها مما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. فكل شحم سوى ما استثناه الله في كتابه من البقر والغنم، فإنه كان محرّماً عليهم. وبنحو ذلك من القول تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ، وذلك قوله: "قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوهما ثم باعوهما وأكلوا ثمنهما".

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا﴾، فإنه يعني: إلا شحوم الجنب وما علق بالظهر، فإنها لم تحرّم عليهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ قال أبو جعفر: و"الحوايا" جمع، واحداً "حاوية"، و"حاوية"، و"حويّة"، وهي ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي "المباعر"، وتسمى "المرايض"، وفيها الأمعاء. ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، أو ما حملت الحوايا ف"الحوايا"، رفع، عطفاً على "الظهور"، و"ما" التي بعد "إلا"، نصبٌ على الاستثناء من "الشحوم". وبمثل ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والسدي وقتادة

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن البقر والغنم حرّمنا على الذين هادوا شحومهما، سوى ما حملت ظهورهما، أو ما حملت حواياهما، فإننا أحللنا ذلك لهم، وإلا ما اختلط بعظم، فهو لهم أيضاً حلال.

فردّ قوله: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، على قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا﴾ ف"ما" التي في قوله:

﴿أو ما اختلط بعظم﴾، في موضع نصب عطفاً على "ما" التي في قوله: ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾.

وعنى بقوله: ﴿أو ما اختلط بعظم﴾، شحم الألية والجنب، وما أشبه ذلك، كما جاء عن بن جريج والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فهذا الذي حرّمنا على الذين هادوا من الأنعام والطير، ذوات الأظافر غير المنفرجة، ومن البقر والغنم، ما حرّمنا عليهم من شحومهما، الذي ذكرنا في هذه الآية، حرّمناه عليهم عقوبة منّا لهم، وثواباً على أعمالهم السيئة، وبغيتهم على ربهم، كما جاء عن قتادة وابن زيد وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطير التي ذكرنا أنّا حرّمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرّمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرّموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فَإِنْ كَذَّبَكَ، يا محمد، هؤلاء اليهود فيما أخبرناك أنا حرّمنا عليهم وحللنا لهم، كما بينا في هذه الآية "فقل ربكم ذو رحمة"، بنا، وبمن كان به مؤمناً من عباده، وبغيرهم من خلقه "واسعة"، تسع جميع خلقه، المحسن والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمة منه بكلا الفريقين، ولكن بأسه وذلك سطوته وعذابه لا يردّه إذا أحله عند غضبه على المجرمين بهم عنهم شيء و"المجرمون" هم الذين أجرّموا فاكسبوا الذنوب واجترحوا السيئات. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، وهم العادلون بالله الأوثان والأصنام من مشركي قريش ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، يقول: قالوا احتجازاً من الإذعان للحق بالباطل من الحجة، لما تبين لهم الحق، وعلموا باطل ما كانوا عليه مقيمين من شركهم، وتحريمهم ما كانوا يحرمون من الحروث والأنعام، على ما قد بينّ تعالى ذكره في الآيات الماضية قبل ذلك: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾، وما بعد ذلك: لو أراد الله منا الإيمان به، وإفراده بالعبادة دون الأوثان والآلهة، وتحليل ما حرم من البحائر والسوائب وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكاً، ولا جعل ذلك له آباءنا من قبلنا، ولا حرّمنا ما نحرّمه من هذه الأشياء التي نحن على تحريمها مقيمون، لأنه قادر على أن

يحول بيننا وبين ذلك، حتى لا يكون لنا إلى فعل شيء من ذلك سبيل: إما بأن يضطرنا إلى الإيمان وترك الشرك به، وإلى القول بتحليل ما حرّمنا وأما بأن يلفظ بنا بتوقيفه، فنصير إلى الإقرار بوحدانيته، وترك عبادة ما دونه من الأنداد والأصنام، وإلى تحليل ما حرّمنا، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأوثان والأصنام، واتخاذ الشريك له في العبادة والأنداد، وأراد ما نحرم من الحروث والأنعام، فلم يحل بيننا وبين ما نحن عليه من ذلك. قال الله مكذباً لهم في قلوبهم: "إن الله رضي منا ما نحن عليه من الشرك، وتحريم ما نحرم" وراداً عليهم باطل ما احتجوا به من حجّتهم في ذلك ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾، يقول: كما كذب هؤلاء المشركون، يا محمد، ما جئتهم به من الحق والبيان، كذب من قبلهم من فسقة الأمم الذين طعّوا على ربهم ما جاءتهم به أنبياءهم من آيات الله وواضح حججه، وردّوا عليهم نصائحهم ﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾، يقول: حتى أسخطونا بغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسنا فذاقوه، فعبطوا بذوقهم إياه، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة. يقول: وهؤلاء الآخرون مسلكهم سبيلهم، إن هم لم ينيبوا فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وبن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، المحرّمين ما هم له محرّمون من الحروث والأنعام، القائلين: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء﴾، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من الشرك وتحريم ما نحرم: "هل عندكم" بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ما تشركون، وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون علم يقين من خبر من يقطع خبره العذر، أو حجة توجب لنا اليقين، من العلم "فتخرجوه لنا"، يقول: فتظهروا ذلك لنا وتبينوه، كما بينا لكم مواضع خطأ قولكم وفعلكم، وتناقض ذلك واستحالته في المعقول والمسموع ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾، يقول له: قل لهم: إن تقولون ما تقولون، أيها المشركون، وتعبدون من الأوثان والأصنام ما تعبدون، وتحرمون من الحروث والأنعام ما تحرمون، إلا ظناً وحسباً أنه حق، وأنكم على حق، وهو باطل، وأنتم على باطل ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾، يقول: "وإن أنتم"، وما أنتم في ذلك كله "إلا تخرصون"، يقول: إلا تقولون الباطل على الله، ظناً بغير يقين علم ولا برهان واضح.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، القائلين على ربهم الكذب، في تحريمهم ما حرموا من الحروث والأنعام، إن عجزوا عن إقامة

الحجة عند قيلك لهم: "هل عندكم من علم بما تدعون على ربكم فتخرجوه لنا"، وعن إخراج علم ذلك لك وإظهاره، وهم لا شك عن ذلك عَجَزَة، وعن إظهاره مقصرون، لأنه باطل لا حقيقة له ﴿فلله﴾، الذي حرم عليكم أن تشركوا به شيئاً، وأن تتبعوا خطوات الشيطان في أموالكم من الحروث والأنعام ﴿الحجة البالغة﴾، دونكم أيها المشركون. ويعني بـ"البالغة"، أنها تبلغ مراده في ثبوتها على مَنْ احتج بها عليه من خلقه، وقَطَعَ عُذْرَه إذا انتهت إليه فيما جُعِلَتْ حجة فيه. ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾، يقول: فلو شاء ربكم لوفقكم أجمعين للإجماع على إفراده بالعبادة، والبراءة من الأنداد والآلهة، والدينونة بتحريم ما حرم الله وتحليل ما حلله الله، وترك اتباع خطوات الشيطان، وغير ذلك من طاعاته، ولكنه لم يشأ ذلك، فخالف بين خلقه فيما شاء منهم، فمنهم كافر ومنهم مؤمن. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل. كما جاء عن الربيع

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ هَلْ شَهِدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المفترين على ربهم من عبدة الأوثان، الزاعمين أن الله حرم عليهم ما هم محرموه من حروثهم وأنعامهم ﴿هلم شهداءكم﴾، يقول: هاتوا شهداءكم الذين يشهدون على الله أنه حرم عليكم ما تزعمون أنه حرمه عليكم.

وأهل العالية من تهامة توحد "هلم" في الواحد والاثنين والجميع، وتذكر في المؤنث والمذكر، فتقول للواحد: "هلم يا فلان"، وللأثنين والجميع كذلك، وللأثنى مثله، وأما أهل السافلة من نجد، فإنهم يوحدون للواحد، ويشنون للأثنين، ويجمعون للجميع. فيقال للواحد من الرجال: "هلم"، وللواحدة من النساء: "هلمي"، وللأثنين: "هلمنا"، وللجماعة من الرجال: "هلموا"، وللنساء: "هلمن". قال الله لنبيه: ﴿فإن شهدوا﴾، يقول: يا محمد، فإن جاءوك بشهداء يشهدون أن الله حَرَّمَ ما يزعمون أن الله حرمه عليهم ﴿فلا تشهد معهم﴾، فإنهم كذبة وشهود زور في شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله. وخاطب بذلك جل ثناؤه نبيه ﷺ، والمراد به أصحابه والمؤمنون به ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾، يقول: ولا تتابعهم على ما هم عليه من التكذيب بوحى الله وتنزيله، في تحريم ما حرم، وتحليل ما أحل لهم، ولكن اتبع ما أوحى إليك من كتاب ربك الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، يقول: ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة، فتكذب بما هم به مكذبون من إحياء الله خلقه بعد مماتهم، ونشره إياهم بعد فنائهم ﴿وهم بربهم يعدلون﴾، يقول: وهم مع تكذيبهم بالبعث بعد الممات، وجحودهم قيام الساعة، بالله يعدلون الأوثان والأصنام، فيجعلونها له عدلاً ويتخذونها له ندّاً يعبدونها من دونه.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل. كما جاء عن السدي

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام، الزاعمين أن الله حرم عليهم ما هم محرّموه من حروثهم وأنعامهم، على ما ذكرت لك في تنزيلي عليك: تعالوا، أيها القوم، اقرأ عليكم ما حرم ربكم حقًا يقينًا، لا الباطل تخرّصًا، تخرّصكم على الله الكذب والفرية ظنًا، ولكن وحيًا من الله أوحاه إليّ، وتنزيلا أنزله عليّ: أن لا تشركوا بالله شيئًا من خلقه، ولا تعدلوا به الأوثان والأصنام، ولا تعبدوا شيئًا سواه وبوالدين إحسانًا، يقول: وأوصى بالوالدين إحسانًا وحذف "أوصى" و"أمر"، لدلالة الكلام عليه ومعرفة السامع بمعناه. وقد بينا ذلك بشواهد فيما مضى من الكتاب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾، ولا تتدوا أولادكم فقتلوه من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم، فإن الله هو رازقكم وإياهم، ليس عليكم رزقهم، فتخافوا بحياتهم على أنفسكم العجز عن أرزاقهم وأقواتهم. و"الإملاق"، مصدر من قول القائل: "أملقت من الزاد، فأنا أملق إملاقًا"، وذلك إذا فني زاده، وذهب ماله، وأفلس.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرّمة عليكم، التي هي علانية بينكم لا تناكرونها، والباطن منها الذي تأتونه سرًّا في خفاء لا تجاهرون به، فإن كل ذلك حرام.

وقد قيل: إنما قيل: لا تقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن، لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنى بعضًا [دون بعض]. وليس ما قالوا من ذلك بمدفوع، غير أن دليل الظاهر من التنزيل على النهي عن ظاهر كل فاحشة وباطنها، ولا خبر يقطع العذر، بأنه عني به بعض دون جميع. وغير جائز إحالة ظاهر كتاب الله إلى باطن، إلا بحجة يجب التسليم لها. من قال ما ذكرنا من قول من قال: الآية خاصّة المعنى: كما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، قال: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأسًا في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرّم الله الزنى في السرّ والعلانية. وجاء عن السدي وغيرهما

وقال آخرون في ذلك بمثل الذي قلنا فيه. كما جاء عن قتادة: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، سرّها وعلانيتهما.

وقال آخرون: "ما ظهر"، نكاح الأمهات وحلائل الآباء "وما بطن"، الزنى. كما جاء عن

مجاهد وقال آخرون في ذلك بما جاء عن عيسى بن أبي حفصة قال، سمعت الضحاك يقول في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، قال: "ما ظهر"، الخمر "وما بطن"، الزنى.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ لَا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفس مؤمن أو معاهد وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يعني بما أباح قتلها به: من أن تقتل نفساً فتقتل قوداً بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل. فذلك "الحق" الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به ﴿ذَلِكَ﴾، يعني هذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربنا أن لا نأتيه وأن لا ندعه، هي الأمور التي وصانا والكافرين بها أن نعمل جميعاً به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، يقول: وصاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ولا تقربوا ماله إلا بما فيه صلاحه وتشيره، كما جاء عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، قال: التجارة فيه. وجاء ذلك عن غيره أيضاً من أهل التفسير وأما قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، فإن "الأشد" جمع "شد"، كما "الأضر" جمع "ضر"، وكما "الأشر" جمع "شر"، و"الشد" القوة، وهو استحكام قوة شبابه وسنه، كما "شد النهار" ارتفاعه وامتداده. يقال: "أتيته شد النهار ومدّ النهار"، وذلك حين امتداده وارتفاعه ما أهل التأويل، فإنهم مختلفون في الحين الذي إذا بلغه الإنسان قيل: "بلغ أشده". فقال بعضهم: يقال ذلك له إذا بلغ الحُلُم. كما جاء عن ربيعة وابن عامر وقال آخرون: إنما يقال ذلك له، إذا بلغ ثلاثين سنة. كما جاء عن السدي وفي الكلام محذوف، ترك ذكره اكتفاءً بدلالة ما ظهر عما حذف. وذلك أن معنى الكلام: "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده"، فإذا بلغ أشده فأنستم منه رشداً، فادفعوا إليه ماله لأنه جل ثناؤه لم ينه أن يقرب مال اليتيم في حال يئمه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، ليحلّ لوليّه بعد بلوغه أشده أن يقربه بالتي هي أسوأ، ولكنه نهاهم أن يقربوه حياطةً منه له، وحفظاً عليه، ليسلموه إليه إذا بلغ أشده.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "قل تعالوا أتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ لَا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا" وأن أوفوا الكيل والميزان. يقول: لا تبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم، والوزن إذا وزنتموهم، ولكن أوفوهم حقوقهم. وإيفاؤهم ذلك، إعطاؤهم حقوقهم تامة "بالقسط"، يعني بالعدل، كما جاء

عن مجاهد وقد بينا معنى: "القسط" بشواهد في ما مضى، وكرهنا إعادته.

وأما قوله: ﴿لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فإنه يقول: لا نكلف نفساً، من إيفاء الكيل والوزن، إلا ما يسعها فيحل لها ولا تحرج فيه. وذلك أن الله جل ثناؤه، علم من عباده أن كثيراً منهم تضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجب عليها له، فأمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو له، ولم يكلفه الزيادة، لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها. وأمر الذي له الحق، بأخذ حقه، ولم يكلفه الرضا بأقل منه، لما في التقصان عنه من ضيق نفسه. فلم يكلف نفساً منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: ﴿لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وقد استقصينا بيان ذلك بشواهد في موضع غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾، وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم، ذا قرابة لكم، ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه ﴿وبعهد الله أوفوا﴾، يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

وأما قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك: هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين، هي الأشياء التي عهد إلينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها لا بالبحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، وقتل الأولاد، وواد البنات، واتباع خطوات الشيطان ﴿لعلكم تذكرون﴾، يقول: أمركم بهذه الأمور التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصاكم بها وعهد إليكم فيها، لتذكروا عواقب أمركم، وخطأ ما أنتم عليه مقيمون، فتترجروا عنها، وترتدعوا وتنبهوا إلى طاعة ربكم. وكان ابن عباس يقول: هذه الآيات، هن الآيات المحكمات.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهذا الذي وصاكم به ربكم، أيها الناس، في هاتين الآيتين من قوله: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾، وأمركم بالوفاء به، هو "صراطه" يعني: طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مستقيماً﴾، يعني: قوياً لا اعوجاج به عن الحق ﴿فاتبعوه﴾، يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجاً تسلكونه، فاتبعوه ﴿ولا تتبعوا السبل﴾، يقول: ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا

تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافه، من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات ﴿تفترق بكم عن سبيله﴾، يقول: فيشتت بكم، إن اتبعت السبل المحدثه التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعكم إياها "عن سبيله"، يعني: عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصّى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم ﴿ذلكم وصاكم به﴾، يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصاكم به ربكم من قوله لكم: "إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل"، وصاكم به "لعلكم تتقون"، يقول: لتتقوا الله في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نعمته وعذابه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن عباس قال أبو جعفر: واختلفت القراءة في قراءة قوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً﴾.

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، ثم قل بعد ذلك يا محمد: أتى ربك موسى الكتاب فترك ذكر "قل"، إذ كان قد تقدم في أول القصّة ما يدلّ على أنه مرادٌ فيها، وذلك قوله: ﴿قل تعالوا أتّل ما حرم ربكم عليكم﴾، فقصّ ما حرم عليهم وأحلّ، ثم قال: ثم قل: "آتينا موسى"، فحذف "قل" لدلالة قوله: "قل" عليه، وأنه مراد في الكلام. ثم اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمنا عنده، على الذي أحسن موسى في قيامه بأمرنا ونهينا لأن ذلك أظهر معانيه في الكلام، وأن إيتاء موسى كتابه نعمة من الله عليه ومنة عظيمة. فأخبر جل ثناؤه أنه أنعم بذلك عليه لما سلف له من صالح عمل وحسن طاعة. وأما قوله: ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾، فإنه يعني: وتبييناً لكل شيء من أمر الدين الذي أمروا به. فتأويل الكلام إذاً: ثم آتينا موسى التوراة تمامًا لنعمنا عنده وأيادينا قبّله، تتم به كرامتنا عليه على إحسانه وطاعته ربّه وقيامه بما كلفه من شرائع دينه، وتبييناً لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم، كما جاء عن قتادة

القول في تأويل قوله: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: آتينا موسى الكتاب تمامًا وتفصيلاً لكل شيء ﴿وهدى﴾، يعني بقوله "وهدى"، تقويمًا لهم على الطريق المستقيم، وبيانًا لهم سُبُل الرشد لئلا يضلوا ﴿ورحمة﴾، يقول: ورحمة منا بهم ورأفة، لننجيهم من الضلالة وعمى الحيرة. وأما قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، فإنه يعني: إيتائي موسى الكتاب تمامًا لكرامة الله موسى، على إحسان موسى، وتفصيلاً لشرائع دينه، وهدي لمن اتبعه، ورحمة لمن كان منهم ضالاً لينجيّه الله به من الضلالة، وليؤمّن ببقاء

ربه إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خلقه فيه، فيرتدع عما هو عليه مقيم من الكفر به، وبلقائه بعد مماته، فيطيع ربه، ويصدق بما جاءه به نبيه موسى ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾، وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ "كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه"، يقول: فاجعلوه إماماً تتبعونه وتعملون بما فيه، أيها الناس ﴿واتقوا﴾، يقول: واحذروا الله في أنفسكم، أن تضيعوا العمل بما فيه، وتتعدوا حدوده، وتستحلوا محارمه. كما جاء عن قتادة

وقوله: ﴿لعلكم ترحمون﴾، يقول: لترحموا، فتنجوا من عذاب الله، وأليم عقابه.

القول في تأويل قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل العربية في العامل في "أن" التي في قوله: ﴿أن تقولوا﴾ وفي معنى هذا الكلام. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: نصب "أن" لتعلقها بالإنزال، لأن معنى الكلام: وهذا كتاب أنزلناه مبارك لثلاث تقولوا: "إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا". فأما الطائفتان اللتان ذكرهما الله، وأخبر أنه إنما أنزل كتابه على نبيه محمد لثلاث يقول المشركون: "لم ينزل علينا كتاب فنتبعه، ولم نؤمر ولم ننه، فليس علينا حجة فيما نأتي ونذر، إذ لم يأت من الله كتاب ولا رسول"، وإنما الحجة على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا فإنهما اليهود والنصارى، وكذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وأما ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾، فإنه يعني: أن تقولوا: وقد كنا عن تلاوة الطائفتين الكتاب الذي أنزلت عليهما "غافلين"، لا ندري ما هي، ولا نعلم ما يقرؤون وما يقولون، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهلهم دوننا، ولم نعن به ولم نؤمر بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حجة. فقطع الله بإنزاله القرآن على نبيه محمد ﷺ حجتهم تلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة وابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "وهذا كتاب أنزلناه مبارك"، لثلاث يقول المشركون من عبدة الأوثان من قريش: "إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا"، أو: لثلاث يقولوا: لو أننا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين من قبلنا، فأمرنا فيه ونهينا، وبئس لنا فيه خطأ ما نحن فيه من صوابه ﴿لكننا أهدى منهم﴾، أي: لكننا أشد استقامة على طريق الحق، واتباعاً للكتاب، وأحسن عملاً بما فيه، من الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من

قبلنا. يقول الله: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾، يقول: فقد جاءكم كتابٌ بلسانكم عربيٍّ مبين، حجة عليكم واضحة بيّنة من ربكم ﴿وهدي﴾، يقول: وبيان للحق، وفرقانٌ بين الصواب والخطأ، ﴿ورحمة﴾ لمن عمل به واتبعه كما جاء عن السدي وقتادة

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: فمن أخطأ فعلاً وأشدّ عدواناً منكم، أيها المشركون، المكذبون بحجج الله وأدلته وهي آياته ﴿وصدّف عنها﴾، يقول: وأعرض عنها بعد ما أتته، فلم يؤمن بها، ولم يصدّق بحقيقتها. وأخرج جل ثناؤه الخبر بقوله: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله﴾، مخرج الخبر عن الغائب، والمعنيّ به المخاطبون به من مشركي قريش. وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله: ﴿وصدّف عنها﴾، قال أهل التأويل كما جاء عن ابن عباس وقتادة ومجاهد

وقوله: ﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب﴾، يقول: سيشيب الله الذين يعرضون عن آياته وحججه ولا يتدبرونها، ولا يتعرفون حقيقتها فيؤمنوا بما دلتهم عليه من توحيد الله، وحقيقة نبوة نبيه، وصدق ما جاءهم به من عند ربهم ﴿سوء العذاب﴾، يقول: شديد العقاب، وذلك عذاب النار التي أعدّها الله لكفرة خلقه به ﴿بما كانوا يصدفون﴾، يقول: يفعل الله ذلك بهم جزاء بما كانوا يعرضون عن آياته في الدنيا، فلا يقبلون ما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: هل ينتظر هؤلاء العادلون برهم الأوثان والأصنام إلا أن تأتيهم الملائكة، بالموت فتقبض أرواحهم أو أن يأتيهم ربك، يا محمد، بين خلقه في موقف القيامة "أو يأتي بعض آيات ربك"، يقول: أو أن يأتيهم بعض آيات ربك. وذلك فيما قال أهل التأويل: طلوع الشمس من مغربها. كما جاء عن مجاهد وقتادة والسدي وقيل: إن تلك الآية التي أخبر الله جل ثناؤه أن الكافر لا ينفعه إيمانه عند مجيئها: طلوع الشمس من مغربها. كما صح عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها. قال: فإذا رآها الناس آمن من عليها، فتلك، "حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً". وقال آخرون: بل ذلك بعض الآيات الثلاثة: الدابة، وأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ذلك حين تطلع الشمس من مغربها". وأما قوله: ﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾، فإنه يعني: أو عملت في تصديقها بالله خيراً، من عمل صالح يصدّق قيله ويحقّقه، من قبل طلوع الشمس من مغربها. لا ينفع كافراً لم يكن آمن بالله قبل

طلوعها كذلك، إيمانه بالله إن آمن وصدق بالله ورسله، لأنها حالة لا تمتنع نفس من الإقرار بالله، لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله، فحكم إيمانهم، كحكم إيمانهم عند قيام الساعة، وتلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحداية الله، لمعاينتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال والبحث والاعتبار، ولا ينفع مَنْ كان بالله وبرسله مصدِّقاً، ولفرائض الله مضيقاً، غير مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغربها أعماله إن عمل، وكسبه إن اكتسب، لتفريطه الذي سلف قبل طلوعها في ذلك كما جاء عن السدي والضحاك

القول في تاويل قوله: ﴿قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام: انتظروا أن تأتيكم الملائكة بالموت فتقبض أرواحكم، أو أن يأتي ربكم لفصل القضاء بيننا وبينكم في موقف القيامة، أو أن يأتيكم طلوع الشمس من مغربها، فتطوى صحف الأعمال، ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن آمنتم، حتى تعلموا حينئذ المحق منا من المبطل، والمسيء من المحسن، والصادق من الكاذب، وتبينوا عند ذلك بمن يحق عذاب الله وأليم نكاله، ومن الناجي منا ومنكم ومن الهالك - إنا منتظرو ذلك، ليجزل الله لنا ثوابه على طاعتنا إياه، وإخلاصنا العبادة له، وإفراذنا بالربوبية دون ما سواه، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف القراءة في قراءة قوله: ﴿فَرَّقُوا﴾.

فروي عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه قرأ: "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ". وكان علياً ذهب بقوله: "فارقوا دينهم"، خرجوا فارتدوا عنه، من "المفارقة". وقرأ ذلك عبد الله بن مسعود: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾. وعلى هذه القراءة أعني قراءة عبد الله قراءة المدينة والبصرة وعامة قراءة الكوفيين. وكان عبد الله تأول بقراءته ذلك كذلك: أن دين الله واحد، وهو دين إبراهيم الحنيفية المسلمة، ففرق ذلك اليهود والنصارى، فتهود قوم وتنصر آخرون، فجعلوه شيعاً متفرقة.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان، قد قرأت بكل واحدة منهما أئمة من القراءة، وهما متفقتا المعنى غير مختلفتيه. وذلك أن كل ضالّ فلدينه مفارق، وقد فرق الأحزاب دين الله الذي ارتضاه لعباده، فتهود بعض وتنصر آخرون، وتمجس بعض. وذلك هو "التفريق" بعينه، ومصير أهله شيعاً متفرقين غير مجتمعين، فهم لدين الله الحق مفارقون، وله مفرقون. فبأي ذلك قرأ القارئ فهو للحق مصيب، غير أني أختار القراءة بالذي عليه عظم القراءة، وذلك تشديد "الراء" من "فرقوا". ثم اختلف أهل التأويل في المعنيين

بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قوله: ﴿لست منهم في شيء﴾، إعلام من الله نبيه محمدًا ﷺ أنه من مبتدعة أمته الملحدة في دينه بريء، ومن الأحزاب من مشركي قومه، ومن اليهود والنصارى. وليس في إعلامه ذلك ما يوجب أن يكون نهاه عن قتالهم، لأنه غير محال أن في الكلام: "لست من دين اليهود والنصارى في شيء فقاتلهم. فإن أمرهم إلى الله في أن يفضل على من شاء منهم فيتوب عليه، ويهلك من أراد إهلاكه منهم كافرًا فيقبض روحه، أو يقتله بيدك على كفره، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون عند مقدمهم عليه". وإذ كان غير مستحيل اجتماع الأمر بقتالهم، وقوله: ﴿لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله﴾، ولم يكن في الآية دليل واضح على أنها منسوخة، ولا ورد بأنها منسوخة عن الرسول خبر كان غير جائز أن يُقضى عليها بأنها منسوخة، حتى تقوم حجة موجبة صحة القول بذلك، لما قد بينا من أن المنسوخ هو ما لم يجز اجتماعه وناسخه في حال واحدة، في كتابنا كتاب: "اللطيف عن أصول الأحكام". وأما قوله: ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾، فإنه يقول: أنا الذي إليّ أمر هؤلاء المشركين الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعًا، والمبتدعة من أمتك الذين ضلوا عن سبيلك، دونك ودون كل أحد. إما بالعقوبة إن أقاموا على ضلالتهم وفُرقتهم دينهم فأهلكهم بها، وإما بالعتف عنهم بالتوبة عليهم والتفضل مني عليهم ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾، يقول: ثم أخبرهم في الآخرة عند ورودهم عليّ يوم القيامة بما كانوا يفعلون، فأجازي كلا منهم بما كانوا في الدنيا يفعلون، المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة. ثم أخبر جل ثناؤه ما مبلغ جزائه من جازى منهم بالإحسان أو بالإساءة فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾.

القول في تأويل قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: من وافى ربه يوم القيامة في موقف الحساب، من هؤلاء الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعًا، بالتوبة والإيمان والإقلاع عما هو عليه مقيم من ضلالتهم، وذلك هو الحسنه التي ذكرها الله فقال: من جاء بها فله عشر أمثالها.

ويعني بقوله: ﴿فله عشر أمثالها﴾، فله عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها ﴿ومن جاء بالسيئة﴾، يقول: ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدين الحق والكفر بالله، فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء، كما وافى الله به من عمله السيئ ﴿وهم لا يظلمون﴾، يقول: ولا يظلم الله الفريقين، لا فريق الإحسان، ولا فريق الإساءة، بأن يجازي المحسن بالإساءة والمسيء بالإحسان، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له، لأنه جل ثناؤه حكيم لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه، ولا يجازي أحدًا إلا بما يستحق من الجزاء. وقد دللنا فيما مضى على أن معنى "الظلم"، وضع الشيء في غير موضعه، بشواهد المغنية عن

إعادتها في هذا الموضع. قال أبو جعفر: فإن قال قائل: فإن كان الأمر كما ذكرت، من أن معنى "الحسنة" في هذا الموضع: الإيمان بالله، والإقرار بوحدانيته، والتصديق برسوله "والسيئة" فيه: الشرك به، والتكذيب لرسوله أفلا إيمان أمثال فيجازى بها المؤمن؟ وإن كان له مثل، فكيف يجازى به، و"الإيمان"، إنما هو عندك قول وعمل، والجزاء من الله لعباده عليه الكرامة في الآخرة، والإنعام عليه بما أعد لأهل كرامته من النعيم في دار الخلود، وذلك أعيان ترى وتعاين وتحسّ ويلتذّ بها، لا قول يسمع، ولا كسبٌ جوارح؟ قيل: إن معنى ذلك غير الذي ذهبت إليه، وإنما معناه: من جاء بالحسنة فوافى الله بها له مطيعاً، فإن له من الثواب ثواب عشر حسنات أمثالها. فإن قال: قلت فهل لقول "لا إله إلا الله" من الحسنات مثل؟ قيل: له مثل هو غيره، [ولكن له مثل هو قول لا إله إلا الله]، وذلك هو الذي وعد الله جل ثناؤه من أتاه به أن يجازيه عليه من الثواب بمثل عشرة أضعاف ما يستحقه قائله. وكذلك ذلك فيمن جاء بالسيئة التي هي الشرك، إلا أنه لا يجازى صاحبها عليها إلا ما يستحقه عليها من غير إضعافه عليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن سعيد والضحاك وعبد الله وغيرهم وقال قوم: عني بهذه الآية الأعراب، فأما المهاجرون فإن حسناتهم سبعمئة ضعف أو أكثر كما جاء عن أبي سعيد الخدري وابن عمر فإن قال قائل: وكيف قيل "عشر أمثالها"، فأضيف "العشر" إلى "الأمثال"، وهي "الأمثال"؟ وهل يضاف الشيء إلى نفسه؟ قيل: أضيفت إليها لأنه مرادٌ بها: فله عشر حسنات أمثالها، ف"الأمثال" حلت محل المفسر، وأضيف "العشر" إليها، كما يقال: "عندي عشر نسوة"، لأنه أريد بالأمثال مقامها، فقيل: "عشر أمثالها"، فأخرج "العشر" مخرج عدد الحسنات، و"المثل" مذكر لا مؤنث، ولكنها لما وضعت موضع الحسنات، وكان "المثل" يقع للمذكر والمؤنث، فجعلت خلفاً منها، فعل بها ما ذكرت. ومن قال: "عندي عشر أمثالها"، لم يقل: "عندي عشر صالحات"، لأن "الصالحات" فعل لا يعدّ، وإنما تعدّ الأسماء. و"المثل" اسم، ولذلك جاز العدد به.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام ﴿إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، يقول: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفقني له ﴿دِينًا قِيمًا﴾، يقول: مستقيماً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، يقول: دين إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ يقول: مستقيماً ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، يقول: وما كان من المشركين بالله، يعني إبراهيم صلوات الله عليه، لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام. وأما معنى الحنيف، فقد بينته في مكانه في "سورة البقرة" بشواهد، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام، الذين يسألونك أن تتبع أهواءهم على الباطل من عبادة الآلهة والأوثان ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، يقول: وذبحي ﴿وَمَحْيَايَ﴾، يقول: وحياتي ﴿وَمَمَاتِي﴾ يقول: ووفاتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يعني: أن ذلك كله له خالصاً دون ما أشركتم به، أيها المشركون، من الأوثان ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب، لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصاً ﴿وبذلك أُمِرْتُ﴾، يقول: وبذلك أمرني ربي ﴿وأنا أول المسلمين﴾، يقول: وأنا أول من أقرّ وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة وسعيد ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم الأوثان، الداعيك إلى عبادة الأصنام واتباع خطوات الشيطان ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا﴾، يقول: أسوى الله أطلب سيداً يسودني؟ ﴿وهو رب كل شيء﴾، يقول: وهو سيد كل شيء دونه ومدبره ومصلحه ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾، يقول: ولا تجترح نفس إثماً إلا عليها، أي: لا يؤخذ بما أتت من معصية الله تبارك وتعالى، وركبت من الخطيئة، سواها، بل كل ذي إثم فهو المعاقب بإثمه والمأخوذ بذنبه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، يقول: ولا تأثم نفس آثمة تأثم نفس أخرى غيرها، ولكنها تأثم بإثمها، وعليه تعاقب، دون إثم أخرى غيرها. وإنما يعني بذلك المشركين الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يقول هذا القول لهم. يقول: قل لهم: إنا لسنا مأخوذون بآثامكم، وعليكم عقوبة إجرامكم، ولنا جزاء أعمالنا. وهذا كما أمره الله جل ثناؤه في موضع آخر أن يقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] كما جاء عن الربيع قال: كان في ذلك الزمان، لا مخرج للعلماء العابدين إلا إحدى خلتين: إحداها أفضل من صاحبها. إما أمرٌ ودعاء إلى الحق، أو الاعتزال فلا تشارك أهل الباطل في عملهم، وتؤدي الفرائض فيما بينك وبين ربك، وتحبّ الله وتبغض الله، ولا تشارك أحداً في إثم. قال: وقد أنزل في ذلك آية محكمة: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾، إلى قوله: ﴿فيه تختلفون﴾، وفي ذلك قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ النَّبِيُّ﴾ [البينة: ٤].

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٣٨﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين برهم الأوثان: كل عامل منا ومنكم فله ثواب عمله، وعليه وزره، فاعملوا ما أنتم عاملوه - ﴿ثم إلى ربكم﴾، أيها الناس ﴿مرجعكم﴾، يقول: ثم إليه مصيركم ومقلبكم ﴿فينبئكم بما كنتم فيه﴾، في الدنيا،

﴿تختلفون﴾ من الأديان والملل، إذ كان بعضكم يدين باليهودية، وبعضٌ بالنصرانية، وبعضٌ بالمجوسية، وبعضٌ بعبادة الأصنام وادّعاء الشركاء مع الله والأنداد، ثم يجازي جميعكم بما كان يعمل في الدنيا من خير أو شر، فتعلموا حيثنذ من المحسن منّا والمسيء.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وأُمته: والله الذي جعلكم، أيها الناس، ﴿خلائفَ الأرض﴾، بأن أهلك مَنْ كان قبلكم من القرون والأمم الخالية، واستخلفكم، فجعلكم خلائف منهم في الأرض، و"الخلائف" جمع "خليفة"، كما "الوصائف" جمع "وصيفة"، وهي من قول القائل: "خَلَفَ فلان فلاناً في داره يخلفه خلافة"، فهو خليفة فيها، كما جاء عن السدي وأما قوله: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾، فإنه يقول: وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسط لهذا من الرزق ففضّله بما أعطاه من المال والغنى، على هذا الفقير فيما خوّله من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيد والقوة على هذا الضعيف الواهن القوي، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا. كما جاء عن السدي وأما قوله: ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾، فإنه يعني: ليختبركم فيما خوّلكم من فضله ومنحكم من رزقه، فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به ونهاه عنه، والعاصي؛ ومن المؤدّي مما آتاه الحق الذي أمره بأدائه منه، والمفترط في أدائه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: "إن ربك"، يا محمد، لسريع العقاب لمن أسخطه بارتكابه معاصيه، وخلافه أمره فيما أمره به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما منحه من فضله وطوّله، تولّياً وإدباراً عنه، مع إنعامه عليه، وتمكينه إياه في الأرض، كما فعل بالقرون السالفة ﴿وإنه لغفور﴾، يقول: وإنه لساتر ذنوب مَنْ ابتلى منه إقبالا إليه بالطاعة عند ابتلائه إياه بنعمة، واختباره إياه بأمره ونهيه، فمغطّ عليه فيها، وتارك فضيحته بها في موقف الحساب ﴿رحيم﴾ بتركه عقوبته على سالف ذنوبه التي سلفت بينه وبينه، إذ تاب وأناب إليه قبل لقائه ومصيره إليه.

آخر تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله جل ثناؤه وتقدّست أسماؤه ﴿المص﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قول الله تعالى ذكره: ﴿المص﴾. فقال بعضهم: معناه: أنا الله أفضل. وقال آخرون: هو هجاء حروف اسم الله تبارك وتعالى الذي هو "المصور". وقال آخرون: هي اسم من أسماء الله، أقسم ربنا به. وقال آخرون: هو اسم من أسماء القرآن. وقال آخرون: هي حروف هجاء مقطّعة. وقال آخرون: هي من حساب الجمل. وقال آخرون: هي حروف تحوي معاني كثيرة، دلّ الله بها خلقه على مراده من ذلك. وقال آخرون: هي حروف اسم الله الأعظم. وقد ذكرنا كل ذلك بالرواية فيه، وتعليل كلّ فريق قال فيه قولاً. وما الصواب من القول عندنا في ذلك، بشواهد وأدلته فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قول الله تعالى ذكره ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: هذا القرآن، يا محمد، كتاب أنزله الله إليك.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فلا يضق صدرك، يا محمد، من الإنذار به من أرسلتك لإنذاره به، وإبلاغه من أمرتك بإبلاغه إياه، ولا تشك في أنه من عندي، واصبر للمضيّ لأمر الله واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النبوة، كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن الله معك. و"الحرج"، هو الضيق، في كلام العرب، وقد بينا معنى ذلك بشواهد وأدلته في قوله: ﴿صَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، بما أغنى عن إعادته. كما جاء عن مجاهد وقتادة وغيرهما

القول في تأويل قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك تعالى ذكره: هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، لتنذر به من أمرتك بإنذاره، ﴿وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو من المؤخر الذي معناه التقديم. ومعناه: "كتاب أنزل إليك لتنذر به"، و"ذكرى للمؤمنين"، "فلا يكن في صدرك حرج منه".

القول في تأويل قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين

من قومك الذين يعبدون الأوثان والأصنام: اتبعوا، أيها الناس ما جاءكم من عند ربكم بالبينات والهدى، واعملوا بما أمركم به ربكم، ولا تتبعوا شيئاً من دونه يعني: شيئاً غير ما أنزل إليكم ربكم. يقول: لا تتبعوا أمر أوليائكم الذين يأمرونكم بالشرك بالله وعبادة الأوثان، فإنهم يضلونكم ولا يهدونكم.

وقوله: ﴿قليلًا ما تذكرون﴾، يقول: قليلًا ما تتعظون وتعتبرون فتراجعون الحق.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: حذر هؤلاء العابدين غيري، والعادلين بي الآلهة والأوثان، سخطي لا أحلّ بهم عقوبي فأهلكهم كما أهلكت من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم، فكثيرًا ما أهلكت قبلهم من أهل قرى عصوني وكذبوا رسلي وعبدوا غيري ﴿فجاءها بأسنا بياتًا﴾، يقول: فجاءتهم عقوبتنا ونقمتنا ليلاً قبل أن يصبحوا أو جاءتهم "قائلين"، يعني: نهراً في وقت القائلة. وقيل: "وكم" لأن المراد بالكلام ما وصفت من الخبر عن كثرة ما قد أصاب الأمم السالفة من المثلثات، بتكذيبهم رسله وخلافهم عليه. وكذلك تفعل العرب إذا أرادوا الخبر عن كثرة العدد،

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلم يكن دعوى أهل القرية التي أهلكناها، إذ جاءهم بأسنا وسطوتنا بياتاً أو هم قائلون، إلا اعترافهم على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مسيئين، وبرهم آثمين، ولأمره ونهيه مخالفين. وعنى بقوله جل ثناؤه: ﴿دعواهم﴾، في هذا الموضع دعاءهم. وقد بينا فيما مضى قبل أن "البأس" و"البأساء" الشدة، بشواهد ذلك الدالة على صحته، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: "ما هلك قوم حتى يُعذِّروا من أنفسهم". وقد تأول ذلك كذلك بعضهم. قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله: ما هلك قوم حتى يُعذِّروا من أنفسهم - قال قلت لعبد الملك: كيف يكون ذلك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾، الآية.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لنسألن الأمم الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عملت فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟ ﴿ولنسألن المرسلين﴾، يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بلغتهم رسالاتي، وأدّت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم، أم قصّروا في ذلك ففرطوا ولم يبلغوهم؟.

وكذلك كان أهل التأويل يتأولونه. كما جاء عن ابن عباس والسدي ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى

ذكره: فلنخبرن الرسل ومن أرسلتهم إليه بيقين علم بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه "وما كنا غائبين"، عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها. فإن قال قائل: وكيف يسأل الرسل، والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يقص عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟ قيل: إن ذلك منه تعالى ذكره ليس بمسألة استرشاد، ولا مسألة تعرف منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: "ألم أحسن إليك فأست؟"، و"ألم أصلك فقطعت؟". فكذاك مسألة الله المرسل إليهم، بأن يقول لهم: "ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتندركم عذابي وعقابي في هذا اليوم من كفر بي وعبد غيري؟" كما أخبر جل ثناؤه أنه قائل لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١]، ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهر مسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعد توبيخ وتقرير.

وأما مسألة الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشتركة لما سئلت في القيامة قيل لها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا: "ما جاءنا من بشير ولا نذير". فقول للرسول: "هل بلغتكم ما أرسلتم به؟" أو قيل لهم: "ألم تبلغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به؟"، كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، وكما قال جل ثناؤه لأمة نبينا محمد ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، [البقرة: ١٤٣]. فكل ذلك من الله مسألة للرسول على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، وللمرسل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكل ذلك بمعنى القصص والخبر.

فأما الذي هو عن الله منفى من مسألته خلقه، فالمسألة التي هي مسألة استرشاد واستثبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول، ليعلم السائل علم ذلك من قبله، فذلك غير جائز أن يوصف الله به، لأنه العالم بالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها جل ثناؤه عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، [الرحمن: ٣٩]، وبقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾، [القصص: ٧٨]، يعني: لا يسأل عن ذلك أحدا منهم مستثبت، ليعلم علم ذلك من قبل من سأل منه، لأنه العالم بذلك كله وبكل شيء غيره.

وقد ذكرنا ما روي في معنى ذلك من الخبر في غير هذا الموضع، فكرهنا إعادته. وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقول في معنى قوله: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾، أنه ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم. هذا قول غير بعيد من الحق، غير أن الصحيح من الخبر عن رسول الله ﷺ أنه

قال: ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول له: "أتذكر يوم فعلت كذا وفعلت كذا؟" حتى يذكره ما فعل في الدنيا والتسليم لخبر رسول الله ﷺ أولى من التسليم لغيره.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: "الوزن" مصدر من قول القائل: "وزنت كذا ومعنى الكلام: والوزن يوم نسأل الذين أرسل إليهم والمرسلين، الحق ويعني بـ"الحق"، العدل. وكان مجاهد يقول: "الوزن"، في هذا الموضع، القضاء. وكان يقول أيضًا: معنى "الحق"، هاهنا، العدل. وقال آخرون: معنى قوله: ﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ﴾، وزن الأعمال. كما جاء عن السدي ومجاهد واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، القول الذي ذكرناه عن عمرو بن دينار، من أن ذلك هو "الميزان" المعروف الذي يوزن به، وأن الله جل ثناؤه يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات، كما قال جل ثناؤه: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، موازين عمله الصالح ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح، وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله: "ما وُضِعَ في الميزان شيء أثقل من حسن الخلق"، ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزان يوزن به الأعمال، على ما وصفت. جاء عن عمرو بن دينار قوله: ﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ﴾، قال: إنا نرى ميزانًا وكفتين، سمعت عبيد بن عمير يقول: يُجْعَلُ الرجل العظيم الطويل في الميزان، ثم لا يقوم بجناح ذباب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: ومن خفت موازين أعماله الصالحة، فلم تثقل بإقراره بتوحيد الله، والإيمان به وبرسوله، واتباع أمره ونهيه، فأولئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ﴾، يقول: بما كانوا بحجج الله وأدلته يجحدون، فلا يقرّون بصحتها، ولا يوقنون بحقيقتها، كالذي كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد وطأننا لكم، أيها الناس، في الأرض، وجعلناها لكم قرارًا تستقرون فيها، ومهادًا تمتهدونها، وفراشًا تفترشونها وجعلنا لكم فيها معاش ﴿تَشْكُرُونَ﴾، بها أيام حياتكم، من مطاعم ومشارب، نعمة مني عليكم، وإحسانًا مني إليكم ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾، يقول: وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم لعبادتكم غيري، واتخاذكم إلهاً سواي. والمعاش: جمع "معيشة".

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويله: ﴿ولقد خلقناكم﴾، ولقد خلقنا آدم ﴿ثم صورناكم﴾، بتصويرنا آدم، كما قال جل ثناؤه لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، [البقرة: ٦٣]. وما أشبه ذلك من الخطاب الموجه إلى الحيّ الموجود، والمراد به السلف المعدم، فكذلك ذلك في قوله: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صورناه. وأما قوله للملائكة: ﴿اسجدوا لآدم﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: فلما صورنا آدم وجعلناه خلقاً سوياً، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: "اسجدوا لآدم"، ابتلاء منا واختباراً لهم بالأمر، ليعلم الطائع منهم من العاصي، ﴿فسجدوا﴾، يقول: فسجد الملائكة، إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين لآدم، حين أمره الله مع مَنْ أمر من سائر الملائكة غيره بالسجود. وقد بينا فيما مضى، المعنى الذي من أجله امتحن جَلّ جلاله ملائكته بالسجود لآدم، وأمر إبليس وقصصه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيله لإبليس، إذ عصاه فلم يسجد لآدم إذ أمره بالسجود له. يقول: قال الله لإبليس: ﴿ما منعك﴾، أي شيء منعك؟ ألا تسجد، أن تدع السجود لآدم؟ إذ أمرتك، أن تسجد؟ قال أنا خير منه، يقول: قال إبليس: أنا خير من آدم "خلقتني من نار وخلقته من طين".

وأما قوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن جواب إبليس إياه إذ سأله: ما الذي منعه من السجود لآدم، فأحوجه إلى أن لا يسجد له، واضطره إلى خلافه أمره به، وتركه طاعته أن المانع كان له من السجود، والداعي له إلى خلافه أمر به في ذلك: أنه أشد منه أيذاً، وأقوى منه قوة، وأفضل منه فضلاً لفضل الجنس الذي منه خلق، وهو النار، على الذي خلق منه آدم، وهو الطين. فجهل عدو الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب. إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علواً، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق، على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك. وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق،

إلى التوبة من خطيئته، ومسأله ربّه العفو عنه والمغفرة. ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: "أول مَنْ قاسَ إبليس"، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله، وبعده من إصابة الحق، في الفضل الذي خص الله به آدم على سائر خلقه: من خلقه إياه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماء كل شيء، مع سائر ما خصه به من كرامته. فضرِبَ عن ذلك كله الجاهلُ صفحاً، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خُلِقَ من نار وخلق آدم من طين!! وهو في ذلك أيضاً له غير كفاء، لو لم يكن لآدم من الله جل ذكره تكرمته شيء غيره، فكيف والذي خصَّ به من كرامته يكثر تعداده، ويملّ إحصاؤه؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: قال الله لإبليس عند ذلك: ﴿فاهبط منها﴾. وقد بيّنا معنى "الهبوط" فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته. وأما قوله ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾، يقول تعالى ذكره: فقال الله له: "اهبط منها"، يعني: من الجنة "فما يكون لك"، يقول: فليس لك أن تستكبر في الجنة عن طاعتي وأمري. وقوله: ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾، يقول: فاخرج من الجنة، إنك من الذين قد نالهم من الله الصغار والذلّ والمهانة. وبنحو ذلك قال السدي

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال ابن كثير: قال أبو جعفر: وهذه أيضاً جهلة أخرى من جهلاته الخبيثة. سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه. وذلك أنه سأل النظرة إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق. ولو أعطي ما سأل من النظرة، كان قد أعطي الخلود وبقاءً لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث. فقال جل ثناؤه له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨ / سورة ص: ٨٠، ٨١]، وذلك إلى اليوم الذي قد كتب الله عليه فيه الهلاك والموت والفناء، لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى، غير ربنا الحي الذي لا يموت. يقول الله تعالى ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، [آل عمران: ١٨٥ / سورة الأنبياء: ٣٥ / سورة العنكبوت: ٥٧].

و"الإنظار" في كلام العرب، التأخير. يقال منه: "أنظرته بحقي عليه أنظره به إنظاراً" وبنحو ذلك كان السدي يقول. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [الحجر: ٣٦-٣٨ / سورة ص: ٨٠، ٨١]، فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى، فصعق مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض، فمات.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: قال إبليس لربه: "أنظرنى"، أي أخرني وأجلني، وأنسى في أجلي، ولا تمنني "إلى يوم يبعثون"، يقول: إلى يوم يبعث الخلق. فقال تعالى ذكره: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، إلى يوم ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله. فإن قال قائل: فهل أحدٌ مُنظرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: "إِنَّكَ مِنْهُمْ"؟ قيل: نعم، مَنْ لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بأجلهم إليه. ولذلك قيل لإبليس: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، بمعنى: إِنَّكَ مِنْهُمْ لَا يَمِيتُهُ اللهُ إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: قال إبليس لربه: ﴿فِيمَا أُغْوِيْتِي﴾، يقول: فيما أضللتني، كما جاء عن ابن عباس والسدي وأما قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فإنه يقول: لأجلسن لبني آدم "صراطك المستقيم"، يعني: طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه وإنما معنى الكلام: لأصددن بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأغوينهم كما أغويتني، ولأضلنهم كما أضللتني. وذلك كما روي عن سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعده له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول؟ فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهد النفس والمال، فقال: أقتاتل فتقتل، فتتكح المرأة، ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل في معنى "المستقيم"، في هذا الموضع. كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: ثم لا تأتيهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق، وأحسن لهم الباطل. وذلك أن ذلك عقيب قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فاخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم الله أن يسلكوه، وهو ما وصفنا من دين الله دين الحق، فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، من الوجه الذي أمرهم الله به، فيصدهم عنه، وذلك "من بين أيديهم وعن أيماهم" ومن الوجه الذي نهاهم الله عنه، فيزيته لهم ويدعوهم إليه، وذلك "من خلفهم وعن شمائلهم". وقيل: ولم يقل: "من فوقهم"، لأن رحمة الله تنزل على عباده من فوقهم. كالذي جاء عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾، ولم يقل: "من فوقهم"، لأن

الرحمة تنزل من فوقهم.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. فإنه يقول: ولا تجد، ربّ، أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك التي أنعمت عليهم، كتكرمتك أباهم آدم بما أكرمته به، من إسجارك له ملائكتك، وتفضيلك إياه عليّ و"شكرهم إياه"، طاعتهم له بالإقرار بتوحيده، واتباع أمره ونهيه. وكان ابن عباس يقول في ذلك ﴿وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، يقول: موحدّين.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن إحلاله بالخبيث عدوّ الله ما أحلّ به من نعمته ولعنته، وطرده إياه عن جنته، إذ عصاه وخالف أمره، وراجعته من الجواب بما لم يكن له مراجعته به. يقول: قال الله له عند ذلك: ﴿اخرج منها﴾، أي من الجنة ﴿مذذومًا مدحورًا﴾، يقول: معيبًا. و"الذام"، العيب.

وأما المدحور: فهو المُقْصَى، يقال: "دحره يدحّره دحْرًا ودُحُورًا"، إذا أقصاه وأخرجته، ومنه قولهم: "ادحر عنك الشيطان". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا قسم من الله جل ثناؤه. أقسم أن من اتبع من بني آدم عدوّ الله إبليس وأطاعه وصدّق ظنه عليه، أن يملأ من جميعهم يعني: من كفره بني آدم تباع إبليس، ومن إبليس وذريته جهنم. فرحم الله امرأً كذب ظن عدوّ الله في نفسه، وخيب فيها أمله وأمنيته، ولم يمكن من طمع طمع فيها عدوّه، واستغشّه ولم يستنصحه، فإن الله تعالى ذكره إنما نبّه بهذه الآيات عباده على قدّم عداوة عدوّه وعدوهم إبليس لهم، وسالف ما سلف من حسده لأبيهم، وبغيه عليه وعليهم، وعرفهم مواقع نعمه عليهم قديمًا في أنفسهم ووالدهم ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب، فينجزوا عن طاعة عدوه وعدوهم إلى طاعته ويُنَبِّئُوا إِلَيْهَا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره: وقال الله لآدم: ﴿يَا آدَمُ اسكن أنت وزوجك الجنة فكلَا من حيث شئتما﴾. فأسكن جل ثناؤه آدم وزوجته الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجها منها، وأباح لهما أن يأكلا من ثمارها من أيّ مكان شاءا منها، ونهاهما أن يقربا ثمر شجرة بعينها. وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في ذلك، وما نرى من القول فيه صوابًا، في غير هذا الموضع، فكرهنا إعادته.

﴿فتكونا من الظالمين﴾، يقول: فتكونا ممن خالف أمر ربّه، وفعل ما ليس له فعله.

القول في تاويل قوله: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فوسوس لهما﴾، فوسوس إليهما، وتلك "الوسوسة" كانت قوله لهما: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾، وإقسامه لهما على ذلك. ومعنى الكلام: ف جذب إبليس إلى آدم حواء، وألقى إليهما: ما نهاكما ربكما عن أكل ثمر هذه الشجرة، إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ليبدى لهما ما واره الله عنهما من عوراتهما فغطاه بستره الذي ستره عليهما. وكان وهب بن منبه يقول في الستر الذي كان الله سترهما به في قوله: ﴿فبدت لهما سوءاتهما﴾، قال: كان عليهما نور، لا ترى سوءاتهما.

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وقال الشيطان لآدم وزوجته حواء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها، إلا لثلا تكونا ملكين.

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وقاسمهما﴾، وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، [النمل: ٤٩]، بمعنى تحالفوا بالله وقوله: ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: لمرن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي نهيتما عن أكل ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إن أكلتماه كنتما ملكين أو كنتما من الخالدين كما جاء عن قتادة

القول في تاويل قوله: ﴿فَدَلَاهُمَا يُغْرَوْنَ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فدلاهما بغرور﴾، فخدعهما بغرور. ﴿فلما ذاقا الشجرة﴾، يقول: فلما ذاق آدم وحواء ثمر الشجرة، يقول: طعماه ﴿بدت لهما سوءاتهما﴾، يقول: انكشفت لهما سوءاتهما، لأن الله أعراهما من الكسوة التي كان كساهما قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطأ والمعصية التي ركباً ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾، يقول: أقبلأ وجعلأ يشدان عليهما من ورق الجنة، ليواريا سوءاتهما، كما جاء عن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: كان آدم كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع بالخطيئة بدت له عورته، وكان لا يراها، فانطلق فاراً، فتعرضت له شجرة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني! فقالت: لست بمرسلتك! فناداه ربه: يا آدم، أمني تفر؟ قال: لا ولكنني استحييتك. والأثر موقوفا عن قتادة أصح.

القول في تاويل قوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ونادى آدم وحواء ربهما: ألم أنهكما عن أكل ثمر الشجرة التي أكلتما ثمرها، وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين يقول: قد أبان

عداوته لكما، بترك السجود لآدم حسداً وبغياً، كما جاء عن ابن عباس، قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني! قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً. قال: فرئت حواء عند ذلك، فقيل لها: الرثة عليك وعلى ولدك.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن آدم وحواء فيما أجاباه به، واعتراهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة، خلاف جواب اللعين إبليس إياه.

ومعنى قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، قال: آدم وحواء لربهما: يا ربنا، فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك، وبطاعتنا عدونا وعدوك، فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه، من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾، يقول: وإن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه "وترحمنا"، بتعطفك علينا، وتركك أخذنا به ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، يعني: لنكونن من الهالكين. وقد بينا معنى "الخاسر" فيما مضى بشواهد، والرواية فيه، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع كما جاء عن قتادة قال: قال آدم ﷺ: يا رب، أرايت إن تبت واستغفرتك؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأل النظرة، فأعطى كل واحد منهما ما سأل.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن فعله بإبليس وذريته، وآدم وولده، والحية. يقول تعالى ذكره لآدم وحواء وإبليس والحية: اهبطوا من السماء إلى الأرض، بعضكم لبعض عدو كما جاء عن السدي وأبي صالح وقوله: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ يقول: ولكم، يا آدم وحواء، وإبليس والحية في الأرض قراراً تستقرونه، وفراش تمتهدونه، كما جاء عن أي العالية وأما قوله: ﴿ومتاع إلى حين﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: "ولكم فيها متاع"، تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا وذلك هو الحين الذي ذكره، كما جاء عن ابن عباس و"الحين" نفسه: الوقت، غير أنه مجهول القدر.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال الله للذين أهبطهم من سمواته إلى أرضه: ﴿فيها تحيون﴾، يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونون فيها أيام حياتكم ﴿وفيها تموتون﴾، يقول في الأرض تكون وفاتكم، ﴿ومنها تخرجون﴾، يقول: ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم إليه لبعث القيامة أحياء.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرون للطواف، اتباعاً منهم أمر الشيطان، وتركا منهم طاعة الله، فعرفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر الله الذي أنعم به عليهم، حتى أبدى سوءاتهم وأظهرها من بعضهم لبعض، مع تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلاهما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سوءاتهما فعراهما منه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾، يعني بإنزاله عليهم ذلك، خلقه لهم، ورزقه إياهم و"اللباس" ما يلبسون من الثياب ﴿يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ﴾، يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم وكنى بـ"السوءات"، عن العورات. واحداً "سوءة"، وهي "فعلة" من "السوء"، وإنما سميت "سوءة"، لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل كما جاء عن الضحاك والسدي ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَرِيشًا﴾ و"الريش" في كلام العرب إنما هو المتاع والأموال عندهم. وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال. يقولون: "أعطاه سرجاً بريشه"، و"رحلاً بريشه"، أي بكسوته وجهازه. ويقولون: "إنه لحسن ريش الثياب"، وقد يستعمل "الرياش" في الخصب ورفاهة العيش. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وقال آخرون: "الريش"، الجمال. كما جاء عن بن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: "ولباس التقوى"، استشعار النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمت الحسن، لأن من اتقى الله كان به مؤمناً، وبما أمره به عاملاً ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يرى عند ما يكرهه من عباده مستحيماً. ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديته، ورؤيت عليه بهجة الإيمان ونوره. كما جاء عن قتادة والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا بني آدم، لا يخدعنكم الشيطان فيبدي سوءاتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختباره لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء عند اختباره إياهما فأطاعاه وعصيا ربهما، فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخدعه، من الجنة، ونزع عنهما ما كان ألبسهما من اللباس، ليريهما سوءاتهما بكشف عورتهم، وإظهارها

لأعينهما بعد أن كانت مستترَةً. وقد بينا فيما مضى أن معنى "الفتنة"، الاختبار والابتلاء، بما أغنى عن إعادته. وقد اختلف أهل التأويل في صفة "اللباس" الذي أخبر الله جل ثناؤه أنه نزع عن أبويناه، وما كان. قال أبو جعفر: والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى حذر عباده أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم آدم وحواء، وأن يجردهم من لباس الله الذي أنزله إليهم، كما نزع عن أبويهم لباسهما. "اللباس" المطلق من الكلام بغير إضافة إلى شيء في متعارف الناس، وهو ما اجتنب فيه اللابس من أنواع الكُسي أو غطى بدنه أو بعضه.

وإذ كان ذلك كذلك، فالحق أن يقال: إن الذي أخبر الله عن آدم وحواء من لباسهما الذي نزع عنهما الشيطان، هو بعض ما كانا يواريان به أبدانهما وعورتَهما. وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفراً ويجوز أن يكون كان ذلك نوراً ويجوز أن يكون غير ذلك ولا خبر عندنا بأي ذلك تثبت به الحجة، فلا قول في ذلك أصوب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾. وأضاف جل ثناؤه إلى إبليس إخراج آدم وحواء من الجنة، ونزع ما كان عليهما من اللباس عنهما، وإن كان الله جل ثناؤه هو الفاعل ذلك بهما عقوبة على معصيتهما إياه، إذ كان الذي كان منهما في ذلك عن تسمية ذلك لهما بمكره وخداعه، فأضيف إليه أحياناً بذلك المعنى، وإلى الله أحياناً بفعله ذلك بهما.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: إن الشيطان يراكم هو و"الهاء" في "إنه" عائدة على الشيطان و"قبيله"، يعني: وصفه وجنسه الذي هو منهم واحد جمع جيلا وهم الجن، كما جاء عن مجاهد وابن زيد وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، يقول: من حيث لا ترون أنتم، أيها الناس، الشيطان وقبيله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يقول: جعلنا الشياطين نصراء الكفار الذين لا يؤحدون الله ولا يصدقون رسله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: ذكر أن معنى "الفاحشة"، في هذا الموضع، كالذي جاء عن مجاهد: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: "نطوف كما ولدتنا أمهاتنا"، فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء، فتقول: الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ... فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذاً: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء، قبيحاً من الفعل، وهو "الفاحشة"، وذلك تعريضهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعُدُّوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه، قالوا: "وجدنا على مثل ما نفعل آبائنا، فنحن

فعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستنّ بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه". يقول الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، لهم: "إن الله لا يأمر بالفحشاء"، يقول: لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساوئها "أتقولون"، أيها الناس، "على الله ما لا تعلمون"، يقول: أتروون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: ﴿قل﴾، يا محمد، لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كذباً على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل ﴿أمر ربي بالقسط﴾، يعني: بالعدل، كما جاء عن مجاهد وأما قوله: ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بتأويل الآية، ما قاله الربيع: وهو أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم، لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصاً، لا مكاء ولا تصدية وأما قوله: ﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾، فإنه يقول: واعملوا لربكم مخلصين له الدين والطاعة، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيء مما تعملون له شريكاً، كما جاء عن الربيع

القول في تأويل قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿كما بدأكم تعودون﴾.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، القول الذي قاله من قال: معناه: كما بدأكم الله خلقاً بعد أن لم تكونوا شيئاً، تعودون بعد فنائكم خلقاً مثله، يحشركم إلى يوم القيامة لأن الله تعالى ذكره: أمر نبيه ﷺ أن يعلم بما في هذه الآية قوماً مشركين أهل جاهلية، لا يؤمنون بالمعاد، ولا يصدقون بالقيامة. فأمره أن يدعوهم إلى الإقرار بأن الله باعثهم يوم القيامة، ومثيب من أطاعه، ومعاقب من عصاه. فقال له: قل لهم: أمر ربي بالقسط، وأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وأن ادعوه مخلصين له الدين، وأن أقروا بأن كما بدأكم تعودون فترك ذكر "وأن أقروا بأن". كما ترك ذكر "أن" مع "أقيموا"، إذ كان فيما ذكر دلالة على ما حذف منه. ثم ابتدأ الخبر جل ثناؤه عما سبق من علمه في خلقه، وجرى به فيهم قضاؤه، فقال: هدى الله منهم فريقاً فوققهم لصالح الأعمال فهم مهتدون، وحق على فريق منهم الضلالة عن الهدى والرشاد، باتخاذهم الشيطان من دون الله ولياً.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله

وجاروا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله، وطُهراء، جهلا منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأن الصواب ما أتوه وركبوا.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين يتعرون عند طوافهم بيته الحرام، ويبدون عوراتهم هنالك من مشركي العرب، والمحرّمين منهم أكل ما لم يحرمه الله عليهم من حلال رزقه، تبرّراً عند نفسه لربه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾، من الكساء واللباس ﴿عند كل مسجد وكلوا﴾، من طيبات ما رزقكم، وحللته لكم ﴿واشربوا﴾، من حلال الأشرية، ولا تحرّموا إلا ما حرّمت عليكم في كتابي أو على لسان رسولي محمد ﷺ. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة ومجاهد وغيرهما

وقوله ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾، يقول: إن الله لا يحب المتعدّين حدّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلّ الله أو حرم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلّل ما أحلّ ويحرّم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعرون عند طوافهم بالبيت، ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: من حرّم، أيها القوم، عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزيّنوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله واختلف أهل التأويل في المعنى: بـ"الطيبات من الرزق"، بعد إجماعهم على أن "الزينة" ما قلنا. فقال بعضهم: "الطيبات من الرزق" في هذا الموضع، اللحم. وذلك أنهم كانوا لا يأكلونه في حال إحرامهم. وذلك كالذي جاء عن السدي وابن زيد والحسن وقال آخرون: بل عنى بذلك ما كانت الجاهلية تحرم من البحائر والسوائب. كالذي جاء عن قتادة وابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد لهؤلاء الذين أمرتك أن تقول لهم: ﴿من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾، إذ عيوا بالجواب، فلم يدروا ما يجيبونك زينة الله التي أخرج لعباده، وطيبات رزقه، للذين صدّقوا الله ورسوله، واتبعوا ما أنزل إليك من ربك، في الدنيا، وقد شركهم في ذلك فيها من كفر بالله ورسوله وخالف أمر ربه، وهي للذين آمنوا بالله ورسوله خالصة يوم القيامة، لا يشركهم في ذلك يومئذ أحدٌ كفر بالله ورسوله وخالف

أمر ربه وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وغيره

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما بينت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة، والحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها، وميزت بين ذلك لكم، أيها الناس، كذلك أيّن جميع أدلتي وحججي، وأعلام حلالتي وحرامي وأحكامي، لقوم يعلمون ما يبيّن لهم، ويفقهون ما يميّز لهم.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ يَعِزُّ الْحَقُّ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يتجرّدون من ثيابهم للطواف بالبيت، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه: أيها القوم، إن الله لم يحرم ما تحرمونه، بل أحل ذلك لعباده المؤمنين وطيبه لهم، وإنما حرم ربي القبائح من الأشياء وهي "الفواحش" ما ظهر منها، فكان علانية "وما بطن"، منها فكان سرّاً في خفاء. وقد روي عن مجاهد في قوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾، قال: "ما ظهر منها"، طواف أهل الجاهلية عراة "وما بطن"، الزنى. وأما "الإثم"، فإنه المعصية "والبغي"، الاستطالة على الناس يقول تعالى ذكره: إنما حرم ربي الفواحش مع الإثم والبغي على الناس. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل كما جاء عن السدي ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: إنما حرم ربي الفواحش والشرك به، أن تعبدوا مع الله إلهاً غيره ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾، يقول: حرم ربكم عليكم أن تجعلوا معه في عبادته شركاً لشيء لم يجعل لكم في إشراككم إياه في عبادته حجة ولا برهاناً، وهو "السلطان" ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يقول: وأن تقولوا إن الله أمركم بالتعري والتجرّد للطواف بالبيت، وحرم عليكم أكل هذه الأنعام التي حرمتها وسيّمتها وجعلتموها وصائل وحوامي، وغير ذلك مما لا تعلمون أن الله حرّمه، أو أمر به، أو أباحه، فتضيفوا إلى الله تحريمه وحظره والأمر به، فإن ذلك هو الذي حرّمه الله عليكم دون ما تزعمون أن الله حرّمه، أو تقولون إن الله أمركم به، جهلاً منكم بحقيقة ما تقولون وتضيفونه إلى الله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره تهديداً للمشركين الذين أخبر جل ثناؤه عنهم أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا: "وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها" ووعيداً منه لهم على كذبهم عليه، وعلى إصرارهم على الشرك به والمقام على كفرهم ومذكراً لهم ما أحلّ بأمثالهم من الأمم الذين كانوا قبلهم: ﴿ولكل أمة أجل﴾،

يقول: ولكل جماعة اجتمعت على تكذيب رُسل الله، وردّ نصائحهم، والشرك بالله، مع متابعة رهيم حججه عليهم "أجل"، يعني: وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثالات بهم على شركهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾، يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، يقول: لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يُمتنعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحين حلول أجل فنائهم، ساعة من ساعات الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، يقول: ولا يتقدمون بذلك أيضًا عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتًا للهلاك.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره معرّفًا خلقه ما أعدّ لحزبه وأهل طاعته والإيمان به وبرسوله، وما أعدّ لحزب الشيطان وأوليائه والكافرين به وبرسله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾، يقول: إن يجئكم رسلي الذين أرسلهم إليكم بدعائكم إلى طاعتي، والانتهاه إلى أمري ونهيي "منكم"، يعني: من أنفسكم، ومن عشائركم وقبائلكم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾، يقول: يتلون عليكم آيات كتابي، ويعرّفونكم أدلتي وأعلامي على صدق ما جاؤوكم به من عندي، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾، يقول: فمن آمن منكم بما أتاه به رُسلي مما قص عليه من آياتي وصدّق، واتقى الله فخافه بالعمل بما أمره به والانتهاه عما نهاه عنه على لسان رسوله ﴿وَأَصْلَحَ﴾، يقول: وأصلح أعماله التي كان لها مفسدًا قبل ذلك من معاصي الله بالتحوُّب منها ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله إذا وردوا عليه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها، وشهواتهم التي تجنّبوها، اتباعًا منهم لنهي الله عنها، إذا عاينوا من كرامة الله ما عاينوا هنالك كما جاء عن أبي سيار السلمي

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وأما من كذب بإيتاء رسلي التي أرسلتها إليه، وجحد توحيدي، وكفر بما جاء به رسلي، واستكبر عن تصديق حُججي وأدلتي ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، يقول: هم في نار جهنم ماكثون، لا يخرجون منها أبدًا.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فمن أخطأ فعلا وأجهل قولًا وأبعد ذهابًا عن الحق والصواب ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، يقول: ممن اختلق على الله زورًا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، يقول: أو كذب بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يقول: مَنْ فعل ذلك، فافتري على الله الكذب وكذب بآياته ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، يقول: يصل إليهم حظهم

مما كتب الله لهم في اللوح المحفوظ

ثم اختلف أهل التأويل في صفة ذلك "النصيب"، الذي لهم في "الكتاب"، وما هو؟

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، مما كتب لهم من خير وشر في الدنيا، ورزق وعمل وأجل. وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فأبان بآتياعه ذلك قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾، أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضياً عليهم في الدنيا أن ينالهم، لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهم. ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعد لهم في الآخرة، لم يكن محدوداً بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة، وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء، فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه. فبيّن بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه.

القول في تأويل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾، إلى أن جاءتهم رسلنا. يقول جل ثناؤه: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، أو كذبوا بآيات ربه، ينالهم حظوظهم التي كتب الله لهم، وسبق في علمه لهم من رزق وعمل وأجل وخير وشر في الدنيا، إلى أن تأتيهم رسلنا لتقبض أرواحهم. فإذا جاءتهم رسلنا، يعني ملك الموت وجنده ﴿يتوفونهم﴾، يقول: يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة ﴿قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾، يقول: قالت الرسل: أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهلا يُغيثونكم من كرب ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟ فأجابهم الأشقياء فقالوا: ضل عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله. يعني بقوله: ﴿ضلوا﴾، جاروا وأخذوا غير طريقنا، وتركنا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا. يقول الله جل ثناؤه: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قيله لهؤلاء المفترين عليه، المكذبين آياته يوم القيامة. يقول تعالى ذكره: قال لهم حين وردوا عليه يوم القيامة، ادخلوا، أيها المفترون على ربكم، المكذبون رسله، في جماعات من ضربائكم ﴿قد خلت من قبلكم﴾، يقول: قد سلفت من قبلكم "من الجن والإنس في النار"، ومعنى ذلك: ادخلوا في

أُمُّ هِيَ فِي النَّارِ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَإِنَّمَا يَعْنِي بِ"الْأُمِّ"، الْأَحْزَابَ وَأَهْلَ الْمَلَلِ الْكَافِرَةِ ﴿كَلِمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾، يَقُولُ جَلِ ثَنَاؤُهُ: كَلِمَا دَخَلَتْ النَّارَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ لَعْنَتْ أُخْتَهَا، يَقُولُ: شَتَمَتِ الْجَمَاعَةُ الْأُخْرَى مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهَا، تَبَرُّيًّا مِنْهَا.

وَإِنَّمَا عَنَى بِ"الْأُخْتِ"، الْأُخُوَّةَ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ، وَقِيلَ: "أُخْتَهَا"، وَلَمْ يَقُلْ: "أَخَاهَا"، لِأَنَّهُ عَنَى بِهَا "أُمَّةً" وَجَمَاعَةً أُخْرَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: كَلِمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُمَّةً أُخْرَى مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهَا وَدِينِهَا. وَبَنَحُو الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. كَمَا جَاءَ عَنِ السَّيِّدِ

القول في تأويل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: حَتَّىٰ إِذَا تَدَارَكَتِ الْأُمَمُ فِي النَّارِ جَمِيعًا، يَعْنِي اجْتَمَعَتْ فِيهَا. يُقَالُ: "قَدْ آذَرَكَوْا" وَ"تَدَارَكَوْا"، إِذَا اجْتَمَعُوا يَقُولُ: اجْتَمَعَ فِيهَا الْأَوَّلُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَلَلِ الْكَافِرَةِ وَالْآخِرُونَ مِنْهُمْ.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ عَنْ مُحَاوَرَةِ الْأَحْزَابِ مِنْ أَهْلِ الْمَلَلِ الْكَافِرَةِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: فَإِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ الْمَلَلِ الْكَافِرَةِ فِي النَّارِ فَادَّارَكُوا، قَالَتْ أُخْرَى أَهْلُ كُلِّ مِلَّةٍ دَخَلَتْ النَّارَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا بَعْدَ أَوَّلَى مِنْهُمْ تَقَدَّمَتْهَا وَكَانَتْ لَهَا سَلَفًا وَإِمَامًا فِي الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ لِأُولَاهَا الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ فِي الدُّنْيَا: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا عَنْ سَبِيلِكَ، وَدَعَوْنَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِكَ، وَزَيَّنُوا لَنَا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ، فَآتِهِم الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِكَ الضَّعْفَ عَلَى عَذَابِنَا، كَالَّذِي جَاءَ عَنِ السَّيِّدِ

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ عَنْ جَوَابِهِ لَهُمْ، يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ لِلَّذِينَ يَدْعُونَهُ فَيَقُولُونَ: "رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ": لِكُلِّكُمْ، وَأَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَتَابِعُوكُمْ وَتَتَّبِعُوكُمْ "ضِعْفٍ"، يَقُولُ: مَكْرَرٌ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. وَ"ضِعْفُ الشَّيْءِ"، مِثْلُهُ مَرَّةً. وَكَانَ مُجَاهِدٌ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾، مُضَعَّفٌ. وَبَنَحُو الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. كَمَا جَاءَ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ وَالسَّيِّدِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، يَقُولُ: وَلَكِنَّكُمْ، يَا مَعْشَرَ أَهْلِ النَّارِ، لَا تَعْلَمُونَ مَا قَدَرُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَلِذَلِكَ تَسْأَلُ الضَّعْفَ مِنْهُ الْأُمَّةُ الْكَافِرَةُ الْأُخْرَى لِأُخْتِهَا الْأَوَّلَى.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَقُولُ جَلِ ثَنَاؤُهُ: وَقَالَتْ أَوَّلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَمِلَّةٍ سَبَقَتْ فِي الدُّنْيَا، لِأَخْرَاهَا الَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ، وَحَدَّثُوا بَعْدَ زَمَانِهِمْ فِيهَا، فَسَلَكُوا سَبِيلَهُمْ وَاسْتَنُوا سَبِيلَهُمْ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا حَلَّ بِنَا مِنْ عِقُوبَةِ اللَّهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ بِمَعْصِيَتِنَا إِيَّاهُ وَكَفَرْنَا بِآيَاتِهِ، بَعْدَمَا جَاءَتْنا وَجَاءَتْكُمْ بِذَلِكَ الرِّسْلِ وَالنَّذْرِ، فَهَلْ أَنْبَأْتُمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَارْتَدَعْتُمْ

عن غوايتكم وضلالتكم؟ فانقضت حجة القوم وخُصِمُوا ولم يطبقوا جواباً بأن يقولوا: "فضلنا عليكم إذ اعتبرنا بكم فآمنّا بالله وصدقنا رسله" قال الله لجميعهم: فذوقوا جميعكم، أيها الكفرة، عذاب جهنم بما كنتم في الدنيا تكسبون من الآثام والمعاصي، وتجترحون من الذنوب والإجرام وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن أبي مجلز والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين كذبوا بحجبتنا وأدلتنا فلم يصدقوا بها، ولم يتبعوا رسلنا واستكبروا عنها، يقول: وتكبروا عن التصديق بها وأنفوا من اتباعها والانقياد لها تكبراً "لا تفتح لهم"، لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم "أبواب السماء"، ولا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل، لأن أعمالهم خبيثة، وإنما يُرفع الكلم الطيب والعمل الصالح، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

ويؤيد ذلك ما جاء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، قال: فيصعدون بها، فلا يمرّون على ملائكة من الملائكة إلا قالوا: "ما هذا الروح الخبيث؟" فيقولون: "فلان"، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله: ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: ولا يدخل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، الجنة التي أعدّها الله لأوليائه المؤمنين أبداً، كما لا يلج الجمل في سمّ الخياط أبداً، وذلك ثقب الإبرة. وكذلك نجزي المجرمين، يقول: وكذلك نثيب الذين أجرّموا في الدنيا ما استحقّوا به من الله العذاب الأليم في الآخرة. وبمثل الذي قلنا في تأويل قوله: ﴿سَمِ الْخِيَاطِ﴾، قال أهل التأويل. كما جاء عن عكرمة والسدي والحسن

القول في تأويل قوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: لهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴿من جهنم مهاد﴾.

وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع، كالفرش الذي يفرش، والبساط الذي يسط.

﴿ومن فوقهم غواش﴾. وهو جمع "غاشية"، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم.

وإنما معنى الكلام: لهم من جهنم مهاد من تحتهم فرش، ومن فوقهم منها لحف، وإنهم بين ذلك. وبنحو ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن محمد بن كعب والضحاك والسدي

وأما قوله ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾، فإنه يقول: وكذلك نثيب ونكافئ من ظلم نفسه،

فأكسبها من غضب الله ما لا قبل لها به بكفره بربه، وتكذيبه أنبياءه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: والذين صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به من وحي الله وتنزيله وشرائع دينه، وعملوا ما أمرهم الله به فأطاعوه، وتجنبوا ما نهاهم عنه ﴿لَا نَكُلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، يقول: لا نكلف نفساً من الأعمال إلا ما يسعها فلا تخرج فيه ﴿أولئك﴾، يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أصحاب الجنة﴾، يقول: هم أهل الجنة الذين هم أهلها، دون غيرهم ممن كفر بالله، وعمل بسيائتهم ﴿هم فيها خالدون﴾، يقول هم في الجنة ماكثون، دائمٌ فيها مكثهم، لا يخرجون منها، ولا يُسلَبون نعيمها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وصّف صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقدٍ وغَمٍّ وعداوةٍ كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذا أدخلهموها على سُرُرٍ متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضاً على شيء خصّ الله به بعضهم وفضّله من كرامته عليه، تجري من تحتهم أنهار الجنة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة والضحاك

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حين أدخلوا الجنة، وأروا ما أكرمهم الله به من كرامته، وما صرف عنهم من العذاب المهيّن الذي ابتلي به أهل النار بكفرهم برّبهم، وتكذيبهم رُسله: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾، يقول: الحمد لله الذي وفقنا للعمل الذي أكسبنا هذا الذي نحن فيه من كرامة الله وفضله، وصرف عذابه عنا ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾، يقول: وما كنا لنرشد لذلك، لولا أن أرشدنا الله له ووفقنا بمنّه وطوّله كما قال رسول الله ﷺ: كل أهل النار يرى منزله من الجنة، فيقولون: "لو هدانا الله"، فتكون عليهم حسرة. وكل أهل الجنة يرى منزله من النار، فيقولون: "لولا أن هدانا الله"! فهذا شكرهم.

القول في تأويل قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنهم يقولون عند دخولهم الجنة، ورؤيتهم كرامة الله التي أكرمهم بها، وهو أن أعداء الله في النار: والله لقد جاءتنا في الدنيا، وهؤلاء الذين في النار، رسل ربنا بالحق من الأخبار عن وعد الله أهل طاعته والإيمان به وبرسله، ووعيده أهل معاصيه والكفر به.

وأما قوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمِ الْجِنَّةُ أَوْرَثُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فإن معناه: ونادى مناد هؤلاء الذين وصف الله صفتهم، وأخبر عما أعد لهم من كرامته: أن يا هؤلاء، هذه تلکم الجنة التي كانت رسلی فی الدنيا تخبرکم عنها، أورثكموها الله عن الذين كذبوا رسله، لتصدقکم إياهم وطاعتکم ربکم. وذلك هو معنى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وبنحو ما قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وعن أبي سعيد

القول في تأويل قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ونادى أهل الجنة أهل النار بعد دخولهموها: يا أهل النار، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا في الدنيا على ألسن رسله، من الثواب على الإيمان به وبهم، وعلى طاعته، فهل وجدتم ما وعدنا ربكم على ألسنتهم على الكفر به وعلى معاصيه من العقاب؟ فأجابهم أهل النار: بأن نعم، قد وجدنا ما وعد ربنا حقًا كما جاء عن السدي وابن عباس وأما قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾، يقول: فنادى مناد، وأعلم معلّم بينهم ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، يقول: غضب الله وسخطه وعقوبته على من كفر به.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: إن المؤذن بين أهل الجنة والنار يقول: "أن لعنة الله على الظالمين"، الذين كفروا بالله وصدّوا عن سبيله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، يقول: حاولوا سبيل الله وهو دينه "أن يغيروه ويبدّلوه عما جعله الله له من استقامته" ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، يقول: وهم لقيام الساعة والبعث في الآخرة والثواب والعقاب فيها جاحدون.

والعرب تقول للميل في الدين والطريق: "عَوَجَ" بكسر "العين"،

القول في تأويل قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، وبين الجنة والنار حجاب، يقول: حاجز، وهو: السور الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بُسُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، [الحديد: ١٣]. وهو "الأعراف" التي يقول الله فيها: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، كما جاء عن مجاهد والسدي

وأما قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، فإن "الأعراف" جمع، واحدها "عُرف"، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو "عُرف"، وإنما قيل لُعرف الديك "عرف"، لارتفاعه على ما سواه من جسده، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

واختلف أهل التأويل في صفة الرجال الذين أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم على الأعراف،

وما السبب الذي من أجله صاروا هنالك.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال الله جل ثناؤه فيهم: هم رجال يعرفون كُلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، ولا إجماع من الأمة على أنهم ملائكة.

القول في تأويل قوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (١٦) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وعلى الأعراف رجال يعرفون أهل الجنة بسيماهم، وذلك بياض وجوههم، ونضرة النعيم عليها ويعرفون أهل النار كذلك بسيماهم، وذلك سواد وجوههم، وزرقة أعينهم، فإذا رأوا أهل الجنة نادوهم: "سلام عليكم". وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما و"السيما"، العلامة الدالة على الشيء، في كلام العرب. وأما قوله: ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾، أي: حلت عليهم أمانة الله من عقابه وأليم عذابه. واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾. فقال بعضهم: هذا خبر من الله عن أهل الأعراف: أنهم قالوا لأهل الجنة ما قالوا قبل دخول أصحاب الأعراف، غير أنهم قالوه وهم يطمعون في دخولها. كما جاء عن السدي والحسن وعطاء وقال آخرون: إنما عني بذلك أهل الجنة، وأن أصحاب الأعراف يقولون لهم قبل أن يدخلوا الجنة: "سلام عليكم"، وأهل الجنة يطمعون أن يدخلوها، ولم يدخلوها بعد. كما جاء عن أبي مجلز

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف لقاء أصحاب النار يعني: حيالهم ووجاههم فنظروا إلى تشويه الله لهم ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾، الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوا من سخطك ما أورتهم من عذابك ما هم فيه. كما جاء عن السدي وابن عباس وابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٨) قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجلاً﴾، من أهل الأرض ﴿يعرفونهم بسيماهم﴾، سيما أهل النار ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم﴾، ما كنتم تجمعون من الأموال والعَدَد في الدنيا ﴿وما كنتم تستكبرون﴾، يقول: وتكبركم الذي كنتم تتكبرون فيها، كما جاء عن السدي وابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٩) قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في المعنيين بهذا الكلام.

فقال بعضهم: هذا قيل الله لأهل النار، توبيخاً على ما كان من قيلهم في الدنيا، لأهل الأعراف، عند إدخاله أصحاب الأعراف الجنة. كما جاء عن ابن عباس والسدي وقال أبو مجلز: بل هذا القول خبر من الله عن قيل الملائكة لأهل النار، بعد ما دخلوا النار، تعبيراً منهم لهم على ما كانوا يقولون في الدنيا للمؤمنين الذين أدخلهم الله يوم القيامة جنته. وأما قوله: "ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون"، فخير من الله عن أمره أهل الجنة بدخولها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥١﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن استغاثة أهل النار بأهل الجنة، عند نزول عظيم البلاء بهم من شدة العطش والجوع، عقوبة من الله لهم على ما سلف منهم في الدنيا من ترك طاعة الله، وأداء ما كان فرض عليهم فيها في أموالهم من حقوق المساكين من الزكاة والصدقة. يقول تعالى ذكره: "ونادى أصحاب النار"، بعد ما دخلوها "أصحاب الجنة"، بعد ما سكنوها "أن"، يا أهل الجنة "أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله"، أي: أطعمونا مما رزقكم الله من الطعام، كما جاء عن السدي وابن زيد

فأجابهم أهل الجنة، إن الله حرم الماء والطعام على الذين جحدوا توحيدهم، وكذبوا في الدنيا رسله. و"الهاء والميم" في قوله: "إن الله حرمهما"، عائدتان على "الماء" وعلى "ما" التي في قوله: "أو مما رزقكم الله". وبنحو ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وسعيد

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الدُّنْيَا فَلَئِمَّ يَوْمَ تَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدِثُونَ ۝٥٢﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عن قيل أهل الجنة للكافرين. يقول تعالى ذكره: فأجاب أهل الجنة أهل النار: "إن الله حرمهما على الكافرين" الذين كفروا بالله ورسله، الذين اتخذوا دينهم الذي أمرهم الله به لهواً ولعباً، يقول: سخرية ولعباً. وروي عن ابن عباس في قوله: "الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً"، الآية، قال: وذلك أنهم كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان سَخِرُوا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به، اغتراراً بالله.

"وغرتهم الحياة الدنيا"، يقول: وخدعهم عاجلاً ما هم فيه من العيش والخفض والدعة، عن الأخذ بنصيبيهم من الآخرة، حتى أتتهم المنية يقول الله جل ثناؤه: "فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا"، أي ففي هذا اليوم، وذلك يوم القيامة "ننسأهم"، يقول: نتركهم في العذاب المبين جياً عطاشاً بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتباع أبدانهم في طاعة الله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

وأما قوله: "وما كانوا بآياتنا يجحدون"، فإن معناه: "اليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا"، وكما كانوا بآياتنا يجحدون.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أقسم، يا محمد، لقد جئنا هؤلاء الكفرة بكتاب يعني القرآن الذي أنزله إليه. يقول: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآن، مفصلاً مبيناً فيه الحق من الباطل "على علم"، يقول: على علم منا بحق ما فصل فيه، من الباطل الذي ميز فيه بينه وبين الحق "هدى ورحمة"، يقول: بيناه ليهدي ويرحم به قوم يصدقون به، وبما فيه من أمر الله ونهيه، وأخباره، ووعدته ووعيدته، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى. وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف] "ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم".

القول في تأويل قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "هل ينظرون إلا تأويله"، هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويجحدون لقاءه "إلا تأويله"، يقول: إلا ما يؤول إليه أمرهم، من ورودهم على عذاب الله، وصليهم جحيمه، وأشبه هذا مما أوعدهم الله به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وأما قوله: "يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل"، فإن معناه: يوم يجيء ما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله "يقول الذين نسوه من قبل"، أي: يقول الذين ضيعوا وتركوا ما أمروا به من العمل المنجيهم مما آل إليه أمرهم يومئذ من العذاب، من قبل ذلك في الدنيا "لقد جاءت رسل ربنا بالحق"، أقسم المساكين حين عاينوا البلاء وحل بهم العقاب: أن رسل الله التي أتتهم بالندارة وبلغتهم عن الله الرسالة، قد كانت نصحت لهم وصدقتهم عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديق. ولا ينجيهم من سخط الله وأليم عقابه كثرة القول والقليل. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم، أنهم يقولون عند حلول سخط الله بهم، وورودهم أليم عذابه، ومعايتهم تأويل ما كانت رسل الله تعدهم: هل لنا من أصدقاء وأولياء اليوم فيشفعوا لنا عند ربنا، فتنجينا شفاعتهم عنده مما قد حل بنا من سوء فعالنا في الدنيا أو نرد إلى الدنيا مرة أخرى، فنعمل فيها بما يرضيه ويُعْتَبُ من أنفسنا؟ قال هذا القول المساكين هنالك، لأنهم كانوا عهدوا في الدنيا أنفسهم لها شفعاء تشفع لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقت لا حيلة فيه

لهم ولا شفاعة. يقول الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: "قد خسروا أنفسهم"، يقول: غَبَنُوا أنفسهم حظوظها، بيعهم ما لا خطر له من نعيم الآخرة الدائم، بالخسيس من عَرَض الدنيا الزائل "وضل عنهم ما كانوا يفترون"، يقول: وأسلمهم لعذاب الله، وحرار عنهم أوليائهم، الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ويزعمون كذبًا وافتراء أنهم أربابهم من دون الله كما جاء عن السدي قوله: "فيشفعوا لنا"، لأن المعنى: هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو هل نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل؟ ولم يرد به العطف على قوله: "فيشفعوا لنا"

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن سيدكم ومصلح أموركم، أيها الناس، هو المعبود الذي له العبادة من كل شيء "الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام"، وذلك يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، كما جاء عن مجاهد "ثم استوى على العرش". وقد ذكرنا معنى "الاستواء" واختلاف الناس فيه، فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته.

وأما قوله: "يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا"، فإنه يقول: يورد الليل على النهار فيلبسه إياه، حتى يذهب نضرتة ونوره "يطلبه"، يقول: يطلب الليل النهار "حثيثًا"، يعني: سريعًا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والسدي

القول في تاويل قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهٖ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، كل ذلك بأمره، أمرهن الله فأطعن أمره، ألا الله الخلق كله، والأمر الذي لا يخالف ولا يرد أمره، دون ما سواه من الأشياء كلها، ودون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا تأمر، تبارك الله معبودنا الذي له عبادة كل شيء، رب العالمين.

القول في تاويل قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ادعوا، أيها الناس، ربكم وحده، فأخلصوا له الدعاء، دون ما تدعون من دونه من الآلهة والأصنام "تضرعًا"، يقول: تذللًا واستكانة لطاعته "وخفية"، يقول بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاةً، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته، فعل أهل النفاق والخداع لله ولرسوله كما جاء عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر جأره. وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّور وما يشعرون به. ولقد

أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرّون على أن يعملوه في السرّ فيكون علانية أبدًا! ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: "ادعوا ربكم تضرعًا وخفية"، وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا فرضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِذَاءً خَفِيًّا﴾، [مريم: ٣].

وأما قوله: "إنه لا يحب المعتدين"، فإن معناه: إن ربكم لا يحب من اعتدى فتجاوز حدّه الذي حدّه لعباده في دعائه ومسألته ربّه، ورفع صوته فوق الحد الذي حدّ لهم في دعائهم إياه، ومسألتهم، وفي غير ذلك من الأمور، كما جاء عن أبي مجلز: "ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين"، قال: لا يسأل منازل الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن جريج: إن من الدعاء اعتداء، يُكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء، ويُؤمر بالتضرّع والاستكانة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها"، لا تشركوا بالله في الأرض ولا تعصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها.

وقد ذكرنا الرواية في ذلك فيما مضى، وبيننا معناه بشواهد.

"بعد إصلاحها" يقول: بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته، بابتعائه فيهم الرسل دعاة إلى الحق، وإيضاحه حججه لهم "وادعوه خوفًا وطمعًا"، يقول: وأخلصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئًا غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك، وليكن ما يكون منكم في ذلك خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه. وإنّ مَنْ كان دعاؤه إياه على غير ذلك، فهو بالآخرة من المكذبين، لأنّ من لم يخف عقاب الله ولم يرجُ ثوابه، لم يبال ما ركب من أمر يسخطه الله ولا يرضاه "إن رحمة الله قريب من المحسنين"، يقول تعالى ذكره: إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا، قريب منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعدّ لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، هو الذي يرسل الرياح بُشْرًا بين يدي رحمته. و"النشر" بفتح "النون" وسكون "الشين"، في كلام العرب، من الرياح، الطيبة اللينة الهبوب، التي تنشئ السحاب. وأما قوله: "بين يدي رحمته"، فإنه يقول: قدام رحمته وأمامها. و"الرحمة" التي ذكرها جل ثناؤه في هذا الموضع، المطر. فمعنى الكلام إذًا: والله الذي يرسل الرياح ليُنْزِلَ

هوبها، طيباً نسيمها، أمام غيثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها سحاباً ثقالاً حتى إذا أقلتها و"الإقلال" بها، حملها، كما يقال: "استقلَّ البعير بحمله"، و"أقله"، إذا حمّله فقام به ساقه الله لإحياء بلد ميت، قد تعفّت مزارعه، ودّست مشاربه، وأجذب أهلّه، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء ع السدي

وأما قوله: "كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون"، فإنه يقول تعالى ذكره: كما نحیی هذا البلد الميت بما نزل به من الماء الذي ننزله من السحاب، فنخرج به من الثمرات بعد موته وجدوبته وفُحُوط أهلّه، كذلك نخرج الموتى من قبورهم أحياءً بعد فنائهم ودروس آثارهم "لعلكم تذكرون"، يقول تعالى ذكره للمشركين به من عبدة الأصنام، المكذبين بالبعث بعد الممات، المنكرين للثواب والعقاب: ضربتُ لكم، أيها القوم، هذا المثل الذي ذكرت لكم: من إحياء البلد الميت بقطر المطر الذي يأتي به السحاب الذي تنشره الرياح التي وصفت صفتها، لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أن مَنْ كان ذلك من قدرته، فيسيرُ في قدرته إحياء الموتى بعد فنائهم، وإعادتها خلقاً سوياً بعد دُروسها وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء ع السدي وقال أبو هريرة: إن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى، أمطر عليهم من ماء تحت العرش يُدعى "ماء الحيوان" أربعين سنة، فينبتون كما ينبت الزرع من الماء. حتى إذا استكملت أجسادهم، نفخ فيهم الروح، ثم تُلقَى عليهم نومة، فينامون في قبورهم. فإذا نفخ في الصور الثانية عاشوا، وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم، كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه، فعند ذلك يقولون: ﴿يَا وَلَدَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، فناداهم المنادي: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والبلد الطيبة تربته، العذبة مشاربه، يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الحيا، بإذنه، طيباً ثمره في حينه ووقته. والذي خَبثُ فردّت تربته، وملحت مشاربه، لا يخرج نباته إلا نكداً يقول: إلا عسراً في شدة، وقوله: "كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون"، يقول: كذلك: نُبين آية بعد آية، ونُدلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلاً بعد مثل، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنّبهم ما أمرهم بتجنّبه من سبل الضلالة. وهذا مثل ضربّه الله للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، مثل للمؤمن والذي خَبثُ فلا يخرج نباته إلا نكداً، مثلٌ للكافر. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء ع ابن عباس والسدي ومجاهد

القول في تاويل قوله: ﴿أَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية: أنه أرسل نوحًا إلى قومه، منذرهم بأسه، ومخوِّفهم سخطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم: يا قوم، اعبدوا الله الذي له العباد، وذلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادة غيره، فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك "عذاب يوم عظيم"، يعني: عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بسخط ربكم.

القول في تاويل قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه، عن جواب مشركي قوم نوح لنوح، وهم "الملأ" و"الملأ"، الجماعة من الرجال، لا امرأة فيهم أنهم قالوا له حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له: "إنا لنراك"، يا نوح "في ضلال مبين"، يعنون في أمر زائل عن الحق، مبين زواله عن قصد الحق لمن تأمله.

القول في تاويل قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال نوح لقومه مجيبًا لهم: يا قوم، لم آمركم بما أمرتكم به من إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالطاعة دون الأنداد والآلهة، زوالا مني عن محجة الحق، وضلالا لسبيل الصواب، وما بي ما تظنون من الضلال، ولكني رسول إيلكم من رب العالمين بما أمرتكم به: من إفراده بالطاعة، والإقرار له بالوحداية، والبراءة من الأنداد والآلهة.

القول في تاويل قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكذبوه: "ولكني رسول من رب العالمين"، أرسلني إليكم، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقاب الله على كفركم به، وتكذيبكم إياي، وردكم نصيحتي "وأعلم من الله ما لا تعلمون"، من أن عقابه لا يردُّ عن القوم المجرمين.

القول في تاويل قوله: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا أيضًا خبر من الله عز ذكره عن قيل نوح لقومه أنه قال لهم، إذ ردُّوا عليه النصيحة في الله، وأنكروا أن يكون الله بعثه نبيًا، وقالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، [هود: ٢٧]: "أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم"، يقول: أوعجبتم أن جاءكم تذكير من الله وعظة، يذكركم بما أنزل ربكم "على رجل منكم"، قيل: معنى قوله: "على رجل منكم"، مع رجل منكم لينذركم"، يقول: لينذركم بأس الله ويخوِّفكم عقابه على كفركم

به "ولتتقوا"، يقول: وكي تتقوا عقاب الله وبأسه، بتوحيده وإخلاص الإيمان به، والعمل بطاعته "ولعلكم ترحمون"، يقول: وليرحمكم ربكم إن اتقيتم الله، وخفتموه وحذرتكم بأسه.

القول في تأويل قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فكذب نوحاً قومه إذ أخبرهم أنه الله رسول إليهم، يأمرهم بخلع الأنداد، والإقرار بوحداية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجؤا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به، وكانوا بنوح عليه السلام أنفسهم عشرة، فيما بلغنا عن ابن إسحاق: نوح، وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث، وأزواجهم، وستة أناسي ممن كان آمن به. وكان حمل معه في الفلك من كل زوجين اثنين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. و"الفلك"، هو السفينة. "وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا"، يقول: وأغرق الله الذين كذبوا بحججه، ولم يتبعوا رسله، ولم يقبلوا نصيحته إياهم في الله بالطوفان. "إنهم كانوا قوماً عمين"، يقول: عمين عن الحق، كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ولذلك نصب "هوداً"، لأنه معطوف به على "نوح" عليهما السلام قال هود: يا قوم، اعبدوا الله فأفردوا له العبادة، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره، فإنه ليس لكم إله غيره "أفلا تتقون"، ربكم فتحذرونه، وتخافون عقابه بعبادتكم غيره، وهو خالقكم ورازقكم دون كل ما سواه.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكي رسول من رب العالمين ﴿٧٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: مخبراً عما أجاب هوداً به قومه الذين كفروا بالله: "قال الملأ الذين كفروا"، يعني: الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا رسالة الله إليهم "إننا لنراك"، يا هود "في سفاهة"، يعنون: في ضلالة عن الحق والصواب بترك ديننا وعبادة آلهتنا "وإننا لنظنك من الكاذبين"، في قيلك: "إني رسول من رب العالمين" قال: "يا قوم ليس بي سفاهة"، يقول: أي ضلالة عن الحق والصواب "ولكني رسول من رب العالمين"، أرسلني، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها.

القول في تأويل قوله: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٨﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: "أبلغكم رسالات ربي"، أؤدي ذلك إليكم، أيها القوم "وأنا لكم ناصح"، يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصح،

فاقبلوا نصيحتي، فإني أمين على وحي الله، وعلى ما أتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبذل، بل أبلغ ما أمرت كما أمرت "أوعببتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم"، يقول: أوعببتكم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظمتكم على ما أتم عليه مقيمون من الضلالة، على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح"، يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حلّ بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم، وكفروا برهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أهلككم منهم فيها، فاتقوا الله أن يحلّ بكم نظير ما حلّ بهم من العقوبة، فيهلككم ويبدل منكم غيركم، ستته في قوم نوح قبلكم، على معصيتكم إياه وكفركم به "وزادكم في الخلق بسطة"، زاد في أجسامكم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح، وفي قواكم على قواهم، نعمة منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقواكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد "لعلكم تفلحون"، يقول: كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده. وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح"، قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وابن إسحاق وبنحو الذي قلنا أيضاً قالوا في تأويل قوله: "بسطة". كما جاء عن السدي وأما "الآلاء"، فإنها النعم. كما جاء عن قتادة والسدي وابن زيد قال أبو جعفر: و"عاد"، هؤلاء القوم الذين وصف الله صفتهم، وبعث إليهم هوداً يدعوهم إلى توحيد الله، واتباع ما أتاهم به من عنده، هم، فيما جاء عن ابن إسحاق: ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. وكانت مساكنهم الشحر، من أرض اليمن وما والى بلاد حضرموت إلى عُمان،

القول في تأويل قوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قالت عاد له: أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصاً، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آبؤنا يعبدونها، ونبتراً منها؟ فلسنا فاعلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعوننا إليه، فأتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان، إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعد.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال هود لقومه: قد حلّ بكم عذابٌ وغضبٌ من الله.

وأما قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ فإنه يقول: أخاصمونني في أسماء

سَمَّيْتُمُوهَا أَصْنَامًا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يقول: ما جعل الله لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجّون بها، ولا معذرة تعتذرون بها، لأن العباداة إنما هي لمن ضرّ ونفع، وأثاب على الطاعة وعاقب على المعصية، ورزق ومنع. فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس، فإنه لا نفع فيه ولا ضرر، إلا أن تتخذ منه آله، ولا حجة لعباد عبده من دون الله في عبادته إياه، لأن الله لم يأذن بذلك، فيعتذر من عبده بأنه يعبد اتباعاً منه أمر الله في عبادته إياه. ولا هو إذ كان الله لم يأذن في عبادته مما يرجى نفعه، أو يخاف ضرره، في عاجل أو آجل، فيعبد رجاء نفعه، أو دفع ضرره - ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ يقول: فانتظروا حكم الله فينا وفيكم ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ حكمه وفصل قضائه فينا وفيكم.

القول في تاويل قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فأنجينا نوحاً والذين معه من أتباعه على الإيمان به والتصديق به وبما دعا إليه، من توحيد الله، وهجر الآلهة والأوثان ﴿برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ يقول: وأهلكنا الذين كذبوا من قوم هود بحجبنا جميعاً عن آخرهم، فلم نبق منهم أحداً، كما جاء عن بن زيد وقد بينا فيما مضى معنى قوله: ﴿فَقُطِّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥]، بشواهد، بما أغنى عن إعادته.

﴿وما كانوا مؤمنين﴾ يقول: لم يكونوا مصدّقين بالله ولا برسوله هود.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً. و"ثمود"، هو ثمود بن غاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس بن غاثر، وكانت مساكنهما الحِجْر، بين الحجاز والشّام، إلى وادي القُرى وما حوله. ومعنى الكلام: وإلى بني ثمود أخاهم صالحاً. ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، يقول: قال صالح لثمود: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، فما لكم إله يجوز لكم أن تعبدوه غيره، وقد جاءكم حُجّة وبرهان على صدق ما أقول، وحقيقة ما إليه أدعو، من إخلاص التوحيد لله، وإفراجه بالعبادة دون ما سواه، وتصديقي على أي له رسول. وبَيّتي على ما أقول وحقيقة ما جئتكم به من عند ربي، وحجتي عليه، هذه الناقة التي أخرجها الله من هذه الهضبة، دليلاً على نبوّتي وصدق مقالتي، فقد علمتم أن ذلك من المعجزات التي لا يقدر على مثلها أحدٌ إلا الله. وإنما استشهد صالح، فيما بلغني، على صحة نبوّته عند قومه ثمود بالناقة، لأنهم سألوه إياها آية ودلالة على حقيقة قوله. كما جاء عن السدي: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، قال: إن الله بعث صالحاً إلى ثمود، فدعاهم فكذبوه، فقال لهم ما ذكر الله في القرآن، فسألوهم أن يأتيهم بآية، فجاءهم بالناقة،

لها شَرِبَ ولهم شَرِبَ يوم معلوم. وقال: ﴿ذُرْوَهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾. فَأَقْرُوا بِهَا جَمِيعًا، فذلك قوله: ﴿فَهَدَّيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، [فصلت: ١٧]. وكانوا قد أَقْرُوا به على وجه النفاق والتقية، وكانت الناقة لها شَرِبٌ، فيومَ تشرب فيه الماء تمر بين جبلين فيرحمانها، ففيهما أثرها حتى الساعة، ثم تأتي فتقف لهم حتى يحلبوا اللبن، فيرويهما، إنما تصبُ صَبًّا، ويوم يشربون الماء لا تأتيهم. وكان معها فصيل لها، فقال لهم صالح: إنه يولدُ في شهركم هذا غلامٌ يكون هلاككم على يديه! فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر، فذبحوا أبناءهم، ثم وُلد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولد له قبل ذلك شيء. فكان ابن العاشر أَرْزَقَ أَحْمَرَ، فنبت نباتًا سريعًا، فإذا مرَّ بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناءنا أحياء كانوا مثل هذا! فغضب التسعة على صالح، لأنه أمرهم بذبح أبناءهم ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، [النمل: ٤٩]. قالوا: نخرج، فيرى الناس أننا قد خرجنا إلى سفر، فنأتي الغار فنكون فيه، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى المسجد، أتيناها فقتلناها، ثم رجعنا إلى الغار فكننا فيه، ثم رجعنا فقلنا: ﴿ما شهدنا مهلك أهلنا وإنا لصادقون﴾، يصدقوننا، يعلمون أننا قد خرجنا إلى سفر! فانطلقوا، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا من الليل، فسقط عليهم الغار فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ حتى بلغ ها هنا: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٤٨-٥١]. وكبر الغلام ابن العاشر، ونبت نباتًا عجبًا من السرعة، فجلس مع قوم يصيبون من الشراب، فأرادوا ماءً يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة، فوجدوا الماء قد شربته الناقة، فاشتد ذلك عليهم، وقالوا في شأن الناقة: ما نَصْنَع نحن باللبن؟ لو كنا نأخذ هذا الماء الذي تشربه هذه الناقة، فنسقيه أنعامنا وحروثنا، كان خيرًا لنا! فقال الغلام ابن العاشر: هل لكم في أن أعقرها لكم؟ قالوا: نعم! فأظهروا دينهم، فأتاها الغلام، فلما بصرت به شددت عليه، فهرب منها، فلما رأى ذلك، دخل خلف صخرة على طريقها فاستتر بها، فقال: أحيشوها علي! فأحاشوها عليه، فلما جازت به نادوه: عليك! فتناولها فعقرها، فسقطت، فذلك قوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾، [القمر: ٢٩]. وأظهروا حينئذ أمرهم، وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: يا صالحُ اتنا بما تعدنا. وفزع ناسٌ منهم إلى صالح، وأخبروه أن الناقة قد عقرت، فقال: عليَّ بالفصيل! فطلبوا الفصيل فوجدوه على رابية من الأرض، فطلبوه، فارتفعت به حتى حلقت به في السماء، فلم يقدروا عليه. ثم رَغَا الفصيلُ إلى الله، فأوحى الله إلى صالح: أن مُرَّهم فليتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام! فقال لهم صالح: تَمَتَّعُوا في داركم ثلاثة أيام، وآية ذلك أن تُصبح وجوهكم أول يوم مصفرة، والثاني محمرة، واليوم الثالث مسودة، واليوم الرابع فيه العذاب. فلما رأوا العلامات تكفَّنوا وتحنَّطوا ولطَّخوا أنفسهم بالمرِّ، ولبسوا

الأنطاع، وحفروا الأسراب فدخلوا فيها ينتظرون الصبيحة، حتى جاءهم العذاب فهلكوا. فذلك قوله: ﴿دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وأما قوله: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾، فإنه يقول: ولا تمسوا ناقة الله بعقر ولا نحر ﴿فِيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يعني: موجه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل صالح لقومه، واعظاً لهم: واذكروا، أيها القوم، نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾، يقول: تخلفون عاداً في الأرض بعد هلاكها.

وأما قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فإنه يقول: وأنزلكم في الأرض، وجعل لكم فيها مساكن وأزواجاً، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، ذكر أنهم كانوا ينقبون الصخر مساكن كما جاء عن السدي: ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾، كانوا ينقبون في الجبال البيوت.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾، يقول: فاذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. وكان قتادة يقول في ذلك: لا تسيروا في الأرض مفسدين.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قال الذين استكبروا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٦٦﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾، قال الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح والإيمان بالله وبه ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾، يعني: لأهل المسكنة من تباع صالح والمؤمنين به منهم، دون ذوي شرفهم وأهل السُّود منهم ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، أرسله الله إلينا وإليكم، قال الذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم: إنا بما أرسل الله به صالحاً من الحق والهدى مؤمنون، يقول: مصدقون مقررون أنه من عند الله، وأن الله أمر به، وعن أمر الله دعانا صالح إليه ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، عن أمر الله وأمر رسوله صالح ﴿إِنَّا﴾، أيها القوم ﴿بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ﴾، يقول: صدقتم به من نبوة صالح، وأن الذي جاء به حق من عند الله ﴿كَافِرُونَ﴾، يقول: جاحدون منكرون، لا نصدق به ولا نقر.

القول في تأويل قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فعقرت ثمود الناقة التي جعلها الله لهم آية وعتوا عن أمر ربهم، يقول: تكبروا وتجبروا عن اتباع الله، واستعلوا عن الحق، كما جاء عن مجاهد وهو من قولهم: "جَبَّارَاتٍ"، إذا كان عالياً في تجبره.

﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، يقول: قالوا: جئنا، يا صالح، بما تعدنا من عذاب الله ونقمته، استعجالاً منهم للعذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، يقول: إن كنت لله رسولا إلينا، فإن

الله ينصر رسله على أعدائه، فعَجَّلَ ذلك لهم كما استعجلوه، يقول جل ثناؤه: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

القول في تاويل قوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فأخذت الذين عقروا الناقة من ثمود ﴿الرجفة﴾، وهي الصيحة. وحركتهم للهلاك، لأن ثمود هلكت بالصيحة، فيما ذكر أهل العلم.

وينحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل كما جاء عن مجاهد

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، يقول: فأصبح الذين أهلك الله من ثمود ﴿في دارهم﴾، يعني في أرضهم التي هلكوا فيها وبلدتهم. وقوله: ﴿جاثمين﴾، يعني: سقوطاً صرعى لا يتحركون، لأنهم لا أرواح فيهم، قد هلكوا. والعرب تقول للبارك على الركبة: "جاثم"، وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن زيد،

القول في تاويل قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فأدبر صالح عنهم حين استعجلوه العذاب وعقروا ناقة الله، خارجاً عن أرضهم من بين أظهرهم لأن الله تعالى ذكره أوحى إليه: إني مهلكهم بعد ثلاثة. وقيل: إنه لم تهلك أمة ونبيها بين أظهرها.

فأخبر الله جل ثناؤه عن خروج صالح من بين قومه الذين عتوا على ربهم حين أراد الله إحلال عقوبته بهم، فقال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ صالح وقال لقومه ثمود ﴿لقد أبلغتكم رسالة ربي﴾، وأدب إليكم ما أمرني بأدائه إليكم ربي من أمره ونهيه ﴿ونصحت لكم﴾، في أدائي رسالة الله إليكم، في تحذيركم بأسه بإقامتكم على كفركم به وعبادتكم الأوثان ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾، لكم في الله، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم، الصادقين لكم عن شهوات أنفسكم.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا لوطاً.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، يقول: حين قال لقومه من سدوم، وإليهم كان أرسل لوط ﴿أتأتون الفاحشة﴾، وكانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها، التي عاقبهم الله عليها، إتيان الذكور ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾، يقول: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحد من العالمين، كما جاء عن عمرو بن دينار

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بل أنتم قوم مسرفون قال أبو جعفر: يخبر بذلك تعالى ذكره عن لوط أنه قال لقومه، توبيخاً منه لهم على فعلهم: إنكم، أيها القوم، لتأتون الرجال في أدبارهم، شهوة منكم لذلك، من دون الذي أباحه الله لكم

وأحلّه من النساء ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾، يقول: إنكم لقوم تأتون ما حرم الله عليكم، وتعضونه بفعلكم هذا. وذلك هو "الإسراف"، في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما كان جواب قوم لوط لوط، إذ وبّخهم على فعلهم القبيح، وركوبهم ما حرم الله عليهم من العمل الخبيث، إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأهله ولذلك قيل: "أخرجوهم"، فجمع، وقد جرى قبل ذكر "لوط" وحده دون غيره. وقد يحتمل أن يكون إنما جمع بمعنى: أخرجوا لوطاً ومن كان على دينه من قريبتكم فاكتمى بذكر "لوط" في أول الكلام عن ذكر أتباعه، ثم جمع في آخر الكلام، كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، [الطلاق: ١]. وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾، يقول: إن لوطاً ومن تبعه أناس يتزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد، و
عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما أبى قوم لوط مع توبيخ لوط إياهم على ما يأتون من الفاحشة، وإبلاغه إياهم رسالة ربه بتحريم ذلك عليهم إلا التمادي في غيهم، أنجينا لوطاً وأهله المؤمنين به، إلا امرأته، فإنها كانت للوط خائنة، وبالله كافرة. وقوله: ﴿من الغابرين﴾، يقول: من الباقين.
وقيل: معنى ذلك: من الباقين في عذاب الله. كما جاء عن قتادة

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأمطرنا على قوم لوط الذين كذبوا لوطاً ولم يؤمنوا به، مطراً من حجارة من سجيل أهلكناهم به ﴿فانظر كيف كان عاقبه المجرمين﴾، يقول جل ثناؤه: فانظر، يا محمد، إلى عاقبة هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله من قوم لوط، فاجترأوا معاصي الله، وركبوا الفواحش، واستحلوا ما حرم الله من أدبار الرجال، كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيره من العقوبة، عاقبة من كذبك واستكبر عن الإيمان بالله وتصديقك إن لم يتوبوا، من قومك.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى ولد مدين و"مدين"، هم ولده مديان بن إبراهيم خليل الرحمن، كما جاء عن ابن اسحاق

فإن كان الأمر كما قال: فـ"مدين"، قبيلة كَتَمِيم. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام على ما قاله ابن إسحاق: ولقد أرسلنا إلى ولد مدين، أخاهم شعيب بن ميكيل، يدعوهم إلى طاعة الله، والانتهاة إلى أمره، وترك السعي في الأرض بالفساد، والصد عن سبيله، فقال لهم شعيب: يا قوم، اعبدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من إله يستوجب عليكم العبادة غير الإله الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضرركم ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾، يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾، يقول: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾، يقول ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها. ومن ذلك قولهم: "تَحَسَّبُهَا حَمَقَاءٌ وَهِيَ بَاخِسَةٌ"، بمعنى: ظالمة ومنه قول الله: ﴿وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ﴾، [يوسف: ٢٠]، يعني به: رديء. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وقناة قوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾، يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله، والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن ﴿بعد إصلاحها﴾، يقول: بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي ﷺ فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم ﴿ذلكم خير لكم﴾، يقول: هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به، من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خير لكم في عاجل دنياكم وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة ﴿إن كنتم مؤمنين﴾، يقول: إن كنتم مصدقي فيما أقول لكم، وأؤدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَتَّعِدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله: ﴿ولا تععدوا بكل صراط توعدون﴾، ولا تجلسوا بكل طريق وهو "الصراط" توعدون المؤمنين بالقتل. وكانوا، فيما ذكر، يقعدون على طريق من قصد شعيباً وأراده ليؤمن به، فيتوعدونه ويخوّفونه، ويقولون: إنه كذاب! كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

وقال: ﴿توعدون﴾، ولم يقل: "تعدون"، لأن العرب كذلك تفعل فيما أبهت ولم تفصح به من الوعيد. تقول: "أوعدته" بالألف، "وتقدّم مني إليه وعيد"، فإذا بينت عما أوعدت وأفصحت به، قالت: "وعدته خيراً"، و"وعدته شراً"، بغير ألف، كما قال جل ثناؤه: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، [الحج: ٧٢]. وأما قوله: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾، فإنه يقول: وتردّون عن طريق الله، وهو الرّد عن الإيمان بالله والعمل بطاعته ﴿من آمن به﴾، يقول: تردّون عن طريق الله من صدق بالله ووحدّه ﴿وتبغونها عوجاً﴾، يقول: وتلتمسون لمن سلك سبيل الله وآمن به وعمل بطاعته ﴿عوجاً﴾، عن القصد والحق، إلى الزيغ والضلال، كما جاء

عن مجاهد وقتادة والسدي

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرَكُمْ﴾، يذكرهم شعيب نعمة الله عندهم بأن كثّر جماعتهم بعد أن كانوا قليلاً عددهم، وأن رفّعهم من الذلة والخساسة، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية، ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، يقول: وانظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عتوا على ربهم وعصوا رسله، من المثّلات والنقّمات، وكيف وجدوا عقبي عصيانهم إياه؟ ألم يهلك بعضهم غرقاً بالطوفان، وبعضهم رجماً بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟

و"الإفساد"، في هذا الموضع، معناه: معصية الله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وإن كان طائفة منكم﴾، وإن كانت جماعة منكم وفرقة ﴿آمنوا﴾، يقول: صدّقوا بالذي أرسلت به من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه، وظلم الناس، وبخسهم في المكايل والموازين، فاتّبِعوني على ذلك ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾، يقول: وجماعة أخرى لم يصدّقوا بذلك، ولم يتبعوني عليه ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا﴾، يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ﴿وهو خير الحاكمين﴾، يقول: والله خير من يفصل وأعدل من يقضي، لأنه لا يقع في حكمه ميلٌ إلى أحدٍ، ولا محاباة لأحدٍ.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿قال الملأ الذين استكبروا﴾، يعني بالملأ الجماعة من الرجال ويعني بالذين استكبروا، الذين تكبروا عن الإيمان بالله، والانتهاه إلى أمره، واتباع رسوله شعيب، لما حذرهم شعيب بأس الله، على خلافهم أمر ربهم، وكفرهم به ﴿لنخرجنك يا شعيب﴾، ومن تبعك وصدقك وآمن بك، وبما جئت به معك ﴿من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾، يقول: لترجعن أنت وهم في ديننا وما نحن عليه قال شعيب مجيباً لهم: ﴿أولو كنا كارهين﴾. ومعنى الكلام: أن شعيباً قال لقومه: أخرجونا من قريتك، وتصدّونا عن سبيل الله، ولو كنا كارهين لذلك؟ ثم أدخلت "ألف" الاستفهام على "أو" "ولو".

القول في تأويل قوله: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: قال شعيب لقومه إذ

دعوه إلى العود إلى ملتهم، والدخول فيها، وتوعده بطرده ومن تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك هو وهم: ﴿قد افترينا على الله كذباً﴾، يقول: قد اختلقنا على الله كذباً، وتخرصنا عليه من القول باطلاً إن نحن عدنا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها، بأن بصرنا خطأها وصواب الهدى الذي نحن عليه وما يكون لنا أن نرجع فيها فندين بها، ونترك الحق الذي نحن عليه ﴿إلا أن يشاء الله ربنا﴾ إلا أن يكون سبق لنا في علم الله أننا نعود فيها، فيمضي فينا حينئذ قضاء الله، فينفذ مشيئته علينا ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾، يقول: فإن علم ربنا وسع كل شيء فأحاط به، فلا يخفى عليه شيء كان، ولا شيء هو كائن. فإن يكن سبق لنا في علمه أننا نعود في ملتكم، ولا يخفى عليه شيء كان ولا شيء هو كائن، فلا بد من أن يكون ما قد سبق في علمه، وإلا فإننا غير عائدين في ملتكم. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي

وقوله: ﴿على الله توكلنا﴾، يقول: على الله نعتد في أمورنا وإليه نستند فيما تعدونا به من شرركم، أيها القوم، فإنه الكافي من توكل عليه. ثم فرع صلوات الله عليه إلى ربه بالدعاء على قومه إذ أيس من فلاحهم، وانقطع رجاءه من إذعانهم لله بالطاعة، والإقرار له بالرسالة، وخاف على نفسه وعلى من اتبعه من مؤمني قومه من فسقتهم العطب والهلكة بتعجيل النقمة، فقال: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، يقول: احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا حيف ولا ظلم، ولكنه عدل وحق ﴿وأنت خير الفاتحين﴾، يعني: خير الحاكمين. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِبَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب وهم "الملأ" الذين جحدوا آيات الله، وكذبوا رسوله، وتمادوا في غيهم، لآخرين منهم: لئن أنتم اتبعتم شعيباً على ما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، والانتهاه إلى أمره ونهيه، وأقررتم بنبوته ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾، يقول: لمغبونون في فعلكم، وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون، إلى دينه الذي يدعوكم إليه وهالكون بذلك من فعلكم.

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول: فأخذت الذين كفروا من قوم شعيب، الرجفة. وقد بيئت معنى "الرجفة" قبل، وأنها الزلزلة المحركة لعذاب الله. ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾، على ركبهم، موتى هلكى.

وكانت صفة العذاب الذي أهلكهم الله به، كما جاء عن السدي: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾، قال: إن الله بعث شعيباً إلى مدين، وإلى أصحاب الأيكة والأيكة، هي الغيضة من الشجر

وكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والميزان، فدعاهم فكذبوه، فقال لهم ما ذكر الله في القرآن، وما ردُّوا عليه. فلما عتوا وكذبوه، سألوهم العذاب، ففتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم، فأهلكهم الحرّ منه، فلم ينفعهم ظل ولا ماء. ثم إنه بعث سحابةً فيها ريحٌ طيبة، فوجدوا بردَ الريح وطيبها، فتنادوا: الظُّلَّةُ عليكم بها!! فلما اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، انطبقت عليهم فأهلكتهم، فهو قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾، [الشعراء: ١٨٩].

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فأهلك الذين كذبوا شعبيًا فلم يؤمنوا به، فأبادهم، فصارت قريتهم منهم خاوية خلاء ﴿كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، يقول: كأن لم ينزلوا قط ولم يعيشوا بها حين هلكوا. يقال: "غني فلان بمكان كذا، فهو يغني به غنيًا" وإذا نزل به وكان به، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة وابن عباس وابن زيد

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: لم يكن الذين أتبعوا شعبيًا الخاسرين، بل الذين كذبوه كانوا هم الخاسرين الهالكين. لأنه أخبر عنهم جل ثناؤه: أن الذين كذبوا شعبيًا قالوا للذين أرادوا اتباعه: ﴿لئن اتبعتم شعبيًا إنكم إذا لخاسرون﴾، فكذبهم الله بما أحلّ بهم من عاجل نكاله، ثم قال لنبيه محمد ﷺ: ما خسر تباع شعيب، بل كان الذين كذبوا شعبيًا لما جاءت عقوبة الله، هم الخاسرين، دون الذين صدّقوا وآمنوا به.

القول في تأويل قوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فأدبر شعيب عنهم، شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نعمة الله بقومه الذين كذبوه، حزنًا عليهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾، وأدبت إليكم ما بعثني به إليكم، من تحذيركم غضبه على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم ﴿ونصحت لكم﴾، بأمري إياكم بطاعة الله، ونهيكم عن معصيته - ﴿فكيف آسى﴾، يقول: فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله، وأتوجّع لهلاكهم؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، معرفته سنّته في الأمم التي قد حلّت من قبل أمته، ومذكّر من كفر به من قريش، لينزجروا عما كانوا عليه مقيمين من الشرك بالله، والتكذيب لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾، قبلك ﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾، وهو البؤس وشظف المعيشة وضيقها و"الضراء"، وهي الضّرّ وسوء الحال في

أسباب دُنياهم ﴿لعلهم يضرعون﴾، يقول: فعلنا ذلك ليتضرّعوا إلى ربهم، ويستكينوا إليه، وينيبوا، بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من تكذيب أنبيائهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وقد ذكرنا فيما مضى الشواهد على صحة القول بما قلنا في معنى: "البأساء"، و"الضرء"، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقيل: "يضرعون"، والمعنى: يتضرعون، ولكن أدغمت "التاء" في "الضاد"، لتقارب مخرجهما.

القول في تأويل قوله: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿ثم بدلنا أهل القرية التي أخذنا أهلها بالبأساء والضرء مكان السيئة﴾، وهي البأساء والضرء. وإنما جعل ذلك "سيئة"، لأنه مما يسوء الناس ولا تسوءهم "الحسنة"، وهي الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة ﴿حتى عفوا﴾، يقول: حتى كثروا. وكذلك كل شيء كثر، فإنه يقال فيه: "قد عفا"، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وقتادة وابن عباس

وأما قوله: ﴿وقالوا قد مس آبائنا الضراء والسراء﴾، فإنه خبرٌ من الله عن هؤلاء القوم الذين أبدلهم مكان الحسنة السيئة التي كانوا فيها، استدراجًا وابتلاء، أنهم قالوا إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آباءنا، ونالت أسلافنا، ونحن لا نعدو أن نكون أمثالهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعاش والرخاء فيها وهي "السراء"، لأنها تسرُّ أهلها. وجهل المساكين شكر نعمة الله، وأغفلوا من جهلهم استدامة فضله بالإجابة إلى طاعته، والمصارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون. يقول جل جلاله: ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾، يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، أتاهم على غرة منهم بمجيئه، وهم لا يدرون ولا يعلمون أنه يجيئهم، بل هم بأنه آتيتهم مكذبون حتى يعاينوه ويروه.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ وَأَوَّيْنِ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾

القول في تأويل قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أفأمن، يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله، ويجحدون آياته، استدراج الله إليهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قصَّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا، مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم ﴿إلا القوم الخاسرون﴾ وهم الهالكون.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول: أولم يبين للذين يُستخلفون في الأرض بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا عن أمر ربهم ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، فأخذناهم بذنوبهم، وعجّلنا لهم بأسنا كما عجّلناه لمن كان قبلهم ممن ورثوا عنه الأرض، فأهلكناهم بذنوبهم ﴿ونطبع على قلوبهم﴾، يقول: ونختم على قلوبهم فهم ﴿لا يسمعون﴾، موعظة ولا تذكيراً، سماع متفجع بهما. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن عباس وابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: هذه القرى التي ذكرت لك، يا محمد، أمرها وأمر أهلها يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب "نقص عليك من أنبائها" فنخبرك عنها وعن أخبار أهلها، وما كان من أمرهم وأمر رسل الله التي أرسلت إليهم، لتعلم أنا نصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا على أعدائنا وأهل الكفر بنا، ويعلم مكذبوك من قومك ما عاقبة أمر من كذب رسل الله، فيرتدعوا عن تكذيبك، وينبوا إلى توحيد الله وطاعته "ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات"، يقول: ولقد جاءت أهل القرى التي قصصت عليك نبأها، "رسلهم بالبينات"، يعني بالحجج: البينات "فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل". ثم اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأشبّه هذه الأقوال بتأويل الآية وأولها بالصواب، القول الذي ذكرناه عن أبي بن كعب والربيع. وذلك أن من سبق في علم الله تبارك وتعالى أنه لا يؤمن به، فلن يؤمن أبداً، وقد كان سبق في علم الله تبارك وتعالى لمن هلك من الأمم التي قص نبأهم في هذه السورة، أنه لا يؤمن أبداً، فأخبر جل ثناؤه عنهم، أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم به مكذبون في سابق علمه، قبل مجيء الرسل وعند مجيئهم إليهم. ولو قيل: تأويله: فما كان هؤلاء الذين ورثوا الأرض، يا محمد، من مشركي قومك من بعد أهلها، الذين كانوا بها من عاد وثمود، ليؤمنوا بما كذب به الذين ورثوها عنهم من توحيد الله ووعدته ووعدته كان وجهاً ومذهباً، غير أني لا أعلم قائلًا قاله ممن يعتمد على علمه بتأويل القرآن.

وأما قوله: "كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين"، فإنه يقول تعالى ذكره: كما طبع الله على قلوب هؤلاء الذين كفروا برهم وعصوا رسله من هذه الأمم التي قصصنا عليك نبأهم، يا محمد، في هذه السورة، حتى جاءهم بأس الله فهلكوا به "كذلك يطبع الله على قلوب

الكافرين"، الذين كتب عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً من قومك.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لَأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولم نجد لأكثر أهل هذه القرى التي أهلكناها واقتصصنا عليك، يا محمد، نبأها "من عهد"، يقول: من وفاء بما وصيناهم به، من توحيد الله، واتباع رسله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وهجر عبادة الأوثان والأصنام. و"العهد"، هو الوصية، قد بينا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته. "وإن وجدنا أكثرهم"، يقول: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة عن طاعة ربهم، تاركين عهده ووصيته. وقد بينا معنى "الفسق"، قبل. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن عباس وإبي بن كعب

القول في تاويل قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، موسى بن عمران. بآياتنا" يقول: بحججنا وأدلتنا "إلى فرعون وملئه"، يعني: إلى جماعة فرعون من الرجال "فظلموا بها"، يقول: فكفروا بها. و"الهاء والألف" اللتان في قوله: "بها" عائدتان على "الآيات". ومعنى ذلك: فظلموا بآياتنا التي بعثنا بها موسى إليهم وإنما جاز أن يقال: "فظلموا بها"، بمعنى: كفروا بها، لأن الظلم وَضْعُ الشيء في غير موضعه. وقد دللت فيما مضى على أن ذلك معناه، بما أغنى عن إعادته. والكفر بآيات الله، وضع لها في غير موضعها، وصرف لها إلى غير وجهها الذي عُيِّنَ به "فانظر كيف كان عاقبه المفسدين"، يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فانظر يا محمد، بعين قلبك، كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض؟ يعني فرعون وملأه، إذ ظلموا بآيات الله التي جاءهم بها موسى ﷺ، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعاً في البحر.

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وقال موسى لفرعون: يا فرعون إني رسول من رب العالمين.

القول في تاويل قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴿١٦٠﴾ قال أبو جعفر قوله: "قد جئتكم ببينة من ربكم"، يقول: قال موسى لفرعون وملئه: قد جئتكم ببرهان من ربكم، يشهد، أيها القوم، على صحة ما أقول، وصدق ما أذكر لكم من إرسال الله إليي إياكم رسولا فأرسل يا فرعون معي بني إسرائيل. فقال له فرعون: "إن كنت جئت بآية"، يقول: بحجة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول "فأت بها إن كنت من الصادقين".

القول في تاويل قوله: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ

﴿١٣٨﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: فألقى موسى عصاه "فإذا هي ثعبان مبين"، يعني حية "مبين" يقول: تتبين لمن يراها أنها حية. وبما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتاده والسدي وابن عباس قال أبو جعفر: وأما قوله: "ونزع يده فإذا هي بيضاء للتأويلين"، فإنه يقول: وأخرج يده، فإذا هي بيضاء تلوح لمن نظر إليها من الناس.. وكان موسى، فيما ذكر لنا، آدم، فجعل الله تحوّل يده بيضاء من غير برص، له آية، وعلى صدق قوله: "إني رسول من رب العالمين"، حجة وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٣٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٤٠﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قالت الجماعة من رجال قوم فرعون والأشراف منهم "إن هذا"، يعنون موسى صلوات الله عليه "لساحر عليم"، يعنون: أنه يأخذ بأعين الناس بخداعه إياهم، حتى يخيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض، والشيء بخلاف ما هو به. ومنه قيل: "سحر المطر الأرض"، إذا جادها، فقطع نباتها من أصوله، وقلب الأرض ظهرًا لبطن، فهو يسحرها سحرًا،

وقوله ﴿عليم﴾ يقول: ساحر عليم بالسحر "يريد أن يخرجكم من أرضكم" أرض مصر، معشر القبط السحرة وقال فرعون للملأ "فماذا تأمرون" يقول: فأى شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ بأي شيء تشيرون فيه؟ وقيل: "فماذا تأمرون"، والخبر بذلك عن فرعون، ولم يذكر فرعون، وقلمما يجيء مثل ذلك في الكلام، وذلك نظير قوله: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، [يوسف: ٥١-٥٢]. فقيل: "ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب"، من قول يوسف، ولم يذكر يوسف، ومن ذلك أن يقول: "قلت لزيد قم، فإني قائم"، وهو يريد: "فقال زيد: إني قائم" ..

القول في تأويل قوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره. قال الملأ من قوم فرعون لفرعون: أرجئه: أي أخره. وقال بعضهم: معناه: احبس. والإرجاء في كلام العرب التأخير. وأما قوله: "وأرسل في المدائن حاشرين" يقول: من يحشر السحرة فيجمعهم إليك. وقيل: هم الشرط. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿١٤٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٤٣﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن مشورة الملأ من قوم فرعون على فرعون، أن يرسل في المدائن حاشرين يحشرون كل ساحر عليم. وفي الكلام محذوف، اكتفى بدلالة الظاهر من إظهاره، وهو: فأرسل في المدائن حاشرين، يحشرون السحرة.

"فجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرًا" يقول: إن لنا لثوابًا على غلبتنا موسى عندك "إن كنا"، يا فرعون، "نحن الغالبين". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس قال: "فأرسل في المدائن حاشرين"، فحشر له كل ساحر متعالماً، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: والله ما في الأرض قوم يعملون بالسحر والحيات والحبال والعصي أعلم منا، فما أجرنا إن غلبنا؟ فقال لهم: أنتم قرايتي وحامتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتهم.

القول في تاويل قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ١٠٦ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنُ ثَلُثِي وَإِنَّمَا أَنُ نَكُونُ نَحْنُ الْمُثْلَيْنِ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يقول جل ثناؤه: قال فرعون للسحرة، إذ قالوا له: إن لنا عندك ثوابًا إن نحن غلبنا موسى؟ قال: نعم، لكم ذلك، وإنكم لمتن أقربه وأذنيه مني "قالوا يا موسى" يقول: قالت السحرة لموسى: يا موسى، اختر أن تلقي عصاك، أو نلقي نحن عصينا. ولذلك أدخلت "أن" مع "إما" في الكلام، لأنها في موضع أمر بالاختيار. ف"أن" إذاً في موضع نصب لما وصفت من المعنى، لأن معنى الكلام: اختر أن تلقي أنت، أو نلقي نحن، والكلام مع "إما" إذا كان على وجه الأمر، فلا بد من أن يكون فيه "أن"، كقولك للرجل: إما أن تمضي، وإما أن تقعد، بمعنى الأمر: امض أو اقعد، فإذا كان على وجه الخبر، لم يكن فيه "أن" كقوله: ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ اللَّهِ إِذَا يَعْزِيبُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]. وهذا هو الذي يسمى "التخيير" وكذلك كل ما كان على وجه الخبر، و"إما" في جميع ذلك مكسورة..

القول في تاويل قوله: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزْهَبَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ ١٠٧ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُوا﴾ ما أنتم ملقون! فألقت السحرة ما معهم، فلما ألقوا ذلك "سحروا أعين الناس"، خيلوا إلى أعين الناس بما أحدثوا من التخييل والخدع أنها تسعى "واستزهبوهم"، يقول: واسترهبوا الناس بما سحروا في أعينهم، حتى خافوا من العصي والحبال، ظناً منهم أنها حيات "وجاؤوا" كما قال الله، "بسحر عظيم"، بتخييل عظيم كبير، من التخييل والخداع. كما جاء عن ابن عباس والسدي

وجاء عن ابن إسحاق قال: صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه. وخرج موسى معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع، وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته، ثم قالت السحرة: ﴿يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنُ ثَلُثِي وَإِنَّمَا أَنُ نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٥-٦٦].. فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعدد. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً

﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾، [طه: ٦٧]، وقال: والله إن كانت لعصياً في أيديهم، ولقد عادت حيات! وما تعدو عصاي هذه! أو كما حدث نفسه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك، فآلقاها فاذا هي تلقف ما يسحرون كذباً وباطلاً. يقال منه: لقت الشيء فآنا ألقفه لقفاً ولقفاً. كما جاء عن ابن عباس: فألقى عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفكون لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخرؤا سجداً وقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

القول في تاويل قوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فظهر الحق وتبين لمن شاهده وحضره في أمر موسى، وأنه لله رسول يدعو إلى الحق "وبطل ما كانوا يعملون"، من إفك السحر وكذبه ومخايله.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد

القول في تاويل قوله: ﴿فَعَلْبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فغلب موسى فرعون وجموعه "هنالك"، عند ذلك "وانقلبوا صاغرين"، يقول: وانصرفوا عن موطنهم ذلك بصغر مقهورين. يقال منه: "صغر الرجل يصغر صغراً وصغراً وصغراً"

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَّبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وألقى السحرة عندما عاينوا من عظيم قدرة الله، ساقطين على وجوههم سجداً لربهم يقولون: "آمنا برب العالمين"، يقولون: صدقنا بما جاءنا به موسى، وأن الذي علينا عبادته، هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء، وغير ذلك، ويدير ذلك كله "رب موسى وهارون"، لا فرعون، كما جاء عن ابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال فرعون للسحرة إذ آمنوا بالله يعني صدقوا رسوله موسى ﷺ، لما عاينوا من عظيم قدرة الله وسلطانه: "آمنتكم به"، يقول: أصدقتكم بموسى وأقررتكم بنبوته "قبل أن أدن لكم"، بالإيمان به "إن هذا"، يقول: تصديقكم إياه، وإقراركم بنبوته "لمكر مكرتموه في المدينة"، يقول لخدعة خدعتم بها من في مدينتنا لتخرجوهم منها "فسوف تعلمون"، ما أفعل بكم، وما تلقون من عقابي إياكم على صنيعكم هذا. وكان مكرهم ذلك فيما ذكر عن ابن عباس: التقى موسى وأمير السحرة، فقال له موسى: أرايتك إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لا تين غداً بسحر

لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك، ولأشهدن أنك حق! وفرعون ينظر إليهم، فهو قول فرعون: "إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة"، إذ التقيتما لتظاهرا فتخرجا منها أهلها.

القول في تاويل قوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل فرعون للسحرة إذ آمنوا بالله وصدقوا رسوله موسى: "لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف"، وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع، فمخالفته في ذلك بينهما هو "القطع من خلاف". ويقال: إن أول من سن هذا القطع فرعون "ثم لأصلبنكم أجمعين"، وإنما قال هذا فرعون، لما رأى من خذلان الله إياه، وغلبة موسى عليه وقهره له. كما جاء عن ابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال السحرة مجيبة لفرعون، إذ توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب: "إنا إلى ربنا منقلبون" يعني بالانقلاب إلى الله، الرجوع إليه والمصير وقوله: "وما تنقم منا إلا أن آمنّا بآيات ربنا"، يقول: ما تنكر منا، يا فرعون، وما تجد علينا، إلا من أجل أن آمنّا، أي صدقنا "بآيات ربنا"، يقول: بحجج ربنا وأعلامه وأدلته التي لا يقدر على مثلها أنت ولا أحد، سوى الله، الذي له ملك السموات والأرض.. ثم فرعوا إلى الله بمسأله الصبر على عذاب فرعون، وقبض أرواحهم على الإسلام فقالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾، يعنون بقولهم: "أفرغ"، أنزل علينا حبساً يحبسنا عن الكفر بك، عند تعذيب فرعون إيانا ﴿وتوفنا مسلمين﴾، يقول: واقبضنا إليك على الإسلام دين خليلك إبراهيم عليه السلام، لا على الشرك بك كما جاء عن السدي ومجاهد

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقَتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقالت جماعة رجال من قوم فرعون لفرعون أتدع موسى وقومه من بني إسرائيل "ليفسدوا في الأرض"، يقول: كي يفسدوا خدمك وعبيدك عليك في أرضك من مصر ﴿ويذرك وآلهتك﴾ يقول: "ويذرك"، ويدع خدمتك موسى وعبادتك وعبادة آلهتك. وفي قوله: ﴿ويذرك وآلهتك﴾، وجهان من التأويل. أحدهما: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وقد تركت وترك عبادتك وعبادة آلهتك والثاني: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وليذرك وآلهتك كالتوبيخ منهم لفرعون على ترك موسى ليفعل هذين الفعلين.

وأما قوله: ﴿وآلهتك﴾، بمعنى: وقد ترك موسى عبادتك وعبادة آلهتك التي تعبدوها.

وقد ذكر عن ابن عباس أنه قال: كان له بقرة يعبدها.

وقوله: ﴿قال سنقتل أبناءهم﴾، يقول: قال فرعون: سنقتل أبناءهم الذكور من أولاد بني إسرائيل ﴿ونستحي نساءهم﴾، يقول: ونستحي إناثهم ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾، يقول: وإنا عالون عليهم بالقهر، يعني بقهر الملك والسلطان. وقد بينا أن كل شيء عال بالقهر وغلبة على شيء، فإن العرب تقول: هو فوقه.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "قال موسى لقومه"، من بني إسرائيل، لما قال فرعون للملأ من قومه: "سنقتل أبناء بني إسرائيل ونستحي نساءهم": ﴿استعينوا بالله﴾ على فرعون وقومه فيما ينوبكم من أمركم "واصبروا" على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم من فرعون. وكان قد تبع موسى من بني إسرائيل على ما جاء، عن ابن عباس قال: لما آمنت السحرة، اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾، يقول: إن الأرض لله، لعل الله أن يورثكم إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحتسبتم ذلك، واستقمتم على السداد أرض فرعون وقومه، بأن يهلكهم ويستخلفكم فيها، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده ﴿والعاقبة للمتقين﴾، يقول: والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه وأدى فرائضه.

القول في تأويل قوله: ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال قوم موسى لموسى، حين قال لهم "استعينوا بالله واصبروا" ﴿أوزينا﴾ بقتل أبنائنا ﴿من قبل أن تأتينا﴾، يقول: من قبل أن تأتينا برسالة الله إلينا، لأن فرعون كان يقتل أولادهم المذكور حين أظله زمان موسى على ما قد بينت فيما مضى من كتابنا هذا. وقوله: ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾، يقول: ومن بعد ما جئتنا برسالة الله، لأن فرعون لما غلبت سحرته، وقال للملأ من قومه ما قال، أراد تجديد العذاب عليهم بقتل أبنائهم واستحياء نساءهم. وقيل: إن قوم موسى قالوا لموسى ذلك، حين خافوا أن يدرکہم فرعون وهم منه هاربون، وقد تراءى الجمعان، فقالوا له: ﴿يا موسى أوزينا من قبل أن تأتينا﴾، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾، اليوم يدرکہم فرعون فيقتلنا. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي ومجاهد وابن عباس

وقوله: ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾، يقول جل ثناؤه: قال موسى لقومه: لعل ربكم

أن يهلك عدوكم: فرعون وقومه ﴿وَيَسْتَخْلَفُكُمْ﴾، يقول: يجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم، لا تخافونهم ولا أحدًا من الناس غيرهم ﴿فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، يقول: فيرى ربكم ما تعملون بعدهم، من مسارعتكم في طاعته، وتثاقلكم عنها.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد اخترنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة "بالسنين"، يقول: بالجُدوب سنة بعد سنة، والقحوط. يقال منه: "أُسِنَتِ القوم"، إذا أجذبوا.

﴿ونقص من الثمرات﴾، يقول: واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾، يقول: عظة لهم وتذكيرًا لهم، لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن عبد الله ورجاء بن حيوة وقتادة

القول في تاويل قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾، نحن أولى بها ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، يعني جدوب وقحوط وبلاء ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾، يقول: يتشاءموا ويقولوا: ذهب حظوظنا وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية، مذ جاءنا موسى ﷺ. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن زيد

القول في تاويل قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ألا ما طائر آل فرعون وغيرهم وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب وغير ذلك من أنصباء الخير والشر "إلا عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون"، أن ذلك كذلك، فلجهلهم بذلك كانوا يطَّيِّرون بموسى ومن معه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقال آل فرعون لموسى: يا موسى، مهما تأتينا به من علامة ودلالة "لتسحرنا"، يقول: لتلفتنا بها عما نحن عليه من دين فرعون ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: فما نحن لك في ذلك بمصدقين على أنك محق فيما تدعونا إليه. وقد دللنا فيما مضى على معنى "السحر" بما أغنى عن إعادته.

القول في تاويل قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى "الطوفان". قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، ما قاله ابن عباس، على ما رواه عنه أبو ظبيان أنه أمر من الله طاف بهم، وأنه

مصدر من قول القائل: "طاف بهم أمر الله يطوف طوفاناً"، كما يقال: "نقص هذا الشيء ينقص نُقْصَانًا". وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد وجاز أن يكون الموت الذريع. وأما "القمل"، فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. كما جاء عن ابن عباس وقال آخرون: بل هو الدبى، وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له. كما جاء عن السدي وابن عباس وقال آخرون: بل "القمل"، البراغيث. كما جاء عن ابن زيد وقال بعضهم: هي دواب سود صغار. كما جاء عن الحسن

والسبب الذي من أجله أحدثها الله فيهم كما جاء عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل! فأبى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئاً، فخافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزرع والتمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد، فسلبه على الكلأ فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فذأسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة. فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا! فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذفته في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتشب الضفادع في فيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! [فكشف عنهم فلم يؤمنوا] فأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب! فقال: إنه قد سحركم! فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطاً؟ فأتوه فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل! فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

قال زيد بن أسلم: أما "القمل" فالقمل وأما "الدم"، فسلب الله عليهم الرعاف.

وأما قوله: ﴿آيات مفصلات﴾، فإن معناه: علامات ودلالات على صحة نبوة موسى، وحقيقة ما دعاهم إليه "مفصلات"، قد فصل بينها، فجعل بعضها يتلو بعضًا، وبعضها في إثر بعض وبنحو الذي قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وابن جريج وكان مجاهد يقول فيما ذكر عنه في معنى "المفصلات"،: معلومات.

القول في تأويل قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات من الآيات والحجج، عن الإيمان بالله وتصديق رسوله موسى ﷺ واتباعه على ما دعاهم إليه، وتعظموا على الله وعتوا عليه وكانوا قَوْمًا مجرمين، يقول: كانوا قَوْمًا يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق عتوا وتمردا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُكْشِفَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ بِكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ولما وقع عليهم الرجز"، ولما نزل بهم عذاب الله، وحلّ بهم سخطه. ثم اختلف أهل التأويل في ذلك "الرجز" الذي أحبر الله أنه وقع بهؤلاء القوم.

قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب في هذا الموضع أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن فرعون وقومه أنهم لما وقع عليهم الرجز وهو العذاب والسخط من الله عليهم فزعوا إلى موسى بمسألته ربه كشف ذلك عنهم. وجائز أن يكون ذلك "الرجز" كان الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، لأن كل ذلك كان عذابًا عليهم وجائز أن يكون ذلك "الرجز" كان طاعونًا، ولم يخبرنا الله أي ذلك كان، ولا صحَّ عن رسول الله ﷺ بأيّ ذلك كان خبر، فنسلم له. فالصواب أن نقول فيه كما قال جل ثناؤه: ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾، ولا نعتده إلا بالبيان الذي لا تمنع فيه بين أهل التأويل، وهو لما حلّ بهم عذاب الله وسخطه. ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾، يقول: بما أوصاك وأمرك به. وقد بينا معنى: "العهد"، فيما مضى.

﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾، يقول: لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه ﴿لنؤمننَّ لك﴾، يقول: لنصدقن بما جئت به ودعوت إليه ولنقرنَّ به لك ﴿ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل﴾، يقول: ولنخليّن معك بني إسرائيل فلا نمنعهم أن يذهبوا حيث شاؤوا.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُيُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فدعا موسى ربه فأجابته، فلما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله بهم ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾، ليستوفوا عذاب أيامهم التي جعلها الله لهم من الحياة أجلا إلى وقت هلاكهم ﴿إذا هم ينكثون﴾، يقول: إذا هم ينقضون عهودهم التي عاهدوا ربهم وموسى،

ويقيمون على كفرهم وضلالهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (٣٦) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما نكثوا عهودهم "انتقمنا منهم"، يقول: انتصرنا منهم بإحلال نعمتنا بهم، وذلك عذابه "فأغرقناهم في اليم"، وهو البحر، ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾، يقول: فعلنا ذلك بهم بتكذيبهم بحججنا وأعلامنا التي أريناهموها ﴿وكانوا عنها غافلين﴾، يقول: وكانوا عن النعمة التي أحللناها بهم، غافلين قبل حلولها بهم أنها بهم حالة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (٣٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأورثنا القوم الذين كان فرعون وقومه يستضعفونهم، فيذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويستخدمونهم تسخيرًا واستعبادًا من بني إسرائيل مشارق الأرض الشام، وذلك ما يلي الشرق منها "ومغاربها التي باركنا فيها"، يقول: التي جعلنا فيها الخير ثابتًا دائمًا لأهلها. وإنما قال جل ثناؤه: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾، لأنه أورث ذلك بني إسرائيل بمهلك من كان فيها من العمالة. وبمثل الذي قلنا في قوله: ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾، قال أهل التأويل. كما جاء عن الحسن وقتادة

وأما قوله: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنی﴾، فإنه يقول: وفي وعد الله الذي وعد بني إسرائيل بتمامه، على ما وعدهم، من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عدوهم فرعون و"كلمته الحسنی"، قوله جل ثناؤه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُزَيِّرَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، [القصص: ٥-٦]. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد

وأما قوله: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾، فإنه يقول: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العِمَارَاتِ والمَزَارِعِ ﴿وما كانوا يعرشون﴾، يقول: وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور، وأخرجناهم من ذلك كله، وخرَّبنا جميع ذلك. وقد بينا معنى "التعريش"، فيما مضى بشواهد. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٣٨) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر بعد الآيات التي أريناهموها، والعبر التي عاينوها على يدي نبي الله موسى، فلم تزجرهم تلك الآيات، ولم تعظم تلك العبر والبيئات! حتى قالوا مع معابيتهم من

الحجج ما يحق أن يذكر معها البهائم، إذ مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، يقول: يقومون على مثل لهم يعبدونها من دون الله "اجعل لنا" يا موسى "إلهًا"، يقول: مثلاً نعبده وصنماً نتخذُه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنامٌ يعبدونها. ولا تنبغي العبادة لشيء سوى الله الواحد القهار. وقال موسى صلوات الله عليه: إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض.

وذكر عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ "على أصنام لهم"، قال: تماثيل بقر. فلما كان عجل السامريّ شبه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أوّل شأن العجل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وقيل: إن القوم الذين كانوا عكوفاً على أصنام لهم، الذين ذكرهم الله في هذه الآية، قوم كانوا من لخم. كما جاء عن قتادة وقيل: إنهم كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى ﷺ وروي أن أبا واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، قلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط! وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها فقال النبي ﷺ: الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة"، إنكم ستركبون سنن الذين من قبلكم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل موسى لقومه من بني إسرائيل. يقول تعالى ذكره: قال لهم موسى: إن هؤلاء العكوف على هذه الأصنام، الله مهلك ما هم فيه من العمل ومفسده، ومخسرهم فيه، بإثابته إياهم عليه العذاب المهين "وباطل ما كانوا يعملون"، من عبادتهم إياها، فمضمحل، لأنه غير نافعهم عند مجيء أمر الله وحلوله بساحتهم، ولا مدافع عنهم بأس الله إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَيْكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال موسى لقومه: أسوى الله ألتمسكم إلهًا، وأجعل لكم معبودًا تعبدونه، والله الذي هو خالقكم، فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟ يقول: أفأبغىكم معبودًا لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه، وتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل!

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره

لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهري مهاجر رسول الله ﷺ: واذكروا مع قبلكم هذا الذي قلموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدمت فعلكم ما فعلتم ﴿إذ أنجيناكم من آل فرعون﴾، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾، يقول: إذ يحملونكم أقبح العذاب وسيئه. وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا ما كان العذاب الذي كان يسومهم سيئه. ﴿يقتلون أبناءكم﴾، الذكور من أولادهم ﴿ويستحيون نساءكم﴾، يقول: يستبقون إناثهم ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾، يقول: وفي سومهم إياكم سوء العذاب، اختبار من الله لكم ونعمة عظيمة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وواعدنا موسى لثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمت ميقات ربه أربعين ليلة من ذي القعدة. ﴿وأتممناها بعشر﴾، يقول: وأتممنا الثلاثين الليلة بعشر ليال تمتة أربعين ليلة.

وقيل: إن العشر التي أتمها به أربعين، عشر ذي الحجة. كما جاء عن مجاهد ومسروق وأما قوله: ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾، فإنه يعني: فكمل الوقت الذي واعد الله موسى أربعين ليلة، وبلغها. كما جاء عن بن جريج

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لما مضى لموعده ربه قال لأخيه هارون: اخلفني في قومي، يقول: كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع. ﴿وأصلح﴾، يقول: وأصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله وعبادته، كما جاء عن بن جريج

وقوله: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾، يقول: ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض، بمعصيتهم ربهم، ومعونتهم أهل المعاصي على عصيانهم ربهم، ولكن اسلك سبيل المطيعين ربهم. وكانت مواعدة الله موسى ﷺ بعد أن أهلك فرعون، ونجى منه بني إسرائيل، فيما قال أهل العلم، كما جاء عن ابن جريج قوله: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾، الآية، قال: يقول: إن ذلك بعد ما فرغ من فرعون وقبل الطور، لما نجى الله موسى ﷺ من البحر وغرق آل فرعون، وخلص إلى الأرض الطيبة، أنزل الله عليهم فيها المن والسلوى، وأمره ربه أن يلقاه، فلما أراد لقاء ربه، استخلف هارون على قومه، وواعدهم أن يأتيهم إلى ثلاثين ليلة، ميعاداً من قبله، من غير أمر ربه ولا ميعاده. فتوجه ليلقى ربه، فلما تمت ثلاثون ليلة، قال عدو الله السامري: ليس يأتيكم موسى، وما يصلحكم إلا إله تعبدونه! فناشدتهم هارون وقال: لا تفعلوا، انظروا ليلتكم هذه ويومكم هذا، فإن جاء وإلا فعلتم ما بدا لكم! فقالوا: نعم! فلما أصبحوا من غد ولم يروا

موسى، عاد السامري لمثل قوله بالأمس. قال: وأحدث الله الأجل بعد الأجل الذي جعله بينهم عشراً، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، فعاد هارون فناشدهم إلا ما نظروا يومهم ذلك أيضاً، فإن جاء وإلا فعلتم ما بدا لكم! ثم عاد السامري الثالثة لمثل قوله لهم، وعاد هارون فناشدهم أن ينتظروا، فلما لم يروا.... وكما جاء. أبو بكر بن عبد الله الهذلي قال: قام السامري إلى هارون حين انطلق موسى فقال: يا نبي الله، إنا استعزنا يوم خرجنا من القبط حلياً كثيراً من زيتهم، وإن الجند الذين معك قد أسرعوا في الحلي يبيعونه وينفقونه، وإنما كان عارية من آل فرعون، فليسوا بأحياء فنردّها عليهم، ولا ندري لعل أخاك نبي الله موسى إذا جاء يكون له فيها رأي، إما يقرّبها قربانا فتأكلها النار، وإما يجعلها للفقراء دون الأغنياء! فقال له هارون: نِعَمْ ما رأيت وما قلت! فأمر منادياً فنادى: من كان عنده شيء من حلي آل فرعون فليأتنا به! فأتوه به، فقال هارون: يا سامري أنت أحق من كانت عنده هذه الخزانة! فقبضها السامري، وكان عدو الله الخبيث صائغاً، فصاغ منه عجلاً جسداً، ثم كذب في جوفه تُرْبَةً من القبضة التي قبض من أثر فرس جبريل عليه السلام إذ رآه في البحر، فجعل .. يخور، ولم يخز إلا مرة واحدة، وقال لبني إسرائيل: إنما تخلف موسى بعد الثلاثين الليلة يلتمس هذا! ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾، [طه: ٨٨]. يقول: إن موسى عليه السلام نسي ربه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أُنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكِ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولما جاء موسى للوقت الذي وعدنا أن يلقانا فيه "وكلمه ربه"، وناجاه "قال" موسى لربه ﴿أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، قال الله له مجيباً: "لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ". وكان سبب مسألة موسى ربه النظر إليه ما جاء عن السدي قال: إن موسى عليه السلام لما كلمه ربه، أحب أن ينظر إليه قال: "رب أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي"، فحُفَّ حول الجبل [بملائكة]، وحُفَّ حول الملائكة بنار، وحُفَّ حول النار بملائكة، وحُفَّ حول الملائكة بنار، ثم تجلّى ربه للجبل.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما اطلع الرب للجبل، جعل الله الجبل دكاً، أي: مستويّاً بالأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، أي: مغشياً عليه. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي، عن عكرمة،

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما ثاب إلى موسى عليه السلام فهمه من غشيته، وذلك هو الإفاقة من الصعقة

التي خرّ لها موسى ﷺ " قال سبحانه لك، يا رب، وتبرئة أن يراك أحد في الدنيا، ثم يعيش "تبت إليك"، من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية "وأنا أول المؤمنين"، بك من قومي، أن لا يراك في الدنيا أحد إلا هلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل. كما جاء عن الربيع وابي العالیه ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، قال الله لموسى: "يا موسى إني اصطفتيتك على الناس"، يقول: اخترتك على الناس "برسالاتي" إلى خلقي، أرسلتك بها إليهم "وبكلامي"، كلمتك وناجيتك دون غيرك من خلقي. "فخذ ما آتيتك" يقول: فخذ ما أعطيتك من أمري ونهيي وتمسك به، واعمل به "وكن من الشاكرين"، لله على ما آتاك من رسالته، وخصك به من النجوى، بطاعته في أمره ونهيه، والمسارة إلى رضاه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكتبنا لموسى في ألواح. وقوله: "من كل شيء"، يقول: من التذكير والتنبية على عظمة الله وعز سلطانه "موعظة"، لقومه ومن أمر بالعمل بما كتب في الألواح "وتفصيلاً لكل شيء"، يقول: وتبييناً لكل شيء من أمر الله ونهيه وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن عباس والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقلنا لموسى إذ كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء: خذ الألواح بقوة. واختلف أهل التأويل في معنى "القوة"، في هذا الموضع. فقال بعضهم: معناها بجدة. كما جاء عن ابن عباس وقال آخرون: معنى ذلك، فخذها بالطاعة لله. كما جاء عن الربيع وقد بينا معنى ذلك بشواهد، واختلاف أهل التأويل فيه، في "سورة البقرة" عند قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قلنا لموسى: "وأمر قومك"، بني إسرائيل "يأخذوا بأحسنها"، يقول: يعملوا بأحسن ما يجدون فيها، كما جاء عن السدي وابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لموسى، إذ كتب في الألواح من كل شيء: خذها بجدة في العمل بما فيها واجتهاد، وأمر قومك يأخذوا بأحسن ما فيها، وانهم عن تضييعها وتضييع العمل بما فيها والشرك بي، فإن من أشرك بي منهم ومن غيرهم، فإني سأريه في الآخرة عند مصيره إليّ، "دار الفاسقين"، وهي نار الله التي

أعدها لأعدائه. وإنما قال: "سأريكم دار الفاسقين"، كما يقول القائل لمن يخاطبه: "سأريك غداً إلام يصير إليه حال من خالف أمري!"، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره.

القول في تأويل قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيعصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه. والسماوات والأرض، وكل موجود من خلقه، فمن آياته، والقرآن أيضاً من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حَقَّتْ عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادِّكار بها مصروفون، لأنهم لو وقَّفوا لفهم بعض ذلك فهُدُوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم، لأنه جل ثناؤه قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، فلا تبديل لكلمات الله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن ير هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق و "وتكبرهم فيها بغير الحق"، تجبرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله، والإذعان لأمره ونهيه، وهم لله عبيد يغذوهم بنعمته، ويريح عليهم رزقه بكرة وعشيًا، "كل آية"، يقول: كل حجة لله على وحدانيته وربوبيته، وكل دلالة على أنه لا تنبغي العبادة إلا له خالصة دون غيره. "لا يؤمنوا بها"، يقول: لا يصدقوا بتلك الآية أنها دالة على ما هي فيه حجة، ولكنهم يقولون: "هي سحر وكذب" "وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً"، يقول: وإن ير هؤلاء الذين وصف صفتهم طريق الهدى والسداد الذي إن سلكوه نجوا من الهلكة والعطب، وصاروا إلى نعيم الأبد، لا يسلكوه ولا يتخذوه لأنفسهم طريقاً، جهلاً منهم وحيرة "وإن يروا سبيل الغي"، يقول: وإن يروا طريق الهلاك الذي إن سلكوه ضلُّوا وهلكوا.

وقد بينا معنى "الغي" فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته.

"يتخذوه سبيلاً"، يقول: يسلكوه ويجعلوه لأنفسهم طريقاً، لصرف الله إياهم عن آياته، وطبعه على قلوبهم، فهم لا يفلحون ولا ينجحون "ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين"، يقول تعالى ذكره: صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها ويذكروا فينبؤوا، عقوبةً منا لهم على تكذيبهم بآياتنا "وكانوا عنها غافلين"، يقول: وكانوا عن آياتنا

وأدلتنا الشاهدة على حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه "غافلين"، لا يتفكرون فيها، لاهين عنها، لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا فعطبوا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق، وكلّ مكذبٍ حجج الله ورسله وآياته، وجاحدٍ أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته، ومنكرٍ لقاء الله في آخرته ذهب أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها فثبّتت، لأنهم عملوا لغير الله، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضى الله، فصارت أعمالهم عليهم وبالا. يقول الله جل ثناؤه: "هل يجزون إلا ما كانوا يعملون"، يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم الخلود في نار أحاط بهم سراقفها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه. وقد بينا معنى "الحبوط" و"الجزاء" و"الآخرة"، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واتخذ بنو إسرائيل قوم موسى، من بعد ما فارقهم موسى ماضياً إلى ربه لمناجاته، ووفاء للوعد الذي كان ربه وعده "من حليهم عجلاً"، وهو ولد البقرة، فعبدوه. ثم بين تعالى ذكره ما ذلك العجل فقال: "جسدًا له خوار" و"الخوار": صوت البقر يخبر جل ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل. وذلك أن الرب جلّ جلاله الذي له ملك السموات والأرض، ومدبر ذلك، لا يجوز أن يكون جسدًا له خوار، لا يكلم أحداً ولا يرشد إلى خير. وقال هؤلاء الذين قص الله قصصهم لذلك: "هذا إلها وإله موسى"، فعكفوا عليه يعبدونه، جهلاً منهم، وذهاباً عن الله وضلالاً.

وقد بينا سبب عبادتهم إياه، وكيف كان اتخاذ من اتخذ منهم العجل، فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

وقوله: "ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً"، يقول: ألم ير الذين عكفوا على العجل الذي اتخذوه من حليهم يعبدونه، أن العجل لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً؟ يقول: ولا يرشدهم إلى طريق؟ وليس ذلك من صفة ربهم الذي له العبادة حقاً، بل صفته أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير، وينهاهم عن سبيل المهالك والردى. يقول الله جل ثناؤه: "اتخذوه"، أي: اتخذوا العجل إلهاً، وكانوا باتخاذهم إياه رباً معبوداً ظالمين لأنفسهم، لعبادتهم غير من له العبادة، وإضافتهم الألوهة إلى غير الذي له الألوهة.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ولما سقط في أيديهم"، ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته، عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم. وعنى بقوله: "ورأوا أنهم قد ضلوا"، ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم، قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به: "لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين". ومعنى قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾: "لئن لم يتعطف علينا ربنا بالتوبة برحمته، ويتعمد بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم".

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولما رجع موسى إلى قومه من بني إسرائيل، رجع غضبان أسفًا، لأن الله كان قد أخبره أنه قد فتن قومه، وأن السامري قد أضلهم، فكان رجوعه غضبان أسفًا لذلك. و"الأسف" شدة الغضب، والتغيظ به على من أغضبه، كما جاء عن أبي الدرداء وقوله: "قال بئسما خلفتموني من بعدي"، يقول: بئس الفعل فعلتم بعد فراقى إياكم وأوليتموني فيمن خلفت ورأي من قومي فيكم، وديني الذي أمركم به ربكم. يقال منه: "خلفه بخير"، و"خلفه بشر"، إذا أولاه في أهله أو قومه ومن كان منه بسبيل من بعد شخوصه عنهم، خيرًا أو شرًا.

وقوله: "أعجلتم أمر ربكم"، يقول: أسبقتم أمر ربكم في نفوسكم، وذهبتم عنه؟

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِثْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وألقى موسى الألواح. ثم اختلف أهل العلم في سبب إلقائه إياها.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك، أن يكون سبب إلقاء موسى الألواح كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجل، لأن الله جل ثناؤه بذلك أخبر في كتابه فقال: "ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه". واختلفوا في "الألواح". فقال بعضهم: كانت من زمرد أخضر. وقال بعضهم: كانت من ياقوت. وقال بعضهم: كانت من برد. كما جاء عن مجاهد وابن جريج وغيرهما

أما قوله: "وأخذ برأس أخيه يجره إليه"، فإن ذلك من فعل نبي الله ﷺ كان، لموجده على أخيه هارون في تركه أتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل

ثناؤه مخبراً عن قيل موسى عليه السلام له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ؟ [طه: ٩٢، ٩٣]، حين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قبله لموسى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ قَوْلِي﴾، [طه: ٩٤]، وقال: "يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء"، الآية وقيل: إن هارون إنما قال لموسى عليه السلام: "يا ابن أم"، ولم يقل: "يا ابن أبي"، وهما لأب واحد وأم واحدة، استعطافاً له على نفسه برحم الأم.

وقوله: "إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني"، يعني بالقوم، الذين عكفوا على عبادة العجل وقالوا: "هذا إلهنا وإله موسى"، وخالفوا هارون. وكان استضعافهم إياه: تركهم طاعته واتباع أمره وكادوا يقتلونني"، يقول: قاربوا ولم يفعلوا.

وأما قوله: "ولا تجعلني مع القوم الظالمين"، فإنه قول هارون لأخيه موسى. يقول: لا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي ولم أخالف أمرك، محلّ من عصاك فخالف أمرك، وعبد العجل بعدك، فظلم نفسه، وعبد غير من له العبادة، ولم أشايعهم على شيء من ذلك، كما جاء عن مجاهد

القول في تاويل قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال موسى، لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله، في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل: "رب اغفر لي"، مستغفراً من فعله بأخيه، ولأخيه من سالف سلف له بينه وبين الله: تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به "وأدخلنا في رحمتك"، يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئاً.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "إن الذين اتخذوا العجل" إلهاً "سينالهم غضب من ربهم"، بتعجيل الله لهم ذلك "وذلة"، وهي الهوان، لعقوبة الله إياهم على كفرهم بربهم "في الحياة الدنيا"، في عاجل الدنيا قبل أجل الآخرة. ويعني بقوله: "وكذلك نجزي المفتريين"، وكما جزيت هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً، من إحلال الغضب بهم، والإذلال في الحياة الدنيا على كفرهم ربهم، وردتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك نجزي كل من افترى على الله، فكذب عليه، وأقر بالوهمية غيره، وعبد شيئاً سواه من الأوثان، بعد إقراره بوحداية الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسله وقيل ذلك، إذا لم يتب من كفره قبل قتله. وبنحو الذي قلنا في

ذلك قال جماعةٌ من أهل التأويل. كما جاء عن بن عيينة وعلي بن ابى طالب وإي قلابة

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابلٌ من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرة كانت معصيته أو كبيرة، كفرًا كانت أو غير كفر، قبل من عبدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل وارتدادهم عن دينهم. يقول جل ثناؤه: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضى الله بإنابتهم إلى ما يحب مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط، من بعد سعى أعمالهم، وصدّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين، وتائبٌ على المنيين، بإخلاص قلوبهم ويقين منهم بذلك "لغفور"، لهم، يقول: لساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها "رحيم"، بهم، وبكل من كان مثلهم من التائبين.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "ولما سكت عن موسى الغضب". ولما كفّ عنه وسكن. وكذلك كل كافٍ عن شيء: "ساكت عنه"، وإنما قيل للساكت عن الكلام "ساكت"، لكفه عنه. "أخذ الألواح"، يقول: أخذها بعد ما ألقاها، وقد ذهب منها ما ذهب "وفي نسختها هدى ورحمة"، يقول: وفيما نسخ فيها، أي كتب فيها "هدى" بيان للحق "ورحمة للذين هم لربهم يرهبون"، يقول: للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واختار موسى من قومه سبعين رجلا للوقت والأجل الذي وعده الله أن يلقاه فيه بهم، للتوبة مما كان من فعل سفهائهم في أمر العجل، كما جاء عن ابن إسحاق قال: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتهم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهّروا، وطهّروا ثيابكم! فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقته له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربّه، لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا! فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا! وكان موسى إذا كلمه الله وقّع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه! فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقّعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل! فلما فرغ الله من أمره،

انكشف عن موسى الغمام. أقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة! فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فافْتُلَّتْ أرواحهم فماتوا جميعاً، وقام موسى ﷺ يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي! قد سفهوا! أفتهلك مَنْ ورائي من بني إسرائيل؟ وقد بينا معنى "الرجفة" فيما مضى بشواهدنا، وأنها: ما رجف بالقوم وزعزعهم وحركهم، أهلكهم بعد فأماتهم، أو أصعقهم، فسلب أفهامهم. كما جاء عن مجاهد وابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۝﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال:

إن موسى إنما حزن على هلاك السبعين بقوله: "أتهلكنا بما فعل السفهاء منا"، وأنه إنما عنى بـ"السفهاء" عبدة العجل. وذلك أنه محال أن يكون موسى ﷺ كان تَخَيَّرَ من قومه لمسألة ربه ما أراه أن يسأل لهم إلا الأفضل فالأفضل منهم، ومحال أن يكون الأفضل كان عنده مَنْ أشرك في عبادة العجل واتخذَه دون الله إلهاً. فإن قال قائل: فجائر أن يكون موسى ﷺ كان معتقداً أن الله سبحانه يعاقب قومًا بذنوب غيرهم، فيقول: أتهلكنا بذنوب من عبد العجل، ونحن من ذلك برآء؟ قيل: جائز أن يكون معنى "الإهلاك" قبض الأرواح على غير وجه العقوبة، كما قال جل ثناؤه: ﴿إِنْ أَمْرُ هَلَكْ﴾، [النساء: ١٧٦] يعني: مات فيقول: أتميتنا بما فعل السفهاء منا؟

وأما قوله: "إن هي إلا فتنتك"، فإنه يقول جل ثناؤه: ما هذه الفعلة التي فعلها قومي، من عبادتهم ما عبدوا دونك، إلا فتنة منك أصابتهم ويعني بـ"الفتنة"، الابتلاء والاختبار يقول: ابتليتهم بها، ليتبين الذي يضل عن الحق بعبادته إياه، والذي يهتدي بترك عبادته. وأضاف إضلالهم وهدايتهم إلى الله، إذ كان ما كان منهم من ذلك عن سبب منه جل ثناؤه.

وبنحو ما قلنا في "الفتنة" قال جماعة من أهل التأويل. كما جاء عن أبي العالیه وابن عباس وقوله: "أنت ولينا"، يقول: أنت ناصرنا. "فاغفر لنا"، يقول: فاستر علينا ذنوبنا بترك عقابنا عليها "وارحمنا"، تعطف علينا برحمتك "وأنت خير الغافرين"، يقول: خير من صَفَحَ عن جرم، وستر على ذنب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: مخبراً عن دعاء نبيه موسى ﷺ أنه قال فيه: "واكتب لنا"، أي: اجعلنا ممن كتبت له "في هذه الدنيا حسنة"، وهي الصالحات من الأعمال "وفي الآخرة"، ممن كتبت له المغفرة لذنوبه، كما جاء عن بن جريج

وقوله: "إنا هُندنا إليك"، يقول: إنا تبنا إليك.

وينحو ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وسعيد وقتادة وغيرهم

القول في تأويل قوله: ﴿قَالَ عَدَايُ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال الله لموسى: هذا الذي أصبتُ به قومك من الرجفة، عذابي أصيب به من أشاء من خلقي، كما أصيب به هؤلاء الذين أصبتهم به من قومك "ورحمتي وسعت كل شيء"، يقول: ورحمتي عمّت خلقي كلهم. وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم: مخرجه عامٌ، ومعناه خاص، والمراد به: ورحمتي وسعت المؤمنين بي من أمة محمد ﷺ. واستشهد بالذي بعده من الكلام، وهو قوله: "فسأكتبها للذين يتقون"، الآية. كما جاء عن سعيد وابي بكر الهذلي وقتادة وقال آخرون: بل ذلك على العموم في الدنيا، وعلى الخصوص في الآخرة. كما جاء عن الحسن وقتادة وقال آخرون: هي على العموم، وهي التوبة. كما جاء عن بن زيد

وأما قوله: "فسأكتبها للذين يتقون"، فإنه يقول: فسأكتب رحمتي التي وسعت كل شيء ومعنى "أكتب" في هذا الموضع: أكتب في اللوح الذي كُتب فيه التوراة "للذين يتقون"، يقول: للقوم الذين يخافون الله ويخشون عقابه على الكفر به والمعصية له في أمره ونهيه، فيؤدّون فرائضه، ويجتنبون معاصيه. وأما "الزكاة وإيتاؤها"، فقد بينّا صفتها فيما مضى، بما أغنى عن إعادته وأما قوله: "والذين هم بآياتنا يؤمنون"، فإنه يقول: وللقوم الذين هم بأعلامنا وأدلتنا يصدّقون ويقرّون.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ قال أبو جعفر: وهذا القول إبانة من الله جل ثناؤه عن أن الذين وعد موسى نبيّه ﷺ أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها جل ثناؤه بقوله: "ورحمتي وسعت كل شيء"، هم أمة محمد ﷺ، لأنه لا يعلم الله رسولٌ وُصف بهذه الصفة أعني "الأمي" غير نبينا محمد ﷺ. وبذلك جاءت الروايات عن أهل التأويل. كالذي جاء عن ابن عباس وسعيد وغيرهما وقد بينا معنى "الأمي" فيما مضى، بما أغنى عن إعادته. وأما قوله: "الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل"، فإن "الهاء" في قوله: "يجدونه"، عائدة على "الرسول"، وهو محمد ﷺ.

كالذي جاء عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن. يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحزراً للأُميين، أنت عبادي ورسولي، سميتك

المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: "لا إله إلا الله"، فنفتح به قلباً غُلْفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُميًا قال عطاء: ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفًا، إلا أن كعبًا قال بلغته: قلبًا غُلُوفًا، وآذانًا صموميًا، وأعينًا عُموميًا.

القول في تأويل قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يأمر هذا النبي الأمي أتباعه بالمعروف وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك "المعروف" الذي يأمرهم به "وينهاهم عن المنكر" وهو الشرك بالله، والانتها عما نهاهم الله عنه. وقوله: "ويحل لهم الطيبات"، وذلك ما كانت الجاهلية تحرمه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي "ويحرم عليهم الخبائث"، وذلك لحم الخنزير والرِّبَا وما كانوا يستحلونه من المطاعم والمشارب التي حرمها الله، كما جاء عن ابن عباس وأما قوله: "ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم"، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن "الإصر" هو العهد وقد بينا ذلك بشواهد في موضع غير هذا بما فيه الكفاية

وأن معنى الكلام: يضع النبي الأمي العهد الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل، من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضة، فنسخها حكم القرآن.

القول في تأويل قوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فالذين صدّقوا بالنبي الأمي، وأقروا بنبوته "وعزّروه"، يقول: وقروه وعظموه وحمّوه من الناس، كما جاء عن ابن عباس وقتادة

وقوله: "نصروه"، يقول: وأعانوه على أعداء الله وأعدائه، بجهادهم ونصب الحرب لهم "واتبعوا النور الذي أنزل معه"، يعني القرآن والإسلام "أولئك هم المفلحون"، يقول: الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصف بها جل ثناؤه أتباع محمد ﷺ، هم المنجحون المدركون ما طلبوا ورجّوا بفعلهم ذلك. كما جاء عن قتادة

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "قل"، يا محمد للناس كلهم "إني رسول الله إليكم جميعًا"، لا إلى

بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرُّسل، مرسلًا إلى بعض الناس دون بعض. فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم. وقوله: "الذي"، من نعت اسم "الله" وإنما معنى الكلام: قل: يا أيها الناس إني رسول الله، الذي له ملك السموات والأرض، إليكم. ويعني جل ثناؤه بقوله: "الذي له ملك السموات والأرض"، الذي له سلطان السموات والأرض وما فيهما، وتدبير ذلك وتصريفه "لا إله إلا هو"، يقول: لا ينبغي أن تكون الألوهة والعبادة إلا له جل ثناؤه، دون سائر الأشياء غيره من الأنداد والأوثان، إلا لمن له سلطان كل شيء، والقادر على إنشاء خلق كل ما شاء وإحيائه، وإفناؤه إذا شاء إماتته "فآمنوا بالله ورسوله"، يقول جل ثناؤه: قل لهم: فصدقوا بآيات الله الذي هذه صفته، وأقروا بوحدانيته، وأنه الذي له الألوهة والعبادة، وصدقوا برسوله محمد ﷺ أنه مبعوث إلى خلقه، داع إلى توحيدهِ وطاعته.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآتَوْهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قال أبو جعفر: أما قوله: "الذي"، فإنه من نعت رسول الله ﷺ. وقد بينت معنى "الذي" فيما مضى بما أغنى عن إعادته ومعنى قوله: "الأمي". "الذي يؤمن بالله"، يقول: الذي يصدق بالله وكلماته. ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "وكلماته".

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن الله تعالى ذكره أمر عباده أن يصدقوا بنبوة النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، ولم يخص الخبر جل ثناؤه عن إيمانه من "كلمات الله" ببعض دون بعض، بل أخبرهم عن جميع "الكلمات"، فالحق في ذلك أن يعم القول، فإن رسول الله ﷺ كان يؤمن بكلمات الله كلها، على ما جاء به ظاهر كتاب الله.

وأما قوله: "واتبعوه لعلكم تهتدون"، فاهتدوا به أيها الناس، واعمِلوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله "لعلكم تهتدون"، يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ومن قوم موسى"، يعني بني إسرائيل "أمة"، يقول: جماعة "يهدون بالحق"، يقول: يهتدون بالحق، أي يستقيمون عليه ويعملون "وبه يعدلون"، أي: وبالحق يعطون ويأخذون، ويُنصفون من أنفسهم فلا يجورون. كما جاء عن بن جريج والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فرقناهم يعني قوم موسى من بني إسرائيل، فرقهم الله فجعلهم قبائل شتى، اثنتي عشرة قبيلة. وقد بينا معنى "الأسباط"، فيما مضى، ومن هم. وأما "الأمم"، فالجماعات و"الأسباط" في بني إسرائيل نحو "القرن". وقيل: إنما فرقوا أسباطًا لاختلافهم في دينهم.

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٢٦) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "وأوحينا إلى موسى"، إذ فرقنا بني إسرائيل قومه اثنتي عشرة فرقة، وتيهناهم في التيه، فاستسقوا موسى من العطش وغور الماء "أن اضرب بعصاك الحجر". وقد بينا السبب الذي كان قومه استسقوه وبيننا معنى الوحي بشواهد.

"فانبجست"، فانبصبت وانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء، "قد علم كل أناس"، يعني: كل أناس من الأسباط الاثنتي عشرة "مشربهم"، لا يدخل سبط على غيره في شربه "وظللنا عليهم الغمام"، يكنهم من حر الشمس وأذاها.

وقد بينا معنى "الغمام" فيما مضى قبل، وكذلك: "المن والسلوى".

"وأنزلنا عليهم المن والسلوى"، طعاماً لهم "كلوا من طيبات ما رزقناكم"، يقول: وقلنا لهم: كلوا من حلال ما رزقناكم، أيها الناس، وطيبناه لكم "وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"، وفي الكلام محذوف، ترك ذكره استغناءً بما ظهر عما ترك، وهو: "فأجموا ذلك"، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير "وما ظلمونا"، يقول: وما أدخلوا علينا نقصاً في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا، وفعلهم ما فعلوا "ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"، أي: ينقصونها حظوظها باستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَذَلُّوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضاً، يا محمد، من خطأ فعل هؤلاء القوم، وخلافهم على ربهم، وعصيانهم نبيهم موسى ﷺ، وتبديلهم القول الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: "اسكنوا هذه القرية"، وهي قرية بيت المقدس "فكلوا منها"، يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها "حيث شئتم"، منها، يقول: أنى شئتم منها "وقولوا حطة"، يقول: وقولوا: هذه الفعل "حِطَّةٌ"، تحطُ ذنوبنا "نغفر لكم"، يتغمد لكم ربكم "ذنوبكم"، التي سلفت منكم، فيغفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها. "سنزيد المحسنين"، منكم، وهم المطيعون لله، على ما وعدتكم من غفران الخطايا. وقد ذكرنا الروايات في كل ذلك باختلاف المختلفين، والصحيح من القول لدينا فيه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

القول في تاويل قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٢٨) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فغير الذين كفروا

بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، فقالوا وقد قيل لهم: قولوا: هذه حطة: "حطّة في شعيرة". وقولهم ذلك كذلك، هو غير القول الذي قيل لهم قولوه. يقول الله تعالى: "فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء"، بعثنا عليهم عذاباً، أهلكناهم بما كانوا يغيرون ما يؤمرون به، فيفعلون خلاف ما أمرهم الله بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بفعله. وقد بينا معنى الرجز فيما مضى.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واسأل، يا محمد، هؤلاء اليهود، وهم مجاوروك، عن أمر "القرية التي كانت حاضرة البحر"، يقول: كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه. واختلف أهل التأويل فيها. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر وجائر أن تكون أيلة وجائر أن تكون مدين وجائر أن تكون مقنا لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأيّ ذلك من أيّ، والاختلاف فيه على ما وصفت. ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعينه، إلا بخبر يوجب العلم. ولا خبر كذلك في ذلك.

وقوله: "إذ يعدون في السبت"، يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمر الله، ويتجاوزونه إلى ما حرمه الله عليهم. وكان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك. "إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً"، يقول: إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم الذي نهوا فيه العمل "شرعاً"، يقول: شارة ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية، كشوارع الطرق، كما جاء عن ابن عباس

وقوله: "ويوم لا يسبتون"، يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت "لا تأتيتهم"، الحيتان "كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون"، يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل صيده "كذلك نبلوهم"، ونختبرهم "بما كانوا يفسقون"، يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخرجهم عنها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذَرَةُ إِلَى رَبِّكُمُ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضاً، يا محمد "إذ قالت أمة منهم"، جماعة منهم لجماعة كانت تعظ المعتدين في السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه "لم تعظون قوماً الله مهلكهم"، في الدنيا

بمعصيتهم إياه، وخلافهم أمره، واستحلالهم ما حرم عليهم "أو معذبهم عذاباً شديداً"، في الآخرة، قال الذين كانوا ينهونهم عن معصية الله مجيبهم عن قولهم: عظمتنا إياهم معذرةً إلى ربكم، نؤدّي فرضه علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "ولعلمهم يتقون"، يقول: ولعلمهم أن يتقوا الله فيخافوه، فنيبوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتهم إياه، وتعدّيه على ما حرم عليهم من اعتدائهم في السبت، كما جاء عن ابن عباس قوله: "وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً"، هي قرية على شاطئ البحر بين مكة والمدينة، يقال لها: "أيلة"، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر. فإذا مضى يوم السبت، لم يقدرُوا عليها. فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوّاً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم. فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النّهاء: تعلّموا أنّ هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، لم تعظون قوماً الله مهلكهم، وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: "معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون"، وكلّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: "لم تعظون قوماً الله مهلكهم"، والذين قالوا: "معذرة إلى ربكم"، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة وخنازير.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا دَسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَتَجَنَّبُوا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبت ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه، وضيّعت ما وعظمتها الطائفة الواعظة وذكرتها به، من تحذيرها عقوبة الله على معصيتها، فتقدّمت على استحلال ما حرم الله عليها أنجي الله الذين ينهون منهم عن "السوء" يعني عن معصية الله، واستحلال حُرْمه "وأخذنا الذين ظلموا"، يقول: وأخذ الله الذين اعتدوا في السبت، فاستحلوا فيه ما حرم الله من صيد السمك وأكله، فأحلّ لهم بأسه، وأهلكهم بعذاب شديد بيّس بما كانوا يخالفون أمر الله، فيخرجون من طاعته إلى معصيته، وذلك هو "الفسق" وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وابن جريج

وأما قوله: "بعذاب بيّس"، كما جاء عن ابن عباس في قوله: "وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بيّس"، أليم وجيع.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما تمردوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم

ما حَرَّمَ الله عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه "قلنا لهم كونوا خاسئين"، أي: بُعْدَاء من الخير وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتاده وابن جبير

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "وإذ تأذن"، واذكر، يا محمد، إذ آذن ربك، وأعلم وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد

وقوله: "ليبعثن عليهم"، يعني: أعلم ربك ليعثن على اليهود من يسومهم سوء العذاب. قيل: إن ذلك، العرب، بعثهم الله على اليهود، يقاتلون من لم يسلم منهم ولم يعط الجزية، ومن أعطى منهم الجزية كان ذلك له صغاراً وذلة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة وغيرهما

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن ربك يا محمد، لسريع عقابه إلى من استوجب منه العقوبة على كفره به ومعصيته "وإنه لغفور رحيم"، يقول: وإنه لذو صفح عن ذنوب من تاب من ذنوبه، فأنا بـ وراجع طاعته، يستر عليها بعفوه عنها "رحيم"، له، أن يعاقبه على جرمه بعد توبته منها، لأنه يقبل التوبة ويُقِلُّ العثرة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وفرقنا بني إسرائيل في الأرض "أممًا يعني: جماعات شتى متفرقين، كما جاء عن ابن عباس

وقوله: "منهم الصالحون"، يقول: من هؤلاء القوم الذين وصفهم الله من بني إسرائيل "الصالحون"، يعني: من يؤمن بالله ورسله "ومنهم دون ذلك"، يعني: دون الصالح. وإنما وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم كانوا كذلك قبل ارتدادهم عن دينهم، وقبل كفرهم بربهم، وذلك قبل أن يبعث فيهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليه.

وقوله: "وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون"، يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفص في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي "الحسنات" التي ذكرها جل ثناؤه ويعني بـ "السيئات"، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال "لعلمهم يرجعون"، يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم وينبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه.

القول في تأويل قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره:

فخلف من بعد هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم "خلف" يعني: خلف سوء. يقول: حدث بعدهم وخلافهم، وتبدل منهم، بَدَلُ سَوَاءٍ. قال أبو جعفر: أي قَبْدَل من بعدهم بَدَلُ سوء، ورثوا كتاب الله فَعَلَّمُوهُ، وضيعوا العمل به، فخالفوا حكمه، يُرْشُونَ في حكم الله، فيأخذون الرشوة فيه من عَرَض هذا العاجل "الأدنى"، يعني ب "الأدنى": الأقرب من الآجل الأبعد. ويقولون إذا فعلوا ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا، تَمَنِّيَا على الله الأباطيل، كما قال جل ثناؤه فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾، [البقرة: ٧٩] "وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه"، يقول: وإن شرع لهم ذنبٌ حرامٌ مثله من الرشوة بعد ذلك، يأخذوه واستحلوه ولم يرتدعوا عنه. يخبر جل ثناؤه عنهم أنهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل وإن اختلفت عنه عباراتهم. كما جاء عن سعيد بن جبير وقتاده

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ألم يؤخذ"، على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، القائلين: "سيغفر الله لنا فعلنا هذا"، إذا عوتبوا على ذلك "ميثاق الكتاب"، وهو أخذ الله اليهود على بني إسرائيل، بإقامة التوراة، والعمل بما فيها. فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذين قص قصتهم في هذه الآية، موبخاً على خلافهم أمره، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ولا يُضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه؟ كما جاء عن ابن عباس

وأما قوله: "ودرسوا ما فيه"، فإنه معطوف على قوله: "ورثوا الكتاب"، ومعناه: "فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب"، "ودرسوا ما فيه" ويعني بقوله: "ودرسوا ما فيه"، قرأوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتاب فعلموا ما فيه ودرسوه، فضيعوه وتركوا العمل به، وخالفوا عهد الله إليهم في ذلك، كما جاء عن بن زيد

قال أبو جعفر: "والدار الآخرة خير للذين يتقون"، يقول جل ثناؤه: وما في الدار الآخرة، وهو ما في المعاد عند الله، مما أعد لأوليائه، والعاملين بما أنزل في كتابه، المحافظين على حدوده "خير للذين يتقون الله"، ويخافون عقابه، فيراقبونه في أمره ونهيه، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم "أفلا يعقلون"، يقول: أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم، ويقولون: "سيغفر لنا"، أن ما عند الله في الدار الآخرة للمتقين العادلين بين الناس في

أحكامهم، خير من هذا العرض القليل الذي يستعجلونه في الدنيا على خلاف أمر الله، والقضاء بين الناس بالجور

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ قال أبو جعفر ويعني بذلك: والذين يعملون بما في كتاب الله "وأقاموا الصلاة"، بحدودها، ولم يضيعوا أوقاتها "إنا لا نضيع أجر المصلحين". يقول تعالى ذكره: فمن فعل ذلك من خلقي، فإني لا أضيع أجر عمله الصالح، كما جاء عن بن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ تَتَّقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: واذكر، يا محمد، إذ اقتلنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظلال وقلنا لهم: "خذوا ما آتيناكم بقوة"، من فرائضنا، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، اعملوا باجتهاد منكم في أدائه، من غير تقصير ولا توانٍ "واذكروا ما فيه"، يقول ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه "لعلكم تتقون"، يقول: كي تتقوا ربكم، فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المَوَاقِيق. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة وابن جريج

وكما جاء عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب الله، أتعجلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم! قالوا: انشُرْ علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفة، قبلناها! قال: اقبلوها بما فيها! قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها! فراجعوا موسى مراراً، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربِّي؟ "لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل". قال: فحدثني الحسن البصري، قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليُمْنَى إلى الجبل، فَرَقاً من أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفِعَتْ عنا بها العقوبة قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبقَ على وجه الأرض جبلٌ ولا شجرٌ ولا حجرٌ إلا اهتزَّ، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغيرٌ ولا كبيرٌ تقرأ عليه التوراة إلا اهتزَّ، ونَفَضَ لها رأسه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: واذكر يا محمد ربَّكَ إذ استخرج ولد آدم من

أصلا بآبائهم، فقرّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به. كما جاء عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرهم بين يديه كالذرّ، ثم كلمهم قَبلاً فقال: "أأست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا... " الآية، إلى ﴿ما فعل المبطلون﴾

قال أبو جعفر: والظاهر يدلُّ على أنه خبر من الله عن قِبل بني آدم بعضهم لبعض، لأنه جل ثناؤه قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم أأست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾، فكأنه قيل: فقال الذين شهدوا على المقرّين حين أقروا، فقالوا: "بلى": شهدنا عليكم بما أقررتم به على أنفسكم، كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

القول في تأويل قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم أيها المقرّون بأن الله ربكم، كيلا تقولوا يوم القيامة: "إنا كنا عن هذا غافلين"، إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلة منه أو تقولوا: ﴿إنما أشرك آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، اتبعنا منهاجهم ﴿أفَتُهْلِكُنَا﴾، بإشراك من أشرك من آبائنا، واتبعنا منهاجهم على جهل منا بالحق؟ ويعني بقوله: ﴿بما فعل المبطلون﴾، بما فعل الذين أبطلوا في دعوهم إلهاً غير الله.

القول في تأويل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وكما فصلنا يا محمد لقومك آيات هذه السورة، وبيّنا فيها ما فعلنا بالأُمم السالفة قبل قومك، وأحللنا بهم من المثّلات بكفرهم وإشراكهم في عبادتي غيري، كذلك نفصل الآيات غيرها ونبينها لقومك، لينزجروا ويرتدعوا، فينبوا إلى طاعتي ويتوبوا من شركهم وكفرهم، فيرجعوا إلى الإيمان والإقرار بتوحيدي وإفراد الطاعة لي وترك عبادة ما سواي.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: "واتل"، يا محمد، على قومك "نبأ الذي آتيناه آياتنا"، يعني خبره وقصته. وكانت آيات الله للذي آتاه الله إياها فيما يقال: اسم الله الأعظم وقيل: النبوة وأختلف أهل العلم إسمه وفي آيات

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر نبيه ﷺ أن يتلو على قومه خبر رجل كان آتاه حُجَجُه وأدلته، وهي "الآيات". وقد دللنا على أن معنى "الآيات": الأدلة والأعلام، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته. وجائز أن يكون الذي كان الله آتاه ذلك "بلعلم" وجائز أن يكون أمية. وكذلك "الآيات" إن كانت بمعنى الحجة التي هي بعض كتب الله التي أنزلها على بعض أنبيائه، فتعلمها الذي ذكره الله في هذه الآية، وعناه بها؛

فجائز أن يكون الذي كان أوتيتها "بلعم" وجائز أن يكون غيره

فالصواب أن يقال فيه ما قال الله، وتُقرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله.

وأما قوله: ﴿فانسلخ منها﴾، فإنه يعني: خرج من الآيات التي كان الله آتاها إياه، فتبرأ منها.

وبنحو ذلك قال أهل التأويل. كما جاء، عن ابن عباس

وقوله: ﴿فأتبعه الشيطان﴾، يقول: فصيرّ نفسه تابعا ينتهي إلى أمره في معصية الله، ويخالف أمر ربّه في معصية الشيطان وطاعة الرحمن.

وقوله: ﴿فكان من الغاوين﴾، يقول: فكان من الهالكين، لضلاله وخلافه أمر ربّه، وطاعة الشيطان.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة "واتبع هواه"، ورفض طاعة الله وخالف أمره.

وكانت قصة هذا الذي وصف الله خبره في هذه الآية، على اختلاف من أهل العلم في خبره وأمره، كما جاء عن المعتمر، عن أبيه: أنه سئل عن الآية: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾، فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام، وكان قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام أو قال الشام قال: فرعب الناس منه رعبا شديدا. قال: فأتوا بلعام، فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه! قال: حتى أوامر ربّي أو حتى أوامر قال: فوامر في الدعاء عليهم، ف قيل له: لا تدع عليهم، فإنهم عبادي، وفيهم نبيهم! قال: فقال لقومه: إني قد وامتّ ربي في الدعاء عليهم، وإني قد نهيت. قال: فأهدوا إليه هدية فقبلها. ثم راجعوه، فقالوا: ادع عليهم! فقال: حتى أوامر! فوامر، فلم يحرّ إليه شيء. قال: فقال: قد وامت فلم يحرّ إليّ شيء! فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم، لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم جرّى على لسانه الدُّعاء على قومه؛ وإذا أراد أن يدعو أن يُفْتَحَ لقومه، دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحو من ذلك إن شاء الله. فقال: فقالوا ما نراك تدعو إلا علينا! قال: ما يجري على لساني إلا هكذا، ولو دعوت عليه ما استجيب لي، ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم: إن الله يُعْصِ الزنا، وإنهم إن وقعوا بالزنا هلكوا، ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النساء فليستقبلنهم، وإنهم قوم مسافرون، فعسى أن يزئبوا فيهلكوا. قال: ففعلوا، وأخرجوا النساء يستقبلنهم. قال: وكان

للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها، أو بلعام: لا تمكيني نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا في الزنا. قال: وأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل، فأرادها على نفسه قال: فقالت: ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى! قال: فقال: إن من منزلتي كذا وكذا، وإن من حالي كذا وكذا! قال: فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: فأمكنيه. قال: ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنهما قال: وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعاً، ورفعهما على رمحه. قال: فرأهما الناس أو كما حدث. قال: وسلط الله عليهم الطاعون. قال: فمات منهم سبعون ألفاً. قال: فقال أبو المعتمر: فحدثني سيار أن بلعاماً ركب حماراً له، حتى إذا أتى الفُلُول أو قال: طريقاً بين الفُلُول جعل يضربها ولا تُقدِّم. قال: وقامت عليه، فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك! قال: فإذا الشيطان بين يديه. قال: فنزل فسجد له، قال الله: ﴿واتل عليهم نبي الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ إلى قوله: ﴿لعلهم يتفكرون﴾ قال: فحدثني بهذا سيار، ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عمّ الخبر بقوله: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾، أنه لو شاء رفعه بآياته التي آتاها إياها. والرفع يعمّ معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها. ومنها الرفع في الذكر الجميل والثناء الرفيع. وجائز أن يكون الله عنى كل ذلك: أنه لو شاء لرفعه، فأعطاه كل ذلك، بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاها إياها. وإذا كان ذلك جائزاً، فالصواب من القول فيه أن لا يخص منه شيء، إذ كان لا دلالة على خصوصه من خبر ولا عقل. وأما قوله: ﴿بها﴾، فإن ابن زيد قال في ذلك كالذي قلنا. وأما قوله: ﴿واتبع هواه﴾، فإن ابن زيد قال في قوله عز وجل: ﴿واتبع هواه﴾ قال: كان هواه مع القوم.

القول في تأويل قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فمثل هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثل الكلب الذي يلهث، طردته أو تركته. ثم اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله جعل الله مثله كمثل الكلب.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من قال: إنما هو مثل لتركه العمل بآيات الله التي آتاها إياه، وأن معناه: سواء وعظ أو لم يوعظ، في أنه لا يترك ما هو عليه من خلافه أمر ربه، كما سواء حمل على الكلب وطرد أو ترك فلم يطرد، في أنه لا يدع اللهث في كلتا حالتيه.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: هذا المثل الذي ضربته لهذا الذي آتيناه آياتنا

فانسَلَخَ منها، مثلُ القومِ الذين كَذَبُوا بِحُجْبِنَا وأَعْلَمْنَا وأَدَلَّتْنَا، فسلَكُوا في ذلك سبيلَ هذا المنسلَخِ من آياتنا الذي آتيناهُ إياه، في تركه العمل بما آتيناهُ من ذلك.

وأما قوله: ﴿فَاقْصِصْ الْقِصَصَ﴾، فإنه يقولُ لنبية محمد ﷺ: فاقصص، يا محمد، هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نَبَأِ الذي آتيناهُ آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصصت عليك نبأهم ونَبَأَ أشباههم، وما حلَّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلنا من نعمتنا على قومك من قريش، وَمَنْ قَبْلَكَ من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بمن قبلهم من النقم والمثالات، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقة أمركَ وصحة نبوتكَ، إذ كان نَبَأُ "الذي آتيناهُ آياتنا" من خفيِّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أخبارهم، ومن قرأ الكتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم الحجة البينة لك عليهم بأنك لله رسول، وأنت لم تعلم ما علمت من ذلك، وحالُ الحال التي أنت بها، إلا بوحى من السماء. وبنحو ذلك كان أبو النضر يقول.

القول في تاويل قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)
قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ساءَ مَثَلًا القوم الذين كذبوا بحجج الله وأدلته فجحدوها، وأنفسهم كانوا يَنقُصُونَ حظوظها، ويبخسونها منافعها، بتكذيبهم بها لا غيرها.

القول في تاويل قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)
قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الهداية والإضلال بيد الله، و"المهتدي" وهو السالك سبيل الحق، الراكبُ قصدَ المحبة في دينه، مَنْ هداه الله لذلك، فوفقه لإصابته. والضالُّ من خذله الله فلم يوفقه لطاعته، ومن فعل الله ذلك به فهو "الخاسر": يعني الهالك. وقد بيَّنا معنى "الخسارة" و"الهداية"، و"الضلالة" في غير موضع من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (١٧٩)
قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا لجَهَنَّمَ كثيرًا من الجن والإنس. يقال منه: ذرأ الله خلقه يذرؤهم ذرأً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن الحسن وسعيد قال أبو جعفر: وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾، لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم برَّبِّهم.

وأما قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجَهَنَّمَ من

خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حُججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم. فوصفهم ربنا جل ثناؤه بأنهم: "لا يفقهون بها"، لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبر صحة [نبوة] الرسل، وبطُول الكفر. وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون، من الشرك بالله، وتكذيب رسله؛ فوصفهم الله بتركهم أعمالها في الحق، بأنهم لا يبصرون بها. وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، آيات كتاب الله، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾، [فصلت: ٢٦]. وذلك نظير وصف الله إياهم في موضع آخر بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، [البقرة: ١٧١]. والعرب تقول ذلك للتارك استعمال بعض جوارحه فيما يصلح له، كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾، هؤلاء الذين ذرأهم لجهنم، هم كالأنعام، وهي البهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما أبصرته لما يصلح وما لا يصلح، ولا تعقل بقلوبها الخير من الشر، فتميز بينهما. فشبهم الله بها، إذ كانوا لا يتذكرون ما يرون بأبصارهم من حُججه، ولا يتفكرون فيما يسمعون من آي كتابه. ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، يقول: هؤلاء الكفرة الذين ذرأهم لجهنم، أشد ذهاباً عن الحق، وألزم لطريق الباطل من البهائم، لأن البهائم لا اختيار لها ولا تمييز، فتختار وتميز، وإنما هي مسخرة، ومع ذلك تهرب من المضار، وتطلب لأنفسها من الغذاء الأصلح. والذين وصف الله صفتهم في هذه الآية، مع ما أعطوا من الأفهام والعقول المميزة بين المصالح والمضار، ترك ما فيه صلاح دنياها وآخرتها، وتطلب ما فيه مضارها، فالبهائم منها أسد، وهي منها أضل، كما وصفها به ربنا جل ثناؤه.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، القوم الذين غفلوا يعني: سهواً عن آياتي وحججي، وتركوا تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على ما دلّت عليه من توحيد ربها، لا البهائم التي قد عرفها ربها ما سخرها له.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾،

كما جاء، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها كُلَّها دخل الجنة".

وأما قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسمَاءِهِ﴾، فإنه يعني به المشركين. وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها ألتهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها "اللات" اشتقاقاً منهم لها من اسم الله الذي هو "الله"، وسموا بعضها "العزى" اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو "العزیز". وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن الخلق الذين خلقنا "أمة"، يعني جماعة "يهدون"، يقول: يهتدون بالحق ﴿وبه يعدلون﴾، يقول: وبالحق يقضون ويُنصفون الناس، كما قال ابن جريج

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والذين كذبوا بأدلتنا وأعلامنا، فجحدها ولم يتذكروا بها، سنمهله بغرته ونزين له سوء عمله، حتى يحسب أنه فيما هو عليه من تكذيبه بآيات الله إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغاية التي كُتِبَتْ له من المهل، ثم يأخذه بأعماله السيئة، فيجازهيه بها من العقوبة ما قد أعدَّ له. وذلك استدراج الله إياه. وأصل "الاستدراج" اغترار المستدرج بلطف من [استدرجه] حيث يرى المستدرج أن المستدرج إليه محسن، حتى يورطه مكرهاً. وقد بينا وجه فعل الله ذلك بأهل الكفر به فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأؤخر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا. [وأصل "الإملاء" من قولهم: "مضى عليه مليّ، وملاوة وملاوة"، وملاوة بالكسر والضم والفتح "من الدهر"، وهي الحين، ومنه قيل: انتظرتك ملياً. ليلغوا بمعصيتهم ربهم، المقدار الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب ثم يقبضهم إليه. وقوله ﴿إِنْ كَيْدِي﴾. والكيد: هو المكر. وقوله: ﴿مَتِينٌ﴾، يعني: قويٌّ شديدٌ،

القول في تأويل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم، لا جنّة به ولا خبل، وأن الذي دعاهم إليه هو [الرأي] الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟ ويعني بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: ما هو إلا نذيرٌ يندركم عقاب الله على كفركم به، إن لم تنيبوا إلى الإيمان به.

ويعني بقوله: ﴿مُبِينٌ﴾، قد أبان لكم، أيها الناس، إنذاره ما أنذركم به من بأس الله على كفركم به.

القول في تاويل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥)

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله، في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبهة، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، يقول: فبأي تخويف وتحذير ترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاها به من عند الله في أي كتابه، يصدّقون، إن لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى؟

القول في تاويل قوله: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦)

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها، لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا فأبصروا رُشدهم؛ ولكن الله أضلّهم، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له إليه، ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم، وتمردهم في شركهم، يترددون، ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله لهم من عقوبته وأليم نكاله.

القول في تاويل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قومًا سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة، فأنزل الله هذه الآية وجائز أن يكون كانوا من قريش وجائز أن يكونوا كانوا من اليهود؛ ولا خبر بذلك عندنا يجوز قطع القول على أي ذلك كان. قال أبو جعفر: فتأويل الآية إذاً: يسألك القوم الذين يسألونك عن الساعة ﴿أَيَّانَ مَرَسَاهَا﴾؟ يقول: متى قيامها؟ ومعنى "أَيَّانَ": متى، في كلام العرب ومعنى قوله: ﴿مَرَسَاهَا﴾، قيامها وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وأما قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾، فإنه أمر من الله نبيه محمداً ﷺ بأن يجيب سائليه عن الساعة بأنه لا يعلم وقت قيامها إلا الله الذي يعلم الغيب، وأنه لا يظهرها لوقتها ولا يعلمها غيره جل ذكره، كما جاء عن قتادة ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ثقلت الساعة في السموات والأرض على أهلها، أن يعرفوا وقتها وقيامها؛ لأن الله أخفى ذلك عن خلقه، فلم يطلع عليه منهم أحداً. وذلك أن الله أخبر بذلك بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجْلِيهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ﴾، وأخبر بعده أنها لا تأتي إلا بغتة، فالذي هو أولى: أن يكون ما بين ذلك أيضاً خبراً عن خفاء علمها عن الخلق، إذ كان ما قبله وما بعده كذلك.

وأما قوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾، فإنه يقول: لا تجيء الساعة إلا فجأة، لا تشعرون بمجيئها،

القول في تأويل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يسألك هؤلاء القوم عن الساعة، كأنك خفي عنها. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿خَفِيٌّ عَنْهَا﴾. قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: كأنك خفي بالمسئلة عنها فتعلمها.

وأما قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، فإن معناه: قل، يا محمد، لسائلك عن وقت الساعة وحين مجيئها: لا علم لي بذلك، ولا علم به إلا [عند] الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، يقول: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك لا يعلمه إلا الله، بل يحسبون أن علم ذلك يوجد عند بعض خلقه.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لسائلك عن الساعة: "أيان مرساها؟" ﴿لَا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ يقول: لا أقدر على اجتلاب نفع إلى نفسي، ولا دفع ضرر يحل بها عنها إلا ما شاء الله أن أملكه من ذلك، بأن يقويني عليه ويعينني ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾، يقول: لو كنت أعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد ﴿لاستكثر من الخير﴾، يقول: لأعددت الكثير من الخير. ثم اختلف أهل التأويل في معنى "الخير" الذي عناه الله بقوله: ﴿لاستكثر من الخير﴾. فقال بعضهم: معنى ذلك: لاستكثر من العمل الصالح. كما جاء عن مجاهد وبن جريج وقال آخرون: معنى ذلك: "لو كنت أعلم الغيب" لأعددت للسنة المجدة من المخصبة، ولعرفت الغلاء من الرخص، واستعددت له في الرخص.

وقوله: ﴿وما مسني السوء﴾، يقول: وما مسني الضر ﴿إن أنا إلا نذير وبشير﴾، يقول: ما

أنا إلا رسولٌ لله أرسلني إليكم، أنذر عقابه مَنْ عصاه منكم وخالف أمره، وأبشّر بثوابه وكرامته من آمن به وأطاعه منكم. وقوله: ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾، يقول: يصدقون بأني لله رسول، ويقرون بحقية ما جئتهم به من عنده.

القول في تاويل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾، يعني بالنفس الواحدة: آدم، كما جاء عن مجاهد وقتادة

ويعني بقوله: ﴿وجعل منها زوجها﴾: وجعل من النفس الواحدة، وهو آدم، زوجها حواء، كما جاء عن قتادة ويعني بقوله: ﴿ليسكن إليها﴾: ليأوي إليها لقضاء حاجته ولذته.

ويعني بقوله: ﴿فلما تغشاها﴾، فلما تدثرها لقضاء حاجته منها، فقضى حاجته منها ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾، وفي الكلام محذوف، ترك ذكره استغناءً بما ظهر عما حذف، وذلك قوله: ﴿فلما تغشاها حملت﴾، وإنما الكلام: فلما تغشاه فقضى حاجته منها حملت.

وقوله: ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾، يعني بـ "خفة الحمل": الماء الذي حملته حواء في رحمها من آدم، أنه كان حملاً خفيفاً، وكذلك هو حمل المرأة ماء الرجل خفيفاً عليها وأما قوله: ﴿فمرت به﴾، فإنه يعني: استمرت بالماء: قامت به وقعدت، وأتمت الحمل، كما جاء عن الحسن والسدي وقتادة وقال آخرون: معنى ذلك: فشكت فيه. كما جاء عن ابن عباس ويعني بقوله: ﴿فلما أثقلت﴾، فلما صار ما في بطنها من الحمل الذي كان خفيفاً، ثقيلاً ودنت ولادتها. يقال منه: "أثقلت فلانة" إذا صارت ذات ثقل بحملها، قال أبو جعفر: ﴿دعوا الله ربهما﴾، يقول: نادى آدم وحواء ربهما وقالوا يا ربنا، "لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين".

واختلف أهل التأويل في معنى "الصالح" الذي أقسم آدم وحواء عليهما السلام أنه إن آتاها صالحاً في حمل حواء: لنكونن من الشاكرين. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء، صالحاً ليكونان لله من الشاكرين. و"الصالح" قد يشمل معاني كثيرة: منها "الصالح" في استواء الخلق، ومنها "الصالح" في الدين، و"الصالح" في العقل والتدبير. وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني "الصالح" دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يُعمَّ كما عمَّه الله، فيقال: إنهما قالوا ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ بجميع معاني "الصالح".

وأما معنى قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، فإنه: لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت له من الولد صالحًا.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما رزقهما الله ولدًا صالحًا كما سألا جعل له شركاء فيما آتاهما ورزقهما. ثم اختلف أهل التأويل في "الشركاء" التي جعلها فيما أوتيا من المولود. قال أبو جعفر: وأولى القولين بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: ﴿فلما آتاهما صالحًا جعل له شركاء﴾ في الاسم لا في العبادة وأن المعنى بذلك آدم وحواء، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك. كما جاء، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، فتعبد لهم الله، وتسميه "عبيد الله" و"عبد الله" ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم، فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش! فولدت له رجلا فسماه "عبد الحارث"، ففيه أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾، إلى قوله: ﴿جعل له شركاء فيما آتاهما﴾، إلى آخر الآية. فإن قال قائل: فما أنت قائل إذ كان الأمر على ما وصفت في تأويل هذه الآية، وأن المعنى بها آدم وحواء في قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾؟ أهو استنكاف من الله أن يكون له في الأسماء شريك، أو في العبادة؟ فإن قلت: "في الأسماء" دل على فساده قوله: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون﴾؟ فإن قلت: "في العبادة"، قيل لك: أكان آدم أشرك في عباد الله غيره؟ قيل له: إن القول في تأويل قوله: ﴿فتعالى عما يشركون﴾، ليس بالذي طنت، وإنما القول فيه: فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الأوثان. فأما الخبر عن آدم وحواء، فقد انقضى عند قوله: ﴿جعل له شركاء فيما آتاهما﴾، ثم استؤنف قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾، فإن قال قائل: فإن آدم وحواء إنما سميا ابنهما "عبد الحارث"، و"الحارث" واحد، وقوله: ﴿شركاء﴾، جماعة، فكيف وصفهما جل ثناؤه بأنهما "جعل له شركاء"، وإنما أشركا واحدًا! قيل: قد دللنا فيما مضى على أن العرب تخرج الخبر عن الواحد مخرج الخبر عن الجماعة، إذا لم تقصد واحدًا بعينه ولم تسمه، كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾، [آل عمران: ١٧٣] وإنما كان القائل ذلك واحدًا، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الجماعة، إذ لم يقصد قصده، وذلك مستفيض في كلام العرب وأشعارها.

وأما قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾، فتنزيه من الله تبارك وتعالى نفسه، وتعظيم لها عما يقول فيه المبطلون، ويدعون معه من الآلهة والأوثان، كما جاء عن بن جريج

القول في تأويل قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أيشركون في عبادة الله، فيعبدون معه "ما لا يخلق شيئًا"، والله يخلقها وينشئها؟

وإنما العبادة الخالصة للخالق لا للمخلوق.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله ما لا يخلق شيئاً من خلق الله، ولا يستطيع أن ينصرهم إن أراد الله بهم سوءاً، أو أحلّ بهم عقوبة، ولا هو قادر إن أراد به سوءاً نصر نفسه ولا دفع ضرر عنها؟ وإنما العابد يعبد ما يعبد لا جتلاب نفع منه أو لدفع ضرر منه عن نفسه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله لا تنفعهم ولا تضرهم، بل لا تجتلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع عنها ضرراً، فهي من نفع غير أنفسها أو دفع الضرر عنها أبعد؟ يعجب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم الله غيره.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره في وصفه وعيبه ما يشرك هؤلاء المشركون في عبادتهم ربهم إياه: ومن صفته أنكم، أيها الناس، إن تدعوهم إلى الطريق المستقيم، والأمر الصحيح السديد لا يتبعوكم، لأنها ليست تعقل شيئاً، فتترك من الطرق ما كان عن القصد منعداً جائزاً، وترك ما كان مستقيماً سديداً. وإنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بذلك من صفتها، تنبيههم على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم. يقول جل ثناؤه: فكيف يهديكم إلى الرشاد من إن دُعي إلى الرشاد وعُرفه لم يعرفه، ولم يفهم رشاداً من ضلال، وكان سواء دعاء داعيه إلى الرشاد وسكوته، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له. يقول: فكيف يُعبد من كانت هذه صفته، أم كيف يُشكّل عظيم جهل من اتخذ ما هذه صفته إلهاً؟ وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبد، الضار من يعصيه، الناصر وليه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه هؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، موبّخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أيها المشركون، آلهة من دون الله، وتعبدونها، شرّاً منكم وكفراً بالله ﴿عباد أمثالكم﴾، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له ممالك. فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سُئل سمع مسألة سائله وأعطى وأفضل، ومن إذا شكى إليه من شيء سمع، فضر من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضر.

القول في تاويل قوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ ﴿١٦٥﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه، معرفهم جهل ما هم عليه مقيمون: الأصنامكم هذه، أيها القوم ﴿أرجل يمشون بها﴾، فيسعون معكم ولكم في حوائجكم، ويتصرفون بها في منافعكم ﴿أم لهم أيد يبطشون بها﴾، فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشر ومكروه ﴿أم لهم أعين يبصرون بها﴾، فيعرفونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه ﴿أم لهم آذان يسمعون بها﴾، فيخبروكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه؟ يقول جل ثناؤه: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتها، والمعظم من الأشياء إنما يعظم لما يرجى منه من المنافع التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندهم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضرر؟

وقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدوا﴾، [قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا شركاءكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة ﴿ثم كيدوا﴾ أنتم وهي ﴿فلا تنظرون﴾، يقول: فلا تؤخرون بالكيد والمكر، ولكن عجلوا بذلك. يُعلمه جل ثناؤه بذلك أنهم لن يضرروه، وأنه قد عصمه منهم، ويُعرف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصرة من بغى أولياءهم بسوء.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل، يا محمد، للمشركين من عبدة الأوثان "إن وليي"، نصيري ومعيني وظهيري عليكم ﴿الله الذي نزل الكتاب﴾ عليّ بالحق، وهو الذي يتولى من صلح عمله بطاعته من خلقه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٦٧﴾ قال أبو جعفر: وهذا أيضًا أمر من الله جل ثناؤه لنبية أن يقوله للمشركين. يقول له تعالى ذكره: قل لهم، إن الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم أيها المشركون من دون الله من الآلهة، لا يستطيعون نصركم، ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرُونَ على نصرة أنفسهم، فأَي هذين أولى بالعبادة وأحق بالآلوهة؟ أَمَن ينصر وليه ويمنع نفسه ممن أَرادَه، أم من لا يستطيع نصر وليه ويعجز عن منع نفسه ممن أَرادَه وبغاه بمكروه؟

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٦٨﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبية محمد ﷺ: قل للمشركين: وإن تدعوا، أيها

المشركون، ألهمكم إلى الهدى وهو الاستقامة إلى السداد ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾، يقول: لا يسمعون دعاءكم ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. وهذا خطاب من الله نبيه ﷺ. يقول: وترى، يا محمد، ألهمهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ولذلك وحد. ولو كان أمر النبي ﷺ بخطاب المشركين، لقال: "وترونها ينظرون إليكم". قال أبو جعفر: فمعنى الكلام: وترى، يا محمد، آلهة هؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، يقابلونك ويحاذونك، وهم لا يبصرونك، لأنه لا أبصار لهم. وقيل: "وتراهم"، ولم يقل: "وتراها"، لأنها صور مصورة على صور بني آدم ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك: قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم وقال: أمر بذلك نبي الله ﷺ في المشركين. وأما قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف وهو المعروف في كلام العرب، مصدر في معنى: "المعروف". فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن "المعروف" صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض.

وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، فإنه أمر من الله تعالى نبيه ﷺ أن يعرض عمن جهل. وذلك وإن كان أمراً من الله نبيه، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل كما جاء عن قتاده

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾، وإما يغضبنيك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم. ﴿فاستعذ بالله﴾، يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إنه سميع عليم﴾.

يقول: إن الله الذي تستعبد به من نزغ الشيطان ﴿سميع﴾ لجهل الجاهل عليك، ولا تستعاذت به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء ﴿عليم﴾ بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه، كما جاء عن بن زيد

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، الله من خلقه، فخافوا عقابه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾، يقول: إذا ألمَّ بهم كمٌّ من الشيطان، من غضب أو غيره مما يصدّ عن واجب حق الله عليهم، تذكروا عقاب الله وثوابه، ووعدته ووعدته، وأبصروا الحق فعملوا به، وانتهوا إلى طاعة الله فيما فرض عليهم، وتركوا فيه طاعة الشيطان. وأختلف أهل التأويل في تاويل الطائف

فقال بعضهم: ذلك "الطائف" هو الغضب. كما جاء عن مجاهد وسعيد

وقال آخرون: هو اللّمة والزّلة من الشيطان. كما جاء عن ابن عباس

قال أبو جعفر: وهذان التأويلان متقاربا المعنى، لأن "الغضب" من استزلال الشيطان، و"اللّمة" من الخطيئة أيضًا منه، فيقال: إن الذين اتقوا إذا عرض لهم عارض من أسباب الشيطان، ما كان ذلك العارض، تذكروا أمر الله وانتهوا إلى أمره.

وأما قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، فإنه يعني: فإذا هم مبصرون هدى الله وبيانه وطاعته فيه، فمتمتھون عما دعاهم إليه طائف الشيطان. كما جاء عن ابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإخوان الشياطين تمدّهم الشياطين في الغي. يعني بقوله: ﴿يَمُدُّوْنَهُمْ﴾، يزيدونهم، ثم لا ينقصون عما نقص عنه الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان. وإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقين الإيمان والكفر، بأن فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفّتهم رهبته عن معاصيه، وردّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم زلّةً وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًّا إلى غيهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التماذي فيها والزيادة منها، فهو أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيده أبدًا، لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مدّه منه، كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وقتادة

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا لم تأت، يا محمد، هؤلاء المشركين بآية من الله ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، يقول: قالوا: هلا اخترتها واصطفيتها. من قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ مَن يُرْسِلُهُ مَن يَشَاءُ﴾، [آل عمران: ١٧٩] يعني: يختار ويصطفى. وقد بينا ذلك في مواضعه بشواهد.

ثم اختلف أهل التأويل في تاويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك،

تأويل من قال تأويله: هلا أحدثتها من نفسك! لدلالة قول الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فيبين ذلك أن الله إنما أمر نبيه ﷺ، بأن يجيهم بالخبر عن نفسه أنه إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحى إليه، لا أنه يحدث من قبل نفسه قولاً وينشئه فيدعو الناس إليه. وحكي عن الفراء أنه كان يقول: "اجتبيت الكلام" و"اختلقته"، و"ارتجلته": إذا افتعلته من قبل نفسك.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: "هلا أحدثتها من قبل نفسك!" إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله؛ لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحى إلي من عنده، فإنما أتبع ما يوحى إلي من ربي، لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أطيع. ﴿هذا بصائر من ربكم﴾، يقول: هذا القرآن والوحي الذي أتله عليكم "بصائر من ربكم"، يقول: حجج عليكم، وبيان لكم من ربكم. واحداً "بصيرة"، كما قال جل ثناؤه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، [الجاثية: ٢٠]. وإنما ذكر "هذا" ووحد في قوله: ﴿هذا بصائر من ربكم﴾، لما وصفت من أنه مراد به القرآن والوحي.

وقوله: ﴿وهدى﴾، يقول: وبيان يهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم ﴿ورحمة﴾، رحم الله به عباده المؤمنين، فأنقذهم به من الضلالة والهلكة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، يقول: هو بصائر من الله وهدى ورحمة لمن آمن، يقول: لمن صدق بالقرآن أنه تنزيل الله ووحى، وعمل بما فيه، دون من كذب به وجحد وكفر به، بل هو على الذين لا يؤمنون به عمى وخزي.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به، المصدقين بكتابه، الذين القرآن لهم هدى ورحمة: ﴿إذا قرئ﴾، عليكم، أيها المؤمنون، ﴿القرآن فاستمعوا له﴾، يقول: أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه ﴿وأنصتوا﴾، إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه ﴿لعلكم ترحمون﴾، يقول: ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبده، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه.

ثم اختلف أهل التأويل في الحال التي أمر الله بالاستماع لقارئ القرآن إذا قرأ والإنصات له. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام، وكان من خلفه ممن يأتّم به يسمعه، وفي الخطبة.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قال: "إذا قرأ الإمام

فأنصتوا"،

القول في تأويل قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿واذكر ربك أيها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة، ﴿ربك في نفسك﴾، يقول: اتعظ بما في أي القرآن، واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعك ﴿تضرعًا﴾، يقول: افعل ذلك تخشعًا لله وتواضعًا له. ﴿وخيفة﴾، يقول: وخوفًا من الله أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاض به والاعتبار، وغفلة عما بين الله فيه من حدوده. ﴿ودون الجهر من القول﴾، يقول: ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهار. يقول: ليكن ذكر الله عند استماعك القرآن في دعاء إن دعوت غير جهار، ولكن في خفاء من القول كما جاء عن بن جريج وغيره

وأما قوله: ﴿بالغدو والآصال﴾، فإنه يعني بالبكر والعشيَّات. كما جاء عن قتادة، قوله: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة﴾، إلى قوله: ﴿بالغدو والآصال﴾، أمر الله بذكره، ونهى عن الغفلة. أما "بالغدو": فصلاة الصبح "والآصال": بالعشي.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لا تستكبر، أيها المستمع المنصت للقرآن، عن عبادة ربك، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع، وذلك هو "العبادة". ﴿ويسبحونه﴾، يقول: ويعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم ﴿وله يسجدون﴾، يقول: والله يصلون وهو سجدوهم فصلوا أنتم أيضًا له، وعظموه بالعبادة، كما يفعله من عنده من ملائكته

آخر تفسير سورة الأعراف

تفسير سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّ يَسِّر

القول في تاويل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في معنى "الأنفال" التي ذكرها الله في هذا الموضع.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى: "الأنفال"، قول من قال: هي زيادات يزيد بها الإمام بعض الجيش أو جميعهم، إما من سهمه على حقوقهم من القسمة، وإما مما وصل إليه بالنفل، أو ببعض أسبابه، ترغيباً له، وتحريضاً لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين، أو صلاح أحد الفريقين. و"الأنفال"، جمع "نفل".

فإذ كان معناه ما ذكرنا، فكل من زيد من مقاتلة الجيش على سهمه من الغنيمة إن كان ذلك لبلاء أبلأه، أو لغناء كان منه عن المسلمين بتنفيل الوالي ذلك إياه، فيصير حكم ذلك له كالسلب الذي يسلبه القاتل، فهو منفل ما زيد من ذلك، لأن الزيادة نفل، والنفل، وإن كان مستوجباً في بعض الأحوال لحق، ليس هو من الغنيمة التي تقع فيها القسمة. وكذلك كل ما رُضخ لمن لا سهم له في الغنيمة، فهو "نفل"، لأنه وإن كان مغلوباً عليه، فليس مما وقعت عليه القسمة. واختلف في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية. فقال بعضهم: نزلت في غنائم بدر، لأن النبي ﷺ كان نفل أقواماً على بلاء، فأبلى أقوام، وتخلف آخرون مع رسول الله ﷺ، فاختلّفوا فيها بعد انقضاء الحرب، فأنزل الله هذه الآية على رسوله، يعلمهم أن ما فعل فيها رسول الله ﷺ، فماضي جائز. كما جاء عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: "من صنع كذا وكذا، فله كذا وكذا"، قال: فتسارع في ذلك شبان الرجال، وبقيت الشيوخ تحت الرايات. فلما كان الغنائم، جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقالت الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا رداءً لكم، وكنا تحت الرايات، ولو انكشفتم انكشفتم إلينا! فتنازعوا، فأنزل الله: "يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين". وقال آخرون: بل إنما أنزلت هذه الآية، لأن بعض أصحاب رسول الله ﷺ سأل من المغنم شيئاً قبل قسمتها، فلم يعطه إياه، إذ كان شركاً بين الجيش، فجعل الله جميع ذلك لرسول الله ﷺ. كما جاء عن سعد قال: أتيت النبي ﷺ يوم بدر بسيف فقلت: يا رسول الله، هذا السيف قد شفى الله به من المشركين! فسألته إياه، فقال: ليس هذا لي ولا لك!

قال: فلما وليت، قلت: أخاف أن يعطيه من لم يُبَلِّ بلائي! فإذا رسول الله ﷺ خلفي، قال فقلت: أخاف أن يكون نزل في شيء! قال: إن السيف قد صار لي! قال: فأعطانيه، ونزلت: "يسألونك عن الأنفال". وقال آخرون: بل نزلت: لأن أصحاب رسول الله ﷺ سألوا قسمة الغنيمة بينهم يوم بدر، فأعلمهم الله أن ذلك لله ولرسوله دونهم، ليس لهم فيه شيء. وقالوا: معنى "عن" في هذا الموضع "من"، وإنما معنى الكلام: يسألونك من الأنفال. وقالوا: قد كان ابن مسعود يقرؤه: "يَسْأَلُونَكَ الْآنْفَالَ" على هذا التأويل. كما جاء عن ابن عباس قوله: "يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول"، قال: "الأنفال"، المغنم كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء، ما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سِلْكًا فهو غُلُول. فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها، قال الله: يسألونك عن الأنفال، قل: الأنفال لي جعلتها لرسولي، ليس لكم فيها شيء "فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين"، ثم أنزل الله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾ [الأنفال: ٤١]. ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ، ولمن سمي في الآية. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى أخبر في هذه الآية عن قوم سألوا رسول الله ﷺ الأنفال أن يعطيهموها، فأخبرهم الله أنها لله، وأنه جعلها لرسوله. وإذا كان ذلك معناه، جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فيها وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذي ذكرنا عن سعد أنه سأله إياه وجائز أن يكون من أجل مسألة من سأله قسم ذلك بين الجيش. واختلفوا فيها: أمسوخة هي أم غير منسوخة؟

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه ﷺ، يُنْفَلُ من شاء، فنفل القاتل السِّلْب، وجعل للجيش في البدأ الربع، وفي الرجعة الثلث بعد الخمس. ونفل قومًا بعد سُهْمَانِهِمْ بغيرًا بغيرًا في بعض المغازي. فجعل الله تعالى ذكره حكم الأنفال إلى نبيه ﷺ، يُنْفَلُ على ما يرى مما فيه صلاح المسلمين، وعلى من بعده من الأئمة أن يستنوا بسنته في ذلك.

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ، لاحتمالها ما ذكرت من المعنى الذي وصفت. وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادثٌ حكم بخلافه، ينفيه من كل معانيه، أو يأتي خبرٌ يوجب الحجة أن أحدهما ناسخ الآخر.

وقد بينا أن للأئمة (أي أئمة المسلمين عامة) أن يتأسوا برسول الله ﷺ في مغازيهم بفعله، فينفلوا على نحو ما كان ينفل، إذا كان التنفيل صلاحًا للمسلمين.

القول في تأويل قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فخافوا الله أيها القوم، واتقوه بطاعته واجتنبوا معاصيه، وأصلحوا الحال بينكم. واختلف أهل التأويل في الذي عنى بقوله: "وأصلحوا ذات بينكم". فقال بعضهم: هو أمر من الله الذين غنموا الغنيمة يوم بدر، وشهدوا الواقعة مع رسول الله ﷺ إذ اختلفوا في الغنيمة: أن يردَّ ما أصابوا منها بعضهم على بعض. كما جاء عن قتادة وابن جريج وقال آخرون: هذا تحريج من الله على القوم، ونهي لهم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة وغيره. كما جاء عن مجاهد وابن عباس

وأما قوله: "وأطيعوا الله ورسوله"، فإن معناه: وانتهوا أيها القوم الطالبون الأنفال، إلى أمر الله وأمر رسوله فيما أفاء الله عليكم، فقد بين لكم وجوهه وسبله "إن كنتم مؤمنين"، يقول: إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم به من عند ربكم، كما جاء عن ابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ليس المؤمن بالذي يخالف الله ورسوله، ويترك اتباع ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفاً منه، وفرقا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، تصديقاً. وذلك هو زيادة ما تلى عليهم من آيات الله إيماناً "وعلى ربهم يتوكلون"، يقول: وبالله يوقنون، في أن قضاءه فيهم ماضٍ، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد والسدي

وأما قوله: "زادتهم إيماناً"، فقد ذكرت قول ابن عباس فيه. في غير هذا للموضع

وقال غيره فيه، بما جاء عن الربيع: "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً"، قال: خشية.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أولئك هم المؤمنون حقا قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الذين يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها، وينفقون مما رزقهم الله من الأموال فيما أمرهم الله أن ينفقوها فيه، من زكاة وجهاد وحج وعمره ونفقة على من تجب عليهم نفقته، فيؤدُّون حقوقهم "أولئك"، يقول: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال "هم المؤمنون"، لا الذين يقولون بألسنتهم: "قد آمنّا" وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقاً، لا يقيمون صلاة ولا يؤدُّون زكاة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: "لهم درجات"، لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم "درجات"، وهي مراتب رفيعة. ثم اختلف أهل التأويل في هذه "الدرجات" التي ذكر الله أنها لهم عنده، ما هي؟ فقال بعضهم: هي أعمال رفيعة، وفضائل قدّموها في أيام حياتهم. كما جاء عن مجاهد وقال آخرون: بل ذلك مراتب في الجنة. كما جاء عن بن محيرز

وقوله: "ومغفرة"، يقول: وعفو عن ذنوبهم، وتغطية عليها "ورزق كريم"، قيل: الجنة وهو عندي: ما أعد الله في الجنة لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيئ العيش. كما جاء عن قتادة

القول في تأويل قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه "الكاف" التي في قوله: "كما أخرجك"، وما الذي شُبّه بإخراج الله نبيه ﷺ من بيته بالحق. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال في ذلك بقول ﴿مجاهد﴾، وقال: معناه: كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحق بعد ما تبين لأن كلا الأمرين قد كان، أعني خروج بعض من خرج من المدينة كارهاً، وجدالهم في لقاء العدو وعند ذنوب القوم بعضهم من بعض، فتشبيه بعض ذلك ببعض، مع قرب أحدهما من الآخر، أولى من تشبيهه بما بعد عنه. وقال مجاهد في "الحق" الذي ذكر أنهم يجادلون فيه النبي ﷺ بعد ما تبينوه: هو القتال.

وأما قوله: ﴿وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون﴾، فإن كراهم كانت، كما جاء عن عبد الله بن عباس، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب إليهم المسلمين، وقال: هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها! فانتدب الناس، فخنق بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً.

ثم اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس وابن إسحاق، من أن ذلك خبر من الله عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو، وكان جدالهم نبي الله ﷺ أن قالوا: "لم يُعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعر". ومما يدل على صحته قوله ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، ففي ذلك الدليل الواضح لمن فهم عن الله، أن القوم قد كانوا للشوكة كارهين، وأن جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد، كراهية منهم له

وأما قوله: ﴿بعد ما تبين﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله. فقال بعضهم: معناه: بعد ما

تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله. كما جاء عن السدي وقال آخرون: معناه: يجادلونك في القتال بعدما أمرت به. كما جاء عن ابن عباس

وأما قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾، فإن معناه: كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدو، من كراحتهم للقائهم إذا دعوا إلى لقاءهم للقتال، "يساقون إلى الموت". وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن بن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونَ لَكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واذكروا، أيها القوم ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾، يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والغير، وفرقة المشركين الذين نفروا من مكة لمنع غيرهم. وقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾، يقول: إن ما معهم غنيمة لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونَ لَكُمْ﴾، يقول: وتحبون أن تكون تلك الطائفة التي ليست لها شوكة يقول: ليس لها حد، ولا فيها قتال أن تكون لكم. يقول: تودون أن تكون لكم العير التي ليس فيها قتال لكم، دون جماعة قريش الذين جاءوا لمنع غيرهم، الذين في لقاءهم القتال والحرب. وأصل "الشوكة" من "الشوك".

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل كما جاء عن عبد الله بن عباس، وغيره، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها! فانتدب الناس، فحلف بعضهم واثقل بعض، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً. وكان أبو سفيان يستيقن حين دنا من الحجاز ويتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أموال الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: "أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك!" فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة. وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له "ذفران"، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه، نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش. فقام أبو بكر رضوان الله عليه، فقال فأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه، فقال فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض إلى حيث أمرك الله، فنحن معك، والله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾، [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون! فوالذي بعثك بالحق، لئن سرت بنا إلى برك الغماد يعني: مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه!

فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ثم دعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس! وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عَدَدَ الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: "يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا"، فكأن رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نُصْرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم قال: فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل! قال: فقد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، لعلَّ الله أن يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله! فسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدًا".

وأما قوله: ﴿أنها لكم﴾، ففتحت على تكرير "يعد"، وذلك أن قوله: ﴿يعدكم الله﴾، قد عمل في "إحدى الطائفتين". فتأويل الكلام: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾، يعدكم أن إحدى الطائفتين لكم، قال: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾، فأنت "ذات"، لأنه مراد بها الطائفة. ومعنى الكلام: وتودون أن الطائفة التي هي غير ذات الشوكة تكون لكم، دون الطائفة ذات الشوكة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويريد الله أن يحق الإسلام ويعليه "بكلماته"، يقول: بأمره إياكم، أيها المؤمنون، بقتال الكفار، وأنتم تريدون الغنيمة، والمال وقوله: ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾، يقول: يريد أن يجبَّ أصل الجاحدين توحيد الله.

وقد بينا فيما مضى معنى "دابر"، وأنه المتأخر، وأن معنى: "قطعه"، الإتيان على الجميع منهم. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن بن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين، كيما يحق الحق، كيما يُعبد الله وحده دون الآلهة والأصنام، ويعزَّ الإسلام، وذلك هو "تحقيق الحق" ﴿ويبطل الباطل﴾، يقول ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر، ولو كره ذلك الذين أجمعوا فاكْتَسَبُوا المآثم والأوزار من الكفار. كما جاء عن قتادة

وقيل: إن "الحق" في هذا الموضع، الله عَزَّجَلَّ.

القول في تاويل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ويطّل الباطل"، حين تستغيثون ربكم ف "إذ" من صلة "يطل". ومعنى قوله: ﴿تستغيثون ربكم﴾، تستجيرون به من عدوكم، وتدعونه للنصر عليهم "فاستجاب لكم" فأجاب دعاءكم، بأني ممدكم بألف من الملائكة يُرْدِف بعضهم بعضًا، ويتلو بعضهم بعضًا وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل،

وجاءت الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ. كما كان ابن عباس يقول: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، ونظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيّفاً على ثلاثمئة، فاستقبل القبلة، فجعل يدعو يقول: "اللهم أنجز لي ما وعدتني! اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض!"، فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، وأخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: كفاك يا نبي الله، بأبي وأمي، مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك! فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وأما قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فقد بينا معناه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس: ﴿مردفين﴾، قال: متتابعين.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضًا وتتابعها بالمصير إليكم، أيها المؤمنون، مددًا لكم "إلا بشري" لكم، أي: بشارة لكم، تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم "ولتطمئنن به قلوبكم"، يقول: ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم "وما النصر إلا من عند الله"، يقول: وما تنصرون على عدوكم، أيها المؤمنون، إلا أن ينصركم الله عليهم، لا بشدة بأسكم وقواكم، بل بنصر الله لكم، لأن ذلك بيده وإليه، ينصر من يشاء من خلقه "إن الله عزيز حكيم" يقول: إن الله الذي ينصركم، وييده نصر من يشاء من خلقه "عزيز"، لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه، لأنه خلقه "حكيم"، يقول: حكيم في تدبيره ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل تدبيره وهن ولا خلل. وروي عن عبد الله بن كثير عن مجاهد في ذلك، ما مدّ النبي ﷺ مما ذكر الله غير ألف من الملائكة مردفين، وذكر "الثلاثة" و"الخمس" بشري، ما مدوا بأكثر من هذه الألف الذي ذكر الله عَزَّجَلَّ في "الأنفال"، وأما "الثلاثة" و"الخمس"، فكانت بشري. وقد أتينا على ذلك في "سورة آل عمران"، بما فيه الكفاية.

القول في تأويل قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يقول تعالى ذكره: "ولتطمئن به قلوبكم"، "إذ يغشيكم النعاس"، ويعني بقوله: ﴿يغشيكم النعاس﴾، يلقي عليكم النعاس ﴿أمنة﴾ يقول: أماناً من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم، وكذلك النعاس في الحرب أمنة من الله عزَّ وجلَّ. كما جاء عن عبد الله وأما قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾، فإن ذلك مطرٌ أنزله الله من السماء يوم بدر ليظهر به المؤمنين لصلاتهم، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذٍ مُجَنِّينَ على غير ماء. فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان قد وسوس إليهم بما حزنهم به من إصباحهم مجننين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر. فذلك ربطه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتثبيتته بذلك المطر أقدامهم، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء، فلبدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئة من الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ وأوليائه، أسباب التمكن من عدوهم والظفر بهم. وبمثل الذي قلنا تنابعت الأخبار عن [أصحاب] رسول الله ﷺ كما جاء عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!" فلما أن طلع الفجر، نادى: "الصلاة عباد الله!"، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرص على القتال.

وأما قوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، أنصركم ﴿فثبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يقول: قوُّوا عزمهم، وصححو نياتهم في قتال عدوهم من المشركين.

وقد قيل: إن تثبيت الملائكة المؤمنين، كان حضورهم حربهم معهم.

القول في تأويل قوله: ﴿سَأُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: سَأُرْعِبُ قُلُوبَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِئِي، أيها المؤمنون، منكم، وأملأها فرقا حتى يهزموا عنكم "فاضربوا فوق الأعناق".

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فوق الأعناق﴾. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: أن الله أمر المؤمنين، مُعَلِّمَهُمْ كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف: أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل. وقوله: ﴿فوق الأعناق﴾، محتمل أن يكون مراداً به الرؤوس، ومحتمل أن يكون مراداً له: من فوق جلدة الأعناق، فيكون معناه: على الأعناق. وإذا احتمل ذلك، صح قول من قال، معناه: الأعناق. وإذا كان الأمر محتملاً ما ذكرنا

من التأويل، لم يكن لنا أن نوجّهه إلى بعض معانيه دون بعض، إلا بحجة يجب التسليم لها، ولا حجة تدلّ على خصوصه، فالواجب أن يقال: إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم، أصحاب نبيه ﷺ الذين شهدوا معه بدرًا.

وأما قوله: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾، فإن معناه: واضربوا، أيها المؤمنون، من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم.

و"البنان": جمع "بنانة"، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن عكرمة وعطية والضحاك وغيرهم

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٣) قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، هذا الفعل من ضرب هؤلاء الكفرة فوق الأعناق وضرب كل بنان منهم، جزاءً لهم بشقاقهم الله ورسوله، وعقاب لهم عليه. ومعنى قوله: ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فارقوا أمر الله ورسوله وعصوهما، وأطاعوا أمر الشيطان. ومعنى قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله ففارق طاعتهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، له. وشدة عقابه له: في الدنيا، إحلاله به ما كان يحلّ بأعدائه من النقم، وفي الآخرة، الخلود في نار جهنم وحذف "له" من الكلام، لدلالة الكلام عليها.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكَ فِدْوُهُمْ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٤) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: هذا العقاب الذي عجلته لكم، أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله، في الدنيا، من الضرب فوق الأعناق منكم، وضرب كل بنان، بأيدي أوليائي المؤمنين، فذوقوه عاجلاً واعلموا أن لكم في الآجل والمعاد عذاب النار.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُؤَلُّوهُمْ الْاُدْبَارَ﴾ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في القتال ﴿زَحَفًا﴾، يقول: متزاحفًا بعضكم إلى بعض و"التزاحف"، التداني والتقارب "فلا تولوهم الأدبار"، يقول: فلا تولوهم ظهوركم فتنهزمو عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم عليهم "ومن يولهم يومئذ دبره"، يقول: ومن يولهم منكم ظهره ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾، يقول: إلا مستطرّدًا لقتال عدوه، يطلب عورة له يمكنه إصابته فيكرّ عليه ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ أو: إلا أن يولهم ظهره متحيزًا إلى فتنة، يقول: صائرًا إلى حيز المؤمنين الذين يفيئون به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعون به معهم إليهم. وبنحو الذي

قلنا في ذلك قال أهل التأويل . كما جاء عن الضحاك والسدي

واختلف أهل العلم في حكم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمُئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾، هل هو خاص في أهل بدر، أم هو في المؤمنين جميعًا؟ قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قول من قال: حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين

وأما قوله: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، يقول: فقد رجع بغضب من الله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾، يقول: ومصيره الذي يصير إليه في معاده يوم القيامة جهنم "وبئس المصير"، يقول: وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله، ممن شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، فقاتل أعداء دينه معه من كفار قريش: فلم تقتلوا المشركين، أيها المؤمنون، أنتم، ولكن الله قتلهم. وأضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين، إذ كان جل ثناؤه هو مسبب قتلهم، وعن أمره كان قتال المؤمنين إياهم. ففي ذلك أدل الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صنْعٌ به وَصَلُوا إِلَيْهَا. وكذلك قوله لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، فأضاف الرميَّ إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي، إذ كان جل ثناؤه هو الموصل المرمي به إلى الذين رُمُوا به من المشركين، والمسبب الرمية لرسوله. فيقال للمنكرين ما ذكرنا قد علمتم إضافة الله رَمَى نبيه ﷺ المشركين إلى نفسه، بعد وصفه نبيةً به، وإضافته إليه، وذلك فعلٌ واحد، كان من الله تسبيبه وتسديده، ومن رسول الله ﷺ الحذف والإرسال، فما تنكرون أن يكون كذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة: من الله الإنشاء والإنجاز بالتسبيب، ومن الخلق الاكتساب بالقوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولاً إلا ألزموا في الآخر مثله. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وجاء عن هشام بن عروة قال: لما ورد رسول الله ﷺ بدرًا قال: هذه مصارعهم! ووجد المشركون النبي ﷺ قد سبقهم إليه ونزل عليه، فلما طلوعوا عليه زعموا أن النبي ﷺ قال: "هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها، تحادّك وتكذب رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني!". فلما أقبلوا استقبلهم، فحاث في وجوههم، فhezهم الله عَزَّوَجَلَّ.

وأما قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾، فإن معناه: وكي ينعم على المؤمنين بالله ورسوله بالظفر بأعدائهم، ويغنمهم ما معهم، ويكتب لهم أجور أعمالهم وجهادهم مع رسول

الله ﷻ. وذلك "البلاء الحسن"، رمي الله هؤلاء المشركين، ويعني ب"البلاء الحسن"، النعمة الحسنة الجميلة، وهي ما وصفت وما في معناه. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يعني: إن الله سميع، أيها المؤمنون، لدعاء النبي ﷺ، ومناشدته ربه، ومسألته إياه إهلاك عدوه وعدوكم، ولقيلكم وقيل جميع خلقه "عليم"، بذلك كله، وبما فيه صلاحكم وصلاح عباده، وغير ذلك من الأشياء، محيط به، فاتقوه وأطيعوا أمره وأمر رسوله.

القول في تأويل قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: هذا الفعل من قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا، وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم، وإمكانهم من قتلهم وأسرهم فعلنا الذي فعلنا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، يقول: واعلموا أن الله مع ذلك مُضْعِفٌ "كيد الكافرين"، يعني: مكرهم، حتى يذُلُّوا وينقادوا للحق، أو يُهْلَكُوا.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدُ وَلَنْ نَغْنِيَّ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمشركين الذين حاربوا رسول الله ﷺ بدر: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾، يعني: إن تستحكموا الله على أقطع الحزبين للرحم، وأظلم الفئتين، وتستنصروه عليه، فقد جاءكم حكم الله، ونصره المظلوم على الظالم، والمحق على المبطل. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن الضحاك وعكرمة وابن عباس وغيرهم

وأما قوله: ﴿وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾، فإنه يقول: "وإن تنتهوا"، يا معشر قريش، وجماعة الكفار، عن الكفر بالله ورسوله، وقاتل نبيه ﷺ والمؤمنين به "فهو خير لكم"، في دنياكم وآخرتكم ﴿وإن تعودوا نعد﴾، يقول: وإن تعودوا لحربه وقاتله وقاتل اتباعه المؤمنين "نعد"، أي: بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر. وقوله: ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت﴾، يقول: وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أوليائي وهزيمتكم، ولن تغني عنكم عند عودي لقتلكم بأيديهم وسبيكم وهزيمكم "فئتكم شيئا ولو كثرت"، يعني: جندهم وجماعتهم من المشركين، كما لم يغنوا عنهم يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين شيئا ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾، يقول جل ذكره: وأن الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم، ينصرهم عليهم، أو يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن بن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في مخالفة رسول الله ﷺ، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: "قد سمعنا"، بأذاننا "وهم لا يسمعون"، يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بأذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعوه قلوبهم ويتدبروه. فجعلهم الله، إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بأذانهم، بمنزلة من لم يسمعها. يقول جل ثناؤه لأصحاب رسول الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في الإعراض عن أمر رسول الله، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعون بأذانكم، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب الله بأذانهم، ويقولون: "قد سمعنا"، وهم عن الاستماع لها والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمعها.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عُنْهُ﴾، يقول: ولا تدبروا عن رسول الله ﷺ مخالفين أمره ونهيه "وأنتم تسمعون" أمره إياكم ونهيه، وأنتم به مؤمنون،

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن شر ما دبَّ على الأرض من خلق الله عند الله، الذين يصمون عن الحق لئلا يسمعه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكصون عنه إن نطقوا به، الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن زيد ومجاهد وعكرمة واختلف فيمن عني بهذه الآية. قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال بقول ابن عباس: وأنه عني بهذه الآية مشركو قريش، لأنها في سياق الخبر عنهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ اخترف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية

قال أبو جعفر: وأولى القول في تأويل ذلك بالصواب عندي ما قاله ابن جريج وابن زيد ﴿انهم المشركون﴾، قال أبو جعفر: فتأويل الآية إذا: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيراً، لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره، حتى يعقلوا عن الله عَزَّوَجَلَّ حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ **اختلف أهل التأويل في تأويل قوله:** ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق. وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب. أما في الدنيا، فبقاء الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة. وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها.

وبعد، ففيما جاء - عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبي وهو يصلي، فدعاه: أي أباي! فالتفت إليه أبي ولم يجبه. ثم إن أبا خفف الصلاة، ثم انصرف إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك، أي رسول الله! قال: وعليك، ما منعك إذ دعوتك أن تجيبني؟ قال: يا رسول الله، كنت أصلي! قال: أفلم تجد فيما أوحى إلي: "استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم"؟ قال: بلى، يا رسول الله! لا أعود. ما يبين عن أن المعنى بالآية، هم الذين يدعوهم رسول الله ﷺ إلى ما فيه حياتهم بإجابتهم إليه من الحق بعد إسلامهم، لأن أبا لا شك أنه كان مسلما في الوقت الذي قال له النبي ﷺ ما ذكرنا في هذين الخبرين.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ **اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.**

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال: إن ذلك خبر من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئا، أو أن يفهم، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن "الحول بين الشيء والشيء"، إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيلا. وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: "يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان"، وقول من قال: "يحول بينه وبين عقله"، وقول من قال: "يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه"، لأن الله عز وجل إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما منع إدراكه به على ما بينت. غير أنه ينبغي أن يقال: إن الله عم بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، الخبر عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له.

وأما قوله: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ﴾، فإن معناه: واعلموا، أيها المؤمنون، أيضًا، مع العلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه: أن الله الذي يقدر على قلوبكم، وهو أملك بها منكم، إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة، فيوقيكم جزاء أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم هو ورسوله أن تضيعوه، وأن لا تستجيبوا لرسوله إذا دعاكم لما يحييكم، فيوجب ذلك سخطه، وتستحقوا به أليم عذابه حين تحشرون إليه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٥٠﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: "اتقوا"، أيها المؤمنون "فتنة"، يقول: اختبارًا من الله يختبركم، وبلاء يبتليكم "لا تصيبن"، هذه الفتنة التي حذر تكملوها "الذين ظلموا"، وهم الذين فعلوا ما ليس لهم فعله، إما إجرام أصابوها، وذنوب بينهم وبين الله ركبوها. يحذرهم جل ثناؤه أن يركبوا له معصية، أو يأتوا مأثمًا يستحقون بذلك منه عقوبة.

وأما قوله: ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾، فإنه تحذير من الله، ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها بقوله: ﴿واتقوا فتنة﴾، يقول: اعلموا، أيها المؤمنون، أن ربكم شديد عقابه لمن افتتن بظلم نفسه، وخالف أمره، فأثم به.

القول في تأويل قوله: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥١﴾ قال أبو جعفر: وهذا تذكير من الله عز وجل أصحاب رسول الله ﷺ، ومناصحة. يقول: أطيعوا الله ورسوله، أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمره وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يهونه عليكم بطاعتكم إياه، ويعجل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ أنتم به واتبعتموه وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكره في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم ﴿فآواكم﴾، يقول: فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم ﴿وأيدكم بنصره﴾، يقول: وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم بدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾، يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالاً طيباً ﴿لعلكم تشكروا﴾، يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم.

واختلف أهل التأويل في "الناس" الذين عنوا بقوله: ﴿أن يتخطفكم الناس﴾.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: "عني بذلك مشركو قريش"، وأما قوله: ﴿فآواكم﴾، فإنه يعني: آواكم المدينة،

وكذلك قوله: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهٖ﴾، بالأنصار. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.
كما جاء عن السدي ومكرمة

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبيه ﷺ: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾، وخيانتهم الله ورسوله، كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمان في الظاهر والنصيحة، وهو يستسر الكفر والغش لهم في الباطن، يدلون المشركين على عورتهم، ويخبرونهم بما خفى عنهم من خبرهم.
وقد اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية، وفي السبب الذي نزلت فيه.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانتهم وخيانة رسوله، وخيانة أمانته وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن بن زيد والسدي واختلفوا في تأويل قوله: "وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون". قال أبو جعفر: والصواب أن تأويل الكلام: يا أيها الذين آمنوا، لا تنقصوا الله حقوقه عليكم من فرائضه، ولا رسوله من واجب طاعته عليكم، ولكن أطيعوهما فيما أمركم به ونهاكم عنه، لا تنقصوهما "وتخونوا أماناتكم"، وتنقصوا أديانكم، وواجب أعمالكم، ولازمها لكم "وأنتم تعلمون"، أنها لازمة عليكم، وواجبة بالحجج التي قد ثبتت لله عليكم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين: واعلموا، أيها المؤمنون، أنما أموالكم التي خولكموها الله، وأولادكم التي وهبها الله لكم، اختبارٌ وبلاء، أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها، والانتهاه إلى أمره ونهيه فيها. "وأن الله عنده أجر عظيم"، يقول: واعلموا أن الله عنده خيرٌ وثواب عظيم، على طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، في أموالكم وأولادكم التي اختبركم بها في الدنيا. وأطيعوا الله فيما كلفكم فيها، تنالوا به الجزيل من ثوابه في معادكم. كما جاء عن ابن مسعود.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، إن تتقوا الله بطاعته وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وترك خيانتهم وخيانة رسوله وأماناتكم يجعل لكم فرقاناً"، يقول: يجعل لكم فصلاً وفرقاً بين حقكم وباطل من يبيغكم السوء من أعدائكم المشركين، بنصره إياكم عليهم، وإعطائكم

الظفر بهم "ويكفر عنكم سيئاتكم"، يقول: ويمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم بينكم وبينه "ويغفر لكم"، يقول: ويغطيها فيسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها "والله ذو الفضل العظيم"، يقول: والله الذي يفعل ذلك بكم، له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه بفعله ذلك وفعل أمثاله. وإنَّ فعله جزاءٌ منه لعبده على طاعته إياه، لأنه الموفق عبده لطاعته التي اكتسبها، حتى استحقَّ من ربه الجزاء الذي وعدَّه عليها.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ، مذكَّره نعمه عليه: واذكر، يا محمد، إذ يمكر بك الذين كفروا من مشركي قومك كي يثبتوك. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "ليثبتوك". فقال بعضهم: معناه ليقيدوك. كما جاء عن ابن عباس وقتادة وقال آخرون: بل معناه الحبس. كما جاء عن عطاء وبن زيد وقال آخرون: بل معناه: ليسحروك. وكأنَّ معنى مكر قوم رسول الله ﷺ به ليثبتوه كما جاء عن ابن عباس قال أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم مني رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل! فدخل معهم، فقال: انظروا إلى شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوثبكم في أموركم بأمره. قال: فقال قائل: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير والنابعة، إنما هو كأحدهم! قال: فصرخ عدوُّ الله الشيخ النجدي فقال: والله، ما هذا لكم برأي! والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم! قالوا: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذَ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، لتجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم! قالوا: صدق والله! فانظروا رأيًا غير هذا! قال: فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلامًا وسيطا شابًا نهدًا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفًا صارمًا، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره! قال: فتفرقوا على ذلك وهم

مُجْمَعُونَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ فِيهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالْخُرُوجِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ "الْأَنْفَال"، يَذْكُرُهُ نَعْمَهُ عَلَيْهِ، وَبِلَاءَهُ عِنْدَهُ: "وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"، وَأَنْزَلَ فِي قَوْلِهِمْ: "تَرْبِصُوا بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ" حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ: "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ"، [الطور: ٣٠]. وَكَانَ يُسَمَّى ذَلِكَ الْيَوْمَ: "يَوْمَ الزَّحْمَةِ" لِلَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ.

وقد بينا معنى "المكر" فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضوع.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آيات كتاب الله الواضحة لمن شرح الله صدره لفهمه قالوا جهلاً منهم، وعناداً للحق، وهم يعلمون أنهم كاذبون في قيلهم "لو نشاء لقلنا مثل هذا"، الذي تلي علينا "إن هذا إلا أساطير الأولين"، يعني: أنهم يقولون: ما هذا القرآن الذي يتلى عليهم إلا أساطير الأولين. وإنما عنى المشركون بقولهم: "إن هذا إلا أساطير الأولين"، إن هذا القرآن الذي تتلوه علينا، يا محمد، إلا ما سطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم! كأنهم أضافوه إلى أنه أخذ عن بني آدم، وأنه لم يوحه الله إليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

كما جاء قال ابن جريج قوله: "وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا"، قال: كان النضر بن الحارث يختلف تاجرًا إلى فارس، فيمرّ بالعباد وهم يقرأون الإنجيل ويركعون ويسجدون. فجاء مكة، فوجد محمدًا ﷺ قد أنزل عليه وهو يركع ويسجد، فقال النضر: "قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا!"، للذي سمع من العباد. فنزلت: "وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا"، قال: فقص ربنا ما كانوا قالوا بمكة، وقص قولهم: إذ قالوا: "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك"، الآية.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واذكر، يا محمد، أيضًا ما حلّ بمن قال: "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم"، إذ مكرت بهم، فأتيهم بعذاب أليم وكان ذلك العذاب، قتلهم بالسيف يوم بدر.

وهذه الآية أيضًا ذكر أنها نزلت في النضر بن الحارث. كما جاء عن سعيد بن جبير،

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) **وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴿اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قول من قال: تأويله: "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم"، يا محمد، وبين أظهرهم مقيم، حتى أخرجك من بين أظهرهم، لأنِّي لا أهلك قرية وفيها نبيها وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون"، من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرُّون عليه، فهم للعذاب مستحقون كما يقال: "ما كنت لأحسن إليك وأنت تسيء إليّ"، يراد بذلك: لا أحسن إليك، إذا أسأت إليّ، ولو أسأت إليّ لم أحسن إليك، ولكن أحسن إليك لأنك لا تسيء إليّ. وكذلك ذلك ثم قيل: "وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام"، بمعنى: وما شأنهم، وما يمنهم أن يعذبهم الله وهم لا يستغفرون الله من كفرهم فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام؟

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما لهؤلاء المشركين إلا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام، ولم يكونوا أولياء الله "إن أوليائه"، يقول: ما أولياء الله "إلا المتقون"، يعني: الذين يتقون الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه. "ولكن أكثرهم لا يعلمون" يقول: ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن أولياء الله المتقون، بل يحسبون أنهم أولياء الله.

وبنحو ما قلنا قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما لهؤلاء المشركين إلا يعذبهم الله، وهم يصدون عن المسجد الحرام الذي يصلون الله فيه ويعبدونه، ولم يكونوا لله أولياء، بل أوليائه الذين يصدونهم عن المسجد الحرام، وهم لا يصلون في المسجد الحرام "وما كان صلاتهم عند البيت"، يعني: بيت الله العتيق "إلا مكاء"، وهو الصفير. وأما "التصديّة"، فإنها التصفيق، وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وغيرهم

وأما قوله: "فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون"، فإنه يعني العذاب الذي وعدهم به بالسيف يوم بدر. يقول للمشركين الذين قالوا: "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء" الآية، حين أتاهم بما استعجلوه من العذاب "ذوقوا"، أي اطعموا، وليس

بذوق بفم، ولكنه ذوق بالحسّ، ووجود طعم ألمه بالقلوب. يقول لهم: فذوقوا العذاب بما كنتم تجحدون أن الله معذبكم به على جحودكم توحيد ربكم، ورسالة نبيكم ﷺ. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن اسحاق زبن جريح

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٨٣) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقوا بها على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين به، ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسيفنون أموالهم في ذلك، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم "حسرة"، يقول: تصير ندامة عليهم، لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله، لأن الله مُعلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به ورسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحيّ، فحرب ماله وذهب باطلا في غير درك نفع، ورجع مغلوباً مهووراً محروباً مسلوباً. وأما الهالك، فقتل وسلب، وعُجل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه.

وأختلفوا في المقصود بأنه أنفق من المشركين في هذه الآية قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي ما قلنا، وهو أن يقال: إن الله أخبر عن الذين كفروا به من مشركي قريش، أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله. لم يخبرنا بأيّ أولئك عنى، غير أنه عم بالخبر "الذين كفروا". وجائز أن يكون عنى المنفقين أموالهم لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد وجائز أن يكون عنى المنفقين منهم ذلك ببدر وجائز أن يكون عنى الفريقين. وإذا كان ذلك كذلك، فالصواب في ذلك أن يعمّ كما عم جل ثناؤه الذين كفروا من قريش.

القول في تاويل قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٨٤) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يحشر الله هؤلاء الذين كفروا بربه، وينفقون أموالهم للصدّ عن سبيل الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم وهم أهل الخبث، كما قال وسماهم "الخبث" وبين المؤمنين بالله ورسوله، وهم "الطيبون"، كما سماهم جل ثناؤه. فميّز جل ثناؤه بينهم بأن أسكن أهل الإيمان به ورسوله جناته، وأنزل أهل الكفر ناره. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ويعني جل ثناؤه بقوله: "فيجعل الخبيث بعضه على بعض"، فيحمل الكفار بعضهم فوق بعض "فيركمه جميعاً"، يقول: فيجعلهم ركاماً، وهو أن يجمع بعضهم إلى بعض حتى يكثروا،

كما قال جل ثناؤه في صفة السحاب: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣]، أي مجتمعاً كثيفاً، كما جاء عن بن زيد

وقوله: "فيجعله في جهنم" يقول: فيجعل الخبيث جميعاً في جهنم فوَحَّد الخبر عنهم لتوحيد قوله: "ليميز الله الخبيث"، ثم قال: "أولئك هم الخاسرون"، فجمع، ولم يقل: "ذلك هو الخاسر"، فردّه إلى أول الخبر. ويعني بـ "أولئك"، الذين كفروا، وتأويله: هؤلاء الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله "هم الخاسرون"، ويعني بقوله: "الخاسرون" الذين غُبنَت صفقتهم، وخسرت تجارتهم. وذلك أنهم شَرَوْا بأموالهم عذاب الله في الآخرة، وتعجَّلوا بإفناقهم إياها فيما أنفقوا من قتال نبي الله والمؤمنين به، الخزي والذلّ.

القول في تأويل قوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: "قل"، يا محمد، "للذين كفروا"، من مشركي قومك "إن ينتهوا"، عما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله ورسوله، وقتالك وقاتل المؤمنين، فينبوا إلى الإيمان يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وإنابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم "وإن يعودوا"، يقول: وإن يعد هؤلاء المشركون لقتالك بعد الواقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر فقد مضت سنتي في الأولين منهم بيدر، ومن غيرهم من القرون الخالية، إذ طغوا وكذبوا رسلي ولم يقبلوا نصيحهم، من إحلال عاجل النقم بهم، فأحلّ بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك، مثل الذي أحللت بهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: وإن يعد هؤلاء لحربك، فقد رأيتم سنتي فيمن قاتلكم منهم يوم بدر، وأنا عائد بمثلها فيمن حاربكم منهم، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض وهو "الفتنة" ويكون الدين كله لله"، يقول: حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصةً دون غيره. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والحسن وقتادة

وأما قوله: "فإن انتهوا"، فإن معناه: فإن انتهوا عن الفتنة، وهي الشرك بالله، وصاروا إلى الدين الحق معكم "فإن الله بما يعملون بصير"، يقول: فإن الله لا يخفى عليه ما يعملون من ترك الكفر والدخول في دين الإسلام، لأنه يبصركم ويبصر أعمالكم، والأشياء كلها متجلية له، لا تغيب عنه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا

أكبر إلا في كتاب مبين.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن أدبر هؤلاء المشركون عما دعوتهم إليه، أيها المؤمنون من الإيمان بالله ورسوله، وترك قتالكم على كفرهم، فأبوا إلا الإصرار على الكفر وقاتلكم، فقاتلوهم، وأيقنوا أن الله معينكم عليهم وناصركم "نعم المولى" هو لكم، يقول: نعم المعين لكم ولأوليائه "ونعم النصير"، وهو الناصر. كما جاء عن ابن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تعليم من الله عز وجل المؤمنين قسّم غنائمهم إذا غنموها. يقول تعالى ذكره: واعلموا، أيها المؤمنون، أن ما غنمتم من غنيمة. وقد بينا فيما مضى "الغنيمة"، وأنها المال يوصل إليه من مال من خول الله ماله أهل دينه، بغلبة عليه وقهر بقتال.

فأما "الفيء"، فإنه ما أفاء الله على المسلمين من أموال أهل الشرك، وهو ما ردّه عليهم منها بصلح، من غير إيجاب خيل ولا ركاب. وقد يجوز أن يسمى ما ردّته عليهم منها سيوفهم ورماحهم وغير ذلك من سلاحهم "فيئاً"، لأن "الفيء"، إنما هو مصدر من قول القائل: "فاء الشيء فيء فيئاً"، إذا رجع و"أفأه الله"، إذا ردّه.

وأما قوله: "من شيء"، فإنه مرادّ به: كل ما وقع عليه اسم "شيء"، مما خوّله الله المؤمنين من أموال من غلبوا على ماله من المشركين، مما وقع فيه القسّم، حتى الخيط والمخيّط،

القول في تأويل قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: قوله: "فإن لله خمس"، "افتتاح كلام"، وذلك لإجماع الحجة على أن الخمس غير جائز قسمه على ستة أسهم، ولو كان لله فيه سهم، كما قال أبو العالية، لوجب أن يكون خمس الغنيمة مقسوماً على ستة أسهم. وإنما اختلف أهل العلم في قسمه على خمسة فما دونها، فأما على أكثر من ذلك، فما لا نعلم قائلًا قاله غير الذي ذكرنا من الخبر عن أبي العالية. وفي إجماع من ذكرت، الدلالة الواضحة على صحة ما اخترنا.

فأما من قال: "سهم الرسول لذوي القربى"، فقد أوجب للرسول سهماً، وإن كان ﷺ صرفه إلى ذوي قرابته، فلم يخرج من أن يكون القسم كان على خمسة أسهم عن قتادة قوله: "واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمس"، الآية، قال: كان نبي الله ﷺ إذا غنم غنيمة جعلت أخماساً، فكان خمس لله ولرسوله، ويقسم المسلمون ما بقي. وكان الخمس الذي جعل لله ولرسوله، لرسوله ولذوي القربى واليتامى وللمساكين وابن السبيل فكان هذا الخمس خمسة

أخماس: خمس لله ورسوله، وخمس لذوي القربى. وخمس لليتامى، وخمس للمساكين. وخمس لابن السبيل.

وأما قوله: "ولذي القربى"، فإن أهل التأويل اختلفوا فيهم. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: "سهم ذي القربى، كان لقراة رسول الله ﷺ من بني هاشم وحلفائهم من بني المطلب"، لأن حليف القوم منهم، ولصحة الخبر الذي ذكرناه بذلك عن رسول الله ﷺ. واختلف أهل العلم في حكم هذين السهمين أعني سهم رسول الله ﷺ، وسهم ذي القربى بعد رسول الله ﷺ. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا، أن سهم رسول الله ﷺ مردود في الخمس، والخمس مقسوم على أربعة أسهم، على ما روي عن ابن عباس: للقراة سهم، ولليتامى سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم، لأن الله أوجب الخمس لأقوام موصوفين بصفات، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين. وقد أجمعوا أن حق الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم. فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم، كما غير جائز أن تخرج بعض السهمان التي جعلها الله لمن سماه في كتابه بفقد بعض من يستحقه، إلى غير أهل السهمان الآخر. وأما "اليتامى"، فهم أطفال المسلمين الذين قد هلك آبائهم. و"المساكين"، هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين. و"ابن السبيل"، المجتاز سَفَرًا قد انقطع به، كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أيقنوا أيها المؤمنون، أنما غنمتم من شيء فمقسوم القسم الذي بينته، وصدّقوا به إن كنتم أقرتم بوحدانية الله وبما أنزل الله على عبده محمد ﷺ يوم فرق بين الحق والباطل بيدر، فأبان فُلج المؤمنين وظهورهم على عدوهم، وذلك "يوم التقى الجمعان"، جمع المؤمنين وجمع المشركين، والله على إهلاك أهل الكفر وإذلالهم بأيدي المؤمنين، وعلى غير ذلك مما يشاء "قدير"، لا يمتنع عليه شيء أرادته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وعروة

القول في تأويل قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أيقنوا، أيها المؤمنون، واعلموا أن قسم الغنيمة على ما بينه لكم ربكم، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده يوم بدر، إذ فرق بين الحق والباطل من نصر رسوله "إذ أنتم"، حينئذ، "بالعدوة الدنيا"، يقول: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة "وهم بالعدوة القصوى"، يقول: وعدوكم من المشركين نزول بشفير الوادي الأقصى إلى مكة "والركب أسفل منكم"، يقول: والغير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى

ساحل البحر. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة والسدي ومجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ قال أبو جعفر: يعنى تعالى ذكره: ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه، أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين، عن ميعاد منكم ومنهم، "لاختلفتم في الميعاد"، لكثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم "ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"، وذلك القضاء من الله، كان نصره أولياءه من المؤمنين بالله ورسوله، وهلاك أعدائه وأعدائهم ببدر بالقتل والأسر، كما جاء عن بن زيد وابن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولكن الله جمعهم هنالك، ليقضي أمراً كان مفعولاً "ليهلك من هلك عن بينة". ويعني بقوله: "ليهلك من هلك عن بينة"، ليموت من مات من خلقه، عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وعبرة قد عاينها ورآها "ويحيا من حي عن بينة"، يقول: وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلها، جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك.

وأما قوله: "وإن الله لسميع عليم"، فإن معناه: "وإن الله"، أيها المؤمنون، "لسميع"، لقولكم وقول غيركم، حين يُرى الله نبيه في منامه ويرىكم، عدوكم في أعينكم قليلاً وهم كثير، ويراكم عدوكم في أعينهم قليلاً "عليم"، بما تضره نفوسكم، وتنطوي عليه قلوبكم، حينئذ وفي كل حال. يقول جل ثناؤه لهم ولعباده: فاتقوا ربكم، أيها الناس، في منطقتكم: أن تنطقوا بغير حق، وفي قلوبكم: أن تعتقدوا فيها غير الرشد، فإن الله لا يخفى عليه خافية من ظاهر أو باطن.

القول في تأويل قوله: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن الله، يا محمد، سمع لما يقول أصحابك، عليم بما يضرهم، إذ يريك الله عدوك وعدوهم "في منامك قليلاً"، يقول: يريكهم في نومك قليلاً فتخبرهم بذلك، حتى قويت قلوبهم، واجترأوا على حرب عدوهم ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيراً، لفشل أصحابك، فجنبنا وخاموا، ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا، إنه عليم بما تجهه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضره القلوب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن اسحاق واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "ولكن الله سلم". قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي ما قاله ابن عباس، وهو أن الله سلم القوم بما أرى نبيه ﷺ في منامه من الفشل والتنازع،

حتى قويت قلوبهم، واجترأوا على حرب عدوهم. وذلك أن قوله: "ولكن الله سلم" عقيب قوله: "ولو أراكم كثيرا لفسلمت ولتنازعتكم في الأمر"، فالذي هو أولى بالخبر عنه، أنه سلمهم منه جل ثناؤه، ما كان مخوفاً منه لو لم ير نبيه ﷺ من قلة القوم في منامه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَقُّنُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "وإن الله لسميع عليم" إذ يري الله نبيه في منامه المشركين قليلا وإذ يريهم الله المؤمنين إذ لقوهم في أعينهم قليلا وهم كثير عددهم، ويقلل المؤمنين في أعينهم، ليتركوا الاستعداد لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم، كما جاء عن عبد الله قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة قال: فأسرنا رجلا منهم فقلنا: كم هم؟ قال: ألفاً.

وقوله: "ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"، يقول جل ثناؤه: قللتكم أيها المؤمنون، في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلا حتى يقضي الله بينكم ما قضى من قتال بعضكم بعضاً، وإظهاركم، أيها المؤمنون، على أعدائكم من المشركين والظفر بهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى. وذلك أمرٌ كان الله فاعله وبالغاً فيه أمره، كما جاء عن بن اسحاق "والى الله ترجع الأمور"، يقول جل ثناؤه: مصير الأمور كلها إليه في الآخرة، فيجازي أهلها على قدر استحقاقهم

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تعريفٌ من الله جل ثناؤه أهل الإيمان به، السيرة في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعال التي يُرجى لهم باستعمالها عند لقاءهم النصر عليهم والظفر بهم. ثم يقول لهم جل ثناؤه: "يا أيها الذين آمنوا"، صدقوا الله ورسوله إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر بالله للحرب والقتال، فاثبتوا لقتالهم، ولا تنهزموا عنهم ولا تولوهم الأدبار هارين، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة منكم "واذكروا الله كثيراً"، يقول: وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألستكم ذكره "لعلكم تفلحون"، يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم محسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. كما جاء عن قتادة وابن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: أطيعوا، أيها المؤمنون، ربكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوهما في شيء "ولا تنازعوا

فتفشلوا"، يقول: ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم "فتفشلوا"، يقول: فتضعفوا وتجنبوا، وتذهب ريحكم". وهذا مثل. يقال للرجل إذا كان مقبلاً ما يحبه ويُسرّ به "الريح مقبلةً عليه"، يعني بذلك: ما يحبه، "واصبروا"، يقول: اصبروا مع نبي الله ﷺ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه "إن الله مع الصابرين"، يقول: اصبروا فإني معكم.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد والسدي

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقدّم من الله جل ثناؤه إلى المؤمنين به وبرسوله، أن لا يعملوا عملاً إلا لله خاصة، وطلب ما عنده، لا رياء الناس، كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلب رياء الناس. وذلك أنهم أخبروا بقوت العير رسول الله ﷺ وأصحابه، وقيل لهم: "انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها!"، فأبوا وقالوا: "نأتي بدرًا فنشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتحدث بنا العرب فيها"، فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا، كما جاء عن عروة والضحاك وابن اسحاق

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذاً: ولا تكونوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، في العمل بالرياء والسمعة، وترك إخلاص العمل لله، واحتساب الأجر فيه، كالجيش من أهل الكفر بالله ورسوله الذين خرجوا من منازلهم بطراً ومراعاة الناس بزيهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدة بطانتهم "ويصدون عن سبيل الله"، يقول: ويمنعون الناس من دين الله والدخول في الإسلام، بقتالهم إياهم، وتعذيبهم من قدروا عليه من أهل الإيمان بالله "والله بما يعملون"، من الرياء والصد عن سبيل الله، وغير ذلك من أفعالهم "محيط"، يقول: عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيء، وذلك أن الأشياء كلها له متجلية، لا يعزب عنه منها شيء، فهو لهم بها معاقب، وعليها معذب.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقِفَّتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، وحين زين لهم الشيطان أعمالهم، وكان تزيينه ذلك لهم، كما جاء عن ابن عباس، قال: جاء إبليس يوم بدر في جُند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدَلِج، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين. وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع. إبليس يده فولّى مدبراً هو

وشيعته، فقال الرجل: يا سارقة، تزعم أنك لنا جار؟ قال: ﴿إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾، وذلك حين رأى الملائكة. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: ﴿وإن الله لسميع عليم﴾، في هذه الأحوال وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم، أيها المؤمنون، لحربكم وقتالكم وحسن ذلك لهم وحثهم عليكم، وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من بني آدم، فاطمئنوا وأبشروا ﴿وإني جار لكم﴾، من كنانة أن تأتيكم من ورائكم فمعيدكم، أجيركم وأمنعكم منهم، فلا تخافوهم، واجعلوا حدكم وبأسكم على محمد وأصحابه ﴿فلما تراءت الفئتان﴾، يقول: فلما تزاخفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض ﴿نكص على عقبيه﴾، يقول: رجع القهقري على قفاه هاربًا. وقال للمشركين: ﴿إني برىء منكم إني أرى ما لا ترون﴾، يعني أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددًا للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم إني أخاف عقاب الله، وكذب عدو الله ﴿والله شديد العقاب﴾.

القول في تأويل قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وإن الله لسميع عليم﴾، في هذه الأحوال ﴿وإذ يقول المنافقون﴾، وكرر بقوله: ﴿إذ يقول المنافقون﴾، على قوله: ﴿إذ يريكم الله في منامك قليلاً﴾ ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾، يعني: شك في الإسلام، لم يصحّ يقينهم، ولم تُشرح بالإيمان صدورهم ﴿غر هؤلاء دينهم﴾، يقول: غر هؤلاء الذين يقاتلون المشركين من أصحاب محمد ﷺ من أنفسهم، دينهم وذلك الإسلام.

وأما قوله: ﴿ومن يتوكل على الله﴾، فإن معناه: ومن يسلم أمره إلى الله، ويثق به، ويرض بقضائه، فإن الله حافظه وناصره لأنه "عزيز"، لا يغلبه شيء، ولا يقهره أحد، فجارّه منيع، ومن يتوكل عليه مكفي. وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله وغيرهم، أن يفوضوا أمرهم إليه، ويسلموا لقضائه، كيما يكفيهم أعداءهم، ولا يستذلهم من ناوَاهم، لأنه "عزيز" غير مغلوب، فجاره غير مقهور "حكيم"، يقول: هو فيما يدبر من أمر خلقه حكيم، لا يدخل تدبيره خلل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: ولو تعاین، يا محمد، حين يتوفى الملائكة أرواح الكفار، فتزعهما من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وسعيد وغيرهم

القول في تاويل قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل الملائكة لهؤلاء المشركين الذين قتلوا ببدر، أنهم يقولون لهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم: "ذوقوا عذاب الله الذي يحرقكم"، هذا العذاب لكم ﴿بما قدمت أيديكم﴾، أي: بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار، واجترحتم من معاصي الله أيام حياتكم، فذوقوا اليوم العذاب، وفي معادكم عذاب الحريق؛ وذلك لكم بأن الله ﴿ليس بظلام للعبيد﴾، لا يعاقب أحداً من خلقه إلا بجرم اجترمه، ولا يعذبه إلا بمعصيته إياه، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه.

القول في تاويل قوله: ﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فعل هؤلاء المشركون من قريش الذين قتلوا ببدر، كعادة قوم فرعون وصنيعهم وفعلهم وفعل من كذب بحجج الله ورسله من الأمم الخالية قبلهم، ففعلنا بهم كفعلنا بأولئك. وقد بينا فيما مضى أن "الدأب"، هو الشأن والعادة، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. كما جاء عن مجاهد وعطاء وقوله: ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾، يقول: فعاقبهم الله بتكذيبهم حججه ورسله، ومعصيتهم ربهم، كما عاقب أشكالهم والأمم الذين قبلهم ﴿إن الله قوي﴾، لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه راداً، يُنفذ أمره، ويُمضي قضاءه في خلقه شديد عقابه لمن كفر بآياته وجحد حُججه.

القول في تاويل قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأخذنا هؤلاء الذين كفروا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم، وفعلنا ذلك بهم، بأنهم غيروا ما أنعم الله عليهم به من ابتعائه رسوله منهم وبين أظهرهم، بإخراجهم إياه من بينهم، وتكذيبهم له، وحرهم إياه، فغيرنا نعمتنا عليهم بإهلاكنا إياهم، كفعلنا ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى علينا وعصى أمرنا. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، يقول: لا يخفى عليه شيء من كلام خلقه، يسمع كلام كل ناطق منهم بخير نطق أو بشرٍ ﴿عليم﴾، بما تضمه صدورهم، وهو مجازيهم ومشيهم على ما يقولون ويعملون، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً.

القول في تاويل قوله: ﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَالِمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: غير هؤلاء المشركون بالله، المقتولون ببدر، نعمة ربهم التي أنعم بها عليهم، بابتعائه

محمدًا منهم وبين أظهرهم، داعيًا لهم إلى الهدى، بتكذيبهم إياه، وحرهم له ﴿كذاب آل فرعون﴾، كسنة آل فرعون وعادتهم وفعلهم بموسى نبي الله، في تكذيبهم إياه، وقصدهم لحره، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبة رسلها وصنيعهم ﴿أهلكناهم بذنوبهم﴾، بعضًا بالرجفة، وبعضًا بالخسف، وبعضًا بالريح ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾، في اليم ﴿وكل كانوا ظالمين﴾، يقول: كل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله، من تكذيبهم رسل الله والجحود لآياته، فكَذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر، إذ غيروا نعمة الله عندهم، بالقتل بالسيف، وأذللنا بعضهم بالإسار والسَّباء.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن شر ما دب على الأرض عند الله، الذين كفروا برهم، فجحدوا وحدانيته، وعبدوا غيره ﴿فهم لا يؤمنون﴾، يقول: فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يقرّون بوحيه وتنزيله.

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا﴾، ﴿الذين عاهدت منهم﴾، يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربًا لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد ﴿ثم ينقضون﴾، عهودهم ومواثيقهم كلما عاهدوك وواثقوك، حاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتقون الله، ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿فِيمَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن حَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿فِيمَا تَلَقَيْنَ فِي الْحَرْبِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ فَنَقَضُوا عَهْدَكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ قَرِيظَةٍ، فَتَأْسَرَهُمْ﴾، ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، يقول: فافعل بهم فعلا يكون مشرّدًا من خلفهم من نظرائهم، ممن بينك وبينه عهد وعقد. و"التشريد"، التطريد والتبديد والتفريق. وإنما أمر بذلك نبي الله ﷺ أن يفعل بالناقض العهد بينه وبينهم إذا قدر عليهم فعلا يكون إخافة لمن وراءهم، ممن كان بين رسول الله ﷺ وبينه عهد، حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجتراً عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية من نقض العهد. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة والسدي

وأما قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يذكُرُونَ﴾، فإن معناه: كي يتعظوا بما فعلت هؤلاء الذين وصفت صفتهم، فيحذروا نقض العهد الذي بينك وبينهم خوف أن ينزل بهم منك ما نزل هؤلاء إذا هم

نقضه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ﴾، يا محمد، من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد، أن ينكث عهده. وينقض عقده، ويغدر بك وذلك هو "الخيانة" والغدر ﴿فانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به فيحاربه، قبل إعلامه إياه أنه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد ومعنى قوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾، أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سلم وقيل: نزلت الآية في قريظة. كما جاء عن مجاهد

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ اختلفت القراءة في قراءة ذلك. قال أبو جعفر: والصواب من القراءة في ذلك عندي، قراءة من قرأ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، بالتاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾، بكسر الألف من "إنهم"، ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾، بمعنى: ولا تحسبن أنت، يا محمد، الذين جحدوا حجج الله وكذبوا بها، سبقونا بأنفسهم ففاتونا، إنهم لا يعجزوننا أي: يفوتوننا بأنفسهم، ولا يقدر على الهرب منا، كما جاء عن السدي

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَعِدُّوا﴾، لهؤلاء الذين كفروا بربهم، الذين بينكم وبينهم عهد، إذا خفتم خيانتهم وغدرهم، أيها المؤمنون بالله ورسوله ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، يقول: ما أطقتم أن تعدوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم، من السلاح والخيل ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، يقول: تخيفون بإعدادكم ذلك عدو الله وعدوكم من المشركين. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن عتبة بن عامر الجهني قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾، فقال: "ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة، الرمي" ثلاث مرات.

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ اختلف أهل التأويل في هؤلاء "الآخرين"، من هم، وما هم؟

قال أبو جعفر: والصواب من القول عنى به الجن، أقرب وأشبهُ بالصواب،

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما أنفقتم، أيها المؤمنون، من نفقة في شراء آلة حرب من سلاح أو حراب أو كُرَاع أو غير ذلك من النفقات، في جهاد أعداء الله من المشركين يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدخر لكم أجوركم على ذلك عنده، حتى يوفىكموها يوم القيامة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظلمون﴾، يقول: يفعل ذلك بكم ربكم، فلا يضيع أجوركم عليه.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن اسحاق

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإما تخافن من قوم خيانة وغدرًا، فانبذ إليهم على سواء وأذنهم بالحرب ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب، إما بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاء الجزية، وإما بمواعدة، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح ﴿فاجنح لها﴾، يقول: فمل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه. وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل كما جاء عن ابن اسحاق والسدي وابن زيد كما جاء عن مجاهد

وأما قوله: ﴿وتوكل على الله﴾، يقول: فوُض إلى الله، يا محمد، أمرك، واستكفِه، واثقًا به أنه يكفيك كما جاء عن ابن اسحاق وقوله: ﴿إنه هو السميع العليم﴾، يعني بذلك: إن الله الذي تتوكل عليه، "سميع"، لما تقول أنت ومن تسالمة وتتاركة الحرب من أعداء الله وأعدائك عند عقد السلم بينك وبينه، وما يشترط كل فريق منكم على صاحبه من الشروط "العليم"، بما يضمرة كل فريق منكم للفريق الآخر من الوفاء بما عاقده عليه، ومن المضمرة ذلك منكم في قلبه، والمنطوي على خلافه لصاحبه.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإن يرد، يا محمد، هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء إن خفت منهم خيانة، وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم، خداعك والمكر بك ﴿فإن حسبك الله﴾، يقول: فإن الله كافيكهم وكافيك خداعهم إياك، لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان، ومتضمن أن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾، يقول: الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه ﴿وبالمؤمنين﴾، يعني بالأنصار.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن اسحاق والسدي

القول في تاويل قوله: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يريد جل ثناؤه بقوله: ﴿وَألف بين قلوبهم﴾، وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيرهم به جميعاً بعد أن كانوا أشتاتاً، وإخواناً بعد أن كانوا أعداء.

وقوله: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لو أنفقت، يا محمد، ما في الأرض جميعاً من ذهب وورق وعرض، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك، ولكن الله جمعها على الهدى فألفت واجتمعت، تقوية من الله لك وتأييداً منه ومعونة على عدوك. يقول جل ثناؤه: والذي فعل ذلك وسببه لك حتى صاروا لك أعواناً وأنصاراً ويدا واحدة على من بغاك سوءاً هو الذي إن رام عدوً منك مرأماً يكفيك كيده وينصرك عليه، فثق به وامض لأمره، وتوكل عليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وابن اسحاق ومجاهد

وقوله: ﴿إنه عزيز حكيم﴾، يقول: إن الله الذي ألف بين قلوب الأوس والخزرج بعد تشتت كلمتهما وتعاديهما، وجعلهم لك أنصاراً ﴿عزيز﴾، لا يقهره شيء، ولا يردّ قضاءه راداً، ولكنه ينفذ في خلقه حكمه. يقول: فعله فتوكل، وبه فتق ﴿حكيم﴾، في تدبير خلقه.

القول في تاويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾، وحسب من اتبعك من المؤمنين، الله. يقول لهم جل ثناؤه: ناهضوا عدوكم، فإن الله كافيكم أمرهم، ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم، فإن الله مؤيدكم بنصره.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن الشعبي وابن زيد وعامر

القول في تاويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الآية حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾، حث متبعيك ومصدقيك على ما جئتهم به من الحق، على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين ﴿إن يكن منكم عشرون﴾ رجلاً ﴿صابرون﴾، عند لقاء العدو، ويحتسبون أنفسهم ويشبتون لعدوهم ﴿يغلبوا مئتين﴾، من عدوهم ويقهروهم ﴿وإن يكن منكم مئة﴾، عند ذلك ﴿يغلبوا﴾، منهم ﴿ألفاً﴾ ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾، يقول: من أجل

أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب، لأنهم لم يفقهوا أن الله مُوجِبٌ لمن قاتل احتساباً، وطلب موعود الله في الميعاد، ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم. ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم فقال لهم: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾، يعني: أن في الواحد منهم عن لقاء العشرة من عدوهم ضعفاً ﴿فإن يكن منكم مئة صابرة﴾، عند لقاءهم للثبات لهم ﴿يغلبوا مئتين﴾ منهم ﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ منهم ﴿بإذن الله﴾ يعني: بتخليفة الله إياهم لغلبتهم، ومعونته إياهم ﴿والله مع الصابرين﴾، لعدوهم وعدو الله، احتساباً في صبره، وطلباً لجزيل الثواب من ربه، بالعون منه له، والنصر عليه. كما جاء عن عطاء وابن جريج

قال أبو جعفر: وهذه الآية أعني قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين﴾، وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر. يدل على ذلك قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾، فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل. ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف، وكان ندباً، لم يكن للتخفيف وجه، لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوت للعشرة من العدو. وإذا لم يكن التشديد قد كان له متقدماً، لم يكن للترخيص وجه، إذ كان المفهوم من الترخيص إنما هو بعد التشديد. وإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن حكم قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾، ناسخ لحكم قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾. وقد بينا في كتابنا "البيان عن أصول الأحكام"، أن كل خبر من الله وعد فيه عباده على عمل ثواباً وجزاء، وعلى تركه عقاباً وعذاباً، وإن لم يكن خارجاً ظاهره مخرج الأمر، ففي معنى الأمر بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تاويل قوله: ﴿مَا كَانَ لِإِنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما كان لنبي أن يحتبس كافراً قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمن.

وإنما قال الله جل ثناؤه [ذلك] لنبيه محمد ﷺ، يعرفه أن قتل المشركين الذين أسرههم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم.

وقوله: ﴿حتى يثخن في الأرض﴾، يقول: حتى يبالغ في قتل المشركين فيها، ويقهرهم غلبة وقسراً. وقوله ﴿تريدون﴾، يقول للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿تريدون﴾، أيها المؤمنون، ﴿عرص الدنيا﴾، بأسركم المشركين وهو ما عرّض للمرء منها من مال

ومتاع. يقول: تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطعمها ﴿والله يريد الآخرة﴾، يقول: والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعد للمؤمنين وأهل ولايته في جناته، بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض. يقول لهم: فاطلبوا ما يريد الله لكم وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها ﴿والله عزيز﴾، يقول: إن أنتم أردتم الآخرة، لم يغلبكم عدو لكم، لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب وأنه ﴿حكيم﴾ في تدبيره أمر خلقه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾، وذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم، أنزل الله تبارك وتعالى بعد هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾، [محمد: ٤]، فجعل الله النبي والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار، إن شاءوا قتلهم، وإن شاءوا استعبدوهم، وإن شاءوا فادوهم.

القول في تأويل قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾، يقول: لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ، بأن الله مُجِلُّ لكم الغنيمة، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يُضِلُّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله ﷺ ناصراً دين الله لنالكم من الله، بأخذكم الغنيمة والفداء، عذاب عظيم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أهل بدر: ﴿فكلوا﴾، أيها المؤمنون ﴿مما غنمتم﴾، من أموال المشركين ﴿حلالاً﴾، بإحلاله لكم ﴿طيباً واتقوا الله﴾، يقول: وخافوا الله أن تعودوا، أن تفعلوا في دينكم شيئاً بعد هذه من قبل أن يُعْهَدَ فيه إليكم، كما فعلتم في أخذ الفداء وأكل الغنيمة، وأخذتموهما من قبل أن يحلَّ لكم ﴿إن الله غفور رحيم﴾. وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، وتأويل الكلام: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾، ﴿إن الله غفور رحيم﴾، ﴿واتقوا الله﴾. ويعني بقوله: ﴿إن الله غفور﴾، لذنوب أهل الإيمان من عباده ﴿رحيم﴾، بهم، أن يعاقبهم بعد توبتهم منها.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنِّي عَلِمْتُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُم مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي، قل لمن في أيدي أصحابك من

أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ: ﴿إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، يقول: إن يعلم الله في قلوبكم إسلامًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾، من الفداء ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جُرمكم الذي اجترتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، لذنوب عباده إذا تابوا ﴿رَحِيمٌ﴾، بهم، أن يعاقبهم عليها بعد التوبة.

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبه: وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم ﴿خِيَانَتَكَ﴾، أي الغدر بك والمكر والخداع، بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾، فقد خالفوا أمر الله من قبل وقعة بدر، وأمكن منهم ببدن المؤمنين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه سواهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والسدي

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله "وهاجروا"، يعني: هجروا قومهم وعشيرتهم ودورهم، يعني: تركوهم وخرجوا عنهم، وهجرهم قومهم وعشيرتهم ﴿وجاهدوا في سبيل الله﴾، يقول: بالغوا في إتعاب نفوسهم وإنصابتها في حرب أعداء الله من الكفار ﴿في سبيل الله﴾، يقول: في دين الله الذي جعله طريقًا إلى رحمته والنجاة من عذابه ﴿والذين آووا ونصروا﴾، يقول: والذين آووا رسول الله والمهاجرين معه، يعني: أنهم جعلوا لهم مأوى يأوون إليه، وهو المثلوى والمسكن، يقول: أسكنوهم، وجعلوا لهم من منازلهم مساكنَ إذ أخرجهم قومهم من منازلهم ﴿ونصروا﴾، يقول: ونصروهم على أعدائهم وأعداء الله من المشركين ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾، يقول: هاتان الفرقتان، يعني المهاجرين والأنصار، بعضهم أنصار بعض، وأعوان على من سواهم من المشركين، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وبعضهم إخوان لبعض دون أقربائهم الكفار.

وقد قيل: إنما عني بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورثَ بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة، دون القرابة والأرحام، وأن الله نسخ ذلك بعدُ بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، [الأنفال: ٧٥ وسورة الأحزاب: ٦]. كما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، يعني: في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين

والأنصار دون ذوي الأرحام، قال الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، يقول: ما لكم من ميراثهم من شيء، وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وسورة الأحزاب: ٦، في الميراث، فنسخت التي قبلها، وصار الميراث لذوي الأرحام.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. الذين صدقوا بالله ورسوله ﴿ولم يهاجروا﴾. قومهم الكفار، ولم يفارقوا دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿ما لكم﴾، أيها المؤمنون بالله ورسوله. المهاجرون قومهم المشركين وأرض الحرب ﴿من ولايتهم﴾، يعني: من نصرتهم وميراثهم ﴿وإن استنصروكم في الدين﴾، يقول: إن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿في الدين﴾، يعني: بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين، "فعلیکم"، أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار، ﴿النصر﴾ ﴿إلا﴾ أن يستنصروكم ﴿على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾، يعني: عهد قد وثق به بعضكم على بعض أن لا يحاربه ﴿والله بما تعملون بصير﴾، يقول: والله بما تعملون فيما أمركم ونهاكم من ولاية بعضكم بعضاً، أيها المهاجرون والأنصار، وترك ولاية من آمن ولم يهاجر ونصرتكم إياهم عند استنصاركم في الدين، وغير ذلك من فرائض الله التي فرضها عليكم ﴿بصير﴾، يراه ويبيصره، فلا يخفى عليه من ذلك ولا من غيره شيء.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بالله ورسوله ﴿بعضهم أولياء بعض﴾، يقول: بعضهم أعوان بعض وأنصاره، وأحق به من المؤمنين بالله ورسوله. وقد ذكرنا قول من قال: "عنى بذلك أن بعضهم أحق بميراث بعض من قرباتهم من المؤمنين"

وأما قوله: ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله. قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بتأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بعضهم أولياء بعض﴾، قول من قال: معناه: أن بعضهم أنصار بعض دون المؤمنين، وأنه دلالة على تحريم الله على المؤمن المقام في دار الحرب وترك الهجرة، لأن المعروف في كلام العرب من معنى "الولي"، أنه النصير والمعين، أو: ابن العم والنسيب. فأما الوارث فغير معروف ذلك من معانيه، إلا بمعنى أنه يليه في القيام بإرثه من بعده. وذلك معنى بعيد، وإن كان قد يحتمله الكلام. وتوجيه

معنى كلام الله إلى الأظهر الأشهر، أولى من توجيهه إلى خلاف ذلك. وإذا كان ذلك كذلك، فبين أن أولى التأويلين بقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، تأويل من قال: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين، تكن فتنة في الأرض إذا كان مبتدأ الآية من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. بالحث على الموالاة على الدين والتناصر جاء، فكذاك الواجب أن يكون خاتمتها به.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾، آووا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم، ونصرو دين الله، أولئك هم أهل الإيمان بالله ورسوله حقًا، لا من آمن ولم يهاجر دار الشرك، وأقام بين أظهر أهل الشرك، ولم يغز مع المسلمين عدوهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، يقول: لهم ستر من الله على ذنوبهم، بعفوه لهم عنها ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، يقول: لهم في الجنة مطعم ومشرب هنيئ كريم، لا يتغير في أجوافهم فيصير نجسًا، ولكنه يصير رشحًا كرشح المسك وهذه الآية تنبئ عن صحة ما قلنا: أن معنى قول الله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، إنما هو النصرة والمعونة، دون الميراث. لأنه جل ثناؤه عقب ذلك بالثناء على المهاجرين والأنصار والخبر عما لهم عنده، دون من لم يهاجر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾، الآية، ولو كان مرادًا بالآيات قبل ذلك، الدلالة على حكم ميراثهم، لم يكن عقيب ذلك إلا الحث على إمضاء الميراث على ما أمر. وفي صحة ذلك كذلك، الدليل الواضح على أن لا ناسخ في هذه الآيات لشيء، ولا منسوخ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "والذين آمنوا"، بالله ورسوله، من بعد تبياني ما بينت من ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضًا، وانقطاع ولايتهم ممن آمن ولم يهاجر حتى يهاجر ﴿وَهَاجَرُوا﴾، دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾، أيها المؤمنون ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾، في الولاية، يجب عليكم لهم من الحق والنصرة في الدين والموارثة، مثل الذي يجب لكم عليهم، ولبعضكم على بعض كما جاء عن بن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والمتناسبون بالأرحام ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾، في الميراث، إذا كانوا ممن قسم الله له منه نصيبًا وحظًا، من الحليف والولي ﴿فِي

كتاب الله ﷻ، يقول: في حكم الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ والسابق من القضاء ﷻ إن الله بكل شيء عليم ﷻ، يقول: إن الله عالم بما يصلح عباده، في توريثه بعضهم من بعض في القرابة والنسب، دون الحلف بالعقد، وبغير ذلك من الأمور كلها، لا يخفى عليه شيء منها.

كما جاء، عن عيسى بن الحارث: أن أخاه شريح بن الحارث كانت له سُرِّيَّة، فولدت منه جارية، فلما شبت الجارية زُوِّجت، فولدت غلامًا، ثم ماتت السُرِّيَّة، واختصم شريح بن الحارث والغلام إلى شريح القاضي في ميراثها، فجعل شريح بن الحارث يقول: ليس له ميراث في كتاب الله! قال: فقضى شريح بالميراث للغلام. قال: ﷻ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﷻ، فركب ميسرة بن يزيد إلى ابن الزبير، فأخبره بقضاء شريح وقوله، فكتب ابن الزبير إلى شريح: "إن ميسرة أخبرني أنك قضيت بكذا وكذا"، وقلت: ﷻ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﷻ، وإنه ليس كذلك، إنما نزلت هذه الآية: أن الرجل كان يعاقد الرجل يقول: "ترثني وأرثك"، فنزلت: ﷻ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﷻ. فجاء بالكتاب إلى شريح، فقال شريح: أعتقها حيتان بطنها! وأبى أن يرجع عن قضائه.

آخر تفسير "سورة الأنفال"

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.



تفسير سورة التوبة

القول في تاويل قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿براءة من الله ورسوله﴾، هذه براءة من الله ورسوله، إلى الذين عاهدتم من المشركين وقال: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم﴾، والمعنى: إلى الذين عاهد رسول الله ﷺ من المشركين، لأن العهود بين المسلمين والمشركين عهد رسول الله ﷺ، لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله ﷺ أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه، وأن عقود النبي ﷺ على أمته كانت عقودهم، لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم، فلذلك قال: ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾، لما كان من عقد رسول الله ﷺ وعهده. وقد اختلف أهل التأويل فيمن برئ الله ورسوله إليه من العهد الذي كان بينه وبين رسول الله من المشركين، فأذن له في السياحة في الأرض أربعة أشهر.

قال أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾، إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ، ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته. فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، [التوبة: ٤]

وبعد، ففي الأخبار المتظاهرة عن رسول الله ﷺ: أنه حين بعث علياً رَحِمَهُ اللَّهُ عليه براءة إلى أهل العهود بينه وبينهم، أمره فيما أمره أن ينادي به فيهم: "ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعاهده إلى مدته"، أوضح الدليل على صحة ما قلنا. وذلك أن الله لم يأمر نبيه ﷺ بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل، أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود. فأما من كان أجل عهده محدوداً، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلاً فإن رسول الله ﷺ كان بإتمام عهده إلى

غاية أجله مأمورًا. وبذلك بعث مناديه ينادي به في أهل الموسم من العرب.

كما جاء عن أبي هريرة قال: كنت مع علي رحمة الله عليه، حين بعثه النبي ﷺ ينادي. فكان إذا صَحَلَ صوته نَادَيْتُ، قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يَطْفُ بالكعبة عُرْيَان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهدٌ فعهدُهُ إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك. وكما جاء عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر ببراءة، ثم أتبعه عليًّا، فأخذها منه، فقال أبو بكر: يا رسول الله حدث في شيء؟ قال: "لا أنت صاحبي في الغار وعلى الحوض، ولا يؤدِّي عني إلا أنا أو عليٌّ! وكان الذي بعث به عليًّا أربعا: لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته. وأما الأشهر الأربعة، فإنها كانت أجل من ذكرنا. وكان ابتداءها يوم الحج الأكبر، وانقضاؤها انقضاء عشر من ربيع الآخر، فذلك أربعة أشهر متتابعة، جُعِلَ لأهل العهد الذين وصفنا أمرهم، فيها، السباحة في الأرض، يذهبون حيث شاؤوا، لا يعرض لهم فيها من المسلمين أحدٌ بحرب ولا قتل ولا سلب.

وأما قوله: ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾، فإنه يقول لأهل العهد من الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ قبل نزول هذه الآية: اعلموا، أيها المشركون، أنكم إن سحتم في الأرض، واخترتم ذلك مع كفركم بالله. على الإقرار بتوحيد وتصديق رسوله ﷺ غير معجزي الله، يقول: غير مُفِيتيه بأنفسكم، لأنكم حيث ذهبتم وأين كنتم من الأرض، ففي قبضته وسلطانه، لا يمنعكم منه وزيرٌ، ولا يحول بينكم وبينه إذا أرادكم بعذابٍ معقلٌ ولا موئل. إلا الإيمان به وبرسوله. والتوبة من معصيته. يقول: فبادروا عقوبته بتوبة، ودعوا السباحة التي لا تنفعكم.

وأما قوله: ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾، يقول: واعلموا أن الله مُذِلُّ الكافرين، ومُورِثهم العارَ في الدنيا، والنارَ في الآخرة.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإعلامٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر. وأما قوله: ﴿يوم الحج الأكبر﴾، فإنه فيه اختلافًا بين أهل العلم.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة، قولٌ من قال: "يوم الحج الأكبر، يوم النحر"، لتظاهر الأخبار عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ أن عليًّا نادى بما أرسله به رسول الله ﷺ من الرسالة إلى المشركين، وتلا عليهم "براءة"، يوم النحر. هذا، مع الأخبار التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم النحر: أتدرون أي يوم هذا؟ هذا يوم الحج الأكبر.

واختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل لهذا اليوم: "يوم الحج الأكبر".

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: "الحج الأكبر، الحج"، لأنه أكبر من العمرة بزيادة عمله على عملها، فقيل له: "الأكبر"، لذلك. وأما "الأصغر" فالعمرة، لأن عملها أقل من عمل الحج، فلذلك قيل لها: "الأصغر"، لنقصان عملها عن عمله. وأما قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، فإن معناه: أن الله بريء من عهد المشركين ورسوله، بعد هذه الحجة. كما جاء عن ابن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ تَبُيْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿فَإِنْ تَبُيْتُمْ﴾، من كفركم، أيها المشركون، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنناد فالرجوع إلى ذلك ﴿خير لكم﴾، من الإقامة على الشرك في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، يقول: وإن أدبرتم عن الإيمان بالله وأبیتم إلا الإقامة على شرككم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾، يقول: فأيقنوا أنكم لا تفتنون الله بأنفسكم من أن يحل بكم عذابه الأليم وعقابه الشديد، على إقامتكم على الكفر، كما فعل بمن قبلكم من أهل الشرك من إنزال نقمه به، وإحلاله العذاب عاجلا بساحته ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يقول: واعلم، يا محمد، الذين جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم ﴿بعذاب﴾، موجه يحل بهم. كما جاء عن ابن جريج

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾، إلا من عهد الذين عاهدتم من المشركين، أيها المؤمنون ﴿ثم لم ينقصوكم شيئا﴾، من عهدكم الذي عاهدتموهم ﴿ولم يظاهروا عليكم أحدا﴾، من عدوكم، فيعينوهم بأنفسهم وأبدانهم، ولا بسلاح ولا خيل ولا رجال ﴿فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾، يقول: ففؤا لهم بعهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ولا تنصبوا لهم حربا إلى انقضاء أجل عهدهم الذي بينكم وبينهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، يقول: إن الله يحب من اتقاه بطاعته، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. كما جاء عن قتادة وابن عباس وغيرهما

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ

الحرم)، فإذا انقضى ومضى وخرج. ويعني بـ "الأشهر الحرم"، ذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم. وإنما أريد في هذا الموضع انسلاخ المحرم وحده، لأن الأذان كان براءة يوم الحج الأكبر. فمعلوم أنهم لم يكونوا أجّلوا الأشهر الحرم كلها وقد دللنا على صحة ذلك فيما مضى ولكنه لما كان متصلاً بالشهرين الآخرين قبله الحرامين، وكان هو لهما ثالثاً، وهي كلها متصل بعضها ببعض، قيل: "إذا انسلخ الأشهر الحرم"، ومعنى الكلام: فإذا انقضت الأشهر الحرم الثلاثة عن الذين لا عهد لهم، أو عن الذين كان لهم عهد فنقضوا عهدهم بمظاهرتهم الأعداء على رسول الله وعلى أصحابه، أو كان عهدهم إلى أجل غيره معلوم. ﴿فاقتلوا المشركين﴾، يقول: فاقتلوهم ﴿حيث وجدتموهم﴾، يقول: حيث لقيتموهم من الأرض، في الحرم، وغير الحرم في الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم ﴿وخذوهم﴾ يقول: وأسروهم ﴿واحصروهم﴾، يقول: وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾، يقول: واقعدوا لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم "كل مرصد"، يعني: كل طريق ومرقب.

﴿فإن تابوا﴾، يقول: فإن رجعوا عما نهاهم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة محمد ﷺ، إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، والإقرار بنبوة محمد ﷺ ﴿وأقاموا الصلاة﴾، يقول: وأدّوا ما فرض الله عليهم من الصلاة بحدودها وأعطاوا الزكاة التي أوجبها الله عليهم في أموالهم أهلها ﴿فخلوا سبيلهم﴾، يقول: فدعوهم يتصرفون في أمصاركم، ويدخلون البيت الحرام ﴿إن الله غفور رحيم﴾، لمن تاب من عباده فأناوب إلى طاعته، بعد الذي كان عليه من معصيته، سائر على ذنبه، رحيم به، أن يعاقبه على ذنوبه السالفة قبل توبته، بعد التوبة وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في الذين أجّلوا إلى انسلاخ الأشهر الحرم.

وبنحو ما قلنا في تأويل ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ ليسمع كلام الله منك وهو القرآن الذي أنزله الله عليه ﴿فأجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثم أبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رُدَّه بعد سماعه كلام الله إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن "إلى مأمنه"، يقول: إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله

لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله.

وينحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أتى يكون أيها المؤمنون بالله ورسوله، وبأي معنى، يكون للمشركين برهم عهدٌ وذمة عند الله وعند رسوله، يوفى لهم به، ويتركوا من أجله آمنين يتصرفون في البلاد؟ وإنما معناه: لا عهد لهم، وأن الواجب على المؤمنين قتلهم حيث وجدوهم، إلا الذين أعطوا العهد عند المسجد الحرام منهم، فإن الله جل ثناؤه أمر المؤمنين بالوفاء لهم بعهدهم، والاستقامة لهم عليه، ما داموا عليه للمؤمنين مستقيمين.

واختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي، قول من قال: هم بعض بني بكر من كنانة، ممن كان أقام على عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية من العهد مع قريش، حين نقضوه بمعونتهم حلفاءهم من بني الدئل، على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة. وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، فإن معناه: إن الله يحب من اتقى الله وراقبه في أداء فرائضه، والوفاء بعهد لمن عاهد، واجتناب معاصيه، وترك الغدر بعهوده لمن عاهد.

القول في تأويل قوله: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨) قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: كيف يكون لهؤلاء المشركين الذين نقضوا عهدهم أو لمن لا عهد له منهم منكم، أيها المؤمنون، عهد وذمة، وهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، يغلِبوكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المشركين الذين أمر نبيّه والمؤمنين بقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وحصرهم والقعود لهم على كل مرصد: أنهم لو ظهروا على المؤمنين لم يرقبوا فيهم "إلا". و"الإل": اسم يشتمل على معان ثلاثة: وهي العهد، والعقد، والحلف، والقراية، وهو أيضا بمعنى "الله". فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يُعم ذلك كما عم بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمن الله، ولا قراية، ولا عهدا، ولا ميثاقا.

فأما قوله: ﴿يرضونكم بأفواههم﴾، فإنه يقول: يعطونكم بألسنتهم من القول، خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ﴿وتأبى قلوبهم﴾، أي: تأبى عليهم قلوبهم أن يذعنوا لكم، بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم. يحذر جل ثناؤه أمرهم المؤمنين، ويشحذهم على قتلهم واجتياحهم حيث وجدوا من أرض الله، وأن لا يقصّروا في مكروهمهم بكل ما قدروا عليه ﴿وأكثرهم فاسقون﴾، يقول: وأكثرهم مخالفون عهدكم، ناقضون له، كافرون بربهم، خارجون عن طاعته.

القول في تاويل قوله: ﴿اَشْرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: اتباع هؤلاء المشركون الذين أمركم الله، أيها المؤمنون، بقتلهم حيث وجدتموهم، بتركهم اتباع ما احتج الله به عليهم من حججه، يسيرًا من العوض قليلا من عرض الدنيا. وذلك أنهم، فيما ذكر عنهم، كانوا نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلة أطعمهموها أبو سفيان بن حرب.

وأما قوله: ﴿فصدوا عن سبيله﴾، فإن معناه: فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام، وحاولوا ردّ المسلمين عن دينهم ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾، يقول جل ثناؤه: إن هؤلاء المشركين الذين وصفت صفاتهم، ساء عملهم الذي كانوا يعملون، من اشترائهم الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى، وصدّهم عن سبيل الله من آمن بالله ورسوله، أو من أراد أن يؤمن.

القول في تاويل قوله: ﴿لَا يَرْفُئُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لا يتقي هؤلاء المشركون الذين أمرتكم، أيها المؤمنون، بقتلهم حيث وجدتموهم، في قتل مؤمن لو قدورا عليه ﴿إلا ولا ذمة﴾، يقول: فلا تبقوا عليهم، أيها المؤمنون، كما لا يبقون عليكم لو ظهروا عليكم ﴿وأولئك هم المعتدون﴾، يقول: المتجاوزون فيكم إلى ما ليس لهم بالظلم والاعتداء.

القول في تاويل قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: فإن رجع هؤلاء المشركون الذين أمرتكم، أيها المؤمنون، بقتلهم عن كفرهم وشركهم بالله، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إلى طاعته ﴿وأقاموا الصلاة﴾، المكتوبة، فأدّوها بحدودها ﴿وآتوا الزكاة﴾، المفروضة أهلها ﴿فإخوانكم في الدين﴾، يقول: فهم إخوانكم في الدين الذي أمركم الله به، وهو الإسلام ﴿ونفصل الآيات﴾، يقول: ونبين حجج الله وأدلتها على خلقه ﴿لقوم يعلمون﴾، ما بين لهم، فنشرحها لهم مفصلة، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة وابن زيد وابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۚ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فإن نقض هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم من قريش، عهودهم من بعد ما عاهدوكم أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿وطعنوا في دينكم﴾، يقول: وقدحوا في دينكم الإسلام، وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل،

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتُخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله، حاضاً لهم على جهاد أعدائهم من المشركين: ﴿ألا تقاتلون﴾، أيها المؤمنون، هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم، وطعنوا في دينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم، ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾، من بين أظهرهم فاخرجوه ﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾، بالقتال، يعني فعلهم ذلك يوم بدر، وقيل: قتالهم حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة ﴿أتخشونهم﴾، يقول: أتخافونهم على أنفسكم فتركوا قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ﴿فأله أحق أن تخشوه﴾، يقول: فالله أولى بكم أن تخافوا عقوبته بترككم جهادهم، وتحذروا سخطه عليكم، من هؤلاء المشركين الذين لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً إلا بإذن الله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾، يقول: إن كنتم مقرين أن خشية الله لكم أولى من خشية هؤلاء المشركين على أنفسكم. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي ومجاهد وابن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۚ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قاتلوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم، ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم، وأخرجوا رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾، يقول: يقتلهم الله بأيديكم ﴿ويخزهم﴾، يقول: ويذلهم بالأسر والفقر ﴿وينصركم عليهم﴾، فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، يقول: ويرى داء صدور قوم مؤمنين بالله ورسوله، بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداء، هو ما كان في قلوبهم عليهم من الموجدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَذْهَبْ عَيْظٌ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ قال أبو جعفر: يقول الله تعالى ذكره: ويذهب عيظ قلوب هؤلاء القوم المؤمنين من خزاعة على هؤلاء القوم الذين نكثوا أيمانهم من المشركين، وغمها وكرها بما فيها من الوجد

عليهم، بمعونتهم بكرًا عليهم، كما جاء عن السدي وأما قوله: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ معنى الكلام: ويمنّ الله على من يشاء من عباده الكافرين، فيقبل به إلى التوبة بتوفيقه إياه ﴿والله عليم﴾، بسرائر عباده، ومن هو للتوبة أهل فيتوب عليه، ومن منهم غير أهل لها فيخذه ﴿حكيم﴾، في تصريف عباده من حال كفر إلى حال إيمان بتوفيقه من وقته لذلك ومن حال إيمان إلى كفر، بخذلانه من خذل منهم عن طاعته وتوحيده، وغير ذلك من أمرهم.

القول في تأويل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين الذين أمرهم بقتال هؤلاء المشركين، الذين نقضوا عهدهم الذي بينهم وبينه بقوله: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾، الآية، حاضًا على جهادهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أيها المؤمنون أن يترككم الله بغير محنة يمتحنكم بها، وبغير اختبار يختبركم به، فيعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا﴾، يقول: أحسبتم أن تتركوا بغير اختبار يعرف به أهل ولايته المجاهدين منكم في سبيله، من المضيعين أمر الله في ذلك المفرطين ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله﴾، يقول: ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والذين لم يتخذوا من دون الله ولا من دون رسوله ولا من دون المؤمنين ﴿وليجنة﴾ هو الشيء يدخل في آخر غيره، وإنما عنى بها في هذا الموضع: البطانة من المشركين. نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء، يفشون إليهم أسرارهم ﴿والله خبير بما تعملون﴾، يقول: والله ذو خبرة بما تعملون، من اتخاذكم من دون الله ودون رسوله والمؤمنين به أولياء وبطانة، بعد ما قد نهاكم عنه، لا يخفى ذلك عليه، ولا غيره من أعمالكم، والله مجازيكم على ذلك، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا. وبنحو الذي قلت في معنى "الوليجة"، قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي وابن زيد والربيع

القول في تأويل قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما ينبغي للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر. يقول: إن المساجد إنما تعمر لعبادة الله فيها، لا للكفر به، فمن كان بالله كافرًا، فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله. وأما شهادتهم على أنفسهم بالكفر،

فإنها كما جاء عن السدي قوله: ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾، يقول: ما ينبغي لهم أن يعمروها. وأما ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾، فإن النصراني يسأل: ما أنت؟ فيقول: نصراني واليهودي، فيقول: يهودي والصابئ، فيقول:

صابئ والمشرِك يقول إذا سأَلته: ما دينك؟ فيقول: مشرك! لم يكن ليقوله أحدٌ إلا العرب.

وقوله: ﴿أولئك حبَطت أعمالهم﴾، يقول: بطلت وزهبت أجورها، لأنها لم تكن لله بل كانت للشيطان ﴿وفي النار هم خالدون﴾، يقول: ما كانوا فيها أبداً، لا أحياء ولا أمواتاً.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٩﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾، المصدق بوحداية الله، المخلص له العبادة ﴿واليوم الآخر﴾، يقول: الذي يصدق ببعث الله الموتى أحياء من قبورهم يوم القيامة ﴿وأقام الصلاة﴾، المكتوبة، بحدودها وأدَّى الزكاة الواجبة عليه في ماله إلى من أوجبه الله له ﴿ولم يخش إلا الله﴾، يقول: ولم يرهب عقوبة شيء على معصيته إياه، سوى الله ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، يقول: فخليق بأولئك الذين هذه صفتهم، أن يكونوا عند الله ممن قد هداه الله للحق وإصابة الصواب. كما جاء عن ابن عباس وابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ قال أبو جعفر: وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية. وبذلك جاءت الآثار وتأويل أهل التأويل.

كالذي جاء عن النعمان بن بشير الأنصاري وغير واحد قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج! وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام! وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم! فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذا: أجعلتم، أيها القوم، سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ﴿لا يستون﴾ هؤلاء، وأولئك، ولا تعدل أحوالهما عند الله ومنازلهما، لأن الله تعالى لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملاً ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، يقول: والله لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافراً ولتوحده جاحداً.

القول في تاويل قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا قضاء من الله بَيْنَ فِرْقِ المفتخرين الذين افتخروا أحدهم بالسقاية، والآخر بالسُدانة، والآخر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله. يقول تعالى ذكره: ﴿الذين آمنوا﴾ بالله، وصدقوا بتوحيده من المشركين ﴿وهاجروا﴾ دور قومهم ﴿وجاهدوا﴾ المشركين في دين الله ﴿بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾، وأرفع منزلة عنده، من سَقَاةِ الحاج وعُمَّارِ المسجد الحرام، وهم بالله مشركون ﴿وأولئك﴾، يقول: وهؤلاء الذين وصفنا صفتهم، أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا ﴿هم الفائزون﴾، بالجنة، الناجون من النار.

القول في تاويل قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يبشر هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ﴿رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾، لهم، أنه قد رحمهم من أن يعذبهم ويرضوان منه لهم، بأنه قد رضي عنهم بطاعتهم إياه، وأدائهم ما كلفهم ﴿وجنات﴾، يقول: وبساتين ﴿لهم فيها نعيم مقيم﴾، لا يزول ولا يبيد، ثابت دائماً أبداً لهم. كما جاء عن جابر بن عبد الله

القول في تاويل قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره ﴿خالدين فيها﴾، ماكثين فيها، يعنى في الجنات ﴿أبداً﴾، لا نهاية لذلك ولا حدّ ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾، يقول: إن الله عنده لهؤلاء المؤمنين الذين نعتهم جل ثناؤه النعت الذي ذكر في هذه الآية ﴿أجر﴾، ثواب على طاعتهم لرَبِّهم، وأدائهم ما كلفهم من الأعمال ﴿عظيم﴾، وذلك النعيم الذي وعدهم أن يعطيهم في الآخرة.

القول في تاويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام ﴿إن استحبُّوا الكفر على الإيمان﴾، يقول: إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار بتوحيده ﴿ومن يتولهم منكم﴾، يقول: ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين، ويؤثر المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله ودار الإسلام ﴿فأولئك هم الظالمون﴾، يقول: فالذين يفعلون ذلك منكم، هم الذين خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره. وقيل: إن ذلك نزل نهيًا من الله المؤمنين عن موالاته أقربائهم الذين لم يهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) قال أبو جعفر: يقول تبارك وتعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد، للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام، المقيمين بدار الشرك: إن كان المقام مع آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وكانت ﴿أموال اقترفتموها﴾، يقول: اكتسبتموها ﴿وتجارة تخشون كسادها﴾، بفراقكم بلدكم ﴿ومساكن ترضونها﴾، فسكنتموها ﴿أحب إليكم﴾، من الهجرة إلى الله ورسوله، من دار الشرك ومن جهاد في سبيله، يعني: في نصره دين الله الذي ارتضاه ﴿فتربصوا﴾، يقول: فتظنّوا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾، حتى يأتي الله بفتح مكة ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، يقول: والله لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته وفي معصيته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد والسدي وقادة

القول في تاويل قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿لقد نصركم الله﴾، أيها المؤمنون في أماكن حرب توطّنون فيها أنفسكم على لقاء عدوّكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة ﴿ويوم حنين﴾، يقول: وفي يوم حنين أيضًا قد نصركم. و ﴿حنين﴾ وادٍ، فيما ذكر، بين مكة والطائف.

﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾، وكانوا ذلك اليوم، فيما ذكر لنا، اثني عشر ألفًا.

وروي أن النبي ﷺ قال ذلك اليوم: لن نغلب من قلة.

وقيل: قال ذلك رجل من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ. وهو قول الله: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا﴾، يقول: فلم تغن عنكم كثرتكم شيئًا ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾، يقول: وضاقت الأرض بسعتها عليكم. ﴿ثم وليتم مدبرين﴾، عن عدوكم منهزمين "مدبرين"، يقول: وليتموهم، الأدبار، وذلك الهزيمة. يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد وشدة البطش، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلفي الكثير والقليل، فيَهْزِمُ الكثير.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة قوله: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾، حتى بلغ: ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾، قال: "حنين"، ماء بين مكة والطائف، قاتل عليها نبي الله ﷺ هوازن وثقيف، وعلى هوازن: مالك بن عوف أخو بني نصر، وعلى ثقيف: عبد يا ليل بن عمرو الثقفي. قال: وذكر لنا أنه خرج يومئذ مع رسول الله ﷺ اثنا

عشر ألفاً: عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطُّلَقَاء، وذكر لنا أن رجلاً قال يومئذٍ: "لن نغلب اليوم بكثرة!" قال: وذكر لنا أن الطُّلَقَاء انجفلوا يومئذ بالناس، وجلّوا عن نبي الله ﷺ حتى نزل عن بغلته الشهباء. وذكر لنا أن نبي الله قال: "أي رب، آتني ما وعدتني!" قال: والعباس أخذ بلجام بغلة رسول الله، فقال له النبي ﷺ: "ناد يا معشر الأنصار، ويا معشر المهاجرين!"، فجعل ينادي الأنصار فخذوا فخذاً، ثم قال: "ناد بأصحاب سورة البقرة!" قال: فجاء الناس عُقّاً واحداً. فالتفت نبي الله ﷺ، وإذا عصابة من الأنصار، فقال: هل معكم غيركم؟ فقالوا: يا نبي الله، والله لو عمدت إلى برك الغماد من ذي يمين لكنّا معك، ثم أنزل الله نصره، وهزّم عدوّهم، وتراجع المسلمون. قال: وأخذ رسول الله كفاً من تراب أو: قبضةً من حصباء فرمى بها وجوه الكفار، وقال: "شاهت الوجوه!"، فانهزموا.

القول في تاويل قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم من بعد ما ضاقت عليكم الأرض بما رحبت، وتوليتكم الأعداء أديباركم، كشف الله نازل البلاء عنكم، بإنزاله السكينة وهي الأمانة والطمأنينة عليكم. ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾، وهي الملائكة التي ذكرت في الأخبار التي قد مضى ذكرها ﴿وعذب الذين كفروا﴾، يقول: وعذب الله الذين جحدوا وحدانيته ورسالة رسوله محمد ﷺ، بالقتل وسبي الأهلين والذرائع، وسلب الأموال والذلة ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾، يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتل والسبي ﴿جزاء الكافرين﴾، يقول: هو ثواب أهل جحد وحدانيته ورسالة رسوله. كما جاء عن السدي وسعيد وابن زيد

القول في تاويل قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه، من بعد عذابه الذي به عذب من هلك منهم قتلاً بالسيف ﴿على من يشاء﴾، أي يتوب الله على من يشاء من الأحياء، يُقْبَلُ به إلى طاعته ﴿والله غفور﴾، لذنوب من أناب وتاب إليه منهم ومن غيرهم منها ﴿رحيم﴾، بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم، ولا يؤاخذهم بها بعد إنابتهم.

القول في تاويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله وأقربوا بوحدانيته: ما المشركون إلا نجس.

واختلف أهل التأويل في معنى "النجس"، وما السبب الذي من أجله سمّاهم بذلك.

فقال بعضهم: سماهم بذلك، لأنهم يجنبون فلا يغتسلون، فقال: هم نجس، ولا يقربوا المسجد الحرام لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد. كما جاء عن قتادة وقال آخرون: معنى ذلك: ما المشركون إلا رجس خنزير أو كلب.

وقوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾، يقول للمؤمنين: فلا تدعوهم أن يقربوا المسجد الحرام بدخولهم الحرم. وإنما عني بذلك منعهم من دخول الحرم، لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا المسجد الحرام.

وأما قوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾، فإنه يعني: بعد العام الذي نادى فيه علي رحمة الله عليه ببراءة، وذلك عام حج بالناس أبو بكر، وهي سنة تسع من الهجرة، كما جاء عن قتادة وقوله: ﴿وإن خفتم عيلة﴾، يقول للمؤمنين: وإن خفتم فاقةً وفقراً، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾.

وإنما قيل ذلك لهم، لأن المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحرم، انقطاع تجاراتهم، ودخول ضرر عليهم بانقطاع ذلك. وأمنهم الله من العيلة، وعوضهم مما كانوا يكرهون انقطاعه عنهم، ما هو خير لهم منه، وهو الجزية، فقال لهم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، إلى: ﴿صَاغِرُونَ﴾. وقال قوم: بإدراج المطر عليهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله ﷺ: ﴿قاتلوا﴾، أيها المؤمنون، القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يقول: ولا يصدقون بجنة ولا نار ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق﴾، يقول: ولا يطيعون الله طاعة الحق، يعني: أنهم لا يطيعون طاعة أهل الإسلام ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾، وهم اليهود والنصارى. وكل مطيع ملكاً وذا سلطان، فهو دائن له

وقوله: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾، يعني: الذين أعطوا كتاب الله، وهم أهل التوراة والإنجيل ﴿حتى يعطوا الجزية﴾.

ومعنى الكلام: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم، الذي يذلونه للمسلمين دفعاً عنها. وأما قوله: ﴿عن يد﴾، فإنه يعني: من يده إلى يد من يدفعه إليه.

وأما قوله: ﴿وهم صاغرون﴾، فإن معناه: وهم أذلاء مهجورون. يقال للذليل الحقير:

"صاغر". وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في أمره بحرب الروم، فغزا رسول الله ﷺ بعد نزولها غزوة تبوك. كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ قال أبو جعفر: واختلف أهل التأويل في القائل: ﴿عزير ابن الله﴾ فقال بعضهم: كان ذلك رجلاً واحداً، هو فتاحص. كما جاء عن بن جريج وقال آخرون: بل كان ذلك قول جماعة منهم.

كما جاء، عن ابن عباس قوله: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾، وإنما قالوا: هو ابن الله من أجل أن عزيراً كان في أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التأبوت فيهم. فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء، رفع الله عنهم التأبوت، وأنساهم التوراة، ونسخها من صدورهم، وأرسل الله عليهم مرضاً، فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشي كبده، حتى نسوا التوراة، ونسخت من صدورهم، وفيهم عزير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم، وكان عزير قبل من علمائهم، فدعا عزيراً الله، وابتهل إليه أن يرده إليه الذي نسخ من صدره من التوراة. فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله، نزل نور من الله فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم، قد آتاني الله التوراة وردّها إليّ! فعلى بهم يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم. ثم إن التأبوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التأبوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلمهم، فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله.

وقوله ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾، يعني قول اليهود: ﴿عزير ابن الله﴾. يقول: يُشبه قول هؤلاء في الكذب على الله والفرية عليه ونسبتهم المسيح إلى أنه الله ابن، كذب اليهود وفريتهم على الله في نسبتهم عزيراً إلى أنه الله ابن، ولا ينبغي أن يكون لله ولدٌ سبحانه، بل له ما في السماوات والأرض، كل له قانتون. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتاده وبن جريج وقد قيل: إن معنى ذلك: يحكون بقولهم قول أهل الأوثان، الذين قالوا: "اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى". وأما قوله: ﴿قاتلهم الله﴾، فإن معناه، فيما ذكر عن ابن عباس، أنه قال ﴿قاتلهم الله﴾، يقول: لعنهم الله. وكل شيء في القرآن "قتل"، فهو لعن.

وقوله: ﴿أنى يؤفكون﴾، يقول: أي وجه يُذهبُ بهم، ويحيدون؟ وكيف يصدّون عن الحق؟ وقد بينا ذلك بشواهد في ماضى قبل.

القول في تأويل قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: اتخذ اليهود أحبارهم، وهم العلماء والنصارى "رهبانهم"، وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم، ﴿أربابا من دون الله﴾، يعني: سادة لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلَّه لهم مما قد حرَّمه الله عليهم، ويحرِّمون ما حرَّمه الله عليهم مما قد أحلَّه الله لهم، كما جاء عن عدي بن حاتم قال: انتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو يقرأ في "سورة براءة": ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، فقال: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكن كانوا يحلُّون لهم فيحلُّون".

وأما قوله: ﴿وما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾، فإنه يعني به: وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبارَ والرهبانَ والمسيحَ أربابًا، إلا أن يعبدوا معبودًا واحدًا، وأن يطيعوا إلا ربًّا واحدًا دون أرباب شتَّى، وهو الله الذي له عبادة كل شيء، وطاعة كل خلق، المستحقُّ على جميع خلقه الدينونة له بالوحدانية والربوبية "لا إله إلا هو"، يقول تعالى ذكره: لا تبغي الألوهية إلا للواحد الذي أمر الخلقُ بعبادته، ولزمت جميع العباد طاعته ﴿سبحانه عما يشركون﴾، يقول: تنزيهاً وتطهيراً لله عما يُشرك في طاعته وربوبيته، القائلون: ﴿عزيز ابن الله﴾، والقائلون: ﴿المسيح ابن الله﴾، المتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله.

القول في تأويل قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يريد هؤلاء المتخذون أحبارهم ورهبانهم والمسيحَ ابن مريمَ أرباباً ﴿أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾، يعني: أنهم يحاولون بتكذيبهم بدين الله الذي ابتعث به رسوله، وصدَّهم الناس عنه بألسنتهم، أن يطلوه، وهو النور الذي جعله الله لخلقهِ ضياءً ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾، يعلو دينه، وتظهر كلمته، ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ ﴿ولو كره﴾ إتمام الله إياه ﴿الكافرون﴾، يعني: جاحديه المكذِّبين به. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي

القول في تأويل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الله الذي يأبى إلا إتمام دينه ولو كره ذلك جاحدوه ومنكروه ﴿الذي أرسل رسوله﴾، محمداً ﷺ ﴿بالهدى﴾، يعني: ببيان فرائض الله على خلقه، وجميع اللازم لهم وبدين الحق، وهو الإسلام ﴿ليظهره على الدين كله﴾، يقول: ليعلي الإسلام على الملل كلها ﴿ولو كره المشركون﴾، بالله ظهوره عليها. وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾.

فقال بعضهم: ذلك عند خروج عيسى، حين تصير الملل كلها واحدة. كما جاء عن أبي هريرة وقال آخرون: معنى ذلك: ليعلمه شرائع الدين كلها، فيطلعها عليها. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بوحدانية ربهم، إن كثيرًا من العلماء والقراء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾، يقول: يأخذون الرشى في أحكامهم، ويحرفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا ثم يقولون: "هذه من عند الله"، يأخذون بها ثمنًا قليلًا من سفلتهم ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾، يقول: ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه، بنهيهم إياهم عنه. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن السدي

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿إن كثيرًا من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾، ويأكلها أيضًا معهم ﴿الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾، يقول: بشر الكثير من الأخبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، بعذاب أليم لهم يوم القيامة، مٌوجع من الله. واختلف أهل العلم في معنى "الكنز". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، القول الذي ذكر عن ابن عمر: من أن كل مالٍ أدت زكاته فليس بكنز يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر وأن كل مالٍ لم تؤد زكاته فصاحبه مُعاقب مستحق وعيد الله، إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وإن قل، إذا كان مما يجب فيه الزكاة.

وبعد، فإن فيما جاء عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يُكوى بها جبينه وجهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين الناس، ثم يرى سبيله، وإن كانت إبلا إلا بطح لها بقاع قرقر، تطؤه بأخفافها حسبته قال: وتعضه بأفواهها يرد أولاهها على آخرها، حتى يقضي بين الناس، ثم يرى سبيله. وإن كانت غنمًا فمثل ذلك، إلا أنها تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها.

القول في تأويل قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فيشر هؤلاء الذين يكتزون الذهب والفضة، ولا يخرجون حقوق الله منها، يا محمد، بعذاب أليم ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم﴾، ف "اليوم" من صلة "العذاب الأليم"،

كأنه قيل: يبشرهم بعذاب أليم، يعذبهم الله به في يوم يحمى عليها. ويعني بقوله: ﴿يَحْمَى عَلَيْهَا﴾، تدخل النار فيوقد عليها، أي: على الذهب والفضة التي كنزوها ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. وكل شيء أدخل النار فقد أحمى إحماءً يقال منه: "أَحْمَيْتِ الْحَدِيدَةَ فِي النَّارِ أَحْمِيهَا إِحْمَاءً" وقوله: ﴿فَتَكْوَى بِهَا جَبَاهُهُمْ﴾، يعني بالذهب والفضة المكنوزة، يحمى عليها في نار جهنم، يكوي الله بها. يقول: يحرق الله جباه كنزيرها وجنوبهم وظهورهم ﴿هَذَا مَا كُنَزْتُمْ﴾، ومعناه: ويقال لهم: هذا ما كنزتم في الدنيا، أيها الكافرون الذين منعوا كنوزهم من فرائض الله الواجبة فيها لأنفسكم ﴿فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾، يقول: فيقال لهم: فاطعموا عذاب الله بما كنتم تمنعون من أموالكم حقوق الله وتكنزونها مكاثرةً ومباهاةً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وكما جاء عن ثوبان: أن نبي الله ﷺ كان يقول: من ترك بعده كنزاً مثلاً له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يتبعه يقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك! فلا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فيقضمها، ثم يتبعه سائر جسده.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن عدة شهور السنة اثنا عشر شهراً في كتاب الله، الذي كتب فيه كل ما هو كائن في قضائه الذي قضى ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾، يقول: هذه الشهور الاثنا عشر منها أربعة أشهر حرم كانت الجاهلية تعظمهن، وتحرمهن، وتحرم القتال فيهن، حتى لو لقي الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يهجه، وهن: رجب مضر وثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ.

كما جاء الخبر عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق، فقال: يا أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم

ثم اختلف أهل التأويل في الذي عادت عليه "الهاء"، و"النون" في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسكم، باستحلال حرامها، فإن الله عظمها وعظم حرمتها.

وأما قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾، فإنه يقول جل ثناؤه: وقاتلوا

المشركين بالله، أيها المؤمنون، جميعاً غير مختلفين، مؤتلفين غير مفترقين، كما يقاتلكم المشركون جميعاً، مجتمعين غير متفرقين، كما جاء عن ابن عباس وقتادة

وأما قوله: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾، فإن معناه: واعلموا، أيها المؤمنون بالله، أنكم إن قاتلتم المشركين كافة، واتقيتم الله فأطعتموه فيما أمركم ونهاكم، ولم تخالفوا أمره فتعصوه، كان الله معكم على عدوكم وعدوه من المشركين، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء، لأن الله مع من اتقاه فخافه وأطاعه فيما كلفه من أمره ونهيه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما النسيء إلا زيادة في الكفر.

و"النسيء" مصدر من قول القائل: "نسأت في أيامك، ونسأ الله في أجلك"، أي: زاد الله في أيام ويكون معنى الكلام، هو أن يكون معناه: إنما التأخير الذي يؤخره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرم منهن حلالاً والحلال منهن حراماً، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته.

وأما قوله: ﴿يحلوناه عاماً﴾، فإن معناه: يحل الذين كفروا بالنسيء و"الهاء" في قوله: ﴿يحلوناه﴾، عائدة عليه. ومعنى الكلام: يحلون الذي أخرّوا تحريمه من الأشهر الأربعة الحرم، عاماً ويحرمونه عاماً ليواطوا عدة ما حرم الله، يقول: ليوافقوا بتحليلهم ما حلّوا من الشهور، وتحريمهم ما حرموا منها، عدة ما حرم الله ﴿فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم﴾، يقول: حُسن لهم وحُبب إليهم سيئ أعمالهم وقبيحها، وما خولف به أمر الله وطاعته ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾، يقول: والله لا يوفق لمحاسن الأفعال وجميلها، وما لله فيه رضى، القوم الجاحدين توحيدَه، والمنكرين نبوة محمد ﷺ، ولكنه يخذلهم عن الهدى، كما خذل هؤلاء الناس عن الأشهر الحرم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾، قال: "النسيء"، هو أن "جنادة بن عوف بن أمية الكناني"، كان يوافي الموسم كل عام، وكان يُكنى "أبا ثمامة"، فينادي: "ألا إن أبا ثمامة لا يُحَابُّ ولا يُعَابُّ، ألا وإن صفر العام الأول العام حلالٌ"، فيحلّه الناس، فيحرم صفر عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾، إلى قوله: ﴿الكافرين﴾. وقوله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾، يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً يحرمونه.

وأما قوله: ﴿زيادة في الكفر﴾، فإن معناه زيادة كُفر بالنسيء، إلى كفرهم بالله قبل

ابتدأهم النسيء، وأما قوله: ﴿لِيُوَاطُّوا﴾، فإنه من قول القائل: "واطأت فلانا على كذا أو اطئه مواطأة"، إذا وافقته عليه، معيناً له، غير مخالف عليه. وإنما معنى الكلام: أنهم يوافقون بعدة الشهور التي يحرمونها، عدة الأشهر الأربعة التي حرمها الله، لا يزيدون عليها ولا ينقصون منها، وإن قدموا وأخروا. فذلك مواطأة عدتهم عدة ما حرم الله.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال أبو جعفر: وهذه الآية حث من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم، وذلك غزوة رسول الله ﷺ تبوك. يقول جل ثناؤه: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ما لكم﴾، أي شيء أمركم ﴿إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾، يقول: إذا قال لكم رسول الله محمدٌ ﴿انفروا﴾، أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم. فمعنى الكلام: ما لكم أيها المؤمنون، إذا قيل لكم: اخرجوا غزاة "في سبيل الله"، أي: في جهاد أعداء الله ﴿أتأتلُمُ إِلَى الْأَرْضِ﴾، يقول: تتأقلمت إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها.

وقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، يقول جل ثناؤه، أرضيتم بحظ الدنيا والدعة فيها، عوضاً من نعيم الآخرة، وما عند الله للمتقين في جنانه ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾، يقول: فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدها الله لأوليائه وأهل طاعته ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يسير. يقول لهم: فاطلبوا، أيها المؤمنون، نعيم الآخرة، وشرف الكرامة التي عند الله لأوليائه، بطاعته والمصارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوه. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله، متوعدّهم على ترك النفر إلى عدوّهم من الروم: إن لم تنفروا، أيها المؤمنون، إلى من استنفركم رسول الله، يعذبكم الله عاجلاً في الدنيا، بترككم النفر إليهم، عذاباً مؤجعاً ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾، يقول: يستبدل الله بكم نبياً قوماً غيركم، ينفرون إذا استنفروا، ويجيئونهم إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله ﴿ولا تضروه شيئاً﴾، يقول: ولا تضروا الله، بترككم النفر ومعصيتكم إياه شيئاً، لأنه لا حاجة به إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، وهو الغني عنكم وأنتم الفقراء ﴿والله على كل شيء قدير﴾، يقول جل ثناؤه: والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم، وعلى كل ما يشاء من الأشياء، قدير. وقد ذكر أن "العذاب الأليم" في هذا الموضع، كان احتباس القطر عنهم. كما جاء عن ابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله أصحاب رسوله ﷺ أنه المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكير منه لهم فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة، والعدو في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة؟ يقول لهم جل ثناؤه: إلا تنفروا، أيها المؤمنون، مع رسولي إذا استنفركم فتنصروه، فالله ناصره ومعينه على عدوه ومغنيه عنكم وعن معونتكم ونصرتكم؛ كما نصره ﴿إذ أخرجهم الذين كفروا﴾، بالله من قريش من وطنه وداره ﴿ثاني اثنين﴾، يقول: أخرجوه وهو أحد الاثنين، أي: واحد من الاثنين. وإنما عنى جل ثناؤه بقوله: ﴿ثاني اثنين﴾، رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، لأنهما كانا اللذين خرجا هاربين من قريش إذ هموا بقتل رسول الله ﷺ واختفيا في الغار.

وقوله: ﴿إذ هما في الغار﴾، يقول: إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر رحمة الله عليه، في الغار. و"الغار"، النقب العظيم يكون في الجبل. ﴿إذ يقول لصاحبه﴾، يقول: إذ يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر، ﴿لا تحزن﴾، وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما، فجزع من ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: "لا تحزن"، لأن الله معنا والله ناصرنا، فلن يعلم المشركون بنا ولن يصلوا إلينا. يقول جل ثناؤه: فقد نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد، فكيف يخذله ويحوجه إليكم، وقد كثر الله أنصاره، وعدد جنوده؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وكما جاء عن أنس، أن أبا بكر رضي الله عنه حدثهم قال: بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار وأقدام المشركين فوق رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه أبصرنا! فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فَأَنْزَلَ اللَّهُ طمأنينته وسكونه على رسوله وقد قيل: عن أبي بكر رضي الله عنه وأيده بجنود لم تروها، يقول: وقواه بجنود من عنده من الملائكة، لم تروها أنتم ﴿وجعل كلمة الذين كفروا﴾، وهي كلمة الشرك ﴿السُّفْلَى﴾، لأنها فُهِرَتْ وأذَلَّتْ، وأبطلها الله تعالى، ومحق أهلها، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى ﴿وكلمة الله هي العليا﴾، يقول: ودين الله وتوحيده وقول لا إله إلا الله، وهي كلمته ﴿العليا﴾، على الشرك وأهله، الغالبة كما جاء عن ابن عباس وأما قوله: ﴿والله عزيز حكيم﴾، فإنه يعني: ﴿والله عزيز﴾، في انتقامه من أهل الكفر به، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، ولا ينصر من عاقبه ناصر ﴿حكيم﴾، في تدبيره خلقه،

وتصريفه إياهم في مشيئته.

القول في تأويل قوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١) واختلف أهل التأويل في ذلك قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين بالنفر لجهاد أعدائه في سبيله، خفافاً وثقالاً. وقد يدخل في "الخفاف" كل من كان سهلاً عليه النفر لقوة بدنه على ذلك، وصحة جسمه وشبابه، ومن كان ذا يُسرٍ بمالٍ وفراغ من الاشتغال، وقادراً على الظهر والركاب. ويدخل في "الثقال"، كل من كان بخلاف ذلك، من ضعيف الجسم وعليه وسقيمه، ومن مُعسرٍ من المال، ومشتغل بضیعة ومعاش، ومن كان لا ظهر له ولا ركاب، والشيخ وذو السن والعيال. كما جاء عن أبي الضحى ومجاهد وقتادة

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿جاهدوا﴾، أيها المؤمنون، الكفار ﴿بأموالكم﴾، فأنفقوها في مجاهدتهم على دين الله الذي شرعه لكم، حتى ينقادوا لكم فيدخلوا فيه طوعاً أو كرهاً، أو يعطوكم الجزية عن يدٍ صغاراً، إن كانوا أهل كتابٍ، أو تقتلوهم ﴿وأنفسكم﴾، وبأنفسكم، فقاتلوهم بأيديكم، يخذلهم الله وينصرهم عليهم ﴿ذلكم خير لكم﴾، يقول: هذا الذي أمركم به من النفر في سبيل الله تعالى خفافاً وثقالاً وجهاد أعدائه بأموالكم وأنفسكم، خيرٌ لكم من التثاقل إلى الأرض إذا استنفرتم، والخلود إليها، والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا عوضاً من الآخرة إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما يُبين لكم من فضل الجهاد في سبيل الله على القعود عنه.

القول في تأويل قوله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٢) قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه للنبي ﷺ، وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنه في التخلف عنه حين خرج إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنيك في ترك الخروج معك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه ﴿عرضاً قريباً﴾، يقول: غنيمة حاضرة ﴿وسفراً قاصداً﴾، يقول: وموضعاً قريباً سهلاً ﴿لاتبعوك﴾، ونفروا معك إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفراً شاقاً عليهم، لأنك استنهضتهم في وقت الحرِّ، وزمان القيظ وحين الحاجة إلى الكِنِّ ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾، يقول تعالى ذكره: وسيحلف لك، يا محمد، هؤلاء المستأذنونك في ترك الخروج معك، اعتذاراً

منهم إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلف عنك، بالله كاذبين "لو استطعنا لخرجنا معكم"، يقول: لو أطقنا الخروج معكم بوجود السعة والمراكب والظهور وما لا بُدَّ للمسافر والغازي منه، وصحة البدن والقوى، لخرجنا معكم إلى عدوكم ﴿يهلكون أنفسهم﴾، يقول: يوجبون لأنفسهم، بحلفهم بالله كاذبين، الهلاك والعطب، لأنهم يورثونها سخط الله، ويكسبونها أليم عقابه ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾، في حلفهم بالله: ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾، لأنهم كانوا للخروج مطيقين، بوجود السبيل إلى ذلك بالذي كان عندهم من الأموال، مما يحتاج إليه الغازي في غزوه، والمسافر في سفره، وصحة الأبدان وقوى الأجسام. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة وابن اسحاق

القول في تأويل قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتبٌ به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، من المنافقين. يقول جل ثناؤه: ﴿عفا الله عنك﴾، يا محمد، ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذي استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك، من قبل أن تعلم صدقه من كذبه ﴿لم أذنت لهم﴾، لأي شيء أذنت لهم؟ ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾، يقول: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك: ﴿لو استطعنا لخرجنا معك﴾، حتى تعرف من له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقاً وشكاً في دين الله وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن عمرو بن ميمون ومجاهد وقاتدة

القول في تأويل قوله: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلامٌ من الله نبيه ﷺ سيما المنافقين: أن من علاماتهم التي يعرفون بها تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، باستئذانهم رسول الله ﷺ في تركهم الخروج معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة. يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: يا محمد، لا تأذن في التخلف عنك إذا خرجت لغزو عدوك، لمن استأذنك في التخلف من غير عذر، فإنه لا يستأذنك في ذلك إلا منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر. فأما الذي يصدق بالله، ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب، فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء الله بماله ونفسه ﴿والله عليم بالمتقين﴾، يقول: والله ذو علم بمن خافه، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، والمصارعة إلى طاعته في غزو عدوه وجهادهم بماله ونفسه، وغير ذلك من أمره ونهيه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ ١٥ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية ﷺ: إنما يستأذنك، يا محمد، في التخلف خلافك، وترك الجهاد معك، من غير عذر بين، الذين لا يصدقون بالله، ولا يقرّون بتوحيده ﴿وارتابت قلوبهم﴾، يقول: وشكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾، يقول: في شكهم متحيرون، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقاً من باطل، فيعملون على بصيرة. وهذه صفة المنافقين.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ١٦

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو أراد هؤلاء المستأذنوك، يا محمد، في ترك الخروج معك لجهاد عدوك، الخروج معك ﴿لأعدوا له عدة﴾، يقول: لأعدوا للخروج عدة، ولتأهبوا للسفر والعدو أهبتهما ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾، يعني: خروجهم لذلك ﴿فثبطهم﴾، يقول: فثقل عليهم الخروج حتى استخفوا القعود في منازلهم خلافك، واستقلوا السفر والخروج معك، فتركوا لذلك الخروج ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾، يعني: اقعدوا مع المرضى والضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقون، ومع النساء والصبيان، واتركوا الخروج مع رسول الله ﷺ والمجاهدين في سبيل الله. وكان تثبيط الله إياهم عن الخروج مع رسوله ﷺ والمؤمنين به، لعلمه بنفاقهم وغشهم للإسلام وأهله، وأنهم لو خرجوا معهم ضرّوهم ولم ينفعوا. وذكر أن الذين استأذنوا رسول الله ﷺ في القعود كانوا: "عبد الله بن أبيّ ابن سلول"، و"الجد بن قيس"، ومن كانا على مثل الذي كانا عليه. كذلك جاء الخبر عن ابن إسحاق قال: كان الذين استأذنوه فيما بلغني، من ذوي الشرف، منهم: عبد الله بن أبيّ ابن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبطهم الله، لعلمه بهم، أن يخرجوا معهم، فيفسدوا عليه جنده.

القول في تأويل قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ١٧ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لو خرج، أيها المؤمنون، فيكم هؤلاء المنافقون ﴿ما زادوكم إلا خبالاً﴾، يقول: لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فساداً وضراً، ولذلك ثبّطهم عن الخروج معكم. ﴿ولا أضعوا خلالكم﴾، يقول: ولا أسرعوا بركائبهم السّير بينكم. وأما قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، فإن معنى: "يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ"، يطلبون لكم ما تفتنون به، عن مخرجكم في مغزاكم، بتثبيطهم إياكم عنه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة ومجاهد وابن زيد

وأما قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين عندي في ذلك بالصواب، تأويل من قال: معناه: "وفيكُم سماعون لحديثكم لهم، يبلغونه عنكم، عيون لهم وأما قوله: ﴿والله عليم بالظالمين﴾، فإن معناه: والله ذو علم بمن يوجه أفعاله إلى غير وجوها، ويضعها في غير مواضعها، ومن يستأذن رسول الله ﷺ لعذر، ومن يستأذنه شكًا في الإسلام ونفاقًا، ومن يسمع حديث المؤمنين ليخبر به المنافقين، ومن يسمعه ليسر بما سر به المؤمنون، ويساء بما ساءهم، لا يخفى عليه شيء من سرائر خلقه وعلايتهم.

وقد بينا معنى "الظلم" في غير موضع من كتابنا هذا، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك، يا محمد، التمسوا صدهم عن دينهم وحرصوا على ردِّهم إلى الكفر بالتخذيل عنه، كفعل عبد الله بن أبي بك وبأصحابك يوم أحد، حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه. وذلك كان ابتغاءهم ما كانوا ابتغوا لأصحاب رسول الله ﷺ من الفتنة من قبل. ويعني بقوله: ﴿من قبل﴾، من قبل هذا ﴿وقلبوا لك الأمور﴾، يقول: وأجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأي بالتخذيل عنك، وإنكار ما تأتيهم به، وردَّه عليك ﴿حتى جاء الحق﴾، يقول: حتى جاء نصر الله ﴿وظهر أمر الله﴾، يقول: وظهر دين الله الذي أمر به وافترضه على خلقه، وهو الإسلام ﴿وهم كارهون﴾، يقول: والمنافقون بظهور أمر الله ونصره إياك كارهون. وكذلك الآن، يظهر الله ويظهر دينه على الذين كفروا من الروم وغيرهم من أهل الكفر به، وهم كارهون. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وذكر أن هذه الآية نزلت في نفرٍ مسمَّين بأعيانهم. كما جاء عن الحسن قوله: ﴿وقلبوا لك الأمور﴾، قال: منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، وعبد الله بن نبتل أخو بني عمرو بن عوف، ورفاعة بن رافع، وزيد بن ثابت القينقاعي.

وكان تخذيل عبد الله بن أبي أصحابه عن رسول الله ﷺ في هذه الغزاة، كالذي جاء عن ابن إسحاق، أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عُسرةٍ من الناس، وشدة من الحرِّ، وجذب من البلاد، وحين طاب الثمار، وأجبت الظلال، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها، على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوةٍ إلا كُنِيَ عنها، وأخبر أنه يريد غير الذي يصمدُّ له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس، لبعد الشُّقة، وشدة الزمان وكثرة العدو الذي صمد له، ليتأهب الناس لذلك أُهْبَتَه. فأمر الناس بالجهاد، وأخبرهم أنه يريد الروم. فتجهز الناس على ما في

أنفسهم من الكره لذلك الوجه، لما فيه، مع ما عظموا من ذكر الروم وغزوهم. ثم إن رسول الله ﷺ جَدَّ في سفره، فأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحَضَّ أهل الغنى على النفقة والحُمْلان في سبيل الله. فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبي ابن سلول عسكره على حِدَّةٍ أسفل منه بحذاء "ذباب" جبل بالجبانة أسفل من ثنية الوداع وكان فيما يزعمون، ليس بأقل العسكرين. فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب. وكان عبد الله بن أبي، أخا بني عوف بن الخزرج، وعبد الله بن نبتل، أخا بني عمرو بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، أخا بني قينقاع، وكانوا من عظماء المنافقين، وكانوا ممن يكيد للإسلام وأهله. قال: وفيهم، فيما حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري، أنزل الله: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ﴾، الآية.

القول في تاويل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: وذكر أن هذه الآية نزلت في الجَدِّ بن قيس.

ويعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ومن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾، أقم فلا أشخص معك ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾، يقول: ولا تبتلني برؤية نساء بني الأصفر وبناتهم، فإني بالنساء مغرمٌ، فأخرج وأتم بذلك. وبذلك من التأويل تظاهرت الأخبار عن أهل التأويل. كما جاء عن محمد بن إسحاق، وغيره

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، يقول: وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله ووجد آياته وكذَّب رسله، محدقة بهم، جامعة لهم جميعاً يوم القيامة. يقول: فكفى للجَدِّ بن قيس وأشكاله من المنافقين بصليها خزيًا.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ: يا محمد، إن يصيبك سرورٌ بفتح الله عليك أرض الروم في غزاتك هذه، يسؤ الجد بن قيس ونظراءه وأشياعهم من المنافقين، وإن تصيبك مصيبة بفلول جيشك فيها، يقول الجد ونظراؤه: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾، أي: قد أخذنا حذرنا بتخلفنا عن محمد، وترك أتباعه إلى عدوه ﴿مَنْ قَبْلُ﴾، يقول: من قبل أن تصيبه هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾، يقول: ويرتدوا عن محمد وهم فرحون بما أصاب محمدًا وأصحابه من المصيبة، بفلول أصحابه وانزاهم عنه، وقتل من قُتِل منهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة وابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مؤدِّباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾، أيها المرتابون في دينهم ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾، في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾، يقول: هو ناصرنا على أعدائه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول: وعلى الله فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ، فإنهم إن يتوكلوا عليه، ولم يرجوا النصر من عند غيره، ولم يخافوا شيئاً غيره، يكفهم أمورهم، وينصرهم على من بغاهم وكادهم.

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين وصفت لك صفتهم وبيئت لك أمرهم: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخلتين اللتين هما أحسن من غيرهما، إما ظفراً بالعدو وفتحاً لنا بغلبتناهم، فيها الأجر والغنيمة والسلامة وإما قتلاً من عدونا لنا، ففيه الشهادة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار. وكلتاها مما نُحِبُّ ولا نكره ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾، يقول: ونحن نتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة، تهلككم ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، فنقتلكم ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾، يقول: فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا، وما إليه صائر أمر كل فريق منا ومنكم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وقتادة

القول في تاويل قوله: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمُ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، لهؤلاء المنافقين: أنفقوا كيف شئتم أموالكم في سفركم هذا وغيره، وعلى أي حال شئتم، من حال الطوع والكره، فإنكم إن تنفقوها لن يتقبل الله منكم نفقاتكم، وأنتم في شك من دينكم، وجهل منكم بنبوة نبيكم، وسوء معرفة منكم بثواب الله وعقابه ﴿إِنْكُمُ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، يقول: خارجين عن الإيمان بربكم. وخرج قوله: ﴿أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾، مخرج الأمر، ومعناه الجزاء، وقيل: إن هذه الآية نزلت في الجد بن قيس، حين قال للنبي ﷺ، لما عرض عليه النبي ﷺ الخروج معه لغزو الروم: "هذا مالي أعينك به". كما قال ابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما منع هؤلاء المنافقين، يا محمد، أن تقبل منهم نفقاتهم التي ينفقونها في سفرهم

معك، وفي غير ذلك من السبل، إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، ف"أن" الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع، لأن معنى الكلام: ما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ يقول: لا يأتونها إلا متثاقلين بها. لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً، ولا يخافون بتركها عقاباً، وإنما يقيمونها مخافةً على أنفسهم بتركها من المؤمنين، فإذا آمنوهم لم يقيموها ﴿ولا ينفقون﴾، يقول: ولا ينفقون من أموالهم شيئاً ﴿إلا وهم كارهون﴾، أن ينفقونه في الوجه الذي ينفقونه فيه، مما فيه تقوية للإسلام وأهله.

القول في تأويل قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، التأويل الذي ذكرنا عن الحسن. معنى ذلك: إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، بما ألزمهم فيها من فرائضه؛ لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل، فصُرِّفَ تأويله إلى ما دلَّ عليه ظاهره، أولى من صرفه إلى باطن لا دلالة على صحته.

وأما قوله: ﴿وتزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، فإنه يعني وتخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله، وجحودهم نبوة نبي الله محمد ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويحلف بالله لكم، أيها المؤمنون، هؤلاء المنافقون كذباً وباطلاً خوفاً منكم: ﴿إنهم لمنكم﴾ في الدين والملة. يقول الله تعالى، مكذباً لهم: ﴿وما هم منكم﴾، أي ليسوا من أهل دينكم وملتكم، بل هم أهل شكٍ ونفاقٍ ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾، يقول: ولكنهم قوم يخافونكم، فهم خوفاً منكم يقولون بألسنتهم: "إنا منكم"، ليأمنوا فيكم فلا يُقتلوا.

القول في تأويل قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لو يجد هؤلاء المنافقون "ملجأ"، يقول: عَصْرًا يعترضون به من حصن، ومَعْقِلًا يعتقلون فيه منكم ﴿أو مغارات﴾، وهي الغيران في الجبال،

﴿أو مدخلا﴾، يقول: سَرَبًا في الأرض يدخلون فيه. وقال: "أو مدخلا"، الآية، لأنه "من ادخل يدخل". وقوله: ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾، يقول: لأدبروا إليه، هرباً منكم ﴿وهم يجمحون﴾. يقول: وهم يسرعون في مَسِيهِمْ. وقيل: إن "الجماح" مشي بين المشيين

وإنما وصفهم الله بما وصفهم به من هذه الصفة، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب

رسول الله ﷺ على كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم ولما هم عليه من الإيمان بالله وبرسوله، لأنهم كانوا في قومهم وعشيرتهم وفي دورهم وأموالهم، فلم يقدروا على ترك ذلك وفراقه، فصانعوا القوم بالنفاق، ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بالكفر ودعوى الإيمان، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله ﷺ وأهل الإيمان به والعداوة لهم. فقال الله واصفهم بما في ضمائرهم: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ﴾، الآية. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وقتادة

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن المنافقين الذين وصفت لك، يا محمد، صفتهم في هذه الآيات ﴿من يلمزك في الصدقات﴾، يقول: يعيبك في أمرها، ويطعن عليك فيها.

﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾، يقول: ليس بهم في عيبهم إياك فيها، وطعنهم عليك بسببها، الدين، ولكن الغضب لأنفسهم، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك، وإن أنت لم تعطهم منهم سخطوا عليك وعابوك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن أبي سعيد قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل، يا رسول الله! فقال: ويلك، ومن يعدل إن لم أعدل! فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه! قال: دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدهم صلواته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر في قُدَّه فلا ينظر شيئاً، ثم ينظر في نصله، فلا يجد شيئاً، ثم ينظر في رصافه فلا يجد شيئاً، قد سبق الفَرثَ والدم، آيتهم رجل، أسود، إحدى يده أو قال: يديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تَدْرُدُّ، يخرجون على حين فترة من الناس. قال: فنزلت: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علياً رحمة الله عليه حين، قتلهم جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو أن هؤلاء الذين يلمزونك، يا محمد، في الصدقات، رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء، وقسم لهم من قسم ﴿وقالوا حسبنا الله﴾، يقول: وقالوا: كافينا الله، ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾، يقول: سيعطينا الله من فضل خزائنه، ورسوله من الصدقة وغيرها ﴿إنا إلى الله راجعون﴾، يقول: وقالوا: إنا إلى الله نرغب في أن يوسع علينا من فضله، فيغنيننا عن الصدقة وغيرها من

صلات الناس والحاجة إليهم.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنَّ السَّبِيلَ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، ومن سماهم الله جل ثناؤه. ثم اختلف أهل التأويل في صفة "الفقير" و"المسكين". قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: "الفقير"، هو ذو الفقر أو الحاجة، ومع حاجته يتعفف عن مسألة الناس والتذلل لهم، في هذا الموضع و"المسكين" هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم. فتأويل الكلام، إذ كان ذلك معناه: إنما الصدقات للفقراء: المتعفف منهم الذي لا يسأل، والمتذلل منهم الذي يسأل. كما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس المسكين بالذي تردّه اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرّتان، إنما المسكين المتعفف! اقرءوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، [البقرة: ٢٧٣]. ومعنى قوله ﷺ: "إنما المسكين المتعفف" على نحو ما قد جرى به استعمال الناس من تسميتهم أهل الفقر "مساكين"، لا على تفصيل المسكين من الفقير. ومما ينبئ عن أن ذلك كذلك، انتزاعه ﷺ بقول الله: اقرءوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، وذلك في صفة من ابتداء الله ذكره ووصفه بالفقر فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، [البقرة: ٢٧٣].

وقوله: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، وهم السعاة في قبضها من أهلها، ووضعها في مستحقّيها، يعطون ذلك بالسعاية، أغنياء كانوا أو فقراء. وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن الزهري وقتادة وابن زيد ثم اختلف أهل التأويل في قدر ما يعطى العامل من ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: يعطى العامل عليها على قدر عمّالته وأجر مثله. وأما "المؤلفة قلوبهم"، فإنهم قوم كانوا يتألفون على الإسلام، ممن لم تصح نصرته، استصلاحًا به نفسه وعشيرته، كأبي سفيان بن حرب، وعيينة بن بدر والأقرع بن حابس، ونظرائهم من رؤساء القبائل. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن يحيى بن أبي كثير ثم اختلف أهل العلم في وجود المؤلفة اليوم وعدمها، وهل يعطى اليوم أحدٌ على التألف على الإسلام من الصدقة؟ قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي: أن الله جعل الصدقة في معنيين أحدهما: سدُّ خَلَّةِ المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته. فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه، فإنه يُعطاه الغني والفقير، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونةً للدين. وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه

يعطى ذلك غنيًّا كان أو فقيرًا، للغزو، لا لسدّ خلته. وكذلك المؤلفة قلوبهم، يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحًا بإعطائهموه أمر الإسلام وطلب تقويته وتأييده. وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله. فلا حجة لمحتج بأن يقول: "لا يتألف اليوم على الإسلام أحد، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم"، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى منهم في الحال التي وصفت.

وأما قوله: ﴿وفي الرقاب﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، قول من قال: "عنى بالرقاب، في هذا الموضع، المكاتبون"، لإجماع الحجة على ذلك، فإن الله جعل الزكاة حقًّا واجبًا على من أوجبها عليه في ماله، يخرجها منه، لا يرجع إليه منها نفع من عرض الدنيا، ولا عوض. والمعنى رقبته منها، راجع إليه ولاء من أعتقه، وذلك نفع يعود إليه منها. وأما "الغارمون"، فالذين استدانوا في غير معصية الله، ثم لم يجدوا قضاء في عين ولا عرض.

وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن أبي جعفر والزهري وقتادة وغيرهم

وأما قوله: ﴿وفي سبيل الله﴾، فإنه يعني: وفي النفقة في نصرة دين الله وطريقه وشريعته التي شرعها لعباده، بقتال أعدائه، وذلك هو غزو الكفار. وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

كما جاء، عن عطاء بن يسار قال: قال النبي ﷺ: "لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: رجل عمل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو في سبيل الله، أو ابن السبيل، أو رجل كان له جار تصدق عليه فأهداها له.

وأما قوله: ﴿وابن السبيل﴾، فالمسافر الذي يجتاز من بلد إلى بلد. و"السبيل": الطريق كما جاء عن أبي جعفر وابن زيد والزهري وقوله: ﴿فريضة من الله﴾، يقول جل ثناؤه: قَسَمَ قسمه الله لهم، فأوجبه في أموال أهل الأموال لهم ﴿والله عليهم﴾، بمصالح خلقه فيما فرض لهم، وفي غير ذلك، لا يخفى عليه شيء. فعلى علم منه فرض ما فرض من الصدقة وبما فيها من المصلحة ﴿حكيم﴾، في تدبيره خلقه، لا يدخل في تدبيره خلل. واختلف أهل العلم في كيفية قسم الصدقات التي ذكرها الله في هذه الآية، وهل يجب لكل صنف من الأصناف الثمانية فيها حق، أو ذلك إلى رب المال؟ ومن يتولى قسمها، في أن له أن يعطي جميع ذلك من شاء من الأصناف الثمانية. فقال عامة أهل العلم: للمتولي قسمها ووضعها في أي الأصناف الثمانية شاء. وإنما سمى الله الأصناف الثمانية في الآية، إعلامًا منه خلقه أن الصدقة لا تخرج من هذه الأصناف الثمانية إلى غيرها، لا إيجابًا لقسمها بين الأصناف الثمانية الذين ذكرهم. كما جاء عن حذيفة وعمر وغيرهما

القول في تاويل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ﴿ويقولون هو أذن﴾، سامعة، يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقّه. كما جاء عن ابن إسحاق

وأما قوله: ﴿يؤمن بالله﴾، فإنه يقول: يصدق بالله وحده لا شريك له. وقوله: ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾، يقول: ويصدق المؤمنين، لا الكافرين ولا المنافقين. وهذا تكذيب من الله للمنافقين الذين قالوا: "محمد أذن!"، يقول جل ثناؤه: إنما محمد ﷺ مستمعٌ خير، يصدق بالله وبما جاءه من عنده، ويصدق المؤمنين، لا أهل النفاق والكفر بالله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تاويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لهؤلاء المنافقين الذين يعيبون رسول الله ﷺ، ويقولون: "هو أذن"، وأمثالهم من مكذّبيه، والقائلين فيه الهُجْرَ والباطل، عذابٌ من الله موجه لهم في نار جهنم.

القول في تاويل قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ﷺ: يحلف لكم، أيها المؤمنون، هؤلاء المنافقون بالله، ليرضوكم فيما بلغكم عنهم من أذاهم رسول الله ﷺ، وذكرهم إياه بالطنع عليه والعيب له، ومطابقتهم سرّاً أهل الكفر عليكم بالله والأيمان الفاجرة: أنهم ما فعلوا ذلك، وإنهم على دينكم، ومعكم على من خالفكم، يبتغون بذلك رضاكم. يقول الله جل ثناؤه: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾، بالتوبة والإجابة مما قالوا ونطقوا ﴿إن كانوا مؤمنين﴾، يقول: إن كانوا مصدّقين بتوحيد الله، مقرّين بوعدده ووعيده.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة قوله: ﴿يحلّفون بالله لكم ليرضوكم﴾، الآية، ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شرٌّ من الحمير! قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد حق، ولأنت شر من الحمار! فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال له: ما حملك على الذي قلت؟ فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. قال: وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدّق الصادق، وكذّب الكاذب.

القول في تاويل قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذباً للمؤمنين ليرضوهم، وهم مقيمون على النفاق، أنه من يحارب الله ورسوله،

ويخالفهما فيناوئهما بالخلاف عليهما ﴿فَأَن لَّهٗ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، في الآخرة ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾، يقول: لا بُدَّ فيها، مقيمًا إلى غير نهاية؟ ﴿ذَلِكَ الْحَزَى الْعَظِيمُ﴾، يقول: فلبُّهُ في نار جهنم وخلوده فيها، هو الهوان والذلُّ العظيم.

القول في تاويل قوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يخشى المنافقون أن تنزل فيهم ﴿سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾، يقول: تظهر المؤمنين على ما في قلوبهم.

وقيل: إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله ﷺ، لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله ﷺ، وذكروا شيئًا من أمره وأمر المسلمين، قالوا: "لعل الله لا يفشي سرنا!"، فقال الله لنبيه ﷺ: قل لهم: ﴿استهزءوا﴾، متهددًا لهم متوعدًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد

وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾، فإنه يعني به: إن الله مظهر عليكم، أيها المنافقون ما كنتم تحذرون أن تظهروه، فأظهر الله ذلك عليهم وفضحهم، فكانت هذه السورة تدعى: ﴿الْفَاضِحَةُ﴾. كما جاء عن قتادة

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألت، يا محمد، هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، ليقولن لك: إنما قلنا ذلك لعبًا، وكنا نخوض في حديثٍ لعبًا وهزؤًا! يقول الله لمحمد ﷺ: قل، يا محمد، أبالله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزءون؟ وكان ابن إسحاق يقول: الذي قال هذه المقالة فيما بلغني، وديعة بن ثابت، أخو بني أمية بن زيد، من بني عمرو بن عوف. وكما جاء، عن زيد بن أسلم: أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرائنا هؤلاء أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنةً، وأجبنا عند اللقاء! فقال له عوف: كذبت، ولكنك منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ! فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه قال زيد قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقًا بحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، يقول: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾! فيقول له النبي ﷺ: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾؟ ما يزيده.

القول في تاويل قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم: ﴿لا تعتذروا﴾، بالباطل، فتقولوا: ﴿كنا نخوض ونلعب﴾. ﴿قد كفرتم﴾، يقول: قد جحدتم الحق بقولكم ما قلتم في رسول الله ﷺ والمؤمنين

به ﴿بعد إيمانكم﴾، يقول: بعد تصديقكم به وإقراركم به ﴿إن نفع عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾. وذكر أنه عني: بـ "الطائفة"، في هذا الموضع، رجلٌ واحد. وكان ابن إسحاق يقول كان الذي عني عنه، فيما بلغني مَحْشِي بن حُمَيْر الأشجعي، حليف بني سلمة، وذلك أنه أنكر منهم بعض ما سمع واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك. فقال بعضهم: معناه: ﴿إن نفع عن طائفة منكم﴾، بإنكاره ما أنكر عليكم من قبل الكفر ﴿نعذب طائفة﴾، بكفره واستهزائه بآيات الله ورسوله. كما جاء عن معمر قال، قال بعضهم: كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث، يسير مجاناً لهم، فنزلت: ﴿إن نفع عن طائفة منكم نعذب طائفة﴾، فُسِّمِي "طائفة" وهو واحدٌ. وقال آخرون: بل معنى ذلك. إن تب طائفة منكم فيعفو الله عنه، يعذب الله طائفة منكم بترك التوبة.

وأما قوله: ﴿إنهم كانوا مجرمين﴾، فإن معناه: نعذب طائفة منهم باكتسابهم الجرم، وهو الكفر بالله، وطعنهم في رسول الله ﷺ.

القول في تأويل قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿المنافقون والمنافقات﴾، وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بالستهم، ويسرون الكفر بالله ورسوله ﴿بعضهم من بعض﴾، يقول: هم صنف واحد، وأمرهم واحد، في إعلانهم الإيمان، واستبطنهم الكفر ﴿يأمرُونَ﴾ مَنْ قبل منهم ﴿بالمُنْكَرِ﴾، وهو الكفر بالله وبمحمد ﷺ، وبما جاء به وتكذيبه ﴿وينهون عن المعروف﴾، يقول: وينهونهم عن الإيمان بالله ورسوله، وبما جاءهم به من عند الله

وقوله: ﴿ويقبضون أيديهم﴾، يقول: ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، ويكفونها عن الصدقة، فيمنعون الذين فرض الله لهم في أموالهم ما فرض من الزكاة حقوقهم، كما جاء عن مجاهد وقتادة

وأما قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، فإن معناه: تركوا الله أن يطيعوه ويتبعوا أمره، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته. وقد دللنا فيما مضى على أن معنى "النسيان"، الترك، بشواهد، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا. وكان قتادة يقول في ذلك ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، نُسُوا من الخير، ولم ينسوا من الشر.

قوله: ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾، يقول: إن الذين يخادعون المؤمنين بإظهارهم لهم بالستهم الإيمان بالله، وهم للكفر مستبطنون، هم المفارقون طاعة الله، الخارجون عن الإيمان

به وبرسوله .

القول في تاويل قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار بالله نار جهنم﴾، أن يصلبهموها جميعاً ﴿خالدين فيها﴾، يقول: ما كثر فيهم أبداً، لا يحيون فيها ولا يموتون ﴿هي حسبهم﴾، يقول: هي كافيتهم عقاباً وثواباً على كفرهم بالله ﴿ولعنهم الله﴾، يقول: وأبعدهم الله وأسحقهم من رحمته ﴿ولهم عذاب مقيم﴾، يقول: وللفریقین جميعاً: يعني من أهل النفاق والكفر، عند الله ﴿عذاب مقيم﴾، دائم، لا يزول ولا يبيد.

القول في تاويل قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المنافقين الذين قالوا: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾: أبالله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزئون؟ ﴿كالذين من قبلكم﴾، من الأمم الذين فعلوا فعلكم، فأهلكهم الله، وعجل لهم في الدنيا الخزي، مع ما أعد لهم من العقوبة والنكال في الآخرة. يقول لهم جل ثناؤه: واحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم، فإنهم كانوا أشد منكم قوة وبطشاً، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾، يقول: فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم ودينهم، ورضوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عوضاً من نصيبهم في الآخرة، وقد سلكنتم، أيها المنافقون، سبيلهم في الاستمتاع بخلاقكم. يقول: فعلمتم بدينكم ودنياكم، كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، الذين أهلكتهم بخلافهم أمري ﴿بخلاقهم﴾، يقول: كما فعل الذين من قبلكم بنصيبهم من دنياهم ودينهم ﴿وخضتم﴾، في الكذب والباطل على الله ﴿كالذي خاضوا﴾، يقول: وخضتم أنتم أيضاً، أيها المنافقون، كخوض تلك الأمم قبلكم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

كما جاء الخبر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: لتأخذن كما أخذ الأمم من قبلكم، ذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، وبعاً بباع، حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه! قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم القرآن: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا﴾ قالوا: يا رسول الله، كما صنعت فارس والروم؟ قال: فهل الناس إلا هم؟

وأما قوله: ﴿أولئك حبّطت أعمالهم﴾، فإن معناه: هؤلاء الذين قالوا: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾ وفعلوا في ذلك فعل الهالكين من الأمم قبلهم ﴿حبّطت أعمالهم﴾، يقول: ذهبت أعمالهم باطلا. فلا ثواب لها إلا النار، لأنها كانت فيما يسخط الله ويكرهه ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾، يقول: وأولئك هم المغبونون صفقتهم، بيعهم نعيم الآخرة بخلافهم من الدنيا اليسير الزهيد

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين يُسِرُّون الكفر بالله، وينهون عن الإيمان به وبرسوله ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يقول: خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم، حين عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا، ماذا حلّ بهم من عقوبتنا؟

ثم بين جل ثناؤه مَنْ أولئك الأمم التي قال لهؤلاء المنافقين ألم يأتهم نَبَأُهُمْ، فقال: ﴿قوم نوح﴾، ولذلك خفض "القوم"، لأنه ترجم بهن عن "الذين"، و"الذين" في موضع خفض.

ومعنى الكلام: ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر قوم نوح وصنيعي بهم، إذ كذبوا رسولي نوحًا، وخالفوا أمري؟ ألم أغرقهم بالطوفان؟

﴿وعاد﴾، يقول: وخبر عاد، إذ عصوا رسولي هودًا، ألم أهلكهم بريح صرصر عاتية؟ وخبر ثمود، إذ عصوا رسولي صالحًا، ألم أهلكهم بالرجفة، فأتركهم بأفنيّتهم خمودًا؟ وخبر قوم إبراهيم، إذ عصوه وردّوا عليه ما جاءهم به من عند الله من الحق، ألم أسلبهم النعمة، وأهلك ملكهم نمرود؟ وخبر أصحاب مَدْيَنَ بن إبراهيم، ألم أهلكهم بعذاب يوم الظلة إذ كذبوا رسولي شعيبًا؟ وخبر المنقلبة بهم أرضهم، فصار أعلاها أسفلها، إذ عصوا رسولي لوطًا، وكذبوا ما جاءهم به من عندي من الحق؟ يقول تعالى ذكره: أفأمن هؤلاء المنافقون الذين يستهزئون بالله وبآياته ورسوله، أن يُسلِّك بهم في الانتقام منهم، وتعجيل الخزي والنكال لهم في الدنيا، سبيلُ أسلافهم من الأمم، ويحلّ بهم بتكذيبهم رسولي محمدًا ﷺ ما حلّ بهم في تكذيبهم رُسُلَنَا، إذ أتتهم بالبينات. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة فإن قال قائل: فإن كان عني بـ "المؤتفكات" قوم لوط، فكيف قيل: "المؤتفكات"، فجمعت ولم توحد؟ قيل: إنها كانت قريات ثلاثًا، فجمعت لذلك، ولذلك جمعت بالتاء، على قول الله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾، [النجم: ٥٣]. فإن قال: وكيف قيل: أتتهم رسلهم بالبينات، وإنما كان المرسل إليهم واحدًا؟ قيل: معنى ذلك: أتى كل قرية من المؤتفكات رسولٌ يدعوهم إلى الله، فتكون رُسُل رسول الله ﷺ الذين بعثهم إليهم للدعاء إلى الله عن رسالته،

رسلاً إليهم، كما قالت العرب لقوم نسبوا إلى أبي فديك الخارجي: "الفديكات"، و"أبو فديك"، واحد، ولكن أصحابه لما نسبوا إليه وهو رئيسهم، دعوا بذلك، ونسبوا إلى رئيسهم. فكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَتَتَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. وقد يحتمل أن يقال معنى ذلك: أتت قوم نوح وعاد وشمود وسائر الأمم الذين ذكرهم الله في هذه الآية، رسلهم من الله بالبينات.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، يقول جل ثناؤه: فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها أنفسها، واستحقاقها من الله عظيم العقاب، لا ظملاً من الله لهم، ولا وضعاً منه جل ثناؤه عقوبةً في غير من هو لها أهل، لأن الله حكيم لا خلل في تدبيره، ولا خطأ في تقديره، ولكن القوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله، حتى أسخطوا عليهم ربهم، فحققت عليهم كلمة العذاب فعذبوا.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأما "المؤمنون والمؤمنات"، وهم المصدقون بالله ورسوله وآيات كتابه، فإن صفتهم: أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، يقول: يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به من عند الله، [﴿وينهون عن المنكر...﴾] و﴿يقيمون الصلاة﴾، يقول: ويؤدون الصلاة المفروضة و﴿يؤتون الزكاة﴾، يقول: ويعطون الزكاة المفروضة أهلها و﴿يطيعون الله ورسوله﴾، فيأتمرون لأمر الله ورسوله، ويتنهون عما نهاهم عنه ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم، الذين سيرحمهم الله، فينقذهم من عذابه، ويدخلهم جنته، لا أهل النفاق والتكذيب بالله ورسوله، الناهون عن المعروف، الأمرون بالمنكر، القابضون أيديهم عن أداء حق الله من أموالهم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾، يقول: إن الله ذو عزة في انتقامه ممن انتقم من خلقه على معصيته وكفره به، لا يمنعه من الانتقام منه مانع، ولا ينصره منه ناصر ﴿حكيم﴾، في انتقامه منهم، وفي جميع أفعاله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وأبي العالية

القول في تأويل قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا به وبما جاء به من عند الله، من الرجال والنساء ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يقول: بساتين تجري تحت أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾، يقول: لا بشين فيها أبداً، مقيمين لا يزول عنهم نعيمها

ولا يبيد ﴿ومساكن طيبة﴾، يقول: ومنازل يسكنونها طيبة.

و"طيها" أنها، فيما ذكر لنا، كما جاء عن الحسن قال: سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن آية في كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾، فقالا على الخير سقطت! سألنا رسول الله ﷺ فقال: قصرٌ في الجنة من لؤلؤ، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء، في كل بيت سبعون سريرًا. وأما قوله: ﴿في جنات عدن﴾، فإنه يعني: وهذه المساكن الطيبة التي وصفها جل ثناؤه، ﴿في جنات عدن﴾. و"في" من صلة "مساكن". وقيل: "جنات عدن"، لأنها بسايتين خلد وإقامة، لا يظعنُ منها أحدٌ.

وقيل: إنما قيل لها ﴿جنات عدن﴾، لأنها دارُ الله التي استخلصها لنفسه، ولمن شاء من خلقه من قول العرب: "عدن فلان بأرض كذا"، إذا أقام بها وخلد بها، وكالذي قلنا في ذلك كان ابن عباس وجماعة معه فيما ذكر، يتأولونه.

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل، في الساعة الأولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت. ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي في داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه، ولا يسكن معه من بني آدم غير ثلاثة: النبيين، والصديقين، والشهداء، ثم يقول: طوبى لمن دخلك، وذكر في الساعة الثالثة وقال آخرون: معنى ﴿جنات عدن﴾، جنات أعناب وكروم. كما جاء عن ابن عباس وأما قوله: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾، فإن معناه: ورضى الله عنهم أكبر من ذلك كله، وبذلك جاء الخبر عن رسول الله ﷺ.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك! قال: أحلّ عليكم رضواني، فلا اسخط عليكم بعده أبدًا وابتدئ الخبر عن "رضوان الله" للمؤمنين والمؤمنات أنه أكبر من كل ما ذكر جل ثناؤه، فرفع، وإن كان "الرضوان" فيما قد وعدهم. ولم يعطف به في الإعراب على "الجنات" و"المساكن الطيبة"، ليعلم بذلك تفضيل الله رضوانه عن المؤمنين، على سائر ما قسم لهم من فضله، وأعطاهم من كرامته، نظير قول القائل في الكلام لآخر: "أعطيتك ووصلتك بكذا، وأكرمتك، ورضاي بعدك عنك أفضل لك".

﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾، هذه الأشياء التي وعدت المؤمنين والمؤمنات ﴿هو الفوز

العظيم، يقول: هو الظفر العظيم، والنجاء الحسيم، لأنهم ظفروا بكرامة الأبد، ونَجَوْا من الهوان في سَقَر، فهو الفوز العظيم الذي لا شيء أعظم منه.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾، بالسيف والسلاح ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾. واختلف أهل التأويل في صفة "الجهاد" الذي أمر الله نبيه به في المنافقين. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، ما قال ابن مسعود: من أن الله أمر نبيه ﷺ من جهاد المنافقين، بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين.

وقوله: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾، يقول: ومساكنهم جهنم، وهي مثواهم ومأواهم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، يقول: وبئس المكان الذي يُصَار إليه جهنم.

القول في تأويل قوله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذي نزلت فيه هذه الآية، والقول الذي كان قاله، الذي أخبر الله عنه أنه يحلف بالله ما قاله. فقال بعضهم: الذي نزلت فيه هذه الآية: الجلاس بن سويد بن الصامت. وقال آخرون: بل نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنهم يحلفون بالله كذباً على كلمة كُفِّر تكلموا بها أنهم لم يقولوها. وجائز أن يكون ذلك القول ما روي عن عروة: أن الجلاس قاله وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي بن سلول،

ولا علم لنا بأي ذلك من أي، إذ كان لا خبر بأحدهما يوجب الحجة، ويُتَوَصَّل به إلى يقين العلم به، وليس مما يدرك علمه بفطرة العقل، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

وأما قوله: ﴿وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في الذي كان همّ بذلك، وما الشيء الذي كان هم به. فقال بعضهم: هو رجل من المنافقين، وكان الذي هم به، قتل ابن امرأته الذي سمع منه ما قال، وخشي أن يفشي عليه. كما جاء عن مجاهد

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ذكر لنا أن المنافق الذي ذكر الله عنه أنه قال كلمة الكفر، كان فقيراً فأغناه الله بأن قُتِل له مولى، فأعطاه رسول الله ديتَه. فلما قال ما قال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾، يقول: ما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً، إلا أن

أَغْنَاهُمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٥٦﴾. كَمَا جَاءَ عَنْ عِكْرَمَةَ وَبْنِ عَبَّاسٍ
وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَكُمْ﴾، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَإِنْ يَتُوبَ هَؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ كَلِمَةَ
الْكُفْرِ مِنْ قِيلِهِمُ الَّذِي قَالُوهُ فَرَجِعُوا عَنْهُ، يَكْ رَجُوعُهُمْ وَتُوبَتُهُمْ مِنْ
ذَلِكَ، خَيْرًا لَكُمْ مِنَ النِّفَاقِ ﴿٥٧﴾ وَإِنْ يَتُوبُوا ﴿٥٨﴾، يَقُولُ: وَإِنْ يَدْبُرُوا عَنِ التَّوْبَةِ، فَيَأْتُوا وَيَصْرُوهَا
عَلَى كُفْرِهِمْ، ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، يَقُولُ: يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا مُوجِعًا فِي الدُّنْيَا، إِمَّا بِالْقَتْلِ،
وَإِمَّا بِعَاجِلِ خَزْيٍ لَهُمْ فِيهَا، وَيُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يَقُولُ: وَمَا لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ إِنْ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ
عَاجِلَ الدُّنْيَا ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾، يُوَالِيهِ عَلَى مَنَعِهِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَنْصُرُهُ مِنَ اللَّهِ فَيَنْقِذُهُ مِنْ
عِقَابِهِ. وَقَدْ كَانُوا أَهْلَ عِزٍّ وَمَنْعَةٍ بِعِشَائِرِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، يَمْتَنِعُونَ بِهِمْ مِنْ أَرَادِهِمْ بِسُوءٍ، فَأَخْبَرَ جَلَّ
ثَنَاهُ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ أَرَادِهِمْ بِسُوءٍ مِنْ عِشَائِرِهِمْ وَحُلَفَائِهِمْ، لَا يَمْنَعُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ
وَلَا يَنْصُرُونَهُمْ مِنْهُ، إِنْ احْتَجَّوْا إِلَى نَصْرِهِمْ. وَذَكَرَ أَنَّ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ تَابَ مِمَّا كَانَ
عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ. كَمَا جَاءَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَكُمْ﴾، قَالَ: قَالَ
الْجَلَّاسُ: قَدْ اسْتَشْنَى اللَّهُ لِي التَّوْبَةَ، فَأَنَا أَتُوبُ. فَقَبِلَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥٦) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٥٧) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٥٨)﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:
يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ وَصَفْتَ لَكَ، يَا مُحَمَّدُ، صِفَتَهُمْ ﴿مِنْ عَاهِدِ
اللَّهِ﴾، يَقُولُ: أَعْطَى اللَّهُ عَهْدًا ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾، يَقُولُ: لَئِنْ أَعْطَانَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَرَزَقَنَا
مَالًا وَوَسَّعَ عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِهِ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، يَقُولُ: لَنَخْرُجَنَّ الصَّدَقَةَ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ الَّذِي رَزَقَنَا
رَبُّنَا ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، يَقُولُ: وَلَنَعْمَلَنَّ فِيهَا بِعَمَلِ أَهْلِ الصَّلَاحِ بِأَمْوَالِهِمْ، مِنْ صَلَةِ
الرَّحِمِ بِهِ، وَإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: فَرَزَقَهُمُ اللَّهُ وَأَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿فَلَمَّا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾، بِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي آتَاهُمْ، فَلَمْ يَصَّدَّقُوا مِنْهُ، وَلَمْ يَصْلُوا مِنْهُ قِرَاءَةً،
وَلَمْ يَنْفَقُوا مِنْهُ فِي حَقِّ اللَّهِ ﴿وَتَوَلَّوْا﴾، يَقُولُ: وَأَدْبُرُوا عَنْ عَهْدِهِمُ الَّذِي عَاهَدُوهُ اللَّهَ ﴿وَهُمْ
مُعْرِضُونَ﴾، عَنْهُ ﴿فَأَعْقَبَهُمُ﴾ اللَّهُ ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، بِبَخْلِهِمْ بِحَقِّ اللَّهِ الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ فِيمَا
آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ الَّذِي وَعَدُوا اللَّهَ، وَنَقْضِهِمْ عَهْدَهُ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ
بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾، مِنَ الصَّدَقَةِ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، فِي قِيلِهِمْ،
وَحَرَمِهِمُ التَّوْبَةَ مِنْهُ، لِأَنَّهُ جَلَّ ثَنَاهُ اشْتَرَطَ فِي نِفَاقِهِمْ أَنَّهُ أَعْقَبَهُمُوهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ، وَذَلِكَ يَوْمُ
مَمَاتِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا.

وقال أبو جعفر: في هذه الآية، الإبانة من الله جل ثناؤه عن علامة أهل النفاق، أعني في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. كما جاء عن الحسن وسعيد بن ثابت وغيرهما

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرًا، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان بهما جهراً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، الذي يسرونه في أنفسهم، من الكفر به ورسوله ﴿ونجواهم﴾، يقول: "ونجواهم"، إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله، وذكرهم بغير ما ينبغي أن يُذكروا به، فيحذروا من الله عقوبته أن يحلها بهم، وسطوته أن يوقعها بهم، على كفرهم بالله ورسوله، وعيهم للإسلام وأهله، فينزعوا عن ذلك ويتوبوا منه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، يقول: ألم يعلموا أن الله علام ما غاب عن أسماع خلقه وأبصارهم وحواسهم، مما أكتته نفوسهم، فلم يظهر على جوارحهم الظاهرة، فيهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب، ويزجرهم عن إضمار غير ما يبدونه، وإظهار خلاف ما يعتقدونه؟

القول في تأويل قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الذين يلمزون المطَّوعين في الصدقة على أهل المسكنة والحاجة، بما لم يوجب الله عليهم في أموالهم، ويطعنون فيها عليهم

بقولهم: "إنما تصدقوا به رياءً وسمعة، ولم يريدوا وجه الله" ويلمزون الذين لا يجدون ما يتصدقون به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقصونهم ويقولون: "لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنياً!" سخرياً منهم بهم ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾. وقد بينا صفة "سخريه الله"، بمن يسخر به من خلقه، في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿ولهم عذاب أليم﴾، يقول: ولهم من عند الله يوم القيامة عذابٌ موجه مؤلم.

وذكر أن المعني بقوله: ﴿المطَّوعين من المؤمنين﴾، عبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي الأنصاري وأن المعني بقوله: ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾، أبو عقيل الأراشي، أخو بني أنيف. كما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿الذين يلمزون المطَّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: أن أجمعوا صدقاتكم! فجمع الناس صدقاتهم. ثم جاء رجل من آخرهم بمنٍّ من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر، بتُّ ليلتي أجرٌ بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر،

فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن يثره في الصدقات. فسخر منه رجال وقالوا: والله إن الله ورسوله لغنيان عن هذا! وما يصنعان بصاعك من شيء! ثم إن عبد الرحمن بن عوف، رجل من قريش من بني زهرة، قال لرسول الله ﷺ: هل بقي من أحد من أهل هذه الصدقات؟ فقال: لا! فقال عبد الرحمن بن عوف: إن عندي مئة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب: أمجنون أنت؟ فقال: ليس بي جنون! فقال: فعلمنا ما قلت؟ قال: نعم! مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي! فقال له رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت! وكره المنافقون فقالوا: "والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياءً"! وهم كاذبون، إنما كان به متطوعاً. فأنزل الله عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال الله في كتابه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، الآية. وقد بينا معنى "اللمز" في كلام العرب بشواهد وما فيه من اللغة والقراءة فيما مضى. وأما قوله: ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾، فإن معناه: المتطوعين، أما "الجهد" فقد روي عن الشعبي في ذلك "الجهد"، و"الجهد"، "الجهد في العمل، والجهد في القوت".

القول في تأويل قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ادع الله لهؤلاء المنافقين، الذين وصفت صفاتهم في هذه الآيات بالمغفرة، أو لا تدع لهم بها. وهذا كلام خرج مخرج الأمر، وتأويله الخبر، ومعناه: إن استغفرت لهم، يا محمد، أو لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم.

وقوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، يقول: إن تسأل لهم أن تُستر عليهم ذنوبهم بالعفو منه لهم عنها، وترك فضيحتهم بها، فلن يستر الله عليهم، ولن يعفو لهم عنها، ولكنه يفضحهم بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾، يقول جل ثناؤه: هذا الفعل من الله بهم، وهو ترك عفوهم عن ذنوبهم، من أحل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، يقول: والله لا يوفق للإيمان به وبرسوله، من أثر الكفر به والخروج عن طاعته، على الإيمان به وبرسوله.

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه حين نزلت هذه الآية قال: "لأزیدن في الاستغفار لهم على سبعين مرة"، رجاءً منه أن يغفر الله لهم، فنزلت: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]. كما جاء عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن عبد الله بن أبي ابن سلول قال لأصحابه: لولا أنكم تُنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله! وهو القائل: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فأنزل الله:

﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾، قال النبي ﷺ: لأزیدن على السبعين! فأنزل الله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، فأبى الله تبارك وتعالى أن يغفر لهم.

القول في تاويل قوله: ﴿فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فرح الذين خلفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه ﴿بمقعدهم خلاف رسول الله﴾، يقول: بجلوسهم في منازلهم ﴿خلاف رسول الله﴾، يقول: على الخلاف لرسول الله في جلوسه ومقعد. وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالنفر إلى جهاد أعداء الله، فخالفوا أمره وجلسوا في منازلهم.

وقوله: ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾، يقول تعالى ذكره: وكره هؤلاء المخلفون أن يغزوا الكفار بأموالهم وأنفسهم ﴿في سبيل الله﴾، يعني: في دين الله الذي شرعه لعباده لينصروه، ميلا إلى الدعة والخفض، وإيثارا للراحة على التعب والمشقة، وشحًا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله.

﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة، وهي غزوة تبوك، في حر شديد، فقال المنافقون بعضهم لبعض: "لا تنفروا في الحر"، فقال الله لنبينه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ لهم، يا محمد ﴿نار جهنم﴾، التي أعدّها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله ﴿أشد حرًّا﴾، من هذا الحر الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه. يقول: الذي هو أشد حرًّا، أخرى أن يُحذر ويُتقى من الذي هو أقلهما أذى ﴿لو كانوا يفقهون﴾، يقول: لو كان هؤلاء المنافقون يفقهون عن الله وعظه، ويتدبرون آي كتابه، ولكنهم لا يفقهون عن الله، فهم يحذرون من الحر أقله مكروهاً وأخفه أذى، ويواقعون أشده مكروهاً وأعظمه على من يصلاه بلاءً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة وابن اسحاق

القول في تاويل قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فرح هؤلاء المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، فليضحكوا فرحين قليلا في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله ولَهُوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيكون طويلا في جهنم مكان ضحكهم القليل في الدنيا ﴿جزاء﴾، يقول: ثوابا منا لهم على معصيتهم، بتركهم النفر إذ استنفرنا إلى عدوهم، وقعودهم في منازلهم خلاف رسول الله ﴿بما كانوا يكسبون﴾، يقول: بما كانوا يجترحون من الذنوب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن أبي رزين والربيع بن خثيم وابن عباس وغيرهم

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فَإِنْ رَدَّكَ اللَّهُ، يَا مُحَمَّد، إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ غَزَوَتِكَ هَذِهِ ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، مَعَكَ فِي أُخْرَى غَيْرِهَا ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وَذَلِكَ عِنْدَ خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى تَبُوكَ ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، يَقُولُ: فَاقْعُدُوا مَعَ الَّذِينَ قَعَدُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِأَنَّكُمْ مِنْهُمْ، فَاقْتَدُوا بِهَدْيِهِمْ،

وَاعْمَلُوا مِثْلَ الَّذِي عَمِلُوا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ سَخَطَ عَلَيْكُمْ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ. كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْحَرُّ شَدِيدٌ، وَلَا نَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ، فَلَا تَنْفِرْ فِي الْحَرِّ! وَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْخُرُوجِ. فَتَخَلَّفَ عَنْهُ رِجَالٌ، فَأَدْرَكَتْهُمْ نَفُوسُهُمْ فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا صَنَعْنَا شَيْئًا! فَانْطَلَقَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ، فَلَحِقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَتَوْهُ تَابُوا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرَةٍ﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلِكَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَذْرَهُمْ لَمَّا تَابُوا، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، [التوبة: ١١٧، ١١٨].

وَقَالَ قَتَادَةُ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، أَي: مَعَ النِّسَاءِ. ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، قِيلَ فِيهِمْ مَا قِيلَ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَالصَّوَابُ مِنَ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْخَالِفِينَ﴾، مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ.

فَأَمَّا مَا قَالَ قَتَادَةُ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ النِّسَاءَ، فَقَوْلٌ لَا مَعْنَى لَهُ. لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَجْمَعُ النِّسَاءَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُنَّ رِجَالٌ، بِالْيَاءِ وَالنُّونِ، وَلَا بِالْوَاوِ وَالنُّونِ. وَلَوْ كَانَ مَعْنًى بِذَلِكَ النِّسَاءُ لَقِيلَ: "فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَوَالِفِ"، أَوْ "مَعَ الْخَالَفَاتِ". وَلَكِنْ مَعْنَاهُ مَا قُلْنَا، مِنْ أَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ: فَاقْعُدُوا مَعَ مَرْضَى الرِّجَالِ وَأَهْلِ زَمَانَتِهِمْ، وَالضَّعْفَاءِ مِنْهُمْ، وَالنِّسَاءِ. وَإِذَا اجْتَمَعَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي الْخَبَرِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَغْلِبُ الذَّكَورَ عَلَى الْإِنَاثِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾، وَالْمَعْنَى مَا ذَكَرْنَا.

وَلَوْ وُجِّهَ مَعْنَى ذَلِكَ إِلَى: فَاقْعُدُوا مَعَ أَهْلِ الْفُسَادِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: "خَلَفَ الرِّجَالُ عَنْ أَهْلِهِ يَخْلُفُ خُلُوفًا، إِذَا فَسَدَ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ: "هُوَ خَلَفَ سَوْءٍ" كَانَ مَذْهَبًا. وَأَصْلُهُ إِذَا أُرِيدَ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى، مِنْ قَوْلِهِمْ: "خَلَفَ اللَّبَنُ يَخْلُفُ خُلُوفًا"، إِذَا خَبِثَ مِنْ طَوْلٍ وَضَعَهُ فِي السَّقَاءِ حَتَّى يَفْسَدَ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ: "خَلَفَ فَمِ الصَّائِمِ"، إِذَا تَغَيَّرَتْ رِيحُهُ.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨١) قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولا تصل، يا محمد، على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبدًا ﴿ولا تقم على قبره﴾، يقول: ولا تتولَّ دفنه وتقبيره. من قول القائل: "قام فلان بأمر فلان"، إذا كفاه أمره. ﴿إنهم كفروا بالله﴾، يقول: إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله وماتوا وهم خارجون من الإسلام، مفارقون أمر الله ونهيه. وقد ذكر أن هذه الآية نزلت حين صلى النبي ﷺ على عبد الله بن أبيي. كما جاء ابن عمر قال: جاء ابن عبد الله بن أبيي ابن سلول إلى رسول الله حين مات أبوه فقال: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له. فأعطاه قميصه وإذا فرغتم فاذنوني. فلما أراد أن يصلي عليه، [جذبه] عمر، وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلِّي على المنافقين؟ فقال: بل خيرني وقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾، قال: فصلي عليه. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، قال: فترك الصلاة عليهم.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تعجبك، يا محمد، أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره، من أجل كثرة ماله وولده، فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات، وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات، ﴿وتزهق أنفسهم﴾، يقول: وليموت فتخرج نفسه من جسده، فيفارق ما أعطيته من المال والولد، فيكون ذلك حسرة عليه عند موته، ووبالا عليه حيثئذٍ، ووبالا عليه في الآخرة، بموته جاحدًا توحيد الله، ونبوة نبيه محمد ﷺ. كما جاء عن السدي

القول في تاويل قوله: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل عليك، يا محمد، سورة من القرآن، بأن يقال لهؤلاء المنافقين: ﴿آمنوا بالله﴾، يقول: صدقوا بالله ﴿وجاهدوا مع رسوله﴾، يقول: اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾، يقول: استأذنك ذوو الغنى والمال منهم في التخلف عنك، والقعود في أهله ﴿وقالوا ذرنا﴾، يقول: وقالوا لك: دعنا، نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم، ومن لا يقدر على الخروج معك في السفر. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وابن اسحاق

القول في تاويل قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: رضي هؤلاء المنافقون الذين إذا قيل لهم: آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله، استأذذك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك لقتال أعداء الله من المشركين أن يكونوا في منازلهم، كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في منازلهن وبيوتهن ﴿وطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، يقول: وختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين ﴿فهم لا يفقهون﴾، عن الله مواعظه، فيتعظون بها. وقد بينا معنى "الطبع"، وكيف الختم على القلوب، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وبنحو الذي قلنا في معنى "الخوالف" قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس والضحاك وغيرهما

القول في تاويل قوله: ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لم يجاهد هؤلاء المنافقون الذين اقتصصت قصصهم المشركين، لكن الرسول محمد ﷺ والذين صدقوا الله ورسوله معه، هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فأنفقوا في جهادهم أموالهم واتبعوا في قتالهم أنفسهم وبذلواها ﴿وأولئك﴾، يقول: وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴿الخيرات﴾، وهي خيرات الآخرة، وذلك: نساؤها، وجناتها، ونعيمها. واحداثها "خيرة"، و"الخيرة"، من كل شيء، الفاضلة. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾، يقول: وأولئك هم المخلدون في الجنات، الباقيون فيها، الفائزون بها.

القول في تاويل قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أعد الله لرسوله محمد ﷺ وللذين آمنوا معه ﴿جَنَّاتٍ﴾، وهي البساتين، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾، يقول: لا بشين فيها، لا يموتون فيها، ولا يطعنون عنها ﴿ذلك الفوز العظيم﴾، يقول: ذلك النجاء العظيم، والخطّ الجزيل.

القول في تاويل قوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وجاء﴾، رسول الله ﷺ ﴿المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾، في التخلف ﴿وقعد﴾، عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه ﴿الذين كذبوا الله ورسوله﴾، وقالوا الكذب، واعتذروا بالباطل منهم. يقول تعالى ذكره: سيصيب الذين جحدوا توحيد الله ونبوة نبيه محمد ﷺ منهم، عذاب أليم. و﴿المُعَذِّرُونَ﴾ كانوا فرقتين: إما مجتهد طائع، وإما منافق فاسق، لأمر الله مخالف. وإنما هو معذر مبالغ، أو معتذر.

القول في تاويل قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ليس على أهل الزمانة وأهل العجز عن السفر والغزو، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقة يتبلى بها إلى مغزاه "حرج"، وهو الإثم، يقول: ليس عليهم إثم، إذا نصحوا لله ولرسوله في مغييهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾، يقول: ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن رسول الله ﷺ عن الجهاد معه، لعذر يعذر به، طريق يتطرق عليه فيعاقب من قبله ﴿والله غفور رحيم﴾، يقول: والله سائر على ذنوب المحسنين، يتغمد بها بعفوه لهم عنها ﴿رحيم﴾، بهم، أن يعاقبهم عليها. وذكر أن هذه الآية نزلت في "عائذ بن عمرو المزني". وقال بعضهم في "عبد الله بن مغفل". كالذي جاء عن ابن عباس قوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾، إلى قوله: ﴿حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم "عبد الله بن مغفل المزني"، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم رسول الله ﷺ: والله ما أجد ما أحملكم عليه! قولوا ولهم بكاء، وعزيزٌ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾، إلى قوله: ﴿فهم لا يعلمون﴾.

القول في تاويل قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (١٢) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولا سبيل أيضاً على نفر الذين إذا ما جاءوك، لتحملهم، يسألونك الحُمْلان، ليلبغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداء الله معك، يا محمد، قلت لهم: لا أجد حمولةً أحملكم عليها ﴿تولوا﴾، يقول: أدبروا عنك، ﴿وأعينهم تفيض من الدمع حزناً﴾، وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون، ويتحملون به للجهاد في سبيل الله.

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما السبيل بالعقوبة على أهل العذر، يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنونك في التخلف خلافاً، وترك الجهاد معك، وهم أهل غنى وقوة وطاقة للجهاد والغزو، نفاقاً وشكاً في وعد الله ووعدته ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾، يقول: رضوا بأن يجلسوا بعدك مع النساء وهن "الخوالف"، خلف الرجال في البيوت، ويتركوا الغزو معك، ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾، يقول:

وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب ﴿فهم لا يعلمون﴾، سوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الشاء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة.

القول في تاويل قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يعتذر إليكم، أيها المؤمنون بالله، هؤلاء المتخلفون خلاف رسول الله ﷺ، التاركون جهاد المشركين معكم من المنافقين، بالباطيل والكذب، إذا رجعت إليهم من سفرهم وجهاكم "قل"، لهم، يا محمد، ﴿لا تعتذروا لن تؤمن لكم﴾، يقول: لن نصدقكم على ما تقولون ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾، يقول: قد أخبرنا الله من أخباركم، وأعلمنا من أمركم ما قد علمنا به كذبكم ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾، يقول: وسيرى الله ورسوله فيما بعد عملكم، أتوبون من نفاقكم، أم تقيمون عليه؟ ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾، يقول: ثم ترجعون بعد مماتكم ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾، يعني: الذي يعلم السر والعلانية، الذي لا يخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾، فيخبركم بأعمالكم كلها سيئها وحسنها، فيجازيكم بها: الحسن منها بالحسن، والسيئ منها بالسيئ.

القول في تاويل قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: سيحلف، أيها المؤمنون بالله، لكم هؤلاء المنافقون الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ﴿إذا انقلبتم إليهم﴾، يعني: إذا انصرفتم إليهم من غزوكم ﴿لتعرضوا عنهم﴾، فلا تؤنبوهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾، يقول جل ثناؤه للمؤمنين: فدعوا تأنيبهم، وخلوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق ﴿إنهم رجس ومأواهم جهنم﴾، يقول: إنهم نجس ﴿ومأواهم جهنم﴾، يقول: ومصيرهم إلى جهنم، وهي مسكنهم الذي يأوون في الآخرة ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾، يقول: ثواباً بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من معاصي الله.

وذكر أن هذه الآية نزلت في رجلين من المنافقين، قال ما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا﴾، إلى: ﴿بما كانوا يكسبون﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ قيل له: ألا تغزو بني الأصفر، لعلك أن تصيب بنت عظيم الروم، فإنهم حسان! فقال رجلان: قد علمت، يا رسول الله، أن النساء فتنة، فلا تفتنأ بهن! فأذن لنا! فأذن لهما. فلما انطلقا، قال أحدهما: إن هو إلا شحمة لأول آكل! فسار رسول الله ﷺ، ولم ينزل عليه في ذلك شيء، فلما كان ببعض الطريق، نزل عليه وهو على بعض المياه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا

قَاصِدًا لَا تَتَّبِعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» [التوبة: ٤٢]، ونزل عليه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ونزل عليه: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٤٤]، ونزل عليه: ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهِمُ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. فسمع ذلك رجل ممن غزا مع النبي ﷺ، فأتاهم وهم خلفهم، فقال: تعلمون أن قد نزل على رسول الله ﷺ بعدكم قرآن؟ قالوا: ما الذي سمعت؟ قال: ما أدري، غير أنني سمعت أنه يقول: "إنهم رَجَسٌ"! فقال رجل يدعى "مخشيًا"، والله لوددت أني أجلد مئة جلدة، وأني لست معكم! فأتى رسول الله ﷺ، فقال: ما جاء بك؟ فقال: وجه رسول الله ﷺ تسفعه الريح، وأنا في الكِن!! فأنزل الله عليه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: ٤٩]، ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، ونزل عليه في الرجل الذي قال: "لوددت أني أجلد مئة جلدة" قول الله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]، فقال رجل مع رسول الله: لئن كان هؤلاء كما يقولون، ما فينا خير! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: أنت صاحب الكلمة التي سمعت؟ فقال: لا والذي أنزل عليك الكتاب! فأنزل الله فيه: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وأنزل فيه: ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، [التوبة: ٤٧].

القول في تاويل قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: يحلف لكم، أيها المؤمنون بالله، هؤلاء المنافقون، اعتذارًا بالباطل والكذب ﴿لترضوا عنهم﴾ فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين، يقول: فإن أنتم، أيها المؤمنون، رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم، إذ كنتم لا تعلمون صدقهم من كذبهم، فإن رضاكم عنهم غير نافعهم عند الله، لأن الله يعلم من سرائر أمرهم ما لا تعلمون، ومن خفي اعتقادهم ما تجهلون، وأنهم على الكفر بالله..... يعني أنهم الخارجون من الإيمان إلى الكفر بالله، ومن الطاعة إلى المعصية.

القول في تاويل قوله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الأعراب أشدُّ جحودًا لتوحيد الله، وأشدُّ نفاقًا، من أهل الحضر في القرى والأمصار. وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك، لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوبًا، وأقلُّ علمًا بحقوق الله.

وقوله: ﴿وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾، يقول: وأخلق أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وذلك فيما قال قتادة: السُّنن.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، يقول: ﴿والله عليم﴾، بمن يعلم حدودَ ما أنزل على رسوله، والمنافق من خلقه، والكافر منهم، لا يخفى عليه منهم أحد ﴿حَكِيمٌ﴾، في تدبيره إياهم، وفي حلمه عن عقابهم، مع علمه بسرائرهم وخداعهم أوليائه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يعتدُّ نفقته التي ينفقها في جهادٍ مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده ﴿مَغْرَمًا﴾، يعني: غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾، يقول: ويتظنون بكم الدوائر، أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروهٍ ومجيء محبوب، وغلبة عدوٍّ لكم. يقول الله تعالى ذكره: ﴿عليهم دائرة السوء﴾، يقول: جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون، ولا بكم ﴿والله سميعٌ﴾، لدعاء الداعين ﴿عليمٌ﴾ بتدبيرهم، وما هو بهم نازلٌ من عقاب الله، وما هم إليه صائرون من أليم عقابه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن زيد

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يصدق الله ويقرُّ بوحدانيته، وبالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب، وينوي بما ينفق من نفقة في جهاد المشركين، وفي سفره مع رسول الله ﷺ ﴿قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾، و"القربات" جمع "قربة"، وهو ما قرَّبه من رضى الله ومحبته ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾، يعني بذلك: وبيتغي بنفقة ما ينفق، مع طلب قربته من الله، دعاء الرسول واستغفره له. وقد دللنا، فيما مضى من كتابنا، على أن من معاني "الصلاة"، الدعاء، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وقتادة قال أبو جعفر: قال الله: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾، يقول تعالى ذكره: ألا إنَّ صلوات الرسول قربة لهم من الله. وقد يحتمل أن يكون معناه: ألا إنَّ نفقته التي ينفقها كذلك، قربة لهم عند الله ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، يقول: سيدخلهم الله فيمن رحمه فأدخله برحمته الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، لما اجترموا ﴿رَحِيمٌ﴾، بهم مع توبتهم وإصلاحهم أن يعذبهم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والذين سبقوا الناس أولا إلى

الإيمان بالله ورسوله ﴿من المهاجرين﴾، الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم ﴿والأنصار﴾، الذين نصرُوا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾، يقول: والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، طلب رضا الله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

ومعنى الكلام: رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيّه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه ﷺ ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾، يدخلونها ﴿خالدين فيها﴾، لا يبدلون فيها ﴿أبدًا﴾، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ﴿ذلك الفوز العظيم﴾.

القول في تأويل قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون، ومن أهل مدينتكم أيضًا أمثالهم أقوامٌ منافقون. وقوله: ﴿مردوا على النفاق﴾، يقول: مرثوا عليه ودربوا به. ﴿لا تعلمهم﴾، يقول لنبيه محمد ﷺ: لا تعلم، يا محمد، أنت هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك صفتهم ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة، ولكننا نحن نعلمهم،

وقوله: ﴿سنعذبهم مرتين﴾، يقول: سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر. ثم اختلف أهل التأويل في التي في الدنيا، ما هي؟ قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلاً يوصل به إلى علم صفة ذنوب العذابين وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأي ذلك من أي. غير أن في قوله جل ثناؤه: ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾، دلالة على أن العذاب في المراتين كليهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المراتين أنها في القبر. وقوله: ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾، يقول: ثم يرد هؤلاء المنافقون، بعد تعذيب الله إياهم مرتين، إلى عذاب عظيم، وذلك عذاب جهنم.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَخْرُوجُوا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ومنهم "آخرون اعترفوا بذنوبهم"، يقول: أقرؤا بذنوبهم ﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾، يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيئ: اعترفهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخرة السيئ: هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ، حين خرج

غازيًا، وتركهم الجهاد مع المسلمين. "عسى الله أن يتوب عليهم"، يقول: لعل الله أن يتوب عليهم "وعسى" من الله واجب، وإنما معناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب على ما وصفت "إن الله غفور رحيم"، يقول: إن الله ذو صفح وعفو لمن تاب عن ذنوبه، وساتر له عليها "رحيم"، به أن يعذبه بها. وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بهذه الآية، والسبب الذي من أجله أنزلت فيه. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة.

القول في تأويل قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ: يا محمد، خذ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتأبوا منها ﴿صدقة تطهرهم﴾، من دنس ذنوبهم ﴿وتزكئهم بها﴾، يقول: وتنمئهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها، إلى منازل أهل الإخلاص ﴿وصل عليهم﴾، يقول: وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، واستغفر لهم منها ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾، يقول: إن دعائك واستغفارك طمأنينة لهم، بأن الله قد عفا عنهم وقبل توبتهم ﴿والله سميع عليم﴾، يقول: والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم، ولغير ذلك من كلام خلقه ﴿عليم﴾، بما تطلب بهم بدعائك ربك لهم، وبغير ذلك من أمور عبادته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس قال: جاءوا بأموالهم يعني أبا لبابة وأصحابه حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا! قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً! فأنزل الله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكئهم بها﴾، يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص ﴿وصل عليهم﴾، يقول: استغفر لهم. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾. فقال بعضهم: رحمة لهم. كما جاء عن ابن عباس وقال آخرون: بل معناه: إن صلاتك وقارٌ لهم. كما جاء عن قتادة

القول في تأويل قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله تعالى ذكره، أخبر به المؤمنين به: أن قبول توبة من تاب من المنافقين، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها، ليسا إلى نبي الله ﷺ وأن نبي الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزو معه، وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه ﷺ، وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد، وأن محمداً إنما يفعل ما

يفعل من ترك وإطلاق وأخذ صدقة وغير ذلك من أفعاله بأمر الله. فقال جل ثناؤه: ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد مع المؤمنين، الموثقوا أنفسهم بالسواري، القائلون: "لا نُطلق أنفسنا حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا"، السائلو رسول الله ﷺ أخذ صدقة أموالهم، أن ذلك ليس إلى محمد، وأن ذلك إلى الله، وأن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردّها، ويأخذ صدقة من تصدّق منهم أو يردّها عليه دون محمد، فيوجّهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك قصد وجهه دون محمد وغيره، ويخلصوا التوبة له، ويريدوه بصدقتهم، ويعلموا أن الله هو التواب الرحيم؟ يقول: المراجع لعبيده إلى العفو عنه إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا هم أنابوا إلى رضاه من عقابه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: ﴿وقل﴾، يا محمد، لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك ﴿اعملوا﴾، الله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه ﴿فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ يقول: فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا ﴿وستردون﴾، يوم القيامة، إلى من يعلم سرائركم وعلايتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾، يقول: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصاً، وما منه رياءً، وما منه طاعةً، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله جزاءكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم حين شخصتم لعدوكم، أيها المؤمنون، آخرون. ﴿وأخرون مرجون﴾، يعني: مُرجئون لأمر الله وقضائه. وقيل: عني هؤلاء الآخرين، نفرٌ ممن كان تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فندموا على ما فعلوا، ولم يعتذروا إلى رسول الله ﷺ عند مقدمه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فأرجأ الله أمرهم إلى أن صحت توبتهم، فتاب عليهم وعفا عنهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية يعني قوله: ﴿أخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ أخذ رسول الله ﷺ من أموالهم يعني من أموال أبي لبابة وصاحبيه فتصدّق بها عنهم، وبقي الثلاثة الذين خالفوا أبا لبابة، ولم يوثقوا، ولم يذكروا بشيء، ولم ينزل عذرهم، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت. وهم الذين قال الله: ﴿وأخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾. فجعل الناس يقولون: هلكوا! إذ

لم ينزل لهم عذر، وجعل آخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم! فصاروا مرجئين لأمر الله، حتى نزلت: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، الذين خرجوا معه إلى الشام ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ثم قال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا﴾، يعني المرجئين لأمر الله، نزلت عليهم التوبة، فعمموا بها، فقال: ﴿حَتَّى إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وأما قوله: ﴿إِذَا يَعَذِّبُهُمْ﴾، فإنه يعني: إما أن يحجزهم الله عن التوبة بخذلانه، فيعذبهم بذنوبهم التي ماتوا عليها في الآخرة ﴿وإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: وإما يوفقهم للتوبة فيتوبوا من ذنوبهم، فيغفر لهم ﴿والله عليم حكيم﴾، يقول: والله ذو علم بأمرهم وما هم صائرون إليه من التوبة والمقام على الذنب ﴿حكيم﴾، في تدبيرهم وتدبير من سواهم من خلقه، لا يدخل حكمه خلل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٧٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والذين ابتنوا مسجداً ضراراً، وهم، فيما ذكر، اثنا عشر نفساً من الأنصار. كما جاء عن ابن إسحاق قال: أقبل رسول الله ﷺ يعني: من تبوك حتى نزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار. وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإننا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه! فقال: إني على جناح سفر وحال شغل أو كما قال رسول الله ﷺ ولو قد قدمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلينا لكم فيه. فلما نزل بذي أوان، أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أو أخاه: عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقا! فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرنني حتى أخرج إليك بنار من أهلي! فدخل [إلى] أهله، فأخذ سَعْفًا من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرّقا وهدماه، وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً خِذَام بن خالد، من بني عبيد بن زيد، أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق وثعلبة بن حاطب، من بني عبيد، وهو إلى بني أمية بن زيد ومعتب بن قشير، من بني ضبيعة بن زيد وأبو حبيبة بن الأزعر، من بني ضبيعة بن زيد وعباد بن

حنيف، أخو سهل بن حنيف، من بني عمرو بن عوف وجارية بن عامر، وابناه: مجمع بن جارية، وزيد بن جارية، ونبث بن الحارث، وهم من بني ضبيعة وبَحْرَج، وهو إلى بني ضبيعة وبجاء بن عثمان، وهو من بني ضبيعة ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أمية، رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام: والذين ابتنوا مسجداً ضاراً لمسجد رسول الله ﷺ، وكفراً بالله لمحاتهم بذلك رسول الله ﷺ، ويفرقوا به المؤمنين، ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﷺ، يقول: وإعداداً له، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله، وكفر بهما، وقاتل رسول الله ﷺ من قبل ﷺ، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد. وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزب الأحزاب يعني: حزب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله، وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه، فيما ذكر عنه، ليصلي فيه، فيما يزعم، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك. وهذا معنى قول الله جل ثناؤه: ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾.

﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾، يقول جل ثناؤه: وليحلفن بانوه: "إن أردنا إلا الحسنى"، ببائنا، إلا الفرق بالمسلمين، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعدة ومن عجز عن المصير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه، وتلك هي الفعلة الحسنة ﷺ والله يشهد إنهم لكاذبون ﷺ، في حلفهم ذلك، وقيلهم: "ما ببنايه إلا ونحن نريد الحسنى!"، ولكنهم بنوه يريدون ببنايه السوء، ضاراً لمسجد رسول الله ﷺ، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لأبي عامر الفاسق. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وابن زيد وقاتدة

القول في تأويل قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: لا تقم، يا محمد، في المسجد الذي بناه هؤلاء المنافقون، ضاراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله. ثم أقسم جل ثناؤه فقال: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، أنت ﷺ. يعني بقوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾، ابتدئ أساسه وأصله على تقوى الله وطاعته ﷺ من أول يوم ﷺ، ابتدئ في بنائه ﷺ أحق أن تقوم فيه ﷺ، يقول: أولى أن تقوم فيه مصلياً.

واختلف أهل التأويل في المسجد الذي عناه بقوله: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

قال أبو جعفر: وأولى ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو مسجد الرسول ﷺ، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله. كما جاء عن سهل بن سعد قال، اختلف رجلا ن على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد النبي! وقال الآخر: هو مسجد قباء! فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه، فقال: هو مسجدي هذا اللفظ لحديث أبي كريب، وحديث سفيان نحوه.

القول في تاويل قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: في حاضري المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، رجال يحبون أن ينظفوا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط، والله يحب المتطهرين بالماء. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن شهر بن حوشب قال: لما نزل: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾، قال رسول الله ﷺ: ما الطهور الذي أثنى الله عليكم؟ قالوا: يا رسول الله، نغسل أثر الغائط. وقيل: ﴿والله يحب المطهرين﴾، وإنما هو: "المتطهرين"، ولكن أدمغت التاء في الطاء، فجعلت طاء مشددة، لقرب مخرج إحداهما من الأخرى.

القول في تاويل قوله: ﴿أَقَمْنَا بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر والمعنى: أي هؤلاء الذين بنوا المساجد خير، أيها الناس، عندهم: الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على اتقاء الله، بطاعتهم في بنائه، وأداء فرائضه ورضى من الله لبنائهم ما بنوه من ذلك، وفعلهم ما فعلوه خير، أم الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على شفا جرف هار؟ يعني بقوله: ﴿على شفا جرف﴾، على حرف جُرف و"الجرف"، من الركيا، ما لم يُبَيَّنْ له جُولُ ﴿هار﴾، يعني متهور. وإنما هو "هائر"، ولكنه قلب، فأخرت ياؤها فقليل: "هار"،

قال أبو جعفر: وإنما هذا مثَل. يقول تعالى ذكره: أي هذين الفريقين خير؟ وأي هذين البنائين أثبت؟ أمّن ابتدأ أساس بنائه على طاعة الله، وعلم منه بأن بناء الله طاعة، والله به راضٍ، أم من ابتدأه بنفاق وضلال، وعلى غير بصيرة منه بصواب فعله من خطئه، فهو لا يدري متى يتبين له خطأ فعله وعظيم ذنبه، فيهدمه، كما يأتي البناء على جرف ركيّة لا حابس لماء السيول عنها ولغيره من المياه، ثريّة التراب متناثرة، لا تُلبّثه السيول أن تهدمه وتشره؟

يقول الله جل ثناؤه: ﴿فأنهار به في نار جهنم﴾، يعني فانتشر الجرف الهاري ببنائه في نار جهنم. كما جاء عن ابن عباس وكما قال ابن جريج: بنو عمرو بن عوف. استأذنوا النبي ﷺ في بنيانه، فأذن لهم، ففرغوا منه يوم الجمعة، فصلوا فيه الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد. قال: وانهار يوم الاثنين. قال: وكان قد استنظرهم ثلاثاً، السبت والأحد والاثنين ﴿فأنهار به في نار

جهنم»، مسجد المنافقين، انهار فلم يتناه دون أن وقع في النار قال ابن جريج: ذكر لنا أن رجلا حفرها فيه، فأبصروا الدخان يخرج منه. قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يقول: والله لا يوفق للرشاد في أفعاله، من كان بانيًا ببناءه في غير حقه وموضعه، ومن كان منافقًا مخالفًا بفعله أمر الله وأمر رسوله.

القول في تاويل قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٣٠﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لا يزال بنيان هؤلاء الذين اتخذوا مسجداً ضراباً وكفراً ﴿ريبة﴾، يقول: لا يزال مسجدهم الذي بنوه ﴿ريبة﴾ في قلوبهم،

يعني: شكاً ونفاقاً في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في بنائه مُحْسِنِينَ ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، يعني: إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿والله عليم﴾، بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار، من شكهم في دينهم، وما قصدوا في بنائهم وأرادوه، وما إليه صائر أمرهم في الآخرة، وفي الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم ﴿حكيم﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة

القول في تاويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣١﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الله ابتاع من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة ﴿وعداً عليه حَقًّا﴾ يقول: وعدهم الجنة جل ثناؤه، وعداً عليه حَقًّا أن يوفي لهم به، في كتبه المنزل: التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وفوا بما عاهدوا الله، فقاتلوا في سبيله ونصرة دينه أعداءه، فقتلوا وقُتِلُوا ﴿ومن أوفى بعهد من الله﴾، يقول جل ثناؤه: ومن أحسن وفاءً بما ضمن وشرط من الله ﴿فاستبشروا﴾، يقول ذلك للمؤمنين: فاستبشروا، أيها المؤمنون، الذين صدقوا الله فيما عاهدوا، ببيعكم أنفسكم وأموالكم بالذي بعتموها من ربكم به، فإن ذلك هو الفوز العظيم،

القول في تاويل قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الله اشترى من المؤمنين التائبين العابدين أنفسهم وأموالهم ولكنه رفع، إذ كان مبتدأ به بعد تمام أخرى مثلاً. والعرب تفعل ذلك، وقد تقدّم بياننا ذلك في قوله: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨]، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. ومعنى: "التائبون"، الراجعون مما كرهه الله وسخطه إلى ما يحبه ويرضاه، كما جاء عن الحسن وابن جريج وقتادة

وأما قوله: ﴿العابدون﴾، فهم الذين ذلوا خشيةً لله وتواضعاً له، فجدُّوا في خدمته، كما جاء

عن الحسن وقتادة وأما قوله: ﴿السَّائِحُونَ﴾، فإنهم الصائمون، كما جاء عن أبي هريرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: "السَّائِحُونَ" هم الصائمون.

وقوله: ﴿الْراكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾، يعني المصلين، الراكعين في صلاتهم، الساجدين فيها، كما جاء عن الحسن وأما قوله: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فإنه يعني أنهم يأمرُونَ الناس بالحق في أديانهم، واتباع الرشد والهدى، والعمل وينهونهم عن المنكر، وذلك نهيهم الناس عن كل فعل وقول نهى الله عباده عنه. وقد روي عن الحسن: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، لا إله إلا الله ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، عن الشرك.

قال أبو جعفر: وقد دللنا فيما مضى قبل على صحة ما قلنا: من أن "الأمر بالمعروف" هو كل ما أمر الله به عباده أو رسوله ﷺ، و"النهي عن المنكر"، هو كل ما نهى الله عنه عباده أو رسوله. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أنها عني بها خصوصاً دون عموم، ولا خبر عن الرسول، ولا في فطرة عقل، فالعموم بها أولى، لما قد بينا في غير موضع من كتبنا.

وأما قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾، فإنه يعني: المؤدّون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه، الذين لا يضيعون شيئاً ألزمهم العمل به، ولا يرتكبون شيئاً نهاهم عن ارتكابه، كما جاء عن ابن عباس

وأما قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنه يعني: وبشّر المصدّقين بما وعدهم الله إذا هم وفّوا الله بعهده، أنه موفّ لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة، كما جاء عن الحسن

القول في تأويل قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴿ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يقول تعالى ذكره: ما كان ينبغي للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا به "أن يستغفروا"، يقول: أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم "أولي قربي"، ذوي قرابة لهم "من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم"، يقول: من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله. فإن قالوا: فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه وهو مشرك؟ فلم يكن استغفار إبراهيم لأبيه إلا لموعدة وعدها إياه. فلما تبين له وعلم أنه لله عدو، خلاه وتركه، وترك الاستغفار له، وآثر الله وأمره عليه، فتبرأ منه حين تبين له أمره.

واختلف أهل التأويل في السبب الذي نزلت هذه الآية فيه.

فقال بعضهم: نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ، لأن النبي ﷺ أراد أن يستغفر له بعد موته، فنهاه الله عن ذلك. كما جاء عن معمر، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله! فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك! فنزلت: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين"، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، [القصص: ٥٦].

وقال آخرون: بل نزلت في سبب أم رسول الله ﷺ، وذلك أنه أراد أن يستغفر لها، فمنع من ذلك. كما جاء عن عطية قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس، رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها، حتى نزلت: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي"، إلى قوله: "تبرأ منه".

وقال آخرون: بل نزلت من أجل أن قومًا من أهل الإيمان كانوا يستغفرون لموتاهم من المشركين، فنهاه عن ذلك. كما جاء عن قتادة قوله: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين"، الآية، ذكر لنا أن رجالا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يُحسِن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: بلى! والله لأستغفرن لأبي، كما استغفر إبراهيم لأبيه! قال: فأنزل الله: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين" حتى بلغ: "الجحيم"، ثم عذر الله إبراهيم فقال: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه". قال: وذكر لنا أن نبي الله قال: أوحى إليّ كلمات فدخلن في أذني، ووَقَرَنَ في قلبي: أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركًا، ومن أعطى فضل ماله فهو خيرٌ له، ومن أمسك فهو شرٌّ له، ولا يلوم الله على كفافٍ".

وأما قوله: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه"، فإن أهل العلم اختلفوا في السبب الذي أنزل فيه. فقال بعضهم: أنزل من أجل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يستغفرون لموتاهم المشركين، ظنًا منهم أن إبراهيم خليل الرحمن قد فعل ذلك، حين أنزل الله قوله خبرًا عن إبراهيم: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. وقيل: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة"، ومعناه: إلا من بعد موعدة، كما يقال: "ما كان هذا الأمر إلا عن سبب كذا"، بمعنى: من بعد ذلك السبب، أو من أجله. فكذا قاله: "إلا عن موعدة"، من أجل موعدة وبعدها.

قال أبو جعفر: وقد دللنا على أن معنى "الاستغفار": مسألة العبد ربّه غفر الذنوب. وإذا كان

ذلك كذلك، وكانت مسألة العبد ربّه ذلك قد تكون في الصلاة وفي غير الصلاة، لم يكن أحد القولين اللذين ذكرنا فاسدًا، لأن الله عمّ بالنهاي عن الاستغفار للمشرك، بعد ما تبين له أنه من أصحاب الجحيم، ولم يخصص عن ذلك حالاً أباح فيها الاستغفار له.

وأما قوله: "من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم"، فإن معناه: ما قد بينت، من أنه: من بعد ما يعلمون بموته كافراً أنه من أهل النار.

وقيل: "أصحاب الجحيم"، لأنهم سكانها وأهلها الكائنون فيها، كما يقال لسكان الدار: "هؤلاء أصحاب هذه الدار"، بمعنى: سكانها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: "فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه".

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول الله، وهو خبره عن إبراهيم أنه لما تبين له أن أباه لله عدو، يبرأ منه، وذلك حال علمه ويقينه أنه لله عدو، وهو به مشرك، وهو حال موته على شركه.

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في "الأوّاه". قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي قاله عبد الله بن مسعود،: أنه الدعاء. وأصله من "التأوّه"، وهو التضرع والمسألة بالحزن والإشفاق،

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما كان الله ليقضي عليكم، في استغفاركم لموتاكم المشركين، بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهاي عنه، فتتركوا الانتهاء عنه. فأما قبل أن يبين لكم كراهية ذلك بالنهاي عنه، ثم تعدوا نبيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه "إن الله بكل شيء عليم"، يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم من الاستغفار لموتاكم المشركين، من الجزع على ما سلف منكم من الاستغفار لهم قبل تقدمه إليكم بالنهاي عنه، وبغير ذلك من سرائر أموركم وأمور عباده وظواهرها، فبين لكم حلمه في ذلك عليكم، ليضع عنكم ثقل الوجد بذلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الله، أيها الناس له سلطان السماوات والأرض وملكهما، وكل من دونه من الملوك فعيده ومماليكه، بيده حياتهم

وموتهم، يحيي من يشاء منهم، ويميت من يشاء منهم، فلا تجزعوا، أيها المؤمنون، من قتال من كفر بي من الملوك، ملوك الروم كانوا أو ملوك فارس والحبشة، أو غيرهم، واغزوهم وجاهدوهم في طاعتي، فإني المعز من أشاء منهم ومنكم، والمذل من أشاء. وهذا حص من الله جل ثناؤه المؤمنين على قتال كل من كفر به من المماليك، وإغراء منه لهم بحربهم.

وقوله: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾، يقول: وما لكم من أحد هو لكم حليف من دون الله يظاھركم عليه، إن أنتم خالفتهم أمر الله فعاقبكم على خلافكم أمره، يستنقذكم من عقابه ﴿ولا نصير﴾، ينصركم منه إن أراد بكم سوءاً. يقول: فبالله فثقوا، وإياه فارهبوا، وجاهدوا في سبيله من كفر به، فإنه قد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأن لكم الجنة، تقاتلون في سبيله فتقتلون وتقتلون.

القول في تأويل قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته، نبيه محمداً ﷺ، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه ﴿ثم تاب عليهم﴾، يقول: ثم رزقهم جل ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾، يقول: إن ربكم بالذين خالط قلوبهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم ﴿رحيم﴾، أن يهلكهم، فينزعه منهم الإيمان بعد ما قد أبلوا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب رحمة الله عليه في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتبس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيه، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع لنا! قال: تحب ذلك؟ قال: نعم! فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلت، ثم سكبت، فمألوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدھا، جاوزت العسكر

القول في تأويل قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٨) _ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾، وهؤلاء الثلاثة الذين وصفهم الله في هذه الآية بما وصفهم به فيما قيل، هم الآخرون الذين قال جل ثناؤه: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ١٠٦]، فتاب عليهم عز ذكره وتفضل عليهم.

وقد مضى ذكر من قال ذلك من أهل التأويل، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذا: ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفهم الله عن التوبة، فأرجأهم عَمَّنْ تاب عليه ممن تخلف عن رسول الله ﷺ، كما جاء عن عكرمة وقتادة

﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾، يقول: بسعتها، غمًّا وندمًا على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾، بما نالهم من الوجد والكرب بذلك ﴿وظنوا أن لا ملجأ﴾، يقول: وأيقنوا بقلوبهم أن لا شيء لهم يلجأون إليه مما نزل بهم من أمر الله من البلاء، _ بتخلفهم خلاف رسول الله ﷺ، ينجيهم من كرب، ولا مما يحذرون من عذاب الله، إلا الله، ثم رزقهم الإنابة إلى طاعته، والرجوع إلى ما يرضيه عنهم، لينبئوا إليه، ويرجعوا إلى طاعته والانتهاة إلى أمره ونهيه ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾، يقول: إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحبَّ توفيقه منهم لما يرضيه عنه ﴿الرحيم﴾، بهم، أن يعاقبهم بعد التوبة، أو يخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ولا يتوب عليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كالذي جاء، عن جابر في قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، قال: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار. وكما جاء _ عن ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيهِ حين عَمِيَ قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها. فكان من خبري حين تخلفت عن النبي ﷺ في غزوة تبوك،

أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها

راحتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة. فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوِز، واستقبل عدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع النبي ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظٌ يريد بذلك: الديوان قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيب إلا يظن أن ذلك سيخفى، ما لم ينزل فيه وحْيٌ من الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليهما أصغرُ. فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، [فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: "أنا قادر على ذلك إذا أردت!"]، فلم يزل ذلك يتمادى بي، حتى استمرَّ بالناس الجدُّ. فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل ذلك يتمادى [بي]، حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت، فلم يُقدَّر ذلك لي. فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج النبي ﷺ يحزنني آتِي لا أرى لي أسوةً إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه، والنظر في عظميه! فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً! فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك، رأى رجلاً مبيّضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة! فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدَّق بصاع التمر، فلمزه المنافقون. قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرنى بئِي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: "بم أخرج من سَخَطه غداً؟" وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: "إن رسول الله ﷺ قد أظَلَّ قادماً!"، زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكّل سرائرهم إلى الله. حتى جئتُ، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال! فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سَخَطه بعددٍ، لقد أعطيتُ جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكنَّ الله أن يُسَخِّطَك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي عُذر! والله ما كنت قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدَّق، قم حتى يقضي الله فيك! فقممت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني وقالوا: والله ما

علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا! لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك! قال: فوالله ما زالوا يؤثبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي! قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالاً مثلاً ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه. قال: فاجتبتنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبيكان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: "هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟"، ثم أصلي معه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام! فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت. قال: فعُدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم! ففاضت عينا، وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا بنبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له، حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته، فإذا فيه: "أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضیعة، فالحق بنا نؤاسك". قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء!! فتأملت به التور فسجرت به. حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبت الوحي، إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال فقلت: أطلقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها فلا تقربها. قال: وأرسل إلي صاحبي بذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقني بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدمه؟ فقال: لا ولكن لا يقربنك! قالت فقلت: إنه والله ما به حركة إلى شيء! ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا! قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه؟ قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول لي إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب!

فلبث بعد ذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهي رسول الله ﷺ عن كلامنا. قال: ثم صليت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منّا، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعتُ صوت صارخ أوفى على جبل سلْع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر! قال: فخررت ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فرجٌ. قال: وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يشروننا، فذهب قبْل صاحبي مبشرون، وركض رجل إليّ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم قبلي وأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرنِي، نزعَتْ له ثوبِي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ. فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفوني بالتوبة ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني، وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك! فقلت: أمن عندك، يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله! وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. فقال رسول الله ﷺ: أمسك بعض مالك، فهو خيرٌ لك! قال فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخير. وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت! قال: فوالله ما علمت أحداً من المسلمين ابتلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، أحسن مما ابتلاني، والله ما تعمّدت كذباً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني أرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأُنزل الله: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾، حتى بلغ: ﴿وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا﴾، إلى: ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾. قال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبت، فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوا، حين أنزل الوحي، شراً ما قال لأحد: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾، إلى قوله: ﴿لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال كعب: خُلّفنا، أيها الثلاثة، عن أمر أولئك الذين قبْل رسول الله ﷺ توبتهم حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، وليس الذي ذكر الله مما خُلّفنا

عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

القول في تاويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين، معرفهم سبيل النجاة من عقابه، والخلاص من أليم عذابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، بالله ورسوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وراقبوه بأداء فرائضه، وتجنب حدوده ﴿وَكُونُوا﴾، في الدنيا، من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، في الجنة. يعني: مع من صدق الله الإيمان به، فحقق قوله بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذب قيلهم فعلهم. وإنما معنى الكلام: وكونوا مع الصادقين في الآخرة باتقاء الله في الدنيا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

القول في تاويل قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِك بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: لم يكن لأهل المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ومن حولهم من الأعراب، سَكَن البوادي، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهم من أهل الإيمان به، أن يتخلفوا في أهاليهم ولا دار لهم، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صحبته في سفره والجهاد معه، ومعاونته على ما يعاينه في غزوه ذلك. يقول: إنه لم يكن لهم هذا ﴿بأنهم﴾، من أجل أنهم، وبسبب أنهم ﴿لا يصيبهم﴾، في سفرهم إذا كانوا معه ﴿ظمأ﴾، وهو العطش ﴿ولا نصب﴾، يقول: ولا تعب ﴿ولا مخمصة﴾ في سبيل الله، يعني: ولا مجاعة في إقامة دين الله ونصرته، وهذم منار الكفر ﴿ولا يطئون موطئًا﴾، يعني: أرضًا، يقول: ولا يطأون أرضًا ﴿يغيب الكفار﴾، وطوهم إياها ﴿ولا ينالون من عدو نيلًا﴾، يقول: ولا يصيبون من عدو الله وعدوهم شيئًا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم إلا كتب الله لهم بذلك كله، ثواب عمل صالح قد ارتضاه ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾، يقول: إن الله لا يدع محسنًا من خلقه أحسن في عمله فأطاعه فيما أمره، وانتهى عما نهاه عنه، أن يجازيه على إحسانه، ويشبهه على صالح عمله. فلذلك كتب لمن فعل ذلك من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ما ذكر في هذه الآية، الثواب على كل ما فعل، فلم يضيع له أجر فعله ذلك. وقد اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي، أن الله عنى بها الذين وصفهم بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾، [التوبة: ٩٠]. ثم قال جل ثناؤه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾، الذين تخلفوا عن

رسول الله، ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه، أن يتخلفوا خلافه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه. وذلك أن رسول الله ﷺ كان ندب في غزوته تلك كل من أطاق النهوض معه إلى الشخصوس، إلا من أذن له، أو أمره بالمقام بعده. فلم يكن لمن قدر على الشخصوس التخلف. فعدد جل ثناؤه من تخلف منهم، فأظهر نفاق من كان تخلفه منهم نفاقاً، وعذر من كان تخلفه عُذراً، وتاب على من كان تخلفه تفریطاً من غير شك ولا ارتياب في أمر الله، إذ تاب من خطأ ما كان منه من الفعل. فأما التخلف عنه في حال استغنائه، فلم يكن محظوراً، إذا لم يكن عن كراهية منه ﷺ ذلك. وكذلك حكم المسلمين اليوم إزاء إمامهم. فليس بفرض على جميعهم النهوض معه، إلا في حال حاجته إليهم، لما لا بد للإسلام وأهله من حضورهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذ طاعته. وإذا كان ذلك معنى الآية، لم تكن إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخة للأخرى، إذ لم تكن إحداها نافية حكم الأخرى من كل وجهه، ولا جاء خبر يوجب الحجة بأن إحداها ناسخة للأخرى. وقد بينا معنى "المخمصة"، وأنها المجاعة بشواهد، وذكرنا الرواية عمن قال ذلك في موضع غير هذا، فأغنى ذلك عن إعادته ههنا. وأما "النيل"، فهو مصدر من قول القائل: "نالني ينالني"، و"نلت الشيء فهو منيل". وذلك إذا كنت تناله بيدك،

القول في تأويل قوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ"، وسائر ما ذكر ﴿ولا ينالون من عدوٍ نبلاً﴾ ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾، في سبيل الله ﴿ولا يقطعون﴾، مع رسول الله في غزوه ﴿واديًا﴾ إلا كتب لهم أجر عملهم ذلك، جزاء لهم عليه، كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم، كما جاء عن قتادة

القول في تأويل قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولم يكن المؤمنون لينفروا جميعاً.

وقد بينا معنى "الكافة" بشواهد، وأقوال أهل التأويل فيه، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع. ثم اختلف أهل التأويل في المعنى الذي عناه الله بهذه الآية، وما "النفر"، الذي كرهه لجميع المؤمنين؟ قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: تأويله: وما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ وحده، وأن الله نهي بهذه الآية المؤمنين به أن يخرجوا في غزو وجهاد وغير ذلك من أمورهم، ويدعوا رسول الله ﷺ وحيداً. ولكن عليهم

إِذَا سَرَى رَسُولُ اللَّهِ سَرِيَّةً أَنْ يَنْفِرَ مَعَهَا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ وَهِيَ الْفِرْقَةُ ﴿طَائِفَةٌ﴾، وَذَلِكَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى مَا بَلَغَ مِنَ الْعَدَدِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، يَقُولُ: فَهَلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ؟ وَهَذَا إِلَى هَاهُنَا، عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ الَّتِي رَوَيْتُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَوْلُ الضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا: هَذَا الْقَوْلُ أَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ حَظَرَ التَّخَلُّفِ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَدِينَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمِنْ الْأَعْرَابِ، لِغَيْرِ عَذْرِ يُعْذَرُونَ بِهِ، إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ لَغْزْوٍ وَجِهَادٍ عَدُوٍّ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾، ثُمَّ عَقِبَ ذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾، فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ إِذْ كَانَ قَدْ عَرَّفَهُمْ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلُهَا الْإِلَازِمَ لَهُمْ مِنْ فَرَضِ النَّفْرِ، وَالْمَبَاحَ لَهُمْ مِنْ تَرْكِهِ فِي حَالِ غَزْوِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَشَخْصِهِ عَنْ مَدِينَتِهِ لِجِهَادٍ عَدُوٍّ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ لَا يَسْعَهُمُ التَّخَلُّفُ خِلَافَهُ إِلَّا لِعَذْرِ، بَعْدَ اسْتِنْهَاضِهِ بَعْضَهُمْ وَتَخْلِيفِهِ بَعْضَهُمْ أَنْ يَكُونَ عَقِيبَ تَعْرِيفِهِمْ ذَلِكَ، تَعْرِيفُهُمُ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَدِينَتِهِ، وَإِشْخَاصَ غَيْرِهِ عَنْهَا، كَمَا كَانَ الْإِبْتِدَاءُ بِتَعْرِيفِهِمُ الْوَاجِبَ عِنْدَ شَخْصِهِ وَتَخْلِيفِهِ بَعْضَهُمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾، فَإِنَّ أَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: لِيَتَفَقَّهُوا الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ بِمَا تَعَايَنَ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ أَهْلَ دِينِهِ وَأَصْحَابَ رَسُولِهِ، عَلَى أَهْلِ عِدَاوَتِهِ وَالْكَفْرِ بِهِ، فَيَفْقَهُ بِذَلِكَ مِنْ مُعَايِنَتِهِ حَقِيقَةَ عِلْمِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَظُهُورِهِ عَلَى الْأَدْيَانِ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فَقْهَهُ، وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ فَيَحْذَرُوهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ مِثْلَ الَّذِي نَزَلَ بِمَنْ شَاهَدُوا وَعَايَنُوا مِمَّنْ ظَفَرَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ إِذَا هُمْ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْ غَزْوِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، يَقُولُ: لَعَلَّ قَوْمَهُمْ، إِذَا هُمْ حَذَرُوهُمْ مَا عَايَنُوا مِنْ ذَلِكَ، يَحْذَرُونَ فَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، حَذَرًا أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِالَّذِينَ أَخْبَرُوا خَبَرَهُمْ.

القول في تأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، قاتلوا من وليكم من الكفار دون من بعد منهم. يقول لهم: ابدأوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا، دون الأبعد فالأبعد. وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ، الروم، لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ، والشام كانت أقرب إلى المدينة من العراق. فأما بعد أن فتح الله على المؤمنين البلاد، فإن الفرض على أهل كل ناحية، قتال من وليهم من الأعداء دون الأبعد منهم، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى من نواحي

بلاد الإسلام، فإن اضطروا إليهم، لزمهم عونهم ونصرهم، لأن المسلمين يدُّ على من سواهم. ولصحة كون ذلك كذلك، تأوّل كلُّ من تأوّل هذه الآية، أنّ معناها إيجاب الفرض على أهل كل ناحية قتال من وليهم من الأعداء.

وأما قوله: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غُلْظَةً﴾، فإن معناه: وليجد هؤلاء الكفار الذين تقاتلونهم ﴿فِيكُمْ﴾، أي: منكم شدة عليهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، يقول: وأيقنوا، عند قتالكم إياهم، أن الله معكم، وهو ناصركم عليهم، فإن اتقيتم الله وخفتموه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، فإن الله ناصر من اتقاه ومعينه.

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه محمد ﷺ، فمن هؤلاء المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة من يقول: أيها الناس، أيكم زادته هذه السورة إيمانًا؟ يقول: تصديقًا بالله وبآياته. يقول الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، من الذين قيل لهم ذلك ﴿فزادتهم﴾، السورة التي أنزلت ﴿إيمانًا﴾، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

القول في تأويل قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، نفاق وشك في دين الله، فإن السورة التي أنزلت ﴿زادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾، وذلك أنهم شكوا في أنها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدقوا، فكان ذلك زيادة شكٍّ حادثٍ في تنزيل الله، لزمهم الإيمان به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة تننٍ من أفعالهم، إلى ما سلف منهم نظيره من التنن والنفاق. وذلك معنى قوله: ﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾ ﴿وماتوا﴾، يعني: هؤلاء المنافقين أنهم هلكوا ﴿وهم كافرون﴾، يعني: وهم كافرون بالله وآياته.

القول في تأويل قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦) قال أبو جعفر تأويل الكلام على هذه القراءة الصحيحة: أو لا يرى هؤلاء المنافقون أن الله يختبرهم في كل عام مرة أو مرتين، بمعنى أنه يختبرهم في بعض الأعوام مرة، وفي بعضها مرتين ﴿ثم لا يتوبون﴾، يقول: ثم هم مع البلاء الذي يحل بهم من الله، والاختبار الذي يعرض لهم، لا ينيبون من نفاقهم، ولا يتوبون من كفرهم، ولا هم يذكرون بما يرون من حجب الله ويعاينون من آياته، فيتعظوا بها، ولكنهم مصرّون على نفاقهم؟

واختلف أهل التأويل في معنى "الفتنة" التي ذكر الله في هذا الموضع أن هؤلاء المنافقين يفتنون بها.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله عَجَبَ عباده المؤمنين من هؤلاء المنافقين، ووبَّخَ المنافقين في أنفسهم بقلَّةِ تذكُّرهم، وسوء تنبُّههم لمواعظ الله التي يعظُّهم بها. وجائز أن تكون تلك المواعظُ الشدائدُ التي ينزلها بهم من الجوع والقمط وجائز أن تكون ما يريهم من نُصرةِ رسوله على أهل الكفر به، ويرزقه من إظهار كلمته على كلمتهم وجائز أن تكون ما يظهر للمسلمين من نفاقهم وخبث سرائرهم، بركونهم إلى ما يسمعون من أراجيف المشركين برسول الله ﷺ وأصحابه ولا خبر يوجب صحة بعض ذلك دون بعض، من الوجه الذي يجب التسليم له. ولا قول في ذلك أولى بالصواب من التسليم لظاهر قول الله وهو: أو لا يرون أنهم يختبرون في كل عام مرة أو مرتين، بما يكون زاجراً لهم، ثم لا ينزجرون ولا يتعظون؟

القول في تأويل قوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾، من القرآن، فيها عيبٌ هؤلاء المنافقين الذين وصفَ جل ثناؤه صفتهم في هذه السورة، وهم عند رسول الله ﷺ ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾، فتناظروا ﴿هل يراكم من أحد﴾، إن تكلمتم أو تناجيتهم بمعايب القوم يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ، ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معانيهم. ثم ابتداءً جل ثناؤه قوله: ﴿صرف الله قلوبهم﴾، فقال: صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾، يقول: فعل الله بهم هذا الخذلان، وصرف قلوبهم عن الخيرات، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه، استكباراً، ونفاقاً. واختلف أهل العربية في الجالب حرف الاستفهام.

القول في تأويل قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۖ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للعرب: ﴿لقد جاءكم﴾، أيها القوم، رسول الله إليكم ﴿من أنفسكم﴾، تعرفونه، لا من غيركم، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾، أي: عزيز عليه عنتكم، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى ﴿حريص عليكم﴾، يقول: حريص على هُدَى ضلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق ﴿بالمؤمنين رءوف﴾، أي رفيق ﴿رحيم﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة وجعفر بن محمد

وأما قوله: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول ابن عباس. وذلك أن الله عمَّ بالخبر

عن نبي الله أنه عزيز عليه ما عنت قومه، ولم يخصص أهل الإيمان به. فكان ﴿﴾ [كما جاء الخبر من] الله به، عزيز عليه عنت جمعهم.

وأما "ما" التي في قوله: ﴿ما عنتكم﴾، فإنه رفع بقوله: ﴿عزيز عليه﴾، لأن معنى الكلام ما ذكرت: عزيز عليه عنتكم.

وأما قوله: ﴿حريص عليكم﴾، فإن معناه: ما قد بينت، وهو قول أهل التأويل. كما جاء عن قتادة: ﴿حريص عليكم﴾، حريص على ضالهم أن يهديه الله.

القول في تأويل قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فإن تولي، يا محمد، هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى ﴿فقل حسبي الله﴾، يكفيني ربي ﴿لا إله إلا هو﴾، لا معبود سواه ﴿عليه توكلت﴾، وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه وإلى نصره استندت، فإنه ناصري ومعيني على من خالفني وتولى عني منكم ومن غيركم من الناس ﴿وهو رب العرش العظيم﴾، الذي يملك كل ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده. وإنما عني بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم، الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفي ملكه وسلطانه، لأن "العرش العظيم"، إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه "ذو العرش" دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دونه في سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه.

آخر تفسير سورة التوبة



تفسير سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿الر﴾ قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في ذلك.

قال أبو جعفر: وقد ذكرنا اختلاف الناس، وما إليه ذهب كل قائل في الذي قال فيه وما الصواب لدينا من القول في ذلك في نظيره، وذلك في أول "سورة البقرة"، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ قال أبو جعفر: اختلف في تأويل ذلك.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من تأوله: "هذه آيات القرآن"، ووجه معنى ﴿تلك﴾ إلى معنى "هذه"، وقد بينا وجه توجيه ﴿تلك﴾ إلى هذا المعنى في "سورة البقرة"، بما أغنى عن إعادته. و ﴿الآيات﴾، الأعلام و ﴿الكتاب﴾، اسم من أسماء القرآن، وقد بينا كل ذلك فيما مضى قبل. ومعنى ﴿الحكيم﴾، في هذا الموضع، "المحكم"، وقد بينا ذلك في غير موضع من الكتاب. فمعناه إذاً: تلك آيات الكتاب المحكم، الذي أحكمه الله وبينه لعباده، كما قال جل ثناؤه: ﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أكان عجباً للناس إيحائنا القرآن على رجل منهم بإنذارهم عقاب الله على معاصيه، كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحى من قبله إلى مثله من البشر، فتعجبوا من وحيه إليه. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وابن جريج.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: أما كان عجباً للناس أن أوحينا إلى رجل منهم: أن أنذر الناس، وأن بشر الذين آمنوا بالله ورسوله: ﴿أن لهم قدم صدق﴾، عطف على ﴿أنذر﴾. واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿قدم صدق﴾. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب.

قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذاً: وبشر الذين آمنوا أن لهم تقدمة خير من الأعمال الصالحة عند ربهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾: قال أبو جعفر: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾، بمعنى: إن هذا الذي جئنا به يعنون القرآن لسحر مبين.

وفي الكلام محذوف، استغني بدلالة ما ذكر عما ترك ذكره، وهو: "فلما بشرهم وأنذرهم وتلا عليهم الوحي" قال الكافرون: إن هذا الذي جاءنا به لسحر مبين. قال أبو جعفر: فتأويل الكلام إذا: أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم: أن أنذر الناس، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم؟ فلما أتاهم بوحي الله وتلاه عليهم، قال المنكرون توحيد الله ورسالة رسوله: إن هذا الذي جاءنا به محمد لسحر مبين أي: بين لكم عنه أنه مبطل فيما يدعيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الذي له عبادة كل شيء، ولا تبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير، ثم استوى على عرشه مدبراً للأمر، وقاضياً في خلقه ما أحب، لا يضاهه في قضائه أحد، ولا يتعقب تدبيره متعقب، ولا يدخل أموره خلل. ﴿ما من شافعٍ إلا من بعد إذنه﴾، يقول: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة في أحد، إلا من بعد أن يأذن في الشفاعة "ذلكم الله ربكم"، يقول جل جلاله: هذا الذي هذه صفته، سيّدكم ومولاكم، لا من لا يسمع ولا يبصر ولا يدبر ولا يقضي من الآلهة والأوثان ﴿فاعبدوه﴾ يقول: فاعبدوا ربكم الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهية والربوبية، بالذلة منكم له، دون أوثانكم وسائر ما تشركون معه في العبادة ﴿أفلا تذكرون﴾، يقول: أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنبهون إلى الإذعان بتوحيد ربكم وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إلى ربكم الذي صفته ما وصف جل ثناؤه في الآية قبل هذه، معادكم، أيها الناس، يوم القيامة جميعاً. ﴿وعد الله حقاً﴾ فأخرج ﴿وعد الله﴾ مصدراً من قوله: ﴿إليه مرجعكم﴾، لأنه فيه معنى "الوعد"، ومعناه: يعدكم الله أن يحييكم بعد مماتكم وعداً حقاً، فلذلك نصب ﴿وعد الله حقاً﴾. إنه يبدأ لخلق ثم يعيده. يقول تعالى ذكره: إن ربكم يبدأ إنشاء الخلق وإحداثه وإيجاده ثم يعيده، يقول: ثم يعيده فيوجد حياً كهيئته يوم ابتداءه، بعد فئائه وبلائه. وقوله: ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾، يقول: ثم يعيده من بعد مماته كهيئته قبل مماته عند بعثه من قبره ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ ليشب من صدق الله ورسوله وعملوا ما أمرهم الله به من الأعمال، واجتنبوا ما نهاهم عنه، على أعمالهم الحسنة ﴿بالقسط﴾ يقول: ليجزيهم على الحسن من أعمالهم التي عملوها في الدنيا الحسن من الثواب،

والصالح من الجزاء في الآخرة وذلك هو "القسط"، و"القسط" العدل والإنصاف، كما جاء عن مجاهد وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾، فإنه جل ثناؤه ابتدأ الخبر عما أعد الله للذين كفروا من العذاب، وفيه معنى العطف على الأول. لأنه تعالى ذكره عمّ بالخبر عن معاد جميعهم، كفارهم ومؤمنهم، إليه. ثم أخبر أن إعادتهم ليجزي كل فريق بما عمل المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة. ولكن لما كان قد تقدم الخبر المستأنف عما أعد للذين كفروا من العذاب، ما يدل سامع ذلك على المراد، ابتدأ الخبر، والمعنى العطف فقال: والذين جحدوا الله ورسوله وكذبوا بآيات الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾ في جهنم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وذلك شراب قد أغلي واشتدّ حره، حتى إنه فيما ذكر عن النبي ﷺ ليتساقط من أحدهم حين يديه منه فروة رأسه، وكما وصفه جل ثناؤه: ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾، [الكهف: ٢٩]. يعني بـ "الحميم"، الماء المسخن.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً﴾، بالنهار ﴿والقمر نوراً﴾ بالليل. ومعنى ذلك: هو الذي أضاء الشمس وأنار القمر ﴿وقدره منازل﴾، يقول: قضاه فسواه منازل، لا يجاوزها ولا يقصر دونها، على حال واحدة أبداً. وقوله: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾، يقول: وقدر ذلك منازل ﴿لتعلموا﴾، أنتم أيها الناس ﴿عدد السنين﴾، دخول ما يدخل منها، أو انقضاء ما يستقبل منها، وحسابها يقول: وحساب أوقات السنين، وعدد أيامها، وحساب ساعات أيامها ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾، يقول جل ثناؤه: لم يخلق الله الشمس والقمر ومنازلهما إلا بالحق. يقول الحق تعالى ذكره: خلقت ذلك كله بحق وحدي، بغير عون ولا شريك ﴿يفصل الآيات﴾ يقول: يبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، إذا تدبروها، حقيقة وحدانية الله وصحة ما يدعوهم إليه محمد ﷺ، من خلع الأنداد، والبراءة من الأوثان.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، منبها عباده على موضع الدلالة على ربوبيته، وأنه خالق كل ما دونه: إن في اعتقاب الليل النهار، واعتقاب النهار الليل، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خلق الله في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وفي الأرض من عجائب الخلق الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شيء ﴿لآيات﴾، يقول: لأدلة وحججاً وأعلاماً واضحة ﴿لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ الله، فيخافون وعيده ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين لا يخافون لقاءنا يوم القيامة، فهم لذلك مكذبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين

الدنيا وزخارفها، راضون بها عوضاً من الآخرة، مطمئنين إليها ساكنين والذين هم عن آيات الله وهي أدلته على وحدانيته، وحججه على عباده، في إخلاص العبادة له ﴿غافلون﴾، معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلّتهم عليه، ويعرفوا بها بطول ما هم عليه مقيمون ﴿أولئك مأواهم النار﴾، يقول جل ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صفتهم ﴿مأواهم﴾، مصيرها إلى النار نار جهنم في الآخرة ﴿بما كانوا يكسبون﴾، في الدنيا من الآثام والأجرام، ويَجْتَرحون من السيئات. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وقتادة

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، إن الذين صدّقوا الله ورسوله ﴿وعملوا الصالحات﴾، وذلك العمل بطاعة الله والانتهاى إلى أمره ﴿يهدىهم ربهم بإيمانهم﴾، يقول: يرشدهم ربهم بإيمانهم به إلى الجنة، كما جاء عن قتادة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يهدىهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: إن المؤمن إذا خرج من قبره صُور له عمله في صورة حسنة فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ صدق! فيقول: أنا عملك! فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة. وأما الكافر إذا خرج من قبره صُور له عمله في صورة سيئة وشارة سيئة فيقول: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ سوء! فيقول: أنا عملك! فينطلق به حتى يدخله النار. وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾، يقول: تجري من تحت هؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم، أنهار الجنة ﴿في جنات النعيم﴾، يقول في بساتين النعيم، الذي نعم الله به أهل طاعته والإيمان به.

وأما قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾، فإن معناه: دعواؤهم فيها: سبحانك اللهم كما جاء عن بن جريج وقتادة وأما قوله: ﴿سبحانك اللهم﴾، فإن معناه: تنزيها لك، يا رب، مما أضاف إليك أهل الشرك بك، من الكذب عليك والفرية. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله ﷺ عن "سبحان الله"، قال: إبراء الله عن سوء. ﴿وتحييتهم﴾، يقول: وتحية بعضهم بعضاً ﴿فيها سلام﴾، أي: سَلِمَتْ وأَمِنَتْ مما ابتلي به أهل النار. وقوله: ﴿وآخر دعواهم﴾، يقول: وآخر دعائهم ﴿أن الحمد لله رب العالمين﴾، يقول: وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين، ولذلك خفت "أن" ولم تشدد لأنه أريد بها الحكاية.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَّلْنَاهُمْ أَجَلُهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر، وذلك فيما عليهم مضرة في نفس أو مال ﴿استعجالهم بالخير﴾، يقول: كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لفضي إليهم أجلهم﴾، يقول: لهلكوا،

وَعُجِّلَ لَهُمُ الْمَوْتُ، وَهُوَ الْأَجَلُ. وَعَنِي بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَضَى﴾، لَفَرَّغَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَنُبِّذَ إِلَيْهِمْ، ﴿فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، يَقُولُ: فَندَعَ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ عِقَابَنَا، وَلَا يَوْقِنُونَ بِالْبَعْثِ وَلَا بِالشُّعُورِ، ﴿فِي طَغْيَانِهِمْ﴾، يَقُولُ: فِي تَمَرُّدِهِمْ وَعَتْوَاهُمْ، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يَعْنِي: يَتَرَدَّدُونَ.

وإنما أخبر جل ثناؤه عن هؤلاء الكفرة بالبعث بما أخبر به عنهم، من طغيانهم وترددهم فيه عند تعجيله إجابة دعائهم في الشرِّ لو استجاب لهم، أن ذلك كان يدعوهم إلى التقرب إلى الوثن الذي يشرك به أحدهم، أو يضيف ذلك إلى أنه من فعله. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وقتادة

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَاَ لِحُجْنِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا أصاب الإنسان الشدة والجهد ﴿دعانا لحجنيه﴾، يقول: استغاث بنا في كشف ذلك عنه ﴿لحجنيه﴾، يعني مضطجعا لحجنيه. ﴿أو قاعدًا أو قائمًا﴾ بالحال التي يكون بها عند نزول ذلك الضرِّ به ﴿فلما كشفنا عنه ضره﴾، يقول: فلما فرجنا عنه الجهد الذي أصابه ﴿مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، يقول: استمرَّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك الشكر لربه الذي فرَّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء حين استعاذ به، وعاد للشرك ودعوى الآلهة والأوثان أربابًا معه. يقول تعالى ذكره: ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾، يقول: كما زين لهذا الإنسان الذي وصفنا صفته، استمراؤه على كفره بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، كذلك زين للذين أسرفوا في الكذب على الله وعلى أنبيائه، فتجاوزوا في القول فيهم إلى غير ما أذن الله لهم به، ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك وبه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن بن جريج

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد أهلكنا الأمم التي كذبت رسل الله من قبلكم أيها المشركون بربهم ﴿لما ظلموا﴾، يقول: لما أشركوا وخالفوا أمر الله ونهيه ﴿وجاءتهم رسلهم﴾ من عند الله، ﴿بالبينات﴾، وهي الآيات والحجج التي تبين عن صدق من جاء بها. ومعنى الكلام: وجاءتهم رسلهم بالآيات البينات أنها حق ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يقول: فلم تكن هذه الأمم التي أهلكناها ليؤمنوا برسولهم ويصدقوهم إلى ما دعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾، يقول تعالى ذكره: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم، أيها المشركون، بظلمهم أنفسهم، وتكذيبهم رسلهم، وردَّهم نصيحتهم، كذلك أفعل بكم فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمدًا ﷺ، وظلمكم أنفسكم بشرككم بربكم، إن أنتم لم تنبؤوا وتنبؤوا إلى الله من شرككم فإن من ثواب الكافر بي على كفره عندي، أن أهلكه بسخطي في الدنيا، وأورده النار في الآخرة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر يقول تعالى ذكره: ثم جعلناكم، أيها الناس، خلائف من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكتناهم لما ظلموا، تخلفونهم في الأرض، وتكونون فيها بعدهم ﴿لننظر كيف تعملون﴾، يقول: لينظر ربكم أين عملكم من عمل من هلك من قبلكم من الأمم بذنوبهم وكفرهم بربهم، تحتذون مثالهم فيه، فتستحقون من العقاب ما استحقوا، أم تخالفون سبيلهم فتؤمنون بالله ورسوله وتقرون بالبعث بعد الممات، فتستحقون من ربكم الثواب الجزيل،

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتاب الله الذي أنزلناه إليك، يا محمد ﴿بينات﴾، واضحات، على الحق دالات ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾، يقول: قال الذين لا يخافون عقابنا، ولا يوقنون بالمعاد إلينا، ولا يصدقون بالبعث، لك ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾، يقول: أو غيره ﴿قل﴾ لهم، يا محمد ﴿ما يكون لي أن أبده من تلقاء نفسي﴾، أي: من عندي. والتبديل الذي سألوه، فيما ذكر، أن يحول آية الوعيد آية وعد، وآية الوعد وعيداً والحرام حلالاً والحلال حراماً، فأمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه، وأن ذلك إلى من لا يرد حكمه، ولا يتعقب قضاؤه، وإنما هو رسول مبلّغ ومأمور مُتَّبِع. وقوله: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾، يقول: قل لهم: ما أتبع في كل ما أمركم به أيها القوم، وأنهاكم عنه، إلا ما ينزله إليّ ربي، ويأمرني به ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾، يقول: إني أخشى من الله إن خالفت أمره، وغيّرت أحكام كتابه، وبدلت وحيه، فعصيته بذلك، عذاب يوم عظيم هوّله، وذلك: يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه، معرّفه الحجة على هؤلاء المشركين الذين قالوا له: ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ ﴿قل﴾ لهم، يا محمد ﴿لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾، أي: ما تلوت هذا القرآن عليكم، أيها الناس، بأن كان لا ينزله عليّ فيأمرني بتلاوته عليكم ﴿ولا أدراكم به﴾، يقول: ولا أعلمكم به ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾ يقول: فقد مكثت فيكم أربعين سنة من قبل أن أتلوّه عليكم، ومن قبل أن يوحى إليّ ربي ﴿أفلا تعقلون﴾، أي لو كنت متحلاً ما ليس لي من القول، كنت قد انتحلته في أيام شبابي وحدثي، وقبل الوقت الذي تلوته عليكم؟ فقد كان لي اليوم، لو لم يوح إليّ وأمر بتلاوته عليكم، مندوحة عن معاداتكم، ومتّسع، في الحال التي كنت بها منكم قبل أن يوحى إليّ وأمر بتلاوته عليكم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين الذين نسبوك فيما جنتهم به من عند ربك إلى الكذب: أي خلق أشدّ تعدياً، وأوضع لقيه في غير موضعه، ممن اختلق على الله كذباً، وافتري عليه باطلاً ﴿أو كذب بآياته﴾ يعني بحججه ورسله وآيات كتابه؟ يقول له جل ثناؤه: قل لهم: ليس الذي أضفتُموني إليه بأعجب من كذبكم على ربكم، وافتراءكم عليه، وتكذيبكم بآياته ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾، يقول: إنه لا ينجح الذين اجترموا الكفر في الدنيا يوم القيامة، إذا لقوا ربهم، ولا ينالون الفلاح.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٨) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويعبد هؤلاء المشركون الذين وصف لك، يا محمد صفتهم، من دون الله الذي لا يضرهم شيئاً ولا ينفعهم، في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهة والأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، يعني: أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿قل﴾ لهم ﴿أَتَنْتَبِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، يقول: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ وذلك أن الآلهة لا تشفع لهم عند الله في السموات ولا في الأرض. وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عند الله. فقال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله: قل لهم: أتخبرون الله أن ما لا يشفع في السموات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما؟ وذلك باطل لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلم الله أن ذلك خلاف ما تقولون، وأنها لا تشفع لأحد، ولا تنفع ولا تضر ﴿سبحان الله عما يشركون﴾، يقول: تنزيهاً لله وعلوّاً عما يفعله هؤلاء المشركون، من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، وافتراءهم عليه الكذب.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما كان الناس إلا أهل دين واحد وملة واحدة فاختلَفوا في دينهم، فافترقت بهم السبل في ذلك ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾، يقول: ولولا أنه سبق من الله أنه لا يهلك قوماً إلا بعد انقضاء آجالهم "لقضي بينهم فيما فيه يختلفون" يقول: لقضي بينهم بأن يهلك أهل الباطل منهم، وينجي أهل الحق.

وقد بينا اختلاف المختلفين في معنى ذلك في "سورة البقرة"، وذلك في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾، [البقرة: ٢١٣]، وبيننا الصواب من القول فيه بشواهد، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع. كما جاء عن مجاهد

القول في تاويل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويقول هؤلاء المشركون: هلا أنزل على محمد آية من ربه يقول: علّم ودليل نعلم به أن محمداً محق فيما يقول؟ قال الله له:

﴿فقل﴾ يا محمد ﴿إنما الغيب لله﴾، أي: لا يعلم أحدٌ يفعل ذلك إلا هو جل ثناؤه، لأنه لا يعلم الغيب وهو السرُّ والخفيُّ من الأمور إلا الله، فانتظروا أيها القوم، قضاء الله بيننا، بتعجيل عقوبته للمبطل منا، وإظهاره المحقِّ عليه، إني معكم ممن ينتظر ذلك. ففعل ذلك جل ثناؤه فقضى بينهم وبينه بأن قتلهم يوم بدرٍ بالسيف.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝١٦﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا رزقنا المشركين بالله فرجًا بعد كرب، ورخاء بعد شدة أصابتهم. وقيل: عنى به المطر بعد القحط، و"الضراء": وهي الشدة، و"الرحمة": هي الفرج. يقول: ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾، استهزاء وتكذيب، كما جاء عن مجاهد وقوله: ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين المستهزئين من حججنا وأدلتنا، يا محمد ﴿الله أسرع مكرًا﴾، أي: أسرع محالًا بكم، واستدراجًا لكم وعقوبةً، من المكر في آيات الله.

﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾، يقول: إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم، أيها الناس، يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُخِيتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝١٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الله الذي يسيركم، أيها الناس، في البر على الظهر وفي البحر في الفلك ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾، وهي السفن ﴿وجرين بهم﴾ يعني: وجرت الفلك بالناس ﴿بريح طيبة﴾، في البحر ﴿وفرحوا بها﴾، يعني: وفرح ركب الفلك بالريح الطيبة التي يسرون بها. و"الهاء" في قوله: "بها" عائدة على "الريح الطيبة". ﴿جاءتها ريح عاصف﴾، يقول: جاءت الفلك ريحٌ عاصف، وهي الشديدة. ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ يقول تعالى ذكره: وجاء ركب الفلك السفينة الموج من كل مكان ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾، يقول: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحرق ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾، يقول: أخلصوا الدعاء لله هنالك، دون أوثانهم وألهتهم، وكان مفزعهم حينئذٍ إلى الله دونها، كما جاء عن قتادة وابوعبيدة ﴿لئن أُخِيتنا﴾ من هذه الشدة التي نحن فيها ﴿لنكونن من الشاكرين﴾، لك على نعمك، وتخليصك إيانا مما نحن فيه، بإخلاصنا العبادة لك، وإفراد الطاعة دون الآلهة والأنداد وجواب قوله: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ ﴿وجاءتها ريح عاصف﴾. وأما جواب قوله: ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ ف ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا في البحر أنهم أحيط بهم، من الجهد الذي كانوا فيه، أحلفوا الله ما وعدوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أذن الله لهم

فيه، من الكفر به، والعمل بمعاصيه على ظهرها. يقول الله: يا أيها الناس، إنما اعتداؤكم الذي تعتدون على أنفسكم، وإياها تظلمون. وهذا الذي أنتم فيه ﴿متاع الحياة الدنيا﴾، يقول: ذلك بلاغ تبلغون به في عاجل دنياكم. وقوله: ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ يقول: ثم إلينا بعد ذلك معادكم ومصيركم، وذلك بعد الممات يقول: فنخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله، ونجازيكم على أعمالكم التي سلفت منكم في الدنيا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زيتتها وأموالها، مع ما قد وُكِّلَ بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، كمثل ماء أنزلناه من السماء، يقول: كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض ﴿فاختلط به نبات الأرض﴾، يقول: فنبت بذلك المطر أنواع من النبات، مختلط بعضها ببعض كما جاء عن ابن عباس

وقوله: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ يعني: ظهر حسننها وبهاؤها ﴿وازينت﴾، يقول: وتزينت ﴿وظن أهلها﴾، يعني: أهل الأرض ﴿أنهم قادرون عليها﴾، يعني: على ما أنبتت. وخرج الخبر عن "الأرض" والمعنى للنبات، إذا كان مفهوماً بالخطاب ما عني به.

وقوله: ﴿أتاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، يقول: جاء الأرض "أمرنا"، يعني: قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إما ليلاً وإما نهاراً ﴿فجعلناها﴾، يقول: فجعلنا ما عليها ﴿حصيداً﴾ يعني: مقطوعة مقلوعة من أصولها. وإنما هي "محصودة" صرفت إلى "حصيد".

﴿كأن لم تغن بالأمس﴾، يقول: كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس. يقول: فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسننها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتاً على ظهرها.

يقول الله جل ثناؤها: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾، يقول: كما بينا لكم أيها الناس، مثل الدنيا وعرفناكم حكمها وأمرها، كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ونظر. وخص به أهل الفكر، لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لعباده: أيها الناس، لا تطلبوا الدنيا وزينتها، فإن مصيرها إلى فناء وزوال، كما مصير النبات الذي ضربه الله لها مثلاً إلى هلاك وبوار، ولكن اطلبوا الآخرة الباقية، ولها فاعملوا، وما عند الله فالتمسوا بطاعته، فإن الله يدعوكم إلى داره، وهي

جناته التي أعدّها لأوليائه، تسلموا من الهموم والأحزان فيها، وتأمّنوا من فناء ما فيها من النعيم والكرامة التي أعدّها لمن دخلها، وهو يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سبباً للوصول إلى رضاه، وطريقاً لمن ركه وسلك فيه إلى جنّانه وكرامته، كما جاء عن أبي قلابه، عن النبي ﷺ قال، قيل لي: "لنم عينك، وليعقل قلبك، ولتسمع أذنك" فنامت عيني، وعقل قلبي، وسمعت أذني. ثم قيل: "سيدّ بني داراً، ثم صنع مأدبة، ثم أرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السيد. ومن لم يجب الداعي، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، ولم يرص عنه السيد"، فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه، فأطاعوه فيما أمر ونهى، ﴿الحسنى﴾.

واختلف أهل التأويل في "الزيادة" قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعدّ المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها. ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غرفاً من لآلئ، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جنّاته. وعمّ ربنا جل ثناؤه بقوله: ﴿وزيادة﴾، الزيادات على "الحسنى"، فلم يخص منها شيئاً دون شيء، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يُعمّ، كما عمّه عز ذكره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَهُنَّ وَأَجُوهُنَّ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾، لا يغشى وجوههم كآبة، ولا كسوف، حتى تصير من الحزن كأنما علاها قترٌ. و"القتَر" الغبار، ﴿ولا ذلة﴾، ولا هوان ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾، يقول: هؤلاء الذين وصفت صفتهم، هم أهل الجنة وسكانها، ومن هو فيها ﴿هم فيها خالدون﴾، يقول: هم فيها ماكثون أبداً، لا تبديد، فيخافوا زوال نعيمهم، ولا هم بمخرجين فتتنصص عليهم لذتهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرَهُهُمُ ذَلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: والذين عملوا السيئات في الدنيا، فعصوا الله فيها، وكفروا به وبرسوله ﴿جزاء سيئة﴾، من عمله السيئ الذي عمله في الدنيا ﴿بمثليها﴾، من عقاب الله في الآخرة ﴿وترهقهم ذلة﴾، يقول: وتغشاهم ذلة وهوان، بعقاب الله إياهم ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾، يقول: ما لهم من الله من مانع يمنعهم، إذا عاقبهم، يحول بينه وبينهم. وبنحو

الذي قلنا قوله: "وترهقهم ذلة" قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كأنما ألبست وجوه هؤلاء الذين كسبوا السيئات ﴿قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾، وهي جمع "قطعة".

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويوم نجمع الخلق لموقف الحساب جميعاً، ثم نقول حيثنل للذين أشركوا بالله الآلهة والأنداد: ﴿مَكَانَكُمْ﴾، أي: امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم، أنتم، أيها المشركون، وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، يقول: ففرقنا بين المشركين بالله وما أشركوه به. ﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾، وذلك حين ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ لما قيل للمشركين: "اتبعوا ما كنتم تعبدون من دون الله"، ونصبت لهم آلهتهم، قالوا: "كنا نعبد هؤلاء"، فقالت الآلهة لهم: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ كما جاء، عن مجاهد قال: يكون يوم القيامة ساعة فيها شدة، تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدون، فيقال: "هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله"، فتقول الآلهة: "والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا!" فيقولون: "والله لإياكم كنا نعبد!" فتقول لهم الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ قال أبو جعفر: ويقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل شركاء المشركين من الآلهة والأوثان لهم يوم القيامة، إذ قال المشركون بالله لها: إياكم كنا نعبد ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي إنها تقول: حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم، أيها المشركون، فإنه قد علم أننا ما علمنا ما تقولون ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾، يقول: ما كنا عن عبادتكم إيانا دون الله إلا غافلين، لا نشعر به ولا نعلم كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: أن من تبع في الآخرة ما أسلف من العمل في الدنيا، هجم به على مؤرده، فيخبر هنالك ما أسلف من صالح أو سيئ في الدنيا، وإن من خبر من أسلف في الدنيا من أعماله في الآخرة، فإنما يخبر بعد مصيره إلى حيث أحله ما قدم في الدنيا من علمه، فهو في كلتا الحالتين متبع ما أسلف من عمله، مختبر له، وأما قوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾، فإنه يقول: ورجع هؤلاء المشركون يومئذ إلى الله الذي هو ربههم ومالكهم، الحق لا شك فيه، دون ما كانوا يزعمون أنهم لهم أرباب من الآلهة والأنداد ﴿وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، يقول: وبطل عنهم ما كانوا يتخرصون من الفرية

والكذب على الله بدعواهم أو ثأنهم أنها لله شركاء، وأنها تقرّبهم منه زُلفى، كما جاء عن بن زيد

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣١) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الأوثان والأصنام ﴿من يرزقكم من السماء﴾، الغيث والقطر، ويطلع لكم شمسها، ويغطش ليلها، ويخرج ضحاها ومن الأرض أقواتكم وغذاءكم الذي ينبته لكم، وثمار أشجارها ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ يقول: أم من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم التي تسمعون بها: أن يزيد في قواها، أو يسلبكموها، فيجعلكم صمًا، وأبصاركم التي تبصرون بها: أن يضيئها لكم وينيرها، أو يذهب بنورها، فيجعلكم عميًا لا تبصرون ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾، يقول: ومن يخرج الشيء الميت من الحي ﴿ومن يدبر الأمر﴾، وقل لهم: من يدبر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخلق؟ ﴿فسيقولون الله﴾، يقول جل ثناؤه: فسوف يجيبونك بأن يقولوا: الذي يفعل ذلك كله الله ﴿فقل أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، يقول: أفلا تخافون عقاب الله على شرككم وادعائكم ربًّا غير من هذه الصفة صفته، وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئًا، ولا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا يفعل فعلا؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَازَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (٣٢) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لخلقه: أيها الناس، فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويدبر الأمر؛ ﴿الله ربكم الحق﴾، لا شك فيه ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾، يقول: فأى شيء سوى الحق إلا الضلال، وهو الجور عن قصد السبيل؟ يقول: فإذا كان الحق هو ذا، فادعواكم غيره إلهاً وربًّا، هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه ﴿فأنى تصرفون﴾، يقول: فأى وجه عن الهدى والحق تُصرفون، وسواهما تسلكون، وأنتم مقرّون بأن الذي تُصرفون عنه هو الحق؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٣) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما قد صُرف هؤلاء المشركون عن الحق إلى الضلال ﴿كذلك حقت كلمة ربك﴾، يقول: وجب عليهم قضاؤه وحكمه في السابق من علمه ﴿على الذين فسقوا﴾، فخرجوا من طاعة ربهم إلى معصيته وكفروا به ﴿أنهم لا يؤمنون﴾، يقول: لا يصدّقون بوحدانية الله ولا بنبوته نبيه ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣٤) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد

﴿هل من شركائكم﴾، يعني من الآلهة والأوثان ﴿من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، يقول: من ينشئ خلق شيء من غير أصل، فيحدث خلقه ابتداءً ﴿ثم يعيده﴾، يقول: ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيته قبل أن يفنيه، فإنهم لا يقدرُونَ على دعوى ذلك لها. وفي ذلك الحجة القاطعة والدلالة الواضحة على أنهم في دعواهم أنها أربابٌ، وهي لله في العبادة شركاء، كاذبون مفترون.

فقل لهم حينئذ، يا محمد: الله يبدأ الخلق فينشئه من غير شيء، ويحدثه من غير أصل، ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيته قبل الفناء ﴿فأني توفكون﴾، يقول: فأني وجه عن قصد السبيل وطريق الرشد تُصَرِّفُونَ وتُكَلِّبُونَ؟ كما جاء عن الحسن

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢٥)

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبه محمد ﷺ: ﴿قل﴾، يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿هل من شركائكم﴾، الذين تدعون من دون الله، وذلك آلهتهم وأوثانهم، ﴿من يهدي إلى الحق﴾ يقول: من يرشد ضالا من ضلالته إلى قصد السبيل، ويسدّد جائرا عن الهدى إلى واضح الطريق المستقيم؟ فإنهم لا يقدرُونَ أن يدعوا أن آلهتهم وأوثانهم تُرشد ضالا أو تهدي جائرا. وذلك أنهم إن ادّعوا ذلك لها أكذبتهم المشاهدة، وأبان عجزها عن ذلك الاختبار بالمعينة. فإذا قالوا "لا" وأقروا بذلك، فقل لهم. فالله يهدي الضالَّ عن الهدى إلى الحق ﴿أفمن يهدي﴾ أيها القوم ضالا إلى الحق، وجائرا عن الرشد إلى الرشد ﴿أحق أن يتبع﴾، إلى ما يدعوه إليه ﴿أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ؟﴾

فتأويل الكلام إذا: أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع، أَمْ من لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي؟ وكان بعض أهل التأويل يزعم أن معنى ذلك: أَمْ من لا يقدر أن ينتقل عن مكانه إلا أن يُنقل. وقوله: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾، ألا تعلمون أن من يهدي إلى الحق أحق أن يتبع من الذي لا يهدي إلى شيء، إلا أن يهديه إليه هادٍ غيره، فتركوا اتباع من لا يهدي إلى شيء وعبادته، وتتبعوا من يهديكم في ظلمات البر والبحر، وتخلصوا له العبادة فتفردوه بها وحده، دون ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٦) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ظنا، يقول: إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم منه في شك وريبة ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾، يقول: إن الشك لا يغني من اليقين شيئا، ولا يقوم في شيء مقامه، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾، يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم بما يفعل هؤلاء المشركون، من اتباعهم الظن، وتكذيبهم الحق اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يغني عنهم ظنهم من الله شيئا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما ينبغي لهذا القرآن أن يفتري من دون الله، يقول: ما ينبغي له أن يتخرّصه أحد من عند غير الله. وذلك نظير قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِئِيَّ أَنْ يُغْلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، بمعنى: ما ينبغي لنبي أن يغله أصحابه. وإنما هذا خبرٌ من الله جل ثناؤه أن، هذا القرآن من عنده، أنزله إلى محمد عبده، وتكذيبٌ منه للمشرّكين الذين قالوا: "هو شعر وكهانة"، والذين قالوا: "إنما يتعلمه محمد من يحسن الرومي". يقول لهم جل ثناؤه: ما كان هذا القرآن ليختلقه أحدٌ من عند غير الله، لأن ذلك لا يقدر عليه أحدٌ من الخلق ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾، أي: يقول تعالى ذكره: ولكنه من عند الله أنزله مصدّقاً لما بين يديه، أي لما قبله من الكتب التي أنزلت على أنبياء الله، كالطّوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ﴿وتفصيل الكتاب﴾، يقول: وتبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفرائضه التي فرضها عليهم في السابق من علمه يقول: ﴿لا ريب فيه﴾ لا شك فيه أنه تصديق الذي بين يديه من الكتاب وتفصيل الكتاب من عند رب العالمين، لا افتراءٌ من عند غيره ولا اختلاقٌ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أم يقول هؤلاء المشركون: افتري محمد هذا القرآن من نفسه فاختلقه وافتعله؟ قل يا محمد لهم: إن كان كما تقولون إني اختلقته وافتريته، فإنكم مثلي من العرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي [مثل كلامكم]، فجيئوا بسورة مثل هذا القرآن. ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾، يقول: وادعوا، أيها المشركون على أن يأتوا بسورة مثلهما من قدرتم أن تدعوا على ذلك من أوليائكم وشركائكم ﴿من دون الله﴾، يقول: من عند غير الله، فأجمعوا على ذلك واجتهدوا، فإنكم لا تستطيعون أن تأتوا بسورة مثله أبداً. وقوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾، يقول: إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه، فأتوا بسورة مثله من جميع من يعينكم على الإتيان بها. فإن لم تفعلوا ذلك، فلا شك أنكم كذّبةٌ في زعمكم أن محمداً افتراه، لأن محمداً لن يعدّو أن يكون بشراً مثلكم، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله، فالواحد منهم عن أن يأتي بجميعه أعجز.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء المشركين يا محمد، تكذيبك ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذّب الذين من قبلهم هذا القرآن، من وعيدهم على كفرهم برّبهم ﴿ولما يأتهم تأويله﴾، يقول: ولما يأتهم بعد بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعدّهم الله في هذا القرآن ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾، يقول تعالى ذكره: كما كذب هؤلاء المشركون، يا محمد، بوعيد الله، كذلك كذب الأمم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسلهم وكفرهم برّبهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾،

يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: فانظر، يا محمد، كيف كان عُقْبَى كُفْرٍ مِنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ، أَلَمْ نَهْلِكْ بَعْضَهُمْ بِالرَّجْفَةِ، وَبَعْضَهُمْ بِالْخُسْفِ وَبَعْضَهُمْ بِالْغُرُقِ؟ يقول: فَإِنَّ عَاقِبَةَ هَؤُلَاءِ الَّذِي يَكْذِبُونَكَ وَيَجْحَدُونَ بِآيَاتِي مِنْ كُفْرٍ قَوْمِكَ، كَالَّتِي كَانَتْ عَاقِبَةَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ كُفْرَةِ الْأُمَمِ، إِنْ لَمْ يَنْبِئُوا مِنْ كُفْرِهِمْ، وَيَسَارِعُوا إِلَى التَّوْبَةِ.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن قومك، يا محمد، من قریش، من سوف يؤمن به يقول: من سوف يصدق بالقرآن ويفر أنه من عند الله ﴿ومِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أبداً، يقول: ومنهم من لا يصدق به ولا يقتر أبداً ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ يقول: والله أعلم بالمكذبين به منهم، الذين لا يصدقون به أبداً، من كل أحد، لا يخفى عليه، وهو من وراء عقابه. فأما من كتب له أن يؤمن به منهم، فإني سأتوب عليه.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: وإن كذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون، وردوا عليك ما جتتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القوم، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضرنى عملكم، ولا يضركم عملي، وإنما يجازى كل عامل بعمله ﴿أنتم بريئون مما أعمل﴾، لا تؤاخذون بجريته ﴿وأنا بريء مما تعملون﴾، لا أؤخذ بجريرة عملكم. وهذا كما

قال جل ثناؤه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣]. وقيل: إن هذه الآية منسوخة، نسخها الجهاد والأمر بالقتال. كما قال ابن زيد في قوله: ﴿وإن كذبك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ الآية، قال: أمره بهذا، ثم نسخها وأمره بجهادهم.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: ومن هؤلاء المشركين من يستمعون إلى قولك ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾، يقول: أفأنت تخلق لهم السمع، ولو كانوا لا سمع لهم يعقلون به، أم أنا؟ وإنما هذا إعلام من الله عباده أن التوفيق للإيمان به بيده لا إلى أحد سواه. يقول لنبية محمد ﷺ: كما أنك لا تقدر أن تسمع، يا محمد، من سلبته السمع، فكذلك لا تقدر أن تفهم أمري ونبيي قلباً سلبته فهم ذلك، لأني ختمت عليه أنه لا يؤمن.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن هؤلاء المشركين، مشركي قومك، من ينظر إليك، يا محمد، ويرى أعلامك وحججك على نبوتك، ولكن الله قد سلبه التوفيق فلا يهتدي، ولا تقدر أن تهديه، كما لا تقدر أن تحدث للأعمى بصراً يهتدي به ﴿أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون﴾، يقول: أفأنت يا محمد، تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلى أدلتك وحججك،

فلا يوفّقون للتصديق بك أبصاراً، لو كانوا عُمياً يهتدون بها ويصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك، ولا يقدر عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدر على أن تبصّرهم سبيل الرشاد أنت ولا أحدٌ غيري، لأن ذلك بيدي وإليّ.

وهذا من الله تعالى ذكره تسليّةً لنبيه ﷺ عن جماعةٍ ممن كفر به من قومه وأدبر عنه فكذب، وتعزية له عنهم، وأمرٌ برفع طمعه من إنابتهم إلى الإيمان بالله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الله لا يفعل بخلقه ما لا يستحقون منه، لا يعاقبهم إلا بمعصيتهم إياه، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به ﴿ولكن الناس﴾، يقول: ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، باجترامهم ما يورثها غضب الله وسخطه. وإنما هذا إعلام من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ والمؤمنين به، أنه لم يسلب هؤلاء الذين أخبر جلّ ثناؤه عنهم أنهم لا يؤمنون الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم وإخباراً أنه إنما سلبهم ذلك باستحقاقٍ منهم سلبه، لذنبٍ اكتسبوها، فحق عليهم قول ربهم، وطبع على قلوبهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المشركين فنجمعهم في موقف الحساب، كأنهم كانوا قبل ذلك لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون فيما بينهم، ثم انقطعت المعرفة، وانقضت تلك الساعة يقول الله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾، قد عُبن الذين جحدوا ثواب الله وعقابه وحظوظهم من الخير وهلكوا ﴿وما كانوا مهتدين﴾ يقول: وما كانوا موفّقين لإصابة الرشد مما فعلوا من تكذيبهم بقاء الله، لأنه أक्सبهم ذلك ما لا قبل لهم به من عذاب الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإما نرينك، يا محمد، في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من قومك من العذاب ﴿أو نتوقعنك﴾ قبل أن نريك ذلك فيهم ﴿فإلينا مرجعهم﴾، يقول: فمصيرهم بكل حال إلينا، ومنقلبهم ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾، يقول جلّ ثناؤه: ثم أنا شاهد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، وأنا عالم بها لا يخفى عليّ شيء منها، وأنا مجازيهم بها عند مصيرهم إليّ ومرجعهم، جزاءهم الذي يستحقونه، كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولكل أمة خلت قبلكم، أيها الناس، رسول أرسلته إليهم، كما أرسلت محمداً إليكم، يدعون من أرسلتهم إليهم إلى دين الله وطاعته ﴿فإذا جاء رسولهم﴾، يعني: في الآخرة،

وقوله: ﴿قَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، يقول قضي حينئذ بينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾، من جزاء أعمالهم شيئاً، ولكن يجازي المحسن بإحسانه. والمسيء من أهل الإيمان، إما أن يعاقبه الله، وأما أن يعفو عنه، والكافر يخلد في النار. فذلك قضاء الله بينهم بالعدل، وذلك لا شك عدلٌ لا ظلمٌ. كما جاء عن مجاهد

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية ﷺ: ويقول هؤلاء المشركون من قومك، يا محمد ﴿متى هذا الوعد﴾، الذي تعدنا أنه يأتينا من عند الله؟ وذلك قيام الساعة ﴿إن كنتم صادقين﴾، أنت ومن تبعك، فيما تعدوننا به من ذلك.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: "قل"، يا محمد، لمستعجليك وعيد الله، القائلين لك: متى يأتينا الوعد الذي تعدنا إن كنتم صادقين؟ ﴿لا املك لنفسي﴾، أيها القوم، أي: لا اقدر لها على ضرٍّ ولا نفع في دنيا ولا دين ﴿إلا ما شاء الله﴾، أن املكه، فأجلبه إليها بأذنه. يقول تعالى ذكره لنبية ﷺ: قل لهم: فإذا كنت لا أقدر على ذلك إلا بإذنه، فأنا عن القدرة على الوصول إلى علم الغيب ومعرفة قيام الساعة أعجز وأعجز، إلا بمشيئته وإذنه لي في ذلك ﴿لكل أمة أجل﴾، يقول: لكل قوم ميقاتٌ لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم ﴿لا يستأخرون﴾، عنه ﴿ساعة﴾، فيمهلون ويؤخرون، ﴿ولا يستقدمون﴾، قبل ذلك، لأن الله قضى أن لا يتقدم ذلك قبل الحين الذي قدره وقضاه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّكُمُ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: أرايتم إن أتاكم عذاب الله بياتاً، يقول: ليلاً أو نهاراً، وجاءت الساعة وقامت القيامة، أتقدرون على دفع ذلك عن أنفسكم؟ يقول الله تعالى ذكره: ماذا يستعجل من نزول العذاب، المجرمون الذين كفروا بالله، وهم الصالون بحرّه دون غيرهم، ثم لا يقدرّون على دفعه عن أنفسهم؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَتُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَآنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٣١﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون "آمتم به"، يقول: صدّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيها التصديق، وقيل لكم حينئذ: آلآن تصدّقون به، وقد كنتم قبل الآن به تستعجلون، وأنتم بنزوله مكذبون؟ فذوقوا الآن ما كنتم به تكذبون. ومعنى قوله: ﴿أتم﴾، في هذا الموضع: أهنالك، وليست "ثم" هذه هاهنا التي تأتي بمعنى العطف.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾، أنفسهم، بكفرهم بالله

﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾، تجرّعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً، الذي لا فناء له ولا زوال ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾، يقول: يقال لهم: فانظروا هل تجزون، أي: هل تثابون ﴿إلا بما كنتم تكسبون﴾، يقول: إلا بما كنتم تعملون في حياتكم قبل مماتكم من معاصي الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلٌ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ٥٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويستخبرك هؤلاء المشركون من قومك، يا محمد، فيقولون لك: أحق ما تقول، وما تعدنا به من عذاب الله في الدار الآخرة جزاءً على ما كنا نكسب من معاصي الله في الدنيا؟ قل لهم يا محمد: "أي وربي إنه لحق"، لا شك فيه، وما أنتم بمعجزين الله إذا أراد ذلك بكم، بهرب، أو امتناع، بل أنتم في قبضته وسلطانه ومملكه، إذ أراد فعل ذلك بكم، فاتقوا الله في أنفسكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَوُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٥٨﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولو أن لكل نفس كفرت بالله و"ظلمها"، في هذا الموضع، عبادتها غير من يستحق عبادته، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته ﴿ما في الأرض﴾، من قليل أو كثير ﴿لافتدت به﴾، يقول: لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينته وقوله: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾، يقول: وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم ﴿وقضى بينهم بالقسط﴾، يقول: وقضى الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾، وذلك أنه لا يعاقب أحداً منهم إلا بجريرته، ولا يأخذ به ذنب أحد، ولا يعذب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٩﴾ قال أبو جعفر: يقول جل ذكره: ألا إن كل ما في السموات وكل ما في الأرض من شيء، لله ملك، لا شيء فيه لأحد سواه. يقول: فليس لهذا الكافر

بالله يومئذ شيء يملكه فيفتدي به من عذاب ربه، وإنما الأشياء كلها للذي إليه عقابه. ولو كانت له الأشياء التي هي في الأرض ثم افتدى بها، لم يقبل منه بدلاً من عذابه، فيصرف بها عنه العذاب، فكيف وهو لا شيء له يفتدي به منه، وقد حق عليه عذاب الله؟ يقول الله جل ثناؤه: ﴿ألا إن وعد الله حق﴾، يعني أن عذابه الذي أوعده هؤلاء المشركين على كفرهم حق، فلا عليهم أن لا يستعجلوا به، فإنه بهم واقع لا شك ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقة وقوع ذلك بهم، فهم من أجل جهلهم به مكذبون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٦٠﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الله هو المحيي المميت، لا يتعذر عليه فعل ما أراد فعله من إحياء هؤلاء المشركين إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم إذا أراد ذلك، وهم إليه يصيرون بعد مماتهم،

فيعينون ما كانوا به مكذبين من وعيد الله وعقابه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لخلقه: ﴿يا أيها الناس قد جاء تكم موعظة من ربكم﴾، يعني: ذكرى تذكركم عقاب الله وتخوفكم وعيده ﴿من ربكم﴾، يقول: من عند ربكم، لم يخلقها محمد ﷺ، ولم يفتعلها أحد، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحة لها. وإنما يعني بذلك جل ثناؤه القرآن، وهو الموعظة من الله.

وقوله: ﴿وشفاء لما في الصدور﴾، يقول: ودواء لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهل الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به ﴿وهدي﴾، يقول: وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليل على طاعته ومعصيته ﴿ورحمة﴾، يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به، لأن من كفر به فهو عليه عَمَى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلود في لظى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين بك وبما أنزل إليك من عند ربك ﴿بفضل الله﴾، أيها الناس، الذي تفضل به عليكم، وهو الإسلام، فبينه لكم، ودعاكم إليه ﴿وبرحمته﴾، التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم، فعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن ﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خير مما يجمعون من حطام الدنيا وأموالها وكنوزها. وبنحو ما قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل كما جاء عن هلال بن يساف وابي سعيد الخدري وقال آخرون: بل "الفضل": القرآن و"الرحمة"، الإسلام. كما جاء عن ابن عباس وزيد بن اسلم وابن زيد

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أرأيتم﴾ أيها الناس ﴿ما أنزل الله لكم من رزق﴾، يقول: ما خلق الله لكم من الرزق فحوّلكموه، وذلك ما تتغذون به من الأطعمة ﴿فجعلتم منه حرامًا وحلالًا﴾، يقول: فحللتكم بعض ذلك لأنفسكم، وحرمتكم بعضه عليها، وذلك كتحریمهم ما كانوا يحرمونه من حُرُوثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم الله به فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ومن الأنعام ما كانوا يحرمونه بالتبشير والتسيب ونحو ذلك، مما قدّمناه فيما مضى من كتابنا هذا.

يقول الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿الله أذن لكم﴾ بأن تحرّموا ما حرّمتم منه ﴿أم على

الله تفترون؟: أي تقولون الباطل وتكذبون؟ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس وقتادة وغيرهما

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وما ظن هؤلاء الذين يتخَرَّصون على الله الكذب فيضيفون إليه تحريم ما لم يحرمه عليهم من الأرزاق والأقوات التي جعلها الله لهم غذاءً، أن الله فاعلٌ بهم يوم القيامة بكذبهم وفريتهم عليه؟ أ يحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلا بل يصليهم سعيًا خالدين فيها أبدًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، يقول: إن الله لذو تفضُّل على خلقه بتركه معاجلة من افتري عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا، وإمهاله إياه إلى وروده عليه في القيامة ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾، يقول: ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على تفضُّله عليهم بذلك، وبغيره من سائر نعمه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبينا محمد ﷺ: ﴿وما تكون﴾، يا محمد ﴿في شأن﴾، يعني: في عمل من الأعمال ﴿وما تتلوا منه من قرآن﴾، يقول: وما تقرأ من كتاب الله من قرآن ﴿ولا تعملون من عمل﴾، يقول: ولا تعملون من عمل أيها الناس، من خير أو شر ﴿إلا كنّا عليكم شهودًا﴾، يقول: إلا ونحن شهود لأعمالكم وشئونكم، إذ تعملونها وتأخذون فيها. وبنحو الذي قلنا في ذلك روي القول عن ابن عباس وجماعة.

وقوله: ﴿من مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، يعني: من زنة نملة صغيرة.

قال أبو جعفر: وذلك خبرٌ عن أنه لا يخفى عليه جل جلاله أصغر الأشياء، وإن خف في الوزن كلّ الخفة، ومقادير ذلك ومبلغه، ولا أكبرها وإن عظم وثقل وزنه، وكم مبلغ ذلك. يقول تعالى ذكره لخلقه: فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم عنكم، فإنّا شهود لأعمالكم، لا يخفى علينا شيء منها، ونحن محصوها ومجازوكم بها.

وقوله: ﴿إلا في كتاب﴾، يقول: وما ذاك كله إلا في كتاب عند الله ﴿مبين﴾، عن حقيقة خبر الله لمن نظر فيه. أنه لا شيء كان أو يكون إلا وقد أحصاه الله جل ثناؤه فيه، وأنه لا يعزب عن الله علم شيء من خلقه حيث كان من سمائه وأرضه. كما جاء عن ابن عباس

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ألا إن أنصار الله لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله، لأن الله رضي عنهم فآمنهم من عقابه ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

و"الأولياء" جمع "ولي"، وهو النصير، وقد بينا ذلك بشواهد. واختلف أهل التأويل فيمن يستحق هذا الاسم. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: "الولي" أعني

"ولي الله" هو من كان بالصفة التي وصفه الله بها، وهو الذي آمن واتقى، كما قال الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك كان ابن زيد يقول

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: الذين صدقوا الله ورسوله، وما جاء به من عند الله، وكانوا يَتَّقُونَ الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من نعت "الأولياء"، ومعنى الكلام: ألا إن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ثم اختلف أهل التأويل في "البشرى"، التي بشر الله بها هؤلاء القوم ما هي؟ وما صفتها؟ فقال بعضهم: هي الرؤية الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له، وفي الآخرة الجنة.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن أوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله، كما روي عن النبي ﷺ: "أن الملائكة التي تحضره عند خروج نفسه، تقول لنفسه: اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه". ومنها: بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية، [البقرة: ٢٥]. وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشره بها، ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى، فذلك مما عمه جل ثناؤه: أن ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾، وأما في الآخرة فالجنة.

وأما قوله: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾، فإن معناه: إن الله لا خُلفَ لوعده، ولا تغيير لقوله عما قال، ولكنه يُمَضِّي لخلقه مواعيدَه وينجزها لهم، وقد جاء عن نافع قال: أطال الحجاج الخطبة، فوضع ابن عمر رأسه في حجره، فقال الحجاج: إن ابن الزبير بدل كتاب الله! فقع ابن عمر فقال: لا تستطيع أنت ذاك ولا ابن الزبير! لا تبديل لكلمات الله! فقال الحجاج: لقد أوتيت علماً إن نفعا! قال أيوب: فلما أقبل عليه في خاصّة نفسه سكّت.

وقوله: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾، يقول تعالى ذكره: هذه البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة "وهي الفوز العظيم"، يعني الظفر بالحاجة والطلبية والنجاة من النار.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبه محمد ﷺ: لا يحزنك، يا محمد، قول هؤلاء المشركين في ربه ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام فإن العزة لله جميعاً، يقول تعالى ذكره: فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحد، لأنه لا يُعَاذُ شيء ﴿هو السميع العليم﴾، يقول: وهو ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما

يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه، مُخَصَّى ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد.

وكسرت "إن" من قوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لأن ذلك خبرٌ من الله مبتدأ، ولم يعمل فيها "القول"، لأن "القول"، عني به قول المشركين، وقوله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، لم يكن من قيل المشركين، ولا هو خبرٌ عنهم أنهم قالوه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ألا إن الله يا محمد كل من في السموات ومن في الأرض، ملكًا وعبيدًا، لا مالك لشيء من ذلك سواه. يقول: فكيف يكون إلهاً معبودًا من يعبد هؤلاء المشركون من الأوثان والأصنام، وهي لله ملك، وإنما العبادة للمالك دون المملوك، ولرب دون المربوب؟ ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾، يقول جل ثناؤه: وأي شيء يتبع من يدعو من دون الله يعني: غير الله وسواه شركاء. ومعنى الكلام: أي شيء يتبع من يقول لله شركاء في سلطانه وملكه كاذبًا، والله المنفرد بملك كل شيء في سماء كان أو أرض؟ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، يقول: ما يتبعون في قيلهم ذلك ودعواهم إلا الظن، يقول: إلا الشك لا اليقين ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾، يقول: وإن هم إلا يتقولون الباطل تظنيًا وتخرصًا للإفك، عن غير علم منهم بما يقولون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن ربكم أيها الناس الذي استوجب عليكم العبادة، هو الرب الذي جعل لكم الليل وفصله من النهار، لتسكنوا فيه مما كنتم فيه في نهاركم من التعب والنصب، وتهدهوا فيه من التصرف والحركة للمعاش والعناء الذي كنتم فيه بالنهار ﴿والنهار مبصر﴾، يقول: وجعل النهار مبصرًا، فأضاف "الإبصار" إلى "النهار"، وإنما يُبَصَّر فيه، وليس "النهار" مما يبصر، ولكن لما كان مفهوما في كلام العرب معناه، خاطبهم بما في لغتهم وكلامهم، يقول تعالى ذكره: فهذا الذي يفعل ذلك هو ربكم الذي خلقكم وما تعبدون، لا ما لا ينفع ولا يضر ولا يفعل شيئًا.

وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: إن في اختلاف حال الليل والنهار وحال أهلها فيهما، دلالةً وحججًا على أن الذي له العبادة خالصا بغير شريك، هو الذي خلق الليل والنهار، وخالف بينهما، بأن جعل هذا للخلق سكنًا، وهذا لهم معاشًا، دون من لا يخلق ولا يفعل شيئًا، ولا يضر ولا ينفع.

وقال: ﴿لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾، لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون بها ويتعظون. ولم يرد به: الذين يسمعون بأذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى

ذكره: قال هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد: ﴿اتخذ الله ولداً﴾، وذلك قولهم: "الملائكة بنات الله". يقول الله منزهاً نفسه عما قالوا وافترؤا عليه من ذلك: "سبحان الله"، تنزيهاً لله عما قالوا وأدعوا على ربهم "هو الغني" يقول: الله غني عن خلقه جميعاً، فلا حاجة به إلى ولد، لأن الولد إنما يطلبه من يطلبه، ليكون عوناً له في حياته وذكراً له بعد وفاته، والله عن كل ذلك غني، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا يبيد فيكون به حاجة إلى خلف بعده ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾، يقول تعالى ذكره: لله ما في السموات وما في الأرض ملكاً، والملائكة عبادَه وملكه، فكيف يكون عبد الرجل وملكه له ولداً؟ يقول: أفلا تعقلون أيها القوم خطأ ما تقولون؟ ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾، يقول: ما عندكم أيها القوم، بما تقولون وتدعون من أن الملائكة بنات الله، من حجة تحتجون بها وهي السلطان أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحته، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه، جهلاً منكم بما تقولون، بغير حجة ولا برهان؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ٦٦﴾ متاعاً في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿٦٧﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد، لهم ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب﴾، فيقولون عليه الباطل، ويدعون له ولداً ﴿لا يفلحون﴾، يقول: لا يبقون في الدنيا، ولكن لهم متاع في الدنيا يمتعون به، وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كتب فناؤهم فيه ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾، يقول: ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم، إلينا مصيرهم ومنقلبهم ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد﴾، وذلك إصلاؤهم جهنم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ بالله في الدنيا، فيكذبون رسله، ويجحدون آياته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ لَهُمْ نَارَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٦٨﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿واتل﴾ على هؤلاء المشركين الذي قالوا: ﴿اتخذ الله ولداً﴾، من قومك ﴿نبا نوح﴾، يقول: خبر نوح ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي﴾، يقول: إن كان عظم عليكم مقامي بين أظهركم وشق عليكم، ﴿وتذكيري بآيات الله﴾، يقول، ووعظي إياكم بحجج الله، وتنبيهي إياكم على ذلك ﴿فعلى الله توكلت﴾، يقول: إن كان شق عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآيات الله، فعزمت على قتلي أو طردي من بين أظهركم، فعلى الله اتكالي وبه ثقتي، وهو سندي وظهري ﴿فأجمعوا أمركم﴾، يقول: فأعدوا أمركم، واعزموا على ما تنوون عليه في أمري.

يقال منه: "أجمعت على كذا"، بمعنى: عزمت عليه، ومنه قول النبي ﷺ: "من لم يجمع على الصوم من الليل فلا صوم له"، بمعنى: من لم يعزم، وعني ب"الشركاء"، آلهتهم وأوثانهم. وقوله: ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾، يقول: ثم لا يكن أمركم عليكم ملتبساً مشكلاً مبهماً.

من قولهم: "غَمَّ عَلَى النَّاسِ الْهَلَالُ"، وذلك إذا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَتَّيَّنَوْهُ، وقيل: إن ذلك من "الغم"، لأن الصدر يضيق به، ولا يتبين صاحبه لأمره مَصْدَرًا يَصْدُرُّهُ يَتَفَرَّجُ عَلَيْهِ مَا بَقْلَهُ، وكان قتادة يقول في ذلك ﴿أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً﴾، قال: لا يكبر عليكم أمركم.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾، فإن معناه: ثم امضوا إلي ما في أنفسكم وافرغوا منه، كما جاء عن مجاهد وقتادة وقوله: ﴿وَلَا تَنْظُرُونَ﴾، يقول: ولا تؤخرون. من قول القائل: "أنظرت فلاناً بما لي عليه من الدين". قال أبو جعفر: وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول نبيه نوح عليه السلام لقومه: إنه بُصِّرَ الله له عليهم واثق، ومن كيدهم وبوائقهم غير خائف وإعلاماً منه لهم أن آلهتهم لا تضر ولا تنفع، يقول لهم: أمضوا ما تحدثون أنفسكم به في، على عزم منكم صحيح، واستعينوا من شايحكم علي بآلهتكم التي تدعون من دون الله، ولا تؤخروا ذلك، فإني قد توكلت على الله، وأنا به واثق أنكم لا تضروني إلا أن يشاء ربي. وهذا وإن كان خبراً من الله تعالى عن نوح، فإنه حث من الله لنبيه محمد ﷺ على التأسي به، وتعريف منه سبيل الرشاد فيما قلده من الرسالة والبلاغ عنه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نبيه نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، أيها القوم، عني بعد دعائي إياكم، وتبليغ رسالة ربي إليكم، مدبرين، فأعرضتم عما دعوتكم إليه من الحق، والإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له، وترك إشراك الآلهة في عبادته، فتضيع منكم وتفريط في واجب حق الله عليكم، لا بسبب من قبلي، فإني لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجراً، ولا عوضاً اعتاضه منكم بإجابتكم إياي إلى ما دعوتكم إليه من الحق والهدى، ولا طلبت منكم عليه ثواباً ولا جزاءً ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يقول جل ثناؤه: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القوم، ولا على غيركم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وأمرني ربي أن أكون من المذعنين له بالطاعة، المنقادين لأمره ونهيه، المذللين له، ومن أجل ذلك أدعوكم إليه، وبأمره أمركم بترك عبادة الأوثان.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَبِّئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فكذب نوحاً قومه فيما أخبرهم به عن الله من الرسالة والوحي "فنجيناها ومن معه" ممن حمل معه في "الفلك"، يعني في السفينة "وجعلناهم خلائف"، يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوح في السفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن أغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، يعني حججنا وأدلتنا على توحيدنا، ورسالة رسولنا نوح. يقول الله لنبيه محمد ﷺ: "فانظر"، يا محمد كيف كان عاقبة المنذرين "وهم الذين أنذرهم نوحٌ عقاب الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام".

يقول له جل ثناؤه: انظر ماذا أعقبهم تكذيبهم رسولهم، فإن عاقبة من كذبك من قومك إن تمادوا في كفرهم وطغيانهم على ربهم، نحو الذي كان من عاقبة قوم نوح حين كذبوه. يقول جل ثناؤه: فليحذروا أن يحلّ بهم مثل الذي حلّ، بهم إن لم يتوبوا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧١)

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم، فأتوهم ببينات من الحجج والأدلة على صدقهم، وأنهم لله رسل، وأن ما يدعونهم إليه حق ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾، يقول: فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم بما كذب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية من قبلهم ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبلون من أنبياء الله نصيحتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إياهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب واكتسبوا من الآثام كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربه فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٢) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم من بعد نوح إلى قومهم، موسى وهارون ابني عمران، إلى فرعون مصر وملئه، يعني: وأشرف قومه وسادتهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾، يقول: بأدلتنا على حقيقة ما دعوهم إليه من الإذعان لله بالعبودية، والإقرار لهما بالرسالة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، يقول: فاستكبروا عن الإقرار بما دعاهم إليه موسى وهارون ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾، يعني: آثمين بربهم، بكفرهم بالله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٣) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٤) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾، يعني: فلما جاءهم بيان ما دعاهم إليه موسى وهارون، وذلك الحجج التي جاءهم بها، وهي الحق الذي جاءهم من عند الله ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، يعنون أنه يبين لمن رآه وعابنه أنه سحر لا حقيقة له ﴿قَالَ مُوسَى﴾، لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾، من عند الله ﴿أَسِحْرٌ هَذَا؟﴾

وقوله: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾، يقول: ولا ينجح الساحرون ولا يبقون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٥) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قال فرعون وملأه لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا﴾، يقول: لتصرفنا وتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، من قبل مجيئك، من الدين. كما جاء عن قتادة

وقوله: ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾، يعني العظمة، كما جاء عن مجاهد
وقوله: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾، يقول: "وما نحن لكما" يا موسى وهارون "بمؤمنين"،
يعني بمقرّين بأنكما رسولان أرسلتما إلينا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۖ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ۚ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقال فرعون لقومه: اتتوني بكل من يسحر من السحرة، عليم بالسحر ﴿فلما جاء السحرة﴾، فرعون قال موسى: ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾، من حبالكم وعصيكم. وفي الكلام محذوف قد ترك، وهو: "فأتوه بالسحرة، فلما جاء السحرة"، ولكن اكتفى بدلالة قوله: ﴿فلما جاء السحرة﴾، على ذلك، فترك ذكره.
وكذلك بعد قوله: ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾، محذوف أيضاً قد ترك ذكره، وهو: ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم﴾ ﴿فلما ألقوا قال موسى﴾، ولكن اكتفى بدلالة ما ظهر من الكلام عليه، فترك ذكره.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۚ﴾ قال أبو جعفر: قال لهم موسى: السحر الذي وصفتم به ما جئتم به من الآيات أيها السحرة، هو الذي جئتم به أنتم، لا ما جئتمكم به أنا. ثم أخبرهم أن الله سيبطله. فقال: ﴿إن الله سيبطله﴾، يقول: سيذهب به، فذهب به تعالى ذكره، بأن سلط عليه عصا موسى قد حوّلها ثعباناً يتلفه، حتى لم يبق منه شيء ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾، يعني: أنه لا يصلح عمل من سعى في أرض الله بما يكرهه، وعمل فيها بمعاصيه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَوَيْحُكَ اللَّهُ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۚ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن موسى أنه قال للسحرة: ﴿ويحق الله الحق﴾، يقول: وثبت الله الحق الذي جئتمكم به من عنده، فيعليه على باطلكم، ويصححه "بكلماته"، يعني: بأمره ﴿ولو كره المجرمون﴾، يعني الذين اكتسبوا الإثم بربهم، بمعصيتهم إياه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ۚ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فلم يؤمن لموسى، مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة ﴿إلا ذرية من قومه﴾ خائفين من فرعون وملئهم. ثم اختلف أهل التأويل في معنى الذرية في هذا الموضع.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بتأويل الآية، القول الذي ذكرته عن مجاهد، وهو أن "الذرية"، في هذا الموضع أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقرؤوا بنبوته لطول الزمان، فأدركت ذريتهم، فأمن منهم من ذكر الله، بموسى.

وإنما قلت: "هذا القول أولى بالصواب في ذلك"، لأنه لم يجر في هذه الآية ذكر غير موسى، فلأن تكون "الهاء"، في قوله: "من قومه"، من ذكر موسى لقربها من ذكره، أولى من أن تكون من ذكر فرعون، لبعد ذكره منها، إذ لم يكن بخلاف ذلك دليل، من خبر ولا نظر.

وبعد، فإن في قوله: ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾، الدليل الواضح على أن الهاء في قوله: ﴿إلا ذرية من قومه﴾، من ذكر موسى، لا من ذكر فرعون، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام، "على خوف منه"، ولم يكن ﴿على خوف من فرعون﴾.

وأما قوله: ﴿على خوف من فرعون﴾، فإنه يعني على حال خوف ممن آمن من ذرية قوم موسى بموسى فتأويل الكلام: فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنهم. وأما قوله: ﴿وملئهم﴾، فإن "الملا": الأشراف. وتأويل الكلام: على خوف من فرعون ومن أشرافهم.

وقوله: ﴿أن يفتنهم﴾، يقول: كان إيمان من آمن من ذرية قوم موسى على خوف من فرعون "أن يفتنهم" بالعذاب، فيصدّهم عن دينهم، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله. وقال: ﴿أن يفتنهم﴾، فوحد ولم يقل: "أن يفتنهم"، لدليل الخبر عن فرعون بذلك: أن قومه كانوا على مثل ما كان عليه، لما قد تقدم من قوله: ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾.

وقوله: ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾، يقول تعالى ذكره: وإن فرعون لجبارٌ مستكبر على الله في أرضه "وإنه لمن المسرفين"، وإنه لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وأدعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حِلِّها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل موسى نبيه لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدقتم بربوبيته ﴿فعليه توكّلوا﴾، يقول: فبه فتقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه ﴿إن كنتم مسلمين﴾، يقول: إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكّلوا.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فقال قوم يا موسى لموسى: ﴿على الله توكّلنا﴾، أي به وثقنا، وإليه فوَضُّنا أمرنا. وقوله: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾، يقول جل ثناؤه مخبراً عن قوم موسى أنهم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا لا تختبر هؤلاء القوم الكافرين، ولا تمتحنهم بنا! يعنون قوم فرعون. وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي سألوه ربّهم من إعادته ابتلاء قوم فرعون بهم. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن القوم رغبوا إلى الله في أن يُجبرهم من أن يكونوا محنة لقوم فرعون وبلاء، وكل ما كان من أمر كان لهم مصدّة عن اتباع موسى والإقرار به، وبما جاءهم به، فإنه لا شك أنه كان لهم "فتنة"، وكان من أعظم الأمور لهم إبعاداً من الإيمان بالله ورسوله. وكذلك من المصدّة كان لهم عن الإيمان: أن لو كان قوم موسى عاجلتهم من الله محنة في أنفسهم، من بلية تنزل بهم، فاستعاذ القوم بالله من كل معنى يكون صادّاً لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ونحن يا ربنا برحمتك، فخلّصنا من أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون، لأنهم كان يستعبدونهم ويستعملونهم في الأشياء القذرة من خدمتهم.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُنَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتخذوا لقومكما بمصر بيوتًا.

يقال منه: "تبوأ فلان لنفسه بيتًا"، إذا اتخذته. وكذلك تبوأ مصحفًا، إذا اتخذته، "وبوأته أنا بيتًا": إذا اتخذته له. ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾، يقول: واجعلوا بيوتكم مساجدًا تصلون فيها. ﴿واقموا الصلاة﴾، يقول تعالى ذكره: وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها.. وقوله: ﴿وبشر المؤمنين﴾، يقول جل ثناؤه لنبيه عليه الصلوة والسلام: وبشر مقيمي الصلاة المطيعي الله، يا محمد، المؤمنين بالثواب الجزيل منه.

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرفهم وهم "الملأ" "زينة"، من متاع الدنيا وأثاثها ﴿وأموالاً﴾ من أعيان الذهب والفضة ﴿في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾، يقول موسى لربه: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من ذلك ليضلوا عن سبيلك. وقوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾، هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها، وذلك نحو قوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ نَظْمِسَ وُجُوهَهَا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾، [النساء: ٤٧]. يعني به: من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها. يقال منه: "طمست عينه أطمسها وأطمسها طمسًا وطمسوسًا". وقد تستعمل العرب "الطمس" في العفو والذثور، وفي الاندقاق والدروس، كما جاء عن الربيع بن انس وقتادة وأبي العالية وأما قوله: ﴿واشدد على قلوبهم﴾، فإنه يعني: واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان، كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وأما قوله: ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾، فإن معناه: فلا يصدقوا بتوحيد الله ويفرّوا بوحديته، حتى يروا العذاب الموجه، كما جاء عن مجاهد وأما قوله: ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾، فإن ابن عباس كان يقول: معناه: حتى يروا الغرق وقد ذكرنا الرواية عنه بذلك من بعض وجوهها فيما مضى. كما جاء عن ابن عباس

القول في تاويل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال أبو جعفر: وهذا خبر من الله عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون وأشرف قومه وأموالهم. يقول جل ثناؤه: ﴿قال﴾ الله لهما: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾، في

فرعون وملئه وأموالهم.

فإن قال قائل: وكيف نسبت "الإجابة" إلى اثنين و"الدعاء"، إنما كان من واحد؟ قيل: إن الداعي وإن كان واحداً، فإن الثاني كان مؤمناً، وهو هارون، فلذلك نسبت الإجابة إليهما، لأن المؤمن داع. وكذلك قال أهل التأويل.

وأما قوله: ﴿فاستقيماً﴾، فإنه أمرٌ من الله تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرهما، من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد الله وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرهما أنه أجابهما فيه، وقوله: ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾، يقول: ولا تسلكان طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي، فتستعجلان قضائي، فإن وعدي لا خلف له، وإن وعيدي نازل بفرعون وعذابي واقع به وبقومه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه ﴿فأتبعهم فرعون﴾، يقول: فأتبعهم فرعون ﴿وجنوده﴾. يقال منه "أتبعته" و"تبعته"، بمعنى واحد.

وقد كان الكسائي فيما ذكر أبو عبيد عنه يقول: إذا أريد أنه أتبعهم خيراً أو شراً فالكلام "أتبعهم" بهمز الألف، وإذا أريد: اتبع أثرهم، أو اقتدى بهم، فإنه من "أتبع" مشددة التاء غير مهموزة الألف. ﴿بغياً﴾ على موسى وهارون ومن معهما من قومهما من بني إسرائيل ﴿وعدوا﴾، يقول: واعتداء عليهم، ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ يقول: حتى إذا أحاط به الغرق وفي الكلام متروك، قد ترك ذكره للدلالة ما ظهر من الكلام عليه، وذلك: "فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً فيه" فغرقناه ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾.

وقوله: ﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾، يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل فرعون حين أشفى على الغرق، وأيقن بالهلكة: ﴿آمنت﴾، يقول: أقررت، ﴿أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "جعل جبرائيل عليه السلام يدسُّ أو: يحشو في فم فرعون الطين، مخافة أن تدركه الرحمة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، معرّفاً فرعون قبح صنيعه أيام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديته في طغيانه، ومعصيته ربه، حين فزع إليه في حال حلول سخطه به ونزول عقابه، مستجيراً به من عذابه الواقع به، لما ناداه وقد علت أمواجه البحر، وغشيته كرب الموت: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية الآن تقرُّ لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نعمته بك،

فأسخطه على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادّين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مهل، وباب التوبة لك مفتوح، أقررت بما أنت به الآن مقرّ؟

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نجوة من الأرض بيدك، ينظر إليك هالكًا من كذب بهلاكك ﴿لتكون لمن خلقك آية﴾، يقول: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك، فينزعرون عن معصية الله، والكفر به والسعي في أرضه بالفساد.

و"النجوة"، الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. عن أبي السليل، عن قيس بن عباد قال وكان من أكثر الناس أو: أحدث الناس عن بني إسرائيل؛ قال: فحدثنا أن أول جنود فرعون لما انتهى إلى البحر، هابت الخيل للهيب. قال: ومثل لحصان منها فرس وديق، فوجد ريحها أحسبه أنا قال: فانسَلَّ فاتبعته. قال: فلما تنام آخر جنود فرعون في البحر، وخرج آخر بني إسرائيل، أمر البحر فانطبق عليهم، فقالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون، وما كان ليموت أبدًا! فسمع الله تكذيبهم نبيّه، قال: فرمى به على الساحل كأنه ثور أحمر، يترآه بنو إسرائيل. وقيل: ﴿فاليوم ننجيك بيدك﴾، ليعلم أنه ينجيه بالبدن غير روح، ولكن ميتًا. وقوله تعالى ذكره: ﴿وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا﴾، يعني: عن حججنا وأدللتنا على أن العبادة والألوهة لنا خالصة ﴿لغافلون﴾، يقول: لساؤون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل صدق. قيل: عني بذلك الشام وبيت المقدس. وقيل: عني به الشام ومصر. وقوله: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾، يقول: ورزقنا بني إسرائيل من حلال الرزق وهو ﴿الطيب﴾.

وقوله: ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾، يقول جل ثناؤه: فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين. وذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد النبي ﷺ مجمعين على نبوة محمد والإقرار به وبمبعثه، غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم وآمن به بعضهم، والمؤمنون به منهم كانوا عددًا قليلًا. فذلك قوله: فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الذي كانوا يعلمونه نبيًا لله فوضع ﴿العلم﴾ مكان ﴿المعلوم﴾.

وكان بعضهم يتأول ﴿العلم﴾ ههنا، كتاب الله ووحية. كما جاء عن ابن زيد في قوله: ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾، قال: ﴿العلم﴾، كتاب الله الذي أنزله، وأمره الذي أمرهم به، وهل اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيًا بينهم؟ أهل هذه الأهواء، هل اقتتلوا إلا على البغي قال:

و"البغي" وجهان: وجه النفاسة في الدنيا ومن اقتتل عليها من أهلها، وبغى في "العلم"، يرى هذا جاهلاً مخطئاً، ويرى نفسه مصيباً عالمًا، فيبغى بإصابته وعلمه على هذا المخطئ.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: إِنَّ رَبَّكَ، يا محمد، يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل فيك يوم القيامة، فيما كانوا فيه من أمري في الدنيا يختلفون، بأن يدخل المكذبين بك منهم النار، والمؤمنين بك منهم الجنة، فذلك قضاؤه يومئذ فيما كانوا فيه يختلفون من أمر محمد ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: فَإِنْ كُنْتَ يا محمد في شكٍّ من حقيقة ما اخترناك فأنزّلنا إليك، من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولاً إلى خلقه، لأنهم يجدونك عندهم مكتوباً، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتابهم في التوراة والإنجيل

﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾، من أهل التوراة والإنجيل، كعبد الله بن سلام ونحوه، من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك منهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس ومجاهد وقتادة فإن قال قائل: أو كان رسول الله ﷺ في شكٍّ من خبر الله أنه حقٌّ يقين، حتى قيل له: ﴿فإن كنت في شكٍّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾؟ قيل: لا وكذلك قال جماعة من أهل العلم. - كما جاء عن سعيد بن جبير وعن غيره في قوله: ﴿فإن كنت في شكٍّ مما أنزلنا إليك﴾، فقال: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل. فإن قال: فما وجه مخرج هذا الكلام، إذن، إن كان الأمر على ما وصفت؟ قيل: قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا، استجازه العرب قول القائل منهم لمملوكه: "إن كنت مملوكي فانتبه إلى أمري" والعبد المأمور بذلك لا يشكُّ سيده القائل له ذلك أنه عبده. كذلك قول الرجل منهم لابنه: "إن كنت ابني فبرني"، وهو لا يشك في ابنه أنه ابنه، وأن ذلك من كلامهم صحيح مستفيض فيهم، وذكرنا ذلك بشواهد، وأن منه قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، [المائدة: ١١٦]، وقد علم جل ثناؤه أن عيسى لم يقل ذلك. وهذا من ذلك، لم يكن ﷺ شاكاً في حقيقة خبر الله وصحته، والله تعالى ذكره بذلك من أمره كان عالمًا، ولكنه جل ثناؤه خاطبه خطاب قومهم بعضهم بعضاً، إذ كان القرآن بلسانهم نزل. وأما قوله: ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ الآية، فهو خبرٌ من الله مبتدأ. يقول تعالى ذكره: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بأنك لله رسولٌ، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، ويجدون نعتك عندهم في كتبهم ﴿فلا تكونن من الممترين﴾، يقول: فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته. ولو قال قائل: إن هذه الآية خوطب بها النبي ﷺ، والمراد بها بعضٌ من لم يكن صحّت، بصيرته بنبوته ﷺ، ممن كان قد أظهر الإيمان

بلسانه، تنبيها له على موضع تعرف حقيقة أمره الذي يزيل اللبس عن قلبه، كما قال جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، [الأحزاب: ١]، كان قولا غير مدفوعة صحته. وأما قوله: ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ الآية، فهو خبرٌ من الله مبتدأ.

يقول تعالى ذكره: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخبر بأنك لله رسول، وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، ويجدون نعتك عندهم في كتبهم ﴿فلا تكونن من الممترين﴾، يقول: فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك وحقيقته.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، ولا تكونن يا محمد، من الذين كذبوا بحجج الله وأدلته، فتكون ممن عُبن حظه، وباع رحمة الله ورضاه، بسخطه وعقابه.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين وجبت عليهم يا محمد "كلمة ربك"، هي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، [هود: ١٨]، فثبتت عليهم. يقال منه: "حق على فلان كذا يحق عليه"، إذا ثبت ذلك عليه ووجب.

وقوله: ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾، يقول: لا يصدقون بحجج الله، ولا يقرؤون بوحداية ربهم، ولا بأنك لله رسول ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾، وموعظة وعبرة، فعابوها، حتى يعابوا العذاب الأليم، كما لم يؤمن فرعون وملؤه، إذ حقت عليهم كلمة ربك حتى عابوا العذاب الأليم، فحيث قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، [يونس: ٩٠]، حين لم ينفعه قلبه، فكذلك هؤلاء الذين حقت عليهم كلمة ربك من قومك من عبدة الأوثان وغيرهم، لا يؤمنون بك فيتبعونك، إلا في الحين الذي لا ينفعهم إيمانهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن مجاهد وقتادة

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فهلا كانت قرية آمنت؟ وهي كذلك فيما ذكر في قراءة أبي. ومعنى الكلام: فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب، ونزول سخط الله بها، بعصيانها ربها واستحقاقها عقابه، فنفعها إيمانها ذلك في ذلك الوقت، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق بعد تماديه في غيئه، واستحقاقه سخط الله بمعصيته إلا قوم يونس، فإنهم نفعهم إيمانهم بعد نزول العقوبة وحلول السخط بهم. فاستثنى الله قوم يونس من أهل القرى الذين لم ينفعهم إيمانهم بعد نزول العذاب بساحتهم، وأخرجهم منهم، وأخبر خلقه أنه نفعهم أيمانهم خاصة من بين سائر الأمم غيرهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة قوله: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي

في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين»، يقول: لم يكن هذا في الأمم قبلهم لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، [وفرقوا] بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله أربعين ليلةً. فلما عرف الله الصّدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم. قال: وذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل. وقوله: ﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾، يقول: لما صدّقوا رسولهم، وأقروا بما جاءهم به بعد ما أظلمهم العذاب وغشيه أمر الله ونزل بهم البلاء، كشفنا عنهم عذاب الهوان والذلّ في حياتهم الدنيا ﴿ومتعناهم إلى حين﴾، يقول: وأخرنا في آجالهم ولم نعاجلهم بالعقوبة، وتركناهم في الدنيا يستمتعون فيها بآجالهم إلى حين مماتهم، ووقت فناء أعمارهم التي قضيت فناءها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكر لنبيه: ﴿ولو شاء﴾، يا محمد ﴿ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، بك، فصدّقوك أنك لي رسول، وأن ما جئتكم به وما تدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له، حق، ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سبق من قضاء الله قبل أن يبعثك رسولا أنه لا يؤمن بك، ولا يتبعك فيصدقوك بما بعثك الله به من الهدى والنور، إلا من سبقت له السعادة في الكتاب الأوّل قبل أن تخلق السموات والأرض وما فيهن، وهؤلاء الذين عجبوا من صدق إيحائنا إليك هذا القرآن لتنذر به من أمرتك بإنذاره، ممّن قد سبق له عندي أنهم لا يؤمنون بك في الكتاب السابق. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿ولو شاء ربك لأمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، [يونس: ١٠٠]، ونحو هذا في القرآن، فإن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأوّل ولا يضلّ إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأوّل. وقوله: ﴿أفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: إنه لن يصدقك يا محمد، ولن يتبعك ويقرّ بما جئت به إلا من شاء ربك أن يصدقك، لا يكرهك إياه، ولا يحرصك على ذلك ﴿أفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لك، مصدقين على ما جئتكم به من عند ربك؟ يقول له جل ثناؤه: فاصدّع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين الذين حقّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: وما كان لنفس خلقتّها من سبيل إلى تصديقك، يا محمد، إلا بأن أذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله، وعرفها ما أمرك ربك بتعريفها، ثم خلّها، فإن هداها بيد خالقها. وأما قوله: ﴿ويجعل

الرجس على الذين لا يعقلون»، فإنه يقول تعالى ذكره: إن الله يهدي من يشاء من خلقه للإيمان بك يا محمد، ويأذن له في تصديقك فيصدقك ويتبعك، ويقر بما جئت به من عند ربك ﴿ويجعل الرجس﴾، وهو العذاب، وغضب الله ﴿على الذين لا يعقلون﴾، يعني الذين لا يعقلون عن الله حججه ومواعظه وآياته التي دل بها جل ثناؤه على نبوة محمد ﷺ، وحقيقة ما دعاهم إليه من توحيد الله، وخلع الأنداد والأوثان. كما جاء عن ابن عباس قوله: ﴿ويجعل الرجس﴾، قال: السخط.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائلينك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحبها وفي الأرض من جبالها، وتصدها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعبراً، ودلالة على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له في ملكه شريك، ولا له على تدبيره وحفظه ظهير يُغنيكم عما سواه من الآيات. يقول الله جل ثناؤه: ﴿وما تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يقول جل ثناؤه: وما تغني الحجج والعبر والرسل المنذرة عبادة الله عقابه، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى لهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به. ﴿ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، محذراً مشركي قومه من حلول عاجل نقمه بساحتهم نحو الذي حل بنظرائهم من قبلهم من سائر الأمم الخالية من قبلهم، السالكة في تكذيب رسل الله وجحود توحيد ربهم سبيلهم: فهل ينتظر، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك المكذبون بما جئتهم به من عند الله، إلا يوماً يعاينون فيه من عذاب الله مثل أيام أسلافهم الذي كانوا على مثل الذي هم عليه من الشرك والتكذيب، الذين مضوا قبلهم فخلوا من قوم نوح وعاد وثمود؟ قل لهم، يا محمد، إن كانوا ذلك ينتظرون: فانتظروا عقاب الله إياكم، ونزول سخطه بكم، إني من المنتظرين هلاككم وبواركم بالعقوبة التي تحل بكم من الله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. كما جاء عن قتادة والربيع

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْجِي رَسُولَنَا وَآلَيْنَا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك: انتظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلكم من الأمم السالفة الذين هلكوا بعذاب الله، فإن ذلك إذا جاء لم يهلك به سواهم، ومن كان على مثل الذي هم عليه من تكذيبك، ثم نبجي هناك رسولنا محمداً ﷺ ومن

أَمِنْ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ، كَمَا فَعَلْنَا قَبْلَ ذَلِكَ بِرُسُلِنَا الَّذِينَ أَهْلَكْنَا أُمَمَهُمْ، فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ أَمِنْ بِهِ مَعَهُمْ مِنْ عَذَابِنَا حِينَ حَقَّ عَلَى أُمَمِهِمْ ﴿كَذَلِكَ حَقَّا عَلَيْنَا نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يَقُولُ: كَمَا فَعَلْنَا بِالْمَاضِينَ مِنْ رُسُلِنَا فَأَنْجَيْنَاهَا وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهَا وَأَهْلَكْنَا أُمَمَهَا، كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِكَ، يَا مُحَمَّد، وَبِالْمُؤْمِنِينَ، فَنَنْجِيكَ وَنَنْجِي الْمُؤْمِنِينَ بِكَ، حَقًّا عَلَيْنَا غَيْرُ شَكٍّ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ، يَا مُحَمَّد، لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ عَجَبُوا أَنْ أُوحِيَ إِلَيْكَ: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ، أَيُّهَا النَّاسُ، مِنْ دِينِي الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، فَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ: فَإِنِّي لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَلْهَةِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصُرُ وَلَا تَغْنِي عَنِّي شَيْئًا، فَتَشْكُوا فِي صَحْتِهِ. وَهَذَا تَعْرِضُ وَلَحْنٌ مِنَ الْكَلَامِ لَطِيفٌ. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي، فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِيهِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِي الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ شَيْئًا وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ. فَأَمَّا دِينِي فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِيهِ، لِأَنِّي أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَقْبِضُ الْخَلْقَ فَيَمِيتُهُمْ إِذْ شَاءَ، وَيَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ إِنْ شَاءَ. وَذَلِكَ أَنْ عِبَادَةَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِرُهَا ذُو فَطْرَةٍ صَحِيحَةٍ. وَأَمَّا عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ فَيَنْكِرُهَا كُلُّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ صَحِيحٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، يَقُولُ: وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ فَيَمِيتُكُمْ عِنْدَ آجَالِكُمْ ﴿وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يَقُولُ: وَهُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمَصْدِقِينَ بِمَا جَاءَنِي مِنْ عِنْدِهِ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: "وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"، و"أَنْ أَقِمَّ" و"أَنْ" الثَّانِيَةِ عَطْفٌ عَلَى "أَنْ" الْأُولَى. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، أَقِمَّ نَفْسَكَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، ﴿حَنِيفًا﴾ مُسْتَقِيمًا عَلَيْهِ، غَيْرَ مَعُوجٍّ عَنْهُ إِلَى يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ، وَلَا عِبَادَةِ وَثْنٍ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، يَقُولُ: وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ يَشْرِكُ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ الْأَلْهَةَ وَالْأَنْدَادَ، فَتَكُونَنَّ مِنَ الْهَالِكِينَ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ: وَلَا تَدْعُ، يَا مُحَمَّد، مِنْ دُونِ مَعْبُودِكَ وَخَالِقِكَ شَيْئًا لَا يَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يَضُرُّكَ فِي دِينٍ وَلَا دُنْيَا، يَعْنِي بِذَلِكَ الْأَلْهَةَ وَالْأَصْنَامَ. يَقُولُ: لَا تَعْبُدْهَا رَاجِيًا نَفْعَهَا أَوْ خَائِفًا ضَرَّهَا، فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ "إِنْ فَعَلْتَ"، ذَلِكَ، فَدَعُوتُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، يَقُولُ: مِنَ الْمَشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الظَّالِمِي أَنْفُسِهِمْ.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن يصبك الله، يا محمد، بشدة أو بلاء، فلا كاشف لذلك إلا ربك الذي أصابك به، دون ما يعبد هؤلاء المشركون من الآلهة والأنداد ﴿وإن يردك بخير﴾، يقول: وإن يردك ربك برحاء أو نعمة وعافية وسرور ﴿فلا رادّ لفضله﴾، يقول: فلا يقدر أحدٌ إن يحول بينك وبين ذلك، ولا يردك عنه ولا يحرمكه؛ لأنه الذي بيده السراء والضراء، دون الآلهة والأوثان، ودون ما سواه ﴿يصيب به من يشاء﴾، يقول: يصيب ربك، يا محمد بالرخاء والبلاء والسراء والضراء، من يشاء ويريد ﴿من عباده وهو الغفور﴾، لذنوب من تاب وأتاب من عباده من كفره وشركه إلى الإيمان به وطاعته ﴿الرحيم﴾ بمن آمن به منهم وأطاعه، أن يعذبه بعد التوبة والإجابة.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾، يا محمد، للناس: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾، يعني: كتاب الله، فيه بيان كل ما بالناس إليه حاجة من أمر دينهم ﴿فمن اهتدى﴾، يقول: فمن استقام فسلك سبيل الحق، وصدق بما جاء من عند الله من البيان ﴿فإنما يهتدى لنفسه﴾، يقول: فإنما يستقيم على الهدى، ويسلك قصد السبيل لنفسه، فإياها يبغي الخير بفعله ذلك لا غيرها ﴿ومن ضل﴾، يقول: ومن اعوج عن الحق الذي آتاه من عند الله، وخالف دينه، وما بعث به محمداً والكتاب الذي أنزله عليه ﴿فإنما يضل عليها﴾، يقول: فإن ضلاله ذلك إنما يجني به على نفسه لا على غيرها، لأنه لا يؤخذ بذلك غيرها، ولا يورد بضلاله ذلك المهالك سوى نفسه. ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾، يقول: وما أنا عليكم بمسلط على تقويمكم، إنما أمركم إلى الله، وهو الذي يقوم من شاء منكم، وإنما أنا رسول مبلّغ أبلغكم ما أرسلت به إليكم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْضَمَ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: واتبع، يا محمد وحي الله الذي يوحى إليك، وتنزله الذي ينزله عليك، فاعمل به، واصبر على ما أصابك في الله من مشركي قومك من الأذى والمكاره، وعلى ما نالك منهم، حتى يقضي الله فيهم وفيك أمره بفعل فاضل ﴿وهو خير الحاكمين﴾، يقول: وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين. فحكم جل ثناؤه بينه وبينهم يوم بدر، وقتلهم بالسيف، وأمر نبيه ﷺ فيمن بقي منهم أن يسلك بهم سبيل من أهلك منهم، أو يتوبوا ويؤنبوا إلى طاعته، كما جاء عن بن زيد.

آخر تفسير سورة يونس

فهرس الكتاب

- ٥..... مقدمة الشيخ المؤدب أبي بكر بن محمد بن الحنبلي حفظه الله على طاعته
- ٦..... حكم الإيمان والعمل بالقرآن الكريم:
- ٧..... دلالة آيات القرآن:
- ٧..... حكم من استهان بالقرآن أو سبه:
- ١١..... ترجمة ابن جرير الطبري
- ١١..... اسمه ونسبه وكنيته:
- ١١..... ثناء العلماء عليه:
- ١٢..... شيوخه:
- ١٢..... مصنفاته:
- ١٢..... وفاته:
- ١٣..... تفسير سورة النساء
- ١٤١..... تفسير سورة المائدة
- ٢٤٦..... تفسير سورة الأنعام
- ٣٦٥..... تفسير سورة الأعراف
- ٤٥١..... تفسير سورة الأنفال
- ٤٨٨..... تفسير سورة التوبة
- ٥٥٨..... تفسير سورة يونس